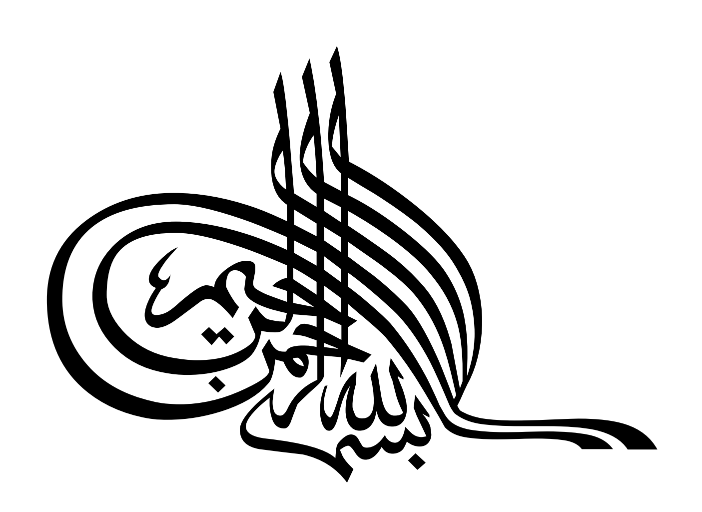
نحو مجتمع الحرية

خطوات في الطريق من التيه إلى الرشاد

تأليف د. محمد محمد بدري

دار الصفوة

د. محمد محمد بدري
نحو مجتمع الحرية
دار الصفوة


بسم الله الرحمن الرحيم

المُحتَويات

إهداء

إلى والديّ ..

اللّذين حبّبا إليّ الإسلام وربياني على تعَشق الحرية

إلى أساتذتي ..

الذين جعلوا محياهم ومماتهم خطوات في سبيل الرشاد

إلى كل إنسان ..

يقلّب وجهه في السماء ، ويسعى في الأرض نحو مجتمع الحرية

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،

أمّا بعـد:

فهذا كتاب شرعت في تأليفه منذ سبعة أعوام ، وما أن استجمعت له في نفسي العناصر الضرورية لإتمامه ، حتى أوقفني ظرف مفاجئ ، لا مجال لروايته خاصة في مقدمة كتاب ، إنما يكفي أن أقول أنه ظرف يتعلق بالصراع من أجل الحرية ، وأنه اضطرني إلى إعادة ترتيب بعض أفكاري والعزم على تأجيل البحث في موضوع الكتاب .. وحين هدأ عقلي بعد الكثير من المخاطر والشقاء عزمت على العودة إلى البحث مرة أخرى ، وكان قد مرّ عامان، ووجدت نفسي أؤجل العمل يوماً بعد يوم .. ربما لأني كنت أدرك حين قررت العودة مقدار الصعوبة في الرجوع إلي البحث من جديد ..!!

نعم .. لقد وجدت كلماتي بعينها ، وأفكاري ذاتها ، لكني حينما حاولت أن أجمعها ، اكتشفت أني أكتب من جديد ، في إطار فقط من نقاط إرشاد ، أو علامات تعين على الاهتداء إلى العناصر الكامنة في نفسي ، فهممت أن أتركها ، وأكتفي بالذكرى .. ولكني وجدت فكرة البحث لا تفارق كياني ، لا أستطيع تجاهلها ، ولا أقدر على مواصلة الحياة مع استبعادها ؛ فقررت متابعة القراءة ، وإعطاء القضية مزيداً من التفكير ، ليقيني بأن البحث عن الحقيقة لن يكون خطأ أبداً ، وإنما الخطأ هو الافتقار إلى الشجاعة للسير إلى حيث تقود تلك الحقيقة .!!

وبدأت البحث من جديد .. بحثت لفترة طويلة كنت فيها كصريع من ظمأ الفكرة يبحث عن نقطة من ماء التجارب ليروي بها صحراء جهله .. أقرأ أكثر المؤلفات مرة وثانية ، وثالثة في بعض الأحيان دون أن أجد في ذلك كلفة ، أوينقص التكرار شيئاً من متعتي بالقراءة لأنني كنت أفهم في الثانية ما يبهم عليّ في الأولي ، وأنفذ في الثالثة إلي ما يغيب عني في الثانية ..

لقد كنت أدرك أن بعض الأفكار كالصيد الكسيح يطالها كل ذي قلم ، وبعض الأفكار كالغزال الشرود تبصره ، وبالكاد تصيده .. وكانت فكرة " ميلاد مجتمع الحرية " تتحرك أمام عيني ، أدقق فيها

النظر وبالكاد أراها ، فأطاردها وأحاول اقتناصها ، وأشعر بها تهرب مني ، فتختبئ ، وأحاول اكتشاف مكانها ، ولا أزال أتتبعها حتى أبصرها . بعون الله . وأمسك بها .. وبقيت على هذه الحال أبحث بجدٍ لا يفارقني الإصرار ليل نهار ، عن خيط يمكن أن يقودني . بتوفيق الله . " من التيه إلي الرشاد " ، ويدفع بأفكاري إلى الخطوات الأولى " نحو مجتمع الحرية "..

ومنّ الله عليّ ، فانصهرت مكونات هذه الأفكار بنار تلك المعاناة التي كنت أشعر معها وكأني أدفع الأعداء بيدي المنفردة .. فكانت أيام البحث . مع صعوبتها . من أفضل أيام حياتي ..!! بل إنني نسيت أثناء البحث غربتي من خلال التفاعل مع الأفكار الموجودة في الواقع ، والمدونة في بطون الكتب ، فأخذت أجمع هذه الكنوز لكي تكون في متناول كل غيور على الإنسان ، كل الإنسان ، في الأرض كل الأرض ..

وبقيت على هذه الحال سنوات تشعبت فيها النقاط الأساسية من هذا البحث حتى استوت . بتوفيق من الله . في صورة شبكة مترابطة من الأفكار ، أحاول من خلالها الوصف ، والتحليل النفسي الدقيق للواقع ، واستخدام ذلك لتغيير ما بالأنفس ، ليغيّر لله ما بها .. كل ذلك من خلال خطوات يتوحد فيها الفكر والممارسة ، والتنظير وتغيير الواقع ، لبيان أزمة الحرية التي يعيشها الإنسان في العالم أجمع ، وتوضيح أسباب حدوثها ، وطرح تصور لكيفية الخلاص منها ..

ولقد انطلقت في هذا الطرح من الإسلام كقاعدة فكرية تُعنى بتحرير الإنسانية جمعاء ، وترتقي إلى مستوى الأحداث الإنسانية ، وترفع الوعي إلى المدى العالمي الكاشف لقوانين الكون والحياة ، لترى سنة الله وهي تعمل فى الوجود الإنساني ..

ولأن تمكين الإنسان من قراءة العالم بشكل نقدي هو تحد كبير وممارسة غير مريحة لأولئك الذين يؤسسون قوتهم على سذاجة من يمكن استغلالهم من خلال ما يمكن أن نطلق عليه " صناعة الرِق " التى تبيح المتاجرة بكل القيم، وتسهّل أخلاق السراديب المظلمة ..!! فقد كان ..

• الباب الأول : قافلة الرقيق

والذي حاولت من خلاله توضيح النقطة التي تقف البشرية عندها اليوم ، لنعرف تلك التي نريد الوصولَ إليها .. وأكدت أنه بينما يملأ الحديث عن الحرية كل دنيانا ، و يلهج بذكرها العوام والخواص .. بل ويقيمون لها التماثيل والنُصب ، ويهيمون فى حبها أدباً وفناً ..!! إلا أن من يرَ البشرية من خلال "

واقعه " وليس من خلال " أمانيه"، لا بد له أن يدرك أن الناس يتحركون بسرعة إلى أهداف أُعدت لهم سلفاً وخُطط لها تخطيطاً كاملاً ، فهم فى ذلك أشبه بالأدوات التى توضع على السير المتحرك فى المصانع ، فتتحرك فى الاتجاه المرسوم لها دون أن تعلم لماذا تتحرك ؟ وكيف ؟!!

ولا شك أن إدراك هذا الواقع " المتاهة " ، هو المقدمة الصحيحة إلي طرح البديل الذى يملك وضوح الرؤية ، ويقوم على سلامة المنطلقات والأهداف .. ومن ثم كان ..

.الفصل الأول : في دنيا العبيد

والذي أكدت فيه أنه في العالم الغربي الذي يزعم أن الحريّة تظلل حياته .. يشهد واقعه أنه لا تزال فئة قليلة هي التى تتحكم فى كل شىء ، وأنها بجاهها ومكرها وأموالها تصنع الأحزاب وتوجه الرأي العام وتحدد من يفوز فى الانتخابات ، وتلهي الشعب بحريّة الفوضى الخلقية والفكرية ، فلا يفيق من سكره أبداً ..!!

ويحدث كل ذلك من خلال ما يمكن أن نطلق عليه " صناعة الموافقة " حيث تقوم مجموعة صغيرة من الأقوياء بأخذ القرارات ، بينما باقي الشعب هم من جمهور النظارة ، الذين يتم إجبارهم على الموافقة عن طريق التحكم في عقولهم وتنظيمها ..

وأوضحت .. كيف تحولت الحرية هناك إلى غطاء مقنّع للسيطرة على الإنسان ، من خلال تغيير الاهتمامات ، وإعادة تشكيل الهويات . ثم ترك حرية الاختيار للجماهير التي مهما تنوعت خياراتها ؛ فإنها فى النهاية ستعبّر عن رغبات السادة ، الذين تم تغيير نمط تفكير الجماهير ليوافق ما يريدون .. ومن ثم فقد الإنسان " الحرية " من قبل أن يمارسها ؛ لأن عقله قد تم تدريبه وصياغته لكي يختار وفق رغبات السادة ، وليس رغبات الإنسان !!

إن القرار فى العالم " الحر " تصوغه القوى الخفية المتحكمة من وراء الستار من رجال المصالح النافذين ، ورجال الأعمال المتنفذين ، ثم يعلنه الممثلون على المسرح باسم الشعب الغارق فى لهثه وراء الرزق ، وفى أمواج الشهوات ، ولهيب الجنس مجرداً من أي قيم أو مثل ، نابعاً من المصالح المادية وحدها..

وإذا أنكر البعض هذا الكلام ، فأنا أدعوه إلى نظرة فى واقع تلك الشعوب ليري شواهد هذا الأمر بشكل واضح جداً .. وليدرك دون لبس أو غموض أو إيهام ، أنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم خياراً ..

وإن أتيح لهم قدراً من التحرر النسبي، وقدراً من الخير النسبي .. حرية التنقل .. حرية العمل .. حرية الاجتماع .. حرية الكلام .. حرية الصحافة .. ضمانات الاتهام .. وضمانات التحقيق .. وضمانات القضاء..!! ذلك أن هذا التوجيه الإيحائي الذى يستخدمه قادة العالم " الحر " ، يحقق ما يحققه التوجيه المباشر الذى يمارس فى ظل غيبة الحرية .

إن قادة هذا العالم " الحر " قد أسقطوا من حساباتهم كل القيم الأخلاقية ، واختاروا مسارات توجهها " قيّم" الخداع والنفعية والتحايل والبطش والسيطرة والاستغلال والابتزاز .. وأصبحت هذه " القيم " غير مستنكرة من الناس بسبب شيوعها علي هذه المستويات القيادية .. و تلك ظاهرة لو أخذناها علي محمل الجد . ولابد أن نأخذها كذلك . لعرفنا أن البشرية كلها تقف على حافة هاوية سحيقة من العبودية والتخلف ..!!

وإن كانت هذه هي حال الإنسان في مجتمعات ما يسمي بـ " العالم الحر " ؛ فإن حاله في غيرها من المجتمعات لا يحتاج إلى بيان ، حيث لا يتمتع بأية حصانة ، فى مجتمع تفوح منه رائحة الذلة ، ليس عنده قوت يومه ، وغير آمن على عياله ، ولا يعرف ماذا يحمل له المستقبل من هموم ، بل لا يمر عليه يوم إلا والذى بعده أشرّ منه ..!!

إن مقياس التخلف أو التحضر هو فى مدى الحرية التى تقف وراء التجمع الانساني .ذلك أن الحرية تقتضي الفكر . والفكر يمثل أخص خصائص الانسان . والانسان إذا كان لا يستطيع شيئاً ازاء لونه أو جنسه ، لأن ذلك خارج عن نطاقه إرادته ، فإنه يستطيع أن يغيّر معتقده ونمط حياته . لذا فإن المجتمع الذى يولي أخص خصائص الانسان الأهمية القصوى يكون مجتمعاً متحضراً .. وأمّا غيره فإنه يكون مجتمعاً من العبيد .. وهذا ما حاولنا إيضاحه من خلال :

.الفصل الثاني : مجتمع الحضارة الأسيرة

حيث حاولنا القيام بحفريات فى " بنية " الحضارة الغربية بمعاول الإسلام ، وفى محيط أفكارنا الإسلامية ، في طلب لـ " الحكمة " التي هي ضالة المؤمن ، ومحاولة للإمساك بـ " الميزان " الذي يميّز الزبد مما ينفع الناس .. ومن ثم الوصول إلي تغيير يعصم البشرية من تدمير " الإنسان " وتحويله إلي " شيء " في ظل " حضارة " لم تعد تعرف شيئاً من الخير للإنسانية ، وتحاول من خلال القوة أن تجعل صورة الإنسان

الذي رسمته هي " المثال " الإنساني الذي يجب النسج علي منواله .. بينما هو لا يعدو أن يكون لوناً من " السراب " الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً !!

وأمّا المجتمعات التي تحوي هذا " السراب الإنساني " ، فهي مجتمعات " الأكذوبة الحضارية " ، لأن الحضارة الحقة هي التي ترتفع " بالإنسان " في كيانه كله ، و في " كافة " مجالات حياته .. وتلك مجتمعات يشيع فيها الرق النفسي والفكري ، وتلغى كرامة الانسان !! .. حيث يركض كالعبد خلف متطلبات الحياة الاستهلاكية ، ورأسه مشغول كحاسبة ملآنة بالأرقام والمواعيد والتفاصيل ، وقلبه مربوط بأقساط سيظل يسدد فيها طيلة عمره ، ويده مغلولة بسلاسل تشده كما تشد القطيع الراكض معه ، وعنقه مرهون عند بائع العقارات ، ورئتاه موصولتان ببوصلة التذبذب واللا استقرار .. وروحه هناك مطبوعة على بطاقة " الكريديت كارت " .. لا وزن لإنسانيته ، ولا قيمة لكرامته ..يقاسي عذاباً قاتلاً ، وقلقاً مدمراً وفساداً كبيراً تحت وطأة " حضارة " جافة إيمانياً كشجرة بلا لحاء .. فهي متخشبة وإن طليت بماء الذهب!!

نعم .. قد تتيح تلك المجتمعات للإنسان قدراً من " الحرية " ، و " حقوق الإنسان " . فيما يبدو لمن عجز عن إدراك الحقيقة .. حقيقة أن اليد التي تمنح الحرية هناك ، هي نفسها التي تمنعها هنا ، وأن القانون الذي يحفظ "حقوق الإنسان" هناك هو ذاته الذي يقبل . بل يمارس . انتهاكها هنا .. وأن تلك المجتمعات تقوم علي القوة والصراع ، وتسلط الإنسان علي الإنسان ..فهي مجتمعات جباية ، وحقد ، وعدوان ، ولو بدت علي غير ذلك ، بسبب التضليل الإعلامي ..

إن تلك المجتمعات تجعل من مشعل الحضارة " فتيلاً " يحرق بدل أن يضيء ، وفي ضوء ما تشعل من نار ، تشيع الفوضى والظلم في أجزاء الأرض ، وتعالج المشكلات بقطع الرؤوس بدل ترشيدها وهدايتها، وتسعي دائماً لإقامة إمبراطورية الشر الأسطوري التي تجعل الدنيا مرتعاً خصباً للنهب والسلب ، وتجعل الناس عبيداً لهم ، لا يأكلون إلا مما يقدمونه لهم ، ولا يلبسون إلا ما يلبسوهم إياه ، ولا يدرسون إلا ما يدرسوهم ، ولا يطلبون العلم إلا من مناهلهم !!

وأحسب . والله أعلم . أن هذه الكلمات هي لون من ألوان السباحة ضد التيار ، وأن من سيتوقفون أمامها هم القليل من أصحاب العقول الأكثر تفتحاً وفهماً .. الذين يدركون أن طبيعة الأشواق تحدد طبيعة الحضارة ، وأن عملية بث الأشواق في روح الإنسان مشيد الحضارات عملية هامة تحتاج إلي علم بها وصبر عليها ورعاية لها ، و أن من يحاول التغيير ، لا بد له أن يعلم مقدار الفكر والفهم الذي يحمله

من يُرِد تغييرهم ، وأن يقرأ نفسياتهم وعقلياتهم ، ويغوص في أعماقها ؛ ومن ثم فقد مسّت الحاجة أن يكون :

• الباب الثاني : ثقافة التيه

وهو باب تأسس علي رؤية واقعية للنفس المستعبَدة في وضعها الحالي .. يحاول أن يري الوجه الخفي لها من خلف الدفاعات المعلنة و الأقنعة الساترة و الخادعة ، ويهدف إلى الانتقال بها إلي وضع أفضل .. من خلال دراسة في علم النفس السياسي نأمل أن تكون لبنة في الأساس تلحقها دراسات أخري تقويها أو تطورها أو تعدلها أو تعلو فوقها ..

و القيمة الأساسية – فى نظرنا – لهذه المحاولة هي في شق طريق البحث النفساني فى مسألة الاستعباد ، و إدخال تنظيم مبدئي لما كان يبدو عشوائياً في تصرفات الإنسان المستعبد وممارساته ، وجمع هذه الجزئيات في كل مترابط نمتلك من خلاله علماً حقيقياً ينطلق من النفوس ، وممارسات الحياة اليومية ؛ فندرك الصورة علي ما هي عليه ، ونعبّر عنها علي نحو منصف ، ونضع أفكارنا وأعمالنا في الإطار السليم الذي ينبغي أن نضعها فيه في طريقنا العملي نحو تحرير الإنسان ..

ولأنه من الأفضل أن نرى واقعنا فى أشعة الشمس الواضحة ، والتى قد تكون محرقة .. بدلاً من أن يبقي تحت الأشعة فوق البنفسجية ، التى لا تُرى ، ولكنها قاتلة ..!! .. فإننا نؤكد أننا لن نعبر إلى " حريتنا المفقودة " إلا عبر جرأتنا على مواجهة " عبوديتنا المختارة " .. ومن ثم كان :

.الفصل الأول: العبودية المختارة

والذي حاولنا فيه أن " نقبض " بالفكر – إن صح التعبير . علي مأساة الاستعباد فى حياتنا وإدراك جذور عبوديتنا ، و الإجابة علي تساؤلات كثيرة حول تلك المأساة ، مثل : لماذا يحتمل الناس طاغية لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ، ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه ؟ .. ولماذا يتحول الإنسان إلي كائن مسخ يتقن الكذب والتمثيل ؟ .. ولماذا لا يري عيباً فى عبوديته ، ويشعر أنها طوق يستحيل كسره .. بل ربما رأي التحرر انتحاراً ؟! .. إلي غيرها من التساؤلات التي لا بد من الإجابة عنها ، حتى لا نظن أننا بذلنا غاية الجهد فى سبيل التحرر من العبودية ، بينما نحن لم نتجاوز مجرد الحديث عنها ، وإدمان الشكوي من واقعها الأليم ..!!

حاولنا الإجابة علي تلك التساؤلات عبر تسليط أضواء البحث العلمي الجاد علي " الاستعباد " من جانبه النفسي والتربوي .. ولقد كشفت لنا أضواء البحث أن سبب ذلك المرض هو ما يمكن أن نطلق عليه " مركب العبودية التربوية " ؛ فالمربون " يضطرهم " الاستبداد إلي الكذب والنفاق والتذلل ، و" يدعوهم " الخوف إلى تربية الأبناء علي العبودية للمستبدين ، و " يأمرهم " الهوان أن يكونوا هم ومن يربونهم زيادة في مملكة الاستبداد ، فيتهافتون على الرق والخِدمة ، ويضعون بأنفسهم الأغلال فى أعناقهم والسلاسل فى أقدامهم ، ويلبسون شارة العبودية فى مباهاة واختيال ..!!

ويتم ذلك من خلال " الترويض " الذي يهيىء تربة المجتمع لاستنبات بذور الاستعباد ، و يميّع النفوس فى سوائل ومحاليل الاستكبار التي تشبه إلى حد كبير ما يزعمه السحرة من محاليل تحوّل التراب إلى ذهب ..!! ولكنها هذه المرة تحوّل الذهب الإنساني إلى تراب عديم الفائدة ، لا يقدر علي شيء إلا " امتصاص " العبودية من كل واقع إستبدادي ؛ لأنه يعاني في داخله من " القابلية للاستعباد " التي تنشيء في النفوس أخلاقيات الضعف والخوف ، وممارسات الانعزال في دائرة الهموم الفردية ؛ فيفقد الإنسان الطموح إلي الحرية ، و يهرب من تضحيات التحرر بإلقاء هذا " الحِمل " علي السلطة المستبدة ليرتاح .. و يكون ثمن هذه الراحة هو " حياة الأغلال " التي يرى الإنسان من خلالها أن التحرر تمردًا ، والاستعلاء شذوذًا ، والعزة جريمة ، ومن ثم يصب نقمته الجامحة على الأحرار ، الذين لا يسيرون فى قافلة الرقيق .. التي تجري وراء من استغني عنها ، وتطلب محبة من ترفع عليها ..

ولا شك أن أكثر ما يؤلم في هذه الحياة .. حياة الأغلال .. أننا شاركنا فى حفر فخها بأنفسنا ، وبحماس منقطع النظير .. فكلنا يتحمل جزءاً من المسؤولية ؛ فأعداؤنا لم يجرُّ–ُونا إلى نفق العبودية جراً ، بل إننا أحياناً ركضنا إليه ، وشاركنا فى حفره وبنائه فى أحيان أخرى .. وفى جر الآخرين إلى غياباته فى معظم الأوقات ..!! فهل نحن واعون لنقائصنا ، ولكننا نتعايش معها .. أم أننا ألفنا ظلام العبودية فلم نعد نرغب في نور الحرية ؟!!

إن الحقيقة المرّة أننا لا زلنا نصنع آلهتنا ، ولكنها ليست من تَمر نأكله حين يعضُّنا الجوع ، وإنما هي من لحم ودم ، نركع تحت أقدامها ، و نتجادل . وبكل صفاقة . أيها أقلُّ سوءاً ؟! .. وكأن الأفضلية عندنا لها حدٌّ خاص قِمَّتُه الصفر ، وقياساته تحت الصفر ..!!

إنه لا يوجد شيء يبرر الحط من مكانة البشر ، و لا يبرر البؤس ولقمة العيش الاستسلام للعبودية .. بل من حق البؤساء التمرد في وجه الانتهاك الإنساني الذي كانوا ضحاياه المعذبين طويلاً .. لأنهم إن لم

يقوموا بذلك فسيدخلون في حالة الإحباط وعدم الفعالية ، ومن ثم لا يستطيعون تقديم الشهادة العملية للحرية ، ولا البقاء في ميدان الصراع من أجلها دون استسلام .. ليس لأنهم مكبلون بأغلال الحديد ، وإنما لأنهم مكبلون بفقدان المبادأة والمقاومة ..

إننا فى جنازة الحريّة كنا المعزين ، وكنا الموتى فى الوقت ذاته .. و عند حافة المقصلة كانت رقابنا ممدودة، وكانت أيدينا هي التى وضعتها هناك .. فكنا القتلى ، وكنا القاتلين .. كنا الجلاد ، وكنا الضحايا فى الوقت نفسه .. لقد كنّا على أقل تقدير شركاء فى تلك الجريمة التى أودت بحريتنا ..

ولا شك أن النفس تلعب دوراً حاسماً فيما وصلنا إليه من واقع أليم ؛ ولذلك فقد كان من الضروري جدا أن تكون هناك وقفة عند النفس المستعبدة .. هذه النفس التى تتصف ببعض الخصائص التى تجعل رؤيتها للواقع سطحية ، عاجزة عن الغوص فيه والسيطرة عليه ، ومن ثم فإنها تخلق العقبات التي تعرقل خطط التغيير التى يكون منطلقها هو التقدير الصحيح والعميق للواقع ، بل إنها قد تعطي المبررات الذهنية لمقاومة التغيير !! ومن هنا كان :

ـ الفصل الثاني : النفس المستعبَدة

وهو مرصد نقدي لسلوكيات النفس المستعبدة ، وأخلاق العبيد .. حلوها ومرها ... وإن كانت المرارة تطفو علي سطح الأسطر وتملأ حواشي الصفحات . . فلا يعني هذا أننا ندعو لليأس ، وإنما نحاول الرصد الصادق الذي يقوم على الملاحظة والتحليل النفسي والاجتماعي للظواهر التى نعيشها .. لكتابة نوع من المدخل إلى علم نفس الاستعباد والتخلف .

و هذه المحاولة بما يعتورها من بعض الثغرات ، تطمح إلى فتح الطريق أمام أبحاث نفسية ميدانية ، تحاول فهم الإنسان المستبعد بنوعيته وخصوصية وضعه ، وبشكل حي وواقعي ، ثم رسم صورة تعرض بعض الخصائص الأساسية لهذا الإنسان وأسبابها ، وتوضح كل منها ، وتبين الرابطة بينها .. لندرك جميعاً الخصائص النفسية للإنسان المستعبد ، والتي تشكّل عقبات في وجه التغيير الاجتماعي ، وتكوّن كابحاً لمشاريع التغيير .. ذلك أنه من المحال أن يتحرر بدن يحمل عقلاً عبداً !!

وإذا كنا نسعي لتحرير المجتمع ، فيجب ألا نضع حجراً في بناء حتي ننبش الأرض أولاً ، ونطهرها جيداً ، ولقد أرادنا بهذه المحاولة أن نصنع شيئاً من ذلك ، واخترنا منطقة شديدة الوعورة للبدء ، وهي

منطقة النفس والأخلاق ..لأن المجتمع إذا زاغت أخلاقه ، زاغ معها فهمه وتلعثم إدراكه ووقع في براثن الخوف ، وفقد الرغبة في استشراف الحقيقة ، والشجاعة في تقبلها.

لقد تبين من خلال هذه المحاولة أن مجتمع العبيد يقوم في الأساس علي فكرة " المصلحة " وتحقيق أكبر نصيب من المتع الحسية دون الاعتبار للقيم ، ومن ثم فهو يعتبر أن الطموح ، وشهوة القوة ، والمصلحة الذاتية ، والانغماس في الشهوات والتكبر ، والانتقام هي الصفات التي يجب أن تُحترم !! .. فيكون له مفهومه الخاص للسعادة ، ومفهومه الخاص للحب والبغض ، ومفهومه الخاص للنجاح والفشل ، ومفهومه الخاص للاستقامة والانحراف ، والصواب والخطأ .. وهذه المفاهيم هي التي تقرر سلوكيات العبيد !!

و إذا أردت أن تتيقن من ذلك فدونك وقف على الكيفية التى يعيش بها الفرد فى بيته ، وكيف يتصرف مع زوجته وأولاده ؟ .. وكيف يتعامل مع السلطات التى تحكمه , بل كيف يتعامل مع الخدم إن كان لديه خدماً ؟

فهذه الأمور الحياتية هي التى توضح لك طبيعة هذا الإنسان وحقيقته .!!

إن العبيد يتعاملون مع كل صاحب سلطة بالخضوع والخنوع والاستسلام ، ويرون أنهم غير جديرين بالحياة الكريمة ، ويرضون بالفتات الذي يُلقي إليهم من يد السيد صاحب السلطة والسطوة .. وشيئاً فشيئاً تذوب الكرامة ، وتنمحي النخوة والعزة والرجولة ، وتسود صفات الانتهازية والنذالة والجبن والتسول المهين ..!!

ذلك أن الفرد بادئ ذي بدء يخضع للإستبداد ويستسلم له ، وقلبه غير مطمئن به ، ثم يأخذ قلبه في الاستئناس به يوماً بعد يوم حتى يطمئن به ، ويحس من نفسه ميلاً وتشوقاً إليه .. وهكذا يتدرج في الركون إليه والاستئناس به إلي أن يكون عوناً له ومؤازراً في توطيد دعائمه ، بل حتى يأتي عليه اليوم الذي لا يضن فيه ببذل النفس والمال في سبيل إقامة صرحه !!

ولأن العبيد يؤمنون بالحلول المفاجئة ؛ فإنهم يصبرون في انتظار الفرج بلا عمل جاد ، وينظرون إلى مآسي واقعهم على أنها " أزمة وتعدي " ؟!! ، ومهما كانت قسوة "الأزمة " أمام عيونهم فإنهم يظلون في انتظار حدوث المعجزة وظهور " الزعيم المخلّص " فإن ظهر ؛ انقادوا وراءه لينقذهم من واقعهم " المأساة " بشعاراته القوية .. بل وتدفعهم هذه " الشعارات " لتقديم التضحية والولاء والطاعة للزعيم

المغوار " الصنم " من أجل أن يغدق عليهم بالمزيد من الوعود والشعارات الكاذبة لتخفف عنهم وطأة الذل والخزي والمهانة الناخرة لذواتهم !!

وهكذا تظهر بين الحين والآخر في حياة العبيد بعض " المفاتيح السحرية " في صورة شعارات تعطي الغريق طوق النجاة ، وتقوم بالتنفيس عن آلام العبيد ، وتعطيهم آمالاً خادعة في المستقبل ، فهي أشبه بإعطاء المخدر دون إجراء أي عمليات جراحية لتصحيح المسار ..!!

ولا يعني هذا بالطبع أن مجتمع العبيد مجتمع ساكن جامد .. بل هناك انتفاضات ومحاولات تغييرية تبرز من آن لآخر ..ولكنها تطمس بسرعة نظراً لشدة قوى القمع .. ولأن من يعيشون أجواء القهر يحاولون التوفيق بين التطلع إلى الحريّة العميق فى النفوس من ناحية ، وبين خبرات الحياة اليومية التى تصدم مشاعرهم وعقولهم ، ويصعب عليهم تجاهلها والاستهانة بها .. وهم يحاولون الخروج من هذا المأزق بالرجوع إلى صورة " القدرية " أو " الجبرية " .. فالمستبدون مقهورون على ما يفعلون بالمستعبَدين..!! والمستعبَدون يجب أن يرضخوا لقدر الله !!!!

وهكذا تبقي لدى العبيد رغبة دائمة فى تبرير الواقع ، وتنزيه الذات ، وتشويه الحقيقة بما يخدع الناظر لأول وهلة ، وهم دائمي البحث عن كبش الفداء ، وتلمس العذر للمهانات التى تصيبهم . ومن ثم تكون الأسطورة عندهم أعمق أثراً من الوثيقة التاريخية .. والبدعة التى اختلطت بالدين أقوى من الدين نفسه ، بل إن ذكرى حادثة قديمة قد تكون عندهم أضخم بكثير من الحادثة نفسها ..!!

إن ظاهرة الاستبداد لن تزول في الواقع إلا حين تزول نفسياً من نفوس المستعبدين حين ينضجوا ويتحرروا نفسياً ويرغبون في استرداد وعيهم وكرامتهم وإرادتهم التي سلموها طوعاً أو كرهاً للمستبد ، حينئذ فقط تضعف منظومة الاستبداد حتي تنطفئ ، وليس هناك طريق غير هذا إذ لا يعقل أن يتخلي المستبد طواعية عن مكاسبه من الاستبداد . و قد أثبتت خبرات التاريخ أن الحرية لا تمنح وإنما تسترد وتكتسب .

إن أزمة الحرية ليست مجرد نظم إستبدادية ، أو قوانين استثنائية ، أو إعتقالات وسجون وأجهزة أمن وتجسس .. بل تمتد جذورها إلي النفس الإنسانية ، والبيئة الاجتماعية ؛ ولذلك ينبغي على فقه التغيير أن يقرأ النفس المستعبَدة وما تنتجه من فكر ووسلوكيات تقوي شوكة المستبِد ، وتضفي عليها هالة من القضائية والقدرية التي تشعر الانسان بطبيعية المسألة فيسلم ليد الغيب التي هي في الواقع يد السلطان ليس غير !!

وحتي لا تبقى هذه هي حال العبيد .. وحتى لايبقون على نومهم ، بينما ديارهم مهددة من النوافذ والأبواب ، والهجوم يتجه إلى الأطراف والقلب معاً ، والهاجمون تراودهم الأمانيّ أنهم هذه المرة منتصرون ، وأن حظهم سيكون أفضل من حظوظ آبائهم الأقدمين ..!!

وحتي لا تبقي محاولاتهم للتحرر تشبه أعمال طائفة من الرسامين الذين خامرهم النوم ، وأيديهم مازالت تحرك أقلامهم محاولة رسم بناء ، بينما تحاول أيدٍ أخري هدمه من الأساس لتصوغ من أهدافهم النبيلة سخرية متوحشة ... فقد وجدنا من الضروري أن يكون :

• الباب الثالث :المتلاعبون بالعقول

وهو محاولة تقدم بياناً على قدر الحاجة ، بعيداً عن تخمة الإسراف ، و مخمصة التقتير .. تتحدث بلسان الداعية ، وتؤكد الأفكار بعقل السياسي .. تنظر لواقعنا المعاش ، و تجربة العصر ، و توقعاته وإحباطاته ، وانتصاراته وهزائمه .. وتؤكد أن هذا الواقع يصب الماضي فيه باعتباره ذاكرة ، ويصب المستقبل فيه باعتباره أملاً ..

قد لا يشعر القاريء أن هذا الباب قد كشف له عن وقائع لم يكن يعرفها أو أحداث كان يجهلها، ولكنه ربما شعر أنه قد أعيد تصنيف الأشياء والظواهر وترتيب أهميتها علي نهج جديد ، بحيث تتعدل لديه الأوزان النسبية بين الظواهر والحقائق ، فيصير أَحدَ بصراً ، وأدق ميزاناً ، وأقدر علي التمييز للواقع الذي يحرّك العبيد في سعيهم وكدهم وتفاهمهم .. ويرى دون لبس أو غموض أو إيهام كيف يصرفهم الإعلام عن صميم المشكلات ، ويطمس الحقائق و يختلق البدائل ، ويزينها في أعينهم ، لتغيير قناعاتهم .. فتروج سوق النفاق ، وازدواج المعايير فيما يشبه السحر الجماعي الذي يتم تحقيقه بالمثابرة على تكرار الفكرة ربما للمرة المليون ، وسط ميدان كثرت فيه ألاعيب السحرة ، وغابت عنه عصا موسى ..!!

ولأن هذا الواقع له قانونه الخاص الذي لا يمكن معرفته إلا بالغوص فيه ، ومعرفة مكوناته .. ولأن واقعنا قد تحوّل إلى ما يشبه مياه المحيط التى كلما تعمقت فيها ، كلما ازدادت ظلاماً ، وازداد ضغطها على جسمك وعقلك ، حتى تفقد ولو للحظات قدرتك على فهم ما يحدث أو حتى تفهمه ..!!

لذلك كله لم يعد يجدي أن نقوم بتغطية هذا الواقع بطبقة رقيقة من الخطابة أو المعارضة العلنية أو السرية ، أو الهجرة خارج الأوطان أو داخلها ، أو اليأس والإحباط والتوقف في المكان .. بل الواجب تحليل مكوناته وتفاعلاته الداخلية وميزان قواه ؛ فقد كان :

ـ الفصل الأول : فقه الواقع

والذي أكدنا من خلاله أنَّ وعي الواقعِ هو المقدمة الصحيحة لتغييره .. وأنه كلما زاد الوعي قل الانحراف ، ويبقي الانحراف ما قلّ الوعي أو تلاشي ، ولذلك نرى المستبدين يُركِّزون على سَلْب الوعي والإدراك من المستعبَدين ، حتي يفقدوهم الإحساس بالوقع الاجتماعي ، فلا يكترثون بظلم ولا بعدل ، بل ربما لا يفرقون بينهما .. وتصبح محاولاتهم للتغيير .إن حاولوا .بلا فاعلية ؛ لأنها تكون منفصلة عن إطارها الاجتماعي ، فتكون المواقف مجرد ردود فعل لما يرسمه المستبدون ، ويكون أسلوب العمل والعلاج عشوائياً خاطئاً كمن يداوي بالكي رجلاً من خشب .!!

إن الاستبداد يمارس مع المستعبَدين لعبة مصارعة الثيران ، والتي يلوح فيها المصارع بقطعة قماش أحمر أمام ثور هائج في حلبة الصراع، فيزداد هيجانه بذلك ، وبدلاً من أن يهجم علي المصارع يستمر في الهجوم علي المنديل الأحمر الذي يلوح به حتى تنتهك قواه !!

فالاستبداد يلوح في مناسبات معينة ، بشيء يثير غضب المستعبَدين ، ليغرقهم في حالة شبيهة بالحالة التنويمية التي يفقد معها الإنسان شعوره ويصبح عاجزاً عن إدراك موقفه ، وعن الحكم عليه حكماً صحيحاً ، فيوجه ضرباته وإمكانياته توجيهاً أعمي ، ويسرف من قواه دون أن يصيب بضربة صادقة المصارع الذي يلوح بالمنديل الأحمر... و يستمر الاستبداد في التلويح بالمنديل الأحمر ، حتى لا تكون للعبيد فرصة يتداركون أمورهم ، وينظرون إلي مشكلاتهم بمنطق الفعالية ..

إن فقيه التغيير لا بد له من خارطة تضاريس الواقع الذي يحيط به إجتماعيا وسياسياً ، لتحديد مساره بدقة ، وذلك من خلال معرفة مستمرة ومتجددة بهذا الواقع ، يقوم فيها الفقيه بين وقت وآخر بنوع من الحساب والمراجعة والتثبت بالحذف والإضافة حيال زمن يتغير ، وواقع يتبدل باستمرار ، وإلا سيكتشف أنه قد توقف فى إحدي محطات الماضي فى الحكم على واقعه ، وأن تصرفاته بعيدة كل البعد عن الزمن الذي يحيا فيه العالم ، ومن خلاله يُصاغ مستقبل البشرية .!!

ومن هنا ، فإن الفقيه الذي نحتاجه هو الفقيه القادر علي التحرك وسط سائر الظروف ، بكل جزء من المعرفة يكتسبه ، ويتفاعل به مع ما يستجد حوله تفاعلاً حياً يُصلْح الخطأ ويجعله مصدراً للخبرة ، وينَمي الكفاءة ويجعلها سبيلاً لابتكار وسائل التغيير المتجددة .. وليس ذلك الفقيه الذي نرى في واقعه أن القصد قد غاب ، والهدف قد غام ، ولم يعد فكره يصب في الواقع فضلاً عن أن يحركه ، بل انعزل وطار

فوقه ، ولم يعد مؤثراً في شيء .. ومن ثم تحول فكره إلى غطاء للواقع أكثر منه مرآة تعكسه أو مبضعاً يشرحه !!

إن غبار المعركة بين الحق والباطل مازال مثاراً ، وجلجلة سلاح الفكر بينهما مسموعة .. يصطرعان ، ولا يلتقيان .. جموع الباطل يحدوها الزيف والمكر فى غالب الأحوال ، وإن حملت أحياناً شكلاً من أشكال الموضوعية .. و جموع الحق تتزاحم أقدامهم على بوابات الخروج من نفق العبودية .. وليس من سبيل للخروج من ظلمات هذا النفق إلا باب " فقه الواقع " وعبر " الوعي " بما نحياه ..

ولذلك فإننا نحتاج في هذا الواقع ى أن نلاحظ بعناية ، وأن نقارن بدقة ، وأن نستنتج بعمق ، و أن نلتفت إلى كل دقائق هذا الواقع حتى ما يمكن أن يرى البعض أنه حركات بريئة ، وأن نحرر عقولنا ومشاعرنا من أن نصدق مقولات الآخرين دون أن نتغلغل فيما يعتقدون .. بل لا بد أن تخضع كل الملاحظات للتحليل المستمر ، والتحاور حول كل دقيقة فيها ، مع التحقق من معطياتها .. حتي لا يهزمنا أعداءنا من خلال ..

ـ الفصل الثاني : إغتيال العقول

والذي أوضحنا فيه أنه مع إدراكنا أنه ليس كل ما يُعلم يُقال ، وليس كل ما يُقال ، يُقال في كل وقت ، وأنه في بعض الأوقات يكون الصمت هو الواجب .. إلا أننا نرى أن الكلام يصبح هو الواجب حين يستغل الاستبداد صمتنا ، ولذلك كان هذا الفصل محاولة للتوفيق بين واجب الصمت وواجب الكلام في كيفية اغتيال الاستبداد لعقول المستعبَدين ، وبعد قراءة الفصل يكفي القارئ أن يفتح عينيه على الواقع ليرى أمارات هذا الاغتيال ، بل ربما يستخلص من الوقائع المعروضة نتائج لم تلفت انتباهنا ، أو أغفلناها خلال هذا الفصل احتياطاً من التطويل ورغبة في التحديد.

لقد أصبح الإعلام من أقوي " الأسلحة " ، ووُظفَت دراسات علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما من العلوم في خدمته ، حتى أصبح قادراً علي " صناعة " اهتمامات الفرد ، و " صياغة " أفكاره ، و"تغيير" سلوكه بما يتفق مع التغيير الاجتماعي المنشود .

ولقد قطع الإعلام المعاصر خطوات كبيرة نحو " الإنسان " حتى أوقعه في أسر العبودية ، و خففت نعومة وسائل الإعلام من غلواء القهر والاستعباد ، وشككت المستعبَدين في قدرتهم علي التغيير.. بالتماس الحيلة فى إدارة النفس الإنسانية ، والتي أصبح تعبيد البشر من خلالها فناً كاملاً ، وعلوماً

وممارسة!! .. وأضحت هذه الطاقة الإعلامية ذات قدرة فائقة علي صياغة حياة الإنسان وعالمه وأفكاره ومشاعره.

وأمطرت سماء الإعلام المنظم الشرس الأرض بمعلومات خاطئة ، و أفكار أعمت الأبصار ، فشغلت العقول بما لا ينفع ، وأفقدتها ربط الأفكار ربطاً صحيحاً ، حتى تكبلت بقيود أفقدتها حتى التبصر بالبديهة عبر إزاحة حواسّ المتفرج ، وإلغاء الاستقلالية والحيادية لتلك الحواسّ ، والوقوف فى وسط الطريق بين الإدراك بالرؤية بالعين والسمع بالأذن والتعبير باللسان ، و استخدام العقل بحكمة وموضوعية .. ثم الاستعاضة عن ذلك بسديم ضبابي يخدّر الحواس جميعاً ، ويمنحها متعة سريعة طارئة وزائلة فى الوقت ذاته .. ثم هو في ذات الوقت يمنع العقول من أن تربط بين الأحداث ، فتصاب بما يمكن أن نطلق عليه " الذريّة " في النظر لتلك الأحداث ، واعتبارها ذرّات منفصلة ليس بينها أي ارتباط عضوي ، و لا يمكن استخلاص قانونها العام الذي يمكن تطبيقه في الحالات المشابهة !!

وهكذا .. يستمر اغتيال العقول ، فتأتي الأخبار أنهم يريدون تغيير نظام هنا أو تثبيت آخر هناك ، بينما هم يريدون نظام حياتنا ..!! وتؤكد التحليلات .. لقد حاولوا اغتيال فلان أو فلان ، بينما قنّاصهم دوماً يصوّب سلاحه نحو رأسي ورأسك !! .. لا يريدون قتلي أو قتلك ، وإنما يريدون كلاً منا حياً بأفكار ميتة..!!

وتأتي أنباء الحروب أن صواريخهم تدّك ما أنشأنا من مباني ، بينما عيونهم على ما نشأنا عليه من قيّم ..!!

و بين السطور ، ووراء الأخبار .. خلف التحليلات والتعليقات .. خارج لغة البيانات التى تتمخض عن المؤتمرات .. أكون أنا وأنت دوماً البند الأول غير المعلن ..!!

إن عصابات الاستبداد تبني خطتها على أن الحراس قليلون أو نائمون ، وأن المنافذ سهلة لا وعرة ، وأن الاستيلاء على الغنائم لن يكلف جهداً يذكر ، فهي تقوم بعملها لا يخامرها قلق ، وكثيراً ما تعود من مغامراتها وهي راضية بما نالت ؛ لأنها تتخفي وتتلون وتقوم في كل مرة باحتلال مساحات صغيرة من عقول المستعبَدين ، ونفوسهم ، ثم تحلل هذه النفوس في مختبرات متخصصة في الكيمياء السياسية . إن صح التعبير . تخصصاً عميقاً ، لتكتشف الطريق إلي إبقائهم في دائرة الاستعباد ، ثم تبدأ في إقامة مناطق مراقبة لا يعي المستعبَدون مدي انتشارها ، لتنسج من خلال كل تلك الخيوط :

ـ الفصل الثالث : بيت العنكبوت

وقد أوضحنا من خلاله أن خطط الاستبداد تكون أحيانا مدوية واضحة ؛ حروب وانفجارات وصواريخ .. ومرات تكون سرية وخفية .. حيث يُحفر الفخ شيئاً فشيئاً ، بصمت العنكبوت ، ومكر الثعلب ، وبطء السلحفاة ، ومثابرة النملة ، وتلوّن الحرباء ، وغدر الذئب .. فيسقط فيه المستعبَدون الذين.ربما.توهموا أن الاستبداد قد اقترف خطأً كبيراً !!

وهكذا .. يتحكم الاستبداد في المستعبدين من خلال " خيوط العنكبوت " التي ينسجها وفقاً لانفعالاتهم ، ولعقدهم ، ولنفسيتهم .. ذلك أن العبيد لا يفعلون ، وإنما ينفعلون .. ولذلك فإنه بينما يفكّر الاستبداد في الحُفر الموحلة التي يريد أن يوقعهم فيها ، فإنهم لا يفكرون إلا فيما وقعوا فيه بالأمس من حفر موحلة .. !!

إن المؤامرة هنا ليست نظرية ، وليست افتراضاً ، وليست وجهة نظر .. إنها الواقع المحبوك الذى نعيشه ، والذى يحاصرنا من كل الجهات .. إنها اليقين الذى نقطع به فى عالم ملىء بالافتراضات والاحتمالات والمتغيرات .. إنها الحقيقة القاطعة مثل حد سكين يخترق الرقاب ، أو شفرة حادة لا نجرؤ على ابتلاعها ، ولا نقدر على إخراجها .. إنها الواقع الذى يبتلعنا مثل أخطبوت هائل الحجم لا متناهي الأذرع .. إنها المؤامرة المحبوكة المخطط لها ، والتي يشعر معها المرء أنه ذرة ألقيت بين قوي رهيبة متطاحنة ، فإذا لم تسحق إلي غبار الغبار فإنها معجزة .. ذلك ان الاستبداد يتعامل مع المعارضين عبر وصفة ثلاثية مضمونة .. فإمّا شراؤهم بالمال .. أو توريطهم بمنحهم مقاعد وثيرة فى ديكور سياسي فيه كل شىء إلا ما ينفع أو يفيد .. أو السجن لمن يعاندون مكاناً ضيقاً حتى تتعفن عظامهم .. وبذلك ينضبط المجتمع ويعمّه سكون المقابر !!

ولا شك أن للمحترفين من رجال الدين وظيفة أساسية في بيت العنكبوت .. تلك هي وظيفة التخدير والتغرير بالجماهير ، وإقناعها بأن القهر حرية ، وأنَّ الفقر نَماء ، وأنَّ ما يحصل لنا قدر ..!! كل ذلك من خلال خطاب يقترب أن يكون لوناً من التجارة بالدين .. تلك التجارة التي تجعل من العاملين للإسلام جزءاً مكملاً لجهاز الاستبداد .. كما كان فرعونُ يضع قيداً حول رقبة الرجل ويَمتطي كتِفيه، بينما يقومُ قارون بتفريغ جيوبه ، وكان بَلعمُ بن باعوراء مكلفاً بالهمس في أذنه بِرقَّة وحنان وعطف، وإقناعه بأن يَتحمَّل هذا الوضع ويعتبرَه مشيئةَ الله ..!!

وهكذا يحاول الطغاة أن يجعلوا من العبيد قطيعاً من الأبدان تروح وتغدو ، تائهة المسير ، مسلوبة الإرادة ، فاقدة الوعي .. يحاولون ذلك من خلال معاقبة المخالفين في الرأي ، ومكافأة الأزلام .. ومن قبل ذلك ومن بعده ، من خلال الإكراه العقائدي الذي لا يشم الإنسان معه رائحة الحرية إلا حين يكون وراء قضبان السجون !! ..

إن الطغاة في سبيل الوصول إلي أهدافهم يسوغون كل انتهاك للمبادئ والأخلاق ، فالمباديء عندهم لا تعدو أن تكون برقعاً جميلاً يخفي وراءه وجهاً بشعاً ، وكلاماً علي اللسان معسولاً يغطي فعلاً أثيما .. والأخلاق عندهم لا تعدو أن تكون مناديل ورقية تستخدم لمرة واحدة لتحقيق المصالح ، ثم تلقي في سلة المهملات .. !!

ولهم في ذلك أسوة بأسيادهم من اليهود البعيدين عن الإنسانية ، والمعادين لها ، الذين يرضون بديلاً عن خضوع الإنسانية لسلطانهم من خلال كل صور الفتنة والفساد التي تسولها لهم أنفسم المغلولة .

و في كل الأحوال يحرص الطغاة علي إبقاء المستعبَدين في حالة من الاستكانة ، والجهالة والخضوع انتظاراً لخيرات يتفضل بها " السادة " على " عبيدهم " .. فإذا بدأت النذر بأن السماء قد تمطر ناراً أو دماراً علي أعداء الله ، بأيدي أولياء الله .. عندها يبدأ الاستبداد " لعبة " جديدة يمسك فيها بالمستعبدين من خلال خيوط من الخوف رفيعة كخيوط العنكبوت .. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، لو كانوا يعلمون ..!!

إن الطغاة يحاولون من خلال المكر والتآمر إلقاء الخوف في قلوبنا ، بينما الحقيقة أنهم هم الخائفون ، ويغطون خوفهم بتصدير الخوف لنا .. وما خوفنا منه إلا وهم تصنعه عقدة النقص التي تربت فينا في مواجهتهم .. ولكي نتخلص من هذه العقدة ؛ لا بد أن نؤمن أن الصراع بيننا وبينهم هو في حقيقته صراع إرادات ، من يُصدر الخوف لمن ؟ من يُلقي الرعب في قلب الآخر ؟ .. وأنه إن كان يصعب علينا .أحياناً. مواجهة قوتهم لعجزنا عن تلك المواجهة ؛ فإن قدرتنا علي تقوية أنفسنا ستظل أمراً متاحاً لا يقدر أحد علي منعنا منه .. فإذا امتلكنا القوة السياسية التي تقوم علي قواعد الحرية و العدل و الإحسان ، وإنزال القيم مناط التطبيق، وحمل المبادئ فوق الأشخاص، وزرع نبتة الأخوة الحقيقية ؛ فإننا قادرون .بإذن الله. علي هدم بيت العنكبوت ..!!

ولست أزعم هنا أنني قلت عن بيت العنكبوت كل ما ينبغي أن يقال ، فنحن في زمان يجعل ما يسكت عنه المرء – فى بعض الأوقات . أهم مما يقوله ، و يشبه الخوض فى بعض قضاياه الدخول إلى " جحور

الأفاعي " !! .. وإنما حاولت إلقاء ضوء على عناصر القوة وعناصر الضعف في هذا البيت .. وإلقاء حجر في مياه وعينا لتحريكه ، و ليتأمل القاريء بين الأسطر ، ويحاول اكتشاف دقائق هذا الواقع ، ويستجلي خطط المجرمين ، ليصبح قادرًا على معرفة ألاعيبهم ، ومن ثم مواجهتها بجدية وقوة تتناسب مع الرسالة التي يحملها للعالمين بالخروج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. تلك الرسالة التي نتحدث عنها من خلال :

• الباب الرابع : الحرية والحضارة

وهو محاولةٌ لإحياء فهم الإسلام ؛ من حيثُ هو رسالة غايتها تحرير " الإنسان " ، لتأهيله لعمارة الدنيا، وقيادة البشرية ، نحاول من خلالها إعادة تركيب ملامحنا لنطل على العالم بوجه له سمة التسامح والمرونة، وعقل يحمل مشروع تحطيم أغلال العبودية ، وقلب يأنس به كل من يقابله من بني البشر .. ويدرك من خلال التعامل معه أن هذا الدين موضوعه هو " الإنسان " ، وهدفه هو " تحرير " هذا الإنسان من الأغلال السياسية ، والأصار الاجتماعية التي صارت عليه .. لينشأ مجتمع " الحرية " من خلال تصحيح القيم والموازين ، وترشيد المشاعر والسلوك ، لتكون قادرة على أن تحتضن في أكنافها كل إنسان.

ولأن بذرة التغيير الحضاري لا تنمو ولا تزدهر وتورق وتؤتي ثمارها علوماً ومعارف ونظماً إجتماعية .. بل وتستقطب وتجذب خيرة الموارد البشرية والمادية من بيئات أخرى مختلفة ، إلا فى مناخ الحريّة .. و لأن الإنسان يعيش فى ظل الحرية نشيطاً في أعماله ، سعيداً بآماله .. فإن الحرية تصبح ضرورة .. ضرورة للدين وللعقل والفكر ، وضرورة لتوفير العدل والأمان ، وضرورة لرعاية العهود والحرمات .. وضرورة من ضرورات الحضارة بل يمكن أن نقول أن :

ـ الفصل الأول : الحرية شرط الحضارة

والذي أكدنا من خلاله أنه بقدر نقص الحريّة ، تنتقص الحضارة حتى تأخذ طريقها إلى التخلف والتصحر والتحجر .. حتى إذا استكملت تلك الجراثيم المهلكة حظها وبلغت مبلغها من التمكن تكون قد آذنت شمس الحضارة في ذاك الفضاء بالمغيب ليستقبل نعيق البوم فى ليالي التخلف المديدة . وينادي مؤذن الكون بالرحيل..!!

أمّا حين تضيء شموس الحرية ، وتضرب بأشعتها فى كل واد ، فإن البشر تتسع آمالهم ، وتكبر هممهم ، وتتربى فى نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة ، فتتفتق القرائح فهماً ، وترتوي العقول علماً ،

وتأخذ الأنظار فسحة ترمى فيها إلى غايات بعيدة ، فتصبح الإمكانات طوع اليد ، والطاقات طوع الفكر، والمصير طوع الإرادة، ويكون التخطيط طريق المجتمع فى بناء الحضارة ..

ولذلك فإن كل الحضارات يجمع بينها أنها توفّر العدل والحرية .. وهذا يجعلها مجالاً رحباً لتفتح الملكات ، وقوة جذب للنابغين وذوى الكفاءة والطموح فى شتى مجالات المعارف والعلوم والفنون والتجارة والمال ، ابتغاء ترقية ملكاتهم وتحقيق طموحاتهم .. بينما غياب هذه الحقوق والقيم يؤدى إلى أن تذبل الملكات ، ذلك أن الإكراه والقهر والضيق بالخلاف ، ورفض سنة التعدد وحقوق الآخر فى الاختلاف ؛ يجمد حركة الحياة فتأسن وتتحجر ، فيغدو الفضاء الإجتماعي طارداً للطاقات ، يضيق ذرعاً بالإبداع والمبدعين ، ينعق فيها البوم ، وتعشش فيه الفوضى ، وترى العصافير التى كانت تعمر الأشجار بشجي الغناء تأخذ فى الرحيل خشية الصيّاد المتربص باحثة عن فضاء حضاري آخر تجد فيه العدل والحرية والأمن ..

إن الاستبداد يخترق جسد المجتمع عبر وسائل عدة ، فيحطم كافة قوى المقاومة فيه ، و يمحو المميزات الفردية بداخل أفراده ، ويصهر الشخصيات الخاصة بهم فى بوتقة القطيع ، ثم يميّع أنفسهم فى سوائل ومحاليل تشبه إلى حد كبير ما يزعمه السحرة من محاليل تحوّل التراب إلى ذهب .. ولكنها هذه المرة تحوّل الذهب الإنساني إلى تراب عديم الفائدة ..!! ينمو في تربته الاستبداد ، ليصبح أشجاراً باسقة تمد ظلالاً من الرعب على المستعبدين فيتحول الفرد منهم إلى كائن مسخ يتقن الكذب والتمثيل .. لا يرى مشاكله بل يصطدم بها اصطداماً .. فيسرع الى الحلول الجاهزة والسريعة لمشاكل في حجم الجبال !!

ولأن زرع مفهوم الحرية لدى الإنسان هو الذي يصنع الحضارة ، لأنه يُنشئ لديه إرادةً نحو التغيير لا يستطيع لها دفعاً .. ولأن المفاهيم السليمة تُوجد المناخ الجيد ، وهو بدوره يُبْرز أحسن ما في الإنسان .. والمفاهيم القاتلة أو الميتة ، تُوجد مناخاً سيئاً ، وهو بدوره يُبْرز أسوأ ما في الإنسان ؛ فإن من أهم شروط الفكرة التى تنتج الحضارة أن تحرر الإنسان من كل ضروب القهر والاستبداد ، وأن تزوده بأهداف وقيم عليا تعطي معنى لحياته ؛ وتجعله يستعلي عن أن يَستعبِد غيره أو يُستعبد هو من أحد ، ولا شك أن الإسلام هو الفكرة المثلي ، والطريق الأقرب لتحقيق ذلك الهدف لأن :

ـ الفصل الثاني : الإسلام رسالة الحرية

والذي أكدنا من خلال أفكاره أن الحرية هي قيمة الحياة .. لأن الحرية هي شعور الإنسان بالتوافق والتناغم مع فطرة الحياة ..من حركة إيجابية ، وإرتقاء نحو الأفضل ، وشعور بالوجود ، وقدرة على التأثير، و هي شعور بالتحرر من كل الآصار والأغلال والأوضاع التي تخالف الصورة الربانية للحياة الإنسانية .. تلك الأوضاع التي يخسر الإنسان فيها كيانه ، و شخصيته ..تفرده ، و إبداعه .. بل إنه يخسر نفسه !! .. ولذلك فإنه ، وإن كان في محاولة الخروج عن القطيع خطورة بالغة ، لكنها لا تساوي لحظة واحدة يبقاها الإنسان بلا قيمة بين قطيع البشر ..

إن لهذه الحرية قيمة ضخمة .. بل هي قيمة الحياة ، وتتمثل فيها كل معاني الحياة ، ولذلك فإن من وهبه الله تلك النعمة لا بد أن يمنحها للأموات من العبيد قبل أن تنتهي رحلتهم على هذه الأرض .. يمنحها لهم وهو يدرك أن هذا المنح هو طريقه لأن يبقي هو في حياة .. ويسعي إلي تحرير " الإنسان " .. كل الإنسان ، في الأرض ..كل الأرض ، وهو يرى أن قيمة جهده في أن يبقى ساعياً نحو الحرية ، ونحو الحفاظ عليها ..وأن مهمة تحرير الإنسان هي السبيل للحفاظ على الحرية ترفرف في قلبه ؛ فيكون حمله لها من خلال رسالة أمن و هداية ، وليس رسالة إرهاب وجباية ..

ولا شك أن هذه هي رسالة الإسلام التى يخرج الله بها من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. يحملها رواد ، فيهم من القدرة والطاقة ، والإدراك والكفاية ، والاستعلاء والحماسة ، والإصرار والصلابة ، بقدر ما فيهم من الإيمان ، والثقة بهذا الإيمان ، لكي يخلّصوا أنفسهم من ضغط هذا الواقع .. ولكي يملكوا – على الرغم من الواقع والتوجيه المضلل – أن يروا رؤية واضحة .. تصوراً آخر أرفع وأكمل ، وأعمق حيوية ، وأكثر طموحاً ، من كل التصورات التى تعم الأرض اليوم ، فتعبّد الإنسان للإنسان ..

إن هؤلاء الرواد يشعرون بـ " الأناقة الحضارية "، في صورة القيام بدور حمل رسالة إنقاذ للبشر، وإخراجهم من عبودية بعضهم لبعض .. يرددون لكل العالم : " جئنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة " ، و تثور ثائرتهم علي أحبائهم المقربين ، إذا هتكوا حرية أحد ، فتنفجر قداسة الحرية علي ألسنتهم : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟! " . ثم هم بتلك الرسالة يحاولون إرساء الأسس الصلبة لتحضّر راق متوازن يهضم كل ما حققته البشرية من مستويات سامقة من التحضّر ، ويعالج مشكلاته المستعصية فى نطاق مفهوم شامل للحرية .. تلك الحريّة التى تعنى عبادة الله بالحياة وفق منهاجه الذى

يستجيب لكل أبعاد الإنسان وحاجاته الفكرية والنفسية والعقدية والحياتية عامة ، ويرحب بكل إنجاز حضاري يرسي نظاماً اجتماعياً يكفل الحريات والحقوق ، ويرتقي بالإنسان فى كل جانب من جوانب حياته ..

و حتى لا يصير هذا الفصل من الكتاب كموعظة لركاب سفينة تغرق ويأتيها الماء من كل مكان .. وحتى لا يكون حديثنا فيه كمن يقرر أن البحر هائج ، وأن قوراب النجاة لن تجدي شيئاً ؛ فإنه لا بد من باب نتحدث فيه عمّا يمكننا عمله حتى لا تغرق السفينة البشرية .. فننتقل من مرحلة عرض الإسلام الفكرة ، وإبراز حقيقتها وعظمتها وجماليتها ، إلي مرحلة الاهتمام بكيفية تحقيقها في الحياة العملية ، وتحويلها إلي مجتمع حيّ متحرك . نخرج به من نفق العبودية ؛ لنبدأ السير فى الطريق إلى الحرية ، ولذلك فقد ختمنا بحثنا بـ :

• الباب الخامس : سبيل الرشاد

و أوضحنا فيه ، أنه مع ما يبدو من ضخامة الواقع الذى تعيشه البشرية اليوم.. ولكن الحقيقة أن هذا الوضع هو أنسب وضع للمحاولة ! فالفكرة الجديدة جدة كاملة هي أقرب أن تُسمع ، وتكوين النفس البشرية الفطري يجعلها أشد إصغاء للجديد – حين تكون جدته كاملة تثير دهشتها – منها للإصغاء إلى المألوف ، أو التعديلات الجزئية القريبة .. وليس كهذا الإسلام نقلة بعيدة جداً .. بعد السماء عن الأرض.. أو إن شئت قلت : بعد صنعة الله عن صنعة العبيد !!

إن الإسلام هو سبيل البشرية إلي الحياة الراشدة الهانئة .. إلا أنه لا يقود إلي هذا النوع من الحياة إلا إذا جرت خطوات عرضه وتطبيقه حسب منهاج واضح وترتيب محدد .. يمثل " المشروع الحضاري الإسلامي " ، وهذا المشروع ليس برنامجاً سياسياً من بين برامج أخرى ، ولا وهماً يقترح " أفضل العوالم"، أو عالماً خيالياً ، بل إنه مشروع يدعو إلى اليقظة ويقترح خطوط عمل تنفصل عن العبودية التي يعيشها هذا العالم ..

إنه محاولة للحلم والنقد والمبادرة . . الحلم بالمستقبل ، والنقد للواقع المرير ، والمبادرة بوضع الحلول للمشاكل المحيطة بنا .. يحملها . بتوفيق من الله . الذين يحلمون وعقولهم يقظة ، وعيونهم مفتوحة ، ويستعدون لأحلامهم بالعمل .. فيحول الله بهم الحلم إلى واقع ، لأنهم أقلعوا عن مجرد تفسير الواقع ، وبدأوا الابحار فى طريق المستحيل!!

وهذا المشروع ينتقل من مرحلة عرض الإسلام ، وإبراز حقيقته وعظمته وجماليته ، إلي مرحلة الاهتمام بكيفية تحقيقه في الحياة العملية ، وتحويله إلي إنسان حي حر ، ليكون هذا الإنسان هو المقدمة لـ "ميلاد مجتمع الحرية" .. كل ذلك في إطار من نص حضاري حر .. حضاري بفكره ومنهجه وموضوعه.. حر تنسجه خيوط الصدع بالحق القاصد إلى الوعي بالذات وبالواقع .. تحمله أشواق واقعية ، لا يصاب الإنسان باليأس عندما لا يستطيع لها تحقيقاً ..وكلما أسلمته التجارب إلى صدمة في الرؤية ، انفتح له من واقع هذه الصدمة باب جديد للتأمل في " سبيل الرشاد " والخروج من التيه إلى " مجتمع الحرية "!!

ولأنه لا شيء في هذا العالم يحدث اعتباطاً، ولا يمكن أن يحدث شيء واحد في حياه البشر اعتباطاً . وإنما كل شيء في حياه البشر يجري حسب سنة الله التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً من الخلق مهما زعم لنفسه من مسوغات المحاباة ، و لا يجدي معها " تعجل " الأذكياء ، ولا " أوهام " الأصفياء " .. ولأن التغيير ليس هديه تُعطي ، ولا غنيمة تُغْتصب ، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بتغيير ما بالأنفس فقد كان :

ـ الفصل الأول : حتى يغيّروا ما بأنفسهم

حيث انصبّ جهدي كله في هذا الفصل على بيان أن وظيفة تغير ما بالنفس هي وظيفة " الإنسان " ، وأن تغيير ما بأنفس الأفراد هو الشرط الجوهري لكل تغيير للمجتمع ، لأنه لن يكون هناك سحر يمحو عبوديتنا وتخلفنا في لحظات ويبدلها حرية وحضارة ...إنما يحدث ذلك وفق سنن ربانية تقوم عليها الحياة ، لا تحابي أحداً مهما زعم لنفسه من مسوغات المحاباة .. ولكي ننجو من الاستذلال والاستعباد ؛ لا بد أن تنجو نفوسنا من أن تتسع للذل ، وتتخلص أرواحنا مما يؤهلها للعبودية .وهذا هو المنهج الصحيح للتغيير ، والذي أضاءته بنورها تلك الآية الكريمة: { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ }.. تغيير لما بالأنفس غايته هجر الأفكار والثقافات والقيم الخاطئة بكل موروثاتها الصنمية ، إلي الإسلام بقيّمه التوحيدية ..

وهذا الفصل من الكتاب يأمل إحداث بعض التغيير في طريقة التفكير في مجتمعنا عبر تحريك ما هو ساكن وقابع في داخل الذين يعيشون في وسط التغيير ولا يلاحظونه ، أو لا يرغبون في ملاحظته ، أو لا يعرفون كيف يضعون أيديهم عليه ، فهو إذن يخاطب الذين تعلموا بالتلقين أن هناك طريقة واحدة للإجابة ، وأن هناك حلاً واحداً للمسألة ، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، أو غير الفاعلين منتظري رد الفعل . .

والبداية من هنا .. من " إقرأ " هذه الكلمة التي أدهشت النبي (ص) ، وأثارت معه وعليه العالم .. و التي وضعها القرآن بداية للذين حمَّلهم مسؤولية تحرير الإنسان ، وقيادة البشرية .. لأن الذين يقودون العالم هم من يعرفون كيف يقرأون .. ذلك أن القراءة معناها المعرفة ، والمعرفة معناها أن ينمو العقل وينضج التفكير .. فيمتلك الإنسان العقل الذى لا يخاف ، فيرتاد الإبداع ويكسر الآبائية الفكرية .. كل ذلك عبر أسئلة تحطم سلطان الاستبداد ، و أفكار هي سبيكة معرفية نفيسة ، تتشابك وتتوافق في صياغتها ، المنهجية العلمية ، والجمالية ، والإبداعية ، فتنشيء المجتمع الذى يوفر لأفراده الإطعام والأمن.. ويحررهم من علاقات الاستضعاف والاستكبار ..

وهكذا .. تبدأ التكونات الجنينية لمجتمع الحرية من " إنسان الفكرة " الذي تحررت نفسه من الخوف إلى الثقة ، ومن القهر إلى الإرادة ، ومن الإستلاب إلى الاعتزاز ، ومن الإنزواء إلى الصدارة .. و من رد الفعل إلى الفعل .. تبدأ من خلال إشراقة التوحيد المشبعة بفكرة الاستخلاف ، يحملها ذلك الإنسان فيستجيب إليه طليعة .. وتعيش هذه الطليعة فى مناخ مناهض لفكرة التوحيد والاستخلاف ، فيولّد ذلك شعوراً عميقاً بالتحدي لدى تلك الطليعة .. فتحدث هذه الفكرة مع التحدي تغييراً داخلياً فى نفوسهم.. وهذا التغيير هو ما يفي بالشرط: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } .

إن التغيير يخضع لعلاقة بين الهدف والوسيلة.. وإنه من الخطأ كل الخطأ أن نتصور أن نجاحنا في تحقيق هدفنا يمكن أن يحدث بطريقة سحرية غامضة الأسباب؟! .. فإذا كنا لا نملك الآن ما يمكننا من الوصول إلى هدفنا ، فإن هذا لا يدفعنا أن نتوقف عن العمل حتى تتدخل القوة الخارقة الغامضة الأسباب لتوصلنا إلى هدفنا ؟!.. بل المطلوب منا هو العمل قدر الوسع والطاقة واستخدام الوسائل التي نملكها .. و من أكبر ما يعيننا على ذلك أن نتعلم فن ممارسة الممكن .. فلا نزهد في الممكن الصغير ، لنتعلق بالمستحيل الكبير ، ذلك أن النتيجة ستكون فوات الصغير والكبير معاً .!!

إن البعض قد يرون أن ما يقومون به من أعمال صغيرة هو أمر غير مثمر ، ولكن الحقيقة أن هذه الأعمال تختزن فى صورة " طاقة وضع " إن صح التعبير .. وهذه الـ " طاقة " تتشكل بعد فترة كـ " طاقة حركة " .. فإذا حافظنا على تلك الأعمال من أن تتضارب ، أو تذروها رياح الفكر الموجّه ، وعواصف الواقع المؤلم ؛ فإننا قادرون . بعون الله . على الوصول إلى المرحلة الحاسمة في مواجهة الاستبداد ، تلك المرحلة التي نتغلب فيها على خوف الموت ، لنبدأ عملية تحرير الإنسان من خلال الانتصار على الخوف والاستكانة ، والانتصار على اليأس والقلق .. وغيرها من المشاعر المتأصلة في نفس الإنسان المستعبد ؛

فيندفع إلى المواجهة المباشرة للإستبداد ، من خلال رسالة الحرية ، " شاهداً " للإسلام ، و " شهيداً " من أجله ..

ولأن التربية على تعشق الحرية ، والسعي في رفع الاستبداد عن العقول ، هو المقدمة الصحيحة لانطلاق الإنسان لتمزيق غيوب أوهام الاستبداد التى تُمطر بالمخاوف .. ولأن بذرة " الحريّة " فى القلوب هي الطريق إلى اجتثاث شجرة الاستبداد اللعينة من حياتنا ، و " بداية البدايات " فى طريق خروجنا من نفق العبودية المظلم ، إلى فضاء الحرية الراشد ، فقد حاولنا بيان كيفية الوصول إلى ذلك من خلال :

ـ الفصل الثاني : ثقافة النقد والحوار

و يأتي هذا الفصل في سياق الإثراء الفكري .. وفي دائرة توسيع الخيارات ، والتأكيد على أن الاجتهاد ضرورة ، والإبداع محرك ، وأن التقليد تراجع ، والنمطية قيد ، ولذلك فإنه يلزم كل المربين تشجيع المتربين علي البوح بمكنوناتهم ، وعلي الحوار ، والبحث ، والإبداع .. لأن الحياة تُعاش ولا تُلقن .. وفهم المنهج يكون بحرية العقل ، ونقاء القلب ، لا بالترديد الأعمى ..

وقد حاولت تناول هذا الأمر من زاوية تربوية تعتمد إثارة العواطف والأشواق نحو طلب الحرية ، والتضحية في سبيل نيلها ، وبيان الطريق إلى تربية الأحرار .. في محاولة لإحياء ثقافة النقد الحوار ، ورفضِ ثقافة الصمت ، التي تصنع من الإنسان شيطاناً أخرس .. أو تدفعه إلى كلمات خائفة مذعورة ، تزيّف الواقع ، وتسوّغ العبودية في زمن يجب أن تُنسج خيوط الكلام فيه من خلال الصدع بالحق ، ويُبني صرح التربية فيه على قواعد من الاختيار والإرادة ..

ولا شك أن هذا لا يكون إلا من خلال فكر نقدي ، يراقب الأفكار بدون ملل ، ويدخل التصحيح على الخطأ .. يغربل الحقيقة ، ويخصب العقل ، ويشحذ الفاعلية ، ويحصحص الحق .. يؤمن أنه من حق كل إنسان أن يكون له صوت مسموع ، وأن يعبّر عن خطابه النقدي بطريقة أو بأخرى ، وأن يشترك بشكل أو آخر في معركة الدفاع عن هذا الحق ، حتى لا يصح فى النهاية إلا الصحيح ، ولا يثبت إلا الصواب .. كل ذلك من خلال حوار مبدع يجعل الحرية هي قاعدة الوعي ، ويؤمن أن التغيير هو غايته..

ومن هنا فإن المربي الناجح هو من يكون لديه الرغبة في تغيير الواقع ، وليس من يقوم بتربية الآخرين على تقبّل هذا الواقع أياً كان !! .. هو من ينشيء فيمن يربيهم القدرة على نقده إن أخطأ ، ومعارضته إن أصرّ ، وإقصائه إن انحرف ، وتجاوُزِه إن عجَز أو قصَّر .. هو من يتيح الفرصة لمن يربيهم لكي ينطلقوا ويتحرروا من ملاصقته لهم ، لأنه يدرك أنه من المستحيل أن نطلب من الطائر أن يحلق بحرية بعد أن وضعناه داخل قفص بدعوى حمايته من الطيور الجارحة التى قد يواجهها أثناء التحليق عالياً وبعيداً ..

إن التربية التي تسير في اتجاه واحد ، من المربي الذي يقوم بالدور الحيوي الفاعل والنشط ، إلى المريد المراقَب والمحاصَر في جميع حركاته ، والذي لا يعدو عقله إلا أن يكون " بنكاً " للودائع الجاهزة سلفاً عند مربيه !! .. إن هذا اللون من التربية لا ينتج إلا نسخاً كربونية من المربي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن حالة التلقي والخضوع السلبي ، والطاعة العمياء تُعد المتربين ليكونوا عبيداً.. ونهيّئهم ليكونوا خرافاً سهلة المنال في مجزرة الاستبداد ، وهذه ليست تربية ، و إنما هي جريمة كبري .. !!

إن " تربية الحرية " القائمة على " الحوار " تؤدي إلى " فكر نقدي " يقوم علي " النصوص الحرة " محدثاً " فعلاً إجتماعياً " يغيّر الله به واقع الاستبداد .. ذلك أن ممارسة تربية الحرية على مدى عدة أجيال تجتث جذور التسلط في ثقافة التيه والخوف ، ومن ثم تتداعي شجرة الاستبداد كما تتساقط أوراق الخريف ، فتعود شجرة الحرية من جديد ، وتورق خضراء طيبة في ربيع الحياة .. ولا يكون ذلك إلا حين نتحرر من أن تستعبدنا فكرة ، أو يستبد بنا تصور ، أو تستعمرنا مقولة .. و يكون سعينا لميلاد مجتمع الحرية من خلال :

ـ الفصل الثالث : إطار عمل لا إطار انتماء

والذي نحاول فيه أن نهز جذور الفكر الإسلامي من غفوة ، وننشطه من إعاقة ، وننفض ما علق بجسمه من تعصب ، وما أصاب بدنه من حزبية .. حتى لا يبقى هارباً من مواجهة الواقع لتغييره ، إلى المبالغة في تضخيم بعض الظواهر الشكلية ، وحتي لا يغرق في الخطاب الفردي على حساب ثقافة المشروع الحضاري .. وحتى لا تبقي أعمال من يحاولون التغيير تشكل ردة فعل على ما يبادر إليه المستبدون . فلا تخرج عن كونها قفزات وارتجالات وعفويات !!

ولقد أكدنا في هذا الفصل ، أن مما يخيف في أكثر الحركات الحزبية التي تسعي لتحرير الإنسان ، أن مناهج التكوين التربوي داخلها لا تهتم بتربية الإنسان كـ " عنصر مجتمعي " يتواصل مع مجتمعه فكرياً ونفسياً وثقافياً .. قدر عنايتها بتربيتة وتنشئتة كـ " عنصر حزبي " يطيع وينفذ ما تأمر به القيادات في حزبه

أو جماعته .. ومن ثم يبقي هذا العنصر الحزبي في حالة من " الانتظار الدائم " للأوامر والتعليمات ويفقد كل قدرة على المبادرة على أي مستوى من المستويات ، ولو حتى على مستوى تكوين رأيه في القضايا التي يشاهد ظواهرها يومياً .. ومن ثم يتكاثر " المنفّذين " ويضمر " المبدعين " ، و يتحول هذا الكيان الحزبي بوعي أو بدون وعي إلى عامل من عوامل تجميد طاقات المنتمين له ، بسبب الإصرار على خنق الحرية ، و حرمان المنتمي من تذوّق حلاوة الإبداع .. بل و فقدان الوعي بالواقع والحياة ..

إن المنتمي إلى الكيان الحزبي يعتقد في البداية أنه انتقل من الاستبداد في خارج التنظيم والحزب إلى الحرية بداخله ، لكنه يكتشف بعد نضوب العاطفة والحماس ، والاحتكاك بأفراد التنظيم والمرور بتجارب حياتية معهم أنه تحرر من الاستبداد الذي يحكم المجتمع الأوسع ، ليصبح في طوق جديد من الاستبداد يمليه الكيان الحزبي حيث الضغط أوقع ، والألم أشد .. وكأنه خرج من إسار ودخل في آخر ، وتخلص معنوياً من سلطة ، ليسلم رقبته لسلطة أخرى ..!! فيجبره ذلك على إعادة النظر في مجمل وضعه الإنتمائي وليس الإلتزامي .. فهو يحب ويميل للكيان الحزبي ، ولكنه غير مقتنع به ، فلا يرى أمامه سوى أمرين .. إمّا أن يبقى مع الكثرة الكاثرة من الركاب الذين يفضلون البقاء في المقاعد وربط الأحزمة ومتابعة تعليمات القائد دون أن تكون لديهم أية فرصة لمعرفة الاتجاه الفعلي للطائرة .. أو ترك الكيان الحزبي إلى الذوبان فيما هرب منه في البداية ..!!

ولا سبيل لعلاج هذا الواقع إلا أن يتحول " التنظيم " أو " الحزب " إلى " تيار " يؤمن بأن العمل الإسلامي ليس حكراً علي الحركات الإسلامية ، وأن المسؤولية عن الإسلام هي مسؤولية كل من شهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله علي تفاوت في الدرجات بتفاوت الاستعدادات والقدرات ، والمواقع والظروف .. ثم يكون لهذا التيار " قلب مرجعي " مشبّع بالعلم الشرعي ، والفكر الاستراتيجي، والفهم للواقع المحلّي والإقليمي والعالمي ، يمتلك أدوات الفحص المنهجي السليم المناسبة للعصر وظروفه وملابساته .. ولديه القدرة على أن يُشِعّ ما هو مطلوب من التوجيه دون ولوج تجربة " التنظيم " السياسية وتفريعاتها المؤلمة .

وحتى يخرج هذا " القلب المرجعي " لا بد أن يترك أفراد الكيانات الحزبية التقوقع داخل الحزب تحت دعوي أنه وحده من يمتلك الحقيقة ، ليسمحوا لأنفسهم بالانفتاح على من يختلف معهم ، الانفتاح للتساؤل .. الانفتاح للاتفاق والاختلاف .. الانفتاح علي الحياة وتقلباتها .. الانفتاح علي الملامح المتعددة والمتنوعة ، من الابتسامة العذبة على وجه موافق ، إلى العبوس في وجوه ترى عدم الموافقة .. من الأذرع

المفتوحة للتلقي ، إلي الجسد المنتفض بالرفض .. الانفتاح الدائم علي الحياة .. والسير فيها دون انزلاق إلى مهاوي التعصب ، أو الاندفاع إلى التطاول على الآخر ..

فإذا تجاوز أفراد تلك الكيانات " العتبة الحزبية " إلى فضاء " التيار " ، الذي يتسع للقاء والحوار والاختلاف . وقبل ذلك وبعده للعلاقات الإنسانية ؛ فإنهم قادرون . بعون الله . على القيام بدورهم في تحرير الإنسان وتغيير واقع الاستبداد من خلال " إطار عمل " لا " إطار انتماء " .. إطار عمل محمود شرعاً { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران: 104] .. إطار عمل منصور قَدَراً " لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله " [رواه مسلم] .. إطار عمل يجعل كل فرد فيه " رِفداً " للعمل ، وليس " عبئاً " عليه ..

إن العمل الراشد إنما يكون ضمن هذا الإطار ، وفي صورة تيار فكري يستمد مشروعيته من قوة الحجة وإقناع الآخر ببرامجه ، ويدخل إلى المجتمع من أبوابه ، وليس من نوافذه أو شقوقه .. فلا يقدّم نفسه للمجتمع في صورة الوصيّ عليه ، بل يرى دوره في حماية حق الإنسان فى الاختيار الحر ؛ ليكون الفيصل هو اقتناع " العقل " لا " رهبة السلطة " .. ومن ثم فهو يدفع القوة بالقوة ليكون الدين " لله " ، لا تحت سلطان أحد من " الناس " .. وهو يقوم بكل ذلك من خلال :

ـ الفصل الرابع : إقناع لا إخضاع

والذي حاولنا من خلاله أن نجيب على بعض الأسئلة الخاصة بصراعنا مع الاستبداد .. هل كان هذا الصراع مع الاستبداد أم المستبِد ؟ .. ولماذا كان التغيير الذي نقوم به . في أغلب الأحوال . يستبدل مستبِداً بآخر مع بقاء الاستبداد كما هو ؟ .. وهل كان سبب ذلك أننا كنا نسعي للتغيير بينما نحمل في خلايا نفوسنا ظلماً نبحث له عن تنفيس ، فنحاول أن نحل محل المستبِد ، ونتحول من موقع المظلوم إلى موقع الظالم ؟!! .. كل هذه الأسئلة وغيرها ، حاولنا من خلال الإجابة عليها التنبيه إلى مرض الاستبداد الذي لم يُستأصل من نفوسنا .. والذي تستيقظ جرثومته النائمة بداخلنا عند أول شعور ببعض القوة ..

إن المجتمع المتخلف يعشق العنف ، ويأخذ العنف فيه طابع التشفي الذي لا يعرف الارتواء ، لأن جرح أفراده النابع من القهر غير قابل للاندمال ، فهم يجترون أحقادهم ويتحينون الفرصة للإطاحة بالرؤوس التي قامت بإذلالهم ..في محاولة لإنشاء مجتمع الحرية .. وهنا يظهر أعداؤهم الذين تدربوا على استدراجهم وإثارتهم ليؤدوا دورهم في الوقت المحدد ؛ فيقومون بالضغط علي نقاط الضعف في

المجتمع الوليد ؛ فيكون رد فعله هو العنف ، فيخرج عن توازنه ، ويظهر في صورة السفيه الذي يجب أن يحجر عليه ، ومن ثم يجد الاستبداد المبرر لاستخدام القوة وسحق هذا المجتمع بسهولة ..!!

وهكذا تدور " دوامات العنف " ببذور مجتمع الحرية ، من خلال ظهور شخصية ذات صفات قيادية ، و التفات مجموعات من الشباب حولها .. فنمو هذا التيار لحجم كبير .. ثم توريط التيار عن طريق المشبوهين في داخله في " عنف محدود " يقوم فيه باغتيال هيكل الاستبداد الكرتوني ليدفع ثمنه محاقاً لمجتمع الحرية الوليد .. وعندها يرتاح خصوم الحرية عندما لا يرون فيمن أمامهم أكثر من أناس بسطاء يمكن توريطهم في أفخاخ العنف ، وبعد ذلك عرضهم على الرأي العام ، وهم لا يحملون الصفة الشرعية.. !!

إننا فى حاجة إلى سنوات من الهدوء نمارس فيها ما يمكن أن نطلق عليه صراع االظواهر الاجتماعية ؛ والتي نحاول فيها أن نحوّل مقاومة الاستبداد فيها إلى خبز يومي ، وندخلها في تفاصيل حياتنا ، وفي عاداتنا وتقاليدنا حتى يندحر الاستبداد إلى غير رجعة .. كل ذلك من خلال استخدام العلم في حل الألغام الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. حل هذه " الألغام " بنزع فتيلها ، وليس بـ " الارتماء عليها". واليقين بأن القوة ليست بالحماس ولا الانفعال ، بل بالسعي الدائب للوصول إلي الهدف بتوازن يحكم الإحجام كما يحكم الإقدام ؛ ورفض الاستسلام لزهو البطولة الانفعالي الذي يدفع الإنسان إلى اتخاذ المواقف من خلال سياسة اللحظة السريعة لا من خلال سياسة النفس الطويل ..

إن التغيير يجب أن يكون عبر الإقناع ، وليس الإخضاع ؛ لأن التغيير معناه تبديل القناعات وهذه تأتي بالفهم وليس بالقهر .. فنحن لا نملك عقول الآخرين ، ولكن نملك فقط الطرق على باب العقول وبلباقة ، وقد نمنع من الدخول ، وقد ندخل ولكن لا يستضيفنا العقل الآخر فنفشل فى الإقناع .. ذلك أن القيم لا تُفرض على الناس فرضاً ، إنما تجذبهم إليها القدوة الحسنة والمثل الطيب ؛ فمن يملك القدوة ؛ يملك الهيبة وإن افتقد القوة .. و من يحتاج القوة لفرض هيبته ، هو من لم يصدق عمله كلامه .. ومن ثم فإن المجتمع المسلم يقوم على " الاختيار " الحرّ ، فى إعتناق " الفكرة " من جانب الأفراد .. وهذه الحقيقة هي المقدمة الصحيحة لـ :

ـ الفصل الخامس : ميلاد مجتمع الحرية

والذي أوضحنا من خلاله ماهية المجتمع ، وأنه ليس مجموعة أفراد ، بل هو " شبكة علاقات" ، تنظّم نشاط الأفراد داخل " النسيج الاجتماعي " ، والذي يتعلق بدوره بالأفراد الذين يفرزونه ، ولذا فإن

وضع الشبكة المرتخي أو المشدود ، النشيط أو الخامل ، يتعلق بالأفراد الذين يحفظون هذه العلاقات أو يدمرونها . ولذلك فإن قوة الشبكة الاجتماعية وإحكامها هي من قوة الأفراد لأنها من صناعتهم .. وهم قد يمزقون هذه الشبكة من خلال شد كل فرد منهم لخيط من خيوطها بتوتر زائد من خلال ما يمكن أن نطلق عليه " تورّم الأنا " لكل فرد ..!!

إن الماس اللامع الرائع الصلد ، مكون من ذرات من " الكربون الأسود " ، والذي منح اللمعان للذرات السوداء ، هو طبيعة " التركيب الداخلي " لذرات الكربون ، فأصبحت شديدة اللمعان .. والمجتمع بدوره هو " ترتيب خاص " بين أفراد ، فإذا بقي ذرات كان اسوداً قاتماً ، وإذا تراصت ذراته تحول إما إلى إعصار طاقة ، أو لمعان تفوق عبر التاريخ...

إن المجتمع يضم ما هو أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد الذين يؤلفون صورته ، يضم عدداً من الثوابت التي يدين لها بدوامه ، وبتحديد شخصيته .. فهو بنيان وليس تكديساً .. بنيان يكتسب صفته عندما يبدأ في الحركة للوصول إلي هدفه .. ومن ثم فإن تجمعات الأفراد الذين لا يعدّل الزمن من علاقاتهم الداخلية ، ولا تتغير أشكال نشاطهم خلال الزمن ، لا ينطبق عليها وصف " مجتمع " لأن شبكة العلاقات الاجتماعية كما أنها الثابت الذي يربط أفراد المجتمع فيما بينهم ، فهي في ذات الوقت ما يوجّه ألوان نشاطاتهم المختلفة في اتجاه وظيفة ذلك المجتمع ، ورسالته في الحياة .. فإذا فقد المجتمع رسالته ، ولم يبق له هدف يسعي إليه ، وعاش كل فرد لنفسه ، فقد تحوّل إلى " كومة " من الأفراد ، ودبت في أوصاله الأمراض ، وبدأ في رحلته نهو الموت والهلاك .!!

ولأننا قد تقطّع ما بيننا ، لا يحن الأخ لأخيه ، ولا يهتم الجار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا فى الآخر إلاً ولا ذمة ، أغلق كل فرد منا بابه على نفسه ، وعاش مع عياله ، فتحول إلى ذرة رمل تائهة ، غير متماسكة مع غيرها ، في صحراء تضرب فيها العواصف في مؤشر خطير على انقضاء أجل المجتمع أو سكناه العناية المركزة تحت إشراف أسوأ الأطباء وأقلهم خبرة وأضعفهم اختصاصاً .. في الوقت الذي ينزف فيه اجتماعياً حتي وصل إلى قصور إجتماعي شديد ، أنتج له هذيانا على صورة صراخ هستيري للأفراد وهم يمارسون العبودية المختارة ..

إن أول عمل يقوم به من أراد إحياء هذا المجتمع هو خلق شبكة العلاقات القادرة على توحيد طاقات أفراد المجتمع في صورة نشاط مشترك .. وذلك من خلال تربية إجتماعية تؤكد للمسلم أن مساعدة أى واحد من المسلمين تعنى أنه يساعد جزءاً صغيراً من كيانه المعنوي ، وأن قيامه بواجبه نحو الآخر في

المجتمع يقوي الروابط بين أفراد ذلك المجتمع ، وكلما قويت الروابط ؛ قلّ الفراغ الاجتماعي بين الأفراد حتى يصل إلى صورة " البنيان " يشد بعضه بعضاً ، فتلك صورة المجتمع الذي لا يوجد فيه فراغ اجتماعي ..

ولكي نصل إلي ميلاد هذا المجتمع ؛ فنحن في أمس الحاجة لأن يدرك أفراد المجتمع أن قيامهم بـ " الواجبات " لا بد أن يتفوق على مطالبتهم بـ " الحقوق " ؛ ومن ثم فإن الواحد من هذا المجتمع تسهر عيونه والناس نيام .. يبقى عاملاً مجتهداً ومفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طوال شهره ، حتى إذا ما انتهى الشهر ، جعل مورده مورداً لمجتمعه ، ونفقته نفقة لفكرة هذا المجتمع ، وماله خادماً لغايته .. وما لم تتم هذه الخطوة ؛ فإن أفراد مجتمع الحرية سيبقون جزءاً من مجتمع العبودبة الذى يرفضونه " نظرياً " .. بل ربما يتحفظ كل فرد منهم بقوة حول حقه في البقاء فرداً في مجتمع العبودية ، و يرفض أن يتصور أن نشأة مجتمع الحرية ستؤدي إلى الإطاحة بمكانته في مجتمعه القديم ..!!

إنه لا سبيل إلي الخروج من هذا التيه إلا من خلال الوعي الذي لا يُخدع بواقع " مجتمع العبودية " ، و الفهم العميق للفكرة التي تجمع أفراد " مجتمع الحرية " .. ولا يكون ذلك إلا من خلال التحرّك في الحياة وفقاً لفكرة مجتمع الحرية ؛ لأن هذا التحرّك يضيف خبرة جديدة إلى الفكرة الأصلية ، فيتسع نطاق الفكرة و يتحرك بها المجتمع حركة أوسع ؛ فتضيف إليه الحركة الأوسع خبرة أكبر تضاف إلى نطاق الفكر ليتسع ؛ فيمارس به حركة أوسع .. كما هو الحال في الدراجة ، فراكبها عندما يتحرك ينقدح الضوء فيرى ، فإذا رأى أمامه أكثر تحرّك ، وإذا تحرّك أكثر ازداد تألق الضوء أكثر فأبصر أكثر ، فإذا اتضحت الرؤيا أمامه أكثر تحرّك أكثر وهكذا .. فمع وضوح الرؤيا تمشي الحركة بجرأة وسرعة ، والعكس بالعكس مع ضباب الرؤية ..

إنه لا شيء يولد مكتملاً ، وإنما يولد عبر زمان حمل ، ومخاض ولادة ، ومعاناة رعاية ، وصراع وتطور مطرد .. حيث تأخذ ثقافة التيه كل فرد في المجتمع ، فيلمع بريقها في عيونه بزيف الشهرة والمال .. وتحمل له كل لحظة الشك في أنها تأخذه إلى مرحلة جديدة من اليأس والضياع ، بينما هي في الحقيقة تكشف له رقائق الزيف التي تحيط مجتمع العبيد .. ومن ثم فهي تقربه من لحظة الميلاد العظيم .. ميلاد مجتمع الحرية ..

إخوتي القراء ..

لقد حاولت في هذه المقدمة الجمع والتوفيق بين ما يقتضيه التلخيص من الإيجاز والتكثيف ، وما يتطلبه الوضوح من البيان والتفصيل ، وهي مهمة لا تخفى صعوبتها ، فأسأل الله أن أكون بين ذلك قواماً.. كما حاولت أن تدور فصول الكتاب في حلقات متتابعة لنعيش في الحاضر بما يحمله من عناصر الذل والاستعباد ، ثم نحلّق في سماء المستقبل حيث آمال الحرية .. ذلك أن الحاضر ليس إلا تلمساً لعناصر التطور الذي سوف يحمله المستقبل من خلال القوة التي استمدها من مأساة الحاضر وخبرة الماضي .

إن ما حاولت عرضه من خلال فصول هذا الكتاب ليس وهماً يقترح " أفضل المجتمعات " في " العالم الخيالي " ، بل هو مشروع يقترح خطوات في الطريق إلي " مجتمع " حيّ متحرك.. مجتمع تراه العيون ، وتلمسه الأيدي ، وتلحظ آثاره العقول .. يتفاعل الإنسان فيه مع الواقع الحياتي ، ويحاول من خلاله إقامة التوازن بين سيره نحو الحرية ، وقدرته على الوصول إليها .. فلا تشكو كلماته قلة رصيدها من العمل ، أو يعاني عمله من التشنج والارتجال .

إن الفكرة الفعالة ليست مجرد كلمات تؤلف بها الكتب ؛ وإنما هي ما يسترشد به القلب ، ويضيء به العقل ، و تنجذب إليه النفس .. فتتعلم تعلم الفطن ، وتتحرك تحرك الواعي الحاذق ؛ فتتحول إلي جزء من حلبة الصراع ، ويصبح حلمها الأكبر تحويل أفكارها إلي مجتمع حيّ في عالم الواقع ودنيا التعامل .. وعندها ، تصنع الحروف ما لا تستطيعه السيوف ، وتتحول الكتابة إلي حركة صادقة ، ترفض المشاركة في انزلاق الإنسان عن قضاياه المصيرية، ولو بمجرد تشحيم المنزلق .!!

إن الفكرة هي الوطن الذي يحتضن حلم الإنسان .. ولقد كان.ولا يزال.حلمي هو " مجتمع الحرية " ؛ فحاولت ألا أختزله في بكاء عين علي ضياعه ، أو شكوى يائسة من وجوده ، وأخذت التفكير في صياغة خطوات تصنع الطريق إليه ؛ فكان هذا الكتاب الذي تقرأه ، وكلي أمل أن تتحول القراءة إلى تجربة حيّة يتعانق فيها عقل القارىء مع فكر الكاتب ، وينصهر فيها فكر الكاتب بقدر الطاقة مع أفق فهم القارىء ؛ ليصبح القاريء شريكاً للكاتب في الفكرة .. ويقوم بعملية تحويل الفكرة إلى عمل ، وبذل الكثير من الجهد في سبيل تحقيق الفكرة في عالم الواقع ..

ومن هنا ؛ فإن هذا الكتاب يطلب منك ، أن تنظر فيه ناقداً ، وأن تتأمل أفكاره بأقصى ما يمكنك من فضول ، وأن تبذل جهداً لكي تفهم ، بل لا يقتصر جهدك على مجرد الفهم لكل مكون من مكونات الكتاب ، وإنما تستوعب بدرجة أعمق ما تتطلبه كل كلمة عندما تتداخل مع غيرها في شبكة علاقات النص والتي تشبه إلى حد كبير شبكة العلاقات الاجتماعية التي يولد من خلالها " مجتمع الحرية " ..!!

و لا أدعي لعملي هذا كمالاً ، وإنما هو محاولة ، وبداية أردت بها فتح الباب رجاء أن يتوسع ويغدو عريضاً علي أيادي آخرين ، ولذلك اقترح علي إخواني أصحاب الفقه أن يقتحموا مداخل النقد والانتقاد والتصحيح والتصويب ، وأن يتم تحدي ما تم التوصل إليه من نتائج ، وتتاح الفرص لمناقشتها من قراء الكتاب .. بل إنني أكرر هنا ما كتبته في كتبي السابقة .. أن دور القارئ لا يقتصر على مجرد النقل الحرفي للنص ، بل لا بد من القيام بمهمته كمنتج للمعنى الذي تضمنته المفردات التي أمامه .

أبي الحبيب ..

يرحمك الله .. تذكرتك وقد انتهيت من هذه المقدمة ، وتذكرت كيف كنت تحكي لي صغيراً عن أولئك الذين يأكلونَ إلههم عندما يجوعون ، وكيف حررهم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ من الخضوع لغير الواحد الأحد .

أساتذتي الفضلاء ..

إن العين لتدمع امتناناً كلما جالت بخاطري الآثار التي حفرتها تربيتكم في ذاتي ووجداني ، والتي كان لها النصيب الأكبر في تشكيل حياتي .. أقدم لكم هذه الصفحات تعبيراً عن شكري لمن أعانني الله بهم على الاهتداء إلى " سبيل الرشاد " ، وتعلمت معهم كيف أعيش الإسلام في واقع حيّ متحرك هو " مجتمع الحرية " .

أخوتي وأحبتي ..

ربما رأيتم هدفكم أكبر من واقع التيه والاستعباد ... ربما رأيتم مجتمع الحرية حلماً بعيد التحقيق .. ألا فاعلموا أنكم إن صدقتم دبّت الحياة في آمالكم فلم تعد عرائس من شموع .. وإن بذلتم مما تحبون فإن أحلامكم أثقل من حقيقة الواقع .. وإن حقق الله بكم ذلك المجتمع ؛ فإن سعيكم للوصول إليه سيبقي أساساً علمياً لـ " سبيل الرشاد " .. وعلامة هادية " نحو مجتمع الحرية " .

محمد محمد بدري

الباب الأول: قافلة الرقيق

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : في دنيا العبيد

الفصل الثاني : مجتمع الحضارة الأسيرة

بين يدي الباب

لا يمكننا تقديم شهادة عن العالم دون أن نراه بعين الحقيقة وليس بعين الأمنية والوهم .. فمن أراد الوصول إلي مطالع النور ، لابد له من اجتياز السحب .. ولكي نتأمل قضية الحرية في هذا العالم ؛ لا بد لنا من نظرة تتخطى كل الحدود ؛ لتصل إلى الإنسان كل الإنسان فى الأرض كل الأرض .. فإذا امتلكنا تلك النظرة ؛ أدركنا أن الاستعباد ظاهرة لا تكاد تخلو منها بقعة على وجه الأرض .. وإن اختلف حجم الاستعباد باختلاف طبيعة البيئة التى ينتشر فيها هذا الاستعباد .. فالقمامة التي تُرمى فى الماء الراكد ليست كتلك التى يجرفها الماء المتحرك ..!!

وإذا أردنا أن نعيد حريتنا المفقودة ، فلا بد أن نحس نزيف الحرية من عروقنا وأنسجتنا .. ثم نحاول البحث عن طوق النجاة من عبودية " العالم الحر " الذي لا يملك إلا حرية وحوش الغابة في أن تصنع ما يؤهلها له الظُفر والناب .. !!

نحاول ذلك من خلال " بناء " مجتمع الحرّية الذي يدرك دوره في حياة البشرية ، ويري في طيات الاستعباد الذي يملأ الأرض ، بذرة الحرّية التي تتحدي أعاصير الطغيان ، ولا تسمح له أن يبتلع البشرية ليحيلها إلي أفراد في قافلة الرقيق .

الفصل الأول

في دنيـا العبيـد

حين تشرف سفينة الحرية علي الغرق في بحر العبودية ، يحاول كل عاقل الهروب منها ؛ فيركض في أروقتها بحثاً عن مكان أعلى يعصمه من الماء ، و يبصر منه أرضاً للحرية يأوي إليها ، فيرسل نظرة تتجاوز الحدود ، لتصل إلى الإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض .. نظرة للعالم من خلال " ما هو كائن " ، وليس من خلال " ما يجب أن يكون " .. نظرة تحاول المراجعة والتثبت بالحذف والإضافة حيال واقع يتغير ويتبدل باستمرار ، يتحول فيه الإنسان إلى ما يمكن أن نطلق عليه " السائمة البشرية " التي لا تملك من أمر نفسها شيئاً إلا ما يأمرها به سيدها .. تسير إلي أهداف أعدت لها سلفاً وخُطط لها تخطيطاً كاملاً ، وكأنها أداة علي سير متحرك في أحد المصانع ، تتحرك في الاتجاه المرسوم لها دون أن تعلم لماذا تتحرك ؟ وإلي أين تتجه ؟!!

ولأننا نكتب ونُصب أعيننا تحرير " الإنسان " ، فإن خطوتنا الأولي هي تنمية الإدراك بـ " واقع " مجتمعات العبيد ، وما يعتمل فيها من مآزق ومتناقضات ، و ما يشيع فيها من الرق النفسي والفكري ، واختفاء حريات التفكير والتعبير والعمل والاختيار ، وكيف يبسط الاستبداد فيها فسطاطه متقلداً صولجانه ، ويستسلم البشر له كأنما هم قطيع من الأغنام ؟!

إن هذا الواقع يشهد أن المجتمعات الغربية التي يظن البعض أن الحريّة تظلل حياتها ، لا تنفك من قيد إلا أبدلته بغيره ، ولا تزال نخبة قليلة هي التي تتحكم في كل شيء ، و تصل إلي الموقع الذي يخوّلها اتخاذ القرار " بفضل تقديم خدمات لذوي السلطان الذين " يملكون المجتمع " المؤلف من مجموعات صغيرة ضيقة " [1] .. أمّا " الرعاع الأغبياء " [2] الذين لا يقوون علي إدراك مصالحهم .. فإن تلك النخبة تقوم ببرمجة ردود فعلهم " من خلال نوع المعلومات المطلوبة للإقناع ، رغباً ورهباً ، لترويضهم ، وطمس الحقائق واختلاق البدائل ، لتغيير قناعاتهم ، و الحيلولة دون ارتفاع أصواتهم ، وذلك من خلال تشتيت

---

(1) هيمنة الإعلام ـ نعوم تشو مسكي ـ ص 18

(2) هذا وصف " ليبمان lippmann " أحد القيادات الإعلامية في الغرب ، الذي كان يقول " يجب أن يكون هناك مجموعة صغيرة من الأقوياء وباقي الشعب هم من جمهور المشاهدين ، وعلينا " إجبارهم على الموافقة " عن طريق التحكم في عقولهم وتنظيمها ..!!

انتباههم بمشاهدة المباريات والمسلسلات الترفيهية وأفلام العنف ، ومن خلال جعلهم خائفين دائماً لأنه إذا لم يدخل الرعب في قلوبهم ؛ فإنهم سيشرعون في التفكير ، وهذا أمر خطير ، لأنهم ليسوا أهلاً للتفكير !!! " [1]

لقد تحولت الحرية في تلك المجتمعات " إلى غطاء مقنّع للسيطرة على الإنسان ، من خلال تغيير الاهتمامات ، وإعادة تشكيل الهويات . وبعد ذلك يمكن أن يُترك للجماهير حريّة الاختيار ، فمهما تنوعت هذه الخيارات ؛ فهي في النهاية ستعبّر عن رغبات السادة " [2]الذين يقومون من خلال جاههم ومكرهم وأموالهم بصناعة الأحزاب ، وتوجيه الرأي العام ، وتحديد من يفوز في الانتخابات ، وتلهية الشعب بحريّة الفوضى الخلقية والفكرية ، فلا يفيق من سكره أبداً ، بينما هم يتحكمون في كل حياته ..!!

وهذه ليست تهمة نسوقها جزافاً ، وإنما يؤكدها " واقع " القوم ، حتى قال قائلهم : " لنعمل على محو كل الأسباب التي يمكن أن تُحدث تغييراً في أذهان الناس ، لنُبقي عليهم جهلاء ؛ حتى لا يتعلموا التفكير في شيء آخر غير ما اعتادوا عليه ، ولنعبئ عواطفهم على نحو يجعلهم ينظرون في كراهية وفزع إلى الآراء الخاصة وغير المألوفة ... و لنجعل كل أولئك الذين ينبذون الاعتقاد الرسمي يلزمون الصمت في هلع ، ولندفع بالناس لكي يمزقوا هؤلاء ، أو لنجري تحريات ، وتحقيقات عن طريقة تفكير المشتبه فيهم ، وإذا تبين أنهم مذنبون وآمنوا بمعتقدات محظورة ؛ فلنوقع عليهم عقوبة ما . وإذا لم نحقق توافقاً كاملاً في الآراء بهذه الطريقة ؛ فلنبدأ مذبحة لكل من لم يفكر على النحو الذي ثبتت فعاليته لحسم الآراء في البلاد "[3].. ولنحافظ علي الهدوء من خلال غرس المعتقدات والمبادئ التي تخدم مصالح السلطة الخاصة .

وهكذا يسهر قادة العالم " الحر " على الهدوء كيلا يستيقظ النائمون ، و يقومون بتصفية " مقلقي النوم العام " ، ويحرصون في ذات الوقت ألا تتمثل الجرأة والعزيمة على التغيير في صورة تكاتف مجتمع ، وإن سمحوا أحياناً بأن تكون مناجاة فرد لا يصل صداه إلى الآخرين ، فيوقظها من نومها العميق .. ومن ثم فهم يوجهون حياة رعاياهم توجيهاً عاماً يشمل كل ناحية من نواحيها ، ويفرضون سلطانهم على أفكارهم ويوجهونها نحو ما يريده السادة .. و هم يصلون إلي كل ذلك من خلال ما يمكن أن نطلق عليه :

---

[1] هيمنة الإعلام ـ نعوم تشو مسكي ـ ص 27 بتصرف يسير.

[2] الشخصية الأمريكية ـ د. باسم خفاجي ـ ص 49

[3] تشارلز بيريس ـ في مقال منشور في مجلة the popular science monthly بعنوان " تثبيت الاعتقاد " وهو من أهم ما كُتب عن دور السلطة في التحكم في معتقدات الأفراد عن طريق الإعلام والعبث بالرأي العام ، ثم ترك الأشخاص يختارون بحرية مزيفة .

• صناعة الموافقة

لأن كل فكرة وخبرة تُقدَّم للإنسان ، تؤثر في موقفه .. وكل صورة تُعرض على الأبصار ، وكل خبر يُعرض على الأسماع . يهدف ولو ضمناً إلى تغيير موقف ، أو يُحدث بالفعل تغيير موقف .. سواء كان هذا الموقف إيجابياً أم سلبياً ؛ لذلك كله ؛ فإن الدعاية هي وسيلة " تكتيل القوي العاطفية والمصالح الفردية بقصد خلق حالة من التشتت الذهني والغموض الفكري الذي يسمح بتسهيل عملية الاقتناع بفكرة أو مبدأ ، ما كان يصل إليه الفرد لو ترك لمنطقه الذاتي يتطور بتلقائية دون أي ضغط معنوي أو توجيه فكري " [1]

ومن هنا ، فإن الكثير من القائمين على الدعاية والإعلام يؤكدون أنه من الممكن " صناعة الموافقة " ، أي الحصول على موافقة الشعب على أمور لا يريدها ، وذلك بفضل التقنيات الجديدة للدعاية التي تقوم بتثبيت رسائل محددة في وعي الناس ، وصوراً تناسب الأنظمة التى تحكمهم ، والأيدلوجيا التى يراد لهم أن يعيشوا وفقاً لها ..

إن القائمين علي المجتمعات الغربية يرون أن " نخبة صغيرة فقط تتمثل في جماعة المفكرين هي وحدها تستطيع فهم المصالح العامة ، بينما تغيب هذه لأمور عن ذهن عامة الناس ... ومن ثم فإن عليهم أن يدفعوا الجماهير الغبية [2]نحو مستقبل هم أغبى وأعجز من أن يتصوروه بأنفسهم ... ومن ثم يمكن نقلهم من موقع إلى موقع دون أن يكون لديهم أي إحساس خاص بالتغيّر ، ولا تتعدى المسألة في كل تغيير تحديد موقع السلطة " [3]ويحدث ذلك كله من خلال " نظام للسيطرة ؛ بحيث إن المسيطر عليهم يشعرون بأنهم أحرار على الرغم من أنهم يخضعون لقانون أشد صرامة من النظم القديمة ؛ إذ يتم ذلك عن طريق تصميم دقيق وحذر للثقافة ، تتحكم في النوازع السلوكية وليس في السلوك النهائي ... أي تتحكم في الحوافز والرغبات والأماني ، وهنا تصبح مسألة الحرية غير ذات موضوع " [4]

لقد نجحت هذه الطريقة نجاحاً باهراً ، ولم تحتج النخبة في تلك المجتمعات إلي " استخدام فرق مرتزقة لمكافحة الشغب ، ولا تكسير الرُكب والأرجل . إذ لم تعد تلك الأساليب نافعة ، بل استخدموا وسائل الدعاية الذكية والفعّالة . وسطعت فكرة ابتكار وسائل لتحريض الشعب ضد الإضرابات ،

---

[1] مقدمة في نظرية الرأي العام - أ. د . حامد عبد الله ربيع - ص 101

[2] هذا وصفهم للجماهير

[3] هيمنة الإعلام – نعوم تشومسكي – ص 15 بتصرف يسير .

[4] الشخصية الأمريكية – د. باسم خفاجي - ص 70

وإظهار المضربين كمشاغبين يسببون الأذى والضرر للشعب وللمصالح العامة !! " [1].. يحدث ذلك من خلال الفن بكل أنواعه وأشكاله ، بل الألعاب الرياضية والاستعراضات الشعبية .. بل وعوامل الترفيه والتسلية والاستجمام – كلها – أدخلت ضمن منظومة الدعاية الكبيرة التي تعمل على استبقاء الاستبداد من خلال ما لتلك الوسائل من قدرة على استثارة الانفعالات ، ومن ثم تكوين الآراء ..!!

إن الدعاية بكل صورها " تقتصر علي بث وجهة نظر المسئولين ، وبما أن هذا هو الوضع ، فإن أصحاب السلطة أحرار في فعل ما يرضيهم .. وسوف يتم إخبار الشعب ما يعتقد ذوو النفوذ أنه الصواب، أو الخطأ ، الأمر الجيد أو السيئ ، دون أي تمحيص عقلاني ، وبتجاهل كل الآراء الأخرى باعتبار أنها غير ذات صلة. " [2]

ولا شك أن من يتأمل هذه الكلمات لا بد أن يشعر أنه يعيش في عصر "الاستبداد الديمقراطي" حيث يصاحب الدعاية السياسية تنسيق واحتكار لمصادر الأخبار وهيمنة على التحليلات والآراء ، ليست سوى نوع من الاستبداد المتلبس بلبوس الديمقراطية !!. إنه استبداد لطيف يتأسس على الإقناع لا على الإكراه ..

فحين " تتصارع الفطرة السليمة المبدئية مع احتياجات النخبة الحاكمة ، تغرق الصحافة في اتفاق جماعي أصم . وحينما تكون الفطرة السليمة والتفكير النقدي في خدمة السلطة ، تستعيد عافيتها ، ثم فجأة تبرز موضوعات مثل القانون الدولي ، وحرية الصحافة ، وأثر العنف ، و شرعية الانتخابات . " [3]
" ثم يتاح للجماهير أن يلقوا بثقلهم إلى جانب عضو أو آخر من أعضاء الطبقة المتخصصة ، وبعبارة أخرى ، يتاح لهم القول : " نريدك زعيماً لنا ". ذلك لأن الدولة التي يعيشون فيها " ديمقراطية " وليست شمولية أو استبدادية ..!! ، ولكن ما إن ينتهوا من مهمة إلقاء ثقلهم إلى جانب هذا العضو أو ذاك من الطبقة المتخصصة حتى يعودوا إلى وضعهم الطبيعي كمشاهدين لما يجري ، وليسوا مشاركين فيه . تلك هي الديمقراطية العاملة بصورة مناسبة ... لأن جماهير الشعب غبية جداً [4] ، بحيث لا تفهم الأمور ، وإذا ما حاولوا المساهمة في إدارة شئونهم فإنهم يحدثون اضطراباً وإشكالات ، ولهذا ، يعدّ السماح لهم بإدارة شئونهم أمراً غير أخلاقي وغير ملائم . وعلينا أن نروّض هؤلاء الرعاع ، ولا نسمح لهم أن

---

[1] **هيمنة الإعلام– نعوم تشومسكي ـ ص 21 ـ 24 بتصرف**
[2] **حراس السلطة " أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية عدسات الميديا " ـ دافيد إدواردز دافيد كروموبل ـ ترجمة. آمال كيلاني ـ ص 87 ، 88 .**
[3] **المصدر السابق ـ ص 117 ، 118 .**
[4] **بهذا يصف السادة الجماهير .!**

يسحقوا الأمور بأقدامهم ويدمروها . وهذا منطق مماثل للمنطق القائل : إنه من غير المناسب أن تدع طفلاً في الثالثة من عمره يركض في الشارع . إذ إنك لا تمنح ذلك الطفل حريته ؛ لأنه لا يعرف كيف يتعامل مع هذه الحرية ، وهكذا ، لا ينبغي كذلك السماح للرعاع بالمشاركة في العمل ؛ لأنهم سيخلقون المشاكل لا أكثر . " [1]

أرأيتم . أيها الأحباب . إن هؤلاء يرون أن " العقلانية مهارة ضيقة ومحدودة جداً . و لا يتمتع بها سوى قلة قليلة من الناس ، فمعظم الناس توجههم النوازع والعواطف ، والذين يتمتعون بالعقلانية عليهم أن يبتدعوا أوهاماً ضرورية ، وأن يفرطوا في تبسيط الأمور تبسيطاً قوياً وعاطفياً من أجل إبقاء البسطاء السذّج ضمن السياق .. وإذا كان من السهل القيام بذلك في الدول التي تدعي شمولية دكتاتورية أو عسكرية ، هذه الأيام . إذ ما عليك إلا أن ترفع الهراوة فوق رؤوسهم ، وإن خرجوا عن الخط تحطم الهراوات على رؤوسهم ، ولكن بما أن المجتمع أصبح أكثر " حرية " و " ديمقراطية " ، لن يكون بمقدورك فعل ذلك . ولهذا عليك أن تلجأ إلى تقنية الدعاية ، فالدعاية لدي الديمقراطية كالهراوة [2] لدى الدكتاتورية !! " [3]

إن هذه التقنية فعالة جداً ، وسارية المفعول حتى يومنا هذا ، " ومدروسة بالطبع بعناية ، إذ إن المشرفين على صناعة العلاقات العامة لا يعبثون . إنهم يعملون بجد ، ويحاولون غرس القيم " الصحيحة" ، إذ لديهم – في الواقع – مفهومهم لما يتبغي أن تكون عليه الديمقراطية : ينبغي أن تكون نظاماً تتدرب فيه طبقة من المتخصصين على خدمة السادة الذين " يملكون الشعب " [4]. أمّا بقية الشعب فينبغي تجريدهم من أي شكل من أشكال التنظيم ، لأن التنظيم يخلق المشاكل ، ما عليهم إلا أن يجلسوا وحيدين أمام التلفاز ويغرسوا في أذهانهم الرسالة القائلة : " القيمة الوحيدة في الحياة هي أن يمتلك المرء مزيداً من السلع . ويحيا كما تحيا أسرة الطبقة المتوسطة التي يشاهدها ، وأن يتمتع بقيم جميلة من الانسجام .. هذا كلّ ما في الحياة !! "[5].

إن الإنسان حين يشعر أنه ليس وحيداً ، وأن هناك من يشاطره آراءه ، تتأكد لديه آراءه ، بل وتتطور من خلال تعلّم المزيد من الآخرين ، ولذلك فإن النخبة الحاكمة في مجتمعات العبيد حريصة كل الحرص

---

[1] هيمنة الإعلام– نعوم تشومسكي - ص 16 - 19 .

[2] وما الفرق بين " هراوة " واضحة تعلن من دون غش أو رياء ، عن مبادئ السلطة وتوجهاتها ، وللجمهور أن يفكر في قبولها أو رفضها . و " هراوة " ديمقراطية تقوم علي المواربة والاحتيال ؟

[3] هيمنة الإعلام– نعوم تشومسكي - ص 19 ، 20 .

[4] هذا نص قوله !!

[5] المصدر السابق - ص 25 ، 26 بتصرف .

علي أن يفتقد أفراد المجتمع وسيلة تنظيم آرائهم والتعبير عنها ، أو حتي معرفة الآخرين الذين يملكون نفس الآراء ، حتي يبقى أولئك الأفراد علي ظن " أنهم وحدهم الذين تدور في رؤوسهم تلك الآراء المجنونة . فهم لم يسمعوها من أي شخص آخر . ليس هناك من يُفترض أنه يفكر كذلك . ولهذا عندما تفكر في ذلك ، تظن أنك غير عادي ، وبما لأنه ما من وسيلة لكي تلتقي الآخرين ممن يشاركونك السعي لتعزيز ذلك الرأي ومساعدتك على التعبير عنه ، فتشعر بأنك شاذ وغريب الأطوار . لذلك تبقى منتحياً جانباً لا تولي اهتماماً بما يجري ، بل تنظر إلى شيء آخر كمباراة .. أو مسلسل ؟!! "[1].. وتردد في نفسك : لا بد وأني مجنون ، إذ ليس في الحياة سوى ما أشاهد ..

وهكذا .. يبقي الإنسان الغربي مغيباً ، لا يعرف إلا ما تمليه عليه وسائل الإعلام ، لأنه يكوّن معلوماته وأفكاره وأرائه حسب التلفاز والراديو والصحافة ، و يتحرّك ويتصرف حسب ما توحي له الشبكات الإعلامية .. هذه الشبكات التي هي في حقيقتها جزء من ماكينة كبرى تسمى " المجتمع الغربي " الذي يُربي أفراده علي الاهتمام بما يعود عليهم بالمنفعة ، أما العقل والجهاز العقلي فهما صندوق أسود يستحسن عدم الخوض فيه !! .. " ولهذا فإن هناك نوع واحد فقط من الأنظمة التعليمية التربوية موجه إلى المسئولين ، طبقة المتخصصين ، الذين ينبغي أن يُشربوا معتقدات ومصالح السلطة الخاصة وسلسلة الدولة المترابطة والمشتركة التي تمثل هذه السلطة . فإن أفلحوا في ذلك يصبحون عندئذ جزءاً من طبقة المتخصصين ." الذين يصلون إلي مواقع السلطة والقيادة " بفضل تقديم خدمات لذوي السلطان الذين يملكون المجتمع المؤلف من مجموعات صغيرة ضيقة . "[2]

بل إن أحد المفكرين الغربيين [3]يصرّح بأنه " يوجد في الديمقراطية التي تقوم بوظيفتها بصورة مناسبة طبقات من المواطنين . فهناك أولاً طبقة المواطنين ، الذين عليهم القيام بدور نشيط في إدارة الشؤون العامة ، فهم يحللون ، وينفذون ، ويتخذون قرارات ، ويديرون الأمور بأنظمة سياسية ، واقتصادية ، وأيدلوجية . وتشكل تلك الطبقة نسبة ضئيلة من السكان " [4]وأمّا الآخرون ، خارج نطاق المجموعة الصغيرة ، الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان ، فيجب علي النخبة أن تحمي نفسها من هذا القطيع من الرعاع [5] !!

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 30 .**
[2] **المصدر السابق ـ ص 16 - 19 .**
[3] **يدعى ليبمان lippmann**
[4] **هيمنة الإعلام– نعوم تشومسكي – ص 16 .**
[5] **هذا وصف " ليبمان " للجماهير .**

ولكي تصل النخبة إلي هذا الهدف ؛ فإنها تخيف أولئك الرعاع من أعدائهم الذين يتربصون بهم " فتنشئ وحشاً ضخماً كل سنة أو سنتين يتوجب عليهم الدفاع عن أنفسهم ضده .. كان هناك عدو جاهز وموجود دائماً ، ذلك هو " الروس " .. ثم أخذ هؤلاء " الروس " يفقدون جاذبيتهم كأعداء ، وأصبح استخدامهم يزداد صعوبة يوماً بعد يوم ، ولذلك تم استدعاء أعداء جدد ..!! وهكذا صُور للناس أن هناك إرهابيون دوليون ، وتجار مخدرات ، وغيرهم .." [1]، وتم " عرض هؤلاء الأعداء الواحد تلو الآخر للإبقاء علي الشعب خائفاً مرعباً يهيمن عليه الجبن ، فيخشي أفراده السفر ويظلون جاثمين منكمشين يرتعدون رعباً وهلعاً . وبعد ذلك يحقق السادة نصراً رائعاً علي أي جيش لا حول له ولا قوة من جيوش العالم التي يمكن سحقها قبل أن تزعج نفسك بالنظر إليها؛ فيُحدث ذلك انفراجاً في حياة الجماهير ، ويشعرون أنهم نجوا في اللحظة الأخيرة .. تلك هي إحدى الوسائل لصرف انتباه الرعاع عن ما يجري حولهم فعلاً ، وإخضاعهم للسيطرة باستمرار " [2]

فهل هذا مجتمع حرّ ، أم مجتمع استبدادي يقوم علي تهميش أفراده ، " وتوجيههم إلى منحى آخر ، مذعورين يصرخون بأعلى أصواتهم مرددين شعارات وطنية ، خائفين على أرواحهم ، معجبين والرعب يغمرهم بالقائد الذي يخلصهم من الدمار ، في حين أن الجماهير المثقفة تسير عرجاء كالإوزة مكررة الشعارات التي يفترض أن يكرروها مع انهيار المجتمع في الوطن ؟ " [3]

نعم .. ربما أتاحت النخبة في تلك المجتمعات بعض " أشكال " التحرر النسبي .. حرية التنقل .. حرية العمل .. حرية الاجتماع .. حرية الكلام .. حرية الصحافة .. ضمانات الاتهام و التحقيق و القضاء.. إلي آخر هذه " الأوهام " التي يكون " شكلها " جميل إلي حد لا يوصف ، ولكن " حقيقتها " هي أنها تستعبد الإنسان رويداً رويداً ؟!

فـ " إرادة الشعب " هي الشكل المزيف لـ " إرادة " المستبدين الذين صاروا " أصنافاً .. فمنهم من استعبد الناس بقوة السلاح .. ومنهم من ورث الملك عن أبيه .. ومنهم من امتلكه بانتخاب الشعب !!

فأمّا من أخذوه بقوة السلاح ، فهم يسلكون في رعيتهم سلوك المحتل الطاغي .. وأمّا من ورثوه عن أهليهم ، فهم ينظرون إلى الرعية نظرتهم إلى تركة العبيد ، ويتصرفون فيهم كما يتصرفون في ميراثهم ، .. وأمّا من ولاهم الشعب مقاليد الدولة ، فهؤلاء في الحقيقة يفوقون سائر الطغاة في جميع أبواب الرذائل ،

---

(1) **هيمنة الإعلام– نعوم تشومسكي ـ ص 40 – 43 بتصرف يسير .**
(2) **المصدر السابق . بتصرف يسير**
(3) **المصدر السابق ـ ص 62 .**

ولا يرون سبيلاً إلى تثبيت دعائم حكمهم إلا مضاعفة الاستعباد وطرد فكرة الحرية عن أذهان رعاياهم!! " [1]

إن معضلة الحرية في المجتمعات الغربية أن الإنسان هناك حر ومقيد فى آن واحد .. حر أن يفعل ما يشاء خاصة فى أمور الترفيه والملذات الشخصية ومتع الحياة ، ولكنه مقيد فى الحياة العامة من خلال آلة إعلامية مُسيّرة من قبل صنّاع القرار الحقيقيين الذين يوجهون الإنسان دائماً نحو خيارات لا تعبر بالضرورة إلا عن رغباتهم ، وذلك من خلال سياسات إعلامية وفكرية دقيقة ومقننة ومنظمة ، تم تحسينها وإتقانها عبر عشرات السنين من العمل الإعلامي الدؤوب ..ليمكن من خلالها " صناعة الموافقة" !!

وهكذا .. يساق " الإنسان " في الأنظمة " الديمقراطية " من خلال عصا الإعلام التي تسيطر علي عقله فلا يرى إلا ما يرى الطغاة والمستبدون ولا يتحرك إلا في الدائرة التي يرسمونها له .. كما يُساق في الأنظمة الديكتاتورية بلسع السوط وعصا المخابرات .. وكأن النخبة الحاكمة في الحالين كدأب آل فرعون الذين قال قائلهم لشعبه " ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد " ؟!

فمتي يدرك " الإنسان " لمن يعمل ؟ ومتي يعلم من المستفيد من جهده ؟ ومتي يتساءل إن كان يعيش عيشة البشر.؟ ومتي يتأمل حياته ليعرف أنها تُدار من خلال " وهم " كبير يُدعي " الحرية " .. قائم علي سحر التخييل الإعلامي " يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعي " .. ذلك التخييل الذي يؤكد الوهم من خلال :

• الخُدعة الكبرى

فقد أصبح الحديث عن " الديمقراطية " شغلاً شاغلاً لأكثر المثقفين والسياسيين . و بلغ الاهتمام بها إلي حد اعتبارها حجر الزاوية في حل كل المعضلات ، وراح البعض يتطلع إلي عالم " الديمقراطية " كما يتطلع السجين إلي عالم الحرية .. بل ربما رآها البعض الآخر الحل السحري لمحاربة الاستبداد من خلال ما يشاع عن تمتع الإنسان الغربي بـ " حقوق الإنسان " إلى درجة الإغراء بالهجرة إليه ، بالنسبة للقادرين عليها ، والانتماء إليه ، والانبهار به ، بالنسبة للعاجزين عنها ، حتى وصل الأمر ، إلى الإعداد لهجرة الأجنة ، قبل ولادتها ، وذلك بسفر الأمهات الحوامل للولادة هناك ، واكتساب حق الجنسية ..!!

---

[1] **العبودية المختارة - أتيين دي لا بوسييه - 1562 م .**

فما حقيقة النظام الديمقراطي ؟ وما مدي صدق تلك المقولة التي تؤكد حصول الإنسان في الغرب علي حقوقه ؟

إن الحقيقة أن " النظام الديمقراطي ، وبالرغم من الهالة التي أحيط بها ، حتى أصبح مفخرة من مفاخر الغرب ، وحلماً يتطلع إليه كثير من المخدوعين من أبناء المسلمين ليحمل في طياته من العيوب والنقائص ما شهد به المفكرون الديمقراطيون قبل المسلمين .. ذلك أن القرار في العالم الديمقراطي تقرره وتسوغه القوى الخفية المتحكمة من وراء الستار من رجال المصالح النافذين ، ورجال الأعمال المنفذين ، ثم يعلنه الممثلون على المسرح باسم الشعب الغارق في لهثه وراء الرزق ، وفى أمواج الشهوات ، ولهيب الجنس مجرداً من أي قيم أو مُثل ، نابعاً من المصالح المادية وحدها " [1]

قد يؤكد البعض هنا أن الديمقراطية في الغرب قد رفعت من قيمة الإنسان وكرامته ومنحته كيانه الإنساني وحقوقه المشروعة .. " وبدون جدل كثير سنقول لهم نعم ! إن الديمقراطية. عندهم. قد أعطت " الشعب " حق الوجود ، ومنحته حقوقاً وضمانات لم يكن يتمتع بها من قبل ، وجعلت " للفرد " كياناً لا يملك أحد أن يعتدي عليه .. وبصرف النظر عن كون هذه الحقوق والضمانات قد نالها الشعب بالدماء والدموع وأنها لم تصبح عرفاً راسخاً حتى علم من أراد أن يعتدي أن " الآخر " لن يسكت له ، ولن يمكنه من العدوان عليه .. بصرف النظر عن هذا " [2] فإنها. حين نتأملها بعين الحقيقة. لا تعدو أن تكون " مسرحية جميلة تُخَيِّل لمن يطلقون عليه اسم " رجل الشارع " أنه هو الذي يحكم ، بينما الذي يحكم في الحقيقة هو رأس المال ، وهو الذي يدير العملية السياسية كلها لصالحه. ومنها أخذ القرارات بالأغلبية العددية التي يتساوي فيها النابه ذو الخبرة ، والإمعة الذي يلتزم بقرارات حزبه بحكم كونه نائباً عن الحزب، فيصوت لكل قرار تصدره حكومته دون النظر إلي فائدته أو ضرره !! " [3]

إن مبدأ صوت واحد لكل فرد يوحي بالعدل والمساواة ، ولكنه في الحقيقة يساوي بين رأي العالم ورأي الجاهل ، الرأي الذي يعبّر عن المصالح العامة والرأي الذي يدافع عن المصلحة الخاصة ، الرأي الموضوعي والرأي الشخصي ، بل ربما كان هذا التصويت بتلك الصورة سبيلاً إلي برلمانات ليست إلا مكاناً للثرثرة !! ذلك أن الإنسان في الغرب وفي العالم يتعرض لمحّددات متنامية وغير مباشرة لحريته أكثر مما عرفته البشرية سابقاً . فالإعلان والإعلام الخفي الموجُّه والاستعمال المكثُّف لأدوات التوجيه

---

[1] التعبير عن الرأي ، ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية – رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفقه – خالد بن عبد الله بن دايل الشمراني – جامعة أم القرى ـ ص 443 ، 444 بتصرف يسير .

[2] دروس من محنة البوسنة والهرسك ـ محمد قطب ـ ص 34 ، 35

[3] المصدر السابق . ص 34 ، 35

والإيحاءات النفسية والاجتماعية تحاصر الإنسان ، فتتحول " الديمقراطية " إلي ستار كثيف من الدخان لتمرر عبره للحرية أشد الضربات خبثاً ومكراً .. ويتم من خلاله كم الأفواه تحت راية حماية الوطن والدفاع عن الشعب ؟!

وكم رُفعت في الغرب قضايا عديدة ضد أكثر من مفكر وكاتب ومؤرخ لمجرد أنه " عبّر عن رأيه " بالتشكيك في الهولوكوست نفياً أو تقليلاً من عدد الضحايا .. ورأينا كيف تم تقييد " حرية الرأي " ومصادرة " حرية التعبير " لأولئك الأفراد من المفكرين ، بل وجدنا أنه يمكن أن يكون مآلهم هو السجن .. وكل هذه أمور عكس الحرية تماماً ..!!

فبأي معنى من معاني الديمقراطية يحدث ذلك ؟

" إنها ديمقرطية منع الجماهير من إدارة شئونها ، وإبقاء الإعلام تحت هيمنة صارمة ضيقة . ربما يبدو هذا التصور منافياً للديمقراطية ، ولكن من المهم جداً أن يدرك أن هذا هو المفهوم السائد للديمقراطية ... " [1]. وأن الحقيقة أنه ليس هناك " سوى ديمقراطيات مزيفة .. ترتكز على الوهم والخداع .. فميثاق استقلال الولايات المتحدة ينادي بالمساواة بين البشر ، ويبقى على الرق لمدة قرن .. بل لقد دام التمييز العنصري تجاه السود قرنين .. و الدستور الفرنسي الأول ، يعلن في إعلان حقوق الإنسان والمواطن : " البشر يولدون أحراراً ومتساوين في الحقوق " . ثم يستثني في مواده ثلاثة أرباع المواطنين المعلنين " مواطنين غير فعالين " من حق الاقتراع .. " [2]

إن حقيقة هذا النظام الديمقراطي أنه " قائم على أساس سيطرة رأس المال . إذ أن أصحاب رأس المال هم الذين يفوزون بمقاعد المجلس النيابي .. وأمّاّ الفقراء فيفوتهم ذلك لأنهم لا يجدون ما ينفقون على دعاياتهم الانتخابية ..ومن ثم يؤول أمر الحكم إلى طبقتين رئيستين : طبقة أصحاب الأموال ، ومنهم أعضاء المجلس النيابي .. وطبقة عموم الشعب .. الأولى موقعها موقع : السادة ، والثانية موقعها موقع العبيد " [3]

وهكذا هي الديمقراطية دوماً تمويهاً لسلطة أقلية من الأقليات ، من مالكي العبيد إلى مالكي الثروات ، و تشهد علي ذلك الحملات الانتخابية في أكثر الدول " ديمقراطية " ، والتي تسقط تحت عجلات قطار مصالح الشركات الكبرى ، وتنتشر فيها رائحة تجارة الأسلحة والمخدرات وغسيل الأموال ، وتقود

---

(1) هيمنة الإعلام– نعوم تشومسكي – ص 10 .
(2) حفارو القبور – نداء جديد إلى الأحياء – غارودي - ص 145، 146 .
(3) الإسلاميون وسراب الديمقراطية – عبد الغني بن محمد بن إبراهيم بن عبد الكريم الرحال - ص 49 .

الحملات الانتخابية فيها مافيات مالية تلعب بعقول الناس ، وتشتري الأصوات بقوة المال ، وتتلاعب بالضمائر ، وتمكّن من تريد من القعود على ظهر العباد..

وهكذا .. لم " يعد الجهد المبذول في تزوير الانتخابات محصوراً في إغراء الناخبين ، أو وضع أوراق مزوّرة في صندوق الانتخابات ، أو في تغيير الصندوق بآخر أثناء نقله من مركز الانتخابات إلى موقع فرز الأوراق الانتخابية فحسب .. بل تعدى ذلك إلى تزوير كبير وواسع مدعّم بقوة المال وقوة السلاح .. وأصبح القائمون على عمليات التزوير يمثلون دولاً ومؤسسات تملك أموالاً لا حصر لها ، وتتحالف من أجل غاية محددة ، هي عالم مغرق في الزيف بدلاً من عالم الحقيقة والمصداقية "[1]

ولا شك أن الديمقراطية بهذه الصورة " لا تعدو أن تكون مجرد شكل بلا مضمون ، أغلبية وأقلية ، وانتخابات فردية ، ودعاية وإعلام بما لدى المرشح من إمكانات مالية ، وتبرعات فردية أو من جماعات الضغط لتنفيذ مطالبها بمجرد نجاح المرشح .. فإذا نجحت الأغلبية فإنها تفرض إرادتها على الأقلية وتملي شروطها عليها . وإذا تحولت الأقلية إلى أغلبية ، والأغلبية إلى أقلية في الانتخابات التالية يتغيّر القانون !!

لقد " ابتكر الغرب آليات استخدمها لوضع الديمقراطية موضع التطبيق . ومن هذه الآليات ما يتعارض ومنطق الديمقراطية ذاته ، ومنها ما يتناقض تماماً وما كتبه فلاسفة الديمقراطية .. فإذا عدنا للآليات التي استحدثها الغرب لممارسة الديمقراطية لأمكننا حصرها في :

نظم الانتخابات ، وتعدد الأحزاب ، والفصل بين السلطات .

ونظام الانتخابات ليس أصلح الآليات للاختيار ، بل إنه ليس " ديمقراطية " في أغلب الأحوال .

وما من نظام انتخاب في أية دولة ، صغيرة أو كبيرة ، إلا ويشوبه التدليس والغش ، سواء في الدعاية ، أو في ترتيب المرشحين بالقوائم ، أو بالرشوة ، أو الضغط الأدبي ، أو المادي ، أو بتغيير قانون الانتخابات بما يخل بتكافؤ الفرص ، أو بالتزوير المباشر ...

.... فإذا ما انتقلنا إلي الأحزاب ، لوجدنا أنها منظمات تسعى إلى الوصول إلى الحكم ، لتطبيق برامجها ، والتمتع بمزايا السلطة ، وفضلاً عن اتباعها لكل الأساليب المشروعة ، وغير المشروعة ، التى أقلها التحايل بغير المشروع للوصول إلى المشروع ، فإنها فى الحقيقة تحدث الفرقة بداخل الأمة ، ولا يمكن لأى

---

[1] **الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية – مركز دراسات الوحدة العربية - ص 338 بتصرف يسير .**

فرد الانضمام إليها إلا بشروط معينة ... وهي تفرض على أعضائها ما يسمى بـ " الالتزام الحزبي " ، أى الدفاع بالحق أحيانا ، وبالباطل غالبا ، عن موقف الحزب وسياسته ، وإلا تعرض العضو للفصل ... فالأحزاب هى الأخرى منظمات لتزييف الإرادة .. كما أنها تؤكد فكرة " تسلط القِلة " فى أسوأ صورها ، فهي بطبيعتها منظمة تنظيماً هرمياً . والحزب الذى يصل إلى الحكم تسيطر القلة المتربعة على قمته على كل سلطات الدولة . وهذا أمر لا مفر منه . وقد تكون هذه القلة صالحة ، إذا كان أعضاء الحزب كذلك ، وفاسدة إذا لم يتوفر الصلاح فى أعضاء الحزب ... ويمكننا توقع أى النتيجتين بالنظر إلى الجهة التى تموّل الحزب .؟!

فإذا ما وصلنا إلى الآلية الثالثة التى تمارس بها الديموقراطية ، وهي " الفصل بين السلطات " ، والتى يقول عنها أنصار الديموقراطية الغربية إنها الضمانة الأولى لممارسة الديموقراطية – لدرجة أن الكثير من الدساتير الديموقراطية تنص عليها صراحة – لوجدنا أن هذه الآلية ، شأنها شأن أفكار البرلمانات والانتخاب والأحزاب ، تعد استثناء على الفكر الديموقراطي الغربي ، كما صاغه فلاسفته ، فـ " جان جاك روسو " الذى يسمون كتابه " العقد الاجتماعي " " إنجيل الثورة الفرنسية " يرفض فكرة الفصل بين السلطات .

وككل الأفكار التى بنيت عليها الديموقراطية الغربية ؛ فإن فكرة الفصل بين السلطات هي فكرة وهمية لم تحدث فى واقع التطبيق العملي ؛ بل سرعان ما تحولت فكرة الفصل بين السلطات إلى نظام للتدرج بين السلطات . وبحدوث الثورة التقنية " التكنولوجية " فى مجال المعلومات ، واتجاه النظم الحاكمة المعاصرة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى إدارة الدولة من خلال ما صار يعرف " بإدارة الأزمات " ، وتطور هذه إلى ما صار يسمى " الإدارة بالأزمات " ، ثم ظهور فكرة " الدبلوماسية الوقائية " منذ مطلع العقد الأخير من القرن العشرين ، حدث تطور فى العلاقة بين سلطات الدولة بحيث أصبحت السلطة التنفيذية تهيمن على إدارة أمور الدولة ... وتراجع دور البرلمانات بسبب تزايد العلاقة المباشرة بين السلطة التنفيذية والرأي العام . وهذه العلاقة تتطور تدريجياً كلما تزايد التقدم فى مجال المعلومات ووسائل الاتصال والبث الإذاعي والتليفزيوني ، بحيث أصبحنا إزاء علاقة توجيه للرأي العام أكثر منها علاقة قياس للرأي العام ..

إن الديمقراطية فيها قدر كبير من التناقض وخداع العامة السذج من الناس ، الذين اطمأنوا إليها وسلموا إليها قيادهم ؛ لأنها تمكنت من تحقيق الإشباع المادي للمواطن ، ذلك الإشباع الذي اعتمد ، في

حقيقة الأمر على ، سلب ثروات الشعوب الأخرى ، وذلك في ظل المبدأ المشهور : دعه يعمل ، دعه يمر . " [1]

" إن الشعب يعتمد في تفضيله بين المرشحين على الإشاعات السائدة ، وعلى ما يتمتع به المرشحون من شهرة ، لاسيما إذا لم يكن يعرف شيئاً موثوقاً عنهم يعتمد على ما حققوه من أعمال عظيمة .... وهناك حالات أخرى يكون الاعتماد فيها على ما يقال ، وهنا يصبح من النقاط المهمة أن يشاع عنهم ارتباطهم بالأشخاص من ذوى الأفكار الجيدة ، ومن ذوي الخصال الطيبة ، والمعتبرين عند الجميع من عقلاء الرجال " [2] .. ولذلك فإن من يملك رأياً معتبراً في صناعة القرار هو من يملك المال أو وسائل الإعلام، فأمّا من يملك المال فإنه يتوسل إلي ما يريد بشراء ولاء السياسيين .. وأمّا من يملك وسائل الإعلام فإنه يتوسل إلي ذات الهدف عبر الدعاية السياسية ، بكل ما تتضمنه من ترويج لبعض السياسيين والإعلاء من شأنهم ، والغض من آخرين والتشهير بهم ، والتعبئة لقضية من القضايا لدى الرأي العام حتى لا يجد السياسي بدًّا من القبول بها مهما كان اقتناعه الشخصي والتزامه لناخبيه ، أو التعبئة ضدها حتى يتبرأ منها جميع السياسيين طوعا وكرهاً ..!!

لقد أصبح كل المجتمع الغربي من قمته إلى قاعدته أشبه بآلة استعباد كبرى !! ؛ فرئيس الجمهورية يختاره كبار الرأسماليين الذين يدعمون ترشيحه لهذا المنصب ، ويصرفون على دعاياته وأحزابه ، والرأسماليون الكبار يتبعون بدورهم نظاماً اقتصادياً معقداً لا إرادة لهم في اختيار غيره ، لأنهم مرتبطون بالبنوك والعمال والشركات والمصانع ، ومرتبطون بديناميكيات المجتمع ، وقوانين السوق القائمة بدورها على قانون العرض والطلب ، وبالتالي مرتبطون بمجموعة متكاملة من القوانين التي لا تدعهم يملكون من أمرهم شيئاً ..!!

فإذا نزلت قليلاً إلى المدراء وأصحاب المكاتب .. وجدت هؤلاء بدورهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، لأنهم موظفون كأدوات ، وكل واحد منهم يدير شيئاً بسيطاً ، ولا علم له بما يجرى فى الغرفة المجاورة له .. وهكذا هبوطاً إلى العمال الذين يدارون إدارة ذاتية كالآلة الصماء !!

ويمكننا أن نصور هذه الآلة برسم صرة مكتنزة بالدولارات تعلو خمس طبقات .. الطبقة الحاكمة وبجانبها عبارة " نحن نحكمكم " . وأسفل منها يبدو أعوان الحاكم وسواعده من الكهنة وبجانبها كلمة " نحن نخدعكم " .. أما الطبقة الثالثة ، فهي ممتلئة بالجنود والأسلحة وبجانبها كلمة " نحن نقتلكم " ..

---

[1] **كيف نفكّر إستراتيجياً – د. فوزي محمد طايل - ص 180 .**
[2] **مطارحات مكيافيللي – نيقولو مكيافيللي – تعريب خيري حماد - ص 725 بتصرف .**

وأمّا الطبقة الرابعة فتجلس فيها طبقة مترفة منعمة تأكل من عرق وجهد المساكين ، وبجانبها كلمة ساخرة " نحن نأكل من أجلكم " .. وفي الأسفل يرتمي حشد لا نهاية له من الجياع والأطفال المهملين والعائلات المحطمة وبجانبهم جملة " نحن نعمل من أجل الجميع ، نحن نطعم الجميع " !!

" إن السيادة والسلطة في النظام الديمقراطي ليست في يد الشعب حقيقة .. بل إننا عند التدقيق نجد أنها تحكم من قبل أقلية الشعب ، وذلك للأسباب الآتية :

ا – إن انتخاب نواب الأمة لا يتم من قبل كل أفراد الشعب ، بل من جزء منهم ، وهم الذين تتوفر فيهم صفات الناخب ، فمن لا تتوفر فيه هذه الصفات كالذين لم يبلغوا السن القانونية ، فإنهم لا يشتركون في الانتخاب .

ب – عزوف جزء ممن تتوفر فيهم شروط الانتخاب عن المشاركة الفعلية في العملية الانتخابية ، وبالتالي ، فإن من يفوز في الانتخابات ليس من يحوز على أصوات أغلبية الشعب ، وإنما من يحوز على أغلبية المشتركين في الاقتراع .

ج – إن اجتماعات البرلمان تكون صحيحة بحضور الأغلبية المطلقة (نصف الأعضاء + واحد) ، كما أن قرارات البرلمان تعتبر صحيحة إذا وافقت عليها الأغلبية المطلقة ، وبالتالي فإن النتيجة النهائية للعملية الديمقراطية صدور قوانين بقرار من أقلية ضئيلة من الأمة ، وليست بقرارات الأمة ، ولا بقرارات أغلبيتها .

2 – إن نواب الأمة لا يعبرون عن إرادة الأمة ولا يمثلونها إذ أن النائب يخضع فى الغالب لإرادة الناخبين فى دائرته الانتخابية ويجاري رغباتهم ، وإن كان ذلك على حساب مصلحة الأمة طمعاً منه فى أن يعيدوا انتخابه ..

وهكذا يصبح النواب يمثلون مصالح متباينة هي مصالح الناخبين ، وليس مصالح الأمة العامة ..

وبالتالي فلا يمكن اعتبارهم ، والحالة هذه ، نواباً عن الأمة .

3 – إن الديمقراطية تنتقص الكفاءات ، وتقضي على المميزات الفردية ولا تقيم للصفوة الممتازة أي وزن في التأثير على سير الأحداث . إذ أن الديمقراطية تعطي حق الانتخاب للعاجزين عن معرفة من يصلح لمنصب النيابة عن الأمة ، وحتى لو كان لدى هؤلاء الناخبين قدرة على اختيار الأصلح من

المرشحين ، فإنهم يخضعون لإرادة الحزب الذي ينتمون إليه ، فينتخبون من يأمرهم الحزب بانتخابه وإن كانوا لا يصلحون بالنيابة عن الأمة .

ومما يزيد الأمر سوءاً أن البرلمان لا يملك فقط حق التشريع ، وإنما يحق لأكثرية البرلمان الذين ينتمون في الغالب لحزب واحد تأليف الحكومة ، ومن حق هذه الحكومة أن توزع الحقائب الوزارية كيفما شاءت، وبما يخدم مصالح الحزب ، لا على أساس التخصص فقط ..

4 – إن النظام الديمقراطي يقضي على وحدة الأمة ويفتتها إلى أحزاب متناحرة وتكتلات متناطحة مما يؤدي في نهاية المطاف إلى الإضرار بالمصالح العامة للشعب .

5 – إيجاد طبقة ثرية مسيطرة توظف اللعبة الديمقراطية لمصالحها ونفذها ، إذ أن من الحقائق المقررة ، أن المصالح المادية هي الدافع الوحيد والمحرك الرئيس للعمل السياسي في الدول الديمقراطية . وهو أمر تظهره الدول الديمقراطية دون مواربة ، فباسم ضمان التفوق الاقتصادي وتوفير المجال الحيوي للشعوب وغيرها من الشعارات المضللة ، تقوم إمبراطوريات المال في هذه الدول ، والتي تتحكم في السياسة الخارجية والداخلية مباشرة أو عن طريق الضغط على السلطة الحاكمة لسن القوانين التي تحمي مصالحها ، وتزج بسياسة الدول بما يخدم أغراضها النفعية الخاصة ، بينما يظن الشعب المغلوب على أمره أنه سيد نفسه ومقرر مصيره .

6 – تزييف وتطويع الرأي العام عن طريق وسائل الإعلام – المكون الرئيسي للرأي العام – والتي تملكها الطبقة الرأسمالية المتنفذة ، مما يضمن فوز المرشحين الموالين لها ، ونجاح مخططاتها . وهذا التضليل لعقول الناخبين يتعارض مع ما تدعيه الديمقراطية من توفير فرص متكافئة لجميع الذين يريدون الإقناع أو التعبير عن الرأي . " [1]

إن الديمقراطية في حقيقتها ، هي أكبر عملية نصب فكري .. وهي ليست حكم الأكثرية .. بل هي حكم الأقلية !! .. ومن ثم فهي " إكراه " للأكثرية ، و " استعباد " للبشر يتفاوت في " شكله " بين " طاغية يقول : " تسعة مواطنين من أصل عشرة يكرهونني؟ وما أهمية ذلك إن كان العاشرُ وحده مسلحاً! " [2] ، وآخر يقول : "لقد انتهيت أنا وشعبي إلى اتفاق يُرضينا جميعاً، يقولون ما يشتهون، وأفعل

[1] التعبير عن الرأي ، ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية – رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفقه – خالد بن عبد الله بن دايل الشمراني - 444 - 446 . ، وراجع إن شئت النظم السياسية والقانون الدستوري د . الطماوي ص 142 – 154 ، العلمانية د. سفر الحوالي ص 240 – 252 ، ونظام الشورى فى الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة ص 253 – 260 .

[2] الطاغية - د. إمام عبد الفتاح إمام - ص 209 .

ما أشتهي " [1] .. فأمّا الأول ، فهو استبداد واضح المعالم ، وظلم لا عدل معه ، ولا رحمة فيه .. وأمّا الثاني، فأصحابه يدعون أنهم حماة الحرية ، ودعاة الديمقراطية ، ولكنهم لا يريدون من الديمقراطية إلا تحقيق مصالحهم ، فحيثما " تكون الديمقراطية متمشية تماماً مع المصالح ، فلابد من تعزيزها ، أمّا عندما تصطدم الديمقراطية مع مصالح ذات مغزي ، فإنه يتم الحط من قدرها، بل وتجاهلها " .[2]

ولا شك أن فساد الواقع إلى هذا الحد يوجب علينا جميعاً أن نحاول محاربة الاستبداد ، ولو بمداد القلم الملتزم ، والقول الشجاع . والتأكيد علي أن الإنسان فى معظم أنحاء العالم اليوم ، يعيش وضعاً مأساوياً يسعي الأقوياء في ظله إلي الانفراد بمصادر العيش ، وقتل المستضعفين بسلاح " الجوع " و " الفقر " ، ويعاونهم في هذه الجريمة :

• لصوص الكلمة السواء

توجه من يرون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن كل البشر غيرهم ، إن هم إلا خدم لهم ، يتناقلوهم كالمتاع الذى يملكونه .. توجهوا " إلى إنشاء الأمم المتحدة ، والتي في إطار دستورها الذي أعطى حق العضوية الدائمة في مجلس أمنها لدول محدودة ، و " حق الفيتو " مع حق العضوية الدائم .. و من خلال هذا الوضع تمت الاتفاقيات والمعاهدات ، وكان أخطرها معاهدة بيكر التي تم الاتفاق فيها على وضع العالم تحت وصاية ومسئولية الدول المساة بالعظمى ..!! " [3] ، وبروز ما يسمي " حق الفيتو " لإيقاف كل شيء ولإسكات كل صوت وإغلاق كل فم .. وبهذا أصبح العالم طبقتين سادة وعبيد .. فالحل والعقد بيد خمس دول يفرضون الوصاية على العالم ، ويغتالون إرادته .. ويعوقون ولادة العدل ، ويمنعون نمو الحرية بشكل صحيح !!

إن حق " الفيتو " يعني أن العالم كله لو صوت لأعدل قضية ، فيمكن لأحد أعضاء مجلس الأمن الدائمين أن يجهضها ، وهو يقسّم العالم إلى فريقين ، أقوياء يملكون إلغاء إرادة كل البشر ، وضعفاء ليس لهم إلا الرضوخ لقرارات الأقوياء ، في حكاية طويلة عن اضطهاد الأقوياء للضعفاء .. وباستعراض بسيط لتاريخ هذه " الأمم المتحدة " منذ ولادتها وحتى الآن ، نرى أن أكثر القرارات لا تزيد في قيمتها عن الورق الذي كتبت عليه. ما لم تكن ضد الضعفاء .. وأنها لا تعدو أن تكون مغارة لصوص يصادر فيه الاقوياء العدل بـ " حق الفيتو " ، وكأن أولئك الأقوياء لا يخطئون ، بينما الآخرون كل عملهم خطأ

---

[1] المصدر السابق - ص 74 .
[2] ناعوم تشومسكي، تعزيز الديمقراطية في الشرق الأوسط، الخليج تايمز، 6 مارس، 2005 م
[3] التصور السياسي للحركة الإسلامية – رفاعي سرور - ص 118 بتصرف .

ولا صواب عندهم ولا حق لهم في الوجود ، ينبغي أن يبادوا وأن لايبقى منهم أحد .. وليس هذا فقط بل يجب أن يُمحي من ذاكرة البشرية معنى العدل ومعنى كلمة السواء ويرسخ بدلاً من ذلك الظلم !!

لقد هرع أهل الأرض إلى الأمم المتحدة يلتمسون لديها العدل والنَّصَفَة في أكثر من قضية ؛ فلم يؤوبوا إلا ببضعة قرارات ، ولم ينفذ منها – على الرغم من هشاشتها – إلا ما كان في صالح الطرف المعتدي !؛ فمدت أشجار الاستبداد ظلال الرعب علي شعوب بأكملها ، وضربت جذورها أميالاً في التربة النفسية لهذه الشعوب ، وأصبح نظام " الخوفقراطية " وسيلة لحكم العالم .. حيث تم الزجّ بالإنسان في دوامة الخوف ، **الخوف من الجهر بالحق في وجه هذا الاستعباد للبشر ..** الخوف من إمساك عصا الحرية لتحطيم أصنام العبودية التي تملأ قاعة هذا المجلس الذي يضم أعضاءه بداخله ، وكأن كل منهم " سجين " ، ثم داخل هذا " السجن " .. أقصد القاعة يتم أخذ الأصوات علي القرارات ، التي يمكن أن يلغيها كلها عضو واحد يملك " حق الفيتو " .. وكأننا نشاهد مسرحية هزلية ، أو نمارس لوناً من ألوان الجنون الجماعي الذي يأتي به إلى الناس غياب الحرية في منظمة الأمم المتحدة ..

وقصدت منظمة الأمم ولجان العمل الدولية

وسألت مجالس أمتهم والهيئات الإنســانية

ميثاقكم يعني شيئا بحقوق البشر الفطرية

أو أن هناك قرارات عن حد وشكل الحرية

قالوا الحرية أشكال ولها أســـس تفصيلية

حسب البلدان وحسب الدين وحسب أساس الجنسية [1]

إن ثقافة القوم هي العنصرية .. عنصرية الرجل الأبيض أو تفوق الشعب المختار الذي يرى أنه ذروة الشعوب ، ومن ثم فهو يرى أن الصورة الوحيدة للتعامل هي استباحة الأعراض والأموال لباقي الشعوب { قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[آل عمران75]. لأن باقي الشعوب.بحسب ثقافته.هم " الجوييم " !! .. ومن ثم لا يقوم التعامل علي المساواة والعدل ، وتحقيق المصالح العامة للبشرية ، وإنما علي المغانم الخاصة لشعب معين .. ومن ثم يبقى التعامل مع الاخرين قائماً علي مبدأ القوة ، وليس قوة المبدأ .. ومؤسسة الوصاية عليهم هي الأمم المتحدة التي لا

---

(1) **من قصيدة لـ " محمد نموس " بمجلة البيان ، العدد 26**

تختلف كثيراً عن الاستبداديات التي يحكمها طاغية وحاشيته ، بغير دستور ولا قانون .. بل ربما تكون الأمم المتحدة أسوأ ؛ لأن دستورها لا يوجد فيه حتى المساواة النظرية ، بل ينص على حق " الفيتو ". فتغيب من واقعه " الكلمة السواء " !!

يرى الآدميين مثل القطيع فهم لفم الذئب رزق حلال [1]

لقد أصبح حال العالم يشبه إلي حد كبير ما كانت عليها الدنيا قبل بزوغ الإسلام ، فقد " كانت الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راعٍ ، و السياسة كجمل هائج حبله علي غاربه ، و السلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه و يجرح أولاده و إخوانه "[2].. فجاء الإسلام ليحرر تلك الجموع من خلال " الكلمة السواء " .. التي أصبح البشر اليوم في **غاية الاحتياج** لها حتي لا يتخذ بعضهم بعضا "أربابا" من دون الله : {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلّا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ..} [آل عمران – 64].

لقد وهب الله الإنسان الحرّية .. وصادرها الآخرون من خلال مؤسسات سياسية تسلب الناس حريتهم، بحجج وأعذار شتى ، لتجعلهم مجرد قطيع من الماشية .. ولكل قطيع راعيه الذي يحرسه ليفترسه !! .. ولقد جاء دور المسلمين { الّذين يَتبعونَ النبيّ الأُمِّي الّذي يجدونهُ مكتوباً عندهُم في التوراةِ والإنجيلِ يأمرهم بالمعروفِ وينهاهُم عن المنكرِ ويحلُّ لهُم الطَّيِّباتِ ويحرِّمُ عليهم الخبائثَ ويَضعُ عنهم إصرهُم والأغلال الّتي كانَت عليهم } [الأعراف / 157] .. جاء دورهم ليضعوا عن البشرية الآصار والأغلال التي صارت عليها ، ويحرروها من لصوص الكلمة السواء .!!

الحرية لا تعطيها هيئات الكفر الأممية

ومحافل شرك وخداع من تصميم الماسونية

هم سرقوها أفيعطوها ؟ هـــــذا جهل بالحرية

الحرية لا تستجدي من سوق النقد الدولية

والحرية لا تمنحها هيئات البر الخـــيرية

[1] محمد إقبال - راجع إن شئت " ديوان محمد إقبال " - ج 2 ص 392 .
[2] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي - ص 89 .

هذا ما نعلمه ، و نعرف أننا نعانيه .. ولكن ما أسرعنا إلي تجاهل ما نعلم ، ونسيان ما نعرف !! فهل نصدق أنفسنا لنري أنه لا فرق فيه بين استبداد أباطرة الغرب وقياصرتها , واستبداد حكام الشرق وملوكه ؟ وهل نقرر هذه الحقيقة التي ربما أوقعنا الصدع بها في مأزق ؟ .. أم نعيش في نفاق محض لا يؤدى بنا إلا لمزيد من الكوارث ؟ .. أو نبقي علي نظرتنا إلي الحرية وكأنها :

- القيمة المستحيلة

لست ممن يحبون ترويج الأماني علي أنها الواقع .. أو يكتبون من خلال الكلمات والأوراق باحتراف يضيع مع الصدق ؛ ولذلك فإني لا أقول إن المجتمعات الغربية أو الشرقية هي حامية الحرية ، ولكنهم المسلمون ، بل إن الواقع يشهد أن " معظم شعوب الأرض حالياً تنقسم إلي فئة متسلطة مغتصبة لا تمثل سوي جزء بسيط من كل شعب ، وأغلبية مقهورة أو مخدوعة أو مستغلة حسب النظام المطبق ، وأخلاقية أولي الأمر . "[1].. يقع هذا في أرقى الديمقراطيات ، كما يقع في أحط الدكتاتوريات سواء ..وإن اختلف " الشكل " من أرض إلي أرض في نسبة الاستعباد ، ومدى استشرائه ، وحالة " قبول " أو " رفض " المجتمع له .. ولا عبرة بتغيّر الأشكال ، وتنوع الأسماء ، إذا اتحدت القاعدة التي تقوم عليها الأشكال والأسماء ، من إهدار لكرامة الإنسان وكيانه في ظل عبودية لمستبد لا يرحم ولا يصيخ سمعاً لصراخ المستعبّدين ؟!

إن القيود التي تقيّد حرية الإنسان في الغرب كثيرة ، فمنها " الحكومة والقانون . ورغم دعوى فصل السلطات ، فإن الحكومة والقانون وجهان لعملة واحدة ، إذ الغالب أن الحكومة لها نصيب الأسد فى سن القانون وتشريعه ، وغالباً ما ينحاز القانون لمصلحة الفئة القابضة على زمام الأمور ، وبإمكانه تقييد الحرية متى شاء بحجة الأمن القومي وسلامة النظام . أمّا الحكومة فقد صنع منها الغرب وحشاً أسطورياً كما تصوره الفيلسوف " هوبز " ، إذ بيدها مقاليد كل صغير وكبير ، ولها وظائف متعددة كثيرة وتسيطر على كل شاردة وواردة حتى أنفاس الخلق ، وإذا اتسعت مساحة الحكومة ضاقت مساحة الحريّة . فالحكومة الغربية المعاصرة تحمل فى ذاتها الاستبداد وعوامل كبت الحريّة . "[2]

لقد حولوا الإنسان إلي عبد " وتعاملوا معه بقسوة ، وحملوه فوق طاقته ، ولم يقيموا وزناً لإنسانيته ، ولا لمكانته ، فقدموا ما هو مادي على ما هو اجتماعي وإنساني ... واقترنت بهذه القسوة " مكيافيلية

---

[1] في سبيل شباب مسلم متحرر – أحمد راتب عرموش - ص 19 .
[2] راجع إن شئت مقال " الحريّة : مدخل إلى رؤية إسلامية – د. بسطامي محمد سعيد خير– المنتدى الحضاري – muntadana.com

سياسية " تقوم على مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " وتتلمذ الحكام في مدارس الاستبداد والظلم ، وأتقنوا فنون قمع الحريات ، ودوس الكرامات ، وسلب الأرزاق ، فباتت الحرمات غير مرعية ، واستباح المستبدون كل شيء من أجل أن يرضوا شهوتهم إلى التسلط والسلطة !! " [1]

ففي أمريكا " هذا البلد الذي "يقدس " – بزعمهم – الحريات .. ينقلب التقديس فيه إلي " إلحاد " عندما يكون الإرهاب خارجياً ، بحيث يصل الرد عليه لغاية انتهاك حرمة الدول الأخرى " [2]، بل رأيناها تتوسل لفرض سيطرتها وهيبتها وإشباع مصالحها بأفتك أسلحة الدمار ، وأرهب سياسات التضليل الإعلامي .. بل لقد نقلت سفن أوروبا إلى أمريكا 3 ملايين عبد من أنجولا وحدها !! .. اختطفوا بكل ضروب الخداع والإرهاب والوحشية .. ليباعوا في أسواق الرقيق وبورصة العبيد في أرض الحرية والمساواة !!!!

إن هذه الدولة " الديمقراطية " ..!! تقهر الإنسان ، وتفتك بطاقات وكفاءات الشعوب .. وتمنع .في ذات الوقت .الشعب الأمريكي من حرية الفكر أو الحوار ، حتي أن " أليكس توكفيل " صاحب أهم الكتب عن الشخصية الأمريكية فى القرن الماضي يقول : " أنا لا أعرف بلداً يعاني من النقص الشديد فى الاستقلالية الفكرية والحرية الحقيقية فى النقاش والحوار ، أكثر من أمريكا " [3]

" وفى بريطانيا ، مازلنا نذكر ازدواجية المعايير التي ظهرت فيها السيدة تاتشر.رئيسة الوزراء .. ففي الوقت الذي رفضت ضغط المسلمين لمنع رواية " آيات شيطانية " لسلمان رشدي ، بدعوى أنه يمس بالمنظومة الثقافية والفكرية للمجتمع البريطاني ، إلا أنها ظلت تدافع بضراوة عن قرارها في منع كتاب " صائد الجواسيس " دون أي اعتبار لمنظومتها المقدسة !!!

وفى فرنسا التي انطلقت منها – بزعمهم – المبادرات الأولى لكسر.المحظورات ، فإنها أخضعت أحد كبار فلاسفتها وكتّابها " روجيه جارودي " للمحاكمة والتضييق والتشهير " [4]

وإن كانت هذه هي حال الإنسان في مجتمعات ما يسمي بـ " العالم الحر " ؛ فإن حاله في غيرها من المجتمعات لا يحتاج إلى بيان ، **حيث** لا يتمتع بأية حصانة ، فى مجتمع تفوح منه رائحة الذلة ، ليس عنده

---

[1] **العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د . أسعد السحمراني** - ص 12 .
[2] **النفس المفككة ، سيكلوجية السياسة الأمريكية – د . محمد أحمد النابلسي - ص 53 .**
[3] **الشخصية الأمريكية – د. باسم خفاجي - ص 68 .**
[4] **الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية – مركز دراسات الوحدة العربية - ص 464 ، 465 .**

قوت يومه ، وغير آمن على عياله ، ولا يعرف ماذا يحمل له المستقبل من هموم ، بل لا يمر عليه يوم إلا والذى بعده أشرّ منه ..!!

لقد تقهقر العالم وعاد مرة أخرى إلى مراحل الانسحاق الإنساني ، وصار إلى نوع من الارتداد إلى حالة إذلال البشر كالرقيق .. وإذا " كان الجبابرة قديماً يقولون للمستضعفين : إنا عليكم غالبون وفوقكم قاهرون ! فإن مالك السلطة المستبد اليوم يقول للمغلوب عل أمره : أنا لك ممثل ، وباسمك ناطق ، ولمصلحتك أعمل ! فإذا رفضت فإني سأخمد أنفاسك !! " [1].. وإن شئت اتفاقاً بيني وبينك ، " فإنني أعقد معك اتفاقا بموجبه يكون كل شيء على حسابك وكل شيء في صالحي ، وسوف أحترمه مادام يروق لي ذلك ، وسوف تحترمه أنت مادام يروق لي أيضا ! " [2]

لقد وجدنا الكثير من دول العالم " الحر " تتعاطي الوصفات السياسية المتبعة في العالم الثالث ، من مصادرة الحقوق ، وتضييق الحريات ، والالتفاف على سلطات الدولة ومؤسساتها ، وإيجاد مناخ من الرعب والترهيب العام يخول ممارسة الاستبداد .. بل واستعمال الكوارث لتكميم الأفواه ، وحجب الرأي الآخر " فعلى الرغم من زعم الولايات المتحدة – مثلاً أن لديها تياراً زاخراً ومتدفقاً من حريات التعبير ، ومعرفة الحقيقة ... إلا أن أي راصد للواقع ، يرى أن تلك الحريات قد ضاقت إلى حد الاختناق في الفترة التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر .. فقد فُرض في تلك الفترة نمط من الرقابة الصارمة ضد أي نقد أو مناقشة للخطاب الرسمي ، أو حتى أي شكل من أشكال التعبير يسير في الاتجاه المعاكس ... و لم تتوقف هذه الرقابة عند حالتي التعبير الفني والفكري ، بل تعدتها إلى الجامعات والمدارس ، حيث تم فصل مدرسين ، وأساتذة أبدوا رأياً معارضاً للخطاب الرسمي ..." [3]

وسائل التهذيب من هذا النظام سلاسل الأسري وأغلال العبيد
كما يري السيد ينقاد الغلام فــــــلا يرى ولا يعي ما يريد [4]

إن نظام الرق مازال قائماً من خلال استعباد شعوب بأكملها .. وإذا كان هناك في الماضي تعذيب للرقيق وإهدار لكرامة الإنسان ، فإن حدة العنف.ربما.لم تكن بهذه الشدة ، ولم تكن هناك رغبة فى إذلال الإنسان بمثل هذا الإصرار والمهارة الشيطانية ..!!

---

[1] **الحق المر – محمد الغزالي ـ ص 147 .**
[2] **الطاغية ـ د . إمام عبد الفتاح إمام ـ ص 233 .**
[3] **الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية – مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 464 ، 465 .**
[4] **محمد إقبال ـ راجع إن شئت " ديوان محمد إقبال " ـ ج 2 352 .**

قف بنا يا حادي العمر هنا لحظة ننظر ماذا حـــــولنا

في طريق قد نثرنا عمرنا فيه أشلاء حـــياة ومـــــنى

قد نثرناها على طول الطريق ومضينا ضمن قطعان الرقيق [1]

إننا إن لم ندرك واقعنا علي هذا النحو ، فإن حالنا يشبه إلي حد كبير ذلك الرجل الذي ذهب إلى طبيب العيون ليفحص له قوة إبصاره ، فأجلسه الطبيب قبالة العلامات التي يفحص بها قوة الإبصار ، وأشار إلى علامة معينة منها وسأل الرجل : هذه العلامة .. أهيّ إلى اليمين أم إلى اليسار ؟ فقال الرجل ببساطة : أين هي العلامات ؟! فقال له الطبيب في دهشة : ألا تراها ؟ هذه هي الموجودة على الجدار ؟ فقال الرجل: وهل يوجد جدار أيضاً ؟!

إن ما نكتبه هنا لا يزيد عما تُظهره المرآةُ حين ينطبع عليها الواقعُ ، ولن نستطيع أن نكتب غيره ، حتي يتغير الواقع ، فتعطي المرآةُ صورةً أخرى .

أنا لا أ كتب الأشعار فالأشعار تكتبني ..

أريد الصمت كي أحيا ، ولكن الذي ألقاه ينطقني ..

ولا ألقى سوى حزن ، على حزن ، على حزن ..

أأكتب أنني حي على كفني ؟

أأكتب أنني حر، وحتى الحرف يرسف بالعبودية ؟ [2]

فهل ننتظر الحرية من أيادي المستبد ، يخرجها من جيبه بيضاء للناظرين .. أم تراها لا تكون إلا مضرّجة بدموع أمهات ملوعات ، ومحملة برائحة المعتقلات ..

إن الخوف لضيعة أموال ، أو أملاك أو ذرية ، هو طعن في القلب يمزق أصل الحرية ..

وخوف الموت للأحياء قبر وخوف الله للأحرار زاد [3]

---

(1) من قصيدة " قافلة الرقيق " لـ " سيد قطب "

(2) من قصيدة للشاعر أحمد مطر .

(3) من شعر محمد إقبال ـ راجع إن شئت " ديوان محمد إقبال " ـ ج 1 ص 106 .

فهل نبقي سجناء بلا اختيارات ، ولا حرية .. نردد أنشودة العجز الخالدة " ما باليد حيلة " .. " كل الدنيا علي هذه الشاكلة !! " .. أو غير ذلك من الكلمات التي تُشعرنا باليأس ، فنبدأ في أخذ دور المشاهد الصامت .. ومن ثم نفقد كل معني للحياة ؟!

إن محاولة الوصول إلي الحرية ليست محاولة يائسة لنفخ قربة مقطوعة ، والحرية لم تصبح القيمة المستحيلة، أو الفكرة التي تتظاهر من حولها الأوهام .. ولن يكون حديثنا بلسان العجز أمام ضرورات البقاء ، فذلك منخفض يغري رياح العبودية بأن تهب لتجتاح الإنسان .. ولن نصول ونجول في عالم خيالي لا وجود له في أرض الواقع ، أونخلط بين التمني والممكن ، ثم ننهي كلامنا وكأن الحلم قد تحقق ، وكأن " ما ينبغي أن يكون " أصبح " ما هو كائن " ، وكأن الواقع يسهل استبداله وإحلال خيال ساذج بدلاً منه.. !!

إن الذين يحلمون وفقط ، يستيقظون فى الصباح ليجدوا أن كل ما رأوه لم يكن إلا أضغاث أحلام .. أمّا الذين يحلمون ، ويستعدون لأحلامهم بالعمل .. فأولئك يستطيعون أن يجعلوا أحلامهم واقعاً .. ذلك أنهم أقلعوا عن مجرد تفسير الواقع ، واكتسبوا القدرة علي تغييره وسط موانع الأمل ، ومصدات التغيير .. ومن ثم ، فقد بدأوا الابحار فى طريق القيمة المستحيلة .. يرضون ربهم ، ويحترمون عقولهم ، ويفهمون واقعهم .. ويبذرون في أرض العبودية بذور الحرية التي ستقوم.حين تؤتي أكلها.**بدور مراكب** النجاة من طوفان العبودية .. هذه العبودية التي يشعر معها الأحرار نوعاً من الغربة ، فتكون أنشودتهم الخالدة هي :

غرباء ... غرباء ... غرباء ... غـــرباء

غرباء .. ولغير الله لا نحني الجـــــباه

غرباء .. وارتضيناها شعارا للحـــياة

إن تسل عنا ، فإنا لا نبالي بالطـغـــــاة

نحن جند الله دوما ، دربنا درب الأباة

لن نبالي بالقيود ، بل سنمضي للخــلود

غرباءٌ هكذا الأحرار في دنيا العــــــبيد

غرباءٌ .. هكذا الأحرار .. في دنيا العبيد

مجتمع الحضارة الأسيرة

في أرض العبودية ، ينمو العالم بغير تناسق ؛ فتشتد عضلاته ، وتكبر أطرافه .. ولكن دماغه يضمر ، وقلبه يعتل ؛ فتموج الحياة بأفكار ورؤي ، يضيع معها هدف الحياة ، وتتحشرج في صدر الحضارة أنفاس الحرية ، ويهاجمها السوس ينخر أصل جذورها ، والجراد يلتهم الخضرة من فروعها وأوراقها ، ويشعر الإنسان الإضطراب والخلل فى كل شيء ، فيسقط فى الهاوية التى تتعطل معها إرادة الحياة ، وتشل القدرة على الاختيار ؛ فنراه غارقًا فى القنوط والتشاؤم ، أو سادرًا فى العبث والسخرية .. ويصبح في أمس الحاجه إلي بحث مجهري في المكونات الداخلية لمجتمعات الحضارة الأسيرة ، و طلب مخلص لـ "الحكمة" التي هي ضالة المؤمن ، ومحاولة جادة لتغيير يعصم البشرية من تدمير " الإنسان " وتحويله إلي " شيء " علي يد " حضارة " فقدت شجرتها اللحاء العقيدي والخلقي ، فتيبست ، وتحول البشر فيها إلي عمال فى مصنع كبير .. يهرولون ، يلهثون ، يأكلون فى جو مفعم باللهو والشهوات والبؤس والشقاء .. ثم لا تلبث حياتهم أن تهوي حطاماً تذروه الرياح ..

ولأنه لا يمكننا أن نناقش مواضيع مثل التحضر والتخلف ، مالم نحدد المعايير الأساسية التي نستند إليها في تحديد ما هو تحضر وما هو تخلف ؛ فإننا نؤكد في البداية " إن مقياس التخلف أو التحضر هو فى مدى الحرية التى تقف وراء التجمع الانساني ؛ لأن الحرية تقتضي الفكر ، والفكر يمثل أخص خصائص الإنسان ، والإنسان إذا كان لا يستطيع شيئاً إزاء لونه أو جنسه ، لأن ذلك خارج عن نطاق إرادته ، فإنه يستطيع أن يغير معتقده ونمط حياته . لذا فإن المجتمع الذى يولي أخص خصائص الإنسان الأهمية القصوى يكون مجتمعاً متحضراً " [1] .. ثم إن هذا المجتمع المتحضر يقوم علي أخلاق " حضارية أصيلة ذات صبغة " إنسانية " غير محصورة في جنس ولا لون إنما هي صادرة من " الإنسان " بوصفه إنساناً ، وموجهة إلي " الإنسان " حتي ولو لم يكن مؤمناً بما يؤمن به أفراد هذا المجتمع " [2].

---

[1] مع سيد قطب فى فكره السياسي والديني – د . مهدي فضل الله - ص 106 .
[2] مفاهيم ينبغي أن تصحح – محمد قطب - ص 222. ، 289 بتصرف يسير .

ولأنه مجتمع " إنساني " ؛ فإن علاقاته مع " الإنسان " ترفض كل ما يخالف رسالة الحرية لكل البشرية ، فترفض الغدر ، وترفض نقض الميثاق .. ترفض ذلك في إطار من نظام " يوجّه ويضبط كل النشاط الإنساني في شتي جوانب الحياة ؛ فالصدق خُلق ، ومثله الجهاد في سبيل الله لتحرير البشر من العبودية لسواه . والأمانة خُلق ، ومثلها عمارة الأرض وتنمية الحياة .. والعفة خُلق ، ومثلها تطهير عقول الناس من الوهم والخرافة والضلال . والوفاء خُلق ، ومثله الإيجابية وعدم السلبية " [1] ومن ثم تكون الإمكانات طوع اليد ، والطاقات طوع الفكر ، والمصير طوع الإرادة ، و التخطيط طريق المجتمع فى بناء الحضارة ..

فإذا جعلنا هذه المعايير هي مقياس التخلف والتحضر ، ثم نظرنا في واقع المجتمعات في كل الأرض ، وإلى حال الإنسان في هذه المجتمعات ؛ فماذا نري ؟

إن أكثر هذه المجتمعات التي انتصرت بأشيائها ، ليس في واقعها ما يميز الإنسان عن الشيء ، بل عن الحيوان ؛ فقد عكف الإنسان على ملاذ الحياة ، فماتت عواطفه ، ونسي أو تناسى من أين تؤتى المكارم والمروءة ، ودخل مع الأنعام فى حياتهم السافلة . فعاش حياة الحيرة والاضطراب ، هارباً من ذاته إلي المتاع الحسي والإشباع الجنسي إلى حد التمرغ في وحل الجريمة الشاذة ، فهو " أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه – في ثورة الألم – رشده ، فهو يهذي ولا يدري " [2] ، يقول : أنا أستغني عن الله !! .. أشرّع لنفسي .. أصوغ بنفسي الحاضر والمستقبل بعيداً عن وصايا الله؟!.. فيتلقفه الشيطان ، ليوقعه في العبودية المستذلة ..

عبد الإنسان أصنام البشر فهـو فى عُدمٍ وذلّ مُحتقر

قيصر العسف وكسرى قيّدا منه جيداً ثم رجلاً ويدا [3]

ثم بدأ السرطان الأخلاقي في التهام المجتمع ليصل إلي " نفسية الإخلاد إلى الأرض ، التي تجعل من المجتمع تربة خصبة لتنمو فيه نبتة خبيثة ، هي العلمانية ؛ التى هي فى حقيقتها ليست فصل الدين عن الدولة فحسب ، وإنما هي انفصال الضمير عن العلم . ويبلغ الانفصال غايته عندما يزعم العلم بعد اكتشافاته المبهرة فى ميدان البخار ، ثم ميدان الكهرباء فى القرن التاسع عشر ، أنه وحده يستطيع

---

[1] مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب ـ ص 289 . بتصرف .
[2] فقه السيرة ـ محمد الغزالي ـ ص 16 .
[3] ديوان محمد إقبال ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري ـ ج 1 ص 204 .

الاضطلاع بسائر المسؤوليات فى العالم "[1] ، فيبدأ أفراد المجتمع في عبادة " الآلات التي يصنعونها بأيديهم ، كما كان الأولون يفعلون ، فأنكر عليهم إبراهيم عليه السلام بقوله " أتعبدون ما تنحتون " .. يصنع هنا اليوم شيء ، ويوضع مقياس ، ويتخذ مبدأ ، وتصاغ ماكينة ، فتصبح البلاد كلها خاضعة لها ، تعبدها .. فيتحول المجتمع إلي مركز " آزر " صانع الأصنام وسادن بيتها " [2] ، ويتحول الإنسان فيه إلي " آلة " في " ورشة " .. يركض خلف متطلبات الحياة الاستهلاكية ، ورأسه مشغول كحاسبة ملآنة بالأرقام والمواعيد والتفاصيل ، وقلبه مربوط بأقساط سيظل يسدد فيها طيلة عمره ، ويده مغلولة بسلاسل تشده كما تشد القطيع الراكض معه ، وعنقه مرهون عند بائع العقارات ، ورئتاه موصولتان ببوصلة التذبذب واللا استقرار .. وروحه هناك مطبوعة على بطاقة " الكريديت كارت " ..!!

لقد انقلب معني الحرية في تلك المجتمعات من أن يريد الإنسان ما يفعل ، إلي أن يفعل ما يريد ، فأصبحت " أشبه شيء بالفوضى وأصبح همها الانفلات من القيود التي تفرق بين الإنسان والحيوان ؛ وتنشئ المجتمع وتحرسه من الانحلال .. ومتى صارت الحرية إلي هذا الوضع فقد خسرت الإنسانية " [3] حريتها لتنشئ مجتمع العبودية الذي يعزف علي أوتار الجسد وغرائز الإنسان ؛ فيخاطب غريزة الجنس من خلال الذهاب بالعري والتعري مذاهب شتي ، حتى يصبح جسد المرأة سلعة معروضة في الإعلانات والأسواق ودور الملاهي والشواطئ .. ويخاطب أكثر من نازع من النوازع الغريزية من خلال الترويج للسكر والمقامرة والخلاعة .. ويخاطب حب الذات من خلال إشاعة روح الأنانية والفردية والتحلل من الالتزامات الجماعية والعائلية .. ومن ثم فهو لا يخرج لنا " إنساناً " ، بل ..

- سراب إنسان

لعل أشد ما يفتن في المجتمعات الغربية ما يبدو فيها من " أخلاق " ، فالإنسان هناك مهذب ، لا يكذب عليك ولا يغشك ولا يخادعك .. يحدثك باستقامة ، ويعاملك بأمانة .. مخلص في عمله ، ومحب لوطنه.. إلي آخر تلك " الفضائل " التي إذا تأملها الإنسان " مجهرياً " ؛ وجدها لا تعدو أن تكون " نفعية " يأخذ منها الإنسان بالقدر الذي يحقق له النفع الشخصي ، ولذلك فإن هذه " الأخلاق " تتحول لضدها إذا حققت نفعاً أقل من المطلوب أو حققت ضرراً .. فالمنفعة والمصلحة هي القيمة الحاكمة لكل منظومة الأخلاق في تلك المجتمعات ..بل ربما رأي الإنسان هناك أن الفضيلة لا قيمة لها في هذه الحياة ، وأن

---

[1] **الظاهرة الغربية فى الوعي الحضاري ـ أنموذج مالك بن نبي ـ بدران بن مسعود بن الحسن ـ ص 138 .**
[2] **أحاديث صريحة في أمريكا ـ أبو الحسن الندوي ـ ص 63 . بتصرف .**
[3] **سيد قطب ـ المجتمع المصري جذوره وآفاقه ـ إعداد وتقديم : ألان روسيون ـ ص 203 بتصرف .**

الرذيلة أجدي وأنفع ، وأن المبادئ القويمة إنما هي أوهام وخيالات لا تقوي علي الواقع ؟ .. ومن ثم نري تلك المجتمعات " تدين القتل ، ولكنها تبيح الحرب .. تدين الفسق ولكنها تبيح البغاء .. تدين السرقة ويبيح النهب على شكل تجارة ضارة ، وربا وتلاعب تجاري وبنكي وعمليات مالية " [1] .. بل نراها " تقتل عدداً كبيراً من المفاهيم الأخلاقية ، وتجردها من أرضيتها النبيلة ، وتحيلها ضروباً من الصعلكة ، وكلمات منبوذة في اللغة ، طريدة من الاستعمال ومن الضمير ، وكأنما صارت القواميس " أحياناً " مقابر لكلمات لا توحي بشئ ، لأن مفهومها لا ينبض بالحياة . " [2]

إن الثوب الأخلاقي المهلهل الذي لا يكاد يستر الإنسان في تلك المجتمعات ، يُرمى به بعيداً عند الأزمات ، ويتحول الإنسان إلى نهاب وسفاك .. وعند غياب السلطة يتحول الأفراد إلى ذئاب .. في مجتمع " يتعاطي الكذب ، ويمارس الغش ، ويتجسس الأخ فيه علي أخيه ووطنه ، يسرق الأموال والأعراض ، يعتبر الرشوة من الحقوق المكتسبة ، والسلب والنهب شجاعة ، يهجم علي المحرمات دون خوف ولا حياء ، يرفع شعار " الحلال ما حل باليد " ، يجوّد ويحسّن في مظهره ، بينما باطنه خراب في خراب ، يقتل بالأجرة ، ويشهد كذباً وزوراً ، ينافق للقوي ، ويستأسد علي الضعيف ، ثقافته كلمات يلوكها ، وعلمه يدور كله حول المنفعة ، وأخلاقه كلها تدور حول خدمة نفسه " [3]، فتقوم حياته علي الامتلاك ، القمع ، الإخضاع للضعفاء ، الظلم ، القساوة ، والاستغلال .. [4]

ومن تأمل تصريحات القوم ، رأي مصداق هذه الأوصاف و فهم " منطق " مادلين أولبرايت " عندما سُئلت عن وفاة نصف مليون طفل عراقي راحوا ضحية نقص الغذاء والدواء ؛ بسبب الحصار الذى تفرضه أمريكا باسم الأمم المتحدة على العراق ؛ فردّت " أولبرايت " قائلة للسائل بالحرف الواحد : " ربما أنه ثمن غال كما تقول ، ولكننا نرى أن الهدف الذى نطلبه يساوي ذلك الثمن وأكثر منه .. " [5]هكذا، ببساطة .. ليس مهماً الثمن الذى تدفعه الشعوب الأخرى ما دام الهدف سيتحقق !

وإذا كنا لم نشاهد في الحياة أسوداً تقتل بخسة أسوداً غيرها من الأسرة نفسها ، أو من أسرة أخرى ، ثم تقوم بزيارة تلك الأسرة لتقدّم لها التعازي ، أو نموراً أفريقية قامت بإلقاء قنابل مدمّرة على " مدن " نمور آسيوية !! ، فلقد رأينا في تلك الحياة ، ذلك " الإنسان " الغربي يفعل ما هو أشنع ، ف " وفقاً " لتقرير

---

(1) هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش - ص 386 بتصرف يسير .
(2) وجهة العالم الإسلامي - مالك بن نبي - 118 بتصرف يسير .
(3) نحن والحضارة والشهود– د . نعمان عبد الرازق السامرائي - ج 2 ص 145 .
(4) هذا ما وصف به " نيتشه " هذه الحال !!
(5) الشخصية الأمريكية – د. باسم خفاجي - ص 58 .

مركز " العمل في الألغام " ، فإن أجولة الطعام الأمريكية والقنابل العنقودية كان يتم إلقاؤها في المناطق نفسها. ورغم اختلافهما في الشكل والحجم ، فإن كليهما أصفر اللون ، وكان كثير من الأطفال يلتقطونها معتقدين أنها تحوي طعاماً ..! " [1]

و لا نريد أن نسترسل أكثر من ذلك في نماذج الفساد والإفساد في المجتمعات البشرية ، ونترك لذاكرة القارئ وفطنته وخبراته استكمال باقي النماذج علي مهل ؛ ليتأكد لديه أن الفساد قد تغلغل " وأصبح هو القاعدة التي تحكم غالبية سلوكيات الناس ، وفي هذا الوضع تقل أو تدفن أو تتواري أو تضعف أو تستبعد كل القيادات الأخلاقية المتميزة ، ويعيش أصحابها حالة من العزلة والانكماش والاستبعاد والاستضعاف والاغتراب فلا يراهم الناس ولا يسمعون لهم صوتاً . ".. وتصبح الفرصة الأكبر في الوصول إلي القيادة لمن استطاع أن يخادع أو يناور أو يشتري الذمم والأصوات أو يستولي علي السلطة بالقوة والقهر ، في حين أن أصحاب الأخلاق غالباً ما يفشلون في الوصول عن طريق هذه الآليات فهم لا يملكون القدرة علي المناورات الانتخابية في الدول " الديمقراطية " ، وربما لا يملكون المال ، ولا يملكون القدرة للوصول بالقوة العسكرية في الدول المتخلفة ، وفي الحالتين نجدهم مستبعدين من النخبة الحاكمة إلا فيما ندر " [2].

إن قيادات تلك المجتمعات " لم تعد قدوة للناس بشكل عام وللصغار والشباب بشكل خاص ، حيث أسقطت من حساباتها الكثير من القيم الأخلاقية واختارت مسارات تتسم أغلبها بالكذب والخداع والنفعية والتحايل والبطش والسيطرة والاستغلال والابتزاز ، و بالتالي نشرت قيماً سلبية بشكل هائل عبر وسائل الإعلام المسلطة علي الناس ليل نهار ، وأصبحت هذه القيم غير مستنكرة بسبب شيوعها علي هذه المستويات القيادية .. و تلك الظاهرة لو أخذناها علي محمل الجد . ولابد أن نأخذها كذلك . لعرفنا أن البشرية كلها في طريقها إلي هاوية سحيقة . " [3]

إن واقع البشرية ينذر بأننا " أمام حالة من التلوث الوبائي يصيب الإنسان علي نطاق واسع ، أو فيروس يخترق البرنامج الإنساني ويشوهه .. وهذا التلوث أو هذا الفيروس عابر للثقافات والقارات والمجتمعات ، ولذلك لا تفيد فيه المحاولات البسيطة أو المحلية للمواجهة ، بل يحتاج لعقل الحكماء والعلماء الموضوعيين الموجودين علي سطح الأرض ليقوموا بالتشخيص واقتراحات العلاج وآلياته

---

[1] **" حراس السلطة " أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية - دافيد إدواردز ، دافيد كروموويل ترجمة. آمال كيلاني - ص 133 .**
[2] **علم النفس السياسي - رؤية مصرية عربية - د. محمد المهدي - ص 98 - 102 بتصرف .**
[3] **المصدر السابق - ص 98 - 102 .بتصرف .**

ومتابعة تنفيذه بعد أن يخترقوا سحب الزيف والكذب والخداع والضلال لكي يصلوا إلي جوهر الحقيقة وينبهوا البشرية إلي الطريق الصحيح بعد أن ضلت أو كادت أن تضل الطريق . "[1]

رأيت الشيخ بالمصباح يسعي   له في كل ناحية مجـــــال

يقول : مللت أنعاماً وبهـماً   وإنساناً أريد ، فهل ينال ؟

فقلنا : ذا محال قد بحثنـــا   فقال : ومنيتي هذا المحال[2]

إن الإنسان الذي رسمه الغرب وأراد فرضه على العالمين ليس هو " المثال " الإنساني الذي يجب النسج علي منواله ، بل هو " سراب " يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .. ونظرة واحدة في " واقع " تلك المجتمعات ؛ تكشف لنا السراب ، وتبدد لنا الضباب ، وتجلي لنا الحقيقة المرة ساطعة ، وتؤكد لنا أنها ..

• أكذوبة حضارية

يظن البعض أن الغرب هو من علم الدنيا معني الحرية .. بل يزعمون أن لغات الشعوب قد عجزت أن تجد لفظاً للحرية .. تماماً كما تعجز لغات القبائل البدائية عن العد ، فتقول على ما جاوز العشرة .. كثيراً!!

ولا أريد هنا أن أناقش خرافة " الحرية " فى القرن العشرين ، وهو القرن الذى شهد فى أوروبا خاصة أفظع دكتاتوريات التاريخ فى السياسة والاقتصاد ، والتي تستعبد الفرد باسم التحرر ؟!

وإنما فقط أدعو المخدوعين بشعارات الحرية واحترام إنسانية الإنسان ، وحق تقرير المصير واحترام الآخر .. أدعو المخدوعين بتلك الشعارات إلي نظرة مجهرية في واقع تلك المجتمعات .. نظرة تتجاوز الصورة إلي إدراك الحقيقة ، وتتجاوز النتيجة إلي فهم المقدمة ، لتتساءل : كم سارت الحريات في تلك المجتمعات ؟ وكم بلغت ؟ وكم ثقل بها السير فرأيناها تقعد تستريح من الإجهاد علي قارعة الطريق ؟!

" لاشك أن ساكني هذه المجتمعات لهم حظ من الحريات غير قليل ، فعندهم الأمن علي ذواتهم إذ يسيرون في الطريق ، وعندهم الأمن في دورهم والشمس طالعة ، وعلي الأخص من بعد غروب ، وقد ستر الظلام كل ما يجري فيه من آثام .. وعندهم الأمن بعض الأمن إذا نزل بهم مرض أو حل بهم فقر، إلي كثير من المنافع التي جاءت بها المدنية الحاضرة في أذيالها ..ولكنا عند التدقيق في واقع تلك

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 102 بتصرف يسير .**
[2] **ديوان محمد إقبال ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري ـ ج 1 ص 125 .**

المجتمعات نري أن اليد " التي تتيح للإنسان هناك أقداراً من الحرية ، وحقوق الإنسان ، هي اليد نفسها، التي تمنعها هنا ، ليتم الاستقطاب ، والتحكم من جانب ، ولإعطاء دليل عملي واقعي ، علي أن " حضارة " الغرب تتميز عن حضارة الغير ، فتهفو النفوس إليها ، وتهاجر الأجنة إلي بلادها. " [1]

إن الذين يحرمون الغير حرياتهم لا يعرفون قيمة الحرية ، وهذا ما أظهره واقع تلك المجتمعات ، فهذه " الحرية المزيفة التي يدّعونها هي لمواطني دولهم وحدهم ، بينما تنكر هذه الحقوق علي المجموعات البشرية الأخري .. ظهر ذلك جلياً من طريقة ممارسة الاستعمار في الدول المستعمَرة ، وكيف كان يقتل بالآلاف ، ويسلب الخيرات ؟! " [2] في إطار من فكرة أن هناك شعب مستغِل ، وشعب مستغَل ؛ فشعب الدولة المستعمِرة يتمتع بحقوق الإنسان ، أما شعب الدولة المستعمَرة فلا يتحرك ضمير امريء لإبادته بأكمله..!!

إن هذه المجتمعات لا تزال رهينة مصطلحات وتعابير لا تسمح لها أن تتصور اشتراك الشعوب فى صفة الإنسانية ، مثل تعبير " الجوييم " الذي يصفون به غيرهم من الأمم ، وهو تعبير يعني في أصل لغتهم الحيوانات المتجمعة فى قطيع ، أو الطيور والحشرات والهوام التى تتحرك فى أسراب ...!!! .. وهم يشعرون دائماً أنهم استثناء من كل قواعد الكون ، وأنهم قادرون على القيام بما يراه الآخرون مستحيلاً ، فهم " الذين يلعبون دور البطولة على هذا المسرح الهائل ، مسرح التاريخ ، والأمم الأخرى ليست إلا أشخاصاً ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها " [3].. وهم يرون أنه " ليس من القيادة ، كما أنه ليس بالموقف الانعزالي ، القول بأن لدولتهم دوراً خاصاً فى العالم ، ولذلك ليس من واجبها أن تنتسب لأية اتفاقية أو معاهدة دولية تقترح عليها " [4]

وهكذا .. تحتل فكرة الإستثنائية العقل الجمعي لتلك المجتمعات ، وتصاحبها " الرغبة المستمرة فى التجريب حتى إن كان ذلك يعني العبث بشعوب العالم ، فما دامت تناسبهم ؛ فلا بأس أن تكون الوسيلة بشعة أو غير إنسانية ..ولذلك يسمع المواطن الأمريكي بانتهاكات الإدارات الأمريكية لحقوق الإنسان فى كل أنحاء العالم ، من فيتنام إلى مجاهل إفريقيا وإلى العراق مؤخراً ، ومع ذلك فهو فى قرارة نفسه لا يزال يعتقد أن أمريكا هي دولة حقوق الإنسان ، وذلك بسبب العقلية الاستثنائية " [5] .. بل نسمع منهم عبارات مثل " نحن رواد العالم وطلائعه ، اختارنا الرب ، والإنسانية تنتظر من جنسنا الكثير . ونحن

---

(1) الإسلام وصراع الحضارات – د . أحمد القديدي - ص 36 .
(2) في سبيل شباب مسلم متحرر – أحمد راتب عرموش - ص 15 - 17 بتصرف .
(3) الشخصية الإسرائيلية – د. حسن ظاظا - ص 36 ، 37 .
(4) الكلمات لـ " كونداليزا رايس "
(5) الشخصية الأمريكية – د. باسم خفاجي - ص 56 .

نشعر فى مكنون أنفسنا بالقدرة على فعل الكثير . بات لزاماً على أكثر الأمم أن تحتل المؤخرة ، إننا نحن الطليعة ، ننطلق إلى البرية لنقدم ما لم يستطع تقديمه أحد " [1]

ولأنهم يعتقدون أنهم أرقي الأجناس وأكثرها ذكاءً ، وأن الشعوب والأمم علي اختلافها في حاجة إليهم للخروج إلي نور " الحضارة " ، فإننا نجدهم حين يحتاجون في بداية نشأتهم إلي العمالة الرخيصة ، يجمعون بين الاغتصاب والنهب ، وبين الشراء إن لم يتيسر النهب .. وهذا ما أورده " جيمس هيدجز " فى كتابه عن تجارة الرقيق ، فى الفصل الخاص بـ " التجارة فى الأرواح " كما سمّاها ، من خلال " سجلات سفينة الشحن " سالي " ... حيث تحوي السجلات توجيهاً من الملاك إلى القبطان يقولون فيه : " إننا نثق فيك ، وفى إخلاصك لنا ، وخدمتك لمصالحنا ، ونحن نفوضك بأن تذهب إلى شواطىء إفريقيا " شاطىء غينيا " وتشحن سفينتك بمن تستطيع أن تجلبهم من العبيد " بالوسائل " التى تراها ، وأنت مخوّل أن تبيع وتشتري منهم كما تشاء فى طريق رحلتك إلى أمريكا ... ونذكرك طبقاً للعقد بأن حصتك هي 4 عبيد لك مقابل كل 100 عبد للشركة ؛ مضافاً إلى هذا نسبة 5٪ من ربح الحمولة عندما يتم بيعها ، ونريد أن نذكرك بأن السرعة فى هذه التجارة مطلوبة لأن الحاجة إلى اليد العاملة ماسّة !! " [2]

وليس هذا هو سلوك تلك المجتمعات في نشأتها وفقط ، بل إلي الآن حيث " يقدر عدد الذين يجرى الاتجار بهم من دون إرادتهم عبر الحدود الدولية سنوياً بـ 600 – 800 ألف رجل وامرأة وطفل .. ويجري تطويع ضحايا تجارة الانسان هذه ، ونقلهم أو بيعهم فى كافة الأعمال الجبرية أو الرقّ ، بما فى ذلك البغاء ، والأعمال المنزلية أو فيما يدعى بـ " مصانع العرق " sweat shops كعمال مرتهنين ، أو للعمل فى الزراعة ، أو حتى حمل السلاح فى جيش وقوده من الأطفال ... بل إن حوالي ثمانين بالمئة من ضحايا الاتجار بالإنسان هم من النساء ، ويجري الاتجار بسبعين بالمئة منهن للعمل فى تجارة الجنس " ... وتقدر " منظمة البوليس الأوروبي Europol أن ما لا يقل عن ثلاثة إلى أربعة آلاف منظمة " مافيا " تقوم داخل الوحدة الأوربية بأعمال جرمية منها الاتجار بالإنسان الذى أصبح من أكثر الأعمال دراً للربح فى العالم..!!" [3]

هكذا هو الواقع ، أو ما يشبهه قتامه ورداءة ، ولن يقلل من قتامته ما يحاوله إعلام صناعة الأكاذيب في تلك المجتمعات لتجميل الصورة .. ذلك أن المجتمعات التي تزرع شوك العبودية ، لا تعطي رحيق التحرر . ؟!

---

[1] **هذا ما كتبه الروائي الأمريكي هيرمان ملفيل ، فى القرن التاسع عشر عن الاستثنائية الأمريكية .**
[2] **الشخصية الأمريكية – د. باسم خفاجي ـ ص 91 .**
[3] **الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 422 ، 423 .**

والعاقل لا يحلم بالمثاليات في رأسه ، بل ينظر كيف يتحرك الواقع ، ويكتشف القوانين التي تحكمه ، ومن هذه القوانين أن " العدل نظام كل شيء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق ، و إن لم تقم بعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به فى الآخرة " [1] .. فماذا يعني العدل في تلك المجتمعات ؟

إن العدل لدي تلك المجتمعات " هو تطبيق القانون ، ولو كان ظالماً ، ولو كان مجافياً للخلق القويم والطبع السليم . ولا شك أن ترك تحديد معيار العدل للقانون الوضعي يجعله معياراً مطاطاً ، يتسع ويضيق تبعاً لهوى المشرعين والحكام ، بل إنه يؤدى إلى تعدد هذا المعيار ، فيكون مزدوجاً ، أو ثلاثياً ، وذلك فى ظل المبدأ النفعي ، الذى يؤمن به أصحاب " الحضارة " الغربية .. هذا المبدأ الذى يحول دون انضباط المصلحة ، أو حتى اتصافها بقدر معقول من الاستقرار ، يضاف إلى ذلك المبدءان اللذان صاغهما " نيقولا مكيافيللي " ، والمبدأ الذى صاغه " داروين " ، ورسخوا جميعاً فى ضمائر تلك المجتمعات ..

هذا المبادىء الثلاثة هي :

- الغاية تبرر الوسيلة ... " وقد تكون الغاية أكثر ظلماً من الوسيلة "
- انفصال دائرة السياسة عن دائرة الدين والأخلاق .
- البقاء للأصلح .. " فسحق القوي الضعيف عدل ! "

هذه المبادىء الثلاثة ، فضلاً عن النفعية ، تجعل القول بوجود معيار للعدل فى المجتمعات الغربية قولاً مضحكاً ، لا يصدقه إلا السفهاء من الناس ، أو من أرادوا أن يضعوا أنفسهم فى هذا الموضع " [2]

إن الغرب يستخدم العدالة وسيلة من وسائل الضغط والاضطهاد فى المستعمرات ، و يفرض ألوان القيود على ضمائر الشعوب المستعمَرة ..فهل نسمي " ظلم الإنسان ، واستعباد الشعوب ، واضطهاد المستضعفين ، واغتصاب أراضي الآخرين ، ونهب ثرواتهم ، وسفك دمائهم ، وحكمهم بالحديد والنار ، وكم أفواههم تقدماً حتى لو تم في ظل أرقي العلوم الطبيعية والتقنيات ، وأعلي مراحل تطور أساليب الإنتاج ، والاقتصاد المبرمج ؟

وهل نعتبر الفسق والانحلال والدعارة والفجور والفساد وانعدام القيم النبيلة والأخلاق القويمة تقدماً ، حتى لو تم ذلك تحت أضواء النيون وأرقي منتجات العلوم والتقنيات؟

---

[1] الحسبة ـ ابن تيمية ـ ص 94 ، مجموع الفتاوي ج 2 ص 146 .
[2] كيف نفكّر إستراتيجياً – د. فوزى محمد طايل ـ ص 147 بتصرف يسير .

وهل نعتبر فقدان التواصل الإنساني وسيادة النفعية والفردية والأنانيات والمصالح الضيقة تقدماً ، حتى لو سكن الناس ناطحات السحاب وأوصلوا الكهرباء إلي كل القرى ؟

وهل يعتبر الغدر والخداع والتلاعب والنفاق والاعوجاج واللامبدئية والتعالي والاستكبار تقدماً حتى لو جري ذلك في ظل ما يسمي بالعصرية والتمدن والرقي ؟!! " [1]

تمدن عصركم جمع المزايا وليس بغائب إلا الضمير [2]

إنَّ الذين يتعاملون مع القيم كاللباس الذي يلبسونه على أبدانهم ، دون أن ينفذ منها شيءٌ إلى وجدانهم، لا يمكن أن يصنعوا حضارة ، إلا أن تكون " حضارة أسيرة " لا يطيب للإنسان عيش في ظلها ، وتبقي النفس فيها حائرة ، تائهة، طريدة ، تصرخ من الألم ، وتضحك كالمجنون ، وتجري كالمطارد، وتعربد كالسِكير.. تبحث عن لا شيئ ، وتجري وراء أخيلة ، وتقذف بأثمن ما تملك ، وتحتضن أقذر ما تمسك به يداها من تفاهات..

فتّشت فى هذى الحضارةِ كلها لم ألق فيها غيرَ نافخِ [3]

إن حقيقة تلك المجتمعات أنها " أكبر أكذوبة حضارية في التاريخ . . برغم كل تقنياتها ، وكل تقدمها العلمي و المادي ، ووصولها إلى القمر وإلى المريخ . . فكل ذلك – وحده – لا يصنع حضارة ، و إن كان العلم و تقنياته من مستلزمات كل حضارة . . إنما الحضارة الحقة هي التي ترتفع " بالإنسان " في جوهره الحقيقي . . في كيانه كله لا في جانب واحد منه . . في " كافة " مجالات حياته " [4] .. فما الذي أضافته هذه الحضارة إلى رصيد البشرية من القيم ؟ أو حتى يبدو أنها ستضيفه إليها فى نهاية المطاف ؟ .. وأين مكان الإنسان في تلك الحضارة ؟

لقد حام " أرنولد توينبى " حول هذا الموضوع حين رأى أنه لا السيطرة على البيئة فى تحسين الأسلوب التكنولوجي ، ولا التوسع الخارجي فى إخضاع الناس ، يعبران عن ارتقاء الإنسان الحقيقي .. كما نادي عقلاء الغرب بضرورة العودة إلي القيم الإنسانية ، ورأوا أن تلك " الحضارة الأسيرة " سوف تؤدي بالإنسانية إلي كارثة محققة إذا لم تعد إلي رحاب القيم .. فهل تصغي تلك المجتمعات لصرخات " شوماخر " في كتابه " الصغير هو الأجمل " .. أو صرخات " جيمي رفكن " في كتابه " الأنتروبيا " .. أو صرخات " ليستر ثرو " في كتابه " مجتمع الجمع الصفري " .. ؟ .. وهل تستيقظ من نومها العميق

---

[1] الإسلام في معركة الحضارة ـ منير شفيق ـ ص 61 - 63 بتصرف .
[2] ديوان محمد إقبال ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري ـ ج 1 ص 103 .
[3] المصدر السابق ج 1 ص 494 .
[4] راجع إن شئت " هلم نخرج من ظلمات التيه " ـ محمد قطب .

لتسأل: كيف حدث هذا ؟ وما هذه اللعنة التي أصابتها ؟ .. وهل تدرك أنها فقدت غايتها ، ومن ثم فقدت قيمة الحياة ، وعاشت في ..

• أرض الخوف

يتصارع العبيد بلا هدف ، فيجعلون من مشعل الحضارة " فتيلاً " يحرق بدل أن يضيء ، وفي ضوء ما أشعلوا من نار يشيعون الفوضي والظلم في أجزاء الأرض ، في محاولة بائسة لإقامة إمبراطورية الشر " وعندها تتجرد قوة السلاح من كوابح المبادىء والقيم ، ويصبح السلاح هو الحكم بدون مقدمات ، وبغير ضوابط ، ومن ثم تكون الكلمة الأولى فى أى لقاء هي تصويب المسدس ، والكلمة الأخيرة هي الضغط على الزناد ، ومن ثم تتحول القوة فى حد ذاتها إلى مصدر للمشروعية ، و يتحول الاغتصاب إلي حيازة ، وتتحول الحيازة إلى ملكية تسن لنفسها قوانين جديدة تنظم علاقات الغلبة والسيطرة " [1]. فتصبح " الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب ، القوي يأكل الضعيف ، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق.. " [2] وتكون النتيجة هي انطلاق القوة منفردة في الساحة متجاهلة كل القواعد الأخلاقية بل ومستهينة بها ومسفهة إياها [3]

" لقد سيطرت علي الحياة . بكل أسف . إرادة القوة التي لا تفارق هذا القرن ، فهي قانون النفسية الغربية ، قانون يسجل التأخر الخلقي لإنسان الغرب ، حتى كأنه يجر الخطي إلي القرون الوسطي ، عندما يستمد غذاءه الروحي من تاريخ محاكم التفتيش " [4].. وإذا كان " هولاكو " منذ قرون ، ينزل بعسكره علي الأمم التي تكون في طريقه فيمزقها إرباً، فإننا نجد اليوم من يغير علي أمة ، فيقتل أهلها ، و يدمر حصدها .. وتسأله ما الغاية ، فلا تسمع منه أن له غاية ، ومع هذا لا يجرؤ أحد أن يشجب ما يصنعه ، بل ربما وصفوه بالامبراطور ..؟! وكأنهم يعيدون للأذهان تلك القصة القديمة التي تحكي أن أن قرصاناً أُلقي القبض عليه في زمن الإسكندر ، فبدأ في تويبخه كيف يزعج البحر؟ قال القرصان : أنا أنهب بسفينة صغيرة فأسمى قرصاناً ، أما أنت فتنهب شعوبا بأساطيل فتسمى إمبراطوراً ؟!

لقد جاء الأمريكي الأول إلى القارة الأمريكية مُحملاً بالبنادق ، والرغبة فى استخدامها فى حل كل المشكلات .. ومضت القرون ، وزاد نهم الأمريكي لاستخدام القوة ، واتخذها وسيلة فى حل المشكلات.. حتى أصبح العنف هو نموذج الحياة " إذ الكل تدفعه المصلحة إلى المغامرة وركوب

---

[1] من نيويورك إلى كابول ، كلام فى السياسة ـ محمد حسنين هيكل ـ بتصرف يسير
[2] ركائز الإيمان – محمد قطب ـ ص 136 .
[3] يردد المصريون مثلاً شعبياً يقول : " القوي عايب "، وهو يعني عندهم أن القوة تميل إلي التجرد من الأخلاق !!
[4] فكرة الأفروأسيوية ـ مالك بن نبي ـ ص 35 بتصرف .

المخاطر وتحدي المجهول .. الكل يريد أن يفوز بالغُنم الأكبر دون سواه ، أو قبله ، أو على جثته إن ضاقت به السبل .. [1] ، الجميع يحدوهم " حلم التفوق و الثروة و النجاح و النفوذ و السيطرة ، و هم في سبيل ذلك مستعدون للتضحية بأي قيمة ، خاصة أن القيم في نظرهم تنتمي إلي أخلاقيات المجتمعات التقليدية التي هجروها أو نبذتهم هي ، و كأن بينهم و بين القيم عداء خفي ، فالمنفعة عندهم هي الدين الأساسي و هي القيمة العليا التي تتشكل حولها كل تفصيلات السلوك .. " [2]

إنهم حَمَلة الحقد والساعون إلى الانتقام ، الذين يعالجون المشكلات بقطع الرؤوس بدل ترشيدها وهدايتها ، لأنهم يرون غيرهم من البشر " أشياء " بلا قيمة ، ويعتبرون الخلاص منهم أرخص من محاولة تمدينهم !! .. وإن أردت الدليل فتأمل معي " ما أورده جاك بيتي ، محرر كتاب " العملاق " ، فى أحد تقارير شركة فرجينيا .. وذلك عام 1624 م ، حيث جاء فيه بالنص " إن الخلاص من الهنود الحمر أرخص بكثير من أية محاولة لتمدينهم ، فهم همج ، برابرة ، عراه ، متفرقون ... وهذا يجعل تمدينهم صعباً، لكن النصر عليهم سهل . وإذا كانت محاولة تمدينهم سوف تأخذ وقتاً طويلاً ، فإن إبادتهم تختصره، ووسائلنا إلى النصر عليهم كثيرة : بالقوة ، بالمفاجأة ، بالتجويع ، بحرق المحاصيل ، بتدمير القوارب والبيوت ، بتمزيق شباك الصيد ، وفى المرحلة الأخيرة المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التى تنهش جسدهم العاري " [3]

" وإذن فالحرب لدي تلك المجتمعات ليست على المواد الخام ولا على الأموال وفقط ، بل الحرب من طرف يريد أن يضغط على قيّم الآخر ويغيرها بقيمه هو !! " [5] ثم يجعل البلاد مرتعاً خصباً للنهب والسلب ، والاغتصاب والقرصنة ، ويجعل الناس عبيداً له هو ، لا يأكلون إلا مما تقدمه يداه ، ولا يلبسون إلا ما يلبسهم إياه ، ولا يدرسون إلا ما يدرسهم ، ولا يطلبون العلم إلا من مناهله !!

ولكي يستطيع قادة مجتمعات " الحضارة الأسيرة " حرب المجتمعات الأخري ، فإنهم يقومون بعملية خداع داخلي لشعوبهم ، من خلال " اختلاق الأساطير والشائعات التي تشابه تلك الشائعة التاريخية التي يتوقع فيها كاهن الملك بأن طفلاً " سيهدد عرشه عندما يكبر !! .. ويستجيب الملك للتكهن فيقتل الطفل ليحفظ عرشه .. ؟! .. فيكرر قادة تلك المجتمعات هذه الشائعة . التكهنية بأسلوب مختلف . حيث تتوجه جهودهم للبحث عن القوة . الطفل " التى لا تزال صغيرة وغير ملاحظة " التى يمكنها تهديد الملك " وهو فى هذه الحالة الراهنة : الحضارة الغربية أو الولايات المتحدة أو الديمقراطية الليبرالية أو

---

[1] العقل الأمريكي يفكر : من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات ، شوقي جلال ، مشروع الكتاب الإلكتروني .
[2] الشخصية المصرية ـ د. محمد عبد الفتاح المهدي ـ ص 22 .
[3] راجع إن شئت " من نيويورك إلى كابول ، كلام فى السياسة ـ محمد حسنين هيكل ."
[4] الإهانة فى عهد الميجا إمبريالية – المهدي المنجرة ـ ص 116 بتصرف .

غيرها من المرادفات " .. أمّا الأطفال الذين رشحوا للقتل فمنهم : المسلمون .. الصين .. وبقايا الفاشية. بمعنى آخر فإن المتكهنين الجدد يكادون أن يقتلوا جميع الأطفال ! ولا يتفقوا على طفل بعينه!"[1] وإن اتفقوا علي ضرورة أن يبقى هناك عدو ينازعونه في الخارج حتي يتمكنوا من التحكم في شعوبهم في الداخل ، وتتأكد سيادة أولئك الذين يمتلكون الأموال الطائلة أو أولئك الذين يتاجرون فى السلاح!!!

إن القادة في تلك المجتمعات يخوفون الجماهير من الخطر الخارجي ، ثم يدفعونهم للإنفاق علي التسلح.. وهم يبحثون عن عدو ، وكأنهم يبحثون عن خلاصهم .. فالحروب لديهم مطلوبة ، لمواجهة أزمات معينة ، بل إن " الولايات المتحدة مثلاً ، كانت دائماً تختار موقعها على حسب موقع الآخر ، وتتوجه فى الزمان والمكان ، وأيضاً توجه مصالحها ، فى الاتجاه المعاكس للآخر ..!! فعندما انتهت الحرب العالمية الثانية ، ارتبطت الولايات المتحدة بأوروبا ، وأصبحت ممثلة للحضارة الغربية " وبذلك خسرت أوروبا فى دور الآخر " العدو " وانطلاقاً من حاجتها إلى الآخر " العدو " طرحت الشيوعية كعدو شيطاني ... وظلت الصين قسماً من الشيطان الشيوعي لغاية نشوب الخلاف بينها وبين الاتحاد السوفيتي ، عقب وفاة ستالين ، حين بدأت بعض الأوساط فى الإدارة الأمريكية فى التفكير فى إمكانية الاستفادة من تناقضات القطبين الشيوعيين وخلافاتها ." [2]

إنها حضارة الغرب .. " حضارة القوة والصراع ، وتسلط الإنسان علي الإنسان ، ولو بدت علي غير ذلك ، بسبب التضليل الإعلامي.. إنها حضارة جباية ، وحقد ، وعدوان ، والتاريخ والحاضر يعتبر شاهد إدانة علي ذلك في مواقع متعددة ." [3] و (عندما نتحدث عنها ، علينا أن نتذكر أن النازية والبلشفية كانتا من ثمار هذه " الحضارة " .. وهذا التذكر لا مهرب منه .." [4] .. لأنه يوقظنا من التنويم المغناطيسي الذى يمارسه الإعلام علينا ، لنتساءل : ماذا يريد هؤلاء ؟ .. أيريدون قتل الملايين من البشر بقنابل " نووية جديدة تصبها أميركا على رؤوس من يطالبها بمجرد التوافق والانسجام مع مبادئها المعلنة، وعدم خداع داخلها والعالم ، وتنويمهم مغناطيسياً للموافقة على ما ترى فيه خدمة لمصالحها..!!؟ "[5]

---

[1] النفس المفككة ، سيكلوجية السياسة الأمريكية – د . محمد أحمد النابلسي - ص 236 ، 237 .
[2] المصدر السابق - ص 123 .
[3] الإسلام وصراع الحضارات – د. أحمد القديدي - ص 33 .
[4] هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش - ص 133 بتصرف يسير .
[5] النفس المفككة ، سيكلوجية السياسة الأمريكية – د . محمد أحمد النابلسي - ص 255 .

" إن كل من يرصد القوم " الأمريكيين " يرى غرورهم بهذا الرخاء الذى هم فيه ، وشعورهم بأنه وقف على الرجل الأبيض ، وطريقة تعاملهم مع الملونين فى عجرفة مرذولة ، وفى وحشية كذلك بشعة ، وفى صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذى شهّر اليهود فى الأرض كلها حتى صار علماً على الصلف العنصري . بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين فى صورة أشد وأقسى !"[1]

لا شك أن من يرى كل هذا ، لا بد له أن يدرك أن تلك المجتمعات لا تستحق إلا وصف " أرض الخوف " ، فهناك " خوف من كل حركة ، وهناك اتهام وشك فى كل شىء ، وهذا الخوف يستغل سياسياً داخل أمريكا أولاً ، حيث يستخدم الخوف للتحكم فى الأمريكيين " [2] وحرمانهم من الحرية ..كما يستخدم خارجها لاسترقاق الشعوب وتعبيدها .. ولكن الشعوب تملك أنوفاً تشم من وراء جدران الخداع ، و تزكمها رائحة الاستبداد ؛ فما تلبث إلا أن تقوم بالعطاس كرد فعل للرائحة الكريهة ، وفي هذا بشري وأمل لكل الذين يحملون ..

• أشواق الحضارة

كما أن العواصف الجوية و الأعاصير تجر معها سيولاً هائلة من الماء ، و تترك وراءها في البلد الذي تجتاحه ، الخراب و الموت ، فإنها تترك أيضاً علي وجه الأديم طمياً تتجدد به الحياة في هذا البلد ، فتنشط و تنمو فيه أنواع النبات ، فكذلك شأن الفساد الذي يجر معه الموت والخراب ، ولكنه يخلّف في العقول بذوراً تنبعث منها الأفكار الطيبة التي تغيّر مجري الواقع ، وتبني الحياة الطيبة .. وهذا ما نأمل أن يحمله المستقبل لواقعنا المعاصر ؛ فقد ظهر الفساد في البر والبحر ، وعاث الغرب في الأرض ، وأفسد فيها بعد إصلاحها ، وخرّب العالم وملأه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وحوله إلي خمارة ، وبيت فسق ودعارة ، ومكان نهب وغارة .. " وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذن أن تُرفع ويذكر فيها اسمه ، وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ، ويعيد البيت إلي قواعد إبراهيم ومحمد (ص) ، ويبني العالم الجديد . " [3]

إن مجتمعات الحضارة الأسيرة تمضي فى طريق تدمير خصائص الإنسان ؛ فيعيش الناس في رِق نفسي ، وظلام بهيم " ثم ما هو الهدف من الحياة ؟ لا يعرفون الهدف ، هدف الملوك أن يحكموا علي أوسع بقعة من العالم ، و ما هذا بهدف يستحق الاحترام والاهتمام ، وهدف الوزراء أن يرضوا الملوك وأن يخضعوا

---

[1] **في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ج 2 ص 1091 .**
[2] **الإهانة فى عهد الميجا إمبريالية – المهدي المنجرة ـ 122 ، 123 .**
[3] **ديوان محمد إقبال ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري ـ ج 2 ص 509 .**

لهم ، وأن يحققوا رغباتهم ، وهدف قادة الحرب أن يسوقوا الناس سوقاً إلي جهنم الحروب .. لماذا يحارب هؤلاء ؟ لا يعرفون .. لماذا يساقون إلي ساحات الحرب ؟ ، لا يعرفون .. إنهم كقطعان من الغنم تساق سوقاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، الناس يؤدون ضرائب فادحة قاصمة للظهور ، لماذا يؤدونها ؟ .. يؤدونها ليقضي الملوك وأصحاب البلاط ، والسريات ، رغباتهم وشهواتهم ، يؤدونها ليترفه وليترغد حفنة من الناس ، يشقون لسعادتهم ، ويتعبون لراحتهم ، ويموتون لحياتهم .

وهكذا هو الجو ، حضارة بلا هدف ، وحكومات بلا هدف ، وقوانين بلا هدف ، حياة من غير لذة ، وجسم من غير روح ، وألفاظ من غير معني ، وخطوط من غير وضوح ، إنما هو كله ظلمات بعضها فوق تغشي العالم كله ، فتتركه في ظلام مطبق ، تتسكع في الجهالات والسفالات ، يرسف في قيوده التي صنعها، ويشحط في دم نفسه التي أراقها ، لا صلة بين طبقة وطبقة ، ولا صلة بين حاكم ومحكوم ، ولا صلة بين عالم ومتعلم ، ولا صلة بين العلم والأدب ، والفلسفة والحكمة ، وبين الشعب والجمهور وعامة الناس ، انقطعت الصلات ، وأصبحت كل طبقة تعيش لنفسها ، وبنفسها وعلي نفسها. " [1]

إن " البطون إذا امتلأت لا تغني النفوس و لا تشبعها ، فقد تشبع البطون ، و تبقي الأرواح متعطشة ، و تبقي الأرواح متطلعة ، و حين لا تجد وجهة تتطلع إليها ؛ فإنها تفضل الاستقالة عن الحياة ، هذا ما يحدث عن طريق الموبقات .. عن طريق التدهور الأخلاقي .. " [2] ذلك أن " إطلاق الشهوات من كل قيد ، وتحرّي اللذة فى كل تصرف ، وإقصاء الواجب .. إلي غيرها من السلوكيات التي تبدو يسراً وراحة وانطلاقاً ، هي فى حقيقتها مشقة وجهد وثقلة ، وعقابيلها فى حياة المجتمع – بل فى حياة كل فرد – عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة " [3]

لقد أصبح " الغرب ضائعاً ، فهو يملك علماً وحضارة مادية فائقة ، ولكنه يفتقد الروح .. والإسلام هو الذي يملك تلك الروح ، وهو في الوقت ذاته لا يجعلها بديلاً عن العلم والحضارة المادية ، إنما هي التوأم المكمل : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ{71} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ{72}.. قبضة الطين ونفخة الروح معاً هما " الإنسان " ، الإنسان المتكامل المترابط المتوازن . الإنسان الراشد ، الذي يقوم بعمارة الأرض علي هدي وبصيرة " [4]

---

[1] أحاديث صريحة في أمريكا- أبو الحسن الندوي - ص 25 - 27 .
[2] دور المسلم و رسالته - مالك بن نبي - ص 25 .
[3] في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 2 ص 632 . بتصرف يسير .
[4] كيف ندعو الناس - محمد قطب - ص 185 .

ولكي يولد ذلك الإنسان ، بهذه المواصفات ؛ لا بد من إرجاع " التوازن المفقود أو المنعدم ، بوضع ثقل حضارة جديدة ، في إحدى كفتي التاريخ ، حضارة ترفع الإنسان المتخلف للمستوي الاجتماعي الذي يتمتع به إنسان حضارة الأشياء اليوم ، و ترفع هذا الأخير إلي المستوي الأخلاقي الذي تفرضه الإنسانية " [1] .. فيخرج من تيه " الحضارة الأسيرة " التي لا تتورع عن استعباده حقيقة بالبيع والشراء كالمتاع والدابة ..!! أو استعباده معنوياً بحرمانه أقل حقوق الإنسان .. يخرج من ذلك التيه إلي حضارة الإسلام التي تنطوي علي قوة تحريرية تكون له الدرع الواقي من أن يحطمه الاستعباد .

إن الحضارة " هي مجموع الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده ، في كل طور من أطوار وجوده ، منذ الطفولة ، إلي الشيخوخة ، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه " [2] ، و إذا كانت البشرية تعاني من الاستعباد في ظل مجتمعات الحضارة الأسيرة ، فإن ما يملك الإسلام تقديمه لتحرير البشرية هو نظرة الإسلام الصحيحة للإنسان والحياة .. هذه النظرة التي تقوم على تكريم الإنسان ، و شمولية الحياة ، وتناسق الوجود ، وحقائق الأشياء ..

إن " طبيعة الأشواق تحدد طبيعة الحضارة .. فإذا تعلقت الأشواق بالجانب المادي للإنسان فحسب ؛ أنتجت حضارة مادية .. وإذا ما تعلقت بجوانبه الروحية والمادية معاً ؛ أنتجت حضارة إنسانية ... وعملية بث الأشواق في روح الإنسان عملية هامة تحتاج إلي علم بها وصبر عليها ورعاية لها . وتلك المهمة لا تتم إلا حين تترجم رسالة ما إلي تصور ذهني وسلوك عقيدي يضئ بالقدوة أكثر مما يضئ بالفلسفة ، ويجمع حوله القلوب والأفئدة فتنساب في سلوك جماعي موحد تحسه في تصرف البسطاء من الناس كما تراه في تصرف علمائهم . " [3]

ولا شك أن هذا هو ما قام به الإسلام أول مرة ، فقد " بعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والعالم بناء أصيب بزلزال شديد ، هزه هزاً عنيفاً ، فإذا كل شيء في غير محله ، فأساسه ومتاعه منه ما تكسر ، ومنه ما التوى ، ومنه ما فارق محله اللائق به ، وشغل مكاناً آخر ، ومنه ما تكدس وتكوم .. ورأي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إنساناً قد هانت عليه إنسانيته .. قد فسدت عقليته ، فلم تعد تستسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ..!! .. و فسد نظام فكره ، فإذا النظري عنده بديهي ، وبالعكس يستريب في موضع الجزم ، ويؤمن في موضع الشك .. وفسد ذوقه ، فصار يستحلي الشر ، ويستطيب الخبيث ، ويستمرىء

---

[1] **نص حوار مالك بن نبي .. راجع إن شئت " شخصيات إسلامية معاصرة ، إبراهيم البعثي ـ ج1، ص 196 "**
[2] **آفاق جزائرية ـ مالك بن نبي ـ ص 38 .**
[3] **ثغرة في الطريق المسدود ، دراسة في البعث الحضاري ـ د. سيد دسوقي حسن ، د. محمود محمد سفر دار ـ ص 19 ، 20 .**

الوخيم .. وبطل حسه ؛ فأصبح لا يبغض العدو الظالم ولا يحب الصديق الناصح !! "[1].. ورأي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ " المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها و لم توجه التوجيه الصحيح ، فعادت وبالاً علي أصحابها و الإنسانية ، فتحولت الشجاعة فتكاً و همجية ، و الجود تبذيراً و إسرافاً ، و الأنفة حمية جاهلية ، و الذكاء شطارة و خديعة ، و العقل وسيلة لابتكار الجنايات و الإبداع في إرضاء الشهوات.. " [2] بل لقد صار كل شيء في غير شكله أو محله في ذلك العالم " فقد أصبح فيه الذئب راعياً، والخصم الجائر قاضياً ، والمجرم سعيداً حظياً ، والصالح محروماً شقياً .. عاداته فاسدة ، تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك . " [3]

وبقي الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، " حتي جاء الإسلام ؛ فأنقذ البشرية من بحر الشقاء إلى ساحل السعادة ، ومن عبادة الأحجار والعبيد إلى عبادة الله وحده ، ومن حمأة الرذيلة إلى قمة الفضيلة"[4].. فحقق كرامة " الإنسان " وحرره من كل القيود والأغلال التي كانت عليه ؛ فصار هذا الإنسان الذي يتحدي العقبات التى تعترض طريقه فى السعي والتحرك ، و يعد لكل عدو سلاحًا ، فأما الجبن فيواجهه بالتوكل ، و أمّا الخوف فيستعين عليه بالثقة بالله ، و أمّا مغريات الدنيا فيستعد لها بقوة الارادة ، وأمّا لوم اللائمين ومدح المادحين أو الأغلال الإجتماعية الأخرى فيتسلح ضدها باليقين ، فلا يخاف فى الله لومة لائم .. فقد تخلص من الأغلال التي تجذبه إلي العبودية الذليلة ..﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157].

وحين توضع عن الإنسان الأغلال والقيود ، فإنه يقيم علاقته مع الآخر وفق " أخلاق " حضارية لا تنحصر في جنس أو لون ، فهي أخلاق إنسانية صادرة من " الإنسان " بوصفه إنساناً ، وموجهة إلي " الإنسان " حتي ولو لم يكن مؤمناً بما يؤمن به أفراد هذا المجتمع .. فالأخلاق فى الإسلام " ليست عدداً من الفضائل المبعثرة ، كل على حدة ، كالصدق والأمانة والعفة والوفاء ... إلخ ... إنما هي نظام متكامل لحياة شاملة . نظام يوجه ويضبط كل النشاط الإنساني فى شتى جوانب الحياة ، وكل نشاط خيّر بناء هادف هو نشاط أخلاقي .. فالصدق خُلق ، ومثله االتضحية لتحرير البشر من العبودية لسواه . والأمانة

---

[1] راجع إن شئت " منهج الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية – علي بن جابر الحربي "

[2] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي - ص 89 ، 90 .

[3] راجع إن شئت " منهج الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية – علي بن جابر الحربي " ص 453 .

[4] منهج الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية – علي بن جابر الحربي - ص 453 .

خُلق ، ومثلها عمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها فى حدود ما شرع الله ، ابتغاء رضوان الله . والعفة خُلق ومثلها تطهير عقول الناس من الوهم والخرافة والضلال . والوفاء خُلق ، ومثله القيام على حدود الله ، والإيجابية وعدم السلبية " [1]وليس ذلك إلا في الإسلام ..

إن " العالم اليوم يشعر بالحاجة إلى منقذ مخلّص ، وإنه لموجود .. خلّص الإنسان – عندما طبّق – من جور الإنسان ، وعبادة الإنسان للإنسان ، إلي عبادة رب الإنسان الذي أراد الخير و السعادة المطلقة للناس أجمعين ، ولا عجب ..فرب الناس يحب لهم هذه السعادة ، وقد وضعها لهم في تعاليم سامية ختمها الإسلام ، وقد جربه العالم يوماً " [2] في زمن مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.. ولقد أصبح أكثر احتياجاً له في أيامنا هذه ، حيث تعاني البشرية كلها من الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب، وتهرب من واقعها النفسي بالأفيون والحشيش والمسكرات ، وبالسرعة المجنونة ، والمغامرات الحمقاء ؛ "وبالتقاليع" السخيفة .. فتنتهي حياتها كلها إلي خواء مرير ..

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد أفلت ، فأسلمت أهلها إلى ليل بهيم ، و انفصل المجتمع الإسلامي عن ثقافته ، وبدا التراث الروحي والفني صورة لتاريخ لا يجد له في المجتمع أنصاراً ؛ فكلنا يعلم أنه لو لم يكن الليل لكنا عاجزين عن رؤية السماء ذات النجوم .. فالضوء فى هذه الحالة يحرمنا بعض الرؤية ، بينما العتمة والظلام يساعداننا على أن نرى شيئا ..

فلا تجزع فهذا العصر ليل　　　وأنت النجم يشرق كل آن

ضياؤك مشرق في كل أرض　　　لأنك غير محدود المكان [3]

وكلنا يعلم أن الطريق يصنعه السير .. فإذا أردنا السير في طريق الحضارة ؛ فلا بد لنا من تمهيد ذلك الطريق من خلال حفريات متعمقة فى بنية الحضارة الغربية الأسيرة بمعاولنا نحن ، وليس بمعاول غيرنا، وفى محيط أفكارنا الإسلامية ، وليس الأفكار المستوردة .. فإذا فعلنا ذلك كنا قادرين – بإذن الله – على جلب اللبنات الصالحة ، والكافية لتشييد صرح حضارتنا .. حضارة الحرية ، فـ

امض فى الدنيا كنهرٍ فى جبال　　　وأعرف الأغوار فيها والنجودا

أو مثال السَّيلِ فاجرُف كلّ شيءٍ　　　لا تباليه هبوطاً أو صعـــــودا [4]

---

[1] مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص 289 بتصرف يسير .
[2] عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي – شوقي أبو خليل - ص 161 .
[3] [3]ديوان محمد إقبال - إعداد سيد عبد الماجد الغوري
[4] المصدر السابق - ج 1 ص 340 .

إن لكل حضارة أشواقها التي تخلق عالم أفكارها ، هذا العالم الذي يشبه اسطوانة التميز للمجتمع عن غيره من المجتمعات .. فهي المخزون الثقافي الذى يشكّل المناخ العام لحضارة تلعب دورها فى التاريخ .. و لقد استقرت أشواق حضارتنا فى ضمائر المجتمع القرآني الفريد استقرار الفطرة المكينة العميقة البسيطة، حتى كان الرجل من عامة المسلمين يتحدث عنها عفو الخاطر ، ببساطة عابرة فينطق – فى كلمات معدودات – برسالة الإسلام ، ودوره في حياة البشرية " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد . إلى عبادة الله وحده " وكان يري في طيات الشر الذي يحطم العالم ويهدده ، بذرة خير يرجو أن تثمر ثمرة طيبة .. وكان يعلم أن هذا هو التفاؤل اللائق بالحياة .. وأن هذه الحياة ما برحت تعثر في خطواتها ، ثم تنهض بعد العثار .. تحدوها أشواق حضارة الحرية ، إلي التحرر من " مجتمع الحضارة الأسيرة " .

***

الباب الثاني: ثقافة التيه

ويشتمل علي فصلين :

الفصل الأول : العبودية المختارة

الفصل الثاني : النفس المستعبدة

الثقافة .. طبقة اللاوعي التي توجه سلوك الفرد ، و أسلوب الحياة الذي ينتظم المجتمع .. يظهر أثرها في العامي و العالم علي السواء ، حيث تتحول الأفكار إلي كلمات .. وتتحول الكلمات إلى أفعال .. و تتحول الأفعال إلي عادات .. ثم تصبح العادات طباعاً .. و تتعمق في نفس الإنسان ، حتي تصبح مثل النَفَس ، تعمل آلياً ، فيمارسها بلا كلفة مثلما يدق قلبه ..

و .. ثقافة التيه ، تلك الثقافة التي تكرّس مفهوم راعي الغنم ، وتنظر إلي الشعوب علي أنها مجرد قطيع لا يملك من أمره شيئاً ، يسير نحو الاتجاه الذي يحدده الراعي ، الذي بعصاه يروَض القطيع ، ويؤدب من يحاول التمرد ..!!

هذا الواقع ـ القطيع ـ لا يتحقق بمجرد تسلط الراعي ، بل ينشأ في رحم المجتمع عبر أخلاقيات الضعف والخوف ، فتسري في الأنفس " العبودية المختارة " التي تجعل " الخضوع " للأوامر آلياً ، كما يدق الجرس فور ضغط الزر واتصال التيار .. ذلك أن ثقافة القطيع ترى العلاقة الوحيدة الممكنة بين مخلوقَين هي أن يصدر أحدهما الأوامر ، و يقوم الآخر بطاعتها وتنفيذها ؛ فتصبح قاعدة الحياة " إذا كنت تملك المطرقة ، فكل من تراهم أمامك مسامير ..!! " .

وللخروج من هذه العبودية ؛ لا بد أن نتخطى دراسة طبائع الإستبداد إلى جذوره ... لندرك أن " النفس المستعبدة " التي طال عيشها في الظلام ، يؤذيها النور ويجرح بصرها ،وأنه من المحال أن يتحرّر بَدَنٌ يحمل عقلاً عبداً ، ويمارس الحياة من خلال " ثقافة التيه " .

العبودية المختارة

تمد شجرة الطغيان ظلالها الكئيبة على مختلف وجوه حياتنا وتفكيرنا وسلوكنا ، وتثمر ثمارها الخبيثة من الاستبداد والتسلط .. وغيرها من الثمار التي نشقي بغصصها ، ونتوجس خيفة من أخطارها ، ولكننا لا نعطيها حقها من الاهتمام والدراسة التي تقبض علي أسبابها عبر التأمل فيما لدينا من معارف وخبرات ، والاجتهاد للوصول إلى جذور واقعنا ، والتساؤل : عبوديتنا .. لماذا ؟ .. ليست " لماذا " التى تثير متعتنا الكلامية .. وإنما " لماذا " التي هي أداة لشحذ الفكر والهمة للوصول إلى الهدف ، والإجابة عن التساؤل.. لماذا يحتمل الناس طاغية لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ، ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه ؟ .. ولماذا يتحول الإنسان إلي كائن مسخ يتقن الكذب والتمثيل ؟ .. ولماذا لا يري عيباً فى عبوديته ، ويشعر أنها طوق يستحيل كسره .. بل ربما رأي التحرر انتحاراً ؟! .. إلي غيرها من التساؤلات التي لا بد من الإجابة عنها ، حتى لا نظن أننا بذلنا غاية الجهد فى سبيل التحرر من العبودية ، بينما نحن لم نتجاوز مجرد الحديث عنها ، وإدمان الشكوي من واقعها الأليم ..

وإذا شرعنا في محاولة الإجابة عن تلك الأسئلة ؛ فلا بد لنا من التأكيد أنه علي الرغم من ارتباط كلمة الاستبداد في وعينا بـ " الاستبداد السياسي " ، إلا أن حقيقة الاستبداد أنه مرض عام يتخلل كل المستويات الاجتماعية . يظهر ذلك بين بين رب العمل والمستخدم ، و بين المرأة والرجل ، وبين التلميذ والأستاذ .. بين الضابط والجندي ، و بين الطبيب والمريض ، و بين الموظف والمواطن .. وأن سبب ذلك المرض هو ما يمكن أن نطلق عليه " مركب العبودية التربوية " ؛ فالمربون " يضطرهم " الاستبداد إلي الكذب والنفاق والتذلل ، و" يدعوهم " الخوف إلى تربية الأبناء علي العبودية للمستبدين ، و " يأمرهم " الهوان أن يكونوا هم ومن يربونهم زيادة في مملكة الاستبداد ، فيتهافتون على الرق والخِدمة ، ويضعون بأنفسهم الأغلال فى أعناقهم والسلاسل فى أقدامهم ، ويلبسون شارة العبودية فى مباهاة واختيال ..

ومن هنا فقد مست الحاجة إلي تناول " الاستبداد " من جانبه النفسي والتربوي ، والذي نعتقد أنه عنصر أساس في تغلغله وانتشاره " حيث يبدو أن لدينا خللاً في منظومتنا الفكرية سمح بتغلغل الاستبداد في نفوسنا ، وأدي إلي تأخر العلاج حتي الآن وإلي رفض الدواء ، بل وأدي إلي فقد البصيرة حيال هذا المرض لدي قطاع كبير منا فلم يعد يشعر بأعراض المرض أو يشكو منه أصلاً .. " [1] ؛ بل أصبح يرى الخضوع " فضيلة " والطاعة العمياء " خُلُق " ، وتحولت التربية إلي خيوط تقيّد إرادة المتربين ، كما تقيّد السلاسل الحديدية حركة الإنسان ..!!

ولا شك أن هذا الواقع يضع علي التربية الراشدة مسؤولية كبيرة في تنمية " تعشُّق الحرية " ونُصرتها ، والغيرة عليها ، والدفاع عنها ، إذا انتهكت ، كالغيرة علي الأعراض والحرمات .. وإلا سنرى أنفسنا ذات يوم ونحن هناك وسط العبيد .. فى الزحام ذبنا معهم ، ضاعت ملامح حريتنا بالتدريج ، بحيث لو شاهدنا أنفسنا وقتها فى صورة جماعية معهم لما ميّزنا أنفسنا من بينهم .. لقد انتمينا إليهم .. ربما لم تقصد ذلك أو ننويه .. لكنه حدث لنا عبر :

• ترويض البشر

يولد البشر أحرارًا .. بل مفطورون على حب الحرية والزود عنها .. وليس البشر وحدهم ، بل إن الحيوانات يهتف كل مسلك تسلكه بما يعني "عِشق الحريّة " .. فالبعض منها ما يكاد يقع فى الأسر حتى يموت ، و يأبى أكثرها الأسر فيقاوم بشدة بالأظافر والقرون والمناقير والأقدام ، وكأنه يعلن اعتزازًا شديدًا بالحرية .. فـ " الفيل " مثلاً ، يقاتل بكل ما آتاه الله من قوة دفاعًا عن حريته حتى إذا رأي ضياع الأمل وأوشك أن يقع فى الأسر ، رأيناه يغرس فكيه فى شجرة محطمًا سنيّه .. وكأنه يساوم قناصيه على حريته مقابل عاجه لعلهم يقبلون الصفقة ، ويفتدى بسنيه حريته ؟! .. وهناك بعض الأسود لا تتناسل فى الأسر أو داخل القضبان الحديدية..!!

هذه هي الحيوانات التى خلقها الله لخدمة الإنسان لا تألف العبودية دون أن تبدي احتجاجًا يعرب عن رغبتها فيها ، فكيف بالإنسان ؟! .. كيف يسقط هذا الإنسان فى قبضة الإستبداد ، ويرضى بالعبودية؟ .. وكيف يتحول إلي إنسان يتقن التمثيل ويؤدي كل الأدوار ؟

---

[1] علم النفس السياسي ، رؤية مصرية عربية ـ د. محمد المهدي ـ ص 36 ـ 38

إن السبيل الأنجح لدى المستبدين لترويض العبيد هى الدفع بهم للإنغماس فى الشهوات ، ونزع إرادة التدافع لديهم من خلال بث الشعور العام بعدم وجود ما يستحق أن يضحي الإنسان من أجله ، والعمل علي أن تبقي " ملذاتهم مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت ، وإلا فمزابل للنباتات.. ومنحصرة فى استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملاً على أديم الأرض وظيفتها توليد الصديد ودفعه .. " [1]، فإذا ثارت ثائرة العبيد ضد المستبدين ، إختلق هؤلاء حيلة ليبقوهم فى هدوء واستنامة .. تلك الحيلة هي ، " الحرية " الجنسية بلا حدود ، فى مقابل الحرمان من الحريّة السياسية .. ذلك أن تلك الحريّة الجنسية لا تمثل أدنى خطورة على المستبدين .. بل على العكس ، يمكن أن تخدم كوسيلة لتفريغ التوترات السياسية .. وكما يسمح المستبِدون بالحرية الجنسية ، فإنهم يسمحون أيضاً بكل المسكنات الإجتماعية من الخمر والمخدرات ، وغيرها من وسائل التهدئة .... فإذا بقي بعد كل هذه الوسائل أقلية من " مقلقي النوم العام " قام هؤلاء المستبدون بتصفيتهم حتى لا يبقى فى طول البلاد وعرضها إنسان ذو قيمة ؟!!

إن المستبدين يعلمون أن إرادة الحياة تدفع الإنسان إلى الاستجابة للوضع الاجتماعي وتكييف النفس على أساسه ، فيجعلون من هذا التكيّف لوناً من " الإكراه لكي يرغب الإنسان ما يجب عليه أن يرغبه ، أو يقبل ما يعتبر حسناً وجميلاً ، ليس لأنه حسن وجميل .. وإنما لأن عليه أن يعتقد ذلك !! .. وأخيراً أن يحمل أفكار الآخرين ، ويقبل أذواقهم كأنها تخصه ..!! .. وتكتمل المناورة مع الذات حين يلاحظ أن هذه الأفكار والأذواق غريبة ، ومع ذلك يبدأ بخداع نفسه أنها أفكاره .. " [2]

ولا شك أن الإنسان لا يصل إلي هذه المرحلة إلا تحت تأثير " عملية غسيل دماغ مزمنة يقوم بها المتسلط . يشن فيها حرباً نفسية منظمة لتحطيم القيم الاجتماعية والحضارية للفئة المستعبَدة ، تؤدي إلى تبخيس وازدراء كل ما يمتّ إلى عالمها بصلة . كما تزين لها قيم المتسلط ، أسلوب حياته ، أدواته ، تقنياته، كطريقة وحيدة ذات اعتبار في الحياة ، وفي تحقيق الذات . هذه الحملة تحاصر الإنسان المستعبد من كل جانب ، في وسائل الإعلام ، في الدعاية ، وفي التعليم الدراسي ، تنسف وتبخس قيَمه الأصلية وتستلبه من خلال الذوبان في نظام الفئة المتسلطة ... ونتيجة لهذه الحملة المنظمة والمستمرة ، التي تأخذ بعقل الإنسان المستعبَد وفؤاده كل مأخذ ، وتحاصره من كل اتجاه ، يتحول تدريجياً ليصبح إنساناً مزيفاً ، أسير

---

[1] راجع إن شئت " طبائع الاستبداد – الكواكبي

[2] هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش ـ ص 159 بتصرف .

المظاهر ، باحثاً عن أقنعة الوجاهة من كل نوع ، وهو ما يجده في تقليد الأسلوب الحياتي للمتسلط ومثله العليا ... وبذلك تصبح الضحية الحليف الأكثر قرباً وتعلقاً بالجزار !! "[1]

و " لأنه إذا كانت للإنسان شخصية ، لا يمكن أن يكون خادماً جيداً ، ومن أجل إحكام التسلط ، يُسلب منه شعوره بإنسانيته ، أو يتم إضعاف هذا الشعور على الأقل ، فالشخص ذو الشخصية ، خادم رديء ، ولكن فاقد الشخصية خادم جيد ، ومطيع ، ووفي ، وسلس الانقياد.. وتاريخ روسيا القيصرية ترك لنا قصة ذات دلالة في الموضوع ، إذ نري أحد القياصرة ، وهو فيما أعتقد القيصر إسكندر الأكبر ، و قد كان في ضيافته أمير من الغرب ، فأراد القيصر أن يبرهن لضيفه عن مقدار سلطانه علي رعيته ، فأشار بأصبعه إلي جندي كان يقوم بدور حراسة بأحد ممرات الدوريات المشرفة علي هاوية سحيقة ، فبمجرد الإشارة ألقي الجندي بنفسه من ذلك العلو ، كأنه آلة تحركت بالضغط علي زر !! "[2]

وهكذا تكون الجيوش في ظل الاستعباد ، فالجنود لا يرون مبرراً لكي يضحوا بأنفسهم أو يقتلوا غيرهم ، ومع ذلك إذا قيل لهم اذهبوا ، ذهبوا .. وإذا صدرت لهم الأوامر أن ينتظموا فى موكب الموت ، انساقوا سوق القطيع من الحملان الذاهب للمرعى !!!

فكيف يصل الأمر إلى هذا ؟

إنه " الترويض " .. فأنت إذا تأملت طرق " الضبط والربط " ابتداء من ليلة التجنيد الأولى ، حتى الليلة الأخيرة ، وجدت فى كل حركة نوعاً من أنواع الترويض على قبول الذل .. أو ما يطلق عليه " الطاعة العمياء " .. فهذا قص للشعر .. وذاك تجريد من حق الاعتراض .. وشتم وسب .. بل وحبس ربما دون خطأ !! إلى آخر هذه الوسائل التى تجعل من " الجندي " رقماً فى دفعة لا ينظر إليه كـ " إنسان " ، وإنما كـ " أداة " .. فإذا صدرت له الأوامر بإطلاق الرصاص أطلقه ، ولو على آله وإخوانه ، وإذا قيل له " إضرب يا عسكري " شرع عصاه وأخذ يضرب بلا رحمة ...!!!

وهكذا .. يقوم المستبدون عبر وسائل عدة بتحطيم كافة قوى المقاومة فى النفس و محو المميزات الفردية ، وصهر الشخصية الخاصة فى بوتقة القطيع .. ويظل تأثير هذه الوسائل يعمل في نفس المستعبَد عملاً آليًا ، فتجده يمارس التذلل للمستكبر وإن لم يطلب منه .. تماماً مثل الجياد الشوامس التى تعض الرسن بالنواجذ فى البدء ، ثم تلهو به فى نهاية ترويضها .. وبعد أن كانت لا تكاد تستقر تحت السرج ، إذا

---

[1] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 133 بتصرف يسير
[2] مشكلة الثقافة - مالك بن نبي - ص 142 .

هي تتحلى برحالها وتركبها الخيلاء وهى تتبختر فى دروزها .. ثم تقول إنها كانت منذ البدء ملكًا لمالكها ، وأن آباءها عاشت كذلك ، وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور ، وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الإلتزام .. بل وتُبدع في فلسفة الخضوع والاستخذاء بحيث تحس التذاذًا في وضع الخضوع ..

قد تعيش النفوس فى الضيم حتى	لترى الضيم أنها لا تضام

إن الاستبداد يحاول من خلال كل ما يمتلكه من وسائل أن يغرس فى نفوس المستعبدين " أن المهانة والاستكانة هي الحالة العادية للحياة .. و ذلك من خلال حملة تيئيسية منظمة تقطع السبيل أمام أي انتفاضة أو أمل في الانتفاضة .. سكون الموت يخيم لا تقطعه سوى فقاعات تمرد فردي ، لا تلبث أن تغيب ، مخلفة وراءها مزيداً من القناعة في استحالة التحرر من خلال المجابهة ، نظراً لما تقابَل به من ردود فعل عنيفة ، تأخذ شكل البطش الذي تمارسه الفئة المتسلطة .. تلك الفئة التى تنظر إلى المستعبدين على أنهم جماهير منحطة لا تستطيع أن تحكم نفسها أو تستغل إمكاناتها وثرواتها ، ولذلك فلا بد لها من حاكم متسلط ولا بد لها من مستغل حليف له ..!!

وإذا كانت هذه هي نظرة المتسلِطين ، فإن المستعبَدين ينظرون إلى ذواتهم بازدراء ، بل ويكيلون النعوت لأنفسهم ، متهمين إياها بالتقصير والتخاذل والجبن ، بل ويميلون إلى إنزال العقاب بأنفسهم حتى أنهم يرون أحياناً فى الظلم والقهر عقاباً مستحَقاً لهم ... !!

إلا أن ، أبرز مظاهر الازدراء للذات من قِبل المستعبَدين هو الإعجاب المطلق بالمتسلط والاستسلام له فى حالة تبعية كاملة ..!! تلك التبعية التى يرى المستعبَدون فيها أن سيدهم له حق فى السيادة والتمتع بكل الامتيازات !!" [1]، فينزوي كل منهم في أصداف الطاعة النتنة ، حرصاً على أكل العيش ، وشرب الماء .. وكأنه قد ارتد إلى حيوان أو مُسخ قرداً لا هم له إلا الأكل والشرب ، ولا حفظ له يرعاه إلا الفم والفرج... ؟!

غاياتهم ملءُ البطونِ وقولُهم	في الحلقِ في سجنٍ من الكتمان
أرأيتَ كيف يسوقُنا جلادُنا	سوقَ الرعاءِ غرائبَ القطعان
ويسيرُ جيشُ البغي فوق جماجمٍ	منَّا وفوق كرامِة الإنســـان

---

[1] **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د. مصطفى حجازي - ص 42 - 45 بتصرف .**

و يتحول الصبر شيئاً فشيئاً من كونه قدرة علي التحمل وضبط النفس في المواجهة ، إلي سلبية يعاني الإنسان بسببها من العبودية الذليلة دون أن يفعل شيئاً لتغيير واقعه ، ثم تتحول تلك السلبية إلي حالة من الرضي بالواقع .. ثم إلي حالة من قلة الحيلة و فقدان القدرة علي التغيير ؛ لينتهي الأمر إلي حالة من التسليم أو الاستسلام .. لا يبدي معها الإنسان أدني مقاومة للاستعباد ..!!

ولكن " الطغاة لا يكتفون عادة بغياب المقاومة ذاتها .. إنهم يريدون أن يعظمهم المستعبَدون ويحتفون بهم !! وللأسف ، فإنهم فى العادة ينجحون فى ذلك ... لأن الشعور المكبوت بالكراهية ، قد يتحول إلى قبول ، ثم إلى إعجاب أعمى !!!! " [1] ؛ فيألف المستعبَدون الاستبداد " والذل والهوان ، ويصير الانحطاط طبعاً لهم تؤلمهم مفارقته ، وهذا هو سبب أن كثيراً ممن نالوا حريتهم ينظرون إلى الناقمين على أمرائهم من المستعبدين شزراً ، وربما يعتبرون طالب الإصلاح من المارقين من الدين !!! " [2] و إذا دعوتهم للتحرر ، رأيتهم ينظرون إليك وكأنك سفيه ، ويلمزون كلامك بأنه فلسفة وخروجاً عن الاستقامة ، فهم ضعيفو الإرادة خاملون.. وما دامت الحياة ممكنة فإنهم يبقون صامتين ، ومادام عشاء الليلة موجوداً ، فإنهم يبقون صامتين .

لقد أصبح الخضوع عادة للأفراد حتى رأوا فيه الطريق الوحيد إلي السلامة ، وما علموا أن السلامة الكاملة كل الكمال ما سيطرت علي شئ إلا انتهت به إلي الموت ، وأن الجسم الميت هو وحده الذي لا يقاوم .. ذلك " أن الفرد بادئ ذي بدء يخضع للباطل ويستسلم له، وقلبه غير مطمئن به ، ثم يأخذ قلبه في الاستئناس به يوماً بعد يوم حتى يطمئن به ، ويحس من نفسه ميلاً وتشوقاً إليه، وهكذا يتدرج في الركون إليه والاستئناس به إلي أن يكون عوناً له ومؤازراً في توطيد دعائمه ، حتى يأتي عليه اليوم الذي لا يضن فيه ببذل النفس والمال في سبيل إقامة صرح الباطل ، والصد عن الحق " [3]

إن هذه الحال تشبه إلي حد كبير حال " حيوان شرس ، عاش في حياة الشراسة ، وألِف العيش في الغابات ، ثم جيء به أسيراً يقضي حياة الأسر والعبودية ، لينشأ فيها ويألفها ، وبعد أن تم لآسريه ما أرادوه ، أطلقوا سراحه ليجول في الأرياف كما يشاء ، فأحس بعجزه عن البحث وحيداً عن غذائه ، ولما لم يجد مكاناً يستطيع أن يأوي إليه ، وقع فريسة سهلة في أيدي أول من صادفه ، ليعيده إلى الأغلال والقيود ..

---

[1] هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش - ص 168 بتصرف .
[2] أم القرى – الكواكبي – ص 266 .
[3] مستفاد من كتاب " الجهاد في سبيل – أبو الأعلى المردودي "

وهذا ما يحدث تماماً لشعب أَلِف العيش في ظل العبودية ، ولم يكلف نفسه يوماً ما عناء التفكير في الدفاع عن حريته .... فهذا الشعب – وإن حرره أحد لفترة – فإنه يعود مختاراً إلى العبودية من جديد ، بل ربما كانت عبوديته أشد من الأولى ... هكذا ، وكأنه قد غدا فاسداً كل الفساد ، ولا يستطيع التمتع بحريته حتى ولو لفترة قصيرة ، بل ربما حتى للحظة واحدة ..!! " [1] ، بل يرى أنه ليس جديراً بالحياة الكريمة ، ويرضي الفتات الذي يُلقيه إليه سيده الذي يملك السلطة والسطوة ... وشيئاً فشيئاً تذوب كرامته وتنمحي نخوته وعزته ، ويدور مع المنفعة حيث دارت كثور الساقية ، الشح شعاره والاستسلام للواقع دينه ، وتبرير كل فعل خسيس ديدنه .. وكأنه يردد في كل لحظة من حياته ..

خمسون عاما أنحني مذ كنت يوما سيدي طفلاً رضيعاً

واليوم تأمرني لأرفع هامتي فبكل أسفي سيدي لا استطيعا

إنه " الترويض " يهيء تربة المجتمع لاستنبات بذور الاستعباد ، و يميّع النفوس فى سوائل ومحاليل الاستكبار التي تشبه إلى حد كبير ما يزعمه السحرة من محاليل تحوّل التراب إلى ذهب .. ولكنها هذه المرة تحوّل الذهب الإنساني إلى تراب عديم الفائدة ، لا يقدر علي شيء إلا " امتصاص " العبودية من كل واقع إستبدادي ، ولا يمتلك إلا " نفوساً ضعفت همتها عن التضحية والفداء ، واستشعرت في داخلها الدونية، فاستحال تحريكها باتجاه أهداف سامية تتحقق فيها الحرية والعزة ، لأن مثل هذه النفوس ترضى شهوة البطن والأعضاء ، و دريهمات في الجيب بديلاً عن الحرية والكرامة .." [2] ترضي هذا الدون لأنها تعاني في داخلها من ..

• القابلية للإستعباد

كنت أقرأ عن مذبحة المسلمين في بغداد علي يد التتار ، وكيف أنهم قتلوا ألف ألف مسلم .. فتساءلت في نقسي ، تري لو صدرت أدني مقاومة من هؤلاء ، هل كانت الخسارة تصل إلي نفس العدد ؟!!

إن التاريخ يحكي لنا ، أن جندياً تترياً أراد قتل مسلم ولكن أعوزه السلاح ، فما كان منه إلا أن قال له : ابق هنا ولا تتحرك ، ثم غاب عنه لحظة ، وعاد بيده السلاح فذبحه ؟!

---

[1] **مطارحات مكيافيللي – نيقولو مكيافيللي – تعريب خيري حماد - ص 279 بتصرف .**

[2] **العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د. أسعد السِحمراني - ص 85 ، 86 - بتصرف يسير .**

ويحكي لنا أيضاً ، أن جندياً تترياً مُلَثماً دخل خاناً فيه الكثير من الناس ، فبدأ بقتلهم كيفما اتفق ، وهو وحيد وهم كثرة ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً سوي أن يسلموا رقابهم للذبح ، ثم رأي بعضهم أن قاتلهم ليس أكثر من فتاة ضعيفة ، فاجتمعوا عليها فقتلوها ؟!!

إن من يتأمل القصتين يدرك أن " التاريخ هو قاض عادل .. لا توجد هزائم غير مستحقة .. وكذلك الأمر مع الاستعباد .. إنه لا يأتي مع المستبد ، وإنما يكون بسبب من مرض داخلي لدي المستعبَد " [1] ، فليس لأحد أن يركب ظهر آخر إلا أن يكون هذا الآخر منحنياً .. ولا يمكن لمستبد أن يستعبد الآخرين إلا أن يكون لديهم استعداد خفي للعبودية .. .. ذلك أن العوامل الداخلية للسقوط هي العوامل الأهم.. ولذلك تسقط أوراق الشجر مع الخريف مع أن الريح يكون هادئاً ، و لا تسقط فى الصيف مع شدة عبث الهواء .. وعود الثقاب إذا ألقي في برميل ماء انطفأ ، وإذا أشعل في يوم صيف قائظ تضرب فيه الريح إلتهم غابة .. فالشرارة تستفحل نارها وتعظم كلما وجدت حطباً .. ثم تخبو وحدها دون أن نصُب عليها الماء حين نكف عن إلقاء الحطب إليها .. فإنها إذا عدمت ما تهلكه ، فإنها تهلك نفسها ، وتمسي بلا قوة ..

ولذلك فإن " الأمر الخطير في حياة الشعوب أن تتولد عند أفرادها عقدة الدونية ، بحيث يفقدون الثقة بأنفسهم ، فيقبلون تسلط سواهم ، ويستقبلون كل ما يرسله ، وفيه مصلحته ويتولد عنه إذلالهم ، لا لشيء إلا لأنه قد غُرست في نفوسهم مشاعر الضعف والصغار ، فهانت عليهم كرامتهم وعزتهم .. فالنفس هي مفتاح القضية ، فإمّا أن تولد العزّة عند صاحبها ، ولا تسلم بهزيمة أو تسلط ، وإما أن تكون عندها القابلية للاستعباد ، وعندها لا ينفع معها شيء " [2]

إن للحرية أضداد متعددة ، كالتسلط والاستبداد ، والقهر والاستعباد ، وكذلك التسيب والتحلل ، والفوضى والاستهتار ..وكلها قد يصيب " الإنسان في جسمه فيسجن أو يعذب ، أو في حياته فيقتل ويعدم ، أو في سيادته فيسترق ويستعبد ، أو في عزته وكرامته فيذل ويهان ، أو في رزقه وماله فيمنع من كسبه أو من حرية التصرف فيه ، أو في حرية القول والتعبير ، فيمنع من الكلام ، أو يعاقب إذا تكلم . كل هذه أحوال مقيتة بغيضة لا يرضاها حر لنفسه ولا لغيره ، بل هي محنة ووبال على الإنسان فرداً وعلى الإنسان جنساً . غير أن أسوأ نواقض الحرية وأخطرها على الإنسان ، هي تلك التي تصيبه في عقله وفكره وعلمه ، وخاصة حينما تصبح حرية العقل وحرية الفكر وحرية الفهم مكبلة ومعاقة ذاتياً وداخلياً، وبنوع

---

[1] **راجع إن شئت " هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش " .**
[2] **العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د . أسعد السِحمراني ـ ص 11 . بتصرف يسير**

من الاقتناع والارتياح " [1] " إذ يتوهم المفكر أن حرية التفكير خطر عليه وستلحق به الأذى والضرر له ولأسرته ، لمكانته وما يتطلع إليه من مناصب .. وهكذا ، يخشى من الرقابة والاضطهاد فيضع رقابة على رقابة ، واضطهاداً فوق اضطهاد " [2]

إن الذهنية االمستعبَدة " مُركب " يضم " الاستعباد " و " القابلية للاستعباد " ، و الذين يعانون من مرض "القابلية للإستعباد " ، يمكن استعبادهم بيد الصغار قبل الكبار ؛ لأن العبودية حالة نفسية ، والعزة حالة نفسية ، ولذلك يبقى العبد عبداً حتى لو امتلك الدنيا ، لأنه يحمل بين جنبيه نفسية عبد .. ومن اختار أن يكون قرداً ، فإنه يُعد نفسه لأن يطلقه الآخرون ليعرض حركاته البهلوانية فى السيرك – إن كان مطيعاً – أو يدخلوه الحبس فى القفص إن كان مقاوماً ..

إنه من الأهمية بمكان أن ندرك أن " أيدلوجية التسلط التي تميّز ثقافتنا تخترق توجهات مختلف الطبقات الاجتماعية ، وتتمثل في ممارسات الوزير .. جنرالات الجيش .. مدير المدرسة .. أستاذ الجامعة .. أو ربما حارس العمارة .. ويمكن القول بأن عشرة سنتيمترات في تباعد مساحة القوة بيننا قد تصل إلى آلاف الأمتار في قدرتها الفعلية الهائلة على امتلاك القوة والأحكام التعسفية .."[3].. ويبلغ هذا المرض مداه حين يقوم إنسان بفرض سطوته وجبروته على غيره ، فيتحول الآخر بفعل البطش إلى بقايا إنسان ، تتشوه في أعماقه صورة الحياة ونظرته للإنسانية كلها ، وتتحول نفسه إلي نفس فقيرة " تنظر إلى باطنها فتجد خواء ، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسد لها هذا الخواء ، وماذا تقتني ? .. تتصيد أناسا آخرين ذوي نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها ! " [4] فما تلبث أن تخترع ضحية جديدة تفرض عليها قوتها وبأسها ، فتري.مثلاً. " شاباً من أسرة طيبة ، وتربي علي أخلاقيات عالية ، ثم عمل ضابط شرطة في أحد الأماكن ، وتجده في مكان عمله يستخدم ألفاظاً نابية لم تُعهد فيه من قبل .. مبرراً ما يصنع بقوله : أصل دول عيال ولاد ..... ما يجوش إلا بضرب الجزمة ..!! " [5]

وهذا يؤكد لنا أنه في كثير من الأحيان يختبىء داخل العبيد .. طغاة وعتاة !! بل إننا لا نذهب بعيداً حين نقول أنه داخل نفس كل عبد ، طاغية ، والواقع العملي هو الذى يحدد أيهما يأخذ زمام المبادرة ..؟؟

---

[1] راجع إن شئت " الحرية في الإسلام أصالتها وأصولها ـ د. أحمد الريسوني "
[2] المصدر السابق .
[3] المعلمون بناة ثقافة – رسائل إلى الذين يتجاسرون على اتخاذ التدريس مهنة – باولو فريري – ترجمة د . حامد عمار – ص 138. بتصرف يسير
[4] الطاغية ـ د . إمام عبد الفتاح إمام ـ ص 96 .
[5] علم النفس السياسي ، رؤية مصرية عربية ـ د. محمد المهدي ـ ص 73 بتصرف يسير .

وتأمل ـ مثالاً ـ ضابط المرور ، وعلاقته بسائق الأجرة .. وتأمل كيف يطلب الأول من الثاني الأوراق ، وكيف ارتباك يدي الثاني وخفقان قلبه ، واصفرار وجهه ، ومحاولة التزلف والتقرب إليه بالبسمة الكاذبة، والكلمة الخادعة .. ثم .. كيف يشتم هذا السائق ضابط المرور حين يمر ، ويتأكد أنه لا يراه ..!!

هذه الصورة لو حاولنا عكسها ، أي قلب الأدوار .. فنجعل السائق في موضع ضابط المرور .. وضابط المرور مكان السائق .. كيف يكون المنظر ؟ .. من العجب أن نفس المنظر سوف يتكرر ، أي أن السائق سيقوم بنفس تصرفات الشرطي ..!!

ماذا يعني ذلك ؟

إن هذا يؤكد أن نظامنا الاجتماعي قائم على الطغيان والاستبداد ، وكل واحد منا يمارس الطغيان على من هو دونه ، حتى يصل الأمر إلى السلطة المستبِدة ..، والتي تتحكم في المستعبَدين من خلال مجموعة من الطغاة الصغار ، الذين لا يملكون أدوات الطغيان ، لكن لو قدر لأي صغير منهم وصار حاكماً لأحرق شعبه حرقاً .. !!

ويمضي هذا المركب المشؤوم " الاستضعاف ـ الاستكبار " ليصل إلي مستوي علاقة الدول ببعضها ؛ فنري انقسام العالم إلي " دول كبري " تستعبد " دولاً صغري " .. ثم تروّض الشعوب علي قبول الاستعباد عبر مقولات استسلامية " مؤداها إنهم يملكون القوة والعدة والمؤسسات والنفوذ الدولي ، لذلك فإن مواجهتهم غير ممكنة ، وما علينا إلا أن نتعايش معهم ، وأن نسلم لهم بما يطلبون .!! " [1]

وإذا كان " احتلال البلدان أمر قد يحصل لسبب أو آخر ، كما أن التسلط والاستبداد قد يُبتلى به شعب ما ، لكن المهم أن لا تُحتل الإرادات ، وتُستعبد فتتولد " قابلية للاستعباد " ، يُصبح معها التحرر من الأمور البعيدة المنال . "[2].. ومن ثم ، تستقر العبودية بداخلنا ، و تصبح إرثاً تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل ، وتبدأ حبالها تتعقد أكثر وأكثر حول أعناقنا ، وتضيق عليها الخناق ، حتي نصبح قاب قوسين أو أدني من الاختناق التام ، والموت ، كل ذلك بأيدينا نحن . . فنحن الذين ساعدنا هذا الحبل علي الالتفاف حول أعناقنا !! .. ونحن الذين شاركنا فى حفر فخ العبودية بأنفسنا ، وبحماس منقطع النظير .. فأعداؤنا لم يجرُّونا إلى نفق العبودية جراً ، بل إننا أحياناً ركضنا إليه ، وشاركنا فى حفره وبنائه فى أحيان أخرى ..

---

[1] **العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د. أسعد السِحمراني ـ ص 100 بتصرف يسير .**

[2] **المصدر السابق ـ ص 87 .**

وفى جر الآخرين إلى غياباته فى معظم الأوقات ؛ فكنا في جنازة الحرية المعزين ، وكنا الموتى فى الوقت ذاته .. كنا القتلى ، وكنا القاتلين .. كنا الجلاد ، وكنا الضحايا فى الوقت نفسه .. كنّا على أقل تقدير شركاء فى تلك الجريمة التى أودت بحريتنا ..

إن الاستبداد السياسي لا يتحقق بمجرد تسلط فرد أو حزب أو طبقة علي أناس مستعبَدين ، وإنما هو في الحقيقة ينشأ في الأنفس عبر أخلاقيات الضعف والخوف ، وممارسات الانعزال في دائرة الهموم الفردية ، وبفعل ما يسري في تلك الأنفس من استعداد للخضوع و " قابلية للاستعباد " ؛ فتفقد الطموح إلي الحرية ، أو نهرب من تضحيات التحرر بإلقاء هذا " الحِمل " علي السلطة المستبدة لترتاح .. ويكون ثمن هذه الراحة هو :

• حياة الأغلال

كيف يمكن لمستبِد واحد أن يستعبد الجموع الكثيرة ، وهو لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ، ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه ، ولا يستطيع إنزال الضرر بهم إلا لأنهم يؤثرون الصبر عليه بدل مواجهته ؟ .. إنه لأمر عجب أن نرى الملايين من البشر يخدمون فى بؤس ، وقد غلت أعناقهم ، و يُستبد بهم ، فلا يملكون مالهم ، ولا أهلهم ، بل ولا حتى حياتهم ..!!

إنه الخوف الذي غُرس في الذهن منذ عشرات السنين ، و " القابلية للاستعباد " التي تمكّن المستبد من الغزو النفسي للمستعبَد ؛ فيتكلم بلغة المستبد ويفكر بمنطقه ، فنراه يفرض الرقابة الذاتية على نفسه وعلى تحركاته ليتناغم مع المسموح من قبل االمستبِد ، ثم تنقلب تلك الحال من حيِّز الرقابة والتطبع إلي حيّز الطبع والقناعة ؛ فيتحول الى بوق مجاني يصرخ في وجه كل باحث عن الحرية .. ومن ثم يتحول المجتمع إلي كومة من الأفراد المعزولين عن بعضهم البعض ، وكأن كلاً منهم ذرة رمل تائهة ، غير متماسكة مع غيرها ، في صحراء تضرب فيها عواصف العبودية .. ويفتقد الجميع فيها الثقة بالنفس وبالآخر ، فلا يقدرون على أدنى مقاومة للمستبد ؛ لأنهم خائفون من مجرد الحديث عن حلمهم بالحرية بسبب من الرعب الذي يدب في قلوبهم إذا فكروا – مجرد تفكير – في التحرر ..!!

وهكذا هو الاستبداد .. يحول المجتمع إلي قطيع من البؤساء اليائسين الخائفين من أنفسهم ، الذين تقيدهم أوهام الأغلال ..!!

لقد قرأت أن هناك طائفة تدعى " الزيدية " يعتقد الواحد منهم إذا رسمت حوله دائرة أنه انحبس فيها فلا يخرج منها حتى يأتى من يكسرها له بإصبعه من خارجه .. وتعجبت فى البداية أن تكون هذه أفكار إنسان عاقل ..!!

ثم تأملت فإذا هذه ليست أوهام الزيدي وحده .. بل هي أيضاً أوهام العبيد الذين تملأ رؤوسهم أغلال العبودية فى صورة أوهام تمنعهم من مجرد التفكير في التحرر هرباً من تكاليف الحرية " فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة .. و هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون..!! " [1]

قد يبدو للنظر القصير أن مجموعة المحيطين بالمستبد ضحايا له إذ يعانون من استبداده ويتحملونه علي مضض وهذا صحيح من جانب واحد ، أما الجانب الآخر فهو أنهم شاركوا في صنع هذا المستبد ، بعضهم شارك بالأقوال والأفعال التي ضخمت ذات المستبد ، كالمدح والثناء والتبرير لكل صفاته وأفعاله والمشاركة في تنفيذ مشروعاته !! .. وبعضهم الآخر شارك بالصمت والانكماش مما سمح لصوت المستبد أن يعلو عمن سواه وسمح لذاته أن تتمدد في الفراغ الذي انسحب منه الآخرون كرهاً أو طوعاً .

و " لقد شاهدت فى عمري المحدود أناساً كان فى وسعهم أن يكونوا أحراراً ، ولكنهم يختارون العبودية . وفى طاقتهم أن يكونوا أقوياء ، ولكنهم يختارون التخاذل .. شاهدتهم يهربون من العزة كي لا تكلفهم درهماً ، وهم يؤدون للذل ديناراً أو قنطاراً .. و شاهدت شعوباً بأسرها تشفق من تكاليف الحريّة مرة ، فتظل تؤدي ضرائب العبودية مرات .. ضرائب لا تقاس إليها تكاليف الحريّة ، ولا تبلغ معشارها ، وقديماً قالت اليهود لنبيها : " يا موسى إن فيها قوماً جبّارين ، وإنّا لن ندخلها أبداً ما دانوا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون " .. فأدّت ثمن النكول عن تكاليف العزة ، أربعين سنة تتيه فى الصحراء تأكلها الرمال ، وتذلها الغربة ، وتشردها المخاوف .. وما كانت لتؤدي معشار هذا كله ثمناً للعزة والنصر فى عالم الرجال ...!!! " [2]

---

[1] دراسات إسلامية – سيد قطب – ص 124 – 127 بتصرف يسير .
[2] المصدر السابق – سيد قطب – ص 124 – 127 .

بل لقد قرأت عن عبيد أعتقهم سادتهم ، فرأوا أن العتق كان وبالاً عليهم ، فتشبثوا بالرق ، لأنهم رأوا أن حياتهم فى الحرية غير ممكنة ..وكأنهم قد صنعوا من أسيادهم آلهة من لحم ودم ، يركعون تحت أقدامها، ويتجادلون.وبكل صفاقة.أيهم أقلُّ سوءاً ؟! .. هكذا فالأفضلية عندهم لها حد خاص قمته الصفر !!

و هم بسبب الجهل يمارسون الوثنية ، ذلك أنه إذا كانت " الوثنية في نظر الإسلام جاهلية ، فإن الجهل في حقيقته وثنية ، لأنه لا يغرس أفكاراً بل ينصب أصناماً ؛ وهذا هو شأن الجاهلية "[1]

وتأمل معي هذه القصة الرمزية ..

في ليلة مظلمة أراد اثنان من الحيوانات أن يتسللا في جنح الظلام ، فصرخت بهما البومة أنتما مكانكما؟، فارتجفا في خوف وذهول كيف يستطيع أحد أن يبصر في الليل ثم هرعا إلى حيوانات الغابة فقالا إن البومة إلهة ؟ ، لأنها تستطيع أن ترى في الظلام !! ، فصاح الثعلب : ولكن هل تستطيع أن ترى في النهار مثل الليل ؟ ، فضحكت حيوانات الغابة من هذا السؤال السخيف !!

ثم ما لبثوا أن أرسلوا إلى البومة يتشفعون إليها أن تكون زعيمتهم إلى الأبد ؟ ، وعندما ظهرت البومة بين الحيوانات كانت الشمس في أشد سطوعها فأخذت تسير ببطء مما أعطاها المزيد من مظهر الوقار ؟ ، وراحت تحملق بعينين واسعتين مما أعطاها هالة من الأهمية .. فصرخت دجاجة إنها إلهة ؟ ، فردد الجميع نعم إنها إلهة ؟ ، وتبعوا البومة أينما ذهبت . وعندما بدأت تتعثر وتصطدم بالأشياء ؛ أخذوا يقلدونها لأن ما تفعله الإلهة هو عين الحكمة !! ... وأخيرا جاءت إلى شارع عريض وراحت تحملق في منتصفه بذهول ولا تكاد تبين ، فلاحظ صقر مرافق للموكب شاحنة تقترب بسرعة خمسين ميلاً في الساعة فصرخ : هناك خطر قادم ؟ .. وسألها من حولها ألا تخافين ؟ فردت البومة : ممن ؟ وكانت هادئة لأنها لم تر الشاحنة فصرخت المخلوقات كلها : إنها إلهة ولا شك ؟ وكانت تردد الهتاف بالروح بالدم نفديك يا بومة ؟ وبعد لحظات دهست الشاحنة البومة ومعها معظم الموكب .. أما من نجا من الباقين فاحتار كيف تموت الآلهة؟!!

إن المستعبَدين هم الذين يصنعون الطغاة كما تصنع خلية النحل ملكتها من أصغر العاملات .. كل ما تحتاجه حتى تصبح ملكة هو تغذيتها برحيق خاص.. وفي عالم العبيد يمكن لأي مغامر أن يقفز بالقوة إلى مركز الصدارة والتأله ؛ ليجد الجميع قد أصبحوا جماهير من العبيد .. " الذين يقفون بباب سيدهم ،

---

[1] شروط النهضة ـ مالك بن نبي ـ ص 30 .

ويتزاحمون وهم يرون بأعينهم كيف يركل السيد عبيده الأذلاء فى الداخل بكعب حذائه ، وكيف يطردهم من خدمته دون إنذار أو إخطار .. يطأطئون هاماتهم له فيصفع أقفيتهم باستهانة ، ويأمر بإلقائهم خارج الأعتاب ، ولكنهم بعد هذا كله يظلون يتزاحمون على الأبواب يعرضون خدماتهم بدل الخدم المطرودين ، وكلما أمعن السيد فى احتقارهم زادهم تهافتًا كالذباب !!

إنهم يهربون من الحرية ، فإذا طردهم سيّد بحثوا عن سيد آخر ، لأن فى نفوسهم حاجة ملحة إلى العبودية . لأن لهم حاسة سادسة .. أو سابعة ، حاسة الذل .. لا بد لهم من إروائها ، فإذا لم يستعبدهم أحد أحسّت نفوسهم بالظمأ إلى الاستعباد ، وتراموا على الأعتاب ، يتمسحون بها ، ولا ينتظرون حتى الإشارة من إصبع للسيد ، ليخروا له ساجدين !!

إنهم إذا أُعتقوا وأطلقوا حسدوا الأرقاء الباقين فى الحظيرة ، لا الأحرار المطلقى السراح ، لأن الحرية تخيفهم ، والكرامة تثقل كواهلهم ، لأن حزام الخدمة فى أوساطهم هو شارة الفخر التى يعتزون بها ، ولأن القصب الذى يرصع ثياب الخدمة هو أبهى الأزياء التى يتعشقونها !!

إنهم يحسون النير لا فى الأعناق ، ولكن فى الأرواح ، فلا تلهب جلودهم سياط الجلد ، ولكن تلهب نفوسهم سياط الذل .. لا يقودهم النخاس من حلقات آذانهم ، ولكنهم يقادون بلا نخاس ، لأن النخاس كامن فى دمائهم .

إنهم لا يجدون أنفسهم إلا فى سلاسل الرقيق ، وفى حظائر النخاسين ، فإذا انطلقوا تاهوا فى خضم الحياة وضلوا فى زحمة المجتمع ، وفزعوا من مواجهة النور ، وعادوا طائعين يدقون أبواب الحظيرة ، ويتضرعون للحراس أن يفتحوا لهم الأبواب !! " [1]

لقد ألفوا حياة الأغلال " التي يعيش كل فرد من أهلها لنفسه فقط ، فيسعى كل واحد منهم لحيازة كل شيء وبأي كيفية ، لا يرقبون في ذلك عزة عزيز ، ولا ذل ذليل ، ولا فقر فقير ، ولا ظلم مظلوم ، فيصبح فيهم العزيز ذليلاً ، والذليل عزيزاً ، حتى ينعدم بينهم الحب والخلق الطيب والأدب والرحمة والعدل "[2]

كل يعيش في إطار نفسه — والعيش والمتعة في الدنيا منـــاه

يخشي البِلى قبل حلول رمسه — فأعجب لميت لم يزل قيد الحياه

....

---

[1] دراسات إسلامية – سيد قطب – ص 124- 127 . بتصرف يسير .

[2] قلت لحماري – د. محمد سعيد التركي - ص 77 .

يبيع دينه لدنيا غيره وفي رضا غاصبه يستشــهد

ويومه الحاضر كل عمره فليس في تاريخ دنياه غد [1]

إن الطغيان يدمّر الخامة البشرية .. وهذا التدمير يمكّن بدوره لمزيد من الاسراف فى الطغيان على كل المستويات دون رادع .. ومن ثم يصبح الفرد مغلوبًا على أمره يائسًا من الحياة نفسها ، ومحرومًا من أمل "الحياة الجيدة "، التي يظن أنه يمكن أن يحصل عليها عبر " إنتاج الأبناء " .. و الذين هم في واقع الأمر أفراد جدد في القطيع ..!!

فما تلك الحياةُ نعيشُها عيشَ الأسيرِ ومرتعَ العُبدان

لقد كنت في السوق مرة ، وتحدثت إلى البائع بما جعله يبثني الكثير من همومه ومشكلاته ، والمصاعب التي يواجهها في الحياة .. شعرت أمامه بالعجز ، ولم أعرف ماذا أقول .. شعرت بالسخط لما يمر به .. وحزنت لما أري في عينيه الممتلئتين بدموع المعاناة .. وقلت في نفسي : إن الناس من أمثاله جزء من المجروحين المستعبَدين الذين – ربما – لا يفهمون سبب معاناتهم .. وعدم الفهم هذا يعزز نفوذ من هم السبب في تلك المعاناة ..!!

فهذا البائع وأمثاله كثير ، " لا يقض مضجعه شىء ! إلا غلاء الأسعار ، وانخفاض الدخول ، وقلة البضائع فى الأسواق ، وكون الأغلبية الساحقة فى فقر مدقع ، وإلى جوارها أقلية تعيش فى ترف فاجر .... ولكن هذه الأوضاع السيئة لا تمنعه من اللهو والطرب ، والغناء والموسيقى ، والشواطىء العارية والصحافة العارية والأفلام العارية ، وألوان أخرى من المتاع الحرام " يسلي " بها نفسه ، ويغرق فيها آلامه ، ولا يتجمع مرة تجمعاً جاداً لتغيير الأحوال ! .. ولا يفكّر فى التخلص من حالة الرّقّ ذاتها ليصبح من الأحرار ! " [1]

وهذا وأمثاله كثيرون ، لا يدركون بواعث الأحرار للتحرر ، فيحسبون التحرر تمردًا ، والاستعلاء شذوذًا ، والعزة جريمة ، ومن ثم يصبون نقمتهم الجامحة على الأحرار المعتزين ، الذين لا يسيرون فى قافلة الرقيق .. التي تجري وراء من استغني عنها ، وتطلب محبة من ترفع عليها .. يردد حاديها للمستبد :

---

[1] **ديوان محمد إقبال ـ إعداد سيد عبد الماجد الغوري ـ ج 2 ص 253 .**

[1] **الجهاد الأفغاني ودلالاته – محمد قطب ـ ص 48 ، 49 .**

هاهُم كما تَهْوى فَجمعُهُمُ دُمى	لا يفتحونَ بغير ما ترضى فَمَا
إنَّا لَنعلمُ أنَّهم قد جُمِّعوا	لِيُصفِّقُوا إنْ شئتَ أنْ تتكلَّما
بالأمسِ كان الظلمُ فوضى مهملا	واليومَ صار على يديك مُنظَّما
فهمُ الذين إذا صَببتَ لنا الأسى	هَتفوا لشخصكِ أن تعيشَ وتَسلَما

يا لذل العبيد .. كيف يضع فرد قبضته على رقابهم ، فيرسم مصيرهم ؟ .. وكيف يحولون هذا الفرد منهم إلى " إله " يملك أقدارهم وأرزاقهم ، بل يملك أن يدفعهم إلى الموت فى ساحات القتال متى يشاء فى صورة قرابين بشرية .. ؟؟ .. وكيف يعطونه الحق أن يسجنهم ويقتلهم متى شاء .. أو يمنحهم "حرية" متى شاء ؟ .. .. وكيف يرضون أن تنهب وتسرق خيراتها ، ويرون أن حصولهم على الفتات من ذلك نعمة عظيمة لمن ينهبها ..؟!!!

إن البداية دائماً تحتاج إلى الخطوة الأولى .. ونقطة النهاية لا تتحدد دون تحديد نقطة البداية ، والتعود على الألم يمنع الإنسان من الإحساس به ، ويمنعه كذلك من أن يأخذ الخطوة الأولى فهو لا يحتاج إليها ، فالألم صار شيئاً طبيعياً ، متوقعاً ، ويمكن التعامل معه .ولذلك فإننا نؤكد أن الخروج من " حياة الأغلال " فى جملتين اثنتين " الشعور بالحاجة إلى التحرر ، وتصور البديل لحياة الاستعباد " .. ذلك أن الذين لا يشعرون بآلام الاستبداد لا يستحقون الخروج منه ، لأنهم لا يقدّرون ..

• قيمة الحرية

الحرية .. ذاك الشعور الذي يمثل انطلاقة الروح ، وخلاص الإنسان مما علق به من دنس ، و يحس فيه الإنسان أنه ذا قيمة في الحياة ، يثبت ذاته من خلال حقائقها ، ويرتقي فيها نحو الأفضل ، متحرراً من كل الآصار والأغلال .. حتى يصل إلى الصورة الربانية للحياة الإنسانية .

والعبودية .. ذاك الشعور بالذل في القلوب والعقول ، وقبولها العيش في قيودها البالية قانعة بما يأتيها غير رغد ، في مجتمع يولد الفرد فيه أخرساً ، يتقن فن الصمت وتلقي الأوامر ، ويفتقد روح المبادرة ، و يردد دائماً : عاش سعيداً من بقي في الظل .. يألف الظلام ولا يرغب في النور .. لا يشعر بافتقاد الحرية ، لأن الإنسان لا يفتقد أبدًا شيئًا لم يحصل عليه .. فالفرح إنما يستشعره من جرّب الألم ، والأسي لا يستشعره إلا من ذاق السعادة .. وذكرى الفرح المنقضي تأتي فقط مع الألم ..!!

حكي ابن خلدون [1] أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ، و ربىّ فيها ابنه في ذلك المحبس ، لم ير فيها إلا الفئران .. فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها ، فقال له أبوه : هذا لحم الغنم ، فقال وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ، فيقول : يا أبت تراها مثل الفأر! فينكر عليه ويقول : أين الغنم من الفأر ؟!! .. وهذه حال من لم يذق في حياته سوى بؤس الاستعباد ، فمهما شرحت له نعمة الحرية ، فسيظل يسأل أتراه كالفأر ؟!!

إن الإنسان الذي لا يمارس الحرية يضمر فكرياً ، لأن منع حرية التعبير لفترات طويلة يؤدي إلى غياب الأفكار الخاصة ؛ لأن الإنسان يهرب من تطوير الأفكار والمشاعر التى لا يمكن التعبير عنها ،أو التى ستمثل عبئاً أو خطورة .. وهو يتكيّف مع ما يواجهه من قمع ، فهو في البداية قد لا يتحمل السير الحثيث في اتجاه العبودية ، ولكنه مع تعود الأمر ، يصير واحداً من المستعبَدين .. ثم يبدأ في السير وسط زحام القطيع ... متأرجحاً بين لذة الفهم لحقيقة الحرية ، ولوعة العيش بدونها.. وبين المقاومة في الحصول عليها، وبين الاستسلام لواقع العبودية .. وبين الأمل في الوصول إليها ، وبين اليأس من مجرد التفكير فيها..وبين الوحدة القاتلة حين يحلم بها، وبين الغربة الشديدة بين قطعان البشر التائهة..وبين اختلاط المفاهيم ، وبين صعوبة فهم معادلة الحياة.. وغيرها صور كثيرة ، تُعبر عن معاناة ذلك الإنسان الذي لم يصل إلى سماء الحرية ، ولم يطق العيش في أرض الاستعباد ..

ولأن هناك عداء لا يلتقي بين الخوف والحرية ، فإن من يقعده الخوف عن خوض الحياة ، يظن أنه عندما يعيش بين قطعان البشر، فإنه يكون آمناً .. وأن الخروج عن القطيع مَهلكة !!

وما يدري هذا المسكين حجم الخسارة ببقائه ضمن القطيع .. وأنه في الحقيقة يخسر كيانه.. شخصيته.. تفرده.. إبداعه.. فكره .. بل يخسر نفسه .. وماذا يمكن للإنسان أن يكسب ، إذا خسر ذاته ؟!!

ولا شك أن في محاولة الخروج عن القطيع خطورة.. وربما خطورة بالغة ، لكنها لا تساوي لحظة واحدة يبقاها الإنسان بلا قيمة بين قطيع البشر في ظل الاستبداد ..

وتأمل معي هذه القصة الرمزية ..

أبصر رجلٌ امرأة تقف إلى جانب أحد القبور تبكي بمرارة وحرقة . فسارع إليها يسألها : ماذا بك .. إنك تبكين كما لو كنت تحملين أحزان الدنيا .. فردت المرأة قائلة : نعم .. هكذا الأمر .

---

[1] راجع إن شئت " مقدمة ابن خلدون "

.. لقد قتل نمر من قبل والد زوجي فى هذا الموقع . وقد قتل زوجي أيضاً .. وها هو ولدي مات الميتة نفسها أيضاً ، فقال الرجل : ولماذا لا تتركين هذا المكان ؟

فردت المرأة : ليست هنا حكومة مستبدة ..!!

هكذا .. رأت هذه المرأة أن الحكومة المستبدة أشد ضرراً من النمر ..!!!

إن ما يدفع الإنسان إلى ازدراء المخاطر هو شعوره بلهب الحرية يحترق فى قلبه .. ذلك اللهب الذى يجعل غاية الإنسان هو الموت فى سبيله .. ولذلك يتنافس الأحرار من أجل الحرية ، وينتظرون من جهادهم فرحة النصر بها أو الموت فى سبيلها .. " ولكم أحببت الرجل الذي يقاوم ، فيما أكره المقاومة فيه، علي الرجل الذي يطيع دائماً فيما أكره وفيما أحب .. وكذلك المرأة التي تقول : لا. وتقول : نعم . وليست المرأة التي تقول : نعم دائماً ، لأنها تعين علي الظلم . ولا تقول : لا دائماً ، لأن هذا ينافي طبائع الأشياء ، فمن طبائع بعض الأشياء أن تقبل ، ومن طبائع بعضها أن ترفض.. ومثلهما طالب المدرسة أن يقول : نعم دائماً فهو يقولها عن غير فهم. وإن قال : لا دائماً، فهو لا يريد أن يفهم . وإذا سألتني أيها أحب عندي ، ولو بمثقال واحد ، لقلت لك الذي يقول : لا، لأني أكره الخضوع المتصل ، لأنه من أكبر أسباب الشقاء في الناس . وأكره أقل من ذلك الرفض المتصل ، الذي به بعض من حركة وإثارة وحياة .

إنني لا أجد في مواقف الخضوع التي أكره ، مثل كراهيتي الخضوع المتصل ، الخضوع الذي تعوده صاحبه حتى نسي ما الرفض .. جري لسانه سهلاً بـ " نعم " ، وتعثر بـ " لا " ، إنه الذي ينطبق عليه قول الشاعر:

ما قال لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وأنظر في الأمم فأجد أكثر الأمم حظاً من سعادة ، وأكثرها نصيباً من علم وفهم وتقدم ، تلك التي سبقت في التاريخ فقالت : لا، ثم لا ، ثم لا. ولم يمنعها ذلك من أن تقول : نعم . وأمم في التاريخ شقيت بحكامها، وشقي حكامها بها ، لأنهم كانوا حكاماً عودوا شعوبهم الخضوع ، فخضعوا .. " [1] وتحولوا إلي قطيع من العبيد ..

---

[1] **الحرية - د. أحمد زكي - ص 29 - بتصرف**

إن الإنسان حين يجلس مع هذا الصنف من الناس يشعر بسموم العبودية وهي تسري داخل كيانه أو ربما أصابه من جلستهم نوعاً من السكتة النفسية التى تعطّل جهاز المناعة ضد الاستبداد لديه ، وخصوصاً إذا أراد أن يمد إليهم يد مساعدة لم يمدّوا هم إليها يداً ..!! وعندها يسقط فى دوائر الفشل والإحباط والتشاؤم والشعور بعبثية أية محاولة للتحرر وتحطيم الأغلال .. فيفقد الهمة فى كل موقف ، ويسقط قلبه ، وتخور عزيمته عن عظائم الأعمال .. و يصبح حلم الحرية بالنسبة له كحلم فأر بهزيمة هر قد برزت أنيابه .. وهيهات لفأر أن ينظر في عيني هر !!

إن من الأهمية بمكان أن ندرك أن صعوبة الاستيقاظ من غفوتنا ، أقل قسوة من الاستمرار في هذه الغفوة .. وأنه من الضروري أن نقيّد وحش الاستبداد بزمام نستميت دون بقائه في يدنا لنأمن من بطشه ، فإن صال ربطناه به .. وأمسكنا عن تموينه ، ورجعنا عن طاعته ، فيصير بلا حرب ولا ضرب ، مكسور مهزوم .. لا شبيه لهم إلا فرع عدمت جذوره الماء والغذاء فجف وذبل .. ومات ...

ربما تمضي الحياة ؛ في سبيل الوصول إلى الحرية ، ولكن هذه الحرية لها قيمة ضخمة .. قيمة الحياة ؛ لأن " غيابها هو غياب التوحيد ، فحقيقة التوحيد أن لا يخشى الإنسان الموحّد إلا الله ، ولذلك فسّر الطبري قوله تعالى : " لا يشركون بى شيئاً " بأن معنى لا يشركون بى شيئاً هو : لا يخافون غيري من جبابرة السلاطين والأشخاص . "[1]

والمستقبل للأحرار ، لا للعبيد ولا للسادة الذين تتمرغ على أقدامهم العبيد .. وآجلاً أو عاجلاً ، سيظهر أفراد يشعرون بوطأة الذل والقيد ، ولا يرضون لأنفسهم الخضوع ، ولا يكتفون بالنظر إلى موطىء أقدامهم .. يتعشقون الحرّية حتى أنها لو انمحت من وجه الأرض لتخيلوها وتذوقوها ، فالحرية لديهم هي الحياة ..

أهوى الحياة كريمة ، لا قيد ، لا إرهاب ، لا استخفاف بالإنسان

فإذا سقطت ، سقطت أحمل عزتي يغلي دم الأحرار فى شـــــرياني [2]

وهم يدركون أن الناس يتفاضلون فى مراقي الشرف ، أو تتسفل هممهم إلى هاوية الرذالة ، بمقدار ما بينهم من التفاوت فى عقدة الإرادة وانحلالها ، فبقوة الإرادة ينجلى لنا فى مظاهر الإنسانية مطبوعاً على أجمل صورة من الكمال ، وبسبب ضعفها تنزل به شهواته من سماء الإنسانية إلى أن يكون حيواناً مهملاً ..

---

[1] راجع إن شئت تفسير الطبري ج 18 ، ص 158 ، 159 .
[2] من ديوان الشاعر . هاشم الرفاعي .

فإذا أراد الإنسان الحرية ، فإن هذا يعني ضمناً أنه كائن حيّ ، يؤمن أن عليه مهمة تحرير الإنسان ..كل الإنسان ، في الأرض ..كل الأرض ، وأن قيمة جهده في تحرير الإنسان ، ليست في مردودها على النفس، أو رؤية أثرها في الآخر .. إنما القيمة الأساسية لهذا الجهد ؛ هو أن يبقى الإنسان في حياة .. في طريقه نحو الحرية ، ونحو الحفاظ عليها .. فمهمة تحرير الإنسان ؛ هي السبيل للحفاظ على الحرية ترفرف بين قلب إنسان .

إنه لا يوجد شيء في الحياة يبرر الحط من مكانة البشر ، فلا يبرر البؤس ولقمة العيش الاستسلام للعبودية .. بل من حق البؤساء التمرد في وجه الانتهاك الإنساني الذي كانوا ضحاياه المعذبين طويلاً .. لأنهم إن لم يقوموا بذلك فسيدخلون في حالة الإحباط وعدم الفعالية ، ومن ثم لا يستطيعون تقديم الشهادة العملية للحرية ، ولا البقاء في ميدان الصراع من أجلها دون استسلام .. ليس لأنهم مكبلون بأغلال الحديد ، وإنما لأنهم مكبلون بفقدان المبادأة والمقاومة .. تلك المبادأة والمقاومة التي كان يحياها بحق ..

• بلال مؤذن الحرية

لكي تتخلص من الاستعباد ، يجب أن تتخلص من " القابلية للاستعباد " ، ونتحرر من " الأغلال " ، وندرك " قيمة الحرية " ، ويعلم كل منا أنه أقوي من الاستبداد والمستبدين ، ويطمئن لهذا العلم ، فلا ينتظر أن تأتيه حريته من خارجه ، أو أن يصدر مرسوماً يمنحه إياها .. بل يشعر أنه حُر حتى لو كان في زنزانة لا تتسع إلا لجسده ، ما دام يمتلك إرادته بحيث يستطيع أن يقول " لا " عندما يريد الآخرون أن يستعبدوه ليقول " نعم " .. وأمّا إن افتقد تلك الإرادة ، فإنه لا يعدو أن يكون رأساً عددية . لا قيمة لها . بين قطعان البشر .

إن من يستقرىء وقائع التاريخ وسجلات الماضي يتأكد لديه أن من عقدوا العزم على الخروج من عبودية الطغاة ، وبذلوا الجهد فى سبيل ذلك نجحوا فى الوصول إلى أهدافهم ، فقد كان بلال بن رباح رضي الله عنه عبدًا حسب قانون المجتمع الذى يعيش فيه ، ولكنه كان يمارس الحريّة .. حين كان يعلن " أحد .. أحد " ، وهو تحت التعذيب .. كان يمارس الحريّة بشكل قد لا يقدره من يعيشون فى عالم ألغيت فيه العبودية " قانونيًا " ؟!!!

إن العقيدة هي ما يعيشه الإنسان ، وهي تجعله في حالة تحرّك دائم نحو التحرر من العبودية لغير الله .. و بلال المسلم لم يختلف عن بلال المشرك إلا بهذه ؛ بإدراكه بأنه كان عبداً لغير الله ، وأنَّ هذا اغتصاب لحقه ، وكونه صار مسلماً يعني أنه صار حرَّاً على الحقيقة. ولهذا عُذِّب ! .. فالذين عذبوه لم يعذبوه لأنَّ هبلاً خسر ساجداً ، بل لأنَّ سيِّده خسر عبداً ! .. وهما قضيتان تلتقيان في المآل، فإنَّ رفضك السجودَ للصنم ، لا معنى له إلا أنك أصبحت حرَّاً من العبودية لغير الله سبحانه. وهذه هي الشهادة للعقيدة التي قدمها بلال (رضي الله عنه) وهو يردد خلال جرعات العذاب الطويلة المتصاعدة : " أحد .. أحد.. " صيحة روح تحررت من إسار الغرائز بعد ما سيطرت العقيدة عليها .. فالروح في صوت بلال هي التي تتكلم ، وتتحدى بلغتها اللحم والدم .. وتعلن أن " الحرية هي القرار الذي يتخذه الإنسان الحر الواعي المكلف ، و لا تستطيع قوي العالم مجتمعة أن تسلب هذا الإنسان هذا القرار ، مهما كانت الإغراءات أو مهما توحش العدوان أو مهما كانت الظروف " [1]

فليستبيحوا ما استباحوا من	فتى جَلدٍ وصبَّارٍ على الأقران
متقلِّبٍ في الجمرِ مكويٍّ	ومطبوعٍ على الجنباتِ بالنيران
ماذا جنوا إلا دماً سفكُوه	لا.. أما الفؤادُ فليس في الإمكان

وقصة بلال (رضي الله عنه) تعطينا المثال وتبين لنا السنة والقانون ، فهو نموذج للإنسان الذي أعطى عن قناعة نفسه وماله ، ليكسب إنسانيته .. لم يسفه نفسه "ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه" ؛ فضرب (رضي الله عنه) المثل الأعلى لأحرار العالم إلى يوم الدين ، لأنه مارس الحرية الفكرية ، و لم ينتظر حريته من قريش في أن يختار ما يشاء من عقيدة ، وإنما قال وشهد بأن ما جاء به محمد (ص) هو الحق وأن ما عليه قريش باطل ، ولم يكتم هذه الحقيقة والشهادة ، بل تمسك بها وثبت عليها ، وكأنه يقول لقريش : يمكن أن تعذبوني ، وتقتلوني ، ولكن لا يمكنكم أن تجعلوني أشهد زوراً علي الحق بأنه باطل .

لقد " صبر بلال (رضي الله عنه) على ما كان يلقاه من عذاب ومحن ، ولم تستطع قوة في الأرض ، وما كان لها أن تستطيع أن تسكت صوته ، إذ أن روحه ، في اللحظة التي كانوا يصبون فيها العذاب على بدنه كانت منغمرة في فيض نوراني لا يوصف ، هو وعد الحق "[2].. فكان بلال (رضي الله عنه) رمز العودة

---

[1] **الحرية في الإسلام - الضرورة المحظورة - نشأت جعفر - ص 225 .**
[2] **ميلاد مجتمع – مالك بن نبي – ص 25 بتصرف .**

من العبودية إلى الحرية .. وفي كل مكان فيه إنسان مقهور يعيش الذل والعبودية ؛ سيكون بلال .. يهاجر من القهر إلى إثبات الذات ؛ فيكون صوته وهو ينطق " لا " هو آذان فجر الحرية في ليل العبودية الطويل..

كان بلال عبداً ، ونحن اليوم أحرار ، ولكن الأمور بحقائقها ، والنفوس برصيدها فمن يقول أننا لسنا اليوم عبيداً وهو حر؟!.. ولماذا نقبل . إن كنا أحراراً . حياة العبيد علي يد مستبد صنعناه بأيدينا .. ليس له إلا عينان ويدان وجسداً واحداً .. وأني له بالعيون التي يتجسس بها علينا إن لم نقرضه إياها ؟ .. وكيف له بالأكف التي بها يصفعنا بها إن لم يستمدها منا ؟ .. و أنى له بالأقدام التي يدوسنا بها إن لم يقو بنا ؟ .. و كيف يجرؤ على مهاجمتنا لولا تواطؤنا معه ؟!! .. أني له بكل ذلك وغيره ، وكيف له بالقدرة علي استعبادنا إلا أن نكون نحن بأنفسنا نمارس " العبودية المختارة " [1]

***

---

[1] في عام 1562م كتب شاب لا يتجاوز عمره 28 سنة هو " أتيين دي لابواسييه " مخطوطة عجيبة يفكك فيها آلة الطغيان ، ويدرس كيف يبدأ الطغيان ؟ .. و كيف يتطور ؟ .. و كيف ينتهي ؟ ، فراجعه إن شئت .

الفصل الثاني

النفس المستَعبدة

تلعب الفكرة دوراً حاسماً في تقدير الواقع ، وتكوين الأحكام الموجهة للسلوك ، ويحدد ما بالنفس من أفكار نظرتها للواقع ؛ فإذا اتصفت هذه الأفكار ببعض الخصائص التى تجعل تقويمها للواقع سطحية ، أو عاجزة عن الغوص فيه والسيطرة عليه ، فإنها تؤدي إلي خلق عقبات تعرقل خطط التغيير ، بل إنها قد تعطي المبررات الذهنية لمقاومة التغيير .. ولذلك فإن التعرف علي الخصائص الفكرية والثقافية والسلوكية والأخلاقية للنفس المستعبدة ، يساهم في التعرف علي مناطق القوة ، ليتم استثمارها ، ومناطق الضعف لعلاجها ، كما أنه المدخل السليم لتحسين الفاعلية ..

ولكي نصل إلي هذه المعرفة ، لا بد أن نترك طريقة فرض النظريات المسبقة علي الواقع ، أو تغطيته بطبقة رقيقة من الخطابة ، أو الهجرة خارج الأوطان أو داخلها ، عن بعد أو عن قرب ، أو اليأس والإحباط والتوقف في المكان .. نترك كل تلك الطرق لنرصد مكونات الواقع وتفاعلاته الداخلية ، من خلال " تحليل " لغة الحياة اليومية ، و " ملاحظة " عادات الناس وسلوكهم ، و " المشاركة " الفعلية في تجاربهم الحية .. لتكوين صورة نفسانية حية ، ومتكاملة وشاملة لواقع الاستعباد ، وخصائص النفس المستعبدة ..

ولا شك أنه قد يفلت منا بعض أجزاء هذا الواقع ، فذلك أمر حتمي في البحث العلمي الذي لا بد أن يسير فى اتجاه العمق والشمول بشكل تدريجي ، والذي يؤمن أن كل معرفة لا تحمل في طياتها بذور تجاوزها ، ولا تفسح المجال أمام هذا التجاوز ، مضللة منهجياً ويجب الحذر منها .. ولذلك فإن القيمة الأساسية – فى نظرنا – لهذه المحاولة هي في شق طريق البحث النفساني فى مسألة الاستعباد ، و إدخال تنظيم مبدئي فيما كان يبدو عشوائياً في تصرفات الإنسان المستعبد وممارساته ، وجمع كل تلك المفردات في كل مترابط ..

ومن هنا تأتي أهمية هذه المحاولة لدراسة نفسية الإنسان المستعبد ، لأنها تؤكد لنا أن الإنسان المستعبد ينشأ تبعاً لبِنْيَة إجتماعية معينة ، و هو يعزز هذه البنية ويدعم استقرارها ، بمقاومة تغييرها ، نظراً لارتباطها ببنيته النفسية .. تلك البنية التي أدي الجهل بها إلي فشل الكثير من مشاريع التغيير.ربما.قبل أن تبدأ في تحريك المجتمع ، أو الارتقاء بالإنسان ..!!

ولقد حاولنا هنا الولوج إلي واقع الاستعباد بشكل مختلف ، فلم نقتصر علي التنظير المبهم أو التشخيص القاصر لخصائص النفس المستعبَدة ، بل تجاوزنا.بفضل من الله.التنظير والتشخيص لعرض بعض الحلول ، لأننا ندرك أننا لا نملك ترف الانتظار ، أو مجرد الشكوى وانتظار الحلول , ونعلم أن صعوبة الاستيقاظ من الغفوة ، أقل قسوة من الاستمرار فيها حتي تتحول من خلال التعود والتكيف إلي غفلة .!

إن أرض الإستعباد تمتليء بالألغام المخبوءة والظاهرة ، في كل مجال ، في الدين ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والتربية ، والاجتماع ، وغيرها .. وإذا كنا نسعي لتحرير المجتمع ، فيجب ألا نضع حجراً في بناء حتي ننبش الأرض أولاً ، ونطهرها جيداً ، ولقد أرادنا بهذه المحاولة أن نصنع شيئاً من ذلك ، واخترنا منطقة شديدة الوعورة للبدء ، وهي منطقة النفس والأخلاق ..لأن المجتمع إذا زاغت أخلاقه ، زاغ معها فهمه وتلعثم إدراكه ووقع في براثن الخوف ، وفقد الرغبة في استشراف الحقيقة ، والشجاعة في تقبلها .. ومن ثم عاش وفق منظومة فكرية ونفسية وسلوكية يمكن أن نطلق عليها ..

• مرآة الاستبداد

يغزو الاستبداد النفس المستعبَدة ؛ فيتكلم صاحبها لغة المستبِد ويفكر بمنطقه ؛ لأنه امتص ما ينتجه المستبِد كما تمتص قطعة الاسفنج ما يحاط بها من سائل مهما كان جنسه . وحتى إذا عالج المستعبَد قضية من قضاياه الخاصة أو العامة ، فإنه يعالجها بنفس الطريقة التي زرعها ونماها المستبِد في محيطه ؛ فتأتي النتائج في صالح الاستبداد . بل إننا نري أن المستعبَد يفرض الرقابة الذاتية على نفسه وعلى تحركاته ليتناغم فعله مع المسموح من قِبل المستبِد ، ثم لا يلبث الحال أن ينقلب من حيِّز الرقابة والتطبع إلي حيِّز الطبع والقناعة ، فيتحول المستعبَد إلي بوق مجاني يصرخ في وجه كل رافض للعبودية و باحث عن الحرية.. بل ربما جعل هدفه في الحياة أن " أن ينال جذوة نار من جهنم كبرياء المستبِد ليحرق بها شرف

الإنسانية. أو أن يتقلد سيفاً من قِبل الجبار يبرهن به على أنه جلاّد في دولة الاستبداد "[1] وكم سمعنا مِن هؤلاء مَن يشبّه المستعبَد بـ " الكلب " الذى إذا شعر بالبرد ، فأدخلته إلى الدفء بدأ فى النباح ؛ ليستدل بذلك علي أن هؤلاء لا يصلحهم إلا الإهانة !!!

وهكذا .. تتضخم ذات المستبِد ، وتفقد ذات المستعبَد أهميتها واعتبارها ، فيصبح الأول أسير ذاته ، وينحدر الثاني إلى أدنى سلم الإنسانية ..!! ويعمم نموذج التسلط والخضوع على كل العلاقات وعلى كل المواقف من الحياة ومن الآخرين ومن الأشياء .. و كيفما تحرك الإنسان المستعبد .. في العمل كما في المدرسة ، في البيت كما في الشارع ، يجابه باستمرار بأشكال متنوعة من علاقات التسلط والقهر ، تفقده الشعور الأساسي بالأمن والسيطرة على مصيره ؛ فيبدأ في محاولات " الهروب إلى الأمام " من خلال قلب الأدوار ، فيتحول الإنسان المستعبَد من ضحية إلى معتد على أمثاله الأضعف قدرة ، والأقل حظوة لدي المتسلط ، و يتحول بالتالي إلى أداة بطش في يده ، في حالة من وهم القيمة والاعتبار الذاتيين من خلال التقرب منه ، " فعلى مستوى الإدارة ، نجد الموظف يتعالى على من هم دونه ويشتط في معاملتهم ، كما يتعالى على الجمهور ويقابله بالصد أحياناً والنبذ أحياناً أخرى . وهو إن قام بما يفترض أن يقدمه من خدمات يعتبر ذلك منة من جانبه تجاه صاحب الحاجة ، وليس واجباً تمليه عليه وظيفته ... وهو في ذلك يكرر موقف رئيسه منه ، وهذا الأخير يكرر موقف المسؤولين الأعلى منه . ويتخذ الأمر في النهاية طابع سلسلة علاقة استعلائية استعبادية "[2].

ولا شك أن أخطر ما في هذا الأمر أن المستعبَد يحمل في داخله شخصيتين متناقضتين تماماً ؛ الأولى : شخصية المستبِد ، الذي يبحث عن فرصة ليمارس استبداده .. والثانية : شخصية القابل للاستعباد !! .. والأشد خطراً من ذلك أنه لا يوجد صراع في نفسه بين هاتين الشخصيتين ! كل ما في الأمر أن كل شخصية تقوم بدورها بحسب الظروف والمتاح ، في إطار من قانون يشبه إلي حد كبير ، قانون انتشار الغازات ... فكلما سمحت للغاز بالانتشار ، فإنه لا يلبث أن يملأ الحيز والفراغ .. وكذلك فى وضع اليد على السلطة ، فنجد أي خادم فى أى عمل يمكن أن يتحوّل إلى فرعون بشرط واحد : امتلاكه مفاتيح القوة بدون كوابح .. و " إذا تأملت العنف والقسوة اللذين تمارسهما أدوات السلطة حين ملاحقة بعض المخالفين في أمور صغيرة أو كبيرة ، رأيت في ذلك تشفياً واضحاً ، و تفريغاً للعدوانية المتراكمة ، نتيجة القهر المزمن الذي تعرّض له هؤلاء قبل أن يحتلوا مناصبهم كأدوات للسلطة ..!!

---

[1] العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د. أسعد السِحمراني - ص 98 .
[2] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 130 بتصرف .

إن التلذذ في مهانة الإنسان المستضعف والبطش به تحت ستار ممارسة وظيفة الحفاظ على الأمن ، يشير إلى المرض الذي يعاني منه الإنسان المستعبَد " [1] ، و الذي يمارس حياته وكأنه لا ينقم على المستبد استبداده طلباً للعدل ، بل لأنه يحسده على ما يتمتع به من استبداد ، ويريد أن يحل محله ليس إلا . يحسده على كونه ظالماً ، و هو مظلوم ، ويتطلع إلي اليوم الذي يتمكن فيه من استبدال الأدوار !

وهذه " الظاهرة يمكن أن نطلق عليها مرآة الاستبداد .. هذه المرآة التي يعكس فيها الأفراد المستعبَدون ما يقوم به المستبِد معهم ، فيمارسونه مع من هم دونهم .. فالقيادة العليا ، ينعكس قهرها على سلوك القيادة الوسطى ، وهذه على من تحتها ، فالمعلم فى صفه ، والخطيب فى مسجده ، والمدير فى إدارته، والطبيب فى عيادته .. وهكذا دواليك ، حتى إنك لتجد غالباً الأب والأم فى البيت لا يفرطان فى ممارسة ألوان " إجتماعية " من الكبت على أفراد العائلة ..؟!

وهكذا هم العبيد ، يتسلط بعضهم على بعض بالاضطهاد والإذلال ، بدلاً من الاتجاه إلى الظالم الحقيقي والاتحاد فى مواجهته .. وهكذا هو عالم الاستبداد ، تتغلغل فيه علاقات التسلط في نسيج النفس المستعبَدة ، فتبقي العلاقة بين أفراده دائماً هي " علاقة سيطرة من طرف ، ورضوخ وتبعية من طرف آخر... من الحاكم الأول إلى مرؤوسيه ، ومن هؤلاء إلى مرؤوسيهم ، ومنهم إلى غالبية السكان . وبين هؤلاء من الأقوى إلى الأضعف ، من الرجل إلى المرأة ، من الكبار إلى الأطفال ، وبين الأخوة من الأكبر سناً إلى الذين يلونهم " [2]؛ فتتحلل الروابط الاجتماعية ، و يتعطل التفاعل الاجتماعي ؛ فنرى المستعبدين أكثر اعجاباً بمن يمارسون الاستعباد ، ممن يحاولون استرجاع الحرية لهم .. بل نرى الإنسان المستعبَد يحط من قيمة ذاته ، وقيمة الفئة التى ينتمي إليها . لا يحترم أمثاله ولا يعتز بالروابط بينه وبينهم ، بل يكاد يخجل من الاعتراف بالانتماء إليهم ، ثم هو في ذات الوقت يعلي من شأن المتسلط ويبالغ في اعتباره وفي تثمين كل ما يمتّ إليه بصلة ..!!

وهذا الواقع هو من أقوى عوامل مقاومة التغيير ؛ لأنه ينمي عند الإنسان المقهور " وهم " التحرر من خلال التنكر للمشكلة الذاتية ، ومن خلال قلب الأدوار ، وتحويل غيره إلى ضحية يقوم هو بالاعتداء عليها ليتنكر لمخاوفه هو الذاتية .. تماماً مثل الطفل الذي يخاف الأشباح ، فيمثل دور الشبح الذي يخيف طفلاً آخر !! .. فبدلاً من " أنا أخاف " .. تصبح " أنا أخيف " .. ولذلك فقد قيل بحق " ليس أقسى من المُعلم الظالم إلا التلميذ الذي يوكل إليه هذا المعلم حفظ النظام في الصف . وليس أكثر شططاً من الأم

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 131 بتصرف .**

[2] **المصدر السابق ـ ص 33 ، 34 بتصرف يسير .**

المتشددة إلا الطفل الذي يعاني مشاعر الذنب ويصبها على أخ أصغر ، وهو يلعب دور الأم التي تحاسب وتعاقب . ولذلك نرى أن أزلام المتسلط وأدواته ، هم في أغلب الأحيان أشد قسوة وتطرفاً في تعاملهم مع الإنسان الضحية الذي فرض عليه دور المقهور . " [1] .. ولذلك نسمع الواحد منهم يكرر " أنت لا تعرف مع من تتعامل " ، ويدعي أنه يعلم كل شيء ، ويؤكد أن معرفته مطلقة .. و حقيقته هي الوحيدة ، ولا غيرها ، ويجب أن تُفرض على الآخرين .. ففي حقيقته .بزعمه . يكمن خلاص الآخرين ، ومعرفته. كما يظن . تضيء ما غمض على الآخرين أو ما جهلوا به ، لذلك ينبغي حينئذ إخضاعهم لمعرفته وغروره."[2]

وهكذا .. " بدلاً من تقويض علاقة " السيد والتابع .. المتسلط والراضخ " وإحلال الإخاء محلها ، يقوم المستعبَد بتقليد المتسلط و قلب الأدوار .. وهذا يؤدي إلى بروز سادة جدد ، ومتسلطين جدد ، يشتطون بقدر حاجتهم للتعويض عن دونيتهم المزمنة .. وتستمر بذلك البنية العلائقية نفسها مع تغيير في الأبطال دون تغيير الأدوار " [3]. فنرى " النفس المستعبَدة " تمتلك " سلطة " فتنتفخ وتتمدد وتتشوه نفسياً ؛ ويصبح صاحبها من أجبر الناس .. فإذا سُحبت منه القوة ؛ انقلب إلي منبوذ وحقير .. وهذه هي النفس حين " تجمع قوة وضعفا فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قُهر .. ظالم عنوف جبار، فإذا قُهر صار أذل الناس .. جبان عن القوي جريء على الضعيف " [4] فهو " يخضع ويستسلم وينافق ويداري أصحاب السلطان إذا كان رعية ، و يتسلط ويتجبر حين يكون حاكماً فيكون له الثراء والقوة والعظمة والحكمة ، وتخرس أمامه جميع الألسنة وكأنه إله مزعوم له الطاعة والمشيئة ..!! " [5]

إن الإنسان المستعبَد قد يعارض الاستبداد ، ولكنه في نهاية المطاف يتعاون معه ضد من يحاول تحريره ، فهو يرى أن الفئة التي ينتمي إليها لا تستحق الحياة ، ولن تعمل من الخير شيئاً .. وأنها لا تصلح لأي رفعة ، ولا يحق لها أن تحيط أنفسها بأي اعتبار أو تقدير .. ثم تتحول هذه الإدانة للنفس إلي النكاية بالآخرين من المستعبَدين ، من خلال إعلاء شأن المتسلط ، ورؤية أنه هو وحده من يستحق التقدير والإعجاب ، و هو وحده الذي يستحق الحياة ، وأن المستعبَدين ليس لهم إلا أن يتجرعوا كأس المذلة بصمت وحتى الثمالة .. !!

---

[1] المصدر السايق - ص 125،126 بتصرف يسير .

[2] المعلمون بناة ثقافة – رسائل إلى الذين يتجاسرون على اتخاذ التدريس مهنة – باولو فريري – ترجمة د . حامد عمار - ص 100 بتصرف يسير .

[3] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 132 بتصرف يسير .

[4] مدارج السالكين - إبن القيم - ج 2 ص 309 .

[5] الفكر العربي وسسيولوجيا الفشل - شوقي جلال - ص 176 بتصرف يسير .

و يستغل المستبِد هذه الظاهرة ، ويعمل علي ترسيخها بكل السبل الممكنة " فيؤكد على ضعف وجهل وتأخر ومهانة الإنسان المستعبَد ، ويغرس هذه الصورة في نفسه غرساً من خلال عملية تبخيس دائبة تحاصر ذلك الإنسان من كل الجوانب . تحط من قدره وتسفِّل كل ما يمتّ إليه بصلة ... تراثه ، عاداته ، قيمه ، إمكاناته ، سادّة أمامه كل آفاق التغيير " [1] ومحاولة إدخال اليأس في نفسه من خلال عملية استعراض لقدرات المستبِد علي كل صعيد ، وقوته الباطشة في كل مجال ليترسخ لدي المستعبَدين أنه لا خروج لهم مما هم فيه ، فيرضخون للتعامل مع واقعهم من خلال ..

• الخوف والتحايل

الخوف في الإنسان هو أمر فطري ، وهو لجام له عن إيذاء نفسه .. ولكن هذا الخوف مرهون بما هو معلوم من الأذى المحتم وقوعه ، مثل الخوف من النار ، أو الخوف من الغرق لمن لا يعرف العوم ، أو الخوف من السقوط من علٍ ، وغيرها من المخاوف .. وقد يزداد هذا الخوف الفطري ، فيبدأ الإنسان في التخوف من الأشياء المحتمل وقوعها ، كالخوف من العواقب المحتملة للقفز من علوّ ، أو من السرعة عند قيادة المركبات ، وليس هذا الخوف بمذموم عند تلك الحدود أيضاً ، بل ربما يكون حرصاً أو حذراً..!!

أمّا حين يزداد خوفنا حتى يصل إلى الخوف من مجرد المشي في الطريق حتى لا يعتدي علينا أحد ، أو يسقط علينا شيء من السماء ، أو أن نستنشق هواء ملوثاً .. أو نخاف من المركبات لأنها قد تصطدم بشيء؛ فنمتنع عن الخروج من البيت أو السفر .. أو نمتنع عن الزواج خوفاً من أن نعاني من عقوق الأبناء لنا إذا كبروا ، أو نمتنع عن الإنجاب خوفاً من أن ننجب أطفالاً معوقين .. فلا شك أن هذا الخوف بهذا القدر هو خوف مَرَضي ، والتوصيف الصحيح له هو أنه لون من ألوان الجبن .. الذي يصيب الإنسان بسبب جهله بواقع الأشياء .. وهذا الجهل هو ما يستغله أعداؤه لتحقيق مصالحهم تحت طائل الرعب والترهيب ليقعدوه في بيته ، ويربطوا لسانه من الرعب ..!

وهذا ما يحدث في مجتمعات الاستعباد حيث " يمتلىء القلب خوفاً من الطاغية ورموزه ، وتشيع ثقافة الخوف يتغذي عليها المستعبَد منذ طفولته ، فيصبح الخوف أكبر خصم وأخطر عدو يقوّض كل محاولات

---

[1] **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 128**

النهوض واستنهاض الهمم لبناء مجتمع الحرية ، و يمتد غرس الخوف و يضرب بجذوره ؛ فتسود اللامبالاة واللامسئولية واليأس والإحباط وأن لا جدوى من شيء ، ويري المستعبَد أن " من خاف سلم" [1] ، فيعيش حياته خائفاً بطش صاحب القوة والجبروت ، يؤرقه العجز عن المواجهة ، وتضنيه مشاعر الإحباط والسلبية وفقدان الحيلة ، ويظهر ذلك في أمثاله [2] " البيضة متكسرش حجر ".. " حكم القوي علي الضعيف " .. " إن دخلت بلد أهله يعبدون العجل حش وادّيله " .. "أرقص للقرد فى دولته" .. " إيد تبوسها وعايز تقطعها " .. " إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي " .. !![3] وغيرها من الأمثال التي تؤكد أن الإنسان المستعبَد لا يصدق أن هناك شيئاً اسمه التضحية والشجاعة ، أو عزة النفس .. بل هو لا يعرف هذه المسميات ، وهي عنده من الخيال والفلسفة ..!!

و لأن الإنسان المستعبَد " لا يجد مكانة له في علاقة التسلط سوى الرضوخ والتبعية ، و الوقوع فى الدونية كقدر مفروض ؛ فإننا نري شيوع تصرفات التزلف ، والمبالغة في تعظيم السيد اتقاء لشره أو طمعاً في رضاه . إنه يعيش في عالم بلا رحمة أو تكافؤ إذا أراد المجابهة أو فكّر في التمرد ، أتاه الرد حاسماً يقنعه بقمع أفكاره التمردية .. فيختل التوازن بين السيد والإنسان المستعبَد ، ويصل هذا الاختلال حداً تتحول معه العلاقة إلى فقدان الإنسان لإنسانيته ، وانعدام الاعتراف بها وبقيمتها ...!! " [4] ويصبح الفكر الأساسي في سلوكيات الإنسان المستعبَد هو المصلحة ، و تحقيق أكبر نصيب من المتع الحسية دون الاعتبار للقيم الدنيا .. وهذا الفكر الأساسي يقرر مفهوماً خاصاً للسعادة ، ومفهوماً خاصاً للحب والبغض ، ومفهوماً خاصاً للنجاح والفشل ، ومفاهيم الاستقامة والانحراف ، والصواب والخطأ ، و هذه المفاهيم هي التي تدفع الإنسان المستعبَد إلي أن يري المصلحة الذاتية ، والانغماس في الشهوات والتكبر ، والانتقام هي الصفات التي يجب أن تُحترم ؛ فيصارع في سبيلها بكل ما أوتي من مكر وحيلة وقوة .. بسلاح الخداع والغش .. أو النصب والاحتيال .. أو النفاق والمداهنة .. " يلهث خلف المال بحق وبدون حق ، وحيث ما تكون المصلحة يولي وجهه ، حتى ولو كان إلى عدو له ، وهو يولي عن وجه شقيقه أو والديه أو صديقه أو صاحبته أو بنيه ، إذا لم تكن عندهم مصلحة يرجوها .. !!

وعلى هذه المقاييس من العلاقات تقوم علاقات المستعبَدين ، فتنحل مودتهم كما تنحلّ الفصوص من عقدها ، و تتلوث العلاقات الودية بين أفرادهم بسبب المصلحة ، فإذا أخفق تبادل المصالح بين

---

[1] **الفكر العربي وسسيولوجيا الفشل ـ شوقي جلال ـ ص 180 ، 181 بتصرف يسير .**

[2] **تعتبر الأمثال فلسفة الشعوب ، لأنها تخترق القشرة الحضارية الموهومة لتدلنا على حقيقة الخامة البشرية ، و تكشف الخبايا النفسية للإنسان ، كما أنها في ذات الوقت تمثل قوانين اجتماعية شبه ملزمة ، ويخضع لها أكثر أفراد المجتمع ..!!**

[3] **راجع إن شئت " الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية " ـ د . عزة علي عزت .**

[4] **التخلف الاجتماعي ـ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ـ د . مصطفى حجازي ـ ص 39**

المتوادين، أو تفاوت ، أي دون مقابلة المصلحة بمصلحة تضاهيها أو تعادلها ، فلا تلبث تلك المودة إلا وتنفك وتذهب أدراج الرياح ، بل وتنقلب إلى عداء أحياناً .. "[1] ..

إن الفرد من المستعبَدين في سبيل تحقيق مصالحه يتفنن في " المداراة والمجاملة والتملق فى مواجهة القهر أو وضع اجتماعي أو قانوني مرفوض ولا يمكن مقاومته والتصدي له ... والمداراة خطوة أولى تحاول استجلاب رضا الظالم ومسايرته وتمرير الموقف الصعب أو موقف المواجهة . أما المجاملة فهي سلوك آخر فى اتجاه كسب رضاء الظالم أو المتحكم ، ويمثل كل من التملق والممالأة والإطراء ... خطوات أبعد على نفس الطريق "[2]. طريق العبودية ..

وهناك حكاية رمزية عن سيد سأل طاهيه : ماذا تطبخ لنا اليوم ؟ قال له : أمرك !

قال له : ماذا تقول فى الباذنجان ؟ قال : ما شاء الله ! حلو لذيذ الطعم ، وظل يمدح فيه زمنا طويلاً .

ثم قال له سيده : ولكنه حار يعطّش ، فأخذ الطاهي يذمه أيضاً .

قال له السيد : إنك كنت تمدحه .. فقال الطاهي : أنا خادم للباذنجان أم لك ؟

إن " فن المقاومة بالحيلة ، يعبر عن تناقض العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ويتواكب مع أشكال أخرى من الصراع العنيف وغير العنيف ، العلني والمستتر ، ويتبادل مواقع المقاومة باليد أو اللسان ، أو حتى القلب كأضعف الإيمان أو حتى الدمع " حيلة المقل دموعه " فى مواجهة ثقافة التعدي والتعسف والعنجهية والهيمنة والقهر "[3] " وكأن لسان حال المستعبَدين يقول : فلندع القاهرين وما يحكمون به من قوانين وتصورات ، وليكن لنا مجمعنا الخاص الذى نبوء به من ظلم المستبِدين وقوانينهم ..!! "[4]؛ وكأن المستعبَدين يمارسون حياتهم من خلال لون من ألوان ..

●الفصام الاجتماعي

يشعر المستعبَدون بافتقاد العدالة وتكافؤ الفرص ، و انقطاع الرابطة بين الفعل وجزائه ؛ فالتعب لا يؤدي إلى الراحة ، بل ربما يرون الذين يتعبون ، لا ينالون ، والذين لا يتعبون ينالون كل شيء .. و النخبة الزائفة المستبِدة حطمت التكافؤ بين الفضيلة والسعادة ، وبين الكد الشريف والراحة ...كل ما هو

---

[1] **قلت لحماري – د. محمد سعيد التركي - ص 40 بتصرف يسير .**
[2] **ثقافة التحايل – دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى – هناء الجوهري - ص 49**
[3] **المصدر السابق - ص 49**
[4] **المصدر السابق - ص 49**

مرسوم سوف يمضي ، والصامت والمتكلم سواء ؛ فالسكوت إذن أولي .. ومن ثم لا يبحث المستعبَدون عن المعايير العادلة أو الصحيحة ، وإنما عن أسلوب ما يحصلون به علي قسم من " الكعكة " المنهوبة . وهم بذلك يتبنون عقائد المستبِد وأفكاره .. ويعيشون نوعاً من الإزدواجية .. وكأن لهم عقيدتان " عقيدة نظرية وعقيدة اجتماعية . العقيدة النظرية تنتمي إلي " المطلق " البعيد عن المصالح والظروف ؛ فتري الكذب والغش والرياء ، والسكوت عن الباطل أموراً محرّمة ، ولكن من خلال حركة الحياة اليومية ، ومن خلال خبرة الإنسان المستعبَد ، تبدأ موازنات دائمة بين مبادئه وعقائده ، وبين مصالحه والضغوط التي تمارَس عليه . وينتج عن هذه الموازنات شئ ، يمكن أن نطلق عليه " العقيدة الاجتماعية "، والتي هي ترجمة لمبادئ المرء ومصالحه ، ومركز التوازن بينهما "[1]..

و تصبح هذه الإزدواجية لدي المستعبَد هي " الوسيلة المثالية لبناء جسر يعبر المسافة الفاصلة بين قدرته اللامتناهية علي الطاعة و القبول بأقل القليل.. و بين إحساسه بالبرودة و الغربة تجاه السلطة فهو مثلا يخاف منها و يطيعها.. رهبته منها تمحو قدرته علي الفعل و المشاركة.. يخادعها .. يتنكر لها .. ينتقدها في دعابة ، و غالبا ما يصل نقده إلي حد السخرية اللاذعة و التجريح .. وهو أمر. بلا شك. يخلق نوعاً من الإذعان و الاستسلام مخلوطاً بالمخادعة و التملق المبالغ فيه ، إضافة لشيء أخطر هو أن نهم المستعبَد الشديد للكلام قد فجّر طاقات لسانه ، بينما أصيبت رغبته في الفعل و بذل الجهد و العرق بالشلل شبه التام . "[2]

وهكذا .. تتذبذب العلاقة بين المستبِد والمستعبَد بين التبعية والرضوخ ، وبين الرفض والعدوانية " حيث يحاول الإنسان المستعبَد الانتقام من سيده بأساليب خفية " الكسل والتخريب " أو رمزية " النكات والتشنيعات " .. وهذا يخلق ازدواجية في العلاقة : رضوخ ظاهري ، وعدوانية خفية .. "... فالإنسان المستعبَد متربص دوماً بالمتسلط كي ينال منه كلما استطاع ، وبالأسلوب الذي تسمح به الظروف ...!!"[3] يحاول أن ينتقم ممن يستعبده إذا غاب عن متابعته .. ويعبّر عنه المثل الشعبي " غاب القط ، إلعب يا فار "[4]

و " تعويضاً عما يصيبهم من قهر ، وتنفيساً عما ينغّص حياتهم من ضائقات ، يلجأ المستعبَدون لمواجهة ما يقع عليهم من ظلم واستعباد لمتنفسات " وهذه الـ " متنفسات " تتراوح بين " اللامبالاة " و " النفاق "

---

[1] **عصرنا والعيش في زماننا الصعب ـ د . عبد الكريم بكار ـ ص 75 .**
[2] **الشخصية المصرية ـ د. محمد عبد الفتاح المهدي ـ ص 23 بتصرف**
[3] **مستفاد من كتاب التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د. مصطفى حجازي ـ ص 42 – 45 .**
[4] **راجع إن شئت " النبي والفرعون ـ تأليف : جيلز كيبل ـ ترجمة : أحمد خضر "**

و " التهكم " .. " [1] فنراهم " يستمتعون بتأليف الدعابة و الاستماع إليها حتي لو تكرر سماعهم لها، وهم من خلالها يأخذون مرارة الواقع علي المحمل الهين ، وينصرفون عن التفكير الجاد في مأساة هذا الواقع ، و كأن " فرقعة " الدعابة تكفي لإنهاء المشكلة ، أو هي في حد ذاتها حل لها ..!! " [2] . ومن ثم ، يبقى " الوضع علي ما هو عليه ، رغم قسوته و ضغطه و تشوهه. و لهذا نجد المستبِد. أو علي الأقل بعضهم. لا يضيقون بما يصدره المستعبَدون من دعابات سياسية تمسهم ، لأنهم يعرفون أن في ذلك تفريغ لطاقة الغضب الشعبي ، و تأجيل لأي محاولة للتغيير. " [3]

إن الإنسان المستعبَد يرى أنه لا أحد يستطيع أن ينتقد أو يناقش ، أو يفكر بصوت مسموع ، فيلجأ إلي النفاق والتملق في الظاهر ، ولا يفصح عما بداخله إلا إذا اختلى بصحبة يثق فيها ، وهكذا يعتاد أن تكون له شخصية ظاهرة علنية هي التي تقول " نعم " بصفة مستمرة ، وشخصية خفية مستترة يمكن أن تقول: " لا " في أوقات خاصة! " [4]، فيكون كمن يمشي علي رأسه دون أن يحس بالدوار ، ولا يدرك أن من يمشي علي رأسه يخسر رأسه ورجليه معاً ..!!

وهذه هي " حياة المستبعَد ذات وجهين ظاهراً وباطناً .. تحايل لبلوغ المآرب ، تغير في الظاهر دون الجوهر .. والمستعبَد المكبوت قهراً، يتحين فرصة لينطلق يعوِّض الحرمان .. فيتحول المجتمع إلي غرائز منفلتة متناحرة ، بل ومدمرة لبنيته ، فالكل ينطلق لتعويض حرمان غريزي فردي عند أدني المستويات " [5] فى حالة دفاع دائم ضد افتضاح عجزه وبؤسه ، ولذلك تكتسب نظرة الآخرين قوة شديدة الوطأة على نفسه ، تهدد مكانته الركيكة واعتباره الذاتي الذي يحافظ عليه بمشقة بالغة ، ويُعد الاحتماء من كلام الناس قضية مصيرية بالنسبة له ، فهو يستطيع أن يعيش بدون خبز ، ولا يفقد كيانه الإنساني أمام المجتمع.. و ينتفض لاستعادة كرامته التى أهدرت في جنايات الشرف والعرض ، وربما قتل الأخت ، أو البنت ، أو الزوجة .. !! بينما لا يثور ولا ينتفض ليثأر لكرامته التى تضيع بما يفرضه عليه المتسلطون من قهر ، وما يمارسونه من دوس لكرامته ..!!

لقد تحوّل " الإنسان المستعبَد إلي كائن مزيف فقد هويته وأضاع أصالته ووجد نفسه عارياً أمام غربته عن نفسه . وهو يحاول بشتى الأساليب ، ومن خلال مختلف الأقنعة أن يجد هوية بديلة ، وأن يحصل على

---

[1] النبي والفرعون – جيلز كيبل – ترجمة : أحمد خضر - ص 241 ، 242
[2] الشخصية المصرية - د. محمد عبد الفتاح المهدي - ص 29 ، 30 .
[3] المصدر السابق - ص 19 .
[4] الطاغية - د . إمام عبد الفتاح إمام - ص 292 .
[5] الفكر العربي وسسيولوجيا الفشل - شوقي جلال - ص 182 ، 183 بتصرف .

وهم الوجاهة . من خلال نمط حياة المتسلط ، ثقافته ، لغته ، وسائل لهوه وترفه ، أدواته وآلاته ، زيه وملابسه ..!!

وهو في ذلك يدعي ويبالغ ويزين المظاهر التى يتمسك بها ليضلل الآخرين عن حقيقته ، ويظهر وكأنه يتمتع بوجاهة وعز وحظوة وإمكانات لا يتمتع بها المقهورون الأقل حظاً .!! "[1]، فنراه يقبل علي شراء المنتجات ذات الماركات العالمية إمعاناً في التباهي ومحاولة التظاهر بالخروج من الطبقة الوسطي ، والتشبه بطبقات أخري هو بعيد عنها .. وأصبح من المعتاد مثلاً أن تضع هذه الماركات العالمية أسماءها وعلامتها التجارية في مكان واضح جداً ..!!

و لعل معظم ما نراه من البذخ في العزائم ، و الاهتمام المبالغ فيه بالشكليات في المناسبات و الأفراح و المآتم ، و كل ما يتصل بالمظهر ، تنشأ فى واقع القهر كلون من ألوان خداع الآخرين بالجاه أو المال أو الحظوة ، وغيرها .. عن العار الذاتي الذي يعانيه الإنسان المستعبَد .. فالطعام والدعوة إليه والمشاركة فيه، كوسيلة للتواصل والتفاعل بين الناس يكتسب عند المستعبَدين " قيمة مبالغاً فيها ، بالنسبة لبقية النشاط الإنساني ... وهذه الأهمية للطعام نجدها عند المعوزين والأثرياء على حد سواء .. وهو يحمل في كثير من الأحيان دلالة على الوجاهة الاجتماعية والبحبوحة اللتين ينعم بها من يقدمون الطعام .. " .[2]

" وهكذا يتحول الإنسان المقهور إلى هارب دائم من ذاته ، يحل مشكلته من خلال التنكر لها ، بدل أن يتصدى للعلة ويقلب المعادلة ويغيّر معايير الحياة .. !! و تصبح وجاهة المظهر هي المقياس ، فتنتفي الكوابح الخلقية وتصبح كل وسيلة تعجل بالوصول مشروعة ومبررة . ومن هنا يقع الإنسان المستعبَد في الزيف الخلقي ، وينخرط في عملية الاحتيال والكذب والتضليل .. وتتحول حياته إلي جزر وجاهة في محيط من البؤس ؟!!" [3] يحاول المستعبَد أن يتعايش معه من خلال ..

• التكيّف والسلبية

يعيش المستعبَدون فى إطار علاقات قوة غير متكافئة بينهم وبين المستبِد .. الطرف الأقوى " المستبِد " يفرض وضعه و رؤيته على الطرف الأضعف " المستعبَدين " .. و " هذا القهر المتواصل يطلق من ردود الأفعال ما من شأنه أن يخفف من وطأة هذا القهر ، أو على الأقل الشعور به ... فتتجسد الاستجابة للقهر والتخلف فى طائفة من الأفعال والأفكار التى تحاول المقاومة ، وذلك بالتصدي لمصدر القهر ، وكسر

---

[1] **التخلف الاجتماعي ـ مدخل إلي سيكلوجية الإنسان المقهور ـ د. مصطفي حجازي ـ ص 134 .**
[2] **المصدر السابق ـ ص 118 بتصرف .**
[3] **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي ـ ص 135 بتصرف يسير .**

إرادة الظالم .. وحين تتعذر المقاومة فإن جموع المقهورين تسلك سبيلاً آخر هو " التكيّف " للإفلات من شرور الظالم ، ومحاولة اكتساب القدرة على معايشة القهر و شروره . " [1]

و " الإنسان المستعبد لديه قدرة هائلة علي التكيف مع الظروف المختلفة و الأحوال المتباينة ، و لديه قدرة هائلة علي التحمل و علي الصبر تجعله لا يميل إلي المواجهة أو التغيير ، بل ينتظر الزمن أو القدر ليغير ما هو فيه ، و إلي أن يحدث ذلك يقوم هو بتكييف نفسه و ضبط احتياجاته طبقا لما تسمح به الأوضاع القائمة. " [2] ، ويساعد انتشار المفاهيم الفاسدة التي ترسخ لدى الإنسان المستعبَد الارتباط الكلي بالدنيا، و امتلاك مفاتن الحياة ومفاتيح المتعة كيفما اتفق تحت عنوان ، " كفانا بؤسا نريد أن نعيش " .. يساعد في دفع هذا الإنسان إلى الاستهتار بالقيم الرفيعة ، ويحفزه إلى التماس أيسر أشكال الحياة ولو كانت في منتهى الانحطاط ، والرضى بالعيش الذي يمنحه الشهيق والزفير فقط ، والبعد عن كل تغيير قد يتطلب تضحية وبذلاً وجهداً ..!! ونراه يردد : " نحن نركض وراء الرغيف طوال اليوم ، وبالكاد نجد الخبز لنأكله ، وتطلب منا إنهاض الأمة والعمل على تغيير واقعها المزري !؟ .. " ليس بالإمكان أبدع مما كان "...." اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفش ".!!

وهكذا هو الإنسان المستعبَد " يرى أن الواقع غير مرضٍ ، ولكنه لا يقوم بدوره في محاولة التغيير .. لأن هذه المحاولة تستلزم أن يقوم بدوره كاملاً .. ولذلك فهو يرفض كل شيء ليحل نفسه من كل مسئولية وعبء ، ويكتفي بالمشكلات التي يلامسها كل يوم يبحث لها عن حل .. وهو يرفض المجتمع ليس كرهاً فيه ، ولكن هروباً من واقع صعب متفاقم ، وهروباً من مسئولية تثقل الكاهل وتؤلم .. يرفض المجتمع والواقع ، وينزع إلي السلبية ، فلا يواجه المشكلات ويبحث لها عن حل ، بل يعترف بوجودها ، ويعلن أنه غير مسئول عنها. " [3] .. و تلك السلبية تجعله يري " المستبِد هو كل شيء ، و يري نفسه لا شيء ، فيصير مطية لينة ، لا يحسن إلا الرضوخ ، و لا يجيد سوي نفاق السلطة و العبودية للقوة ، و ما أسهل حينئذ أن يتحول إلي عبد " [4] في غاية الجرأة في نقده للمستكبرين ، كما هو في غاية الطاعة والانقياد ، حين يرى العقوبات التي يمكن أن تلحق من لا يطيع وينقاد ..!!

---

[1] **ثقافة التحايل – دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى – هناء الجوهري - ص 23 بتصرف .**
[2] **الشخصية المصرية - د. محمد عبد الفتاح المهدي - ص 63 بتصرف .**
[3] **الشخصية المصرية " التطور النفسي في خمسين قرناً " - د. رفيق حبيب - ص 506 بتصرف يسير .**
[4] **الشخصية المصرية - د. محمد عبد الفتاح المهدي - ص 60 بتصرف يسير .**

" و إذا زادت الضغوط . خاصة إذا كانت تحمل بصمة سلطوية . فإن خيار الخضوع يصبح أكثر احتمالا، و الخضوع هنا يلبس مسوح الحكمة أو تقدير الظروف ، أو الحفاظ علي لقمة العيش ، أو تربية العيال .. أو يلبس رداءاً دينياً يدعو إلي طاعة " أولي الأمر " و جعلها ردفاً لطاعة الله و طاعة الرسول !! .. ثم في مرحلة تالية قد يتبني الإنسان الخاضع خيارات المتحكِم فيه ، و يقنع نفسه بوجاهتها ، و أهليتها للإتباع !! " [1] ويبدأ فى تقبل الواقع والرضى به ، ثم الاندماج والتوافق مع النظام القاهر .. وإذا كنا في حياتنا " نعرف من يعمل فى ظل ظروف معيشية وبيئية غير صحية ، ولكنه تعود على استنشاق الهواء الملوث ، وصار إحساسه بالألم أو ضيق التنفس شيئاً يمكن التكيف معه ؛ فإن قدرة المستعبَدين على التكيف تذكرنا بالضفدعة التى تتردد عن القفز من على موقد أو صفيح ساخن لقدرتها على التكيف المستمر مع ارتفاع درجة حرارته حتى إن فكرت وقررت القفز تكون أرجلها قد التصقت ، فتحترق وتفقد حياتها.!! "[2]

إن التكيّف الذي يمارسه المستعبَدون يأخذ صوراً كثيرة بحسب الظروف ، وهم يسلكون إحدي تلك الصور أو ينتقلون إلي غيرها بحسب الظروف ، وتقوم عملية التكيّف في كل صورها علي وجود بدائل : معتقدات بديلة ، وأنماط سلوكية بديلة ، وأساليب حياة بديلة .. يتجه الإنسان المستعبَد فيها إلي إرضاء المجتمع ، وأول ما يجده لإرضاء المجتمع هو المظهر الخارجي ؛ ولذلك " تصبح مجاراة " الموضة " من علامات " العصرية " و " التقدم " و " النهضة " . ولا يقدر أحد أن يعترض حين يقرر خليع من خلعاء الأزياء أن تقصر أو تضيق أو توسع أو تطول ثياب المستعبَدين ، أو أن يكون اللون زاهياً أو ثقيلاً أو معرّقاً أو مخططاً أو " سادة " فما كان يعتبر جميلاً وعصرياً يصبح بشعاً وقديماً بين صيف وصيف ، أو ربيع وربيع ، أو خريف وخريف ، أو شتاء وشتاء. وكذلك الحال بالنسبة إلي ما كان يعتبر تقليدياً ، وغير عملي ، يصبح بين سنة وأخري عنوان الرشاقة والأناقة والذوق الرفيع .. ويقود السير علي هذه الطريق إلي الانحطاط الخلقي ، وهدر الكرامة الإنسانية ، ودحر الشخصية المستقلة " [3]

ولا يقتصر الأمر علي الثياب .. فما حدث في مجال الثياب والأزياء يحدث في سائر المجالات الأخرى ، ويأخذ هذا النهج في التفاقم حتي يتم القضاء علي ما تبقي من عوامل المقاومة في المجتمع ، وتصبح العودة عن طريق العبودية أمراً محالاً يرفضه العبيد ، ثم يقومون بتبريره ، وتنزيه ذواتهم ، و تشويه الحقيقة بما يخدع الناظر لأول وهلة .. يقومون بكل ذلك من خلال ..

---

[1] **المصدر السابق - ص 103 .**

[2] **أفكار لكسر الإطار .. حتى لا يبقى الحال على ما هو عليه - د. عبد الرحمن توفيق - ص 374 بتصرف .**

[3] **الإسلام في معركة الحضارة - منير شفيق - ص 119 .**

• الفكر الهروبي

إزاء عِظم قوى القهر والتسلط ، وإزاء عجز الإنسان المستعبَد عن مجابهتها ، وانعدام قدرته على التغيير .. يبدو الحاضر مؤلماً يحمل المرارة ، وكلما تأزم الحاضر ، تم الرجوع إلى الماضي ، وكلما عمّ إفلاس الحاضر تم استدعاء إبداع الماضي حتى لو كان محدوداً .. وكأن الزمان قد غيّر مساره من الحاضر إلى الماضي ، وليس من الحاضر إلى المستقبل ..!!

والراصد لحياة المستعبَدين يري هذه الطريقة في التفكير تملأ حياتهم ، بل وقصص ماضيهم ، تلك القصص التي تُصور البطل إنساناً ذو قوة وجبروت لا يُحد وقدرات خارقة .. لا يصمد أمامه شيء ، ولا تقف دون تحقيق مآربه عقبة .. فهو يخرج دائماً منتصراً في كل معركة ، وهو يتصدى لكل معتد ، وكل ظالم، وكل عدوان داخلي أو خارجي ، مدافعاً عن أهله المعرضين من دونه لأشد الأخطار .. كل ذلك ، في محاولة من المستعبَدين للحصول علي لحظة عزاء وسلوى عن آلام الواقع المؤلم .. أو لحظة عز وكبرياء وأمل ، من خلال محاكاة بطولات هذا الفارس صانع الخوارق . !!

وهكذا .. كلما " عزّت السيطرة المادية على المصير ، حاول الإنسان المستعبَد توسل الأوهام يعلل بها النفس ويجمّل بها الواقع ، ويستعين بتصوراتها على تحمل أعبائه ... فالإنسان المستعبَد لا يتقبل الهزيمة أو الفشل ، ولا يستطيع الاعتراف بمسؤوليته المباشرة عما حلّ به .. وهو إما أن يهرب من الواقع أو يلقي اللوم على الآخرين ، أو يوهم نفسه بأن الأمر عابر ... ثم تكون السيطرة الخرافية على الواقع ، والتحكم السحري في المصير ، هما آخر ما يتوسلهما عندما يعجز عن التصدي والمجابهة ، قبل أن ينهار ويستكين.!! " [1]

إن المستعبَدين لا يقومون بواجبهم ، و يفشلون بسبب أخطائهم المتكررة ، أو مخططاتهم القاصرة .. ثم يتوسلون بالأوهام والظنون للخروج من واقعهم الأليم ؛ فإذا يأسوا من إنصاف المستبِد أو مواجهته ، لجأوا إلى مقامات الأولياء يتلمسون عونها .. وهناك تحتل النذور والقرابين مكانة خاصة .. أمّا " الأدعية " فإن سدنة هذه المقامات يتفننون فى تعقيدها وملئها بالغرائب لإشعاره أنها تحمل أسراراً دفينة للوصول إلى " بركة الولي " بزعمهم ، ومن ثم ترسّخ أولئك " الأولياء " كوسطاء للوصول إلى ما يريد المستعبَدون من إزالة الكرب ، وتفريج الغم ، وتوسيع الرزق .... ويزيد الأمر سوءاً حين " يتحالف المشعوذون مع التجار وأصحاب السلطان على الإنسان المقهور ، لتحقيق مآربهم المشتركة لقاء ما يعللون به نفسه من

[1] **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 139 .**

أوهام الخلاص ودرء الشر أو الخطر وتغيير المصير . ولذلك يشجع المستبِد في المجتمعات المتخلفة هذه الممارسات بوسائل مختلفة ، أبرزها رعاية المقامات وذوى " الكرامات ؟! " ، ورعاية الطرق التى تتلبس لباساً دينياً حتى يعم الجهل ، وتتأصل الاستكانة ، وتشيع الخرافة بشكل يطمس الواقع كلياً ويصرف الناس عن التصدي الفعال والموضوعي له . وهو ما يحفظ للمستبِد مكانته ويصرف الأنظار عنه كمسؤول أساسي عما يلمّ بالمجتمع من كوارث وأزمات " [1]

و " على الصعيد الإجتماعي ، يمثل التسويغ أو التبرير آلية من آليات تدعيم مشاعر الرضا بالواقع القائم . المفروض فرضاً على الإنسان الساعي إلى الرضا . ويحتشد التراث الشفاهي بآلاف الأمثال والحكايات والمواعظ التى تؤكد الرضا بالواقع وتسوغه وتبرره " .. [2] فيظل الإنسان المستعبَد " أسير الظروف . يعيش ليومه غير عارف ما يمكن أن يحمله الغد .. يتقلب ما بين التفاؤل والتشاؤم تبعاً لطبيعة اللحظة الراهنة التي يمر فيها ، يفرط في تفاؤله أمام الظفر العابر ، ويفرط في تشاؤمه أمام الانتكاسة الآنية " .. [3]، يغلب عليه الأخذ بالظواهر المباشرة والتفكير في إطار اللحظة الراهنة ، " يقترب من الواقع و يتعامل معه دون خطة مسبقة ذات مراحل منطقية واضحة سلفاً .. الفوضى والعشوائية والتخبط والمحاولة شبه العمياء هي المميزة .. ولا يتوقف هذا التخبط والمحاولة والخطأ على بحث الأمور النظرية، بل هو النمط الشائع في التصدي للحياة بقضاياها اليومية . " [4]

ورغم انتشار التعليم في أوساط الكثير من المستعبدين ، تبقي هذه هي طريقتهم في النظر إلي أمورهم – حتى المصيرية منها – مما يؤكد أن التعليم لم يكمل الشخصية ، بل ظل في كثير من الأحيان قشرة خارجية تنهار عند الأزمات ، أو قميصاً أو معطفاً يلبسه المستعبَد حين يقرأ كتاباً أو يدخل مختبراً أو يلقي محاضرة ، ويخلعه في سائر الأوقات .. لأن هذا التعليم يمارس من خلال التلقين في إطار من علاقة تسلطية : سلطة المعلم لا تناقش ، حتى أخطاؤه لا يسمح بإثارتها ، وليس من الوارد الاعتراف بها " بينما على الطالب أن يطيع ويمتثل .!! " [5] ولذلك يعاني من قصور الفكر النقدي ، وانعدام المثابرة .. و " يميل إلى إطلاق الأحكام المسبقة والآراء المتسرعة مدعياً القدرة على آنية الفهم وفجائيته ، دون أن يجشم نفسه عناء الجهد الفكري الضروري لتحليل الواقع والوصول إلى استنتاجات بشأنه .. " [6].. فإذا ذكرت

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 140 بتصرف يسير .**

[2] **راجع بعض نماذج لتلك العناصر الشعبية ودراسات مستفيضة عنها فى بيلوجرافيا " الإنتاج العربي فى علم الفولكلور " ـ إعداد : محمد الجوهري ، وإبراهيم عبد الحافظ ، ومصطفى جاد ـ مركز البحوث والدراسات الإجتماعية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .**

[3] **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي ـ ص 66 بتصرف يسير .**

[4] **المصدر السابق ـ ص 61 ، 62 .**

[5] **المصدر السابق ـ ص 79 بتصرف يسير .**

[6] **المصدر السابق ـ ص 61 .**

له أن هناك كتباً تتطلب القراءة لفهم الأمر ؛ امتعض وكأنه يتجرع دواءَ يثير الغثيان ؛ ومن ثم .. بقي عاجزاً عن النظر أبعد من دائرة محيطه المباشر ، وعن استشفاف آفاق بعيدة .. فانحسر مجال نظره وفهمه الحيوي ، وتضخمت في نظره الأمور التافهة ، حتى طغت على وجوده ، وشكّلت محور الحياة لديه ..!!

إن حياة المستعبَدين تضيّق مساحة الفكرة حتى تساوي الصفر ؛ فتتحول الحقائق الحيّة ، إلي حقائق خامدة مدفونة في " علم غزير " .. فاقد لدوره الاجتماعي ، لا تزيد مفرداته عن أن تكون توابيت جوفاء تشحن أو تفرغ بالمعنى حسب الهوي .. يكررها جيل تلو جيل ، دون أن يفكر في جدواها في لحظته الراهنة ، فتصبح في نظره حلاً لكل العصور أو مفتاحاً لكل الأبواب ، ويتحول الدين في ظلها من قوة دافعة للحياة إلي نوع من الكهنوت الجامد البارد !! .. ولذلك فإننا نرى أن المستعبَدين في كل الدنيا يعانون ..

• هشاشة التديّن

حين يصبح الإيمان مجرد قناعة عقلية ، ويكف عن توجيه السلوك ، فإن حزمة ضخمة من الأمراض النفسية تجتاح كيان الإنسان ، فتحول حياته إلي شيئ لا يطاق .. وهذا هو ما يحصل في فى ظل الاستبداد ، حيث ينتشر الدين فى صور كثيرة .. ولكنها ليست أبداً الدين الصحيح الذى أنزله الله .. فمن طرق تفهم الدين هروباً من الحياة العملية ، إلى حلقات ما يدعى زوراً " الذِكر " تلك الحلقات التى يجد فيها الهاربون من السلطان مكاناً لتفريغ ما بهم من كبت .. ويشجعها المستبِد لأنها " هروب من الواقع وعيش في الخيال يُبعد الإنسان المقهور عن الوعي بما يلحق به من غبن ، وما يجب عليه من النهوض من أجل التغيير . فيحفظ المستبِد امتيازاته ، ويبقى الإنسان المقهور على غبنه . "[1]

ولأن الأسطورة عند النفوس المستعبَدة أعمق أثراً من الوثيقة التاريخية .. والبدعة التى اختلطت بالدين أقوى من الدين نفسه ؛ تغلب " العادات و التقاليد في مجتمع العبيد علي صحيح الدين في كثير من الأحيان ..!! وتأمل هذا الكم الهائل من قبور و أضرحة من يسمون " أولياء الله الصالحين " و عدد الموالد المقامة لهؤلاء الأولياء !! "[2] لتدرك أنه علي الرغم من الانتشار الكمي للتدين ، إلا أن الكثير من صور هذا التدين مازالت تندرج تحت التدين الهروبي الإنسحابي أو التدين السلبي .. " و قلما تجد التدين الأصيل الذي يتغلغل في دوائر المعرفة و العاطفة و السلوك ، و الذي يجمع شتات صاحبه علي التوحيد

---

(1) المصدر السابق - ص 111 .
(2) الشخصية المصرية - د. محمد عبد الفتاح المهدي - ص 43

المطلق الذي يعطي سر الإدراك الكلي الشامل لأبعاد الوجود دون اختزال ، و الذي يجعل من صاحبه منظومة كونية رائعة " [1]

إن المستعبَدين يمارسون تدين السطح أو القشرة . إن صح التعبير . وهذا التدين يؤدي إلي ظهور أعراض الهشاشة الدينية ، والتي تشابه " هشاشة العظام المعروفة ، فهشاشة العظام تعني نقص في تكون شبكة الكولاجين اللازمة لترسب أملاح الكالسيوم عليها ، وهي تحدث عادة في كبار السن كنتيجة طبيعية للوهن الذي يصيب أجسادهم وعدم قدرتهم علي تصنيع ألياف الكولاجين ، مما يؤدي إلي مزيد من الوهن والضعف وتآكل هذه العظام .. !! . وهذا يماثل تماماً ما يحدث في الممارسات الدينية للمستعبَدين .. فهي تفتقد شبكة الكولاجين الخاصة بها والتي تربطها بعضها البعض ، فتؤدي في النهاية لتكوين القيم الصحيحة . " [2] ولذلك تتحول ممارسات التدين إلي " صورة اجتماعية لا أكثر ، فتري مصلين لا يتركون صلاة في يومهم ، ولكنهم في نفس الوقت لا يراعون حدود الله في عمل ولا يتورعون عن ظلم الناس في أعمالهم وأرزاقهم " [3] .. وتري " إحدي النساء تغطي شعرها بالحجاب ، وتلبس تحته " الجونلة " الضيقة أو البنطلون " الجينز " .. بل من الممكن أن تري احدي هؤلاء المحجبات في الأفراح ترقص وتتمايل مع الموسيقي !! " [4]

و تصل تلك الهشاشة إلي الدعاة والأدعياء " حيث يميلون إما إلي تملق السلطة بـ " الفتاوي " الميسرة و المبررة للاستبداد و الفساد .. أو تملق الجماهير بـ " الرَوْشَنة " الدعوية و فتاوي " التيك أواي " و تسطيح الدين بما يتناسب مع ذوق المشاهد الذي لا يحتمل ذوقه إلا نوع من التدين الخفيف " [5]

و " تزداد الأمور سوءاً ، فيمارس الإنسان المستعبَد فصل الحياة عن الدين عملياً ، ولو لم يعترف بذلك، فإما أن يهرب من الحياة إلى لون من العبادة والذكر يظنها البداية والنهاية ، وتتضخم عنده بعض التصورات فلا يرى سواها، وَيُقوِّم سلوك الناس على ضوئها .. وإما أن يمارس الحياة ممارسة عادية كسائر الناس الذين لا صلة لهم بالإسلام ، ويقعد عن سائر واجباته ، ولا يختلف في معاملاته عن غيره ..

إنه التدين المغشوش .. " [6] الذي يدفع الإنسان المستعبَد إلي الإغراق في النوافل من تسبيح وقيام ليل وصدقات وغيرها من الأعمال التي لا تتعارض مع مصالحه الشخصية ، ولا تتصادم مع المستكبرين ،

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 53 .**
[2] **أعراض مصرية ـ دراسة في أحوال المصريين المعاصرة ـ د . حسين الشرقاوي ـ ص 68 ، 69 .**
[3] **المصدر السابق ـ ص 71 .**
[4] **المصدر السابق ـ ص 73 .**
[5] **الشخصية المصرية ـ د. محمد عبد الفتاح المهدي ـ ص 25 بتصرف يسير .**
[6] **نظرات في مسيرة العمل الإسلامي – عمر عبيد حسنة ـ ص 192 ، 193 .**

وترك الواجبات المُكَلِفة التي قد تتصادم مع مصالح المستكبرين .. على أساس أن هذه النوافل تقرّب إلى الله ، لدرجة أن يصبح صاحبها من الأولياء الصالحين !! [1] بينما الحقيقة أنها صورة من صور الهروب من المواجهة التي قد تتطلب تضحيات بالنفس أو المال .. فيكتفي الإنسان المستعبد الهارب بهذه النوافل ليشعر أنه قد أدى شيئاً في سبيل راحة ضميره ، ولم يعرض نفسه ومصالحه للخطر .. !!

إنه التدين المغشوش الذي حرّف " الدعوة نفسها تمشياً مع العقيدة المصلحية ، فرأينا من المستعبَدين من تبنى الدين على أنه دعوة أخلاقية ، تدعو إلى الأخلاق الحسنة والفاضلة و التسامح والتذلل ، تركاً للدعوة إلى كامل الدين الذي يتطلب التضحية بالمال والأنفس ... ومن ثم تنازل عن جانب من الجوانب الأساسية في الدعوة ، وارتضي حَلولاً وسطاً تجنبه بطش الباطشين .. " [2].. حتي أصبح أساس دعوته هو تشجيع الأمراء على لزوم الحكم بالهوى ، والتفرد بالسلطة ... يفتري الكذب على الله ورسوله ، فى تفسير الدين بما يناسب مصالح السلطان .. ويفسد الفطرة الإنسانية بما يبتدعه من عبادات ميكانيكية تمثل التجارة بالدين .. تلك التجارة التى تعد جزءاً من عمل المستبِدين ، والتى تجعل مهمة الدين تبرير أفعال الطغاة ، واصطناع الأعذار للمستبدين ، ودعوة المستعبَدين لتدين هشّ قائم علي العقيدة المصلحية , خالٍ من القيم والأخلاق إلا ..

• الأخلاق المبتورة

لا شك أن من يعش في بؤرة فاسدة لا يشعر بعفونة الجو .. بل يتعود عليه ؛ " فالبيئة تُعدّ بمثابة الرَّحِمِ بالنسبة إلي القيم .. وهي تمارس مفعولها علي الراعي وعلي العالم سواء . وهي الوسط الذي يتشكل داخله الكيان النفسي للفرد ، بالصورة نفسها التي يتم بها تشكل كيانه العضوي داخل المجال الجويّ الحيويّ الذي ينتظمه ، فهو لا يتلقي القيم والأخلاق ، و إنما يتنفسها ويتمثلها بالطريقة نفسها التي يتم بمقتضاها تنفسه وتمثّله لأكسجين الهواء. " [3] ؛ فتستقر في شغاف قلبه ، وتتمركز في لا وعيه .. قد يهاجمها في أحاديثه ، ومحاضراته ، وكتاباته ، ثم عند المنعطفات والتقاطعات . وهي المواقف التي تكشف حقيقة قيم وأخلاق الإنسان . تطفو هذه المفاهيم على سطح الوعي ، فيبني عليها قراراته وسلوكياته ، وكأن كلامه المحكي أو المكتوب مجرد دهان خفيف ، يخفي قيمه الميتة والقاتلة ..!!

---

[1] لسنا هنا نقصد أن النوافل لا ترفع الإنسان درجات عليا عند الله في الدنيا والآخرة ، وإنما قصدنا أن القيام بها لا بد أن يسبقه القيام بالواجبات والفروض ..

[2] قلت لحماري – د. محمد سعيد التركي - ص 214 بتصرف يسير .

[3] القضايا الكبرى - مالك بن نبي - ص 80 بتصرف يسير .

ولسنا في حاجة هنا للتأكيد علي " أن الاستبداد يقضي على مباديء الأخلاق ، فهي نتيجة حتمية لحكم يُبنى على الخوف ، وبث الرعب في قلوب الناس ، واستخدام السيف أو التلويح باستخدامه في كل لحظة، فمن ذا الذي يستطيع في مثل هذا الجو الخانق أن يقول الصدق أو يشهد بالحق ؟ أو يتمسك بأهداب الفضيلة ؟ أو يرفض أن يرتشي ؟ أو يأبى شهادة الزور؟!. "[1]

إن " الخداع والتضليل هما قوام اللغة التى يخاطب بها المستبِد جماهير المستعبَدين .. فخطابه دائماً كذب ونفاق .. خطابه وعود معسولة وتضليل ... كلها هراء اعتادت عليه الجماهير .. وهي بدورها تخادع وتضلل حين تدعي الولاء وتتظاهر بالتبعية .. ومن ثم ، يصبح الكذب جزءاً أساسياً من نسيج مجتمع الاستعباد ، على مختلف الصعد وفى كل الظروف ، وفي أكثر العلاقات .. كذب في الحب والزواج .. كذب فى الصداقة ..كذب فى ادعاء القيم السامية .. كذب فى المعرفة .. كذب فى الإيمان .. يكذب الموظف على صاحب الحاجة ، و يكذب التاجر على المشتري ، و يكذب الحرفي على صاحب العمل .. معظم العلاقات زائفة .. و معظم الحوار تضليل وخداع ..!! "[2] .. كلٌ يحاول أن يلعب لعبة التضليل والزيف كما تسمح له إمكانياته ، وويل له إن كان من أصحاب النوايا الطيبة ، فهو في هذه الحالة لا يغرّم فقط من خلال استغلاله ، بل يزدرى باعتباره ساذجاً وغبياً .. !!

إن تصادم المصالح ليس بالشيء الغريب ، ولكن هذا التصادم في مجتمع الاستعباد يُظهر ميول التحاسد والتباغض في صورة فعلية متمثلة في التنازع على المصالح والغش والخداع ، وتطفيف الكيل ، وبخس الناس بعضهم بعضاً ، أو ربما الاقتتال دون تلك المصالح .. لأن العبيد يرون " القيمة المادية للأشياء أهم من قيم أخري مثل العلم والثقافة والأخلاق ، ولذلك تجد في أدبيات تعاملهم اليومي عبارات مثل " اللي معاه قرش ، يساوي قرش !! .. ومثل " ما يعيبش الراجل غير جيبه . . !! " ، وغيرها من الأمثلة التي تعظم من قيمة المال بصرف النظر عن مصدره ، وتعلي من قيمة من يحصل عليها بأقل مجهود وبدون مواهب حقيقية . "[3]

ولذلك يكتسب الدخول في عمل أو وظيفة دون حاجة فعلية إلى الشخص "طابع الحظ، مما يبخس مفهوم العمل تماماً، نظراً لأن المثل الأعلى لطالب الوظيفة ليس المؤهلات والجهد الإنتاجي، بل هو تلك الفئة المحظوظة التي تسبح في الرخاء المادي، والعاطلة عن العمل بالوراثة، نظراً لتكدس الثروة في

---

[1] الطاغية ـ د . إمام عبد الفتاح إمام ـ 293 .
[2] مستفاد من كتاب التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي ـ ص 42 ـ 45 .
[3] أعراض مصرية ـ دراسة في أحوال المصريين المعاصرة ـ د . حسين الشرقاوي ـ ص 62 ، 63 .

أسرها . " [1] .. فتصبح القاعدة أن يأخذ الإنسان بدون عمل ، وأن من يعمل فعلاً ينظر له علي أنه ساذج أو متخلف ، وكأن العصر هو عصر تنابلة السلطان الذين كان السلطان يدفع لهم معاشهم ، ويقيمون في قصره مقابل أن يقوموا بتسليته .. !!

ولأن العمل لا قيمة له في مجتمع العبيد ، فإن هذا المجتمع يتصف بكثرة المحسوبية ، و يشيع بين أفراده : إذا أردت أن تقضي عملك ، فابحث عن كبير يرجو لك ، أو رشوة تشفع لك .. ذلك أن من يقوم بالعمل لا يتحرك لعمل إلا أن يكون له غرض شخصي من ورائه .. أو يتناول في مقابله رشوة .. وهو حين يتناول الرشوة ليقوم بالمطلوب ، فإننا نسمع تبريره " الواحد لو عاش على مرتبه ماكنش نفع!!.. أمّال الناس دى عايشة منين ؟ " زيادة الأسعار بتساعد الناس إنها تسرق وترتشي ، والواحد ساعتها ما بيفكرش ده حلال واللا حرام " .. ومن ثم تسود أخلاق " الانحلال الحضاري ، وتتحلل الروابط الاجتماعية ، و يتعطل التفاعل الاجتماعي.. " [2]

إنني لا أعتقد أن الأخلاق يمكن تكفينها ووضعها في تابوت القهر الضيق ، فطريق الاستبداد هو في ذاته إنكار للحرية ، والإنسان إن افتقد الحرية افتقد كل الأخلاق .. وإن كان ثمة أخلاق ، فهي " أخلاق مبتورة " .. ذلك أن النفوس المقهورة لا تحمل إلا أخلاقاً مبتورة .. يعجز فيها الإنسان عن التصدي لواقعه ومجابهة تحدياته ؛ فيلوذ بأي أحد ، يرى أنه الحامي الذي يتمتع بالقوة والقدرة على مواجهة كل شيء .. البطل الأسطوري الذي يتصف بـ " القوة والقدرة على تغيير الواقع المؤلم " بطريقة سحرية غامضة الأسباب .. لأنه ..

• الزعيم المُنقِذ

تشعر النفوس المستعبَدة أنه لا خلاص من واقعها السيىء من خلال جهدها الخاص ..ولذلك فإنها تأمل أن تستيقظ يوماً ما فإذا بالأمور قد انقلبت بصورة مفاجئة ، وإذا بطل الخلاص قد برز إلى الوجود ، وإذا بالواقع قد تحول .. ذلك هو الأمل الذي يعلقه المستعبَدون علي الزعيم المنقذ الذي يظهر كأمل أخير حين تسد جميع أبواب الأمل ، وتتضخم مشاعر العجز .. والمشكلة الحقيقية هنا أن النفوس المستعبَدة تراهن على خلاصها على يد الزعيم المنقذ دون أن تعطي لنفسها دوراً في السعي لهذا الخلاص ، سوى دور التابع المعجب المؤيد دون تحفظ ، والمنتظر للمعجزة !!

---

[1] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 29 .
[2] الفكر العربي وسسيولوجيا الفشل - شوقي جلال - ص 132 بتصرف

ولذلك يظهر في حياتها بين الحين والآخر بعض المفاتيح السحرية في صيغة شعارات تقوم بالتنفيس عن آلامها وتعطيها آمالاً خادعة في المستقبل بما تحمل من مفتاح سحري يساعد على عبور " عنق الزجاجة " !! .. وهو أمر يشبه إلي حد كبير إعطاء المخدر دون إجراء أي عمليات جراحية لتصحيح المسار ..!!

إن هذه المفاتيح السحرية تُحل الخيال محل الواقع ، والهم بدل الحلم .. وهي لم تتوقف عن الدوران بالرغم من أنها لم تفتح باباً مغلقاً واحداً ، وكانت تدور في فراغ دون أن يُفك مزلاج أو يُحل " ترباس " !! .. ولكن ما جعل لها قبولاً عند النفوس المستعبَدة أن هذه النفوس تؤمن بالحلول المفاجئة ، فتظل صابرة تنتظر الفرج بلا عمل جاد ..!!

إنهم لا يرون بديلاً للخلاص السحري لأنهم فقدوا الثقة بإمكاناتهم ، فهم دائماً بحاجة إلى من يدير لهم أمورهم نيابة عنهم .. ولذلك يتحول الزعيم عندهم إلي " ساحر " يعينهم على الحياة ، ويحقق لهم مطالبهم في الحماية والأمن ، والنمو والتطور ، ولهذا تراهم يحتجون إذا تركهم وذهب ، أو هدد أن يتركهم، لأنهم يشعرون بـ " الوحدة " من دونه ، ويعجزون عن الفعل ، ولا يستطيعون اتخاذ أي قرار!

إن المستبد ليس وحده المسئول عن نشأة منظومة الاستبداد ، ولكن المستعبدين أيضاً يشاركون بوعي وبغير وعي في هذا .. يشاركون من خلال أفكارهم الفاسدة التي تتمثل في أسطورة " الزعيم الملهم " و " الحل السحري " الذي ينقذهم ، والذي لا يفعلون هم معه شيئاً غير استبدال وثن " الزعيم الملهم " بوثن " الحل السحري " .. ولذلك فإن الاستعباد مازال يطل برأسه هنا وهناك كلما سنحت الظروف ، وهي كثيرا ما تسنح في عالم لا يستطيع الإنسان فيه أن يعتمد على نفسه ، فينتظر من يخلصه مما هو فيه ، ويبقي الأمل عنده معقوداً على " الزعيم ا لمنقذ " و " القائد الملهم " .. الذي يتخيله " عادة فقيراً شجاعاً ونبيلاً ، يحب بشكل مثالي ، ويحارب غالباً بلا تعب ، ويموت فى معركة غير متكافئة من أجل شيء عادل. وهذه تشكيلات لمئات القصص والقصائد والملاحم ، التى تم تخيلها ، ونقلها الناس لكل الأنحاء ، وفى كل الأزمان ، والتى تمتعوا بها كثيراً وأثارتهم "[1]

إن روح الزعيم المنقِذ الذي يصنع المعجزات هي المسيطرة علي تفكير المستعبَدين .. وهم لا يرون إمكانية ولادته أمراً خاضعاً لقوانين يمكن بواسطتها تكرار هذا النموذج ، أو تصحيح ، أو تنمية ما عنده.. وهذا كله مؤشر إلى عدم تدخل الجهد الإنساني ، و انتظار عامل خارجي غير متوقع .. فإذا اغتيل

---

[1] هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش ـ ص 308 ، 309 .

هذا الزعيم ، أو أعدم ، أو مات لم تعرف النفوس المستعبَدة ، كيف جاء ؟ ولا كيف ذهب ؟ ولا كيف يمكن تعويضه ؟ .. وكل ما تفعله هو الذكرى الحزينة ، واجترار الذكريات ، والحديث عن " إيجابياته " ، وما فعله من أجلها من جليل الأعمال ..!!

ولا أدري ما جدوي إيجابيات الزعماء. إن كان لهم إيجابيات. إذا كان ثمنها تدمير " الإنسان " وتحطيم قيمه ؟ وتحويل الناس إلى جماجم ، وهياكل عظمية تسير في الشارع منزوعة النخاع ، شخصيات تافهة تطحنها مشاعر الدونية والعجز واللاجدوى ؟ ..كلا ! لا قيمة لإيجابيات أولئك الزعماء ، لأن الثمن باهظ جداً .. إنه ضياع الإنسان !. [1]

ولا يعني ذلك أنه لا ضرورة لزعيم ؟ .. بل " الزعيم القدوة ضرورة حيوية للجماهير ، كي يفجر طاقاتها ويحرك إمكاناتها على الفعل والخلق ، ويقود مسيرتها معطياً إياها المثل وموضحاً الطريق . هذا الزعيم هو عنصر حاسم لدفع الجماهير إلى النهوض بأعباء التغيير ، شريطة أن يلعب دور القائد المحرك والموجه ، وشريطة أن يكيف دوره باستمرار تبعاً لمسيرة الجماهير ، والمراحل التطورية التى قطعتها وما تطرحه هذه المراحل من مهمات جديدة وتحديات ، وما تتطلبه من أدوار قيادية جديدة . " [2]

إن الخطورة هي في أن يتحول الزعيم " من قائد يحرّك الجماهير ، إلى بطل أسطوري ينخرط في وهم التغيير الفردي ، ويدفع أتباعه إلى مواقع الإعجاب والتفرج والتأييد الإمعي . الخطر هو في انتشار صورة البطل الأسطوري ، الذي يكرر صور أبطال القصص الشعبي " فارس يحارب جيشاً ، والقبيلة تتفرج منتظرة عودة فارسها مظفراً " . هذه الوضعية مأزقية بالضرورة لكل من الزعيم والجماعة على حد سواء . فالزعيم لا بد أن يفشل ، ويتكرر فشله ويتراكم عجزه مفجراً التناقضات بينه وبين جمهوره . فإذا أصر على بقائه في سدة الزعامة وأصر على نهجه رغم فشله ، فإنه سيتحول إلى متسلط ، ولا بد من اتخاذ القمع وسيلة للاحتفاظ بمركزه ، ويكون بذلك قد عاد بالأمور إلى حالتها الأولى : مجتمع القهر والتسلط " [3]

وهكذا .. تبقي النفوس المستعبَدة تبحث عن المُخلص والزعيم لإنقاذها من براثن المهانة والقهر الداخلي ، فتتبعه وتطلق عليه مواصفات التبجيل وتنتظر منه المعجزة ، و لا تقتنع بعشرات الأدلة والصور التي توضح أن زعيمها جبان ومهزوم .. وكلما رحل عنها زعيم ، بدأت في البحث بين أكوام أوهامها عن غيره من " الأصنام " و القادة المزيفين ؛ لتوكل إليهم مهام إنقاذها من واقعها المزري ، دون

---

[1] راجع إن شئت كتاب " الطاغية " للدكتور إمام عبد الفتاح إمام

[2] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د. مصطفى حجازي - ص 122 .

[3] المصدر السابق - ص 122 .

أن تعي أن تلك الأصنام والزعامات هي المسئولة في المقام الأول عن هزيمتها ويأسها وفقرها وبؤسها..!!

ولا شك أن جهل النفوس المستعبَدة بهذه الحقيقة " يجعلها فريسة لأي شخص قادر علي اللعب علي مشاعرها وتصوراتها واحتياجاتها ؛ فتندفع بلا عقل إلي التصديق والإتباع دون تثبت أو تحقق ، ويساعد علي ذلك غريزة القطيع التي تشكل نوعاً من الضغط الجماعي علي الناس فيندفعون إلي اتجاه معين لا لشيء إلا لأن غيرهم مندفعين أو مساقين إلي نفس الاتجاه . .. فالعقول هنا لا تعمل ولا تفند أو تنتقد . ويلعب الإعلام الموجه دوراً كبيراً في تسهيل عمليات الإيحاء والاستلاب والاستهواء للجماهير الجاهلة الغريرة ، وكأن الإعلام هنا يقوم بالدور الذي قام به من قبل سحرة فرعون ، فهم يسحرون أعين الناس ، ويزيفون وعيهم ، ويحتلون إدراكهم .

ولا ينجو من هذا التأثير إلا قلة من الذين يحتفظون بقدرتهم علي الرؤية من خارج إطار القطيع ، ولديهم القدرة علي الاحتفاظ بإدراكهم دون تلوث أو تشويه أو تزييف ، ولديهم القدرة علي التفكير النقدي وتنبيه الجماهير الساذجة المخدوعة . ولهذا يتعرض هؤلاء لمصاعب كثيرة خاصة في النظم الاستبدادية فتلفق لهم القضايا ويزج بهم في السجون ويستبعدون من مواقع التأثير . "[1] لأن وجود هذا الصنف هو الخطوة الصحيحة في ..

• سبيل التحرر

كنت منذ فترة أسير مع صديق لي في أحد الأحياء الشعبية ، كان يحدثني بكلمات رشيقة عن قناعاته وأفكاره حول الحرية ، ومجتمع الحرية .. وسرحت أنا بذهني في هذه البيئة المشبعة بكل أنواع اليأس والإساءة والألم .. سرنا سوياً وتحدثنا حديثاً من قلوب وعقول تتسم بالتفتح ، والتأمل في الأفكار بحثاً عن الأفكار الحية والداعية للحياة ..بينما كانت تنامي إلى آذاننا محاورات بين رجال ونساء يبدو أن أرواحهم قد مزقتها قسوة الحياة ، وبدا علينا أننا نطأ الأسف الإنساني ونحن نتحدث عن الأنواع المختلفة من المشكلات الخاصة بهذا المكان .. فما الذي يمكن أن نفعله نحن من أجل حل تلك المشكلات ؟ وهل هناك فعلاً ما يمكن أن نفعله ؟ .. ماذا نستطيع أن نفعل من أجل أولئك الذين تعرضت إنسانيتهم للخيانة ، وتعرض وجودهم للتدمير ؟ .. هؤلاء السجناء بلا اختيارات ، ولا قرارات ، ولا حرية ، ولا أخلاق .. !!

[1] علم النفس السياسي رؤية مصرية عربية ـ د . محمد المهدي ـ ص 131 ـ 133 بتصرف يسير

توقفنا أنا وصديقي في منتصف جسر يوصل من حي من أحياء الفقر إلى آخر أقل إهمالاً .. ونظرنا إلى النهر المتوتر الملوث الميت ، به مخلفات أكثر مما به من مياه ، وعناقيد من الأعشاب الضارة الخانقة من النتن .

قال صديقي : إن ما هو أسوأ من تلك الأعشاب ، تلك الأرض القذرة المخصصة للقمامة العامة .. ثم إن سكان هذه المنطقة يبحثون في القمامة عن شيء يأكلونه ، أو عن ثوب يرتدونه ، وهذا ما يجعلهم على قيد الحياة !!

قلت لصديقي : وما السبيل للخروج من ذلك ، فهز كتفيه وقال : هذا أمر مثير للحزن ، ولكن لا شيء يمكن عمله حيال ذلك ، فهكذا حال الدنيا .. وبدأ في ترديد الأفكار التي تحض على المزيد من اتخاذ دور المتفرج .. والكلمات التي تتعامل مع واقع الاستبداد على أنه القدر الذي لا فكاك منه !!

وعندها .. تذكرت " الحكمةُ الشعبية : قيل لفرعون : يا فرعون مَن فرعنك ؟ قال : لم أجد مَن يُردُّني.. وإذن فإنَّ فرعون يعرف تماماً كيف تَفرْعن ! فلولا سلبيةُ المستعبَدين وضعفُهم واستمراؤُهم الهوان لَمَا تَفرْعن !

وتذكرت ، كيف كان أبي يقص علينا ونحن صغار ، حواراً جرى .على رأي أبي .بين فرعون وهامان : " قال فرعونُ لهامان : قل لهم إنِّي ربهمُ الأعلى . فردَّ هامانُ باستهجان : أمَّا هذه يا سيدي فكبيرة ! قلنا لهم: لولاك لَمَا كانوا ! ولَمَا صاروا ! ولَمَا أكلوا ! ولَمَا شربوا ! ولَمَا كان لهم وجود ! وقد صدَّقوا ، يا مولاي ، كلَّ هذا ! أمَّا هذه ، فلا ..!

فقال فرعون مُطمئِناً رجلَه : قُلها ولا تَهَب فأنا أعرفهم . وقالها هامانُ فخرُّوا لفرعونَ سُجَّداً ، وعندها قال فرعونُ : ألم أقل لك يا هامان إنَّني أعرفهم ! " [1]

إن المستعبَد هو من يصنع المستبِد لأنه يشعر أنه عاجز أمامه ، و فاقد للثقة بنفسه وبإمكاناته ، وللإحساس بالسيطرة على مصيره في يومه وغده ... فهو لا يدري متى يعمل ويحصل على قوته وقوت عياله ، وإذا عمل فلا يدري كم يستمر في العمل ، وهو لا يدري متى يقعده المرض وإلى أي حد ، وماذا سيحل به وبذويه من بؤس !!!!!

---

[1] مستفاد من موقع التغيير - http:. . altaghyeer.com

وهكذا " يعيش بين مطرقة الإستبداد و سندان الفقر ، فبجانب معاناته من الفقر يضاف خوفه من المستبد و محاولة تملقه .. ولذلك كانت " خطة الإفقار التي ينفذها المستكبرون تهدف إلى إحداث معاناة معيشية شديدة تستهلك كل الطاقة الذهنية والنفسية للإنسان وكذلك تهدف إلى تفتيت العلاقات الاجتماعية كنتيجة للحرص والأنانية ، ومحاولة كل إنسان تحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح الشخصية ..

وحتى لا يصل الفقراء إلى نقطة الانفجار والثورة ؛ فإن السينما والتلفزيون يبتعدان بهم عن هذه النقطة من خلال موضوعات الأفلام والمسلسلات اليومية التي تثير الشجون تارة ، و تعالج الموضوعات التي تعرض حياة الترف تارة أخري .. وتارة ثالثة تعرض الموضوعات التي ينتصر فيها الفقير على الغني من خلال قصص الحب

.. ومن هنا ، فإن أهم مقتضيات الصراع مع المستكبرين هو تخليص الإنسان من حالة " الفقر المنسي "[1] التي تدفع الإنسان المستعبَد إلي اليأس من التحرر ، فيصبح الرضوخ هو أسلوب حياته في " كل حركة أو تصرف ، في كل ميل أو توجه ، في كل معيار أو قيمة .. في نظرته إلى نفسه ، نظرته إلى الهدف من حياته ، أسلوب انتمائه ونشاطه ، أسلوب علاقاته على تنوعها ... في سلوكيات كثيرة تقوم على تحمّل الاستعباد "[2] ، و تبرير الواقع ، وتنزيه الذات ، و البحث عن كبش الفداء ، وتلمس العذر للمهانات..

" يروون فى الأمثال أن رجلاً جباراً كان يجد متعته الكبرى فى إرهاق البشر . وكان إذا خرج إلى الطريق يهرع الناس إلى بيوتهم ، وتسكن الحركة ، ويسود السكون من شدة الفزع .. ثم يمضي الرجل مختالاً متبختراً يقول : أنا ! ... أنا ! ... فلا يقف فى وجهه أحد ! وفى ذات يوم قام أحد الشبان فقال للناس : لا تخافوا ولا تفزعوا إذا خرج الرجل عليكم ، ولا يغلقن أحد حانوته، ولا يغيّرنّ أحدكم موقعه ، وسترون ما يكون من أمر الرجل ! .. وخرج الرجل كعادته يختال ويتبختر ، ويلتفت حوله يمنة ويسرة وهو يصيح صيحته المعهودة : أنا ! .. أنا ! ... حتى إذا مر بالشاب ، فاجأه الشاب بلطمة قوية على وجهه أذهلته .. فلما أفاق من ذهوله قال للشاب : وأنت أيضاً !! .. وهكذا غيّرت هذه اللطمة الواقع كلّه بالنسبة لأهل الحي ، ليس فقط لأنها أمنتهم على أنفسهم ، ولكن – أهم من ذلك – لأنها كسرت فى نفوسهم حاجز الخوف . "[3]

[1] التصور السياسي للحركة الإسلامية – رفاعي سرور - ص 115 ، 116 بتصرف
[2] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 32 ، 33 بتصرف .
[3] الجهاد الأفغاني ودلالاته – محمد قطب - ص 90 ، 91 بتصرف يسير .

إن الإنسان المستعبَد " عاجز عن المجابهة تبدو له الأمور وكأن هناك باستمرار انعداماً في التكافؤ بين قوته وقوة الظواهر التى يتعامل معها ، وبالتالي فهو في معظم الأحيان يجد نفسه فى وضعية المغلوب على أمره ، يفتقد الطابع الاقتحامي في السلوك ، وهو سرعان ما يتخلى عن المجابهة منسحباً أو مستسلماً أو متجنباً ، إمّا طلباً للسلامة وخوفاً من سوء العاقبة ، أو يأساً من إمكانية الظفر والتصدي .. وبذلك يفتقد موقفه من الحياة عموماً إلى الطابع التغييري الفعال ، ويقع في أسلوب التوقع والانتظار ، والتلقي الفاتر لما قد يحدث .. مما يلقي به إلى الاتكالية على منقذ منتظر بشكل سحري . صورة هذا المنقذ هي على العكس تماماً من صورته عن ذاته . إنه القوي الذي يتمتع بالجبروت ، الكفيل بقلب الأمور رأساً على عقب ، حامل الخلاص العاجل . ومن البديهي أن ذلك الموقف يهيىء المستعبَدين إلى التعلق بالزعيم الفرد ، تعلقاً يغري بالتسلط والاستبداد ..!!

ولا شك أن كل هذا يشكّل عقبة فعلية إزاء تحريك المستعبَدين لأغراض التغيير الاجتماعي ؛ لأن محاولات التحريك ستجابه بنوع من المقاومة النابعة من الإحساس بالعجز عن تحمل المسؤولية الذاتية ومسؤولية المصير .. ذلك أن الإنسان المستعبَد يتجنب كل تغيير ، وكل جديد يثير فيه القلق ، ويفقده أي شعور بالأمن ، ولذلك فهو يخشى التجريب ، ويتشبث بالقديم والتقليدي والمألوف ..!! "[1]

ولذلك ، فإن ظاهرة الاستبداد لن تزول في الواقع إلا حين تزول من نفوس المستعبَدين حين ينضجوا ويتحرروا نفسياً ، ويرغبوا في استرداد وعيهم وكرامتهم وإرادتهم التي سلموها طوعاً أو كرهاً للمستبد .. حينئذ فقط تضعف منظومة الاستبداد حتي تنطفئ ، وليس هناك طريق غير هذا إذ لا يعقل أن يتخلي المستبد طواعية عن مكاسبه من الاستبداد . و قد أثبتت خبرات التاريخ أن الحرية لا تمنح وإنما تسترد وتكتسب ..

إن أزمة الحرية ليست مجرد نظم إستبدادية ، أو قوانين استثنائية ، أو إعتقالات وسجون وأجهزة أمن وتجسس .. بل تمتد جذورها في النفس الإنسانية ، والبيئة الاجتماعية ؛ ولذلك ينبغي على فقه التغيير أن يقرأ النفس المستعبَدة وما تنتجه من فكر وسلوكيات تُقَوي شوكة المستبِد ، وتضفي عليها هالة تُشعر الانسان بقدرية الاستبداد ؛ فيسلم ليد الغيب التي هي في الواقع يد المستبَد ليس غير . !!

وبعد تلك القراءة المطلوبة من فقه التغيير ، لا بد من تحطيم كل الكوابح والكمامات والسلاسل والأورام والعقد التي تعيشها النفس ليحدث تغيير ما بها ؛ فيكون ذلك هو المقدمة الصحيحة للخروج

---

(1) **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 45 ، 46 .**

من الاستعباد إلي الحرية ، من خلال مجتمع يؤمن بأن تحرير الإرادة بالعمل الحقيقي المثابر هو ضرورة حياتية ؛ وأن البداية دائماً تحتاج إلى الخطوة الأولى .. ونقطة النهاية إنما تحددها نقطة البداية العملية التي تحيط بالخصائص النفسية والأخلاقية للنفس المستعبَدة .

***

الباب الثالث : المتلاعبون بالعقول

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فقه الواقع

الفصل الثاني : إغتيال العقول

الفصل الثالث : بيت العنكبوت

ليس كل ما يُعلم يُقال ، وليس كل ما يُقـال ، يُقـال ـ في كل وقت، ففي بعض الأوقات يكون الصمت هو الواجب ، فإذا استغل الأعداء هذا الصمت ؛ كان الكلام هو الواجب.. ومن خلال التوفيق بين واجب الصمت وواجب الـكـلام تتكون الرؤية الصادقة كما ينطبق الواقع علي المرآة بلا اختلاف .

وتزيد الرؤية وضوحاً من خلال " فقه الواقع " ، حيث نري أعداءنا لا يضعون تـوقيـعـهم على ما يصنـعـون ، وإنما يهيئون كل ما يقلب الحياة رأساً على عقب ، ثم ينسحبون بكل تواضع ، تاركين مَن يضع توقيعه على أعمالهم في عملية " اغتيال العقول " التي تدور في هدوء دون أن يتنبه لها العبيد ، فضلاً عن التفكير في مقاومتها !!

ويتحالف الجميع لطمس بصيص الضوء كلما لاح، وأسر المستعبَدين في " بيت العنكبوت " الذي لا يُمَيّزِون بداخله مكانهم من القاع الذي هم فيه ، ولا يعرفون المسؤول عن وجودهم في ذلك القاع ، فينتقلون من أزمة إلي أزمة ، ومن حيرة إلي حيرة .. تحيطهم خيوط الغفلة التي ينسجها " المتلاعبون بالعقول " ..!!

الفصل الأول

فقه الواقع

حين تصبح العملية الفكرية هي عملية استنبات أفكار من أفكار دون عودة إلى الواقع ، يدور الفكر في فلكه الخاص ، فيعجز عن الإمساك بالواقع أو التحكم فيه ؛ وتفقد عملية التغيير الرؤية الواضحة لـ " كيف " يكون هذا التغيير ؟ .. و من ثم تصبح مواقف صاحب الفكرة هي " الذخيرة الحية " للاستبداد..!!

ولذلك ، فإنه من الضروري أن نحاول كشف الواقع من خلال المعايشة اليومية لمشكلات المجتمع ، والدخول في كل مفاصل الحياة .. حتى نمتلك القدرة على قراءة الواقع وكأنه نص في كتاب نقرؤه ، نلتفت إلى كل دقائقه ، ونحاول فك شفراته ، ونقف علي منابعه ونقاط تشكله .. ونطالعه عن " كثب " وليس عن "كتب " !!

وكما أن قراءة نصوص الكتب تحتاج إلى أدوات مساعدة مثل القواميس ودوائر المعارف ، فإن قراءة الواقع تحتاج إلى أن نلاحظ بعناية ، و نقارن بدقة ، و نستنتج بعمق ، و نحرر عقولنا وأحاسيسنا من أن نصدق مقولات الآخرين دون أن نتغلغل فيما يعتقدون ، ونلاحظ ما يعملون .. ننظر إلى الصورة من كل أبعادها ، ولا ننظر إلى منطقة "كُثف حولها البريق" حتى تحجب بقية الصورة الحقيقية..فإذا اضطربت الرؤية في أنظارنا ، قمنا بتجميع أجزاء الصورة المبعثرة هنا وهناك ، وانتظرنا حتى تكتمل أجزاء الصورة كلها .

ولأن الرؤية الصادقة تتطلب قدرة هائلة على التحليق " رأسياً " فى ضوء الواقع الملموس و " أفقياً " فى كل العناصر المحددة للتقدم في طريق التغيير ؛ فلا بد من التدريب على الملاحظة الدقيقة ، ثم إخضاع كل الملاحظات للتحليل المستمر ، والتحاور حول كل دقيقة فيها [1]، مع التحقق من معطياتها ، حتى يُبني فهم الواقع كـ " نص " من خلال عين تستشف الحجب ، فتدرك ما وراء الأكمّه ، وعقل يفكك كل ما

---

(1) **لعل من المفيد أن يجلس المتدربون على قراءة الواقع كل أسبوعين أو أكثر جلسة تقويم ، يمكن من خلالها الوصول إلى تحليل دقيق لما يستحق من أحداث هذا الواقع .**

رصدته العين ، ليعيد بناء وعيه الغائب ، ويحصل على حريته المفقودة فى عالم تعمه العبودية ، ويفسده الاستبداد ..

إن المعركة التي يخوضها الفرد من أجل الحرية ، قد تجعله . أحياناً . يهمل السعي للحصول على قدر أكبر من المعرفة حول الواقع ، وتقدير القوة التي يتمتع بها المستبِدون تقديراً دقيقاً ، فيجهل الوجود المستقر الثابت للقاهرين في أعماق المقهورين ؛ و ينتهي الأمر به إلي ما يمكن أن نطلق عليه " المنفى الزماني " حيث السبات في أحضان الكتب ، والتشرنق في ظروفها ومكانها وزمانها ، مع الجهل بطبيعة الزمان ، وغيبة الوعي عن طبائع البشر .. ولا يرجع ذلك . في أغلب الأحوال . إلي نقص الإخلاص أو نقص العلم الشرعي ، وإنما النقص في غياب الإطلاع على الواقع بتعقيداته ومستجداته ، والاستهانة بهذا الركن من العلم ، والاكتفاء فيه بانطباعات شخصية أو مقالات صحفية ..!!

لقد " شهد التاريخ الإسلامي العديد من حركات التغيير ، وهى حركات ومذاهب لا ينقصها فى أغلب الأحوال الإخلاص فى القصد ، والبناء على أصول من الحق النظري ، ولكن أكثر ما كان يأتيها من فشل فى النتائج ، أو ضمور فيها ، كان يأتيها من قصور فى معرفة الواقع التى تهدف إلى إصلاحه ، وفى امتلاك تصور عميق لطبيعته ، ولعناصر تكوينه ، وعوامل تفاعلاته ، فإذا ما اتجهت الإرادة إلى الإصلاح مع هذا القصور ، ارتدت فى كثير من الأحيان بالخسران والفشل ..

وعلى هذا الإعتبار ، يغدو فهم الواقع عاملاً بالغ الأهمية فى التغيير " [1].. هذا التغيير الذي لا يقوي علي القيام برسالته إلا من يكون أميناً على حقيقة الواقع ، لا يسأم من أدائها شهادة ، ولا يهتم إذ قبض عليها أن يقبض على نار تحرق صاحبها ، ما دامت هي النور يكشف ظلمة الطريق من خلال ..

• البصيرة والوعي

" أقف كثيراً عند كل آية في كتاب الله تقدم فيها ذكر أي أمر من الأمور علي الإيمان بالله . فالإيمان بالله هو الركيزة الكبرى التي تنبثق منها الركائز كلها ، ولا شيء يتقدم عليها في عقيدة التوحيد ، التي هي أساس الإيمان . فإذا تقدم ذكر أمر من الأمور في آية من آيات القرآن علي الإيمان بالله ، فذلك له دلالة خاصة يجب الوقوف عندها، لتدبرها ، والاعتبار بما تضمنته من معان .

---

[1] فى فقه التدين ـ د . عبدالمجيد النجار ـ ص 121 ـ بتصرف يسير .

وخذ هذا المثال من سورة يوسف : {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [يوسف108]. فهنا تقدم ذكر البصيرة علي ذكر العقيدة المتضمن في قوله تعالي : { وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .[1].. وهذا يعني أن البصيرة لازمة في الدعوة إلي الله لزوماً أصلياً لا غني عنه ، وأنه لا يكفي في الدعوة أن يكون الناس مؤمنين ، بل لا بد مع الإيمان من البصيرة ..

" والبصيرة منها جزء يكتسب بالتعليم ، أي التعرف علي السنن الربانية من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ، وتدبر التاريخ وأخذ العبرة منه .. والتعرف علي مخططات الأعداء .. ومنها جزء يكتسب بالخبرة من التجارب ، والنتائج التي تترتب علي كل تحرك .. ومنها جزء يكتسب بالتربية ، عن طريق المشاورة التي تتم بين القائد وأعوانه ، والتي يتم فيها تمحيص الآراء وبيان وجهات النظر "[2] من خلال حوار متفاعل بين عناصر ثلاثة : النص ، والعقل ، ونوازل الواقع وأحداثه .. حتى لا يتحول الفقه إلى تجريدات ظنية لا نصيب لها من الواقع تنطلق فى فراغ مما يمكن أن نطلق عليه وبحق " فقه الأوراق " ، ذلك أن الفقه يجب أن يتأثر بالواقع مثلما يؤثر فيه ، ويأخذ منه مثلما يعطيه ، ويتكيف معه مثلما يُكَّفه ويوجهه .. يلتفت إليه ولا يلتفت عنه ، و يُعمله ولا يهمله .. يبني عليه ولا يبني في فراغ ..

" وقد أشار الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى إلى هذا المعنى فيما سماه بالاجتهاد المتعلق بتحقيق المناط ، وقال فيه : إنه اجتهاد لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف ، وذلك عند قيام الساعة ... كما قال فيه : إن معناه أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي ، لكن يبقى النظر فى تعيين محله . "[3] .. ولا سبيل لمعرفة محله دون دراسة وعلم .. فلا بد من النزول إلى الواقع ، والتزود قبل هذا النزول بآليات فهم هذا الواقع من العلوم ؛ لتكون النتيجة درجة عالية من الفقه ..

ومن هنا .. يصبح فهم الواقع من متممات الاجتهاد ؛ لأنه عبر فهم الواقع يستطيع الفقيه أن يكون أكثر دقة في التشخيص والإفتاء بما يناسب ذلك .. بل لا يستطيع المفتي أن يتمكن من الفتوي إلا بنوعين من الفهم :

" أحدهما : فهم الواقع والفقه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتي يحيط به علماً ..

---

[1] مكانة التربية ـ محمد قطب ـ ص 60 .
[2] كيف ندعو الناس ـ محمد قطب ـ ـ ص 137 ، 138
[3] فى فقه التدين ـ د . عبدالمجيد النجار ـ ص 33 .

والنوع الثاني : فهم الواجب في الواقع ، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو علي لسان رسوله في هذا الواقع .

ثم يطبق أحدهما علي الآخر . " [1] .. ولا بد في هذا التطبيق من " اعتبار المآل .. والنظر فيما يمكن أن تؤول إليه الأفعال والتصرفات والتكاليف موضوع الاجتهاد ، والإفتاء والتوجيه ، وإدخال ذلك في الحسبان عند الحكم والفتوى .

وإذا كان تحقيق المناط يقتضي معرفة ما هو واقع ، فإن اعتبار المآل يقتضي معرفة ما هو متوقع ، أي ما يُنتظر أن يصير واقعاً . ومعرفة ما هو متوقع لا تأتي إلا من خلال المعرفة الصحيحة والدقيقة بما هو واقع.

ومن هنا فإن معرفة المآل جزء من معرفة الواقع وثمرة من ثمراتها ؛ لأن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل " [2]

إن الواقع كالنهر الجاري ، وكما أن الإنسان " لا يستحم في نهر مرتين " ، لأنه في كل مرة يستحم فيه ، يكون في نهر جديد ، أي ماء جديد غير الذي استحم به سابقاً ، فكذلك الواقع .. في كل يوم ، بل في كل لحظة ، واقع جديد ، يختلف كثيراً أو قليلاً عن سابقه . " [3].. و " الفقيه بصير بزمانه ، عالم به ، يدرس ويُطيل النظر في الأحداث والشخصيات والهزائم والانتصارات... الخ ، ليخرج برؤية تسدّ الكثير من الخَلَل في طريق البناء وتجديد الإيمان وتنمية العقل والارتقاء بالنفس ، وكل ما من شأنه أن يضيف لحياة المسلم ليصبح أكثر تفهمًا وتفاعلاً مع العصر الذي يحيا فيه .. وتأمل معي كيف أبصر الحبيب صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ زمانه ودرس الأحداث والشخصيات ، فقد كان في زمانه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كسرى وقيصر والنجاشي ، ولكنه أرشد أصحابه للهجرة إلى بلاد الأخير ؛ لأنه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كان عالمًا بصيرًا بكل شخصية ، وبمَن يصلح ليأوي إليه المسلمون ومَن لا يصلح .

وإنك لتقف طويلاً أمام سعة فقهه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كذلك في وضع البدائل ، فلا يكون لعنصر المفاجأة أي أثر في عرقلة الخطة الموضوعة .

فعند عودته من الطائف يطلب الجوار من الأخنس بن شريق ، إلا أنه كان في حِلف مع قريش ، وحفظُ العهود من شِيَمِ الرجال ، فلا يقف الحبيب حائرًا ، وإنما يستدعي البديل الثاني سهيل بن عمرو ، ولكنه

---

[1] إعلام الموقعين - إبن القيم - ج 1 ص 87 .
[2] كما يقول الشاطبي رحمه الله في الموافقات .
[3] النص ، الواقع ، المصلحة – د . أحمد الريسوني ، أ . محمد جمال الباروت – ص 64 - 69 بتصرف .

أخبر أن بني عامر لا تجير على بني عدي .. فكان البديل الثالث .. فتهيأ مطعم بن عدي وولده بالسلاح ليحمي الحبيب صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ وهو يصلي عند الركن " [1]

إن من الضروري مراعاة الإمكان ، أي تقدير ما يمكن وما لا يمكن ، وتقدير حدود الإمكان فيما هو ممكن ، ذلك أن التكليف الشرعي يدور مع القدرة والإمكان وجوداً وعدماً وقدراً . وإذا كان " الميسور لا يسقط بالمعسور " ، فإن " المعسور لا يُلحق بالميسور " . وتمييز ما هو مقدور مما ليس بمقدور ، وما هو معسور مما هو ميسور يحتاج إلى دراية بالواقع وأهله ؛ ولذلك فإن قيمة المفكر تكون بقدر استيعاب حقائق عصره ، والمفكر الحق هو الروح الصادقة لعصره و المعبرة عن نفسها بإنجازاته و بديهته ووجدانه..

إن " الفقه والاجتهاد الفقهي هو التأطير الشرعي للواقع ، واقع الأفراد والجماعات ، والدول والمؤسسات . فما يتتجه الفقه والفقهاء يسير متفاعلاً ومتلائماً مع ما يتتجه الواقع من نوازل وتطورات . فمَثل الحبل المضفور ، تكوّنه خصلتان تلتف إحداهما على الأخرى من أوله إلى آخره . فإذا التف الواقع بمشاكله ونوازله ومطالبه واستفساراته على الفقه ، والتف الفقه باجتهاداته وفتاويه وتوجهاته على الواقع ، كانت الحياة سيراً مفتولاً يعطيها متانة وتماسكاً ، فإذا سار الواقع بعيداً عن الفقه ، وسار الفقه بعيداً عن الواقع ، فقدت الضفيرة صفتها ، وفقدت بذلك قوتها ومتانتها .

......

إن الفقه إنما ينمو بنمو الواقع ، ويتطور بتطوره ، مثلما أنه ينكمش بانكماشه ويركد بركوده ، بل إن الواقع إذا كان جامداً راكداً لا يحتاج أصلاً إلى فقهاء مجتهدين ، بل يكفيه بعض من الكتب ، وبعض ممن يشرحون ما في الكتب لمن لا يُحسنون قراءتها .

أمّا الفقه الحق ، والاجتهاد الفقهي ، فإنما يُحتاج إليهما في حياة متحركة متطورة متجددة ، حياة تثير الإشكالات وتلد المستجدات وتضع الفقه والفقهاء أمام التحديات ، فإذا كان الفقيه يعيش واقعه ويتفقه فيه ولأجله ، بحيث يحيط أحدهما بالآخر ويلتف أحدهما على لآخر ، كانت الحياة – حينئذ – بخير ، وكانت تسير سيرها الطبيعي .. وفي مثل هذه الحياة يتحرك الفقه وينمو ويزدهر ؛ لأن الفقه بطبيعته علم واقعي عملي فلا ينمو حقاً ولا يزدهر حقاً إلا في واقع حي متحرك ومتجدد " [2]

---

[1] **في الهجرة .. وتبصر الزمان . غادة احمد - راجع إن شئت موقع www.islamtoday.net**
[2] **الاجتهاد – النص ، الواقع ، المصلحة – د. أحمد الريسوني ، أ . محمد جمال الباروت – ص 59 - 61 .**

إن الاقتصار علي الكتب يصرف الأبصار - غالباً - عما يحدث في الواقع ، فتفقد القدرة علي فهم مشكلاته فضلاً عن القدرة علي حلها .. ولقد " عرفت الكثير من الشباب ، وصاحبتهم واقتربت منهم ، فوجدتهم من أنقي الناس سريرة ، وأنصعهم طهراً ، وأصفاهم عقيدةً ، ورأيت منهم تشميراً إلي الخير ، وفراراً إلي الله تعالي، من خلال طريق عريض لاحب " [1]، لكنه الوعي بالواقع ينقصهم ، والبصيرة بمفرداته تغيب عنهم .. ؛ فيتجه الواحد منهم إلى الحديث عن نفسه ، يكشف مفاخرها السابقة ، وإنجازاتها الحالية، ومشروعاتها المستقبلية . وكلما تضخمت ذاته غطت الواقع ، فضاعت الرؤية ، وغاب عن الظروف التى يعيش فيها ، والإمكانات التى يملكها ، والتحديات التى يواجهها ؛ فلم يستطع التخطيط للمستقبل .. لأن المستقبل لا يعدو أن يكون تطويراً للواقع ؛ ولهذا قالوا : إذا لم تعرف أين تقف الآن ، فلن تعرف إلى أين أنت ذاهب ؟!

إن سيرنا في الحياة لا بد أن يكون في إطار من بصيرة بالواقع ، ووعي بمفرداته دون تجميل أو تزوير ، لأن الوعي بما حولنا من ظروف وأحداث ، وما عند أعدائنا من مكايد وتدبيرات هو السبيل الأصوب لكي تكون حركتنا في إطارها الاجتماعي الصحيح ، ويكون تخطيطنا أقرب إلي الإتقان ، ومن ثم تكون المبادأة غير المسبوقة والتوظيف الفوري للطاقات ، من خلال ..

• الإحكام والحكمة

في السبعينات من القرن الفائت يسّر الله لي مطالعة كتاب الأستاذ مالك بن نبي " الصراع الفكري في البلاد المستعمرة " .. ولأنه هزني بالفعل ، فقد أعدت قراءته أكثر من مرة .. وبعد أن استوعبت الفكرة ، بدأت صور الصراع تتوارد على ذهني ، سواء فيما أراه أو فيما أقرأه لما يجرى في الواقع .. ثم تبين لي أن الموضوع أشمل بكثير مما عرضه المؤلف ، وأن الظواهر والأحداث التى تمر بالعالم ليست كالفاكهة المعلبة المختومة بإحكام ، بل هي تؤثر تأثيراً فورياً – سلباً أو إيجاباً – فى كل المجتمعات .. وأنه لكي يكون الإنسان قادراً " علي استيعاب روح الزمان والمكان ، فإنه لا ينبغي أن يشغل نفسه بالأحداث الصغيرة الجارية إلا بالقدر الذي يؤثر علي فهمه لطبائع الأمور الكلية .. " [2] ؛ فيجمع عناصر القضية السياسية في عملية ذهنية واحدة ، ويرتّب تفاصيلها في سياق واحد .

---

[1] أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية - محمد أحمد الراشد - ج 1 ص 96 .
[2] مقدمات في البعث الحضاري - د. سيد دسوقي حسن - دار القلم - ص 130 .

إن الطريقة " الذريّة " في النظر إلي الأحداث الجارية في الواقع تجعل التفكير عاجزاً عن ضم الأحداث في سياق واحد طبقاً لتسلسلها ، فتتحطم وحدة المشكلات العضوية ، وتصبح السياسة عاجزة عن صياغة حكم صحيح علي ذلك الواقع ، لأن الحكم يفترض قاعدة يجب الرجوع إليها ، ومقياساً تقاس به الأمور! أي يفترض تركيب مجموعة أفكار وتنسيقها .. ولا يمكن الوصول إلي ذلك إلا إذا " نظرنا للواقعة من خلال شبكة علاقاتها المنطقية العضوية ، فرأيناها نتيجة للواقعة التي قبلها ، وعله للتي سوف تأتي بعدها ، وحينئذ يتحدد مركزها في الصراع الفكري . وتظهر لنظرنا أهميتها السياسية .. " [1]

إن " النزعة " الذريّة " هي قفزة البرغوث من تفصيل إلى تفصيل ، بحيث لا تسمح أن ترى في مجموعة من التفاصيل المعطاة وضعاً يبرز بالتحديد مشكلة مرحلة من مراحل التغيير .. وبهذه الطريقة سيظل التفصيل مستقلاً عن الموقف الموضوعي الذي نعيشه ، بل يصبح كالحبة التي تضاف إلى مسبحة أحلامنا!!

وكم أضاف أساتذة الصراع الفكري من حبات إلى مسبحة أحلامنا !!! " [2]

ولا شك أن السبب الرئيس للنزعة " الذريّة " هو البعد عن عرائس الحكمة التي دونها علماء الأمة في كتبهم ، والتي توصلوا إليها باتخاذهم القرآن أنيساً وجليساً على مر الأيام والأعوام نظراً وعملاً، وباستعانتهم على ذلك بالإطلاع والإحاطة بكتب السنة ومعانيها ، وبالنظر في آراء السلف المتقدمين والالتزام بما كان عليه النبي (ص) وأصحابه .. تلك الأصول التي تُربى الفرد على طريقة التفكير العضوية . أو الكلية . التي تجمع بين الوقائع في تسلسل وسياق واحد يمكنها من استنباط القانون العام . أو المقياس . الذي تقيس به الحوادث الجزئية .

فالإمام الشاطبي –رحمه الله– يقول :

" الأدلة المعتبرة هنا المستقرأة من جملة أدلة ظنية تضافرت على معنى واحد ، حتى أفادت فيه القطع ، فإن للاجتماع من القوة ما ليس للافتراق ، ولأجله أفاد التواتر القطع – وهذا نوع منه – ، فإذا حصل من استقراء أدلة المسألة مجموع يفيد العلم فهو الدليل المطلوب – وهو شبيه بالتواتر المعنوي – بل هو كالعلم بشجاعة عليّ . رضي الله عنه . ، وجود حاتم الطائي المستفاد من كثرة الوقائع المنقولة عنهما " [3]

---

[1] الصراع الفكري في البلاد المستعمرة - مالك بن نبي - ص 55 ، 56 .
[2] مشكلة الأفكار – مالك بن نبي - 128 بتصرف .
[3] الموافقات في أصول الشريعة - الإمام الشاطبي - ج 1 ص 13 - 15 .

فهو . رحمه الله . يعرض كيفية اقتناص القطع من جملة أدلة ظنية ، فلم يفتقر في الحكم بشجاعة عليّ . رضي الله عنه . إلى دليل خاص يقول بأن عليّ شجاع .. ولكن باستقراء حوادث كثيرة تتحدث عن مواقف شجاعة لعلي . رضي الله عنه . ... " فالعموم إذا ثبت فلا يلزم أن يثبت من جهة صيغة عموم فقط، بل له طريقة أخرى، وهي استقراء مواقع المعنى حتى يحصل منه في الذهن أمر كلي عام ، فيجري في الحكم مجرى العموم المستفاد من الصيغ " [1]

فالشاطبي -رحمه الله- يصف هنا طريق الوصول إلى الأمر الكلي العام .. إلى القاعدة.. إلى المقياس.. عن طريق تصفح جزئيات المعنى .. ومن وصل إلى القاعدة الكلية استطاع أن ينّزل على مقتضاها كل الجزئيات التي قد تخالف بظاهرها هذه القاعدة .

ولقد عالج ابن تيمية . رحمه الله . [2] مرض " الذريّة " في التفكير ؛ فروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا وكذا ؟ وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا ؟ فسمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فخرج فكأنما فقىء في وجهه حب الرمان ، فقال : " أبهذا أمرتم ؟ أو بهذا بعثتم ؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، إنما ضلت الأمم من قبلكم بمثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء ، انظروا الذي أمرتكم به فاعملوا ، والذي نهيتكم عنه فانتهوا "

يقول ابن تيمية . رحمه الله . : " وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه " .. فالجمع بين أطراف الأدلة وعدم النظر إليها نظرة جزئية ذرية هو الطريقة الصحيحة في النظر.. وكم من ساعات تمر بسبب نقاش بين طرفين من الناس لو كان عندهم وضوح في فهم المسألة المتنازع فيها وجمعوا أطرافها وجزئياتها فربما لم يكن للنقاش مبرر.

وما نقلناه عن عالمين من علماء الأمة ، وإن كان يعالج مرض الذريّة ، في جانبه النظري ، إلا أن العلم . كما يقول الشاطبي . إنما يراد لتقع الأعمال في الواقع على وِفْقه من غير تخلف ، سواء كانت الأعمال قلبية أو لسانية أو من أعمال الجوارح " [3]؛ فكل علم لا يفيد عملاً فليس في الشرع ما يدل على استحسانه " [4]

---

[1] **المصدر السابق - ج 3 ص 188 .**
[2] **راجع إن شئت كتاب " إقتضاء الصراط المستقيم "**
[3] **الموافقات - الشاطبي - ج 1 ص 99 .**
[4] **المصدر السابق - ج 1 ص 61 .**

ولذلك ، فلا بد من إحكام الفهم لهذا الواقع من خلال التأمل في معطيات أحداثه والربط بينها بشكل ينظر إلي تلك الأحداث علي أنها كائنات حية تؤدي دورها من خلال علاقات عضوية تربط بينها ..

إن مجرد الإحساس بالواقع وحده لا يحصل منه وعي ، بل الذي يحصل هو الحس فقط ، و مهما تعدد نوع الإحساس ، إنّما يحصل منه إحساس فقط ، ولا يحصل وعي مطلقاً ، بل لا بد من وجود خبرة سابقة عند الإنسان يفسر بواسطتها الواقع الذي أحس به حتى يحصل فكر..ومن ثم وعي بهذا الواقع !!

فإذا أعطينا كتاباً باللغة الألمانية . مثلاً . لإنسان يفتقد أية خبرة بهذه اللغة ، وجعلنا حسه يقع على الكتابة، بالرؤية ، واللمس ؛ فإنه لا يمكن أن يعرف كلمة واحدة ، وإن تكرر هذا الحس مليون مرة ، حتى نعطيه خبرة عن اللغة الألمانية ، فحينئذ يبدأ في التفكير ، ومن ثم يعي المعاني ..

وإذا أتينا بطفل ليس لديه أية خبرة ، ووضعنا أمامه قطعة ذهب ، وقطعة نحاس ، وحجراً ، ثم جعلنا جميع إحساساته تشترك في حس هذه الأشياء ، فإنه لا يمكنه أن يدركها ، مهما تكررت هذه الإحساسات وتنوعت. ولكن إذا أُعطي معلومات وخبرة عنها وأحسها ؛ فإنه يستعمل خبرته لإدراك ما نعرضه عليه.. وهذا الطفل لو كبرت سنه وبلغ عشرين سنة ، ولم يأخذ أية معلومات وخبرة ، فإنه يبقى كأول يوم ، يحس بالأشياء فقط ولا يدركها أو يعيها ؛ لأن الذي يجعله يدرك هو الخبرة السابقة مع الواقع الذي يحسه..

وإذا أتينا بطفل عمره خمس سنوات ، لم ير الأسد ولم يسمع به ، ولم ير الكلب ولم يسمع به، ولم ير الفيل ولم يسمع به ، وعرضنا عليه أسداً وكلباً وفيلاً ، أو عرضنا عليه صورة أسد وصورة كلب وصورة فيل ، ثم طلبنا منه أن يعرف أي واحد منها ، أو يعرف اسمه ، وما هو هذا الشيء ، فإنه لا يعرف شيئاً ، ولا يمكن أن توجد لديه أية عملية عقلية تجاه أي منها. ولو حفّظناه أسماءها بعيداً عنها دون أن تقترن بأي منها ، ثم عرضنا عليه هذه الأشياء ، وقلنا هذه أسماؤها ، أي الأسماء التي حفظتها هي أسماء هذه الأشياء، فإنه لا يمكن أن يعرف اسم أي منها إلا إذا أعطيناه اسم كل منها تجاه واقعه ، أو تجاه صورة الواقع ، وربطناه بها ، حتى حفظ الأسماء مربوطاً كل اسم منها بواقعه ، فإنه حينئذ يدرك كل شيء باسمه، أي يدرك ما هو هذا الشيء هل هو أسد أم فيل أم كلب ، ولا يخطئ.

فالموضوع إذن ليس متعلقاً بمجرد الحس بالواقع ، وإنّما هو متعلق بالمعلومات والخبرة السابقة عن هذا الواقع ، والتي هي الشرط الرئيس والأساس لوعي هذا الواقع ..

لقد وقفت طويلاً أمام قوله تعالي { حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } {الأحقاف 15} لأنني ألحظ أن ارتباط بلوغ الأشد و الاستواء بسن الأربعين له عدة دلالات ، و منها أن المرء يكون قد حصل علي رصيد مناسب من التجربة ، بل إنني ألمس في حياة الناس أن ما قبل الأربعين رصيد التجربة فيه أقوي من رصيد العطاء ، و ما بعد الأربعين سمة العطاء فيه أقوي من التجربة ألا و هي الخبرة ، حيث أن الأربعين مرحلة وسطية في عمر الإنسان ، و ما قبلها من العمل يعادل ما بعدها في الأعم الأغلب .

و مما يجري في سياق الآية ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بُعث علي الأربعين ، و الله . سبحانه . يقول عن يوسف (عليه السلام): " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{القصص 14} ، قال الحسن : بلغ أربعين سنة . [1] ..

وخلاصة الكلام : أن التجربة عامل مهم في حصول الحكمة و تحققها. " [2]

ولا شك أن " لكل منا ثروة هائلة من التجارب المختلفة ، ولكن أغلبها تذهب هباء لأنها غير منظمة.. إنها تشبه أن يكون لديك مخزن كبير مملوء حتى السقف بأشياء كثيرة ، وهكذا فإنك لا تستطيع رؤية أي شيء بداخله إلا بعض الأشياء قرب قمته ، وبضعة أشياء قرب الباب .. ولا يمكنك الاستفادة من كل الأشياء علي هذا النحو ، لأنه ليس منظماً علي النحو الذي يمكنك من العثور علي ما تحتاجه . [3] .. ومن ثم لا بد من تنظيمه وإحكامه للوصول إلي الحكمة ، والتي من تعريفها " رجل حكيم ، أي أحكمته التجارب " .. قال ابن القيم : و الحكمة ، حكمتان علمية ، و عملية .. فالعلمية : الاطلاع علي بواطن الأشياء و معرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها ، خلقاً و أمراً ، قدراً و شرعاً .. و العملية : وضع الشيء في موضعه..

و هي علي ثلاث درجات :

الدرجة الأولي: أن تعطي كل شيء حقه ، و لا تعديه حده ، و لا تعجله عن وقته ، و لا تؤخره عنه. " [4] وهذا الحكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً ، فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة

---

[1] راجع إن شئت " تفسير ابن كثير - ج 2 ص 473 . "
[2] الحكمة - د. ناصر بن سليمان العمر - ص 67 .
[3] كيف تغير ذاتك وتصبح الإنسان الذي تتمني - ستيف أندرياس - ص 163 .
[4] الحكمة - د. ناصر بن سليمان العمر - ص 25 .

البذر وسقي الأرض ، وتعدي الحد كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد ، وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل أوانه وكماله " [1]

ولا شك الوصول إلي الحكمة " يتطلب دراسة الواقع وترسم خطاه ، ومعرفة منابعه ، ونقاط تشكله ، وهذا يحتاج بالتالي خلفية عقلية منهجية ، و انقلاباً هائلاً في طبيعة العقل من أجل تحقيق هذا المستوي ؛ لأن الإنسان حين يحكم علي الأمور بناء علي انطباع شخصي مباشر ، يتعرض لأن يصدر أحكامه طبقاً لما يتلقاه عن هذا الواقع بطريق الإيحاء ، لا طبقاً لما في الواقع من حقيقة ظاهرة أو كامنة .. فيموّه عليه الأعداء بما يضره ، فيراهم قد أتوا بالورود ، بينما سيوفهم تحتها .. أو يظن أنهم مارّون فحسب ، في حين أنهم لسحقه يخططون ..!!

وهنا لا بد من لفت النظر إلى أمرين :

أحدهما المغالَطات التي تحصل في الحقائق .. والثاني : المغالَطات التي تصرف عن الوصول إلى الحقائق.

أمّا المغالَطات التي تحصل عن الحقائق، فإنها تحصل من جراء التشابه الذي يحصل بين الحقائق أو الأفكار فيُتخذ هذا التشابه أداة لطمس الحقائق ، أو يكون باستعمال حقيقة من الحقائق لطمس حقيقة أخرى ، أو يكون بالتشكيك في حقيقة من الحقائق، من أنها ليست حقيقة ، أو كانت حقيقة في ظرف وتغير هذا الظرف ، إلى غير ذلك من الأساليب .

فمثلاً .. فكرة أن الحرية موجودة عند أمريكا حقيقة ، و فكرة أن أمريكا إنّما يختار رؤساءها الرأسماليون حقيقة ، وهما فكرتان متشابهتان من حيث أن كلاً منهما يدل على واقع أمريكا ، ولكن اتُخذت حقيقة الحرية أداة لطمس حقيقة كون الرأسماليين هم الذين يختارون رؤساء أمريكا. فطُمست هذه الحقيقة ليحل محلها أكذوبة أن الذي ينجح رئيساً في أمريكا هو من له شعبية أكثر ..!!

وأمّا المغالطات التي تصرف عن الحقائق ، فإنها تحصل بإيجاد أعمال تصرف عن الحقائق ، أو إيجاد أفكار تصرف عن الحقائق .

---

[1] مدارج السالكين - ابن القيم - ج2 ص 469.

فمثلاً: كون الأمّة لا تنهض إلاّ بالفكر حقيقة ، ولكن لصرف المسلمين عن الفكر ، شُجعت الأعمال المادية من مظاهرات واضطرابات وثورات ؛ فطُمست حقيقة أن الأمّة لا تنهض إلاّ بالفكر ، وحلّ محلها أن الأمّة لا تنهض إلاّ بالثورة .

إن فقيه التغيير بعد أن يقرأ الواقع ، يبدأ في تحطيم كل الكوابح والكمامات والسلاسل والعقد التي يعيشها الإنسان المستعبَد ليحدث تغيير ما به ؛ ليصبح أرضاً طيبة خصبة قابلة لأن تنبت فيها الورود من جديد .. ويمتلك القدرة " علي التحرك وسط سائر الظروف ، بكل جزء من المعرفة يكتسبه ، ويطبقه في تحركه ، ويتفاعل به مع ما يستجد حوله تفاعلاً حياً يُصلْح الخطأ ويجعله مصدراً للخبرة ، وينَمي الكفاءة ويجعلها سبيلاً لابتكار الوسائل فينهض في يومه بما لم يستطع النهوض به في أمسه "[1] !! .. كل ذلك في إطار من الحكمة التي تساعده في الوصول إلى أهدافه ، وتخلصه من الخضوع في حركته لأخصائيين يشرفون عليها ، كما لو كانوا يمارسون لوناً من " لعبة الأمم المكيافيلية " ، وتخلصه قبل ذلك وبعده من الكساح العقلي ومن " الذَريّة " في التفكير .

لقد أصبح أعداؤنا اليوم على درجة من الخبث لا يستهان بها ، ولذا فإن الإفلات من مصائدهم ، وكشف مخططاتهم يستلزم البصيرة والوعي ؛ لإدراك المؤامرة التي يديرونها حتى لا تتعرض الأمة للمحاق الأندلسي من جديد ، بينما ترقص لذبحها في بلاهة وحماقة ، وذلك بسبب من سقوط وعيها بـ

• سبيل المجرمين

نحن ندرك جيداً نشاط المجرمين عندما يكون مرئياً واضحاً ، كأنه لعبة أطفال .. ولكنا لا ندرك مجال هذا النشاط ولا وسائله – بكل أسف – منذ اللحظة التي يصبح فيها دقيقاً .. كلعبة الشيطان ، لأنه في هذه الحالة يمارس العمل الصامت الذي يسمح له بقضم المجتمع في صمت وغموض إلى أن يسقط أشلاء ، ودون أن تسمع أذاننا شيئاً مما يجري ، ولا أن ترى أعيننا شيئاً من هذا العمل .. ولا ينهي عمله حتي يتآكل جسد المجتمع ، وتُدمر نوابضه ، وتختفي مفاصله ..!!

إن عمل المجرمين يتلاحق في كل يوم " في صورة دقيقة وخفية ، تلاحقاً لا يعود معه في مقدورنا أن ندرك منه شيئاً ، لأن الوسائل المستخدمة في قدر حبات الرمل .. لكن حبة رمل واحدة كافية أحياناً لإيقاف محرك ، إذا ما تسربت إلى أحد أجهزته . وبعبارة أخرى : قد تكفي لذعة إبرة في مكان مناسب

---

[1] **مجلة الرائد –العدد 129 ص 18 .**

ليحل الشلل بشبكة علاقات المجتمع.. كما يكفي "لا شيء" لشل الجهاز العصبي في كائن حي أحياناً"[1].. [2]

إن المجرمين يبذلون كل جهودهم ، ليحولوا بين الفكر والعمل ، حتى يبقى الأول غير مثمر والثاني أعمي ، وهم يصلون إلي هذا الهدف باتباع " طريقة تطبق في بعض الألعاب الإسبانية ؛ حيث يلوحون بقطعة قماش أحمر أمام ثور هائج في حلبة الصراع ، فيزداد هيجانه بذلك ، فبدلا من أن يهجم علي المصارع يستمر في الهجوم علي المنديل الأحمر الذي يلوح به حتى تنتهك قواه ...

وبنفس الطريقة يلوح هؤلاء في مناسبات معينة ، بشيء يثير غضب المستعبَدين ، ويغرقهم في حالة شبيهة بالحالة التنويمية التي يفقد الإنسان معها شعوره ويصبح عاجزاً عن إدراك موقفه ، وعن الحكم عليه حكماً صحيحاً ، فيوجه ضرباته وإمكانياته توجيهاً أعمي ، ويسرف من قواه دون أن يصيب بضربة صادقة المصارع الذي يلوح بالمنديل الأحمر ... ولا يصبح لديه فرصة يتدارك فيها أمره ، أو ينظر إلي مشكلاته بمنطق الفعالية " [3]

إن المجرمين لا يحاربون بالمدفع والدبابة إلا في فترات محدودة ، أمّا حربهم الدائمة فهي حرب الأسنة والأقلام .. حرب المنشآت البريئة في مراكز التعليم .. حرب الجمعيات التي ينشئونها وينفخون فيها ويساندونها ويمكنون لها في المراكز الحساسة في المجتمعات ... كل ذلك من خلال أموال أقلام المخابرات التي تشتري الصحف والأقلام ، وتشتري الهيئات والجماعات.. وهم يحاولون من خلال كل ذلك أن يجعلوا من الفرد خائناً لمجتمعه الذي يعيش فيه ، فإن لم يستطيعوا ذلك فإنهم يحاولون أن يحققوا خيانة المجتمع لذلك الفرد على يد بعض من يسيرون في ركبهم على مرأى العيون في صورة رجال مرفوعين على منابر الزعامة وكراسي الحكم ؛ ليقوموا بدورهم المرسوم في تحطيم أصحاب الأفكار عن طريق الإرهاب والتعذيب .

لقد كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عدل أعدؤه عن مواجهته جهرة إلى طرائق أخبث ، وإلى حبائل أمكر .. لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع تتزيَّا بزي الإسلام ، وتتمسح في العقيدة ، ولا تنكر الدين

---

[1] **أندهش أحياناً لأن رسالة بالبريد الالكتروني أرسلتها إلى صديق ، لم تصله .. أو أن رسائله لا تصلني ، فأجد أحد الطيبين يتطوع ليشرح لي أن الأمر عادي وأن سببه ثقل التحميل .. وأنني أغالي في التحوط ؟!!**

[2] **ميلاد مجتمع – مالك بن نبي - ص 84 بتصرف يسير .**

[3] **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة - مالك بن نبي - ص 29 - 31 .**

جملـة ، ثـم هـي تحـت هـذا السـتار الخـادع تنفـذ جميـع المشرـوعات التـي أشـارت بهـا مـؤتمرات التبشـير وبروتوكولات صهيون ، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل ..[1]

ولقد اقتضت أصول اللعبة أن " يحمل معول الهدم واحد منّا .. لأن خبرة الصيادين تعرف أن الفيلة لا يقودها إلى سجن الصياد الماكر ، إلا فيل عميل أتقن تدريبه ، ليتسلل بين القطيع ، فيألفه القطيع لأن جلده مثل جلدهم .. ويسمعون له ، لأن صوته يشبه صوتهم ، فينقل من حقد قلبه المأجور ، ما لقن من لفظ مسموم حتى يغرر بهم ويسوقهم إلى حظيرة الصائد ، الذي ينزع أنيابهم ليصنع منها مقابض لعصيه ، وكرات يلعب بها ، ويحيلها من شموس سيدة للغابة ، إلى مهرجة في السيرك ، مطية للأطفال العابثين!!"[2]

وهكذا .. ظهر في " اللعبة السياسية " عنصر جديد هو " الانقلابات العسكرية " عن طريق شرذمة من العسكريين الذين أُشربوا في قلوبهم ثقافة الغرب وتربوا على يديه ونشأوا في كنفه ورعايته ..!!

يقوم هؤلاء بـ " ثورة " لتخليص شعوبهم من الظلم إلى العدل ومن الاحتلال إلى الاستقلال. بزعمهم . فتتحقق معادلة الأعداء الشيطانية باستقلال سياسي شكلي ، وتغييرات اجتماعية محدودة ، مع تركيز السلطة في يد فرد مستبد .. يتحدي الأعداء في الظاهر ، بينما هو تحت هذا الستار الخداع ينفذ كل مخططاتهم . فيقوم بتخريب اقتصاديات بلاده ، لتبقي في حالة فقر وتخلف ، وبالتالي تبعية للذين كانوا يستعمرونها .. ثم يخرج على شعبه بمقولات مفادها " الرضا بالأمر الواقع " و" التعايش مع الأعداء "!!

ويا لها من خدعة خبيثة مجملها " إثارة النعرات القومية ، وتخريب الاقتصاد .. ثم الوصول إلى الأمر الواقع .. ثم طلب التعايش مع الذين رفضتهم الشعوب وطلبت الاستقلال عنهم في فترة من الفترات ".[3]

ولو أننا حللنا أكثرالحالات السياسية في واقعنا المعاصر " فسنخرج حتماً بنتيجة أن الذين قادوا الشعوب إلي الكوارث الكبري ، لم يكونوا من المحترفين العاديين الذين يسيرون في ركب الاستعمار علي مرأي العيون ، بل هم علي العكس من ذلك ، رجال مكرمون ، مرفوعون علي منابر الزعامة وكراسي

---

[1] **في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ج 2 ص 1022 .**
[2] **الغزو الفكري – محمد جلال كشك ـ ص 122 بتصرف يسير .**
[3] **راجع كتاب " لعبة الأمم " وكتاب " العالم العربي اليوم " لمايلز كوبلاند ومورو برجر.**

الحكم .. رجال وضعوا في حرم أوطانهم مواضع الأبطال " [1] .. ورفعت من أجلهم شعارات الاستغفال والإلهاء التي تُضخِّم وتُثَمِّنُ قشور إيجابياتهم ، في مقابل طاماتهم التي تُهلك العباد والبلاد ..

ولا شك أن غياب الوعي بسبيل المجرمين قد ساهم في زيادة الغفلة عما ينبغي الحديث عنه بحجة المحافظة على خيرٍ موجودٍ يُخشى عليه من الضياع أو من المصادرة ، فأصبحت الشعوب " تفهم حاضرها فهماً ضعيفاً ، لأن جوانب الماضي التي يمكن أن توضح الحاضر قد حُجبت عنها . وهذا الحجب تأثر بعملية منظمة من التعليم السيئ الذي اتسم بالتبني الشامل لقيم واتجاهات الاستبداد ، وهي عملية كانت مؤثرة جداً لدرجة إنكارها حق الشعوب في التوصل إلى الحقيقة ، وفي أن تكون جزءاً من تاريخها المكتوب .. " [2]

لقد حرص الاستبداد علي أن يُبقى حركة " المستعبَدين في نطاق السياسة العاطفية ، وأن يحول بينهم وبين بلوغ مرحلة السياسة المُقَعدة التي هي في الكثير من الأحوال .. " علم حقيقي " ؛ وذلك من خلال طريقة " دمل التصفية " ، حيث يجمع القوي المعادية له تحت سلطان العاطفة ، حتى لا تتجمع تحت قيادة " الفكرة المجردة " ، فتراه أحياناً يلوح بالمنديل الأحمر في مكان معين ليستدرج إليه القوات المكافحة ضده ، وتارة يسلط عليه أضواء المصابيح كي يلفت انتباه الجماهير عن مكان آخر تدور فيه المعركة." [3]..

ولأنه حريص دائماً ألا يجتمع المستعبَدون علي أساس " الفكرة والمبدأ " ؛ فإنه يقوم برصد الفكرة ، واستخدام كل مواهبه الشيطانية للحيلولة بينها وبين الوصول إلي جماهير المستعبَدين ..

فتارة .. يصوب ضرباته على اسم صاحب الفكرة وشخصه بحيث يصل إلى أن يصبح إسم صاحب الفكرة كافياً في النفور منها .. وتارة يستخدم طريقة " الهُتافات والشعارات " فيصوغ الفكرة في مجموعة من الشعارات والهتافات ليتحول الأفراد عن " مشقة " البناء إلى " سهولة " الشعارات والهتافات!! .. وتارة يستخدم طريقة " التشويش " عن طريق إضافة مجموعة من الأفكار الثانوية إلى الفكرة الأصلية بحيث تُضعف هذه الأفكار الثانوية سلطان الفكرة الأصلية على العقول .. وتارة أخرى يستخدم أسلوب إثارة الشبهات.. فإذا خرجت الفكرة في صورة كتاب يقدم أيديولوجية واضحة للصراع ، أثار حوله شبهات كثيرة لا يسهل إزالتها .. وفي أحيان أخرى يستخدم طريقة " الاستبدال " فيطلق فكرة جديدة تكون أقل ضرراً على مصالحه من الفكرة الأصلية .

---

[1] **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص 102 .**
[2] **تربية الحرية – الأخلاق ، الديمقراطية ، الشجاعة المدنية – باولو فريري ـ ص 45 بتصرف يسير .**
[3] **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص 110 ، 11 يتصرف يسير**

وهكذا يبقى الصراع الذي إن اكتشفنا بعض تفاصيله ، فإن بقية هذه التفاصيل تبقى في الظلام ، ويصعب وصفها كما يصعب وصف بيت العنكبوت ، وخاصة إذا كانت خيوطه تأتي من بعيد ولا يحيط بها بوضوح إلا من وفقه الله . عز وجل . وأضاء بصيرته ، فاستقام علي أمر الله له : {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ }الأنعام55 ، وقوله : {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً }النساء115 ؛ " فالله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة , وسبيل المجرمين مفصّلة , وعاقبة هؤلاء مفصّلة , وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء ، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء , والأسباب التي وفق بها هؤلاء , والأسباب التي خذل بها هؤلاء , وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما , وبيّنهما غاية البيان , حتى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام .

فالعالمون بالله وكتاب ودينه يعرفون سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية , وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فتستبين لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده , والطريق الموصل إلى الهلكة . فهم أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم , وهم الأدلاء الهداة , وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم الى يوم القيامة ؛ فانهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة الى الهلاك وعرفوها مفصّلة , ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات الى سبيل الهدى , وصراط الله المستقيم , فخرجوا من الظلمة الشديدة إلي النور التام , ومن الشرك إلي التوحيد , ومن الجهل إلي العلم , ومن الغي إلي الرشاد , ومن الظلم إلي العدل , ومن الحيرة والعمي إلي الهدى والبصائر ...

وأما من جاء من بعد الصحابة , فمنهم من نشأ في الاسلام غير عالم تفصيل ضده , فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين , فان اللبس انما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر بن الخطاب : " إنما تنتقض عرى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الاسلام من لا يعرف الجاهلية ".. فمن لم يعرف سبيل المجرمين، ولم تستبن له , أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل , أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين , ودعا إليها .. " [1]

---

[1] الفوائد – إبن القيم – ص 117 بتصرف يسير .

إن سقوط الوعي بسبيل المجرمين لا يشكل خطراً على الأفراد فحسب ، وإنّما يشكل خطراً على الأمة بأسرها، ومن هنا لا بد من العناية بهذا اللون من الوعي لدى الأمة .. لأنه إذا لم يصبح وعياً لدى الأمة ، وإذا لم يتحول التفكير الفردي إلى تفكير جماعي ، ولم يصبح تفكير الأفراد تفكير أمّة لا تفكير أفراد ، فإنه لا قيمة لهذا التفكير ، ولا قيمة لهؤلاء الأفراد . لذلك يجب تثقيف الأمّة التثقيف الواقعي ، و تدريب أفرادها على الطريقة الصحيحة لرصد ومتابعة أحداث هذا الواقع ..

إن أمهات المصائب التي تقع علي الأمة ، ليست من صنع المجرمين وحدهم ، وإنما هي أيضاً من جهل أفرادها المطبق بسبيل أولئك المجرمين .. ذلك الجهل الذي يوقع الأمة والأفراد في كثير من مصائدهم مثل :

الاستثمار السياسي للتجمعات العقيدية :

وهي من أخطر المصائد السياسية التى يتم للمستبد من خلالها تحقيق أهداف عدة وليس هدفاً واحداً.. حيث تقوم شرذمة من المجرمين بإثارة المستعبَدين عبر الضغط علي نقاط ضعفهم وإثارتهم ليخرجوا عن توازنهم ، إلي الصدام المتعجل مع المجرمين ، والتورط في اغتيال هيكل حكم كرتوني .. وعلى إثر ذلك يقوم هؤلاء المجرمون بضرب المستعبَدين ضرباً مؤلماً ، أو يظهرونهم في صورة السفيه الذي يجب أن يحجر عليه ..!!

وهذا يفرض علي أصحاب البصيرة " عندما يبدو العدو وكأنه يقترف خطأً كبيراً ، أن يفترضوا أن هذا الخطأ مصطنع و زائف !! ذلك أن هذا الخطأ كثيراً ما يكون مجرد خدعة ليس إلا ، إذا لا يُعقل أن يفتقر العدو إلى الحذر والحيطة على هذا النحو .!! " [1] وإنما هذا الأمر للإيقاع بالمستعبَدين في مصيدة أخري هي ..

العمل من خلال خطة العدو :

و هو مبدأ حركي فاسد ، وبخاصة فى ظل نظام المخابرات العالمي .. الذى يجعل من هذا المبدأ وسيلة لتوظيف التجمع الإسلامي لمصلحة الطغاة .. وهذا المبدأ فى حقيقته يتنافى مع المبدأ القرآني " ودوا لو تدهن فيدهنون " .. لأنه حينما تتم المداهنة يرتفع أمن الله تبارك وتعالى : " واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما جاءك من الحق " فحينما تتم الفتنة عن بعض الحق يرتفع أمن الله عن المسلم .

---

[1] مطارحات مكيافيللي – نيقولو مكيافيللي - ص 760 ، 761 بتصرف .

لقد اتخذ الكثيرون " العمل من خلال خطة العدو " شعاراُ ومبدأً .. وظنوا أن الحرية هدية تعطى ، أو غنيمة تغتصب ، فرأينا حروز الدراويش التي نبذوا صناديقها من قبل ترجع إليهم مرة أخري باسم أوراق الانتخابات ، بل ويظنون أنها تفعل المعجزات من خلال صناديقها ؛ فيبدأون في التحدث مع الطاغية من خلال ..

لغة المصالح المشتركة :

وهي حسابات للمصالح المشتركة بين الطاغية والمستعبَدين ، وهي لغة احتواها كتاب الأمير لميكافيللى ، يتعامل بها الساسة بين الدول .. و تجربة الطغاة فى ممارسة تلك اللغة أعمق ، وحساباتهم لهذه الأمور أدق ، ومعلوماتهم وأجهزتهم لتحليل هذه المعلومات أشد دقة ..

إن الدبلوماسية " سلاح القوي يستخدمه ليخدع به المستضعفين ، وليس سلاح المستضعف يخدع به القوي ، وحتي إذا واتاه الحظ مرة فأفلت من حصار القوي المتجبر ، فسرعان ما يلتف هذا بقبضته ليستعيد ما أفلت منه في غفلة منه .. وكلاب الصيد ذات حاسة شم قوية ، لا تكتفي بشم الثوب ، إنما تشم ما بداخله ! " [1].. و قلب الطاغية لا يعرف الحب أو الصداقة ..!! لأن الصداقة إنما تقوم على المساواة .. والحب إنما يقوم على العطاء ..

إن الطاغية لا يتبادل مع غيره إلا الحذر ، فلا يستطيع هو الاطمئنان إلى من حوله ، وكذلك المقربون منه لا بطمئنون إليه أبداً .. ولسان حال الجميع هو ما قاله الثعلب لملك الغابة الذى اصطنع المرض ، فقال له الثعلب : " كدت أزورك طواعية فى عرينك لولا أني أرى وحوشاً كثيرة تتجه آثارها قدماً إليك ، وما أرى أثراً يعود " [2]

إن الطاغية يتربص بالجميع ، فإن فشل في كل ما سبق من أساليب ؛ وجدناه يمارس ..

إغتصاب الكفاح وسرقة النصر :

ولعل قصة السامري تعد نموذجاً سياسياً خبيثاً لهذا الأسلوب في سرقة النصر وإهدار الزعامة ، فقد رأينا هذا السامري " مخفياً عن الأحداث الجليلة والمواقف الخطيرة ، ولم يكن له ذكر في مهمة الخروج وقضية النجاة .. مختفياً يترقب من بعيد فرصته السياسية بعد زوال الخطر .. فلما ذهب موسى للقاء ربه .. وغابت القيادة ، وجاءت الفرصة ؛ ظهر السامري .. { وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى{83} قَالَ هُمْ

---

[1] مكانة التربية ـ محمد قطب ـ ص 73 .
[2] راجع إن شئت " العبودية المختارة ـ أتيين دى لابواسييه "

أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى{84} قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ{85}.. ظهر محاولاً نهب القضية ، واغتصاب الكفاح الإسلامي الشاق : " فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {88} } [1]

إن السامري نظرية ثابتة في واقع الصراع الإسلامي مع أعدائه ، وفي كل محاولة كفاح من أجل الحرية سيكون هناك سامري جديد .. يتلهف إلى لحظة يكون فيها هو الزعيم والقائد بعد جهاد شاق وتضحيات هائلة وبذل ضخم من الأحرار ..

هذه بعض أمثلة للأخطاء التي تقع بسبب من الجهل بسبيل المجرمين .. وهي أخطاء يمكن تداركها " في الحدود المعقولة إذا نحن جعلنا خطتنا تدارك الخطر قبل وقوعه ، ولم ننتظر حتى تقع الواقعة ثم نأخذ بعد ذلك في علاجها علاجاً مرتجلاً لا يفيد . " [2]وأدركنا أن " نصف المعركة يمكن أن نربحها سلفاً عندما تتوضح المعركة ، وتكشف هوية الجانبين : {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}الأنعام55.

إنه لا تتحرر الطاقات تماماً ، وتتوفر النفوس لدخول الصراع إلا عندما يعرف الخصم خصمه ، { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ }الأنفال42، لأن دخول الإنسان أي صراع علي قناعته الكاملة بصدق صراعه يزيد من طاقته ، و يصعد إمكانياته ، ويعطيه قابلية الاستمرار. "[3].. بل إننا لا نجاوز الحقيقة والواقع حين نؤكد أن افتقار الوضوح فيما يتعلق بالمجرمين ، وافتقار الاهتمام بمعرفة سبيلهم ؛ يجعلنا متواطئين مع قوى الاستبداد الشرسة ، ومع حالة الفوضى التي يستثمرونها ..!!

إن سقوط الوعي بسبيل المجرمين ، يصور للمستعبَدين " فقه الواقع " وكأنه الراية الحمراء التي يجب أن تثور أنفسهم لرؤيتها ؛ فينطلقون لمناطحتها ، بينما تلك الراية تحمل الكساء لهم والستر .. ذلك أن من يحمل رسالة التحرير والتغيير ، لا بد له من معاناة التقلب بين أصناف البشر ، وكشف الغطاء عما في خبايا السياسة استتر .. ليكتسب " البصيرة والوعي " .. ويتعامل مع أحداث واقعه من خلال " الإحكام والحكمة " .. ليستبين " سبيل المجرمين " .. ثم يضع لنفسه من خلال كل ذلك برنامجاً اجتماعياً للتطور، وغرضاً مقصوداً للتقدم .. يأخذ الحاضر من الماضي ، ويقيس المستقبل علي الحاضر .. يخطو بحذر ، ويتقدم ليصوغ بهدوء ..

---

[1] **عندما ترعى الذئاب الغنم – رفاعي سرور ـ ص 66 ، 67 بتصرف يسير .**
[2] **سيد قطب ـ المجتمع المصري جذوره وآفاقه ـ إعداد وتقديم : ألان روسيون ـ ص 256 .**
[3] **مستفاد من كتاب " في النقد الذاتي ـ د . خالص جلبي "**

• النظرية السياسية

تقوم النظرية السياسية علي تتبع جميع الوقائع والحوادث التي تقع في العالم مع مراعاة اختلاف تلك الأخبار من حيث الأهمية ، ومن حيث الصدفة والقصد في الواقعة والحادثة أو في سوْق الخبر عنها ؛ فيُعرف مصدر الخبر ، وموقع وقوع الواقعة والحادثة ، وزمانها ، والوضع الذي حصلت فيه ، وغير ذلك من الأمور التي يتناولها التمحيص .. ثم ربط الخبر بغيره من الأخبار للفهم والإدراك ، لا لمجرد المعرفة..

وهكذا .. " كل حركة تتطلب تعقيباً علي نتيجتها ، وتصحيحاً تابعاً لها ، ولقد لخص بعض الساسة هذه الاعتبارات بقوله " إن سياستنا لا تخطئ لأنها علم " [1]. فالسياسة علم له قوانينه التي يجب أن يتم بموجبها تفسير الأحداث ، ومقاييسه الخاصة التي يتم في إطارها تحليل وتقييم تلك الأحداث ..

و" كما أن هناك مقاييس لقوى الزلازل ، وأخرى لدرجات الحرارة والرطوبة والتلوث مثلاً ، فإن المهتمين بأمر الإسلام يرصدون ما يمس حقيقة رسالته ومسار دعوته وشئون أمته ، وعوامل المد والجذر، واليقظة والغفلة ، ثم يقدمون حساباً مضبوطاً لما رصدوه .. وهذا الحساب شعاع على الطريق ، وبيان لمن تتشابه عليهم الأمور " [2] فيفسرون تصريحات الساسة على أنَّها إعلانٌ حقيقيٌّ عن رغبة السياسي . بينما تلك التصريحات لا تعدو أن تكون جزءاً من المناورة التي يكون أول قواعدها أن يقول السياسي شيئاً ويعني به شيئاً آخر.. فقد يعطي مسؤول تصريحاً فيُفهم منه شيء ، ثم يعطي نفس التصريح أو تصريحاً آخر فيُفهم منه شيء آخر قد يكون مخالفاً له بل قد يكون مناقضاً له .. ويعطي مسؤول آخر تصريحاً عن أمر حقيقي ، أي تصريحاً صادقاً ، فيُفهم منه أنه تصريح كاذب يراد منه التضليل ، وقد يعطي تصريحاً كاذباً فيُفهم منه أنه تصريح صادق وأن المقصود منه هو ما عناه والكذب فيه هو أنه أعطي للإخفاء بالكذب .

وهكذا، فالظروف والملابسات هي التي تلقي الضوء على التصريح فتكشف ما يراد منه ، ولذلك فإن التفكير الواقعي الواعي في مثل تلك الأمور لا يكون قريباً من الصواب إلاّ إذا جُعلت الظروف جزءاً لا يتجزأ من النص أو العمل ..

---

[1] الصراع الفكري في البلاد المستعمرة - مالك بن نبي - ص 24 - بتصرف يسير .
[2] الحق المر - محمد الغزالي - ج 1 ص 3 .

ولأن " السياسة الإسلامية : هي حكمة " المجتمع " المنشئة لـ " دولة " الفكرة ، المقيمة لـ " حضارة " الحق ؛

فإن نظرية السياسية الإسلامية تتحدد بعناصر الحكمة الأربعة " الواقع ، الحق ، الإنسان ، الغاية ".. فتتم الممارسة السياسية الإسلامية من خلال :

التقييم السياسي للواقع : وهو الذي يختلف عن التحديد الفقهي المباشر في الحكم على هذا الواقع..

مثل : اختيار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الحبشة لتكون موضعاً للهجرة الأولى قائلاً : " فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد " رغم مساواته في الكفر مع غيره .

التصور الاجتماعي : حيث يمكن الاستفادة بطبيعة أي واقع ، مثل الاستفادة من تقاليد الجوار ، كما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مكة في جوار أحد المشركين [1].. وكما أقر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ اجتماع العرب قبل الإسلام على ألا يظلم بينهم أحد ؛ وهو المعروف بحلف الفضول الذي قال فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: " لو دعيت إليه لأجبت " أخرجه أحمد

الموقع الجغرافي: ويدخل ضمن الاستفادة بالواقع والاستفادة بكل عناصر هذا الواقع حتى جغرافية الواقع .. ولقد كان موقع غفار في طريق تجارة قريش مانعاً لقريش من قتل أبي ذر .. يقول أبو ذر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعد إسلامه : والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال : يا معشر قريش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا لهذا الصبي فقاموا ، فضُربت لأموت فأدركني العباس فأكب عليّ ، ثم أقبل عليهم فقال : ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ومتجركم وممركم على غفار ؛ فأقلعوا عني . فلما أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا : قوموا لهذا الصبي فصنع بي مثل ما صُنع بالأمس وأدركني العباس فأكب عليّ، وقال مثل مقاله بالأمس ..

وكان موقع ثمامة بن آثال من أهل اليمامة وموقع اليمامة من مكة مانعاً لقريش من قتله ، وتقول السيرة: فلما أسلم ثمامة بن آثال ، خرج إلى مكة معتمراً حتى إذا كان ببطن مكة قال : فكأني أول من دخل مكة ، أخذته قريش وقالوا : لقد اختبأت علينا ، وأرادوا قتله ، فقال قائل منهم : دعوه ؛ فإنكم محتاجون إلى

---

[1] هذا المشرك هو المطعم بن عدي ، والقصة بتمامها مذكورة في السيرة للشيخ . محمد بن عبد الوهاب ص 83 ، 84 .

الطعام من اليمامة فتركوه ، فقال لهم : والله لا أرجع إلى دينكم ولا أرفق بكم فأترك الميرة تأتيكم من اليمامة ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ .

التصور التاريخي : و الاستفادة من تجارب التاريخ من أهم مقتضيات التصور السياسي للواقع ، والممارسة السياسية إنما تنطلق من مجموع التجارب على المستوى التاريخي للأمة . " [1].. ذلك أنه داخل الضباب يكون من العسير علي الإنسان أن يشُقَّ له طريقاً إلي الحاضر إلا من خلال خبرة الماضي .

وهكذا هي السياسية الإسلامية تفكّر في " المستقبل " بنفس الدرجة التي تفكر بها في " الماضي " ، وهي في ذات الوقت تجعل معطيات " الحاضر " أمام أنظارها .. لا تجعلها أمام أنظارها لتخضع لها ، بل لتخضعها لتصوراتها ، ومنهجها وأحكامها ، فتستبقي منها ما هو ضروري ، وتجتث ما هو طفيلي و مفسد.. ثم تصوغ نظريتها السياسية في إطار من تعاليم تنبّه العقول ، و تنشر أشعتها على مساحات رحبة من الحياة .. تتوخي الإيجاز فى العرض ، حتى لا يفقد القارىء الفكرة فى زحمة التفاصيل .. ثم تدعو الآخرين لمزيد من التحليل والشرح ، والسير في دروب البحث ، حتى يتكون من كل ذلك ما نحن أحوج ما نكون إليه من " فقه الواقع " ..

***

[1] **التصور السياسي للحركة الإسلامية – رفاعي سرور - ص 11 – 14 بتصرف يسير .**

الفصل الثاني

اغتيال العقول

قطعت وسائل الإعلام آماداً واسعة في اجتذاب النفوس وصياغة الأفكار ، وسط ميدان تكثر فيه ألاعيب السحرة ، وتغيب عنه عصا موسي .. يرتدي فيه مقدمو البرامج ملابس السحرة فيدمدمون ويسجعون و يحركون بيضة الإعلام المليئة ببقع تقديس الإستبداد الفاسدة التي تمنع الإخصاب الفكري ، وتقتل الإبداع قبل أن يولد .. وهم يتوسلون إلي ذلك بالصورة الساخرة التي هي أنكي من الكلمة الصريحة ، والتعليق اللاذع الذي هو أسرع من طعنة نافذة ، والمقال الذي يستغرق ربع عمود ليكون أجدى من كتاب مسهب ، ووضع الخبر في مكان ليزداد خطره عن مكان آخر ، وإبراز بعض الإحصاءات الميدانية لتحل محل حَبْك الأدلة النظرية .. كل ذلك من خلال واقع إعلامي فاسد يتناقض مع كل مبادىء الحرية ، وتسقط فيه وسائل الإعلام من فوق صهوة النزاهة ، لتتحول إلى وسائل بيد الطاغية تحقق مصالحه وتوصل إلي أهدافه .

لقد انحصرت اهتمامات العبيد وطموحاتهم فى التماعة القطع الزجاجية المصفوفة فى بيوتهم " الشاشات " ؛ وأوصلهم الافتتان بنقاوة الصور وسرعتها وزهوها لدرجة الأسر لسلطانها الذي يسلب العقل ميزانه ، ويفقده المقاييس التي تهديه سبيل الرشاد من خلال نعومة الحيلة الإعلامية في إدارة الإنسان .. وما يدعم هذه النعومة من خيوط الشبكة العنكبوتية التي توقع العبيد في أسر " الفأرة " التي يمسكون بها ، لا ليحصلوا على المعرفة .. وإنما ليقعوا فى أسر الشهوات .. والتى أَصبح تعبيد البشر من خلالها فناً كاملاً ، وعلماً وممارسة !!

لقد أمطرت سماء الإعلام المنظم الشرس الأرض بمعلومات خاطئة ، وأفكار أعمت الأبصار ، وأشغلت العقول بما لا ينفع ؛ ففقدت القدرة علي ربط الأفكار ربطاً صحيحاً ، ثم قام الإعلام باحتلال متدرج لمساحات صغيرة من العقل البشري ، ليصيبه بتوعك ثقافي عميق يؤذن ببدء علة لا شفاء منها ؛ حيث يجد الإنسان نفسه مستلباً لأفكار خاطئة لا يلبث أياماً بعد تبين خطئها ، حتى يجادل فيها قد تبين له من الحق .!!

وكلما تراجعت المؤسسات التعليمية ، والعائلية ، عن ممارسة سلطانها في تكوين الأفراد ومعارفهم وثقافاتهم وقيمهم ؛ تقدم الإعلام ليملأ هذا الفراغ ، وليصوغ حياة الإنسان وعالمه ومشاعره وأحاسيسه، بل و عقله وأفكاره .. وليمارس ما يمكن أن نطلق عليه ..

• السلطان العاري

لا يستطيع الطاغية البقاء لفترات طويلة إلا إذا قام بعمليات تزييف لوعي المستعبَدين ، وإعادة تشكيل هذا الوعي ليقبل منظومة الاستبداد دون أن يحتاج إلي الإفراط في استخدام القمع الأمني الذي . ربما . يكلفه ثمناً سياسياً أو اجتماعياً كبيراً .. ومن ثم تُشكل أجهزة الإعلام الجناح الآخر لبقاء الطاغية ، وبخاصة في المجتمعات التي لا تملك عقلية نقدية تزن بها الأمور ؛ فيقوم الإعلام الموجه بدور كبير في تسهيل عمليات الإيحاء والاستلاب والاستهواء لأفراد تلك المجتمعات " وكأن الإعلام هنا يقوم بالدور الذي قام به من قبل سحرة فرعون ، فهم يسحرون أعين الناس ، ويزيفون وعيهم ، ويحتلون إدراكهم ، ويوجهونه لخدمة مصالح الطاغية الذي يستغل أدواته المؤثرة في صياغة الرأي العام وصناعته ، والتأثير في خيارات الناخب وتوجهاته من خلال الإلحاح والتزييف ، وتسليط الأضواء علي أشياء بعينها ، وإطفاء الأضواء في مناطق ومساحات أخري بهدف خلق الصورة المطلوبة لتزييف الوعي وتوجيه الإدارة .

ولا ينجو من هذا التأثير إلا قلة من الذين يحتفظون بقدرتهم علي الرؤية من خارج إطار القطيع ، ولديهم القدرة علي الاحتفاظ بإدراكهم دون تلوث أو تشويه أو تزييف ، ولديهم القدرة علي التفكير النقدي [1]وتنبيه الجماهير الساذجة المخدوعة . ولهذا يتعرض هؤلاء لمصاعب كثيرة خاصة في النظم الاستبدادية فتلفق لهم القضايا ويزج بهم في السجون ويستبعدون من مواقع التأثير ز " [2]

و " وفقاً لهذه الرؤية لدور الإعلام ، فإن دوره يقتصر علي بث وجهة نظر المسئولين . وبما أن هذا هو الوضع ، فإن أصحاب السلطة أحرار في فعل ما يرضيهم ، وسوف يتم إخبار الشعب ما يعتقد ذوو النفوذ أنه الصواب ، أو الخطأ ، الأمر الجيد أو السيئ، دون أي تمحيص عقلاني ، وبتجاهل كل الآراء الأخرى باعتبار أنها غير ذات صلة. " [3]

---

[1] **تكشف الأنظمة الاستبدادية بسرعة فائقة الأغبياء وغير المؤهلين والخائفين ؛ فتساندهم وتشجعهم ..**

[2] **علم النفس السياسي ـ د . محمد المهدي ـ ص 131 – 133 بتصرف يسير .**

[3] **حراس السلطة ـ أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية ـ دافيد إدواردز، دافيد كروموبل ـ ص 87 ، 88 بتصرف يسير .**

وهكذا يمارس الإعلام في مجتمع العبيد السيطرة الكلية على القناعات ، ويؤدي بالجموع إلى الإنقياد غير الواعي لرسائل المصدر الإعلامي [1] من خلال حرب عقلية تمارسها المؤسسات الثقافية التي ينفق عليها المبالغ الطائلة ؛ لإنتاج طرق التفكير والنظر التي تؤسس للإستبداد ، وإقصاء وجهات النظر وصور الخطاب المخالفة ، للوصول إلي طمس الحقائق واختلاق البدائل ، وتزيينها في أعين الناس الذين يفقدهم الفقر الزاحف عليهم القدرة علي الرؤية ، فضلاً عن الوعي النقدي !!

ويقف المرء عاجزاً عن الاستيعاب عندما يراقب حالة الذهول والاستلاب التي يعاني منها الأطفال والكبار أمام شاشات التلفاز .. ويعجب لتعاظم " دور الإعلام إلى درجة باتت فيها الشاشة فى وظائفها المرئية المسموعة ، واللامتناهية قادرة على نقل الأفكار ، وترسيخها ، لتجعل من مسألة عابرة ، قاعدة ثابتة ، ومن نجم رياضي أسطورة تتخطى قوتها الأفكار والعقول ، ومن سياسي سارق ، مثالاً فى الأخلاق ، ومن بغيّ محترفة ، عالماً من المثل والطهارة . " [2] ؛ فنجد الجميع يتحدثون عن الصغار على أنهم هم الكبار الأبطال ، و نجد الأبطال الحقيقيين قد تحولوا بفعل التشويه الماكر إلى خائنين .. كل ذلك من خلال " لغة التلفاز .. تلك اللغة التي تختزل في اللحظة ذاتها كلاً من الماضي والحاضر ، موحية بأن ما لم يحدث بعد قد فات ومرَّ بالفعل . أضف إلى ذلك قدرتها على توليد تنويع في القضايا التي تتناولها في نشرات الأخبار دون السماح بالحد الأدنى من الوقت اللازم للتأمل في هذه المصفوفة السريعة الموضوعات . فمن أخبار مسابقة " ملكات الجمال .. " ، إلى زلزال هناك .. ومن فضيحة بنك بسبب رجال البنك الذين لا ضمير لهم ، لننتقل بسرعة إلى صدام قطار في مكان ما من الأرض .. ليذوب الوقت، ويصبح الأمس هو اليوم ، ونتخيل أن الغد جاء بالفعل ..!! " [3]

لقد أصبح " الإعلام المسموع ، والإعلام المرئي هما أكثر المسالك قوة في التأثير علي الرأي العام والتوجه لمختلف عناصره وفئاته .. الأول لأنه يصل إلي جميع الفئات ويدخل جميع وحدات المجتمع السياسي ، والثاني لأنه أكثر قوة وفاعلية في إحداث التغيير " [4] ، واستطاعت تلك الوسائل المسموعة والمرئية أن تقتل الوعي النقدي في المشاهد ؛ ليصبح في حالة تلقي سلبي لكل ما يراه علي الشاشة أو معظمه .. ومن ثم تعوّد علي ألا يتعدي دوره المشاهدة .. فهو يري كل يوم في نشرات الأخبار من يقتلون أو يدمرون أو يزورون ، وهو لا يبرح مكانه أمام الشاشة وفي غرفة نومه ؛ فتتكون لديه عادة الاكتفاء

---

[1] **خذ مثالاً على ذلك تسليم أكثر الناس بمصداقية أخبار وتقارير هيئة الإذاعة البريطانية ، حتى أصبح ما تقوله تلك الإذاعة هو الصحيح مطلقاً دون غيره من الأخبار ؟!!!**

[2] **الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 352 ، 353 .**

[3] **تربية الحرية – الأخلاق ، الديمقراطية ، الشجاعة المدنية – باولو فريري ـ ص 180 بتصرف يسير .**

[4] **مقدمة في نظرية الرأي العام ـ د . حامد عبد الله ربيع ـ ص 247 .**

بالمشاهدة ، وفي أقصي تقدير التحسر علي ما يحدث والدعاء علي من يفعلون والغضب ممن يسكتون .. وفقط ..!!

وهكذا .. صوت .. صورة .. عبارة .. أسلوب .. عناصر إعلامية أخرى .. الخبر الصادق بجانب مائة كذبة .. الكل في خدمة الإقناع بلا مضمون .. و " محاولة الظهور بالشكل المنطقي .. كما حاول أبو جهل أن يبدو في غزوة بدر حين قال : " اللّهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة "

.. أو محاولة الظهور بمظهر الإنسانية .. كما قال عقبة بن معيط في الإسلام : " فرق الناس ، وخرّب الديار ، وجعل الولد يقتل والده "

.. أو محاولة أن يكون ما يقال متناسباً مع العقلية البشرية .. ومؤتمر دار الندوة الذي حاول الاتفاق على تعريف القرآن دليل على هذا التناسب .." نقول كاهن .. ليس بزمزمة الكهان .. نقول مجنون .. ليس بخننق الجنون .. نقول شاعر .. ليس بالشعر ولا سجعه .. ثم اتفقوا على أن يقولوا : سحر ، قائلين : إنه يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجته "

.. ولا بد مع كل ذلك من الأسلوب المؤثر السهل ، و العبارة التي تخرج من الفم ليتلقفها الجميع ، فتصبح على جميع الألسنة .. وعبد الله بن سلول هو أستاذ هذا التعبير الإعلامي ، وهذه العبارة من عباراته " سمّن كلبك يأكلك "

ويمكننا أن نرى هذه الأساليب مجتمعة حين يكون الحدث إسلامياً حيث :

التهوين من شأن الحدث : مثلما قال أبو لهب تعقيباً على إعلان الرسالة من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ من فوق جبل مكة : تباً لك طول يومك ، ألهذا جمعتنا ؟ ، وكأن حدث الرسالة لن يبقى إلا يوم إعلانه " طول يومك " ، الأمر الذي لا يستحق الجمع " ألهذا جمعتنا " .

قطع الصلة بين أفراد الحدث والواقع الاجتماعي : الذي تم فيه الحدث حتى لا يكون لهؤلاء الأفراد أي امتداد اجتماعي .. مثلما قال عروة بن مسعود لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: جئت بأوشاب الناس لتفض بيضتك ، حتى أفهمه ابن أخيه أنهم ليسوا أوشاباً ، وكان يلبس المغفر على وجهه ، فضرب يد عمه وقال له : اخفض يدك عن لحية رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك ..

إعلان أنهم ليسوا على شيء : مثلما استشار المشركون اليهود في أمر الدعوة ، فأخبرهم اليهود أن المشركين أفضل من المسلمين ، وكما قال القرآن على لسان اليهود في المشركين : { هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً } [النساء 51]

المزايدة على أصحاب الدعوة : مثلما زايد المشركون على المسلمين لسقاية البيت وعمارة المسجد الحرام ، فأنزل الله عز وجل {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر } [التوبة 19] "[1]

و علي ذات الطريق .. يسير الإعلام الكاذب ؛ فيغدو المستعبَدون قطيعاً مستمِعاً ، وقافلة عمياء ضلت طريق الرشاد ؛ فتاهت في مسارب الأكاذيب والأوهام .. تلك المسارب التي ما أن يسلم الإنسان نفسه لدروبها الضيقة حتي يتحول عقله إلي عقل مستعبَد ليس له حضور إلا في سفاسف الأمور ..!!

فإذا تبقي للإنسان بعضاً من الوعي بعد كل هذا المكر بالليل والنهار ؛ فإنه يتم تخديره بواسطة الفن بكل أنواعه وأشكاله ، و الألعاب الرياضية والاستعراضات الشعبية .. بل وعوامل الترفيه والتسلية والاستجمام التي تعمل على استبقاء الاستبداد من خلال فن الدعاية الذي يشبه إلى حد كبير " التنويم المغناطيسي " .. أو السحر الذي يخيّل للمشاهد أن ما يراه ثعباناً .. بينما هو فى الواقع حبلاً ..!!

وخذ مثالاً علي ذلك ..

" أول عملية دعاية حديثة ، والتي تمت في إدارة الرئيس الأمريكي ويلسون ، فقد كان هذا الرئيس قد انتخب في عام 1916 تحت شعار " سلام بدون انتصار " . وكان الشعب الأمريكي يومها يميل إلى الهدوء ، ولا يرى سبباً للتورط في حرب أوربية ..

ولكن إدارة ويلسون كانت قد التزمت فعلاً بالحرب ، وكان من الضروري أن تفعل شيئاً تجاهها ؛ فأسست لجنة دعاية حكومية أطلق عليه لجنة " كريل " التي نجحت في غضون ستة شهور أن تقلب الشعب الأمريكي ذا النزعة إلى الهدوء واللاعنف إلى شعب هستيري يتاجر بالحرب ويروّج لها ، ويريد تدمير كلّ شيء ألماني ، وتمزيق ألمانياً إرباً إرباً ، ويطالبون بدخول الحرب لإنقاذ العالم .. " [2] .. وذلك من خلال تخويفهم وإرهابهم واختلاق قدر كبير من الأعمال الوحشية التي ارتكبها الألمان ، ومن خلال

[1] التصور السياسي للحركة الإسلامية – رفاعي سرور - ص 112 ، 113 بتصرف يسير .
[2] هيمنة الإعلام – الإنجازات المذهلة للدعاية – نعوم تشومسكي - ص 11 بتصرف يسير .

صور الأطفال البلجيكيين الذين مُزقت أذرعهم ، ومن خلال كلّ أنواع الترويع التي ما زال المرء يقرؤها في كتب التاريخ ..!!

وهكذا .. يرفع شيطان الإعلام ضغطه إلى درجة عالية ؛ فيضطر البعض إلى تقديم القرابين رُعباً منه أو تَقَرباً إليه ..!! وكأن هذه الضغوط المختلفة الدرجات هي خطوات الشيطان التي يخطوها في بسط سلطانه على أتباعه .. خطوات متتابعة ، كلها حلقات آخذ بعضها برقاب بعض ..

ولكن الأمر ليس بيد شيطان الإعلام ، ولا بيد أحد .. إنه بيد من يقدّر الأشياء تقديراً ؛ فتسير الذرة ويسير الجبل حسب تقديره .. وكيد الإعلام مهما بلغ هو كيد ضعيف .. { إن كيد الشيطان كان ضعيفاً } [النساء : 76]. .. وسلطانه هو " السلطان العاري " الذي لا يتمكن إلا ممن لا يعرفون سنّة الخلاص من مكائده ، فيقابلون ضعفه بالبلاهة والغفلة عن طرقه الملتوية ، التي يلبّس بها الأمر عليهم ، فيظهر لهم في كل مرة بلون ؛ ليحولهم إلي ضحايا غرق الحقيقة في بحر الهراء والتفاهات من خلال ..

• صناعة الأكاذيب

" إذا كانت النقطة الدموية الحمراء فى البيضة تدل على فسادها ، فكيف الأمر إذا كان داخل البيضة كلها أحمر اللون ؟ وهل لنا أن ننظر إلى الإعلام اليوم من هذه الزاوية .. أم أن الإعلام أبيض ناصع ، والنقطة الحمراء الفاسدة جزء صغير هامشي ، لا يؤثر فى سلامة الإخصاب والابداع فى رسالته العظيمة؟

أليس من تلك النقطة الحمراء " تقديس " الطاغية ، وتبرئته عن الأخطاء ؟.. أليس منها تضليل البشر ، والتغطية على كل فساد ، بل وإفساد الحاضر والمستقبل معاً .. " [1]

إنها نقط حمراء كثيرة يحويها " خطاب إعلامي مزدوج و مزيف ، يروج للأكاذيب ، و يمدح و يهلل لكل صاحب سلطة و يمجد فيه و ربما يقدسه ، و يلمع أنصاف الموهوبين و يفرضهم علي الناس ، و يصنع نجوماً و قيادات من ورق و يسوّقها للجماهير المخدوعة بالبريق الإعلامي و الإلحاح المتكرر " [2] ، و إزاحة حواسّ المتفرج ، وإلغاء الاستقلالية والحيادية لتلك الحواسّ ، والوقوف فى وسط الطريق بين الإدراك بالرؤية بالعين والسمع بالأذن والتعبير باللسان ، وحتى فى استخدام العقل بحكمة وموضوعية ، والاستعاضة عن ذلك بسديم ضبابي يخدّر الحواس جميعاً ، ويمنحها متعة سريعة طارئة وزائلة فى الوقت ذاته ..

---

[1] الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 335 بتصرف يسير .
[2] الشخصية المصرية ـ د. محمد عبد الفتاح المهدي ـ ص 25 .

وهكذا .. وسط هذا الضباب الكثيف ، يتم تزييف الواقع " تحت عناوين مختلفة ، هي في حقيقتها تكبيل لحريّة الكلمة ، وتعطيل لفعلها الإيجابي ، والأخطر من ذلك " تعيين " المكلفين بمراقبة الحقيقة وتخويلهم صلاحيات سجنها فى أقفاص زجاجية ، لصياغة نمط آخر من أشكال فرض السيطرة المسبقة ، والتلاعب عن قصد بالحقائق ، وإبدال الواقع بغيره " [1] ونشر قيّم طاعة أولى الأمر .. الزهد في الحياة .. القناعة بـ " ضآلة الأجور " .. الوفاء لـ " أولياء النعمة " .. و بذل الحياة في الدفاع عنهم ..!! بينما يستمتع المتسلطون بقيم الجشع والنهب والربح المتزايد ، والإفراط في كل المتع التي حرّموها على المستعبدين !!

ولأن الإنسان المستعبَد مهموم بتفاصيل حياته اليومية ، فإنه لا يملك الوقت لمتابعة ما يقدم له واكتشاف الحقائق " فيكون أمر مرور تلك الأكاذيب يسيراً ، وغير قابل للفضيحة والانكشاف . وحتى إذا اكتشفت الأكاذيب ، فإن سيل الأخبار ، والأمطار السوداء التى تسقط يومياً من غرف إعداد البرامج الترفيهية ، على رأس المشاهد ، تجعله مغموراً بسيل عارم من دوامة عدم التركيز ، بل عدم الاهتمام . وتأخذ الموسمية دورها حيث تتصاعد الاهتمامات حول قضية ما ، ثم تختفي فجأة لتحل بدلاً منها أخرى " [2]

إن الإعلام يثير حماس المستعبَدين لمدة أسابيع متواصلة من خلال حدث ما ، وأنباء منطقة بعينها ، ويعرض عليهم الصور ذاتها مرات ومرات ، وينفعل المستعبَدون بما يحدث هنا أو هناك .. وفجأة ، يختفي ذلك وتسدل عليه ستائر النسيان لتحل محله صور أخرى وأخبار أخرى ، حتي يصبح الأمر مجرد صور !! .. صور تمحو صورًا ، صور للأخيار وصور للأشرار .. يبدلها التلفاز حتى لا يصبح مملاً ، وتنتهي أهمية القضية حين يتوقف التلفاز عن معالجتها .. !!

وفي كل مرة ، تحاول منظمات الأخبار أن توهمنا أنها تنقل إلينا المعلومات بطريقة محايدة وطبيعية ، وتعرض نفسها كما لو كانت نوافذ حقيقية علي العالم ، بينما هي رسم صورة للعالم كما يريد أصحاب المصالح الذين يقومون باستثمار " الإعلام فكرياً ، وسياسياً ، لأغراض مصالح وغايات محددة ، بل وتحويل الإعلام ومؤسساته إلى استثمار اقتصادي بحت شأنه شأن صناعة وتجارة السيارات والملابس وغيرهما ..

---

[1] **الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 319 . بتصرف يسير .**
[2] **المصدر السابق ـ ص 333 .**

وتتجلي تلك العلاقة بين سلطة المال في طريقة نقل الأحداث ، فتختفي الموضوعية لتحويل الإهتمام ، أو حشد العواطف وتعبئتها بشكل عدواني ضد قضية هامشية أو ثانوية لا تتصل بما يحدث من آثام ترتكب ضد حرية الإنسان " [1]

إن " وسائل الإعلام هي مؤسسات تهدف إلي الربح . . ليس لإظهار الحقيقة ، وليس للسعي وراء العدالة ، أو أي شيء مما لا يظهر في أوراق الحسابات والميزانيات بصورة رقمية وإيجابية .. وبالإضافة إلي أن تلك المؤسسات تهدف إلي الربح ، فإن تمويلها يأتي من المؤسسات عابرة القارات في شكل إعلانات ، فهي تعيش علي تلك الإعلانات ولا يمكنها الإساءة للمعلنين ولمصالحهم " [2] ، ولذلك ، فإن أداء تلك المؤسسات " يتشكل علي نحو أكبر بقوي السوق ، وهناك عدد من المرشِحات تعمل دون توقف لتشكيل نتاج تلك المؤسسات التي لا تعدو أن تكون مشروعات أعمال تسعي للربح ، مملوكة لأفراد غاية في الثراء " أو شركات " ؛ تمول بشكل كبير عن طريق المعلنين الذين هم أيضاً كيانات تسعي للربح ، والتي تسعي إلي أن تظهر إعلاناتهم في بيئة داعمة للبيع . " [3]

لقد أصبح الإعلان التجاري هو الحبل الذى يمكن شدّه لخنق إمكانية بقاء المؤسسات الإعلامية واستمرارها ، وأضحت مراحل صناعة الإعلان التجاري بذاتها وسيلة مهيمنة على حريّة واستقلالية وسائل الإعلام .. وفى كل تحالف بين شركات الإعلان ومؤسسات الإنتاج البرامجي ، تكون السيادة المطلقة والفاسدة فى أغلب الأحوال هي للمال وأهدافه الربحية المجردة عن المبدأية .. ويحاصر الإنسان بفيضان عارم من الإعلانات التى يجد نفسه معها مضطراً للإنسجام معها ، وتتحول القضية من الإقناع إلى سلب القناعة والخضوع لمتطلبات المستبدين المستغلين ..

وللتأكيد على فساد إعلام العبيد نورد هذه القصة على سبيل المثال فقط ...

" هاجم كلب شرس طفلاً فى حديقة فى مدينة نيويورك .. و رأى أحد المارة ما حدث ، فهرع إلى المساعدة ، وانقض على الكلب الشرس وقتله .. وحين شاهد صحافي فى إحدى الصحف المحلية بمدينة نيويورك ما حصل ، أخذ بعض الصور للحادثة ليضعها فى الصفحة الأولى من الجريدة التى يعمل بها .. و اقترب الصحافي من الرجل ، وقال له : شجاعتك البطولية سوف تُنشر فى عدد يوم غد تحت عنوان " شجاع من نيويورك ينقذ ولداً " ، فأجابه الرجل الشجاع بأنه ليس من نيويورك .. فقال له الصحافي : فى

---

(1) المصدر السابق ـ ص 332 بتصرف يسير .
(2) حراس السلطة ـ أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية ـ دافيد إدواردز ، دافيد كروموبل ـ ص 9 ، 10 .
(3) المصدر السابق ـ 26 ، 27 .

هذه الحالة سوف نضع العنوان : شجاع أمريكي أنقذ ولداً من كلب شرس .. و أجاب الرجل الشجاع : أنا لست أمريكياً ، أنا من باكستان .

.. وفي اليوم التالي ، صدرت الصحيفة ، وكان عنوان الخبر فى الصفحة الأولى : مسلم متطرف ينقضّ على كلب فى حديقة فى نيويورك ويودى بحياته ..!!

... و لسنا هنا فى صدد تحليل طبيعة الحادثة .. ولسنا نتحدث هنا عن الإثارة التى قد تستند إليها الصحافة ..

وإنما نحن نتحدث هنا عن كيف يتم خلط المفاهيم ، وكيف يتم التهام الحقيقة ، لتتراجع مصداقية الحدث أمام جبروت الرغبة فى تعظيم خيال مغذىّ بوقائع سابقة ومكرّرة ، لتحتشد العواطف تجاه حدث ما . وهكذا تتحول بؤرة الحدث خارج حدود الدائرة ، ويتم التركيز على الهامش دون الجوهر ، ويفرض حاجز بين الحقيقة ومضمونها باتجاه إفساد الحقيقة ، وتحويل جوهرها لغايات محددة ، وهي مهمة تقوم بها اليوم وسائل الإعلام بكفاءة عالية " [1] ، وبخاصة بعد أن قامت بتوظيف دراسات علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما من العلوم ، وأصبحت قادراً علي " صناعة " اهتمامات الفرد ، و " صياغة " أفكاره ، " وتغيير " سلوكه من خلال حيل إعلامية تجذب اهتمام العبيد وتلهيهم عن معاناتهم ومشاكلهم ، وتمتص غضبهم وتمنع أو تؤجل ثورتهم باستخدام خدع ..

• الإلهاء والاحتواء

تشير الأم بإصبعها إلي سقف الحجرة ، وتقول لطفلها : هل ترى العصفورة ؟ .. وتبدأ الأم في نقل إصبعها يميناً ويساراً .. هل ترى العصفورة ؟ .. والطفل مشغول بمتابعة إشارات أمّه ، ويحاول أن يرى العصفورة كثيرة الحركة .. وبعد دقائق ينام الطفل ..!!

قد يرى البعض أن هذه لعبة بريئة تعتمد علي أن الطفل يسهل تشتيت انتباهه بسرعة وبسهولة .." إلا أن المدهش في هذه الأيام أن هذه اللعبة أصبحت تمارس مع شعوب بأكملها ، والمدهش أكثر أنك تري عدداً كبيراً من كبار المفكرين ورؤساء تحرير بعض الصحف يجولون بأعينهم في كل الاتجاهات بحثاً عن العصفورة المجهولة " [2]... وما زلنا نري تلك العصافير تملأ صفحات الجرائد وشاشات التلفاز والكومبيوتر ، وكل عصفورة تحمل عنواناً مثيراً فهذه عصفورة الختان ، وتلك عصفورة جواز التدخين

---

[1] الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 316 ، 317 .
[2] علم النفس السياسي ـ د. محمد المهدي ـ ص 304 .

في نهار رمضان .. إلي آخر تلك العصافير التي تملأ زقزقاتها آذاننا ، وتتبعها أعيننا في كل مكان ؛ فلا ندري أين نحن ؟ ولماذا جئنا إلي هنا ؟ وأين نذهب ؟ وماذا نريد ؟!!

إننا كثيراً ما نقع ضحايا لعبة " الإلهاء والاحتواء " .. تلك اللعبة التي تبدأ " بافتراض الغفلة والسذاجة لدي الضحية ، ثم محاولة جذب انتباهه عن مشكلته الأصلية إلي شيء أقل أهمية لكنه أكثر إثارة ، وبما أن الضحية يفترض فيه ضعف الذاكرة ، وتشتت الانتباه ، وعدم وضوح واستقرار الهدف الأصلي ، لذلك يتوقع القائمون علي اللعبة أنه سينسي وينشغل بوسيلة الإلهاء .. وإذا لم يتأكد هذا الاحتمال فإن الضحية يحتاج إلي عملية " استهواء " وهي أكثر تعقيداً وإبهاراً من الإلهاء فهي تستدعي مقالات وندوات ولقاءات تليفزيونية ومنتديات علي الانترنت ورسائل علي البريد الالكتروني .. ، كما يحتاج أصحاب اللعبة إلي شخصيات لها صفة السحر من رجال السياسة أو رجال الدين أو رجال الإعلام أو نجوم الفن أو لاعبي الكرة ، ويقوم هؤلاء بتمرير ما يريد أصحاب اللعبة للضحايا المستهدفين دون أن يشعروا أو يتألموا أو ينتبهوا ..!!

وإذا لم تفلح عملية الاستهواء يتم اللجوء إلي " الإغواء " .. وهي عملية تحتاج لرشوة الضحايا ، والرشوة هنا إما أن تكون مالية " مكافآت أو إكراميات أو علاوات أو انتدابات أو سفريات " ، أو وظيفية " تعيينات أو ترقيات " ، أو اجتماعية " تلميعات وصناعة نجوم " ، أو سياسية " مناصب حزبية أو تسهيلات انتخابية " .... وإذا نجحت كل الخطوات السابقة تكون النتيجة في النهاية هي " الاحتواء " حيث يجلس الضحايا في حجر القائمين باللعبة ، أو يرتمون في أحضانهم ، أو يغطون في نوم عميق " [1] .. بينما تتم الصفقة أو العملية ، أو تمر الكارثة ..!!

وهكذا .. نجد الاستبداد " دائب السعي ظاهراً وباطناً لخلق معارك وهمية متعددة الاتجاهات ، قاصداً بذلك تبديد الطاقات الخلاقة عند ذوي الفكر وصرفها عن الاتجاه السليم نحو الإصلاح ، وهو في سعيه هذا ماكر خبيث شديد الدهاء بما يملك من أجهزة شيطانية تستخدم أدوات علمية تتناول في معاركها ألواناً شتي من العلماء والأدباء والسياسيين والاقتصاديين والاجتماعيين باسم العلم والتقدم مسلطة عليهم غائلة المال أو الجاه أو الجنس .. " [2] .. ثم تقوم في صمت ماكر " بتخدير الوعي ، وترسيخ

---

[1] **المصدر السابق - ص 279 - 300 .**
[2] **مقدمات في البعث الحضاري - د . سيد دسوقي حسن - ص 130 .**

الوضع الراهن ، وقتل الرغبة في التغيير الإيجابي ، والإيحاء بأن الحياة جميلة ومستقرة ، وبأن مظاهر الرفاهية متاحة علي الأقل في التلفاز .!! " [1]

إن المستبِدين قد لا يدعون العبيد إلى القبائح والانحراف حتى لا يثيروا انتباههم ، فينفروا منهم إلى المكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه .. وإنما هم يختارون دعوة العبيد .أحياناً. إلى ما يعتقد هؤلاء العبيد أنه أمراً طيباً ، ثم يقومون تحت هذا الستار الخادع بتزييف فكر الإنسان وشعوره وتغيير مساره عما ينبغي أن يفعله إلي أي أمر آخر .. وكأنهم يحققون شعاراً مفاده " إذا لم يكن الإنسان حاضر الذهن في الموقف ، فليكن أينما شاء " ..!!

ولنوضيح ما نقصد نضرب مثالاً :

لو أن هناك رجلاً يقوم علي فتي غني ، ويريد هذا الرجل أن يختلس أملاكه دون أن يعلم ذلك الصغير؛ فإن هذا الرجل يبدأ في تلهيته .. فإن كان الفتي ذا قامة مناسبة ، فإن الرجل يشجعه على الرياضة ذاكراً له محاسنها ؛ فيسير الفتي في واد من الخيالات والأمنيات كالمباريات الدولية ، والألعاب الأولمبية ، ويعيش أسير أحلام الشهرة وما شابه .. وإذا كان الفتي من المثقفين ، فإن الرجل يشجعه علي الحصول علي أعلي الشهادات ثم يساعده على السفر لاستكمال الدراسة ليجد الوقت لاختلاس ثروته .. وإن كان الفتي غير صالح للرياضة أو للدراسة ، بل هو من العاطفيين الذين يهوون العزلة ، فإن الرجل يشجعه على الزهد والعزلة !!

وما يفعل الرجل كل ذلك إلا تلهية للفتي لسرقة كل ما يملك ..؟!

وهذا المثال يشبه إلي حد كبير ما يحدث مع العبيد عبر الإلهاء الإعلامي حيث يتحول الإنسان إلي كائن انفعالي يميل إلي السهولة ، ويقدّر الأشياء بناء علي سهولات الحاضر ، لا علي صعوبات المستقبل .. فتدفعه وسائل الإعلام إلي " الانزلاق إلي وحل السهولات المغرية التي تغذي الشهوات ، والتي تليق جداً لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه ميسوراً جداً " [2] .. ثم تقوم تلك الوسائل باختلاس كل ما يملك من وعي في صورة تصل إلي ..

---

[1] **علم النفس السياسي ـ د. محمد المهدي ـ ص 302 ، 303 بتصرف يسير .**
[2] **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص 27 بتصرف .**

• إحتلال العقول

يشابه الصراع الفكري بشكل ما " الأسطورة الشهيرة التي يصف فيها أفلاطون ، بطريقة رمزية الحالة الغريبة التي يكون عليها بعض الناس ، حينما يتصورون الواقع ، حسبما يُصور لهم لا طبقاً لحقيقته ، فهم يعيشون في نظر الفيلسوف العتيق ، في قعر غار ، ملتفتين إلي جدرانه قهراً ، فلا يرون سوي الأشباح المتحركة عليه دون أن يفكروا أن الأشخاص يأتون ويذهبون وراء ظهورهم ، وأن ناراً أوقدت بين باب الغار وأولئك الأشخاص هي التي تلقي ظلهم في صورة أشباح متحركة علي الجدران ، ودون أن يشعروا أن الحقيقة ليست في تلك الصور الوهمية ، ولا في النار التي تصورها لأبصارهم المسحورة ، بل هي خارج الغار ، في ضوء النهار، تحت الشمس الساطعة...

ولو عاش أفلاطون في زماننا لأتيحت له الفرصة أن يضيف لأسطورته صوتاً يتخافت ويهمس همساً : صوت الملقن أو المفسر الذي يدلي بالتفسيرات ، أو بوجه أدق يدلي بالإيحاءات المناسبة لأصحاب الغار ليزيد في خبالهم خبالاً... وهذا ما يقوم به الإعلام حينما يبدي لنا ما يريد من الصور الوهمية ، ويصف لنا الأشياء كيفما يريد بصوت المتخافت. " [1]

ولذلك " نجد أنه عندما يرتفع الستار عن حدث في الصراع الفكري ، فإن هذا الحدث يبدأ كمسرحية ذات شخصيات خمس .. فكرة كشفت عن وجودها المراصد المختصة بالصراع الفكري ، وشعب يجهل دخولها علي المسرح ، وقيادة تتجاهلها ، وصاحبها الذي يحاول تبليغها ، والطاغية الذي يحاول خنقها."[2]

ولأنه ليس من مصلحة الطاغية عندما يريد خنق فكرة ، أن يدفع بجهاز البوليس والقضاء في المعركة ، فإنه يبني خطته علي أساس أن يصل بصاحب الفكرة إلي حافة الانتحار ، فيحيط بجوانب حياته كلها ، ويطوقه مادياً وأدبياً ، ليصبح يائساً ، ومن ثم يصبح قريباً من الانتحار بفعل العوامل التي تؤثر فيه وهي بعيدة عنه كل البعد .. ويمر صاحب الفكرة " بمراحل عملية نفسية موجهة ، فهو يطارد ويحاصر ويهدد بالاغتيال وبالتعذيب ، ولا ينتهي الأمر علي هذا ، لأن الطاغية يهدف في الواقع إلي اغتيال أشنع ، وإلي تعذيب أفظع ، يبقي سرهما في خفايا النفوس المحطمة ، وفي أوضاع أدبية ومادية أضر بصاحب الفكرة من الشنق أو الإحراق .

---

[1] المصدر السابق - مالك بن نبي - ص 96 - 98 بتصرف يسير .
[2] المصدر السابق - ص 49 .

وقد يحدث في مثل هذه الظروف ألا يجد صاحب الفكرة مخرجاً سوي أن يوجه صرخة ليخرق بها الصمت الخانق الذي أحاطه به الطاغية ، فيوجه حينئذ كتاباً مفتوحاً إلي الرأي العام عن طريق صحيفة ، غير أن الطاغية قد أخذ الحيطة من هذه الناحية أيضاً ، فتمر الأيام والأسابيع وتأتي أعداد الصحيفة متوالية ، دون أن يجد الكاتب فيها الصدي الذي يخلّصه من التطويق ، الصدي الذي يأخذ بثأره من عدوه.. فقد خيبت الصحيفة رجاءه لأن القائمين عليها مزودون بضمائر فيها شق ، والطاغية يلقي في هذه الضمائر ما شاء من النقود ، حتي يسخرها في تلك اللحظة لما يريد ..!!

وهذه . بلا شك . هي أقسي لحظة يواجهها صاحب الفكرة ، حيث يشعر فيها أن عزله قد تم فعلاً من جميع النواحي ، وهنا تتفتت الهاوية تحت قدميه ، وإذ بالظلام يحوطه ، ويغمر أعماق حياته فلا يري أمامه طريقاً ولا حيلة .. ومن ثم يتسرب إليه الشعور بعبث موقفه . كأنما ألقي بنفسه للتهلكة دون جدوى..!!" [1]

و الطاغية يغيّر في أشكال الطريقة التي يحيط بها صاحب الفكرة لعزله .. ولكنه في كل مرة يبني خطته علي قاعدة أن يضع النقود في فتحة ضمير من يملك مفاتيح القلعة التي يتحصن بها صاحب الفكرة ، ليسلمها حارسها بكل سهولة ؛ ليسقط صاحب الفكرة صريع المعركة العنيفة ، وتضيع صيحته دون أن تنبه أحداً من الجماهير المستعبَدة .

وفي كل مراحل الصراع لاحتلال العقول تكون العوامل النفسية هي الأهم [2]، وتكون " هناك مختبرات متخصصة في الكيمياء السياسية تخصصاً عميقاً ، تعد الإيحاءات النفسية وتشحنها في شعور الجماهير بالطرق المناسبة ، بحيث يكفي أن يضع أحد الاختصاصيين إصبعه علي زر خفي ، فتنطلق في شعورهم شحنة من الغضب والثورة ، أو من الإجلال والخشوع ، حسب ما تكون الشحنة " [3] .. ومن ثم تتحرك الجماهير طبقاً للإيحاءات ؛ فتكون النتيجة هي استنزاف " كل الإمكانات الفكرية والمادية في معارك وهمية ، تُسمع فيها قعقعة السلاح ودوي الحرب ، ولكن الصراع فيها يكون مع أشباح تحركها أمام الأبصار المسحورة يد خفية ماهرة ... ثم يسمع الجميع صرخة الانتصار التي لا تعني . في أغلب الأحيان. سوي أن شبحاً قد اختفي عن المسرح حتى يتيح الشعور بالانتصار عليه .. في لعبة تشبه إلي حد كبير " ما يسمي " لعب صور الظل " أي تلك الصور التي يمكن للاعب ماهر أن يصورها من ظل يديه

---

[1] الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص 45 ـ 47 بتصرف .

[2] لأن العوامل النفسية بهذه الأهمية ، فقد بدأ تطبيقها في مجال السياسة .. فيبدأ مؤلف " لعبة الأمم " كتابة مذكراته بذكر تفاصيل خضوعه لاختبار نفسي على يد ثلاثة من كبار علماء النفس الأمريكيين .

[3] الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص 68 ، 69 بتصرف يسير .

وأصابعه ، بوصفها قصة يراها الناظر علي الحائط ، ويمكن أن يزيد اللاعب الماهر في إعجاب ذلك الناظر، إذا كان عنده الصوت المناسب مثل لاعب " جراجوز " ، ليعقب علي الصور التي تلقيها يداه وأصابعه علي الحائط بما يناسب من التعليقات . " [1]

إننا في بعض الأحيان ، نقرأ خبراً بعنوان " القبض علي الخائن العميل " .. ويكون المقبوض عليه من أهل الحق والخير والدين .. ثم بعد أسبوع نجد في نفس الصحيفة ثلاثة أسطر في مكان غير ظاهر تتدارك الأمر بشكل مائع لا يزيل شبهة الخيانة والعمالة التي أثارتها الصحيفة في عناوينها الرئيسة قبل ذلك.. وكأنما اليد التي حررت هذا التدارك هي ذات اليد التي حررت تلك العناوين ..

وفي أحيان أخري ، نري صحيفة من الصحف تجزيء مقالاً إلي نصفين " فتنشر النصف الأول ، ثم لا تنشر النصف الثاني إلا بعد أسابيع ، أي عندما لا يبقي أثر ما نشر في الأول في الأذهان ، ولا يبقي للقارئ فرصة يشعر معها بوحدة الموضوع ويدرك معناه في حدودها ، وحتي تفوت بالتالي ، علي القارئ الفائدة التوجيهية التي قدرها صاحب المقالة هدفاً لمقالته .. " [2]

ويصل الإعلام إلي قمة البراعة في احتلال العقول حين يقوم بتسريب الأخبار " في لحظة معينة بحيث يؤدي إلي رد فعل ما كان يمكن أن يحدث لو نشر ذلك الخبر في لحظة أخري .. كأن يعرض . مثلاً . فضيحة معينة عن قائد في لحظة يخرج فيها ذلك الزعيم أو القائد بخطبة خطيرة تدعو إلي التضحيات أو ما في حكمها ..!! " [3]

إن من يقرأ في ملفات الصراع ، ومذكرات الجاسوسية ، لن تغيب عنه حقيقة " إن الإعلام يتصرف في طاقاتنا الاجتماعية لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة ، وأدرك منها مواطن الضعف ، فسخرنا لما يريد ، كصورايخ موجهة ، يصيب بها من يشاء ، ثم يحتال لكي يجعل منا أبواقاً يتحدث فيها ، وأقلاماً يكتب بها ، إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه ، يسخرنا له ، بعلمه ، وجهلنا !! " [4]

ومن هنا فقد مست الحاجة أن نتساءل دائماً : " كيف " يخنق الطاغية أصحاب الأفكار ؟ .. وكيف يحتل عالم الأفكار ؟ .. " كيف " وليس " لماذا " ؛ لأننا قد نعلم . أحياناً . السبب الذي يدفع الطاغية لاحتلال عالم الأفكار ، دون أن نعرف " كيف " يقوم بذلك ؟!!

---

[1] المصدر السابق ـ ص 75 ، 76 بتصرف يسير .
[2] المصدر السابق ـ ص 101 .
[3]) مقدمة في نظرية الرأي العام د . حامد عبد الله ربيع ـ ص 113 .
[4] شروط النهضة – مالك بن نبي – ص 155 بتصرف يسير .

إن " كل مناسبة جديدة تكشف لنا عن وسائل جديدة ، وعن خطة مجددة ، وعن شباك محدثة ، كأن الطاغية لا يريد أن يترك لخصومه أن يدخلوا معركة اليوم ، بما تزودوا به لمعركة الأمس ، فوسائله تتنوع حسب الظروف ، وطبقاً للمناسبات ، و هو لا يحافظ إلا علي المبادئ الأساسية التي يطبقها في كل مناسبة وفي أية ظروف .

وعليه فتكون محاولة جنونية ، لو هدفنا في هذا العرض إلي أن نضع قائمة إحصائية للوسائل التي يستخدمها ، وللخطط التي يطبقها ..!!

إن الشيء الذي تقره التجربة بكل وضوح ، هو أن الطاغية يتكيف مع الظروف ، حتى إنه يتخذ أحياناً طرقاً وسبلاً ، لا ينتظر أن يتخذها ويتبعها لبعدها ظاهراً عن الميدان الذي تدور فيه المعركة ، حتى إن العقول تصبح في حيرة حينما تتجلي لها فجأة الحقيقة ، وهي أن الطاغية يفتح دائماً في الصراع أبواباً جديدة، لم نكن نفكر أنه سيأتي منها هجوم ، فيأتي الهجوم من تلك الناحية التي لم تُعد له عدتها ، ولم تستعد لصد الغارات التي تأتيها منها . " [1]

إن عقول المستعبَدين تمر علي سطح الأشياء دون أن تصل إلي مكنونها ، وتنتظر من الطاغية أن يسلط الأضواء علي المسرح ، في الوقت الذي تدخل فيه الفكرة حلبة الصراع ، وبالضبط علي الركن الذي تبتدئ فيه المعركة .. والطاغية " يستغل هذا الجهل لينشئ حول الفكرة منطقة فراغ وصمت لعزلها عن المجتمع ، ثم يزيد في إتقان خطته ، فيسدل ظلاماً شاملاً علي مسرح الصراع حتى يبقي هذا المسرح غارقاً في الظلام .. ويبقى هو مخرج تلك المسرحية من خلال ما في طيات نفوس المستعبَدين وخفايا عقولهم..!!

إننا نعيش تحت احتلال جديد ، احتلال غريب بالنسبة للإنسان .. هو احتلال العقول الذي يتخذ صوراً مختلفة ، مباشرة .. بتحريك الأذهان إلى الجهل والغفلة وسوقها إلى الضلال والانحراف .. و غير مباشرة .. بإلهاء الأذهان بالحقوق الجزئية الفرعية لتنشغل عن المطالبة أو التفكير بالحقوق الأساسية الكبيرة [2] .. وسيبقي صراع الطغاة لاحتلال العقول يغشاه الظلام الذي يغشي الحقائق ، التي لم نهضمها من خلال التجربة ، ولم تصل بعد إلي إدراكنا ، ما دمنا نفتقد ..

---

[1] **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص 112 ، 113 بتصرف يسير**

[2] **كإلهاء المسلمين بالمطالبة بالرغيف عن المطالبة بهدم نظام الاستبداد ، أو إلهائهم بالمطالبة بجعل يوم الجمعة عطلة رسمية لصرفهم عن المطالبة بالشريعة الإسلامية كمنهاج حياة للمجتمع .**

• الوعي النقدي

التفكير في الحقائق ، سواء بالوصول إليها و القبض عليها بيد من حديد .. أو بتمييزها من غير الحقائق، للإنتفاع بالحقائق ، هو التفكير المجدي .. ذلك أن " واقعنا شديد الإلتباس بين الإدعاء والحقيقة.. وبينهما هامش كبير وواسع من التزييف والمغالطة ، نراه اليوم فى مختلف ألوانه عندما نقارب الإعلام ، ونجاوز حسناته وآثامه ، وندرك حجم الضرر والأذى الذى يصيبنا كل يوم نتيجة حجم السيل الإعلامي المضلل الذى يهاجم محيط إدراكنا ومعرفتنا ، وشغفنا الذى لا يتوقف فى إدمان متابعة الأخبار والأحداث . " [1]

إن الإنسان يستطيع أن يتحمل قدراً بعينه من " الضغط الفكري " المنهال عليه عبر وسائل الإعلام ، ثم يفقد القدرة علي أن يتبين الأشياء والمفاهيم ليصل في النهاية إلي " متوسط فكري" ردئ ، وعن يمين و شمال من هذا المتوسط الفكري الردئ تنمو " تيارات فكرية " و تحاول أن تشق طريقها إلي أفئدة المأسورين بسلاسل هذا المتوسط الفكري الردئ ، وهي لا تملك من وسائل هذا الإعلام إلا نذراً قليلاً ؛ فتتخذ بعض هذه التيارات لنفسها طريق العزلة الفكرية حيث تقطع نفسها عن تيار الإعلام العام صحافة وإذاعة وتليفزيون .. فلا يقرأون الصحف ، ولا يستمعون الأخبار ..!!

وهو اختيار يبدو سهلاً في تطبيقه ، ولكن آثاره علي الذين يتخذونه غالباً ما تكون مدمرة للغاية ، وخاصة عندما تختلف الأسس الفكرية بين التيارات الجانبية وبين المتوسط الفكري السائد اختلافاً مبيناً. فالبيئة الفكرية في مجتمع تطبع أفراده بطابعها الخاص ، وتهيمن عليها هيمنة ظاهرة وباطنة ، ولا يمكن إلغاء آثارها في النفس بمجرد الاعتزال سخطاً علي المتوسط الفكري السائد ورغبة في فكر أرقي وأسمي.. !! " [2] .. بل إن هذا الاعتزال يحقق للطاغية هدفه في عزل المعارضين عزلاً ثقافياً يشعر الفرد معه أنه " وحيد " فيما يشعر به وما يحسه ، وبذا تنعكس آراؤه ضده ؛ لأنه سيظل يعتقد أن الناس جميعهم موافقون وراضون باستثنائه هو " بمفرده " ، وربما انتكس علي نفسه باللوم والسخط . [3]

إن البديل الأفضل لهذا الاعتزال هو بذل الجهد الطويل الأمد على المستوى الاجتماعي ، والقيام بعملية توعية علي المستوي الفردي ، للقضاء على مكامن التخلف النفسي التى تمكن وسائل الإعلام من أن تفعل فعلها بشكل خفي من خلال ما تعرضه علينا من آراء ومباديء وقيم تؤكد حياة العبودية ، في

---

[1] الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 326 بتصرف يسير .
[2] مقدمات في البعث الحضاري ـ د. سيد دسوقي حسن ـ ص 20 ـ 22 بتصرف .
[3] راجع إن شئت ما قاله نعوم تشومسكي عن " صناعة الإجماع " في الفصل الأول " في دنيا العبيد " .

نهر " الأخبار والحوادث " ، و من خلال أحداث مثيرة للحس لها قوة تأثير في النفس ، من غير نظر إلى علاقتها بالأحداث الأخرى التي تجعل لها دلالتها ومعناها . فهي إنما تسترعي الذين يحبون الأشياء نيئة ، فالأخبار العادية عن مقتل فلان أو فلان ، وعن أوكار الغرام وغيرها – كلها من هذا القبيل – مع مزيد من الحدة المصطنعة والمبالغة المتكلفة باستعمال ألوان غير عادية ، وحجوم كبيرة غير مألوفة من الخطوط وحروف الطباعة " [1]، وألاعيب أخري كثيرة تتغير كل يوم تمشياً مع قاعدة أن كل فخ عرف مكانه يصبح دون جدوى ، و أن كل جهاز يقع تصميمه في يد العدو يفقد صلاحية استعماله ضد هذا العدو .

إن من الأمور الهامة التي يجب أن تتضمنها ممارساتنا التربوية ، إخضاع سطوة الإعلام [2] لمناقشة جادة؛ لكيّ لا نسلّم أنفسنا لأي وسيلة إعلام ، ونقبل كل ما تأتينا به ..ولا يتأتي ذلك إلا من خلال امتلاك الوعيّ النقدي لكل ما حولنا من أساليب اغتيال العقول ، التي تقوم بتزوير الحقائق ، وتحطيم القيم ، وغسل العقول ، والتحليق بعيداً عن الهموم الحقيقية للمجتمع .. كل ذلك من خلال مؤسسات إعلامية يطغي عليها طابع " الإعلام الجاهز للتسليم بالمفتاح " لمن يدفع أكثر [3] ؛ لتنطلق كالكلاب الهائجة لتنهش في كل مقومات الحرية لحساب الاستعباد ..!!

ويكفي الإنسان أن يقلب في صفحات هذا الكم من المجلات التي تصدر في العالم ؛ ليدرك أنها " ليست حرة ، وإنها تدار بالمال .. وأنها تحقق المثل القائل : من يدفع للزمار ، يسمع النغم الذي يريد "[4]، ويتبين من هم المزمّرون " الذين يثيرون الضجة الإعلامية ، ويصنعون شهرة المبدعين . فيرفعون إلى أعلى مراتب الشهرة من يتوافق مع ما يريدون ، ويتجاهلون ، بل ويجرحون من يخالفها فى زمن تتولى فيه المخابرات هذه المسؤولية ، فتجعلنا نشك فى الإبداع ، وفى مفاهيمه , بل وفى المبدعين " .. بل و تحول " فئات من أهل الفكر والعلم إلي أبواق وظيفتها التصفيق في " الزفة السياسية " للمستبد ، وكيف باعت قضية الحرية ، ولم تعد تذكر سوي أنانيتها ومصالحها . " [5]

إن من المعروف " أن الصحف تعتمد في تحصيل إيرادها علي مصدرين أساسيين ، ثمن النسخ التي تباع للجمهور ، وثمن الإعلانات التي تنشرها الصحيفة ، والشائع أن اعتمادها علي إيراد الإعلانات أكبر، وأنه لو نضب للإعلانات معين ، وجب رفع ثمن النسخة أضعافاً .. وتسأل عن أصحاب هذه

---

[1] **الحرية والثقافة – جون ديوي – ترجمة . أمين مرسي قنديل - ص 61 .**
[2] **مصطلح الإعلام هنا بمعناه الواسع بما في ذلك الصحف والتعليقات والتحليلات والآراء ، بل وكلّ ما يشمل الثقافة الفكرية .**
[3] **هل لنا أن نشك – مجرد شك – فى المؤسسات والجمعيات والمراكز والوكالات التى تقدم تمويلات سخية للأفكار التى تتوافر لها صفات التفاهة والشيوع والغموض ؟! ، وهل لنا أن نتساءل : لماذا تكون هذه التمويلات أكثر سخاءً لمن يقدرون على اختيار الموضوعات التى تفيد مخابراتياً . !!**
[4] **الصحوة ، النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية – ديفيد ديوك - ص 172 .**
[5] **مقدمات في البعث الحضاري - د . سيد دسوقي حسن - ص 5**

الإعلانات فتعلم أنهم كبار رجال الأعمال وأصحاب المؤسسات الصناعية ، والكثيرون ممن لهم في الدولة مراكز قوة معروفة ، ولهم فيها مصالح . وهؤلاء يعطون المال والصحيفة تأخذ . واليد العليا علي ما عرفنا أرفع من اليد السفلي. وإذن قد تصبح الصحيفة ألعوبة بين الأهواء المختلفة لأصحاب القوي المختلفة ، و غير قادرة علي الاحتفاظ بضميرها صحيفة بيضاء لا تشوبها شائبة . "[1]

لقد كنت وأنا طالب في الجامعة أطالع صحف المعارضة .. وكنت أتعجب من أن معظم تلك الصحف تُظهر " الفساد الصغير " للسكوت عن " الفساد الكبير " ..!! ولكن تجربة ربع قرن علمتني كيف أتعرف علي حقيقة شيء من هذا القبيل ؟ .. وأدرك أين تصنع ولماذا تصنع هذه البضاعة ؟ ولماذا يُصر من يصنعها ألا يضع عليها خاتمه ؟ .. ولماذا يبقي مختفياً ولا يظهر في معركة اغتيال العقول ؟!!

ولا أزعم أن ما تخطه يدي هنا هو رأس الحكمة وفصل الخطاب ، وإنما هي مجرد تلميحات توقظ النائم، ولا تزعج المستيقظ .. وتدعو الجميع أن يحاولوا قراءة ما بين السطور ، ليصلوا إلي الفكرة الصحيحة عن حقائق الصراع من أجل اغتيال العقول .. تلك الحقائق التي " لا يملك النطق بها إلا من واراه التراب ، وتحصنت أقواله بالموت ، فهناك أقوال لا تقال في كل الظروف ، ومن ثم يحاول الإنسان التوفيق بين واجب الصمت وواجب الكلام .. ويأمل أن يجد القاريء في أقواله ما يلفت نظره إلي واقع الصراع ، ثم يفتح عينيه لكي يري بنفسه أمارات هذا الصراع قائمة حوله ، وربما يستطيع أن يستخلص من الوقائع المعروضة لنظره ، نتائج لم تلفت انتباه المؤلف ، أو أغفلها عمداً خلال هذا العرض ، احتياطاً من التطويل "[2] ، ورغبة في أن يترك للقاريء وقتاً لتصفح هذه الورقة ..

• من مذكّرات حمار

كنا معشر الحمير ، نتحدث بلغة خاصة بنا .. وكانت هذه اللغة جميلة ، وليست نهيقاً مثلما هي الآن .. ولكنها تغيّرت إلي النهيق بسبب من حادثة وقعت لأحد أجدادنا من الحمير .. فقد كان جدنا الحمار العجوز يلهو وحده في الغابة ، فتناهت إلى أنفه رائحة ذئب قادم من بعيد ، فرفع أنفه إلي أعلي وبدأ يستنشق بعمق ، ووجد أن الجو يحمل رائحة ذئب حادة ..

سلّي جدنا الحمار العجوز نفسه بقوله : لا يوجد رائحة ذئب ، لا .. لا ليست رائحة ذئب ، وتابع لهوه قافزاً من مكان إلى آخر ..

---

[1] **الحرية – د. أحمد زكي ـ ص 89 بتصرف يسير .**
[2] **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص ص 133، 134 بتصرف يسير .**

أخذت الرائحة تزداد كلما دنا الذئب أكثر .. ولكن جدنا الحمار حاول أن يطمئن نفسه : قد لا يكون ذئباً، قد لا يكون .. ليس ذئباً.. لماذا سيأتي الذئب إلي هنا ؟ ولم سيلقاني ؟

و بينما كان يسلّي نفسه بهذه الكلمات ، تناهى الى أذنيه صوت ذئب ؛ فشنف الحمار العجوز أذنيه رافعاً إياهما الى أعلى ... نعم إنه صوت ذئب .. ولأنه غير راض بمجيء الذئب ، تابع قضم العشب وهو يقول: لا .. هذا الصوت ليس صوت ذئب ..

إقترب الصوت المخيف كثيراً جداً ذلك .. والحمار يقول لنفسه : لا.. لا... أتمنى ألا يكون ذئباً... أما عند الذئب عمل آخر ليأتي إلي هنا ؟!

ومع اقتراب الذئب أكثر فأكثر أخذ قلب الحمار يخفق وعيناه ترتجفان ، وعندما حدّق عالياً صوب الجبل ، رأى ذئباً مندفعاً مخلفاً وراءه سحباً من الغبار.

أخذ الحمار يردد : آه آه.. آه إنه ذئب .. قد يكون خيّل إليّ أن ما أراه ذئب ، أو كنت أحلم بذلك ..!

إقترب الذئب أكثر .. و عندما صارت المسافة بينهما خمسين خطوة حميرية ، سلّى نفسه قائلاً: إن شاء الله لا يكون ما أراه ذئباً .. قد يكون حملاً أو فيلاً أو أي شيء آخر .. لِمَ أرى كلّ شيء بهيئة ذئب ؟ .. أعرف تماماً أن ما أراه ليس ذئباً ، ولكن لمَ لا أبتعد قليلاً ؟

أخذ الحمار العجوز يبتعد قليلاً ناظراً إلى الوراء ، أما الذئب فقد اقترب منه فاغراً فاه .. وبدأ الحمار العجوز يعدو ، وركض الذئب خلفه .. ركض الحمار بكل ما تقوى عليه قوائمه ، وهو يقول في داخله : آه.. كم أنا أحمق فقد صرت أظن القطّ ذئباً وأركض هكذا كالمعتوه ، لا ليس ذئباً... زاد الحمار من سرعته حتى أخذت ساقاه ترتطمان ببطنه ، ومع ذلك استمر في خداع نفسه قائلاً : حتى لو كان الذي أراه ذئباً ، فهو ليس كذلك ، إن شاء الله لن يكون كذلك ..!!

هرب الحمار وتبعه الذئب ، و عندما شعر الحمار بأنفاس الذئب الساخنة تحت ذيله ، قال لنفسه : أنا أراهن أن هذا ليس ذئباً... لا يمكن أن يكون المخلوق الذي أشعر بأنفاسه تحت ذيلي ذئباً..!!

لامس فم الذئب الرطب ما بين فخذي الحمار ، إنهار الحمار تماماً... إلتفت ، فوجد الذئب يهم بالقفز عليه .. تجمد الحمار تحت تأثير نظرات الذئب الحادة فما عاد يستطيع أن يخطو خطوة واحدة ، فأغمض عينيه كي لا يرى الذئب ، وبدأ يتهته بالقول : أعرف تماماً أنك لست ذئباً .. لا تدغدغ مؤخرتي إني لا أحب المزاح ..!!

عض الذئب الشرس الجائع بأنيابه الحادة الحمار من فخذه ، وقضم قطعة كبيرة ؛ فارتبط لسان الحمار وهو يهوي على الأرض ألماً... ومن خوفه نسي اللغة الحميرية .

نهش الذئب الحمار من رقبته وصدره ، وبدأ ينفر الدم من جميع أطراف الحمار ، وعندئذ بدأ يصرخ : ه اا.. إنه ذئب ه... ااا، هو .. ه.. ااا... هو وووو.

الذئب يمزقه ، وهو بسبب ارتباط لسانه لا يصرخ إلا : ه اااا... هوووووو.. ه اا... ااا ، هاااا

سمعت الحمير كلها صراخ الحمار العجوز بآخر كلماته ، حيث كانت تردد أصداءها صخور الجبال ، وهو يتمزق بين أنياب الذئب : – ه اااا، ه ااا، ه اااااا....

وهكذا يقال إننا نحن الحمير نسينا المخاطبة والمحادثة منذ ذلك اليوم ، وبدأنا نعبر عن أفكارنا بواسطة النهيق... ولو لم يخدع جدنا الحمار العجوز نفسه حتى وصل الخطر إلي تحت ذيله ، لبقينا على معرفة بالكلام....!!!!

آه منا نحن الحمير.... آه منا نحن الحمير.... ه ااا... ه ااا.... ه ااا [1]

***

---

[1] **راجع إن شئت مجموعة قصص قصيرة لـ " عزيز نيسين " بعنوان " خصيصاً للحمير " .**

الفصل الثالث

بيت العنكبوت

يحفر الأعداء فخ العبودية بصمت العنكبوت ، ومكر الثعلب ، وتلوّن الحرباء ، فيعلنون أن هدفهم تغيير الحدود السياسية ، بينما الهدف تغيير الإنسان .. ويشيعون أنهم يريدون بضعة أميال هنا أو هناك .. ولا يكون هدفهم الحقيقي إلا بضعة سنتيمترات في عقل الإنسان .. وتأتي الأخبار أنهم يسعون لتغيير نظام هنا أو تثبيت آخر هناك ، وهم لا يريدون إلا نظام حياة الإنسان .. ويظهرون أنهم يريدون إخضاع الدول والبلدان ، وهم يريدون ألا يخضع أحد لحدود الله !!

إنهم يعرضون صور محاولة اغتيال فلان أو فلان ، بينما قناصهم يصوّب سلاحه نحوي ونحوك .. فهم لا يريدوننا أحياء أو أموات ، بل يريدوننا أحياء بأفكار ميتة ..!! .. وصواريخهم تدّك ما أنشأنا من مباني، لكن عيونهم علي ما نشأنا عليه من قيّم .. ليس قصدهم البنية التحتية ، إنما يريدون بنيتنا نحن .. !!

قد يخيّل إلينا أن هدفهم النهائي هو النفط .. وليس لهم من هدف إلا السائل الخام الذي يجري في العروق ، والذي يمكن أن يحمل رسالة الإسلام ..!!

إن المؤامرة هنا ليست نظرية ، وليست افتراضاً ، وليست وجهة نظر .. إنها الواقع المحبوك الذى نعيشه ، والذى يحاصرنا من كل الجهات .. إنها اليقين الذى نقطع به فى عالم ملىء بالافتراضات والاحتمالات والمتغيرات .. إنها الحقيقة القاطعة مثل حد سكين يخترق الرقاب ، أو شفرة حادة لا نجرؤ على ابتلاعها ، ولا نقدر على إخراجها .. إنها الواقع الذى يبتلعنا مثل أخطبوت هائل الحجم كثير الأذرع.. إنها المؤامرة المحبوكة المخطط لها ...[1] التي يشعر معها المرء أنه ذرة ألقيت بين قوي رهيبة متطاحنة ، فإذا لم تسحق تلك الذرة إلي غبار الغبار فإنها معجزة ..!!

إنها المكيدة المدبرة عن معرفة تامة بنا ، وإدراك كامل لما نعانيه من حيرة أمام ألغاز الواقع بسبب من النقص الذي يمنع عقولنا من الربط بين الوقائع ، لتضعها تحت قاعدة موحدة وتستخلص منها حقيقة

---

[1] مستفاد من كتاب " تسعة من عشرة " ــ د. أحمد خيري العمري

عامة ..فننظر إلي الوقائع والأحداث مجزأة منفصلة فردية ، دون أي رباط عضوي بينها ، كأنما هي كوماً من الأحداث جمعتها الصدفة ، في غير ما تركيب ولا تنسيق [1] ..!!

لقد تحول واقع الصراع مع عدونا إلي ما يشبه مياه المحيط التى كلما تعمق الإنسان فيها ، كلما ازدادت ظلاماً ، وازداد ضغطها على جسمه وعقله ، حتى يفقد. ولو للحظات. قدرته على فهم ما يحدث أو حتى تفهمه ..ولذلك فقد مست الحاجة إلي نوع من الفكر يمتلك القدرة علي التحليل والتقويم ، ونوع من العلم النافع الذي يمكننا من خوض معركة الحياة أو الموت مع من يمارسون علي الأمة مكر الليل والنهار..

• حتى تتَّبع ملتهم

تضع عصابات الأعداء خطتها على أن الحراس قليلون أو نائمون ، وأن المنافذ سهلة لا وعرة ، وأن الاستيلاء على الغنائم لن يكلف جهداً يذكر ؛ فتقوم بعملها لا يخامرها قلق في أنها تعود من مغامرتها راضية بما نالت ..!!

هذه حقيقة لا بد أن تدفعنا إلي تذكر ما حدث حين " كان في المدينة فزع ، فركب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ثم خرج يركض وحده ، فركب الناس يركضون خلفه ، فاستقبلهم وهو يقول لهم: لم تراعوا.. لم تراعوا " .. فالفزع العسكري هنا ، اقتضي السرعة والخروج للاستبراء للناس .. وكذلك الغارة الثقافية ، والفزع الثقافي ، تستوجب على أهل العلم أن يكونوا أولى الناس بالخروج إليها مسرعين راكضين حتى يعودوا للناس بحقيقة الخبر .. ذلك أن الغزو الثقافي يترك وراءه من الخسائر في الأرواح ، و فقدان كل غال و رخيص ، أكثر مما يتركه أي غازٍ فاتح. بل إن أثر الغزو الثقافي أبقى على مر الزمن!!"[2]

لقد أدرك الأعداء أن الحرب العسكرية ليست ذات جدوى حقيقية في حل المعضلة الإسلامية ، و أنه لا بد من تقديم حلول جديدة تستبصر طريقها عبر المعطيات الجديدة التي أوجدتها الحروب على الأرض .. ومن ثم كانت

---

[1] **تحدثنا في فصل " فقه الواقع " عن " الذريّة " في التفكير .. فراجعه إن شئت .**

[2] **حتى يغيروا ما بأنفسهم – جودت سعيد - ص 115 .**

الدراسة الأولي التي نشرتها مؤسسة راند [1] في عام 2004 بعنوان " الإسلام الديمقراطي المدني ، الشركاء والمصادر والاستراتيجيّات " ، تؤكد أن الصراع هو صراع أفكار إضافة إلى الصراع العسكري أو الأمني، وأن حسم المعركة لن يتم فقط على الساحات الأمنية أو العسكرية ، ولكن الأهم أن يهزم الفكر الإسلامي – الذي يصفه التقرير بالمتطرف – في ساحة الأفكار أيضاً .. و يرى التقرير أن هذا الصراع يحتاج إلى الاستفادة من التجارب السابقة ، ومن أهمها تجربة الصراع الفكري مع التيار الشيوعي خلال فترة الحرب الباردة .

والتقرير إجمالاً ، يقدم استرتيجية للصراع تقوم على استخدام القوة " الناعمة " من خلال دعم الإسلاميين المعتدلين ، وإحداث العديد من التغييرات الثقافية والسياسية ، والتركيز على الوجود الاقتصادي والمدني والاستخباراتي بدلا من الوجود العسكري .. ويعتمد التقرير الصوفية ديناً لكل العالم الإسلامي ؛ لأنه يري أنها " تمثل تأويلاً فكرياً منفتحاً للإسلام ، ويجب أن يتم تشجيع التأثير الصوفي بقوة في البلدان التي لديها تقاليد صوفية ، وذلك من خلال التأثير في مناهج التعليم وقيم المجتمع وثقافته ، حيث أن الصوفية بما لديها من طقوس شعرية وموسيقية وفلسفية ، تُمثِّل جسراً للخروج من الاندماج الديني .. !! " [2]

كما يرى التقرير أن التيار " التقليدي " للإسلام هو تيار ذو فكر معتدل يرتبط فيه الفرد بما يؤمن به آباؤه وأجداده ، و قد نشر التقليديون عدداً من المنشورات التي تعبر عن وجهة النظر " الودية والرقيقة " للإسلام ، وذلك رداً على التصريحات التي تصدر من الراديكاليين ... وتقوم هذه الكتب بالإشادة بالمفاهيم الإيجابية للإسلام على الصعيد الاجتماعي ، وإيجاد مسوغات وتفسيرات مرنة لبعض الممارسات التي يُنظر إليها اليوم على أنها غير جائزة.. إلى جانب طابع هذه الكتابات التي تجمع بين الدفاع والاعتذار إلى درجات متفاوتة. " [3]

وهكذا .. من خلال أفكار التيار التقليدي " يتوسل الأعداء الدين من أجل ترسيخ الأفكار التي تخدم مصالحهم .. فيبرزون من الدين الجوانب التي تؤكد سلطتهم ، وتعزز القناعة بالأمر الواقع وتقبله .. أمّا جوانب التحرر في هذا الدين ، وأمّا جوانب التغيير فيه ، فهذه يُسدل عليها ستار كثيف من التعتيم .

---

[1] **راند : مؤسسة بحثية تأسست عام 1948 ، من أهم مؤسسيها إدوارد باولز Edward Bowles المستشار في وزارة الدفاع ، واللواء كرتيس ليماي Curtis LeMay والجنرال لورس نورستاد Lauris Norstad مساعد رئيس الطاقم الجوي والتخطيط في وزارة الدفاع . كما يعمل بول بريمر القائد السابق للقوات الأمريكية في العراق مستشاراً في المركز وغيرهم كثير. !! .. ولـ " راند " علاقات و روابط مع وزارة الدفاع الامريكية ، فهي تشرف على ثلاث مراكز أبحاث تمولها وزارة الدفاع ، وغالباً ما يتم العمل في الإدارة الأمريكية بناء علي التقارير والأبحاث التي تقوم بها ..**

[2] **الإسلام الديمقراطي المدني ، الشركاء والمصادر والاستراتيجيات – شاريل بينارد - ص 74 ، 75 بتصرف يسير .**

[3] **المصدر السابق - ص 55 بتصرف يسير .**

ليتحول الدين إلى سلاح مسلط على المغبونين " [1] بإلباس الباطل ثوب الحق ، وإلباس الحق ثوب الباطل من خلال مفتين ليسوا إلا بقايا حطام مجتمعات الاستعباد الغربية أو الشرقية المتسربلة بالعمامة البيضاء ، لتقوم بوظيفة التخدير والتغرير بالجماهير الكادحة العاملة المستغلة المحرومة ...!!!

وأمّا التيار المتشدد فإنه . كما يرى التقرير . " يتمتع ببعض الخواص التي تُمكنه من استقطاب الشباب المستاءين ، كما أنه أيضاً يعاني من بعض العيوب التي قد تؤدي إلى انقلاب هؤلاء الشباب ضده . وبالرغم من ذلك لم يتم استغلال الخلل الذي تعاني منه الاستراتيجية السياسية للمتشددين .. ذلك أن إعجاب الشباب بالتيار المتشدد يستند إلى كونهم يرون فيه تياراً يقف إلى جانب العدالة ومع المستضعفين، و يعمل على ترسيخ الاعتزاز بالنفس والهوية والانتماء .. كما أن أغلب المواد التثقيفية لديهم ، هي عبارة عن كتيبات يمكن قراءتها بسرعة . " [2]

ولكن التقرير يؤكد أنه " من الصعب بطبيعة الحال التمييز بين التقليديين والمتشددين ، حيث تكمن الصعوبة هنا على مستويين . من السهل أن ترتكب خطأ بتصنيف قائد أو مجموعة معينة على أنه تقليدي بينما هو في الحقيقة واجهة لجماعات أكثر راديكالية .. وحتى بدون أن تكون هنالك محاولة مدروسة للتضليل ، إلا أن وجهات نظر التنظيمات ومبادئها متقاربة جداً ، وما يفصل بينها هو خط دقيق .. كما أن التقليديين والمتشددين يشتركون في نفس وجهات النظر في عدد من القضايا ، كما أن المتشددين يستخدمون منشآت التقليديين مثل " المساجد والجمعيات والمنظمات الخيرية .. إلخ " كغطاء ودعم لأنشطتهم !! " [3]

ولقد حاول " راند " مواجهة هذه المعضلة الواقعية من خلال أفكار تقريره الجديد .. و بينما كان تقرير " راند " 2004 يتحدث عن مساندة إسلاميين معتدلين في مواجهة المتطرفين ، فإن تقرير " راند " 2007 قد امتلأ بالأفكار السامة التي تركز على ما يسمونه " علمنة الإسلام " ، ومناصرة العلمانيين ودعمهم ، وأوضحت الدراسة أن " الهدف ليس طرح الصراع بين العالم الإسلامي والغرب ، وإنما بين العالم الإسلامي بعضه بعضًا .. أي ضرب وحدة المقاومة الشاملة للمسلمين عن طريق خلق وحدات مقاومة جزئية ، حتى يحدث الخلاف والتنافس بين القوى المقاومة ، فتنحرف المعركة من معركة مع الغرب إلي معركة بين القوى المقاومة له ..!!

---

[1] التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 105 بتصرف يسير
[2] الإسلام الديمقراطي المدني ، الشركاء والمصادر والاستراتيجيات – شاريل بينارد - ص 72 ، 73 بتصرف .
[3] الإسلام الديمقراطي المدني ، الشركاء والمصادر والاستراتيجيات – شاريل بينارد - ص 50 ، 51 .

وهكذا .. فإن التقرير الحالي لـ " راند " يهدف إلي تغيير الإسلام نفسه ، والمسلمين ككل بعدما ظهر لهم في التجارب السابقة أنه لا فارق بين "معتدل" و "متطرف" وأن الجميع يؤمن بجدوى الشريعة في حياة المسلم ، وأن الأمر يتطلب " اللعب في الفكر والمعتقد ذاتهما ".. و تشجيع فكرة أن فصل الدين عن الدولة ممكن في الإسلام دون أن يؤثر ذلك في الاعتقاد !! [1]

إن " روح التقرير ثقافية تهدف إلى التغلغل لتغيير بنية المسلمين الثقافية بدلاً من الاقتصار على حقل كانت تسعى للعمل داخله في الماضي ، وهو كسر شوكة " المتطرفين " وحدهم ، وهذه الروح إذن تحمل معنى " المراجعة " لسياسة لم يكتب لها النجاح من قبل خلال سنوات قليلة لا تزيد عن أربع سنوات .[2]

ولذلك فإن التقرير الحالي يرى أن التيار المعتدل هو ذلك الذي يرى عدم تطبيق الشريعة الإسلامية .. و يؤمن بحرية المرأة في اختيار "الرفيق"، وليس الزوج .. و يؤمن بحق الأقليات الدينية في تولي المناصب العليا في الدول ذات الغالبية المسلمة .. و يؤمن بتيارين دينيين إسلاميين فقط هما " التيار الديني التقليدي " أي تيار رجل الشارع الذي يصلي بصورة عادية وليست له اهتمامات أخرى ، و" التيار الديني الصوفي"[3] .. ذلك التيار الذي يقف أمام جهود التغيير والإصلاح من خلال إحياء موات الأشكال البالية ، والخرافات الدارسة ، لنري الشخوص المحنطة تتسكع في بلاد المسلمين لتمثل " تقاليد الإسلام " في راوية " راند " الهزلية ..!!

وهكذا .. " يستخدم أعداؤنا التيارات الفكرية بمنطق الاستفادة والمنفعة السياسية البحتة .. ويمنع الفكر من فهم الواقع و فهم الممارسة الاجتماعية فهماً موضوعياً و سليماً يساعده علي التحكم بهما و السيطرة عليهما ، ومن ثم يفرض عليه العيش في نزاع دائم لا مخرج منه ، و يحبس عليه في دائرة الجدل المجهض والمسدود ، و تصبح وظيفة الحوار هي إعادة إنتاج هذا الشقاق الشامل في الوعي و المجتمع ، و ترجمته في الفكر أو عكسه عكساً أميناً بحيث يعطي لكل فريق من المتخاصمين الصورة العدوانية و الهمجية التي يرغب في امتلاكها عن الآخر كي يستطيع شعورياً وعقلياً الاستمرار في الحرب الباردة أو الساخنة. " [4]

وحين يشعر أعداؤنا بضعف خطتهم ، أو بالخطأ في بعض أجزائها ؛ فإنهم يسارعون إلي تدارك الضعف وإلي تصحيح الخطأ ؛ ولذلك انتقل مركز "راوند" من التقرير القديم إلى تقريره الجديد ، فبعد

---

[1] المصدر السابق ـ ص 96 .
[2] موقع البينة *www.albainah.net*
[3] يصفونه بأنه التيار الذي يقبل الصلاة في القبور
[4] إغتيال العقل بين السلفية والتبعية – برهان غليون – ص 45 .

الدعوة إلى تشجيع بعض التيارات التقليدية ضد التيارات " الأصولية "، هاجم التقرير الجديد "الأزهر"، وأوصى بضرورة سحب البساط من بين أقدامه ، وتسليط الأضواء على أماكن أخرى تخرج المعتدلين ؛ وصار أصحاب الإسلام التقليدي هم: " الذين يقبلون بالصلاة في الأضرحة والقبور "، في إشارة واضحة للتيار الصوفي ..!! [1]

إن عدونا يكّيف خططه وفقاً لمستجدات الواقع ، ويحاول جاهداً تحقيق أهدافه من خلال خريطة نفسية لنا " وهي خريطة تجري عليها التعديلات الضرورية في كل يوم ، يقوم بها رجال متخصصون مكلفون برصد الأفكار .. يرسمون خططهم النظرية ، ويعطون توجيهاتهم العملية علي ضوء معرفة دقيقة لنفسية من يواجهونهم ، معرفة تسوغ لهم تحديد العمل المناسب لمواجهة الوعي حسب مختلف مستوياته وطبقاته ... " [2]

ولذلك .. فقد انتقلوا من استخدام " لقاح ضد الدين " يهدهد التدين حتي ينام ، ليخوضوا المعركة الفكرية الفاصلة لاقتلاع الدين .. وهذه هي الحكمة التي تعلمناها من " راند " ، ويمكننا أن نتيقن منها دون بذل عناء ترجمة تقرير " راند " والبحث في تفاصيله ، من خلال تأمل ثلاث كلمات { حتى تتبع ملتهم } [البقرة 120] .. ثم مراقبة كيف يحاول أعداؤنا الوصول إلي أهدافهم من خلال ..

• خيوط العنكبوت

لا شك أن ظروف الصراع الفكري مع أعدائنا قد تكون أكثر غرابة من وصفنا المحدود لها من خلال تقارير " راند " ، لأن هذه التقارير لا تعرض إلا جزءاً ضئيلاً من واقع الصراع الزاخر المتنوع ، الذي يسدل العدو الظلام علي عملياته ، ولا يكشف جزءاً منها لنا إلا ليدخل الباقي في الظلام ،كما تضحي الحية بجزء من ذيلها وتدخل جحرها لتنجو بذاتها..

إن عمل أعدائنا يتلاحق بطريقة خفية لا يمكننا معها إدراكه ؛ لأن لنا " أوضاعاً عقلية تحول بيننا وبين أن نتتبع اللعب حين لا يكون مرئياً أو واضحاً ، وحين تكون الوسائل المستخدمة في قدر حبات الرمل .. مع أن حبة رمل واحدة كافية أحياناً لإيقاف محرك ، إذا ما تسربت إلى أحد أجهزته .. وبعبارة أخرى : قد

---

[1] مستفاد من موقع مفكرة الإسلام *www.islammemo.cc*

[2] الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ مالك بن نبي ـ ص 15 - 17 بتصرف يسير .

تكفي لذعة إبرة في مكان مناسب ليحل الشلل بشبكة علاقات المجتمع .. كما يكفي " لا شيء " لشل الجهاز العصبي في كائن حي أحياناً " [1]

خذ مثالاً :

يريد أعداؤنا .مثلاً. تعطيل مشروع ما في إدارة معينة ؛ فماذا يفعلون ؟ .. الأمر لديهم في غاية السهولة.. موظف صغير يتغيب في اليوم نفسه ، وهنا يتوقف التنفيذ .. فإذا سأل أحدنا : لماذا توقف التنفيذ ؟ .. أتته الإجابة : لأن الموظف المكلف بعمل كذا ، غائب !! .. فإذا قال أحدنا : ولكن الموظف بإحدى الإدارات إذا غاب أو مات ، فإن الوظيفة تستمر .. ؟! .. عندئذ ، يرى من قال هذه الكلمات علامات الاستغراب ترتسم على وجه من يحدثهم ، لأن هؤلاء يجهلون أن هذا الموظف الصغير يمكن أن يؤدي بمهارة دور حبة الرمل التي توقف آلة بأكملها عن الدوران !!

ولذلك " لا بد أن نخشى عدونا حين يستعمل حبة الرمل أكثر مما نخشاه حين يستعمل القنبلة الذرية. لأن عمله حينئذ يفلت تماماً من إطار مراقبتنا ، و يصبح صامتاً ، وخافتاً ، وغامضاً .. و حينئذ تكون نتائجه أكبر " [2] حيث يُحفر الفخ شيئاً فشيئاً ؛ ومن ثم يسهل سقوطنا فيه !!!

" إن عدونا يخرج أعماله كلها إخراجاً فنياً خداعاً ، وهو يذلل أية عقبة تعترض طريقه مستخدماً في ذلك علمه ومقدرته ، ومن أصول الفن لديه أن يقصي صفوة الناس عن أماكن القيادة ، ثم يستخدم لتحقيق مآربه طائفة من خلصائه ؛ فيجند جموع المتخلفين المتهالكين لتقف في وجه دعاة الإصلاح حتى كأننا أمام مشهد روائي " [3] تقوم فيه هذه القوارض بدورها المرسوم في محاولة تمزيق شبكة العلاقات الاجتماعية لمجتمع الحرية الوليد ..

خذ مثالاً :

لنفترض أن أحدهم أراد أن يبرهن على حبه لمفكر لمواقفه الواضحة في توجيه مجتمع الحرية الوليد .. فقام بتوفير الإقامة له في أحد الفنادق ليستريح فترة من الوقت ويتأمل بعمق في صراع مجتمعه مع أعدائه.. فكيف يقوم الأعداء بعملهم الخبيث من خلال قوارضهم ؟

---

[1] ميلاد مجتمع – مالك بن نبي – ص 84 بتصرف يسير .
[2] من أجل التغيير – مالك بن نبي – ص 109 ، 110 بتصرف يسير .
[3] وجهة العالم الإسلامي - مالك بن نبي - ص 101 - 103 بتصرف .

إن المفكر في نهاية " الإقامة يطلب أن يرى قائمة النفقات قبل مغادرة الفندق . وهنا يلاحظ أن جانباً من النفقات قد حمل بند " بار " .. بينما هو لم يضع رجله في بار الفندق مرة واحدة ..

إن كلمة "بار " هنا هي حبة الرمل الصغيرة المخصصة لتحطيم علاقة ما ، في شبكة المجتمع الوليد .. و الموظف المختص قد وضع كلمة " بار " ، حين لم يستطع أن يضع مباشرة كلمة " خمر " ، لأن الكلمة تلفت النظر أكثر من كلمة " بار " ، وهو يعلم مقدماً أن النزيل سيوقع على القائمة قبل الرحيل .

وطبيعي أن يعتذر الموظف ، وأن يصحح الخطأ لو أن النزيل اكتشف الأمر ..!!

ولكن لنفترض أن هذه الكلمة بقيت في القائمة .. فكيف يمكنه استخدامها كحبة الرمل ؟

الأمر بكل بساطة هو أن تمضي القائمة إلى هدفها ، بطريقة أو بأخرى ، حيث يلفت اهتمام من قام بالإنفاق إلى كلمة " بار " مع ما تيسر من تعليق موجز .

ومن الممكن أن نتخيل حينئذ أثر هذه الكلمة علي مشاعر ذلك الرجل الطيب الذي قام بتوفير الإقامة، لاسيما إذا كان التعليق عليها لبقاً !!!

إن المشكلة التي نواجهها أننا لا نكترث بهذه الألاعيب ، لدرجة أنها لا تثير اهتمامنا ، على حين تشغل آثارها في خسائرنا الاجتماعية اليومية جانباً كبيراً .. كما أننا – بكل أسف – لا نستطيع أن نفهم عمل أعدائنا ، إلا حينما يثير ضجيجاً ، كضجيج الدبابة والمدفع و الطائرة.. أمّا حين يكون من عمل القوارض، أو بتأثير حبات الرمال، فإنه يغيب عن وعينا " [1]

إن نظرتنا لعمل الأعداء تقوم . بكل أسف . علي تقدير نتائج " الأسباب الكبرى " ، والانتقاص من نتائج " الأسباب الصغرى " ، بل وربما إهمالها .. بينما الحقيقة أن الإنزلاق بقشرة موزة وُضعت بمهارة تحت رِجل إنسان قد تكون في غاية الخطورة .. وهذا ما تشهد به تجاربنا الخاصة وخبرات حياتنا ؟!

خذ مثالاً :

قد تكون يوماً في وسيلة مواصلات ، وترى أن من جلس بجوارك يسألك عن عنوان ما ، ثم يدخل معك في حديث عن نفسه واهتماماته وقراءاته ، ثم يسألك : هل تحب القراءة ؟ .. وهكذا يتسع الحديث، وفي النهاية يسألك عن كتاب هو أحد كتبك وأنت لم تشر بنصف كلمة إلي شخصيتك كاتباً ..!!

---

[1] ميلاد مجتمع – مالك بن نبي – ص 85 - 87 بتصرف يسير .

ولا يستطيع من له بعض التجربة في هذا الموضوع ، أن يفسر هذه المحاورة الغريبة علي أنها مجرد مصادفة كلامية .. وإنما هي في الحقيقة فصل من فصول الصراع الفكري..!!

ولا شك أن هذا الفصل من فصول الصراع مع بقية الفصول تؤكد لنا أن عدونا لا يعمل منفرداً ، وإنما تتعاون معه عصابة تتقاسم معه الأرباح والجريمة ، وهذه العصابة تعمل بينها بتنسيق ونظام داخلي فيما يشبه المجلس السري ، وكل فرد في هذا المجلس مرتبط بمجموعة ، وكل بدوره يريتبط بعدد أكبر بحيث تتشكل آلة جهنمية في النهاية مثل شبكة العنكبوت تتحرك لتتحكم في الشعوب بطرق قاسية. أحياناً. أو من خلال وضع أغلال حول الأفكار ؛ بحيث يصبح من الممكن " لهذه الصحيفة أو تلك أن تكون هي الأغلال في بلد لا يُراد للأفكار فيه أن تذهب في هذا الاتجاه أو ذاك . ولكي تكون الأغلال من النوع الجيد ؛ فإنه من الضروري وضع كلمات الصحيفة في أفضل ظروف من حيث نوعية الورق مثلاً .. " [(1)] ومن خلال نصوص قد صيغت بصورة جيدة ممهورة بتوقيع كبار الكتاب والمفكرين !!

وهكذا .. يدير أعداؤنا حروبهم معنا من خلال " الإعلام وليس بقوة الأسلحة التقليدية أو أسلحة الدمار الشامل ، أو حتى الأسلحة الذكية ، فعن طريق الرسالة التى يبثها الإعلام يصبح الصراع مرتكزاً على قطبي التنظيم والإدراك ، و يكون النصر للطرف الأكثر تنظيماً والأقل إرباكاً .. و تصبح القدرة على إرباك العدو مساوية للقدرة على تدميره .! " [(2)]

إن " خيوط العنكبوت " تقدم في كل لحظة الدليل القاسي على وجودها ، لكل أولئك الذين لا يريدون رؤية هذا الدليل ، أو يستشعرون صعوبة في رؤية خيوط العنكبوت حين تأتي من بعيد ؛ لأنهم يعيشون حالة من توقف العقل عن التفكير في ظل مجتمعات العبيد التي تقوم علي قاعدة أن ..

• العصا تحكم العقل

حين تغيب الحرية. ربما. لا يتحول الناس إلي مجانين ، ولكنهم يفقدون النظرة الصائبة للأمور ؛ فنري الفرد في تمام وعيه وإدراكه ، بينما الجموع تبدو غائبة عن الوعي ؛ لأنها تفتقد وسيلة التفاهم بين الأفراد في مجتمع أخرس له صفات القطيع لا تجمعه سوى إرادة الراعي الذي يحاكم بعصاه من يتجرأ فيفكر ، أو يسمح لعقله أن يتحرك ، لأن ذلك الراعي يري أن حركة العقل أخطر من تحرك وحدة من الدبابات..!!.. ولذلك فهو لا يقبل أن يستخدم القطيع عقله لمجرد التفكير في تأييده إلا بإذنه ، حتى لا

---

(1) **من أجل التغيير – مالك بن نبي - ص 116**

(2) **النفس المفككة ، سيكلوجية السياسة الأمريكية – د . محمد أحمد النابلسي - ص 197 ، 198 بتصرف يسير .**

يتعود أفراد القطيع علي رزيلة التفكير ؛ فيفقد الراعي سلطانه ..!!

وهذه قصة من عالم الحيوان .. وفتش معي عن العبرة :

ثارت الحيوانات على صاحبها حتى طردته وأعلنت جمهورية الحيوان ، ووضعت شعاراتها "كل الحيوانات متساوون" .. " كل من يدب على أربع أو يطير بجناحين فهو صديق ، وكل من يسير على قدمين فهو عدو" .. " لا يجوز لحيوان أن يرتدى ثيابا أو ينام على فراش" الخ... وانتخبوا الخنزير رئيساً.. ووضع الخنزير يده على الجراء الستة التى ولدتها كلبة حراسة المزرعة ليربيهم لها ، واستطاع في سرّية أن يمرنهم على الطاعة العمياء وإتباع أوامره بما في ذلك الهجوم على من يغضب عليه عندما يشير إليهم بذلك.. وتعود أن يخرج ووراءه الكلاب الستة .. ولم تعلم الحيوانات بما وراء ذلك ، إلا عندما ضاق الخنزير برفض أحد معارضيه .. عندئذ صاح بكلابه صيحة معينة فزمجرت هذه الكلاب وانطلقت تجرى وتعوى في وحشية ، وقد استيقظت فيها طبيعة الذئاب حتى كادت أن تعقر المعارض لو لم يفر ناجياً بجلده ... عندئذ ظهرت السلطة ، واستكملت أخص قسماتها وهى أنها " أداة قمع " .. وأنها وحدها التى تملك السجون.. وتنفذ أحكام الإعدام ..!!

وما حدث في عالم الحيوان لا يختلف . بكل أسف . عما حدث في عالم الإنسان ، حيث ألغيت الحرية بإسم الحرية ، وأنشئت أجهزة الرعب بإسم الأمن ، وعاش الناس في ظل الحكم العسكري يخافون أُذن الجدار ، التي تسمع كل كلمة وتعُد كل نفس ؛ فيكون الويل لمن تكلم بكلمة ينتقد فيها عملاً واحداً من أعمال الفرعون .. السجن والتشريد والتعذيب الذي تعفّ عنه الوحوش .. ذلك أن الوحوش تفترس لتأكل ؛ فإذا شبعت انصرفت وكفت عن الافتراس .. ولكنها لا تفترس من أجل تعذيب الفريسة ، أو التلذذ برؤية العذاب ينصب عليها ، كما يصنع الإنسان حين يفقد آدميته ، وينتكس أسفل سافلين ..!!

لقد كان هدف أعداء الحرية دائماً أن يجعلوا من البشر قطيعاً من الأبدان تروح وتغدو ، تائهة المسير ، مسلوبة الإرادة ، فاقدة الوعي ، مهتزة الهوية .. يحاولون ذلك من خلال معاقبة المخالفين في الرأي .. ومكافأة الأزلام .. ومن قبل ذلك وبعده ، الإكراه العقائدي الذي لا يشم الإنسان معه رائحة الحرية إلا حين يكون وراء قضبان السجون !! .. ولا غرابة ، لأن الحرية تعني التعبير ، والتعبير ثمنه السجن ، فإذا دخل الإنسان السجن لم يبق سجن آخر ، ومن ثم يستطيع ان يتكلم بـ " حرية " !!!

وهذه قصة سجين يخرج للحياة .. وفتش معي عن العبرة ؟!

عاش حياته يطالب بالعدالة والحرية ؛ فسجن سنوات .. و حين خرج من السجن ، كانت حالته المادية سيئة للغاية .. لا تساعده على دفع ايجار شقته الضيقة الصغيره .. قرر أن يتركها ويبحث عن غرفة صغيرة خارج المدينه يقدر على دفع كلفتها.. و بعد بحث طويل عثر علي بغيته .. منزل شعبي مؤلف من غرفة صغيرة .. يبعد عن المدينة مسافة ساعتين سيراً على الاقدام ..

أمام المنزل بنيت بقالة صغيرة من بقايا الاخشاب ، وإلى يسارها كوخ لبيع الخضار..

كان البائعان يشتكيان من قلة عدد الزبائن في المنطقة .. ومن فقرهم المدقع ..توطدت عري الصداقة بينه وبينهم .. بعد فترة قصيرة من استقراره في مسكنه الشعبي حضر إلي الحي بائع الكعك وبائع الذرة.. ثم بائع المياة الغازية .. واستقروا جميعاً مع عائلاتهم في الحي .. لقد تحول المكان بمرور الوقت إلى سوق تجاري بسيط .. وكثر الباعة المتجولون..وشيد هناك مقهى.. وبدأ عمال النظافة يكنسون الشارع مراراً..!!

في يوم من الأيام قابل السجين في طريقه أحد معارفه ، والذي عرض عليه أن يشاركه سكنه في المدينة.. أعجبته الفكرة كثيراً ، وبينما يطوي متاعه ليغادر منزله الشعبي ، إذا بالباب يُقرع ويدخل البقال وبائع الخضار..إعتذر لهم أنه لا يملك شيئاً ليقدمه لهم .. فقالوا له : لا بأس فقد أحضرنا معنا الشاي والسكر..لقد سمعنا أنك تنوي أن تغادر.. قال لهم : نعم .. قالوا له : لقد حضرنا لمنزلك لنطلب منك البقاء وعدم الإنتقال ، لأنك رجل بَرَكه !! ، ومنذ أتيت لهذا الحي والحركة التجارية في ازدياد مستمر..ونحن من سيدفع لك إيجارك وأيضا سندفع لك أجرة لكي تبقي..فأنت كما قلنا لك رجل بركه وأي بركه ..!

شكرهم على عرضهم .. واعتذر عن قبوله .. لكنهم أصروا عليه ..كان على وشك أن يجهش بالبكاء لأنه ظن أن هناك ثمة تغيير في هذا البلد يحدث..وكأن صحوة بدأت توقظ الناس من سباتهم ..!!

عرضوا عليه أن يستأجروا له منزلاً أفضل..وأن يأتوه بخادم يخدمه ..وأن يبعثوا له بالطعام كل يوم مجاناً..لكنه أصر على الرفض.. وعندئذ .. أخبروه بالحقيقة .. إسمع يا أستاذنا الكبير..أدامك الله لنا ذخراً وعزاً..عندما حضرت إلي منطقتنا..بدأت الشرطة السرية تجوب شوارعنا بمظاهر متعدده " زبال ، ماسح أحذية ، الخ " ..لمراقبتك ووضعك باستمرار تحت أنظارهم .. وجاء من يراقب هؤلاء الذين يراقبونك .. و استقر أغلبهم..في هذا الحي .. فازدهرت تجارتنا..وأصبحت حالتنا المادية ممتازة..فإذا

انتقلت أنت من هنا..ستعود المنطقة إلى حالها من الفقر والعوز لأن الجميع سيرحلون ليقتفوا أثرك.. فرجاء لا ترحل..وأجهشوا في البكاء..وأجهش معهم في البكاء .. ولكن لأمر آخر..! [1]

إن الإنسان في مجتمعات العبيد يبقي مطارداً من خلال عيون وآذان أجهزة الأمن ، وحتى حين تنقطع أخباره عن هذه الآذان وتلك العيون ؛ فإن السجلات التي تحوي نشاطه لا تُمحي قط " فإذا تخرج الطالب من الجامعة وانغمس في خضم الحياة سعياً وراء لقمة العيش ، وكداً في البحث عن وظيفة وسكن وزوجة ، أو هجرة إلى بلاد النفط أو إلى بلاد الوفرة ، ونسي النشاط السياسي العام الذي أصبح من ذكريات الشباب وأيام الصبا التي لن تعود ، وإذا تاب عن العمل العام لأنه أدرك أنه لا فائدة ، فإن أجهزة الأمن لا تتوقف عن استدعائه ليُسأل : لماذا توقف عن النشاط ؟ هل ترك العمل العلني للانخراط في العمل السري ؟!! " [2] .. وربماً بقي في ظلمات المخابرات بصحبة وجوه ممتقعة مصفرة خاشعة من الذل فلا تسمع إلا همساً. وتعرض لأمور تحفر في ذاكرته أخاديد لا تنسى .. حتى إذا انتهت حفلة منكر ونكير ، عاد إلي بيته بوصية لوط ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ..!!

وهكذا .. يتعامل الطغاة مع العبيد من خلال معاييرهم الخاصة ؛ " فيسوّغون كل انتهاك للمبادئ من قبلهم وفق تلك المعايير ، فالقضية الأساسية بالنسبة إليهم هي تحقيق مصالحهم الضيقة ومنافعهم الخاصة، وقد غضّوا النظر عن المبادئ ، أو الأخلاق .. فالمباديء عندهم لا تعدو أن تكون برقعاً جميلاً يخفي وراءه وجهاً بشعاً ، وكلاماً علي اللسان معسولاً يغطي فعلاً أثيما. [3] .. والأخلاق عندهم كالمناديل الورقية التي تستخدم مرة واحدة لتحقيق مصلحة ، ثم تلقي في سلة المهملات .. !!

هكذا هي المباديء والأخلاق عند أولئك الذين نشأوا في كنف أعدائنا وتربوا علي أيديهم وأشربوا في قلوبهم ثقافتهم .. هذه الثقافة التي يقوم عليها صنف من الناس بعيد عن الإنسانية ، و معادٍ للإنسانية ، و معزول عن الإنسانية ، وهو مُصِرٌّ علي أن يعزل نفسه بنفسه عن الإنسانية ، ولا يرضي عن عزلته أي بديل سوي أن تخضع لسلطانه الإنسانية كلها في كل أقطار الأرض من خلال كل صور الفتنة والفساد التي تسولها له نفسه التي يمكن أن نطلق عليها ..

---

[1] راجع إن شئت " يسلم الوطن " مجموعة قصصية لـ " عزيز نيسين "
[2] جذور التسلط وآفاق الحرية – د . حسن حنفي - ص 198 بتصرف يسير .
[3] الإسلام في معركة الحضارة - منير شفيق - ص 158 .

• النفس المغلولة

حين ندرس الخلفية النفسية لمجتمع بني إسرائيل المعاصر ، فإننا لا نقوم بهذا لكي نطالع التنوع الإنساني .. أو لكي نبحث عن عيوب الآخرين .. وإنما لأن هذه المعرفة ضرورة لنا ، لأننا المرشحون للقيام بدور الفريسة والغنيمة الباردة لذلك المجتمع ، ومن ثم فلا بد لنا من معرفة هذا المجتمع بأدق الدقائق ، لنقدر على مواجهة هذا الخصم الخطير .. وهذه المعرفة لا تتكون بصيحات التشنج الغاضبة ، وإنما بالتأمل الهادىء ، والرجوع إلى أحداث التاريخ قديمه وحديثه .. فماذا نجد فيها ؟

لقد نجح بنو إسرائيل في عبور البحر تحت مظلة المعجزة ، ولكن لا فائدة من جيل مريض نشأ في العبودية وتركت السياط في ظهره أنفاقاً ؛ فأمام " المن والسلوى " كان لعابهم يسيل لمذاق الثوم والبصل؛ فيقولون لموسي عليه السلام : { لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها } [البقرة 61] .. وهو دليل على الذل والهوان الذى مازالوا فيه ، و " البنية النفسية المفككة والجبلة الهابطة المتداعية " التى لا تريد أن ترتفع إلى الغاية السامية، فقد رفضوا أن يدفعوا ثمن الحرية ، وتكاليف العزة ، ولو بتغيير مألوفات حياتهم الرتيبة فى الطعام والشراب " !!! [1].. ومع تظليل الغمام في هجير الصحراء ، طلبوا أن يروا الله جهرة . و عند المرور على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قفزت مجموعة لتقترح على موسى أن يجعل لهم " إلهاً كما لهم آلهة ".. وما يكاد موسى يتركهم في رعاية هارون ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختيار ، فيعبدون عجلاً جسداً له خوار " فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي "..!!

" إنهم قوم فسدت طباعهم كما فسدت عقولهم ، لا يرعون عهداً ولا ذمة ، ولا يحفظون فضلاً أو نعمة.. لقد رفض أكثرهم تعاليم الله ، وما شرع لهم في التوراة قائلين : إنا لا نستطيع صبراً على ذلك فرفع الله جبل الطور فوق رؤوسهم " وإذ نتقنا الجبل فوقهم " أى رفعناه .. والقصة كما يرويها ابن كثير عن ابن عباس قال : ثم سار موسى بهم إلى الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب ، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم إياه من الوظائف ، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وأيقنوا أنه مهلكهم إن لم يأخذوا ما آتاهم ." [2].. و لكن لا فائدة للمعجزات مع عبيد ضمرت أجهزتهم النفسية ، وتحولوا إلى أقزام أمام مهمات العمالقة ؟!!

---

[1] في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 1 ص 74 باختصار .
[2] بنو إسرائيل في القرآن الكريم – د . محمد عبد السلام أبو النيل - ص 37 .

إن التاريخ يكشف لنا أن اليهود يشكلون نذر ظلام في خضم اندفاع التاريخ ، وأن " عقدة الإنفصال عن البشر ، والإمتياز على أمم العالم اتخذت طريقها إلى النفسية الإسرائيلية ، وأصبحت عاملاً أساسياً في تكوين شخصية هذه الطائفة من الناس منذ القدم ، عن طريق الأنساب والأعراق ، وعن طريق الذكريات الدينية والسياسية التى تضخمت وغلظت مع الزمن " [1]

لقد ابتكر اليهود ديناَ " يغذي الاعتقاد بأنهم شعب متفوق " اختاره الله " على مَنْ سواهم من الشعوب و " فضلهم على الشعوب الأخرى " ومنحهم حقاً مقدساً ليحكموا العالم مع التزام مقدس بالمحافظة على نقاء ثقافتهم وجيناتهم ..!! [2] " [3] بل إننا نجد قولاً مأثوراً ردده التلمود أكثر من مرة ، هو : " كما أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء ، فإنه لا يمكن أن يعيش بدون إسرائيل " ..!!

وهذا القول وحده كاف لوضع علامات على حدود الشخصية الإسرائيلية ، إذ يمكن بسهولة أن نستنتج منه النزعة العنصرية التى تجعل الإسرائيلي يشعر أنه من جوهر غير طينة البشر جميعاً ، وأن هذا الجوهر متفرد بأسرار ومواهب لا توجد في غيره ، وأن الإسرائيلي قد خُلق كذلك بتدبير سماوي ، لأن الدنيا التى أبدعها الله سبحانه وتعالى ما كان يمكن أن يستقيم أمرها من غير اليهود !! " [4]

و تزداد نزعة التخصيص لدي اليهود حتى يرون " اليهودي مسئولاً أمام الإله عن الأذى الذي يلحقه باليهود الآخرين . لكن بإمكانه أن يغش أو يسرق أو حتى يقتل غير اليهودي دون أن يكون مسئولاً أمام الرب ، ودون أن يعتبر ذلك انتهاكاً لتعاليم الدين .. فمفهوم الحقوق لدي اليهود يقترب " من قواعد القانون الروماني ، فالمحرمات واجبة العقاب تتحول إلى مباحة إذا كان ضحيتها الغير " غير اليهودي ". ولذلك فإن استباحة الآخر هي الشرط الرئيس لتبرير العدوان . فإذا ما وصلت هذه الاستباحة إلى حدود العبودية ، فإنه يصبح من حق السيد أن يعتدي على مقدسات الآخر . " [5]، بل و تحويل هذا الآخر إلى مجرد أسماك ملونة في حوض يتفرج عليه اليهود ، ويتحكمون في مياهه ونظافته وغذائه !!

---

[1] **الشخصية الإسرائيلية – د. حسن ظاظا ـ ص 35 .**

[2] **قرأت كتاباً عنوانه " جغرافية الفكر " لاثنين من أنصار اليهود " نتانيال ويل " و " ستيفن بوسوني " .. يدعي الكاتبان بصورة واضحة ومباشرة أن اليهود متفوقون جينياً وثقافياً وأخلاقياً ..!!**

[3] **الصحوة ، النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية – ديفيد ديوك ـ ص 461 – 463 بتصرف .**

[4] **الشخصية الإسرائيلية – د. حسن ظاظا ـ ص 10 .**

[5] **النفس المغلولة – سيكولوجية السياسة الإسرائيلية – د. محمد أحمد النابلسي ـ ص 10 بتصرف يسير .**

إن حياة أفراد المجتمع الإسرائيلي [1] قائمة على " الاغتصاب " ، وهم يرون أن هذا الاغتصاب لا ينجح إلا بالاعتماد على " الارهاب " ، وأن الإرهاب لا يقوم إلا على صُنع " الرعب " عند ضحاياهم ، والحصول على الإعجاب من " المتفرجين " .. كما يرون أن " السلام يخرجهم من لعبة السيد والعبد ، لأنه يجعلهم يتساوون مع من يعتبرونهم عبيداً ..!! " [2].. وكلما تضخمت عقدة الشعور بالتميّز في نفوس اليهود ، تضخم معها الحقد على أمم العالم ، فاعتزلوه بصور شتى .. كان منها " الجيتو " [3] ، أو حارة اليهود ، وهي صورة من صور العزلة فرضها القوم على أنفسهم ، وهي تعد بحق بوتقة يتم فيها سبك الشخصية اليهودية الحاقدة على كل البشرية .. !!

هذه هي الشخصية اليهودية .. وتلك هي النفس المغلولة التي تقف من وراء سلوكيات اليهود في كل زمان ، وفي هذا الزمان .. ولكن اليهود يزورون كل تلك الحقائق من خلال هيمنتهم علي الإعلام " فبسبب النفوذ اليهودي في وسائل الإعلام والأخبار ، لا نسمع سوى روايتهم ، ولا نشهد على شاشة التلفاز أو السينما سوى حكايتهم ، ولا نشارك سوى تفطر قلوبهم عبر الكتب التي نقرؤها ، ولا نري سوى أجسادهم المشوهة في الصور وفي الأفلام ، ولا نسمع من أساتذتنا سوى أهوالهم . " [4]

إن " شاشات التلفاز والسينما كل عام تمتلىء بعشرات الآلاف من القصص حول يهود أذكياء ، عطوفين غير أنانيين ، وأخلاقيين ، شجعان ، كما تملأ مثل هذه الحكايات صحفنا ومجلاتنا وكتبنا ، ومسارحنا ، ومنابرنا ، ومنصاتنا ، وحلباتنا وأمواجنا الإذاعية ومحطات البث عبر الأقمار الصناعية ... وهناك آلاف من صور يهود أبرياء ونبلاء وأبطال اضطهدوا وظلموا ، في حين يصور خصومهم بأنهم تجسيد للشر !!! " [5]

وهذا ما خطط له اليهود منذ زمن بقولهم : " لن يصل إلي الناس خبر واحد من الأخبار ما لم يكن هذا الخبر قد سبق إخضاعه لسيطرتنا وتَمَّتْ صياغته بصياغتنا ، ولقد تحقق لنا هذا الهدف الآن في الواقع الفعلي حيث إن العناوين الرئيسة للأخبار تتلقاها لتوزعها وكالات أنباء قليلة العدد ، تفحصها ثم تضبط صياغتها ثم تذيعها في جميع أنحاء العالم . " [6] لنخلق لغير اليهود الاهتمامات التي " تشتت انتباهم ،

---

[1] **في مقال لـ " مصطفى زيور " بعنوان " أضواء على المجتمع الإسرائيلي – دراسة في التحليل النفسي " ، ركز الكاتب في تحليله لهذه الشخصية على انقلابها من الاستكانة والذل والاختناق في الغيتوات (حارات اليهود) ، إلى الشراسة والإرهاب و الاندفاعات العدوانية المتوحشة ..!! ، فراجعها إن شئت في عدد الأهرام بتاريخ 8 . 8 . 1968 م**

[2] **النفس المغلولة – سيكولوجية السياسة الإسرائيلية – د. محمد أحمد النابلسي - ص 10 بتصرف**

[3] **في رأي كثير من مؤرخي اليهود أن هذا الحي كان يسمى بالإيطالية " بورجيتو " أي القرية الصغيرة ، ثم تآكلت اللفظة مع الاستعمال ، فلم يبق منها إلا آخرها " جيتو " الذى انتشر بعد ذلك ليصبح اسماً لكل الأحياء المماثلة في أوروبا .**

[4] **الصحوة ، النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية – ديفيد ديوك - ص 357 .**

[5] **المصدر السابق - ص 35 .**

[6] **اليهودي العالمي - هنري فورد - ترجمـــة :علي الجوهري - 347 بتصرف يسير .**

وتصرف أنظارهم عن الأمور السياسية التي يعارضوننا بشأنها ، وعندما يزداد انصرافهم عن التفكير في الموضوعات التي تهمهم سيبدأون في ترديد كلامنا وأفكارنا ؛ لأننا نقدم لهم الأفكار الجاهزة الجديدة والاتجاهات العقلية المنشودة ، وسيتم لنا ذلك بالطبع من خلال أفراد لا يتطرق إليهم الشك ، ولا يرتاب أحد في أنهم يهود أو منتمون لليهود ، أو يعملون لتحقيق أهداف يهودية " [1]

هكذا خطط يهود .. وقد نجحوا في كثير مما خططوا له ، وإذا تأملنا " هذا النجاح والوصول إلي امتلاك الأموال وأسباب النفوذ والقوة والسلطان الذي تحقق لهذه الأقلية اليهودية ذات العنصر المكروه في كل البلاد علي مدار التاريخ ؛ نجد أننا بصدد احتمالين لا ثالث لهما ، وأول هذين الاحتمالين هو أن أفراد هذه الأقلية اليهودية ذات العنصر المكروه أناس متفوقون يملكون قدرات خاصة بهم خارقة للعادة ، والاحتمال الثاني هو أن غير اليهود هم الذين سمحوا لليهود أن يحصلوا علي الأموال وكل أسباب القوة والنفوذ والسلطان ؟!! " [2] وهذا الاحتمال هو الصحيح .

لقد برز أولئك اليهود علي السطح ، و صاروا اليوم القوة العالمية التي تسيطر بأفكارها الشريرة ومخططاتها الشريرة علي العالم " بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ " .. " { بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ } أي بقدر منه ومشيئه ، وبمدد من الله . فإنه لا يحدث شيء في الكون بغير قدر ومشيئة ، ومدد من الله .

{ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ } . . تأييد من الناس .

وقد يتبادر لأذهاننا لأول وهلة أن الحبل من الناس هو تأييد أمريكا المطلق بغير حدود ، أو تأييد غيرها من الدول. ولكن الآية تشمل الناس جميعاً ، إلا من رحم ربك . والواقع اليوم أن كل البشر .إلا من رحم ربك .هم الجنود لليهود . . !!

خذ السينما علي سبيل المثال . .

السينما فن يهودي : فكراً ومالاً وتخطيطاً ، لإفساد أخلاق الأميين . . فكل فتي أو فتاة في الأرض أصابه جنون السينما فهو حبل من الناس يمد اليهود . يمدهم بالمال ، ويمدهم بالفساد في ذات نفسه فيحقق لهم مخططهم الرامي إلي فساد أخلاق الأميين وعقائدهم لتسهيل السيطرة عليهم وتسخيرهم لمصالح الشعب الشيطان !

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 285 بتصرف يسير .**
[2] **المصدر السابق ـ ص 323 .**

جنون التليفزيون . . جنون الفيديو . . جنون الكرة . . جنون الأزياء . . جنون الزينة . . كلها أنواع من الجنون بثها اليهود في الأرض ..!! " [1]

إنهم اليهود أصحاب النفس المغلولة التي يستعبدها المال ، وتكبلها الشائعات ، وتخنقها الأساطير ، ويعيبها التفكك والهشاشة ، ويملأها الجبن ، فقد كان " ردهم علي موسي عليه السلام عندما طلب منهم دخول الأرض المقدسة هو قولهم : { إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون } [المائدة 24] .. وهو " دليل على الجبن والوقاحة " .. وهكذا يُحْرَج الجبناء فيتوقحون ، ويفزعون من الخطر فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون ! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين ، بل إنهما لصنوان فى كثير من الأحيان . يُدفع الجبان إلى الواجب فيجبن ، فيحرج بأنه ناكل عن الواجب فيسب هذا الواجب ، ويتوقح على دعوته التى تكلفه ما لا يريد " [2]

وإذا كان هؤلاء هم اليهود في تاريخهم البعيد ؛ فهم اليوم لم يختلفوا " ففي أثناء حرب الأيام الستة كان قائد الدبابة يربط فيها بالسلاسل ..!! بل يحدثنا مراسل مجلة " دير شبيجل " الألماني الذي رافق قوات تل أبيب في صحراء سيناء ، أنه عندما كانت المعركة تتوقف وتغادر القيادات المركبات المصفحة يلحظ بكثير من الدهشة كيف أن خلف تلك القيادات وأسفلها كان مبللاً وممتلئاً بالروث ، وذلك في مواجهة الجيش المصري الذي كان يجري أمامهم حافي القدمين بعد أن ملأ الصحراء بأحذيته !! . " [3]

إنهم اليهود .. أصحاب النفس المغلولة .. عبدة الدولار ، وتجّار أسلحة الخراب والدمار ، الذين يشيعون الفتن الفكرية و الأخلاقية والسياسية في المجتمع البشري زاعمين أنهم قوامون علي الحضارة الإنسانية .. وكأنهم يرددون من أشد منا قوة ؟! .. وهم في غفلة عن أن لكل شيء نهاية ، وأن نهاية الغدر بالمعاهدات ، ونهاية هذه الأكاذيب المتفشية ، وهذه الحملات الغاشمة ، ونهاية هذه الغطرسة العنصرية.. نهاية هذه جميعاً سم مصفي يتسرب في شرايين من اختارهم الشيطان ، والمطامع الدولية ، وأصابع الاستكبار ، ليكونوا شعب المؤامرة المختار .. وليس شعب الله المختار ..!!

---

[1] دروس تربوية من القرآن الكريم ـ محمد قطب ـ ص ص 65 ، 66 .
[2] في ظلال القرآن ـ ج 2 ص 870 .
[3] خطابات إلي الأمة والقيادة ـ د : حامد عبد الله ربيع ـ ص 252 ، 253 .

" إن شعب الله المختار في كل عصر هم المؤمنون بالله الذين يرفضون بإيمانهم عبادة الإنسان للإنسان.. إنهم أصحاب الإيمان الشجاع المقدام ، المتمرد على الكفر والظلم والطغيان " [1].. وأولئك المؤمنون ، بهذه الصفات ، هم القادرون. بإذن الله علي هدم بيت العنكبوت من خلال ..

• إمتلاك القوة السياسية

يحاول الغرب من خلال المكر والتآمر إلقاء الخوف في قلوبنا ، بينما الحقيقة أنه هو الخائف ، ويغطي خوفه بتصدير الخوف لنا .. وما خوفنا منه إلا وهم تصنعه " عقدة النقص التي تربت فينا بعد الانبهار به وتقليده ، فالغرب يبدع ونحن ننقل ، هو يؤلف ونحن نترجم ، يضع النماذج ونحن نطبقها ... يخطط للمستقبل ونحن نعيش في الماضي ، يحلل ويدرس ويفهم الأسرار ويكتشف المجهول ويرتاد الصعاب ويركب المخاطر ، ونحن نؤمن ونستقبل المعلومات الجاهزة ..!! " [2]

ولا سبيل لنا للتخلص من هذه العقدة إلا أن نؤمن أن الصراع بيننا وبينه هو في حقيقته صراع إرادات ، من يُصدر الخوف لمن ؟ من يُلقي الرعب في قلب الآخر ؟ .. وأنه إن كان يصعب علينا. أحياناً. مواجهة قوته لعجزنا عن تلك المواجهة ؛ فإن قدرتنا علي تقوية أنفسنا ستظل أمراً متاحاً لا يقدر أحد علي منعنا منه .. فإذا أردنا. مثلاً. مواجهة دراسة بحجم تقارير " راند " ؛ فإننا نحتاج إلي فعل إيجابي يكون مكافئاً لها..

ولكي يمكننا القيام بهذا الفعل لا بد لنا من عدة معطيات ومفاهيم ترسم ملامح التعامل مع مثل هذه الإصدارات والمقالات والدراسات الغربية .. ومن أهم تلك المعطيات أن نذكر أن هذه التقارير ليست كتاباً مقدساً لا عندنا ولا عند واضعيه ، وأنه من الممكن مثلاً أن يكون ما يصلنا منها هو النسخة العلنية من التقرير الأصلي .. وأن بعض عباراته قد تكون ألقيت في طريقنا عمداً ، لتقوم بتوجيه حركتنا من خلال هذا التقرير أو غيره من التقارير لـ " راند " أو سواها من المصادر غير البريئة ، والتي يدرك عدونا أن لحديثها ثقلاً في عقولنا ، فيحاول أن " يتسلى على حسابنا .. ويرى كيف ندخل في جحورنا الصغيرة عند أدنى ضربة جرس ..!! " [3]

---

[1] الشخصية الإسرائيلية – د. حسن ظاظا - ص 6 بتصرف .
[2] جذور التسلط وآفاق الحرية – د . حسن حنفي - ص 99 - 102 بتصرف .
[3] من أجل التغيير – مالك بن نبي - ص 102

وحتى لا يمارس عدونا هذه اللعبة غير البريئة معنا ، فإننا في حاجة إلي كم من الدراسات حولها للتحذير منها ، ولتحفيز أصحاب الأفكار أن يسعوا للدفاع عنها ضد هجمات إمبراطورية تعبد لها الطريق دراسات استراتيجية صادرة عن مراكز بحوث هي حاضنة السياسات المستقبلية لتلك الإمبراطورية المزعومة ، والتي لن تكف عن لعبتها هذه حتى تتوافر لديها جميع الشواهد التي تؤكد أننا نمتلك القوة السياسية ..

ومن هذه الشواهد " أن تكون قضيتنا مؤيدة على مستوى الرأي العام اجتماعياً وفكرياً ، وأن يكون التعاطف مع أصحابها ثابتاً ومؤكداً ، ويلاحظ في هذا الشاهد أنه لا يحسب فقط من خلال التأييد والتعاطف القائم ، بل يشمل " مدى قابلية " غير المؤيدين لأن يكونوا مؤيدين .. ثم وصول أولئك المؤيدين لقضية القوة السياسية كثرة عددية تبلغ مستوى القاعدة الجماهيرية ؛ بحيث يصل مستوى تلك القاعدة إلى أنها تكاد تمثل موقف " الشعب " أو الأمة .. وذلك عبر تمثل هذه الكثرة في نماذج متعددة من جميع المستويات الاجتماعية بحيث لا يمكن تقييده بمستوى اجتماعي معين أو فئة اجتماعية " [1] .. ثم يحاول هؤلاء اكتساب الوعي بالواقع حتى لا يكون تحركهم في صورة " تيار عاطفي ضخم مؤمن بالإسلام ومبادئه ، ولكنه قليل الخبرة ، ضحل المعرفة بتفصيلات واقعة ، يفتقد الخبرة والصبر ليكتشف مناهج التغيير وطرائقه ، و يتعجل قطف الثمار ، ولا يحسن فن ترقب الفرص ..!! " [2]

ولا شك أن هذا يقتضي " كثيراً من اليقظة والتنبه للتيارات الفكرية ، وللسمات الموحية بشكل هذا العالم التي تتمخض عنه الأيام .. ومحاولة اختيار دورنا ، بدلاً من أن نرغم علي أداء دور نجهله أو لم نستعد له " [3]... و ذلك من خلال فهم ما يجري حولنا ، وامتلاك القدرة علي التوقع للمستقبل ، ورؤية الحقيقة كما هي دون أي مغالطة أو تغليف يجردها من مضمونها الواقعي ، واليقين بأننا لا نستطيع كسب معركة الحياة والموت مع عدونا ما لم نعترف أننا نخوض حرباً ، وأننا نتكبد خسائر فادحة . وخسارة هذه الحرب تعني دمار ثقافتنا ، وتراثنا ، وحريتنا .. ثم نقوم بعد ذلك بمراجعة ما جرته قلة الوعي والسياسات اللامسؤولة وغير المؤصلة في فريق ، والوصولية في ثالث ، واتباع الهوى في رابع ، وأحادية النظرة واختزال التغيير في المواجهة المتهورة في خامس ، والاقتصار على الدعوة الوديعة في سادس؟!

---

(1) **التصور السياسي للحركة الإسلامية – رفاعي سرور - ص 5 ، 6 بتصرف .**
(2) **مشروع النهضة - سلسلة أدوات القادة "الذاكرة التاريخية " - د. جاسم محمد سلطان - ص 28 ، 29 .**
(3) **المجتمع المصري جذوره وآفاقه - سيد قطب - إعداد وتقديم : ألان روسيون - ص 210 ، 211 .**

وإذا كان أعداؤنا اليوم يحاولون استلاب حريتنا وسرقة ذواتنا من خلال مكرهم وكيدهم ؛ فإن الغد يحمل بين طياته عالماً جديداً تتمخض عنه الوقائع .. قد أخذت ملامحه في التكوين والظهور .. و سيكون عاماً جديداً بمعني الكلمة ، و سيبني علي أسس غير أسس هذا العالم .. الأسس التي شكلت بداية أمتنا.. هذه البداية التي قامت علي قواعد الحرية و العدل و الإحسان ، وإنزال القيم مناط التطبيق ، وحمل المبادئ فوق الأشخاص ، وزرع نبتة الأخوة الحقيقية .. التي تقهر بخيوط علاقاتها الإجتماعية ، الاستبداد والتسلط الذي يمسك المستعبَدين من خلال خيوط الخوف الرفيعة كخيوط بيت العنكبوت ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، لو كانوا يعلمون ..!!

***

الباب الرابع : الحرية و الحضارة

ويشتمل علي فصلين :

الفصل الأول : الحرية شرط الحضارة

الفصل الثاني : الإسلام رسالة الحرية

إذا نظرنا إلي واقعنا اليوم ؛ ربما قلنا أنه واقع الهاوية .. ولكن هذه الكلمات لا تعني أكثر من وصف موجع لم يتقدم بعد باتجاه الحل ، فضلاً عن أن يكون هو الحل ..!! .. فالواجب أن نمتلك المنهج الذي نُخرج به العالم من العبودية التي يعيش في أسرها إلي الحرّية التي لا تتحقق إلا في ظلال " لا إله إلا اللّه " كلمة الاستقلال والحرّية .

ولكي نصل إلي هذا الهدف ؛ فلابد من إعادة تركيب ملامحنا لنطل على العالم بوجه له سمة التسامح والمرونة ، وعقل يحمل مشروع تحرير الإنسان ، وقلب يأنس به كل من يقابله من بني البشر ، ومجتمع حيّ متحرك ، تراه العيون ، وتلمسه الأيدي ، وتلحظ آثاره العقول ، فتتيقن أن الإسلام دين موضوعه " الإنسان " ، وهدفه " تحرير " هذا الإنسان من الأغلال والآصار التي صارت عليه ..

فإذا استوت حريته على سوقها ، كانت إمكاناته طوع يده ، وطاقاته طوع فكره ، ومصيره طوع إرادته ، وكان التخطيط طريقه إلي إقامة الحضارة الربانية علي أساس من العدل والحرية .. في مقابل حضارة الغرب التي لا تتورع عن قتل الإنسان ، أو استعباده حقيقة بالبيع والشراء كالمتاع والدابة ، أو معنوياً بحرمانه أقل حقوق الإنسان المكرم .

الفصل الأول

الحرية شرط الحضارة

في هجير الاستعباد تتحول الحرية من نعمة لكل الناس إلي حكر علي فرد تحيط به عصابة .. وتتحول الكرامة من أعز ما يعتز به الإنسان إلي منحة من الطاغية للمستعبَدين.. ويضيع الأمن ؛ ليقض الخوف مضجع كل فرد وأسرة ، ويمارس زبانية الطاغية قتل الإنسان بالتجويع تارة ، وبمنعه من ممارسة حريته الفكرية تارة أخري ، فإذا عزم علي مغادرة الوطن ، اكتشف أنه قد تحوّل إلي سجن كبير تحاصره عشرات البوابات ..!!

وهذا هو واقع الإنسان في مجتمع الاستعباد ، أو ما يشبهه قتامه ورداءة ، لا يمكن تزيينها بمقولات خطابية إنشائية رنانة تستهدف رفع المعنويات واستنهاض الهمم ، ودفع اليأس والإحباط الذي يتسلل إلى النفوس والعقول ، فيؤدي إلي رذيلة الاستسلام الجماعي ورفع المناديل البيضاء !!

إن الاستبداد سرطان لعين ينمو ببدايات بسيطة لا ينتبه لها أحد مثل الغرسة الضعيفة ، لتصبح شجرة باسقة طلعها كأنه رؤوس الشياطين تظلل بأغصانها شعوباً كاملة بالرعب ، وتغلف سماء حياتها بشفق أحمر من المعاناة ، ولا سبيل إلي الخروج من واقع الاستبداد والتخلف إلي حياة الحرية في الفضاء الحضاري إلا من خلال الفكرة التي تحرر الإنسان من كل ضروب القهر ، و تزوده بأهداف وقيم عليا تعطي معنى لحياته ؛ فيستعلي عن أن يستعبِد غيره أو يُستعبَد هو من أحد .. وتسود الحرية التي تكشف للأفراد كل الذئاب التي تهم للانقضاض عليهم وافتراسهم .. وتجمع بين عزائم الأفراد لتطويق هذه الذئاب واقتلاع أنيابها .. وتقوم بتنمية مناعات الأفراد ومصادر قواهم فلا يكونون فرائس سائبة أو ضحايا هينة ..

ونظراً لندرة " التذكير" الفكري لأثر الحرية ، وتفاعلاتها الإيجابية، وما يمكن أن تفرزه في فضاء التحضر، كان من الضروري أن نلقي شيئاً من الضوء علي قضية الحرية في الفضاء الحضاري ، وكيف أنتج غيابها تعاسة الإنسان "الآلة" في ورشة التمدن. ولا أقول التحضر..الغربي [1] ؛ فأخذ هذا الإنسان يلهث

---

[1] التمدن ـ فيما أري ـ يعني التبادل المادي بين الإنسان والأشياء ، أمّا التحضر فهو الحياة وفق منهاج السماء .

ويتعب من أجل تطوير الإنتاج نوعاً وكميةً ، حتى ولو كان ذلك على حساب الإيمان الذي يفقد غيابه الحياة طمأنينتها ويسلبها نضارتها وبهاءها ..

إن الحضارة تحتاج إلى تقنية عالية من عدالة الضمير الذي يصرخ عن بخس الإنسان حقه ، ويرى أن توفير الأمن والهداية هو أهم خصائص التحضر ، وأن الوصول إلي هذا الهدف لا يكون عبر الأماني والأحلام ، وإنما له طريق واضح تبدأ ببذل الجهد لإدراك ، ما هي الحرية ؟ وما هي الحضارة ؟ .. وما طبيعة العلاقة بينهما ؟ .. وما موقع الإسلام من عملية التحرر والتحضر إيجاباً ، والاستبداد والتخلف نفياً وعدماً ؟ .. كل ذلك من خلال أفكار وكلمات هي ..

● نقاط على الحروف

حين يتأصل مفهوم الحرية في مجتمع ما ؛ فإن تأصله يكون مساوياً لمعنى الوجود والحياة ، وبدونه تبقى الحياة الإيجابية معطلة .. والمجتمع الذي يؤْثِر الحرية يحرسها حراسة المحبة ، بينما العبيد يحرسونها حراسة الخوف ، والمجتمع الحر هو الذي يختار ويشارك فيما يمس وجوده فرداً أو جماعة .

ومن هنا ، فإن " المجتمعات نوعان : نوع مغطى ونوع مكشوف ... الأول ، يعيش تحت قبة سماوية أو مسرح البالون المسدود النوافذ اتقاء للشمس الساطعة ، وتيارات الهواء النقية ، والنور الذي يكشف الممثلين على خشبة المسرح كي يفعل المخرج ما يشاء بإضاءته ، وتوجيه الحركات ، ووضع الديكور للمناظر .

والثاني ، المسرح المكشوف . ويعيش في نور الشمس ، ونسمات الهواء ، دون ما حاجة إلى إضاءة إضافية أو حتى ممثلين . يشارك الجمهور الممثلين ، لا فرق بين ممثل ومشاهد ، بين خشبة مسرح وقاعة ..

إن المجتمع المكشوف يبدأ بالتساؤلات عما هو موجود ، وعما يحتاج إليه ، وفيما يتعرض له من مشكلات وأزمات . السؤال يسبق الجواب . وقد تتعدد الإجابات . فلا يوجد رأي واحد في كيفية حل المشكلات ، وإدارة الأزمات . وهو حل من طبيعة الذهن واستقراء الواقع للجمع بين القانون الثابت وتجربته على الجزئيات . لا يُسلّم بالإجابات الجاهزة القطعية التي تعرف الحقيقة مسبقاً حتى قبل وجود الواقع والسؤال ..

وأمّا المجتمع المغطى ، فإن إجاباته جاهزة ، معروفة سلفاً . وهي حقائق مطلقة لا تتغير بتغيّر الزمان والمكان . إجابات واحدة ، لا بديل عنها ، ولا نقيض لها . تسبق فيها الأجوبة الأسئلة خشية أن تخرج

الأسئلة عن التوجيهات المقررة سلفاً ، والتي قد تسبب تصدعاً في الغطاء أو تُوقع خروقاً في قماشه السميك ." [1] .. ويفرض الغطاء نفسه وينشر سطوته على مناهج التعليم والإعلام ، فالتعليم نوع مضاعف من الجهل ، يسير في اتجاه المسخ وتحويل المتعلمين إلى دمى تخدم ما يريده السيد .. وما يحدث في التعليم يحدث في الإعلام ..!!

إن التعليم في المجتمعات المغطاة إعلام وتوجيه . والثقافة إعلام ودعاية . كل شيء على ما يرام ، وليس في الإمكان أبدع مما كان . الإعانات للمحتاجين ولإنشاء المساجد والجامعات ومعاهد العلم وتأسيس الصحف الواسعة الانتشار .. كل ذلك من أجل السيطرة على الرأي العام ، واحتجاز العقل رهينة الغطاء ... العيون في كل مكان ، أجهزة التنصت والرقابة ، والاعتقال بلا محاكمة ، جزاء كل من يخرج عن الغطاء ، ويتلصص النور ، ويتنفس الهواء .. !!

وهكذا .. يتقدم الإنسان إلي الوراء ، ويمشي مكباً علي وجهه ، ينتسب إلي ثقافة تُحتَضر ، ولا يملك إلا لساناً قد حاصرته مائة بوابة مراقبة ؛ فيزدوج الخطاب عند الناس ، بين خطاب مطيع كما يفرضه النظام ، وبين القول والكلام همساً وسط الظلام الدامس ، والجحور الملأي بالأفاعي ..!!

إن الاستبداد في المجتمعات المغطاة يؤثر علي الإنسان في جميع أطواره " يؤثر فيه وهو طفل ، إذ لا يمده المجتمع بما يقوي جسده وينمي فكره ، هذا إن كان له أب يحنو عليه .. وإن غاب من نشأته هذا الأب ؛ فسيكون الأمر أدهى وأمر ..!!

فإذا ما كتبت له النجاة من تلك النكبات ، وهيئت له الأسباب لأن يجد مقعداً في مدرسة .. فكم من العراقيل توضع في طريقه ! .. امتحانات بلا انتصاف .. وممتحنون بلا ضمير .. وأخيراً ، كم يلاقي ذلك الفتى في سبيل الحصول على وظيفة حقيرة ؟!

وإذا بلغ مبلغ الرجال ، ماذا يعمل ؟ فالشراء والبيع ، والسفر ، والخدمات .. وكل الأعمال التي تقوم عليها حياته الاجتماعية لا تنالها يداه إلا بشق الأنفس ، ومن خلال شبكة دقيقة مسمومة من الأحقاد ، تسلبه كل وسيلة لإقامة حياته ، وتحيطه بشبكة محكمة ينسجها خبث المستكبرين .. " [2] بدعوي " الحماية " للمواطنين !!

---

[1] **جذور التسلط وآفاق الحرية – د . حسن حنفي ـ ص 82 بتصرف**
[2] **شروط النهضة – مالك بن نبي ـ ص 146 ، 147 بتصرف يسير .**

وهذه قصة رمزية .. وفتش معي عن العبرة ؟! [1]

تحكي القصة أن فتاة يتيمة الأم كانت تعيش مع أبيها المتسلط .. وقد أدى بها هذا التسلط إلى أن تنشأ خجولة ، مهملة المظهر ، على الرغم من شهرة أبيها الذي كان طبيباً مشهوراً ، واسع الثراء .. وقد تقدّم لخطبة الفتاة شاب كان واضحاً لأبيها أنه لا يستحقها وأنه طامع في ثروتها .. فرفض الأب أن يزوج ابنته من الشاب الذي أوقعها في حبه طمعاً فيما يتوقعه من ثروتها .. وقد كان الأب يعلم أن حياته قصيرة بسبب مرضه .. وأمام إصرار الفتاة على أن من حقها أن تتزوج من تحبه !! ومن ستجد حريتها في اختياره، وسعادتها في أن تعيش معه ، قرر الأب حرمانها من ثروته إذا تزوجته .. وعندئذ وجد هذا الشاب – مصداقاً لظنون الأب الخبير – أنه لم يعد له صلة بالمسألة ، واختفى من مسرح الأحداث !!

مات الأب وورثت الابنة ثروته ، وعندئذ عاد الصياد إلى الظهور ليواجه الابنة التي تعلمت من الحياة أن " الحريّة " ليست بالضرورة طريقاً إلى السعادة ..

والتساؤل هنا : هل يلام الأب على حرمانه لابنته من حريتها ؟ أم يُحمد على أنه استخدم ما لديه – وليس لديها – من حكمة وتجربة ، ومن حرص على مصلحتها ، من أجل " حمايتها " من خطر داهم ؟!!

ربما رد البعض علي الفور : لا يلام علي " حمايتها " !!

وهنا .. لا بد أن أذكّر هذا البعض أن كلمة " الحماية " هذه كانت هي الذريعة لاستخدام القوة في السيطرة على المجتمعات المتخلفة من جانب القوى المتقدمة .. وحتى عندما بطل هذا الأسلوب ، ونالت هذه المجتمعات "

حريتها " ، وقعت تحت سطوة حكم وطني لا يتسم بما يجب أن يوجد لدى القادة من الحرص على شعوبهم .. بل وجدنا هذه الطغمة الحاكمة تحكم شعوبها بعبودية لم تشهدها البشرية في عصور أسواق تجارة العبيد .. " [2]، وتحاول " تكوين دولة غير قابلة للمحاسبة .. يكاد يملكها أشخاص يتمتعون بسلطات مطلقة ، ويرفضون الاعتراف بالحقوق الأساسية لمواطنيهم " [3]

إن الطغاة والجبابرة يدّعون أنهم يحافظون على أمن البلاد، بينما الحقيقة أنهم أخطر مصدر للخوف والقلق ، لأنهم يجعلون الناس شيعاً يستضعفون طائفة منهم " وهم أغلبية الناس " ، ويصادرون حق

---

[1] هذه القصة للكاتب الأمريكي هنرى جيمس ، وعنوانها " ميدان الشمس " .
[2] مجلة العربي – العدد 558 – ربيع الأول 1426 هـ - مايو 2005 .
[3] الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 775 بتصرف .

الناس في الاستقلال والكرامة والحرية والعيش الرغيد ، ويوقفون مسيرة التقدم ، ويفرضون التخلف ويشيعون الفساد من خلال ثالوث الفساد .. الحاكم المستبِد .. السياسي الوصولي الذي يسخّر ذكاءه وخبرته في خدمة الحاكم المستبد .. و الرأسمالي المستفيد من المنظومة الاستبدادية ؟!

وهذا ما حدث في مجتمع فرعون الحقير ، حيث تحالف هذا الثالوث علي الوقوف في وجه موسي ودعوته { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{23} إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [غافر : 23، 24] .. بل العجيب أن قارون كان من قوم موسي ، ولم يكن من قوم فرعون ، ولكنه بغي علي قومه وانضم إلي عدوهم فرعون ..!!

وإذا ما قارنا بين مجتمع الاستبداد بالأمس ، و مجتمعات الاستبداد اليوم ؛ لوجدنا أن الفراعنة السابقين كانوا يسيطرون علي جانب واحد من الحياة . المال والقوة مثلاً . وربما تركوا للناس بعض جوانب من الحياة يتصرفون فيها بأنفسهم ..وأمّا فراعنة اليوم ، فإنهم يسيطرون علي حياة الناس من شهادة الميلاد إلي شهادة الوفاة ..!!

إن فراعنة اليوم يعزلون الشعوب عن سبل المعرفة , ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها, ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم , ويلين قيادهم , فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين .. وتختل الموازين ، ويخيم الظلام ، وتفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه , ويرون البغي فلا تجيش نفوسهم لدفعه ؛ بل يصل فساد الفطرة . أحياناً . إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم !!

لقد أَلِف المستعبَدون رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون ، حتى توهموا أن هذا هو الأصل , وأن هذا هو الفضل , وأن هذا هو الأدب , وأن هذا هو الخلق ! وأن هذا هو الصلاح ! فإذا رأوا مظلوماً يدفع الظلم عن نفسه ؛ فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التي يقوم عليها.. إذا رأوا مظلوماً يهب لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ولولوا ودهشوا , وصبوا علي المظلوم لومهم ونقمتهم ، ولم ينل الظالم الطاغي من نقمتهم ولومهم إلا القليل !

وهكذا هي حياة العبيد .. لا يتكلمون إلا همساً، ولا يذكرون مطالبهم إلا تورية، ولا يعبرون عن مشاعرهم إلا في مسارب أوردة أفئدتهم .. يعُدّون على أنفسهم أنفاسهم ؛ ويحصون على ألسنتهم ألفاظهم ،يتقنون فن الصمت وتلقي الأوامر ، ويفتقدون روح المبادرة وروح الجماعة ؛ ويمارسون الانقياد الأعمى

للاستبداد ، ويقاومون الرشد والإرشاد .. وكأنهم الهوام تترامي على النار ، و تغالب من يريد حجزها عن الهلاك ..!!

لقد نشب الطغاة مخالبهم في الرعية المستعبَدين ، وحولوهم إلى غثاء من " النفايات " البشرية الخاوية الخائفة من مواجهة ظلم المستبدين في الداخل ، وغزو المستكبِرين من الخارج ؛ فاندرست أطلال الحرية ، ولم يبق في مجتمعات الاستبداد سوى الضعفاء والسفلة المقرنين في أصفاد الجهالة .. الذين لا يعيشون الاستعباد الإكراهي ، وإنما يعيشون العبودية المختارة ، دون أدني إدراك لحقيقة أن ..

• الاستبداد طريق التخلف

لا شك أن كل الحضارات يجمع بينها أنها توفّر العدل والحرية والأمن .. وهذا ما يجعلها مجالاً رحباً لتفتح الملكات .. تجذب إليها النابغين وذوى الكفاءة والطموح في شتى مجالات المعارف والعلوم والفنون والتجارة والمال ابتغاء ترقية ملكاتهم وتحقيق طموحاتهم .. بينما غياب هذه الحقوق والقيم يؤدى إلى أن تذبل الملكات ، وترى العصافير التي كانت تعمر الأشجار بشجي الغناء تأخذ في الرحيل خشية الصيّاد المتربص ، باحثة عن فضاء حضاري آخر تجد فيه الحرية والعدالة والأمن ..

ولذلك فإنه " بقدر نقص الحريّة ، تنتقص الحضارة حتى تأخذ طريقها إلى التخلف والتصحر والاستبداد والتحجر .. حتى إذا استكملت تلك الجراثيم المهلكة حظها ، وبلغت مبلغها من التمكن تكون قد آذنت شمس الحضارة في ذاك الفضاء بالمغيب ليستقبل نعيق البوم في ليالي التخلف المديدة ." [1] حيث " العجز إزاء النفس ، والاستسلام للضغوط ، والإكراه والقهر ، والضيق بالخلاف ، ورفض سنة التعدد وحقوق الآخر في الاختلاف ، بما يجمد حركة الحياة فتأسن وتتحجر ، فيغدو الفضاء الاجتماعي ضعيفاً طارداً للطاقات ، يضيق ذرعاً بالإبداع والمبدعين ، فتنحط فيه الأذواق ، وتسوده الرداءة والبشاعة ، وتفشو فيه المظالم ، ويغيب سلطان القانون ، ولا يحضر إلا لمعاقبة مسكين ، أو التنكيل بحر كريم !! " [2] .. وكل هذا الظلم هو .بلا شك.مؤذن بالخراب .. لأن الظلم مؤذن بالخراب [3] .

وهذه قصة رمزية ، وفتش معي عن العبرة ؟!

كان الملك يمشي مع وزيره ، فسمع صوت بوم ، فقال له: هل تعرف لغة الطيور؟

---

(1) راجع إن شئت مقدمة إبن خلدون .
(2) راجع إن شئت " العلاقة بين الحرية والحضارة - راشد الغنوش " ورقة مقدمة فى اللقاء الرابع للمنتدى الحضاري بتاريخ 12 يناير 2002 ، مانشستر - المملكة المتحدة - ص 153 ، وموقع المنتدى على الإنترنت هو muntadana.com .
(3) عقد ابن خلدون فى مقدمته فصلاً " فى أن الظلم مؤذن بالخراب " - راجع إن شئت المقدمة ص 269 - 272 .

قال الوزير : نعم أيها الملك .

قال الملك : فماذا يقول هذا البوم ؟

قال: إنه يخاطب بومة يريد أن يتزوج منها، فهو يخطب ودها، ولكنها تتمنع.

قال الملك: وماذا تطلب؟

قال الوزير : إنها تقول أن مهرها هو خراب عشرين قرية !!

قال الملك: وبماذا أجابها؟

قال الوزير: إنه يقول لها، إن أطال الله في عمر مولاي الملك ، فسوف يكون مهرك خراب ألف قرية ، وليس عشرين !!

فكر الملك وقال: ويحك أيها الوزير ، إن كلامك كله ألغاز فاصدقني الخبر؟

قال الوزير : هل يعطيني مولاي الأمان في كل ما أقول؟

قال الملك : لك ذلك .

قال الوزير : يا مولاي إذا بقيت الحالة هكذا خربت ليس ألف قرية بل كل المملكة.

قال الملك: اشرح لي ونورني؟

قال الوزير : إن الظلم عم المملكة ، وإن الرشوة أصبحت بضاعة سائدة ، وإن المحسوبيات أكلت الكفاءات . وإن الأمكنة الحساسة يملؤها غير الخبراء .. لقد شعر الجميع أنه ليس للعقول أدني وظيفة ، ومن ثم مرضت العقول ، واختل الشعور علي درجات متفاوتة ، وفقد الجميع ثقتهم بأنفسهم ، كما فقدوا ثقتهم ببعضهم البعض فلم يستطيعوا الاشتراك في أعمال الحياة ، فعاشوا ضائعين ، متواكلين ، متخاذلين ، متقاعسين ، بعيدين عن الجد والعزم .. وكأنهم قد فقدوا حقيقة الحياة ، وتحولوا إلي مسيخ بين الحياة والموت !!

كانت هذه كلمات الوزير للملك .. وهي هي واقع الإنسان في مجتمعات الظلم والاستبداد ، ذلك أن " الاستبداد يتصرف في الأخلاق الحسنة فيضعفها ، أو يفسدها ، أو يمحوها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه ؛ لأنه لم يملكها حق المُلك ليحمده عليها حق الحمد ، ويجعله حاقداً على قومه لأنهم عون

الاستبداد عليه ، وفاقداً حب وطنه لأنه غير آمن على الاستقرار ويود لو انتقل منه ... " [1] ، لأن الطمأنينة والسكن لا يكونان مع الاستبداد ، كما أن التفكير والإبداع لا يتعايشان مع الاستبداد ، وأمّا التقدم والازدهار فهما خصمان ، بل عدوان للاستبداد " [2]

إن الاستبداد والظلم مثل " الميكروبات والفيروسات التي تخترق الجسد في كل لحظة وتحاول الفتك به، ولولا وجود جهاز المناعة في الجسد الحي لهلك الناس جميعاً، وكذلك الاستبداد يهاجم المجتمعات البشرية في كل لحظة، والفرق بين مجتمع صحيح ومجتمع عليل إنما هو في قدرة المجتمع الصحيح علي اكتشاف الاستبداد واعتباره دخيلاً علي منظومته ، وبالتالي مقاومته بآليات قادرة علي ذلك طول الوقت ، أما المجتمع العليل فإن الاستبداد يتسلل إليه دون وعي به وبخطورته ، ودون استنهاض للهمم لمقاومته، ودون وجود آليات للمواجهة . " [3]

إن المجتمع في ظل الاستبداد ، يطغى علي أفراده نموذج تدبير الحال .. فكل إنسان في المجتمع المتخلف يشعر أنه متروك لمواجهة مصيره ، دون حماية فعلية أو ضمانة أكيدة للحاضر والمستقبل ، ومن ثم ينهار انتماءه الاجتماعي ، و يغيب لديه كل ما هو عام ومشترك ، وما هو لخير الجميع وخدمتهم ... ولهذا يرى أنه لا بد لكل امرئ من تدبر أمره . كيفما ، ومتى ، وأنى يستطيع !! ؛ فيتورط الجميع في الفساد وتتلوث أيديهم به فيفقدون القدرة علي رؤيته فضلاً عن استنكاره ومدافعته ، وبهذا يستقر الأمر للفاسدين ، ويصبح الشعار القائم " يا عزيزي كلنا لصوص " !!

إن " بنية المجتمع المتخلف تقوم على النهب والاستغلال . ففي الحالات العادية نجد القلة المتسلطة هي التي تمارسه بشكل خفي ، تبرز منه فقاعات تطفو على السطح من آن لآخر على شكل فضائح مالية .. بينما القانون لا يُفرض إلا على من لا يمتلك القوة للاعتداء عليه ، أو السبيل لذلك الاعتداء . ليس هناك احترام لقانون وتقبل له ، بل رضوخ و إرغام .. و القاعدة هي أن تخرق القانون إذا استطعت . وفي ذلك كله انهيار العلاقات الإنسانية " [4] .. وصعود رعاع الناس إلي قمة المجتمع ، بينما يهبط إلي القاع خيارهم وصفوتهم .!!

---

[1] الكلمات لـ عبد الرحمن الكواكبي .
[2] العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د. أسعد السِحمراني - ص 42 ، 43 بتصرف يسير .
[3] علم النفس السياسي - رؤية مصرية عربية - د . محمد المهدي - ص 197 ، 198 .
[4] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 175 .

إن " كلاً يذهب مذهباً في سبب هذا الانحطاط ؟ و في ما هو الدواء ؟ ؛ وقد تمحّض عندي أن أصل هذا الداء هو الاستبداد [1] سواء كان هذا الاستبداد غربياً ، يجمع بين الاستبداد السياسي والاقتصادي ، ويعين الأفراد على الكسب ، فيكون أحكم وأرسخ .. أو كان هذا الاستبداد سياسياً خالصاً . كما في الشرق. يزول لمصلحة مستبد آخر ..!!

إن " أزماتنا اليوم وإصاباتنا الفكرية والاجتماعية ، إنما هي بسبب من غياب الحرية والمساواة .. وما لم ندافع عن حقوق الإنسان ، ونغار عليها غيرتنا على نسائنا ، وبناتنا ، وأعراضنا ، وأموالنا ، ونجاهد في سبيلها ، فسوف يستمر سقوطنا الحضاري " [2] فصراع الحرية مع الاستبداد هو صراع الحضارة مع التخلف .. الحرية تقول للإنسان : عليك أن تمارس حقك ، فأنت مسئول أمام الله الذي خلقك حراَ .. والحرية حقك الذي يجب أن تلتزم به .. فلتجعل شعارك مع الآخرين " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ " ، واعلم أن ..

• الحرية تصنع الحضارة

" حين تضيء شموس الحرية ، وتضرب بأشعتها في كل واد ، تتسع آمال الأفراد ، وتكبر هممهم ، وتتربى في نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة ، ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم ، فتتفتق القرائح فهماً ، وترتوي العقول علماً ، وتأخذ الأنظار فسحة ترمى فيها إلى غايات بعيدة " [3] .. لأن الحرية تُحوّل الإنسان من كائن لنفسه ، إلى كائن لنفسه ولغيره ..فيصبح نشيطاً ، راضياً بأعماله ، سعيداً بآماله ، فتنمو بذرة الحضارة و تزدهر وتورق وتؤتي ثمارها علوماً ومعارف ونظماً اجتماعية .. بل وتستقطب وتجذب خيرة الموارد البشرية والمادية من بيئات أخرى مختلفة ..

ولا شك أن الحرية التي نقصدها ليست هي الانفلات من القواعد و النظام [4]؛ وإنما هي سياسة الذات وفق منهاج إلهي تحل فيه الأفكار في النفوس حلولاً إيمانياً ؛ فيكون حلولها دافعاً نفسياً قوياً للتحضر ، ذلك أن المكون الإيماني هو الموجه لحركة التحضر، والضابط لمتاريس التمدن ... فالتحضر بشقه الفكري والأخلاقي والإنساني، والتمدن بشقه الإنتاجي والعمراني والإداري والاقتصادي ، يجب أن يقوما على الإيمان وينبثقا من معينه الصافي ، ويرتويا من نبعه الذي لا ينضب ..

---

[1] طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد ـ الكواكبي ـ ص 5 .

[2] مراجعات في الفكر والدعوة والحركة – عمر عبيد حسنة ـ ص 100 ، 101 بتصرف يسير .

[3] الحرية فى الإسلام – الإمام . محمد الخضر حسين ـ ص 78 - 81 .بتصرف يسير .

[4] إن الذين يطلقون غرائز الإنسان بلا ضوابط تحت مسمى " الحرية " ، هم في الواقع أعداء المجتمع وأعداء الحرية .. بل هم قوارض ، تقرض جوهر المجتمع ذاته ، كما تقرض الفئران كومة من القمح ، لتحيله غير صالح لشيء .

ومن هنا فإن الفكرة " الدينية عامل أساسي في التغيير الاجتماعي نحو الحضارة ، لكن بشرط أن تكون هذه الفكرة نابعة من دين سماوي خالص ، لم ينله تشويه ولا تحريف.. وما دام الأمر كذلك ، فإننا لا نجد من بين الشرائع السماوية ديناً مرشحاً اليوم للنهوض بالبشرية سوي الإسلام ، لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حافظ . بفضل من الله . علي صفاء عقيدة التوحيد ، كيوم نزلت أول مرة من السماء إلي الأرض "[1]

كما أن الفكرة الإسلامية قد أكدت " فيما مضى صلاحيتها في بناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه المشترك بطريقة بالغة التوفيق .. حيث أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق ، فجعلت منه إنساناً متحضراً ومحضِراً والأمثلة كثيرة على أن هذه الفكرة أظهرت فعاليتها الكاملة في إعادة تنظيم وتوجيه الطاقة الحيوية "[2]

إن الإسلام " يوحد بين شتى ألوان النشاط البشري ، فلا يفرقها .. ثم يوازن بينها ، فلا يطغى منها جانب على جانب فيختل توازن الإنسان كما يختل حين يجعل الجانب الاقتصادي هو الركيزة الأولية فيه ، في الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي سواء ، و يهمل دينه وأخلاقه ومثله العليا وتطلعاته الروحية هنا وهناك . "[3]

إن الإنسان " حين يعمل بمقتضى كلمة التوحيد ، فإن نفسه تكون " في أحسن تقويم " وتكون على استوائها ، لأنها تتجه كلها وجهة واحدة في جميع تصرفاتها . فالإنسان – المؤمن – يتجه بصلاته ونسكه إلى الله ، ويضرب في الأرض يبتغي الرزق فيتوجه إلى الله يطلب منه التوفيق والعون ، ويتوجه إليه بالعمل ذاته فيبتغي فيه الحلال الذي أحله الله ، ويتجنب الحرام الذي حرمه الله ، فيكون في كل لحظة ذاكراً لله لأنه يتحرى حلاله وحرامه في كل تصرف وفى كل موقف . كلما همّ بحركة أو عمل أو هجس في نفسه هاجس ، سأل نفسه أولاً : أحلال هو فيأتيه ، أم حرام فعليه أن يتجنبه ؟

وكذلك هو إذا ذهب يتعلم ، أو ابتغى أن يتزوج ، أو باع أو اشترى ، أو تعامل مع الناس فى أمر من أمور حياته ، يتوجه إلى الله أولاً ويستلهم كتابه المنزل الذي يحوى تفاصيل ما أحل الله وما حرم ، وما أباح وما منع .. فإذا هو في كل نشاط حياته متجه إلى الله سبحانه وتعالى : " { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام 162] .. عند ذلك تطمئن النفس وتستقر : " {الَّذِينَ آمَنُواْ

---

[1] **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق – د. أحمد محمد كنعان ـ ص 153 .**

[2] **ميلاد مجتمع – مالك بن نبي ـ ص 107 ، 108 .**

[3] **الصراع بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي – محمد قطب ـ ص 7** بتصرف يسير.

وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد28] .. وتكون قوة هائلة في ذات الوقت ، كحزمة الضوء التي تتجمع فتضيء أو تتجمع فتكون شعلة متقدة .. قوة هائلة تنطلق في الأرض تبني وتعمر في كل اتجاه ، راضية مطمئنة ، نشيطة وثابتة في ذات الوقت .. " [1]

إن الإنسان حين ينهض بالخلافة في الأرض علي عهد الله وشرطه ، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ، يصنع المادة الخام ، ويقيم الصناعات المتنوعة ، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات ، التي حصل عليها في تاريخه كله.. حين يصبح وهو يصنع هذا كله " ربانياً " يقوم بالخلافة . علي هذا النحو . عبادة لله. يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة .. يكون كذلك لأنه يتحدي كل العقبات التي تعترض طريقه في السعي والتحرك ، ويعد لكل عدو سلاحاً، فالجبن يواجهه بالتوكل ، والخوف يستعين عليه بالثقة بالله وبالمستقبل ، ومغريات الدنيا يستعد لها بقوة الإرادة ونعيم الآخرة ، ولوم اللائمين ومدح المادحين أو الأغلال الاجتماعية الأخرى ، فهو يتسلح ضدها باليقين ..

إن شريعة السماء تنبت العقول السوية ، وتبلور الموارد الفكرية وتنقيها ، كما أنها تخلّص الإنسان من أسر المواريث الثقافية الآبائية ، والأغلال التي تختم علي عقله فتركنه إلي الجمود .. { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}الأعراف157.. فإذا تخلص الإنسان من أغلاله ، فإنه يعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال ، والعبور السالب للعالم دون تغيير أو إعمار ، ويجعل العمل والإبداع المتواصل في واقع الحياة هو نسيج حياته من لحظة الوعي ، وحتى ساعة الموت .. ويبذل في ذلك كل الجهد ، ويمارس العمل والكدح في واقع الحياة .. يمارسه وهو يؤمن أن الكدح – وهو العمل في واقع الحياة – هو العبادة الدائمة التي يقوم بها من أسلم لرب العالمين ..

" إن اعتقاد الإنسان المسلم في اليوم الآخر يمثل مصدر تطمين له أن جهوده المخلصة مهما بدا أنها بلا نتيجة فى هذه الحياة لأسباب تخرج عن نطاقه فلن تضيع بل سيجني ثمارها أضعافاً مضاعفة نعيماً خالداً لا يزول .. بما يدرأ عنه شبح اليأس والهلع والجبن والبخل والأنانية ، ويزوده بطاقة غير محدودة على المقاومة والفدى والاستمرار في الكدح مهما أظلمت الدنيا واختلت موازين القوة ضده ... كما أن من أثر هذه النظرة المتوازنة للدنيا في علاقتها بالآخرة من حيث أنها مزرعتها .. من شأنها أن تدفع المؤمن إلى موقف

---

[1] ركائز الإيمان - محمد قطب - ص 137 - 139.

إيجابي من عمارة الدنيا واكتشاف سننها وتسخيرها لتسديد حاجاته وللتنعم بطيباتها ، ولكن دون فساد ولا إسراف ولا ظلم ، فكل عمله وجهده فى عمارتها وتسخيرها ضروب من العبادة والتقرب إلى الله وإعداد نفسه للقائه وضمان فوزه بالنعيم المقيم ونجاته من العذاب الأليم ..

إن هذه النظرة الإيجابية المتوازنة للحياة على أنها مزرعة الآخرة ، وأن الإنسان مفوض من الله فى عمارة الكون ، والتنعم بطيباته ، وبسط العدل الإلهي في أرجائه ، وأنه مسئول على أداء ذلك عند ربه ، وأنه يخوض المعركة المصيرية ضد كل ضروب الإكراه والتسلط داخل نفسه ، وفى محيطه المادي والمعنوي والسياسي ابتغاء مرضاة الله وابتغاء مثوبته وتحت رعايته المباشرة " [1] هي النظرة الحضارية للإنسان وللحياة .

ولذلك فإن " أي مجتمع يتأهب لدخول الفضاء الحضاري ، لا بد له أن يوظف طاقاته الروحية والفكرية والمادية معاً .. وهذا التوظيف يستمد فعاليته من الإرادة الحضارية ، والإمكان الحضاري ..

أمّا الإرادة الحضارية ، فهي التي تتصل بلحظة الإقلاع في كل مجتمع ، حينما تندفع الروح نحو مثلها الأعلى لتغير واقعها .. والدين هو الذي يلعب هذا الدور دائماً حينما تتهيأ مرحلة الإقلاع النفسي المتصل بالإرادة ، فالله " لا يغيّر ما بقوم ، حتى يغيّروا ما بأنفسهم " الرعد

فأمّا الإرادة الحضارية ، فهي التي تحقق الإمكان الحضاري عبر ما توظّف معطياتها المادية والفكرية ، بما يحقق أهدافها من خلال وسائلها . " [2]، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الحرية التي هي شرطُ إنسانية الوجود . وجود الفرد و المجتمع . وجوداً حضارياً فاعلاً ، وشرط عقلانية السلوك و الفعل الحضاري للفرد والمجتمع .

إن هناك علاقة تلازم بين الحريّة والحضارة .. فالحريّة هي شرط الحضارة ، والتخلف هو النتيجة الحتمية للاستبداد .. و ليس من الضروري ، أن يكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض ، ويسير في طريق البناء الحضاري .. وإنما ينهض ويبني حياته وحضارته بالرصيد الأساس للحضارة .. " الإنسان الحر " الذي لا يرى تقدمه في استعباد العباد ، وقهر النفوس .. بل يسعى بكل إخلاص من أجل الإنسان كل الإنسان ، في الأرض كل الأرض ، و يحاول أن يخرج الناس من عبودية البشر ، وعبودية المال ، وعبودية القوة ؛ لأنه يدرك أن الحضارة لا تصنع الحرية ، وإنما الحرية هي التي تصنع الحضارة من

---

[1] راجع إن شئت " العلاقة بين الحرية والحضارة – راشد الغنوش " ورقة مقدمة في اللقاء الرابع للمنتدى الحضاري ، مانشستر – المملكة المتحدة ـ ص 146 . قضايا في المسألة الحضارية – تحرير د. عبد الله البريدي ـ المنتدى الحضاري

[2] راجع إن شئت " حول فكر مالك بن نبي – عمر كامل مسقاوي " ـ ص 66 ، 67 .

خلال ..

• التنمية الإنسانية

تحرير الإنسان هو ملحمة الوجود الإنساني و مناط الصراع والارتقاء ، والشوق الأبدي إلي التفوق الحضاري الذي يسخّر له الإنسان كل قواه .. ويحمل من أجله أمضى سلاح في هذه الملحمة ، العقل الواعي الساعي إلي الإبداع والتجديد .. ومن ثم فإنه من الضروري القيام بما يمكن أن نطلق عليه " التنمية الإنسانية " .. " حيث يتم " توسيع خيارات البشر " ، وتتمركز الحرية في هذا المفهوم ؛ فيصبح للبشر – ولمجرد كونهم بشراً – حق أصيل في العيش الكريم مادياً ومعنوياً ، جسداً وروحاً .. و من أجل ذلك لا بد أن يكون مفهوم الرفاه الإنساني عندنا لا يقتصر على التنعم المادي ، وإنما يتسع للجوانب المعنوية في الحياة الإنسانية الكريمة مثل التمتع بالحرية ، واكتساب المعرفة والجمال والكرامة الإنسانية ، وتحقيق الذات الذي ينبع من المشاركة الفعالة في شئون المجتمع "[1]

ومن هنا ، فإن التنمية الإنسانية ليست مجرد تنمية " موارد بشرية " أو تنمية اقتصادية أو تشييد بني مادية ، وإنما هي نهج أصيل الإنسانية في التنمية الشاملة المتكاملة ، للبشر والمؤسسات ، تنقلهم من صعيد الأشياء ، والمال إلى مستوى الكرامة الإنسانية ..فهدف " التنمية ، هو زيادة " نطاق الخيار الإنساني " ، وتهيئة أسباب سيطرة الإنسان على بيئته ومقدراته وقدراته لبناء حاضره ومستقبله من واقع الشعور بالمسئولية الإيجابية الحرة ، مسئولية الانتماء الاجتماعي .. ومن ثم يغدو المجتمع على طريق ممتد يفضي إلى اطراد المزيد من الحريات "[2]المدنية والسياسية ، و التحرر من جميع أشكال الحط من الكرامة الإنسانية.. وذلك من خلال ربط الإنسان " بالسماء ، وإعادة الرباط المقطوع إلى ما كان عليه ، و انتزاع الإنسان من ربقة الشهوة ، وعبادة المادة والكمية ، ثم إعادة دمجه بعالم الروح والسكينة "[3]

لقد نزل الإنسان إلي الأرض وهو يشعر في أعماق نفسه الكرامة والحرية ، ويجد حريته في كتاب الله " الّذين يَتبعونَ النبيّ الأمي الّذي يجدونهُ مكتوباً عندهُم في التوراةِ والإنجيلِ يأمرهم بالمعروفِ وينهاهُم عن المنكرِ ويحلُّ لهُم الطّيّباتِ ويحرِّمُ عليهم الخبائثَ ويَضعُ عنهم إصرهُم والأغلال الّتي كانَت عليهم ".. وهو إذا تحرر من " سيطرة التقليد و الموروث و الخوف ، أصبح عقله حرًّا، وحواسه حرة ، وفكره حرًّا ، فاختبر الأفكار ، وقام بالتدقيق و الانتقاء و الرفض و القبول ، وهو يسبح في سماء الحرية الفكرية ، وترك

---

[1] **الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص 125 .**
[2] **التنمية حرية – تأليف : أمارتيا صن – ترجمة : شوقي جلال ـ ص 9**
[3] **قضايا في المسألة الحضارية – د. عبد الله البريدي ـ ص 37 .**

الدعة ليبذل الجهد الهائل ، وليقطف الثمار اللذيذة لهذه الأفكار الحرة ؛ لأنه يدرك أن كونه حرًّا مريداً مختاراً تجعله دائماً باحثاً عن الحكمة و الهدي . " [1]

ومن هنا لا يستوي الفرد الحر مع الفرد مسلوب الحرية .. " وهذا ما قرره الله في كتابه " ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلّ عَلَىَ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجّههّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ) (الآية (76) سورة النحل) .. الرجل الذي لا يقدر علي شيء، و هو عالة علي صاحبه ، ويعتمد عليه في كل شيء ، و أينما يوجه فالناتج سالب أو صفري ، و هو دائماً و أبداً مصاحب للفشل في كل أحواله و مشروعاته و أعماله و هيئاته و تنظيماته ، هو رجل " أبكم ".. لا يستطيع السؤال ، و المناقشة و الجدل ، و إبداء الرأي و حرية التعبير عن هذا الرأي .. و المقابل له ، أي الذي يملك تلك الحريات هو بالضرورة " يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ " أي يخطط وينفذ ، و ينجح ، و مؤسساته عملية و إنتاجية و ليست شكلية ..

وقال تعالي : { ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مّمْلُوكاً لاّ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَمَن رّزَقْنَاهُ مِنّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } النحل 75 .. هنا نجد الفرد " مملوكاً " سلبت منه كل الحريات المكفولة له بحكم حمله للأمانة ، يصفه القرآن بأنه " لا يقدر علي شيء " ، أي أن القدرة علي أي فعل معدومة .. " [2]

" إن الحرية ضرورة ، لا تستقيم حياة البشر دونها ، فهي ضرورة للدين وللعقل والفكر ، وضرورة لتوفير العدل والأمان ، وضرورة لرعاية العهود والحرمات ، وكل استعباد هو تعدّ على هذه الأمور جميعاً، و يشكل السكوت عن الحقوق ، والتغافل عنها ، والجهل بها أفضل معين للمستعبَد لأنه يريد فريسة لا حراك فيها . " [3]

ولذلك ، فإنه من الضروري جداً أن تكون الحرية هي المطلب الرئيس والحقيقي للجميع ، وأن يتم ذلك بالدأب الشديد على الدعوة إلي الحرية ، والصبر على أذى الفئات المنتفعة ، واليقين بأن لدعوة الحرية خيوط آمال كثيرة ، فهناك أرحام تلد أحراراً ، وهناك أصلاب تنجب رجالاً ..

وكما " أن العواصف الجوية و الأعاصير تجر معها غالباً سيولاً سيولاً هائلة من الماء ، سيولاً تترك وراءها في البلد الذي تجتاحه ، الخراب و الموت ، و لكنها تترك أيضاً علي وجه الأديم طمياً تتجدد به الحياة في هذا

---

[1] **الحرية في الإسلام ، الضرورة المحظورة – نشأت جعفر - ص 66 بتصرف يسير .**
[2] **المصدر السابق - ص 217 وما بعدها .**
[3] **العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د . أسعد السحمراني - ص 104 .**

البلد ، فتنشط و تنمو فيه الطبيعة الجديدة بأنواع النبات و الحيوان المتجدد .. فكذلك شأن الأحداث الكبرى في التاريخ ، إنها تجر وراءها الموت و الخراب ، و تخلف طمياً من دماء الشهداء و الأبطال ، و لكنها تخلف أيضاً طمياً من نوع آخر تخلفه في العقول ، حيث تترك بذوراً تنبعث منها الأفكار التي تغير مجري التاريخ ووجه العالم " [1]

ولذلك فإن المجتمع حين يواجه تفوقاً حضارياً يهدد وجوده بالفناء .. ويعجز عن منافسة هذا التفوق أو امتصاصه ، فإن أفضل ما يفعله هو الاحتماء بـ " قوقعة " وجوده .. حتى يستجمع قوته ، أو يتفسخ عدوه ، فيخرج من قوقعته " [2] و قد احتفظ بمعني جوهري ، هو معني القيمة الخلقية ، وهو ما ينقص المجتمعات الحاضرة الشائخة ، ليعيد إليها قيادة التصور الصحيح ، والاعتقاد الصحيح ، والشعور الصحيح ، والخلق الصحيح ، والنظام الصحيح ، والتنظيم الصحيح .. تلك القيادة التي ترشّد حياة الأفراد ، وتضبط انفعالاتهم ، وتملأ كيانهم ، ويكون لها السلطان الأعظم في توجيه قدراتهم ومشاعرهم.. كل ذلك من أجل توفير طاقاتهم لصنع ..

• حضارة الإطعام والأمن

" خلق الإنسان واختاره من بين سائر خلقه ، ووجهه لهدف سام ، وكلفه بإعمار الأرض ، وحمله الأمانة والمسئولية ، وأعلن سبحانه وتعالى هذه المشيئة أمام الملائكة في الملأ الأعلى تكريماً للإنسان ؛ وجاء ذلك في حوار بديع ، قال تعالي : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [البقرة 30] [3]

ولذلك ، فإن " الإبداع المادي في هذه الأرض على يد الإنسان.. فوق أنه ضرورة لحياته ولنمو هذه الحياة ورقيها.. هو في الوقت ذاته وظيفة أساسية له ، يحقق بها وجوده ، وينمى فيها ذاتيته ، ويدرب فيها استعداداته الكامنة ، التي أودعها الله كينونته الفردية المعقدة المركبة .. فهو وحده من بين سائر الأحياء الذي يؤدى هذه الوظيفة عن وعى وقصد وإرادة .. ثم هو بعد هذا وذاك واجب يحقق به غاية وجوده الكبرى ، وهى الخلافة عن الله في الأرض : { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ } .. ويحقق بها العبادة لله عن طريق هذه الخلافة ، والعمل فيها باسم الله ، ابتغاء رضوان الله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }

---

[1] فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ـ دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر ـ د. سليمان الخطيب ـ ص 111 .

[2] الغزو الفكري ـ محمد جلال كشك ـ ص 19 .

[3] التعبير عن الرأي ، ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية ـ د . خالد بن عبد الله بن دايل الشمراني ـ ص 23 .

[الذاريات56.] " [1].. و هذه العبودية توجب علي الإنسان أن لا يفرط في نصيبه من مقومات الدنيا ، وأن يخوض معركة الحياة ، ويحاول تسخير جميع الماديات ، ليتمكن من أداء رسالته في الحياة بالإنفاق في سبيل الله من كافة الوجوه ، وامتلاك اليد الطولى التي يقدر بها على الصلاح والإصلاح في الأرض .

وهذا . بلا شك . يضع الإنسان وجهاً لوجه أمامَ مسؤولياته في عمارة الأرض من خلال منظومة الشريعة الإلهية في النظر إلي الحياة والكون ودور الإنسان في عمارة هذا الكون والإضافة لتلك الحياة .. ولقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا المعني ؛ فصارت الفاعليةُ ظاهرةً اجتماعية ، ونمطَ حياةٍ في جيلهم الفريد الأول ؛ لأنَّهم تربوا على منهجية تَعِي الإسلامَ من حيثُ هو عمارة للحياة والأرض، وليس فقط مجموعةً من العبادات تبدأ بسجادة الصلاة ، وتنتهي برمي الجمار!! بل كان مقياسُ التدين عندهم هو المسؤولية ، والإرادة ، والأخلاق ، وهذه كلها تؤدي إلى التزام كلِّ ما هو مطلوب من العبادات ، والسلوكيات الظاهرة ..!!

ثُمَّ إنه خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا المنهج ، فضلَّت المفاهيم ، وتحولت الفعالية والمسارعة والإحساس بالمسؤولية إلى حالات فردية ، وطفرات شاذة ، بعد أنْ كانت منهجًا عاماً ! ولا عجب فالمفاهيم القاتلة أو الميتة ، تُوجِد مناخاً سيئاً، وهو بدوره يُبْرز أسوأ ما في الإنسان ، فتشهد حياته " نوعاً من الهوة ، بين الفكر ، وبين المعاش اليومي خارج إطار الممارسة العامة . فبينما يتصف السلوك في الحالة الأولى بدرجة عالية من التقدم والتطور ، نلاحظ أن المعاش اليومي على مستوى الحياة الخاصة مازال محكوماً بمعايير وقيم ، وبنظرة إلى الذات وإلى الآخرين على درجة كبيرة من التخلف " [2] تمثل مأساة حقيقية يترجم بعض المسلمين إحساسهم بها بقولهم " إننا لم نعد مسلمين إلا بشهادة الميلاد " وإنهم ليقرون بالحقيقة ، ولكنهم ربما فعلوا شيئاً أكثر فائدة إذا نظروا لمشكلتنا كمشكلة مجتمع لا تُوجه حركته فكرة الإسلام .. ومن ثم أمكنهم الوصول إلى الطريقة الصحيحة لعودة هذه الفكرة إلى توجيهه ..!!

خذ مثالاً : خطبة الجمعة ..

إن كلمات الإمام التي تهبط من المنبر على المستمعين تزلزل كيانهم ، وربما وجدنا في جوانب المسجد أحد المصلين ذائباً في دموعه ، بل ربما نرى الإمام نفسه ، وقد خنقته شهقاته وانفعالاته ..

---

[1] راجع إن شئت " الإسلام ومشكلات الحضارة " لسيد قطب .

[2] التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د. مصطفى حجازي - ص 16 .

ومع ذلك فإذا ما قضى هذا المستمع صلاته ، بقيت " الفكرة الإسلامية " التي زلزلت كيانه في المسجد، ولم تتبعه إلى الشارع ...!!

وهذا يقودنا إلى ملاحظة في غاية الأهمية ، وهي أن هناك انفصالاً في حياة المسلم بين المبدأ والحياة ..!!

فالمسلم يعيش اليوم هذا الانفصال الذي يمزق نفسه إلى شطرين : شطر ينظّم سلوكه في المسجد ، وشطر ينظّمه في الشارع .!! " [1]

هذه هي حال المسلمين التي سماها البعض بحق " ليل الإسلام المظلم "، والحقيقة أن هذا الليل قد بدأ بغروب الفكرة في قلوبنا . وكل ما حدث لنا وما يحدث لنا اليوم إنما هو صدى وتكرار لما حدث من قبل في داخلنا: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ }[الأنفال 53]. فإذا استجبنا لله وللرسول ؛ كانت هذه الاستجابة روحاً تسري في المجتمع فتعطيه طابعاً خاصاً " فإذا هو يستعلي بقيمه وأفكاره ، ويواجه الغزو الذي يرفع شعار : " أعل هبل "، بشعار : " الله أعلي وأجل " ، قولة أهل أُحد " [2]

إن لكل حضارة طابعها الخاص الذي يخلق عالم أفكارها ، ويكون بمثابة أسطوانة يحملها الفرد عند ميلاده تميزه عن المجتمع الآخر ؛ و هذه الأسطوانة في حضارة الإسلام هي الأمن و الهداية ، وليس الإرهاب والجباية ، فالحضارة الإسلامية " تتميز عن غيرها من الحضارات بأنها تقوم على أساس عقيدة التوحيد التي تتلخص في شهادة " أن لا إله إلا الله " .. وهذه الكلمات الأربع تقرر مبدأين في غاية الأهمية، وهما مبدأ الحريّة الشاملة ، ومبدأ السيادة . فالنفي " لا إله " يعني تحريراً كاملاً شاملاً من الخضوع لأي إنسان آخر أو فئة من البشر أو لجزء من الطبيعة ، حيواناً كان أو جماداً ، أو لأي معنى من المعاني التي يخترعها الإنسان .. وهذا النفي هو تحرير لإرادة الإنسان من العبودية والهيمنة والتبعية . أي تحريره كفرد ، من الاستعباد لإنسان آخر أو لمؤسسة أو لحاكم ، أو لأي جهة أخرى . وتحرير الجماعة ، ممثلة لأية أمة أو شعب ، من الاستعباد ، أو الهيمنة ، أو التبعية ، لأي أمة ، أو دولة أخرى ، أو لمجموعة من الدول .

---

[1] راجع إن شئت " ميلاد مجتمع " لـ " مالك بن نبي "
[2] الإسلام وصراع الحضارات – د. أحمد القديدي - ص 41 ، 42 .

وفي الجزء الثاني من كلمة التوحيد ، نجد الإثبات " إلا الله " التي تعني أن الخضوع والعبودية تكون لله خالق الإنسان فاطر السماوات والأرض وحده دون غيره . هذه العبودية لله هي حماية لحرية الإنسان من أن يتطاول عليها فرد أو جماعة أو دولة أو سلطان أو أي شيء آخر . "[1]

ولذلك ، فإن الحضارة الإسلامية تحقق الأمن ليأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ، فيتصرفوا في معايشهم ويُطوِّروها ، مما يؤدي إلى رُقيِّ المجتمع ، ذلك أنَّ الأمن من الخوف رُكن الإنتاج ، وأصل الإبداع ..

وتحقق الأمن الغذائي ، من خلال حُسْن التصرف في الدخل والإنفاق ، ومن خلال الحكمة في ترتيب حاجات الناس .

إن الجائع لا حياة له ، والقلِقُ على رزقه لا كرامة له ، لأنَّ السيطرة عليه سهلة. والمُستبدُّ يدرك أنَّ الجوع ذلٌّ ، فيحرص على امتلاك لقمةَ الخبز ، ويربطها بخيطٍ يشدُّه إليه كلما دعت الحاجة ، فلا يزال الجائعُ يلهثُ وراء اللقمة ، ولا يزال المستبد يُملي على الجائع ما يريد لينال الأخيرُ في النهاية لقمةً ! .. ولذلك امتن الله سبحانه على قريش بالأمن من الخوف ، والأمن من الجوع ، وجعل ذلك سبباً في حرية حركتهم في التجارة، ومِن ثَمَّ في رخائهم وتطورهم: { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}[قريش].[2]

إن الحضارة " تتضمن من الممارسات و الأنشطة العملية ما يحقق جوهر الاستخلاف { هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود61] . ومفهوم العمران يتضمن التطوير، و الإنماء ، و الأمن...إلخ المرتبطة بتحقيق غاية ، و لذلك رُبطت وظيفة العمران في أحد أبعادها بعبادة الله {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ }[التوبة18] و قد طالب الله الأمة بتحقيق العبادة لله في الأرض "غاية الوظيفة الاستخلافية و العقيدية" و قرن ذلك بأنه حقق لهم (الإنماء) من جانب و الأمن من جانب آخر{ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}[قريش] ، و جعلت مسألة تحقيق الغاية له منوطة بتوفير أسبابها { رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }[إبراهيم37] و من خلال التدبر في الأوامر المنزلة التي تشكل الجانب الثابت في الأنموذج المعرفي المستمد من الوحي ؛ نجد

---

[1] **راجع إن شئت مقال " الحريّة : مدخل إلى رؤية إسلامية " ـ د. بسطامي محمد سعيد خير ـ قضايا في المسألة الحضارية ـ المنتدى الحضاري ـ muntadana.com**

[2] **مستفاد من موقع altaghyeer.com**

أن هذه الوظيفة والقيمة " العمران " يمكن أن تتحقق من خلال قيمتيْن تشكلان جوهر وظيفتين أخرييْن هما: الوظيفة الإنمائية ، و الوظيفة الأمنية..

فأمّا الوظيفة الإنمائية ، فجوهرها هو تحقيق الحياة الطيبة {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النحل97] ، فهي سعي مستمر و كدح دائم لإعمار الأرض بكافة الوسائل رفعاً لمستوي معيشة الأمة باستمرار حتى تتحقق الحياة الطيبة المتوازنة عبر توفير "حد الكفاية" أو "حد الغني" [1] و هو أعلي و أرقي من حد الكفاف الذي تشير إليه الكتابات الاقتصادية .. و بدون دخول في تفاصيل فإن وظيفة الإنماء تقتضي تعبئة الموارد و توجيهها لإنتاج السلع و الخدمات التي تعين المجتمع علي تحقيق أهدافه و غاياته المنبثقة من عقيدته ، أي تعينه علي ممارسة مفهوم "العبادة" في الحياة .. و هذه التعبئة و التوجيه تتم في ضوء ضوابط و أولويات معينة تحددها مقاصد الشريعة بحيث تكون عوناً علي تحقيقها بحيث تأتي الضروريات ، ثم الحاجيات ثم التحسينات ..

و هكذا تكون وظيفة الإنماء إسهاماً في العمران ووفاءً باحتياجات الإنسان المتزايدة و المتعددة ، و باعتبارها التزاماً عقيدياً قبل كل شيء." [2]..

و يرتبط الإنماء بقيمة ووظيفة أخري وهي " الوظيفة الأمنية " ، وهي الوظيفة المكملة للوظيفة الإنمائية في تحقيق غاية العمران ،{ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}[قريش 4].و هي تدور حول حماية الأفراد ، و المجتمع بالمفهوم الشامل للحماية. من ناحية تمكينهم من تحقيق الغاية التي وجدوا من أجلها. غاية الاستخلاف " [3]

و من خلال وظيفتي الإنماء والأمن ، يحاول المسلمون إرساء الأسس الصلبة لتحضّر راق متوازن يهضم كل ما حققته البشرية من مستويات سامقة من التحضّر ، ويعالج مشكلاته المستعصية في نطاق مفهوم شامل للحرية .. تلك الحريّة التي تعنى عبادة الله بالحياة وفق منهاجه الذي يستجيب لكل أبعاد الإنسان وحاجاته الفكرية والنفسية والعقدية والحياتية عامة ، ويرحب بكل إنجاز حضاري يرسي نظاماً

---

[1] حول وظيفة العمران و مكوناتها ، راجع إن شئت " الإطعام و الأمن و منهج الدعوة إلي الله ـ أحمد عبد الله الحضراوي ، و حول مفهوم حد الكفاية في المذهب الاقتصادي الإسلامي ، راجع إن شئت " إستراتيجية حد الكفاية و دورها في معالجة قضايا الإنتاج و التوزيع في الدول النامية ـ سامية محمد محمود عمار .

[2] الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية ـ دراسة منهجية في النظرية السياسية الإسلامية ـ حامد عبد الماجد قويسى ـ ص 136 .

[3] المصدر السابق ـ ص 137 .

اجتماعياً يكفل الحريات والحقوق ، ويرتقي بالإنسان في كل جانب من جوانب حياته [1] ليوفر للبشرية الإطعام والأمن .. ومن قبل ذلك ومن بعده .. يوفر لها " الحرية " التي هي " شرط الحضارة " .

***

[1] راجع إن شئت " العلاقة بين الحرية والحضارة - راشد الغنوش " ورقة مقدمة في اللقاء الرابع للمنتدى الحضاري بتاريخ 12 يناير 2002 ، مانشستر - المملكة المتحدة . ص 148 بتصرف يسير .

الفصل الثاني

الإسلام رسالة الحرية

حين يتبع الإنسان شريعة السماء ؛ يحتاج إلي عالم غير ذلك الذي يبنيه الشاردون .. ولهذا يكون سعيه لتغيير هذا العالم هو التصرف الطبيعي .. بل يشعر أنه مكلف بصفته الإنسانية ببناء هذا العالم الجديد في هذه الأرض .. وتحقيق ميلاد جديد " للإنسان " .. ميلاد تشرق عليه شمس الحرية ؛ فتنشر في النفس الإنسانية الدفء والنشوة ، والعزة والطمأنينة .. وتثمر في الحياة شجرة الكرامة الإنسانية الوارفة الظلال التي يتناغم الوجود في جمالها الأخّاذ ، وأزهارها البهية ، وأغصانها الندية ، ويتطلع كل إنسان لاجتناء ثمارها اليانعة ، فينعم بطعمها ، ويستمتع بعبيرها ، ويفوح عبقها في النفس والمجتمع والوجود كله ..

إن المسلم يبحث دائماً عن الحرية ، لأن نفسه تعاف المذلة ، وتكره العبودية ، فتسعي لتحرير البشرية من خلال " لا إله إلا الله " ، كلمة الاستقلال والحرية ، وفي إطار منهج تحريري كامل ومتوازن ، هو المنهج الإسلامي الذي يحرر العقل من الأوهام والجهالات في تقدير ذاته ، وتصوره للوجود من حوله.. ويحرر النفس من المخاوف بالتوكل على الله فى مواجهة ما يلاقيه من تحدّيات وموازين للقوى مختلة لصالح المستبدين .. وكأنه يردد : ماذا يضيرني من كل قوي الاستبداد إن أنا كنت عابداً مطيعاً لمالك الملك ..؟!

ولكي ينجح في تحرير العالم ؛ فإنه يسائل نفسه دائماً : هل أنا أحمل رسالة إلي الآخرين ؟ أم أنا في موقع " المتلقي " لرسالة الآخرين ؟ .. وما هي تلك الرسالة ؟ .. فتأتيه الإجابة ، نعم .. أنت تملك رسالة ينقذ الله بها البشرية من بحر الشقاء إلي ساحل السعادة ، ومن عبادة الأحجار والعبيد إلى عبادة الله وحده ، ومن حمأة الرذيلة إلى قمة الفضيلة .. رسالة تبني المجتمع الحر في ضمير الأفراد وفي أعماق أرواحهم ببذرة الحب ، ثم تنسّم عليها نسمة الرحمة لتردهم إلي الحب الإنساني الخالص ، والرحمة الإنسانية المبرأة ، وتذكرهم نشأتهم الأولي من نفس واحدة ، وتوقظ في وجدانهم شعور النسب والقربى ، وتذكرهم

أخوتّهم في الله وفي المنشأ والمصير .. فإذا رقت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا إلي السماحة أقرب ، وإلي السلام أدني ..

إن قوة الإسلام التحريرية تنطلق في الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال ، وهي لا تنظر في هذا المجال لجنس ولا لون ولا لغة ولا أرض ، الناس سواء .. و حيثما كان ظلم فالإسلام منتدب لرفعه ودفعه ، وقع هذا الظلم علي المسلمين أو علي غيرهم ، لأن هذا الإسلام حين شرّف المسلم بحمل رسالته لم يسمح له أن يكون مثل ذلك الروماني الإمبراطوري الذي مارس العنف لإخضاع العالم لحكم الرومان ولمصلحتهم . إنما غرس في عقل المسلم وقلبه قول ربه { إن أكرمكن عند الله أتقاكم } ، وقول نبيه : " لا فضل لعربي علي أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى " . فحمل رسالة هذا الدين للعالمين وهو يردد " الله أكبر " و " لا إله إلا الله " ، فلم يرَ نفسه " الأكبر " ، ولا نصّب نفسه " إلهاً " .. بل كانت دعوته لكل الشعوب ألا تخضع إلا لإله واحد ، وهو الله سبحانه وتعالي، وألا تقبل أحداً عليها أكبر لأن " الله أكبر " .. وكانت فتوحاته جهاداً من أجل انتصار العقيدة ، وليس عنفاً في سبيل تكوين إمبراطورية ، تكون سجناً كبيراً للشعوب ..!!

لقد كانت حركة الإسلام في كل الأرض صراعاً مع العبودية شعاره " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ".. وصراعاً مع الضعف والخنوع والذل والركوع شعاره " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " .. وصراعاً مع الجوع والخوف شعاره " الإطعام والأمن " .

ولئن كان ما سنكتبه في هذا الفصل يدخل في دائرة الحلم باعتبار واقعنا ، فإنَّ أملنا المصحوب بالعمل يبيح لنا أن نحلم ، كما أن مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .. هذه الخطوة تكون هي الشمعة التي إن لم تُبدد الظلام ، فحسبها أنها تضيء نقطة صغيرة تكون منارة يهتدي بها الشاردون .. وكل من تأمل كيف اهتدي الشاردون في الجاهلية الأولي من خلال نقطة التوحيد المضيئة في ليل الشرك البهيم ، سيري أنه ..

• في البدء كانت الحرية

جاءت رسالة الإسلام تنقذ البشرية كلها من الاستعباد والاضطهاد ، وتقودها إلي الحرية على هدى ونور .. " ولم يكن هناك بد من أن يبدأ الإسلام رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية أو غيرها ، وأن ينشأ نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة عن طبيعته ، بل يكون هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله ... وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى بالذات هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة

الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .. فلم تكن هناك حكومة منظمة تقف للعقيدة الجديدة بسلطانها المنظم ، وتخضع لها الجماهير خضوعاً دقيقاً كقيصر وكسرى " [1]

لقد " كانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة ، لم تخضع لحكومة أجنبية ، ولم تألف الرق والعبودية . وقد سرت هذه الحرية والاعتداد بالنفس ، والأنفة من التذلل إلى جميع طبقات الشعب وعمت الذكور والإناث " [2] .. وهذا ما أهّلهم لحمل رسالة الله للعالمين ، فلا ينقل دين العزة والإقدام ، والعمل الصالح إلا الأحرار الذين يأبون الدنية ، ويرضون بالبذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك إلا في أولئك العرب يومئذ ..!!

لقد كان العرب " يوم جاء الإسلام يتمتعون بدرجة عالية من الحرية ومن العزة والكرامة ؛ يتحركون ويتنقلون بحرية ، ويتكلمون ويعبرون بحرية ، ويتصرفون في مكاسبهم وممتلكاتهم بحرية ، ويحاربون أو يسالمون بحرية . ولكن حرية الفكر كانت عندهم مشلولة ومعطلة ، أو على الأقل معاقة ومكبلة . ولم يكن ذلك من خارجهم ومن متسلط عليهم ، بل كان من ذاتهم ومن داخلهم ، وبرضاهم وتمسكهم .. ولذلك ، كان في مقدمة مقاصد البعثة المحمدية تحرير العقل والفكر ، ورفع ما أحاط بهما من آصار وأغلال وقيود وأوهام. قال تعالى: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.} (الأعراف: 156-157) .. فكان الإسلام رسالة تحريرية على كافة الأصعدة ، وفي مقدمتها صعيد الفكر والفهم والعلم والتدين . " [3]

لقد جاء الإسلام فوجد إنساناً معكوساً " قد فسدت عقليته ، فلم تعد تستسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ..!! .. وقد فسد نظام فكره ، فإذا النظري عنده بديهي ، وبالعكس يستريب في موضع الجزم ، ويؤمن في موضع الشك ، وفسد ذوقه ، فصار يستحلي الشر ، ويستطيب الخبيث ، ويستمرىء الوخيم ، وبطل حسه ؛ فأصبح لا يبغض العدو الظالم ولا يحب الصديق الناصح !!

---

[1] منهج الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية ـ علي بن جابر الحربي ـ ص 92،93 بتصرف يسير .
[2] السيرة النبوية ـ أبو الحسن الندوي ـ ص 21
[3] راجع إن شئت " الحرية في الإسلام أصالتها وأصولها ـ د. أحمد الريسوني " .

لقد كان مجتمعاً ، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله ، قد أصبح فيه الذئب راعياً ، والخصم الجائر قاضياً ، والمجرم سعيداً حظياً ، والصالح محروماً شقياً ، لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ، ولا أعرف من منكر !!

عاداته فاسدة ، تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك .

فأما ملوكه فقد اتخذوا بلاد الله دولاً وعباد الله خولاً ، وأمّا أحباره ورهبانه فقد أصبحوا أرباباً من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ..

وأمّا أفراده فقد كانوا قطعاناً من الأغنام ليس لها راع ، وكانت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه وأولاده وإخوانه " [1]

لقد كانت البشرية قد تردت إلى حالة شديدة من السوء ، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور ، فهناك دولتان " عظيمتان " هما فارس والروم ، تحكمان معظم الأرض المعمورة يومئذ .. " في فارس كان كسرى هو الذي يحكم . ولكنه لم يكن ملكاً ، إنما كان إلهاً .. ! كانت مراسيم التحية التي تقدم له أشبه شيء بشعائر التعبد ! لم يكن يحق لأحد أن يدخل عليه حتى يمر بحاجب وراء حاجب ، فإذا مثل بين يديه انحنى له انحناءة عظيمة ، ويظل منحنياً حتى يؤذن له بنصب قامته ! فإذا تكلم قدم لكلامه بعبارات من الثناء تُشعر بالخضوع والمذلة أكثر مما تُشعر بالرغبة في الثناء ! ثم إذا انصرف لم يحق له أن يعطي ظهره للإله المعبود ! بل يخرج بظهره ، حتى يظل وجهه هو المواجه لكسرى حتى يغيب عن ناظريه ، لأنه لا يجوز في حق ذلك الإله المزعوم أن يستدبره الناس بظهورهم لأن في ذلك ما يخدش عظمته وقداسته !!

وكان الناس عبيداً بالفعل لذلك الإله . يعيشون . أياً كان مستواهم . على الصورة التي يسمح بها كسرى، أو تسمح بها تقاليد الملك المتوارثة منذ أجيال . وحفنة من الناس يستمتعون بخيرات البلاد ، أولئك هم بلاط كسرى ، المتحكمون معه في رقاب العبيد ، أما بقية الشعب ففي حالة من الذل والفقر والعبودية لا تليق " بالإنسان " . وكانوا يساقون إلى الحروب التي يشنها كسرى أو قواده " الطموحون " يموت منهم من يموت لغير قضية يؤمن بها ، ويحيى من بقي حياً في ذل العبودية والضياع .

مظاهر " العظمة " ومظاهر " الحضارة " كلها في إيوان كسرى وقصره وبلاطه وكل ما يتعلق به ، أما " الشعب " فلا أهمية له إلا بمقدار ما يخدم مصالح أولئك السادة المتحكمين وعلى رأسهم ذلك " الإله " !

---

[1] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ ص 78 ـ 79 بتصرف يسير .

وهناك " فنون " نعم ، وإنتاج مادي .. ولكنه كله مسخر . مع الناس أنفسهم . لخدمة تلك المصالح المقدسة لا يخرج عنها !

....

وفي بلاد الروم لم يكن الحال أفضل من ذلك ، فالقيصر يحاط بالهالات كما يحاط كسرى .. والناس – كحالهم في كل جاهلية – سادة وعبيد . السادة قلة ، ولكنهم يملكون كل شيء في أيديهم ، والعبيد هم الكثرة المغلوبة على أمرها ، المسخرة لمصالح السادة .. والحروب التي يشنها القيصر وقواده لا تنتهي . وإليها يساق العبيد ليموتوا بالألوف ومئات الألوف .. في سبيل ماذا ؟ ما القضية التي يدافعون عنها ويموتون من أجلها ؟ وما القيم التي يحرسونها ؟ إنها " الإمبراطورية " ! إنها الأمجاد الشخصية للقيصر والقواد ! إنها شهوة الغلبة والاستعباد والإذلال والقهر ! إنها البربرية الوحشية التي لا يحكمها قانون !

وهناك مثل فارس فنون وإنتاج مادي وعمارة للأرض .. ولكن لمن ؟ للسادة أم للعبيد ؟! وما دور العبيد فيها غير خدمة الأسياد ؟!

......

فإذا تجاوزنا الإمبراطوريتين " العظيمتين ! " وجدنا في آسيا " الحضارة " الهندية و "الحضارة الصينية"..

ففي الهند – كما في كل مكان – سادة وعبيد . ولكن العبيد في الهند لهم وضع خاص . إنهم خُلقوا من قدم الإله ! ولذلك فهم دنسون نجسون ! وعليهم أن يحتملوا كل ما يقع عليهم من إذلال وإهانة وتعذيب ، لأن هذا قَدَرُهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن هذا هو طريقهم الوحيد للخلاص ! الخلاص عن طريق تناسخ الأرواح ! فالإنسان يقضي عمره المحدد ، ثم تنسخ روحه فتحل في إنسان آخر جديد ، ولكنها نفس الروح ! فإذا رضي العبيد " المنبوذون " بقَدَرهم ، ورضوا بالهوان والذل ، وقاموا بأشق الأعمال وأقذرها ، فربما .. ربما تنسخ أرواحهم في أشخاص جدد ، أرفع شأناً من العبيد (وإن كانوا لا يصلون قط إلى مقام السادة الذين خلقوا من رأس الإله أو من ذراعيه !) فيكونون بذلك قد وصلوا إلى " الخلاص " المنشود !

....

وفي أقصى الأرض توجد الصين .. بلاد مترامية الأطراف يحكمها إمبراطور .. مقدس ككل حكام ذلك الزمان . تقدم له طقوس العبادة وتقدم له القرابين ، ويخرّ الناس بين يديه ساجدين ، والإله المعبود هو بوذا . تقام له التماثيل وتعبد . ينحتها الناس بأيديهم ثم يعبدونها !

....

أما الجزيرة العربية فغارقة في الجاهلية ككل البشرية ! .. ففيها ألوان ثلاثة من الديانات .. كلها ضلال!

فهناك اليهود مركزون في المدينة وما حولها ، قد حرّفوا كتابهم " المقدس " منذ أجيال طويلة ، وملئوه بالأكاذيب والأساطير ، وغيروا فيه شرائع الله ، ثم نبذوها جملةً وأصبحوا يحكّمون أهواءهم ومصالحهم، ويعبدون الشيطان في الحقيقة بدلاً من عبادة الله .

وهناك فئات قليلة من النصارى واقعون فيما هم واقعون فيه من انحرافات .

وهناك العرب الوثنيون في طول الجزيرة وعرضها يعبدون الأصنام ، ويضعونها في الكعبة ، بيت الله الحرام ، في المكان الذي أمر إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعده ليعبد فيه الله وحده بلا شريك ، المكان الذي دعا فيه إبراهيم : (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) [إبراهيم : 35] .

ثم يقولون : إنهم على دين إبراهيم !

وتعشش في رءوسهم مجموعة شتى من الأساطير !

الملائكة بنات الله ... وتعبد لأنها بنات الله !

والجن ذوو نسب مع الله . ومن أجل ذلك يعبدون .

والأصنام ، ينحتونها بأيديهم ويعبدونها ، ويقولون : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) [الزمر:3] .

وقريش تتحكم في عقائد العرب ، تأمرهم أن يطوفوا بالبيت عرايا ، وتحل الأشهر الحرم ، وتحرم غيرها نسيئاً ، وتحل الميتة ، وتحرم من الأطعمة الحلال ما تشاء .. والعرب يطيعون شريعتها الزائفة ويعصون شريعة الله !

ويئدون البنات ، ويحتقرون المرأة ويظلمونها ، ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويستبيحون الزنا ، وتمضي حياتهم في الشراب واللهو أو غارات السلب والنهب .. أو الفراغ ! وبعض القبائل الغنية كقريش

وثقيف وهوازن تشتغل بالتجارة بعض وقتها وتشتغل بالربا الفاحش في أموال الناس ، ثم تنصرف هي الأخرى إلى الفراغ !

و " الإنسان " ضائع كما هو ضائع في كل الجاهليات ..

.....

كذلك كان حال العالم قبيل البعثة المحمدية . شرك يملأ وجه الأرض ، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور .

وفي هذا الجو الحالك المظلم بعث النور .. بعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . "[1]

فكيف بدأ الخطاب الإسلامي لهذا الواقع ؟

" لقد بدأ الخطاب السياسي الشرعي الإسلامي بخطاب إنساني عالمي ، يحمل المبادئ السماوية الداعية إلى تحرير الإنسان من عبودية الإنسان وعبودية كل ما سوى الخالق ؛ كما قال تعالى : {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64 ..

وقد فسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الربوبية هنا بمعنى خضوع الإنسان وطاعته غير الله ، وقد عاب على أهل الكتاب أنهم { اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ } [التوبة ، 31] أي بطاعتهم والخضوع لهم .

ودعا إلى المساواة بين الناس جميعاً كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات13]

وأكد كرامة الإنسان كما قال تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ } [الإسراء 70].

وأخبر بأن الكتاب والشريعة كلها إنما جاءا من أجل إقامة العدل والقسط بين الناس ، كما قال تعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد 25] . فالغاية من الشريعة وأحكامها والكتاب وتشريعاته هي تحقيق العدل بتحرير الإنسان من العبودية والخضوع للملوك والرؤساء والرهبان والأحبار وكل من سوى الله ، وإفراد الله وحده بالطاعة والخضوع ؛ إذ الجميع حتى الأنبياء ما هم إلا عبيد لله وحده الذي يستحق الشكر والطاعة .

---

[1] ركائز الإيمان – محمد قطب - ص 310 - 314 .

لقد عبّر عن مبادئ هذا الخطاب ربعي بن عامر عندما دخل على رستم قائد جيش الفرس ، فقال له عن المهمة التى جاءوا من أجلها والرسالة الإنسانية التي يحملونها : " إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة ألآخرة"

وكذا عبّر عنه زهرة بن عبد الله الجشمي عندما قال لرستم حين سأله عن دينه فقال : " شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى ، والناس بنو آدم وحواء ، إخوة لأب وأم " وأنهم إن أسلموا رجعوا عنهم ، فلم يدخلوا أرضهم إلا لتجارة أو حاجة .

لقد كان خطاباً إنسانياً عالمياً ، يشترك في حمله والدعوة إليه كل مسلم في ذلك العصر. كما جاء في الحديث الصحيح : " لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم " بقصد تحرير الإنسان وهدايته وإقامة العدل . " [1]

وهكذا .. قامت " الدعوة على هذا الأساس ، لا يبغي محمد من الناس إلا أن يستمعوا إليه . فإن صغت قلوبهم فليؤمنوا ، وإن قست قلوبهم وران عليهم الضلال فأمرهم إلى الله .. متى تحقق لهم أن يتحرروا من سلطان الطواغيت ، ويواجهوا عقيدة الإسلام أحراراً في الاختيار " [2] ؛ " فحدثت معجزات في الأرض لا مثيل لها في التاريخ .. و تجمعت القبائل الجاهلية فصارت أمة مسلمة .. وتركت النفوس الجاهلية إلفها وعاداتها ، وعرفها وسلوكها ، ولذائذها المنحرفة وشهواتها ، وأساطيرها وخرافاتها.. واستوت على الصراط.. نفوساً جديدة أنشأها الإسلام إنشاء كأنما ولدت اللحظة.. على المولد الجديد " للإنسان " كله .. وقامت هذه النفوس المسلمة تنشئ واقعها إنشاء على نمط غير مسبوق.. ولا ملحوق. نمط ليس من وحى هذه البيئة ، ولا من عاداتها ولا من عرفها ولا من سلوكها الجاهلي. وليس من وحى " ضرورة " من كل ضرورات الأرض ..

قامت تحرر " الإنسان " من الطاغوت .. لغير سبب بيئي ولا دنيوى يدفعها إلى هذا التحرير! " [3] ، ثم تنشيء " مجتمعاً مفتوحاً يتألق بالحقيقة والاستقامة واستنشاق الهواء النظيف بعيداً عن سياط الإرهاب

---

[1] الحرية أو الطوفان – د. حاكم المطيري - ص 245 - 247 .
[2] راجع إن شئت " السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - ص 30 ، 31 .
[3] جاهلية القرن العشرين - محمد قطب - ص 215 - 217 .

الفكري دينياً كان أو سياسياً ، لا عصمة فيه لطبقة من حكام أو رجال دين يحتكرون المعرفة أو يتحدثون باسم الله فيصبح قولهم هو القانون وهو الدين وتصبح أشخاصهم هي المقياس " [1]

ولا شك أن الواقع الذي بُعث فيه رسول الله (ص) فغيّره ، لا يختلف عن واقعنا المعاصر في جوهره . وإن اختلف في شكله . فالناس في عالم الأمس عاشوا في بيئة ضيقة ، وعكفوا على عبادة الأصنام واتباع الشهوات وشن الحروب من أجل السلب والنهب وتحقيق المصالح .. و في عالم اليوم قامت حياة البشر.. إلا من رحم الله. علي المصالح المادية والعكوف على الشهوات ، بل لقد خنقت الأثرة العالم حتى أنها لم تسمح لاثنين بالعيش فى منطقة واحدة ، وكل ما نشاهده من صراعات دامية مدمرة يغلب عليها طابع الأنانية والمصالح العنصرية الضيقة التي تريد الاستئثار بكل شيء على حساب الشعوب الأخرى ..

ولذلك فإن الرأي السديد أن تحرير العالم اليوم إنما يكون بنفس الأسلوب الذي حرره بالأمس .. مجتمع عالمي في عناصر تركيبه ، كما هو عالمي في أصوله ومبادئه الفكرية العقائدية .. والطريق إلي ذلك الهدف العظيم يصنعه السير فيه من خلال ..

• بناء مجتمع الفكرة

يقع الناس في كثير من المجتمعات المعاصرة في عبادة الأشخاص في مظاهرها السياسية ومظاهرها الدينية ، فيمارس الأفراد التزلف والخضوع والاستبعاد الذي يوقعهم في وثنية مقززة لكل من دان بالتوحيد والعقيدة الصحيحة .. ومن ثم يصبح " الامتحان الحقيقي الذي يواجه الدين عامة في عصرنا : هو في أساسه عقيدي .

والاحتياج الحقيقي الذي يلحّ على الإنسان في عصرنا : هو الجرعة الروحية النفسية .. والهدف الحقيقي الذي توخته الشرائع : هو في إرساء أساس العقيدة لتحقيق سعادة الإنسان .

ولذلك فإن اختلاف هذه الشرائع ، لم تحجب المجتمعات عن الإفادة من حكمة الدين وأصله الجامع " العقيدة " .. فمن طريقها ، يسمو الدين بدوافع الخضوع في نفوس البشر ، حتى لا يساء استخدامها في الانقياد للناس والأهواء ، ويحكم صمامات النفس بعروة العقيدة الوثقى فلا يأس ولا بطر ، ويصرف مشاعر الخوف والرجاء إلى من لا يتجبر بها بغير الحق إذ هو غني عن العالمين .. " [2]

---

[1] نظرات فى مسيرة العمل الإسلامي - عمر عبيد حسنة - ص 23 .
[2] دولة الفكرة - محمد فتحي عثمان - ص 82 ، 83 بتصرف يسير .

وعلي هذه القاعدة قامت مجتمع " الهجرة " في المدينة .. فهو مجتمع فكري عقائدي .. والعقيدة فيه معروضة على كل إنسان بحكم إنسانيته ، أياً كان موطنه أو أياً كانت عشيرته .. إنه مجتمع مفتوح ، لا يغلق نفسه على جماعة ..

{لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [الحشر8]

{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الحشر9]

{وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }[الحشر10] [1]

إنه مجتمع " فكرة " و " عقيدة " لا تحدّه قطعة من " الأرض " ، فهو عالمي في عناصر تركيبه ، ووثائق تأسيسه ،

يحس فيه الإنسان بالعزة الحقيقية والكرامة الحقيقية والتحرر الحقيقي " و يكون للناس فيه ولى أمر منهم . ينتخبونه انتخاباً حراً ، في بيعة حرة ، ويولونه أمرهم . ولكن ولى الأمر هذا لا يشرع لنفسه ، ولا يحق له أن يشرع .. ولا يملك رقاب الناس ، ولا يحق له أن يملك .. ولا يخضع الناس لإرادته ، ولا يحق له أن يخضعهم .. إنما يحكم بما أنزل الله. وكل مهمته التي يبايع من أجلها ، ويملك السلطان من أجلها هى تنفيذ شريعة الله .. هذه الشريعة التي لم تضعها طبقة أو طائفة ، ولم تراع فيها مصلحة طبقة أو طائفة.. إنما وضعت لجميع الناس ،

وولى الأمر هذا واحد من الناس لا غير .. " [2]

لقد " قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً على ملأ من المسلمين يقول : " أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق إن شاء الله تعالى"... ثم قال : " أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " ...

---

[1] المصدر السابق ـ ص 16 ، 17 بتصرف يسير .
[2] جاهلية القرن العشرين ـ محمد قطب ـ ص 225 ، 229

وهكذا فتح فى وجوه الرعية فرجاً يرددون منها أنفاس الحرية مع أولي الأمر ، وأمر بالإنكار والمعارضة عندما تنحرف تلك السلطة عن مركزها يميناً أو شمالاً ، وذلك قوله : " وإن أسأت فقوموني " ، وجعل بيدهم عقدة عزل الأمير وتركه غير مأسوف عليه إن لم يقوم اعوجاجه ، ويرجع بسلطته إلى دائرتها المرسومة لها شرعاً ، وذلك قوله : " فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " ، وقوله : " والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق " من دلائل المساواة .

وانظر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف يخاطب رعيته بقوله في بعض خطبه : " إن كان بيني وبين من هو منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه إلى من أحبه منكم فينظر فيما بيني وبينه " ... وهذا نهاية ما يحتج به للمساواة ، لما فيه من التصريح بأن كل واحد من الرعية محكوم من وجه ، حاكم من وجه آخر ، فلا يسوغ للحاكم أن يقضي لنفسه ، كما لا يجوز له القضاء بشهادته لغيره ، بل يرفع الخصومة إلى غيره من الحكام ، وإن لم يكن معه حاكم ، رفع ذلك إلى رجل من رعيته ، كما فعل عمر وهو خليفة حين قاضى رجلاً إلى أبي بن كعب ، وأبي بن كعب ليس بذي سلطان .

وكتب عمر في رسالته إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : وآس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك حتى لا ييأس الضعيف من عدلك ولا يطمع الشريف في حيفك ... " [1]

ولا شك أن هذه الكلمات ، ومن قبلها كلمات أبي بكر رضي الله عنه هي تذكير لأفراد المجتمع أن لا يكونوا سياطاً وأبواقاً لولاة الأمور " حتى تصبح ثقافة هذا المجتمع متحدة الطابع عند ولي الأمر وأفراد الرعية ، وهذا ما رأيناه في موقف عمر رضي الله عنه عندما خطب المسلمين غداة توليه الخلافة ، فقال قولته المشهورة : " من رأي منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه "، فوجد الرد علي هذه المقولة ما نطق به أحد أولئك البدو البسطاء : " و الله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ".. ليطبع هذا الحوار الفريد بطريقة رائعة أسلوب الحياة في مجتمع اتحدت فيه حركات الفكر ، والعواطف ، و دوافع العمل " [2]

لقد كان عمر رضي الله عنه في قولته تلك متجهاً صوب مجتمع الفكرة لا الأشخاص ، فأجابه ذلك المجتمع علي لسان البدوي .. وتكررت تلك المواقف من أفراد ذلك المجتمع ، فرأينا عمر رضي الله عنه يقوم علي المنبر فيقول : اسمعوا وأطيعوا، قام له رجل من المسلمين- سلمان الفارسي- الفارسي لا

---

(1) الحرية فى الإسلام - الإمام . محمد الخضر حسين - ص 35 ، 36 .
(2) مشكلة الثقافة - مالك بن نبي - ص 51 .

العربي! يقول له: لا سمع لك علينا ولا طاعة.. حتى تبين لنا لم فعلت كذا وكذا [1] ! فلا يغضب عمر ولا يثور! ولا يقول: كيف تناقشني وتعارضني وأنا في حرب مقدسة مع الأعداء الذين يتربصون بنا ويعملون على تحطيم الدولة والنظام ! بل يبين له الأمر في هدوء حتى يتضح .. فيقول سلمان : الآن مُر .. نسمع ونطيع ..!!

ويري رضي الله عنه رأياً .لصالح المسلمين. في مسألة الفئ ، وتوزيعه أو عدم توزيعه على الفاتحين من المسلمين [2] ، فيعارضه بلال .العبد الحبشي.. معارضة عنيفة قوية ، ويجمع المعارضين معه ، فلا يجد من سبيل أمام معارضته. وهو مقتنع بصواب رأيه الذاتي ، وبأنه يعمل مخلصاً لصالح المسلمين .إلا أن يدعو ربه : اللّهم اكفني بلالاً وأصحابه !! " [3]

وبقي هذا هو الحال في عهد الخلفاء الراشدين " فكان المسلمون يعترضون على سياساتهم وينتقدون ممارساتهم ، ولم يتعرض أحد للأذى بسبب هذه المعارضة ، مما يدل على رسوخ مبدأ الحرية السياسية .. فاعترض عمر رضي الله عنه علي أبي بكر عندما أراد قتال أهل الردة ، وما زال أبو بكر يجادل الصحابة حتى أقنعهم برأيه ... و دخل رجل على أبي بكر فأغلظ الرجل القول لأبي بكر ، فقال أبو برزة الأسلمي : " ألا أضرب عنقه يا خليفة رسول الله " ، فغضب أبو بكر أشد الغضب من هذه الكلمة التي قالها أبو برزة ، وقال : " لا والله ما كانت لأحد بعد رسول الله "

وإذا كانت المعارضة الفردية لسياسة الخلفاء هي الأبرز في عهد أبي بكر وعمر ، فقد دخل العمل السياسي والمعارضة السياسية طوراً جديداً ، وأخذا بعداً أكثر تنظيماً فى عهد الخليفتين عثمان وعلي ، فقد بدأت المعارضة تأخذ طابعاً جديداً ، حيث ظهرت جماعات منظمة معارضة لسياسة عثمان رضي الله عنه وقد بدأت في البصرة والكوفة ومصر. ، ثم أصبحت أكثر انتشاراً ، واستطاعت أن تستقطب إلى صفوفها بعض الصحابة كعمار بن ياسر الذي أرسله عثمان رضي الله عنه لمعرفة أخبار المعارضة في مصر. فانضم إلى صفوفها .

....

[1] وزعت على المسلمين أبراد " أقمشة " يمانية ، فنال عمر برد كبقية المسلمين ، ولما كان رجلاً طوالاً لا يكفيه برد واحد ، فقد قام سلمان الفارسي يستجوبه : من أين لك البرد الذي ائتزرت به وأنت رجل طوال لا يكفيك البرد الذي نالك كبقية المسلمين ؟! فنادى عمر ابنه عبد الله بن عمر ، فشهد عبد الله أنه تنازل لأبيه عن برده الخاص ليستطيع أن يجد الكسوة اللازمة له !

[2] يرى رضي الله عنه عدم توزيعه محافظة على مستقبل الأجيال

[3] جاهلية القرن العشرين ـ محمد قطب ـ ص 112 .

كل ذلك يؤكد مدى الحرية السياسية التي ترسخت في عهد الخلفاء الراشدين ، فلم يقم عثمان رضي الله عنه بمجابهة هذه المعارضة ، كما أشار عليه بعض قادة جيوشه ، بل رأى أنه لم يصدر عنهم ما يستحل به دماءهم ...

لقد أدرك الخليفة والصحابة الذين معه مشروعية ما قام به المعارضون من معارضة جماعية لسياسة السلطة ، ولهذا أقرهم عثمان على ما فعلوا ، ووافق على شروطهم ، وكذا أقرهم الصحابة الآخرون ، ولو كان ما فعلوه منكراً لما جلس معهم عثمان ، ولما أثنى عليهم .. " [1]

" وإذا كانت المعارضة الجماعية للسلطة في عهد عثمان محدودة في مجموعات محصورة في مصر.والكوفة والبصرة ، فقد تطور الوضع في عهد الخليفة الرابع الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ حدثت المعارضة له داخل المدينة نفسها ، وهي عاصمة الدولة الإسلامية ، وقادها نفر من كبار الصحابة – رضي الله عنهم – وهم طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وهما من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن الستة الذين اختارهم عمر للشورى ، وآزرتهم عائشة – رضي الله عنها – و مجموعة من الصحابة ، لتدخل المعارضة طوراً جديداً ، فقد جاءوا إلى علي رضي الله عنه بعد أن تمت له البيعة فقالوا : " يا علي ! إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم عثمان " فقال لهم : " كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم "

فطلب منهم التأني حتى تهدأ الفتنة ، إلا أنهم رأوا أن عجز الإمام عن القيام بها أوكل إليه نيابة عن الأمة لا يسقط الواجب ، بل يلزم الأمة القيام به ، فهي المخاطبة به في الأصل ؛ إذ عامة الخطاب القرآني موجه للأمة ، ولهذا قالوا : نقضي بالذي علينا ولا نؤخره ..

لقد اجتهدوا جميعاً – رضي الله عنهم – ودل فعل طلحة والزبير على أن السمع والطاعة والبيعة للإمام لا تكون سبباً لسقوط الواجب عن الأمة ، إذا عجز الإمام عن القيام به .. " [2]

وهكذا هو الحكم في مجتمع الفكرة ، يساعد المحكومين على نقد الحكام ، وعلى تشكيل المجتمع في إطار من الفكرة وليس الشخص ، وإقامته علي أساس المشاركة .. فهو مجتمع بناء ، يُعاد فيه دمج الأفراد من خلال تكوين شبكات وروابط اجتماعية جديدة .. قائمة على العدل ، والوعي النقدي ، والمشاركة ..

نعم .. قد نأسي " حين نقرأ أن طاغية كالحجاج قد بطش بعشرات الآلاف من العلماء الذين شاركوا

---

[1] الحرية أو الطوفان - د. حاكم المطيري - ص 45 - 51 بتصرف يسير .

[2] المصدر السابق - ص 52 - 62 بتصرف يسير .

في ثورات مسلحة للإطاحة بحكمه الجبري ، ولكننا في ذات الوقت نعتز بثقافة التحرر التي كانت تعمر أفئدة أولئك الآلاف من العلماء الذين آثروا الحريّة وابتغاء عدل الإسلام ومنزلة الشهداء ، على الحياة الرخيصة الذليلة في ظل الطغيان ، كما غدا شائعاً في دوائر واسعة من علماء ومثقفي السلاطين في هذا الزمان " [1]

لقد " دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا : قل السلام عليك أيها الأمير ، فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا : قل : السلام عليك أيها الأمير ، فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا : قل : السلام عليك أيها الأمير .. فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول ، فقال : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فإن أنت هنأت جرباها ، وداويت مرضاها ، وحبست أولاها عن أخراها ، وفّاك سيدها أجرك .. وإن أنت لم تهنأ جرباها ، ولم تداوى مرضاها ، ولم تحبس أولاها عن أخراها ، عاقبك سيدك ."[2]

وإن تعجب لهذه الكلمات ، فتأمل معي ما هو أعجب ، فقد " صلي الحجاج مرة بجنب سعيد بن المسيب – وذلك قبل أن يلي شيئاً . فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود ، فلما سلّم أخذ سعيد بطرف ردائه . وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة . فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره ، ثم أقبل عليه سعيد ، فقال له : يا سارق يا خائن ، تصلي هذه الصلاة ، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك . فلم يرد عليه ، ثم مضى الحجاج إلى الحج ، ثم رجع فعاد إلى الشام ، ثم جاء نائباً على الحجاز . فلما قتل ابن الزبير كر راجعاً إلى المدينة نائباً عليها ، فلما دخل المسجد النبوي ، إذا مجلس سعيد بن المسيب ، فقصده الحجاج فخشي الناس على سعيد منه ، فجاء حتى جلس بين يديه ، فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ فضرب سعيد صدره بيده ، وقال : نعم ! قال : فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك ، ثم قام ومضى . " [3]

لقد كسر الإسلام قيود العبودية ، منذ نزول الوحي و بدء الرسالة مع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ، و ألغي من خلال مجتمع الفكرة كل تمييز بين إنسان و آخر ، إلا بالتقوي و الفضيلة ؛ فرفع كل إنسان رأسه، و نال كل نصيبه و حقه ؛ فأصبحت الحرية بجميع أشكالها حقاً محفوظاً ، بل واجباً مفروضاً ، وبايع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ الأنصار في العقبة قبل الهجرة على "أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة

---

[1] **راجع إن شئت " العلاقة بين الحرية والحضارة – راشد الغنوش " ورقة مقدمة في اللقاء الرابع للمنتدى الحضاري ، مانشستر – المملكة المتحدة) وموقع المنتدى على الإنترنت هو muntadana.com .**

[2] **البداية والنهاية - ج 8 ص 117 .**

[3] **البداية والنهاية - إبن كثير - ج 6 ص 248 .**

لائم " ، وقال في شأن يهودي انتقده صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ علانية " دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً " ؛ ليؤكد بذلك مبدأ حرية الكلمة التي تعد حجر الأساس لجميع أنواع الحريات الإنسانية .. والتي تؤكد أنه إن كان للرسالات بصمة فإن ..

• الحرية بصمة الإسلام

رسخ الخطاب السياسي الشرعي مبدأ كرامة الإنسان وأكد ضرورة حماية الحقوق والحريات الإنسانية ؛ وكان " واضحاً منذ ظهور الإسلام أنه دعوة للحرية الإنسانية بمفهومها الشمولي ، فشهادة أن لا إله إلا الله نفي صريح لكل أنواع العبودية والخضوع لغير الله عز وجل : { وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ } [آل عمران64]، فالناس جميعاً ، متساوون في إنسانيتهم وحريتهم ، لا عبودية إلا لله ، ولا سيادة لأحد على أحد وإنما السيد هو الله وحده ، فهو الذي يستحق الخضوع والطاعة وحده ، وقد كرّم الله الإنسان فقال : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ و }الإسراء70 ، وجعل الإنسان خليفته في الأرض : { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة30].. ولهذا أكد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ هذا المعنى في أحاديث كثيرة كما في قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ: " السيد الله تبارك وتعالى " لبيان أن السيادة المطلقة هي لله ، والبشر جميعاً إخوة لا سيادة لأحد منهم على أحد .

..... فالحرية في الإنسان هي الأصل – حتى لو طرأ عليه الرق – لهذا قرر الفقهاء قاعدة أن الأصل في الإنسان الحرية ، فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى تحرير الرق ، وجعل ذلك من أعظم القربات إلى الله ، كما جعله كفارة الكثير من الذنوب ، وأمر بمكاتبة من يريد المكاتبة منهم من أجل أن يحرر نفسه من الرق ، كما أمر الله عز وجل أسيادهم بمساعدتهم مالياً ، ليتمكنوا من تحرير أنفسهم كما قال تعالى : { فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ } [النور33]، وقد ذهب كثير من العلماء إلى وجوب مكاتبة السيد لرقيقه إذا طلب الرقيق ذلك ووجوب مساعدته من ماله ليتحرر .

وقد أدرك عمر رضي الله عنه مقاصد الإسلام من هذه الدعوة ، فبادر بإعلان تحرير كل العرب الأرقاء منذ الجاهلية ، فكانت أول حركة تحريرية للرق عرفها العالم ، ودفع عمر تعويضاً لكل من كان لديه رقيق من العرب وألزمهم بتحريريهم ، فأصبح العرب قاطبة أحراراً بعد أن كان فيهم أرقاء منذ العصر الجاهلي بسبب الحروب فيما بينهم والسبي ، فجاء الإسلام بتحريرهم ..وبهذا يكون المسلمون هم أول أمة تتخلص من الرق فيما بينها .

لقد حرّم الإسلام تحريماً قاطعاً استرقاق الحر بالبيع أو بالدين ، وأجمع العلماء على حرمة ذلك وحظره؛ لقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ، ولم يعطه أجره " ... كما جعل الله عز وجل من مصارف الزكاة الثمانية مصرف " وفي الرقاب " أي شراء الرقيق وتحريرهم من أموال الزكاة ومن بيت مال المسلمين . " [1]

ومن استقراء هذه التصرفات ونحوها حصل لنا العلم بأن الشريعة قاصدة بث الحرية بمعنى الإنعتاق من الرق ، وأما الحرية بمعني تمكن الفرد في التصرف في نفسه وشؤونه كما يشاء دون معارض ، فلها مظاهر كثيرة هي من مقاصد الإسلام تتعلق بأصول الناس في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم ، ويجمعها أن يكون الداخلون تحت حكم الحكومة الإسلامية متصرفين في أحوالهم التي يخولهم الشرع التصرف فيها غير وجلين ولا خائفين أحداً ، ولكل ذلك قوانين وحدود حددتها الشريعة لا يستطيع أحد أن يحملهم على غيرها ، مثل حرية الاعتقاد وحرية الرأي وحرية العلم والتعلم ..

وأظن أن الفقهاء لم يجعلوها مقصداً شرعياً مستقلاً بذاته مع المقاصد الشرعية الخمسة [2] ، لأنها داخلة في ضمنها من حيث كونها أساس لحقوق الإنسان ، ولأن غاية الشريعة هي تحقيق المصالح الكبرى للبشرية في حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل ، والحرية فطرة بشرية لا تتحقق هذه المقاصد الضرورية الخمس لحياة الإنسان إلا بها.

فحفظ الدين أساسه عدم الإكراه في الإيمان به ، إذ لا إكراه في الدين ، ولا يتحقق إلا بحرية الاعتقاد ، وهي الجزء الأساسي من حرية الإنسان.

وحفظ النفس لا يتحقق إلا بحريتها في التصرف بجميع شؤون الحياة بعيداً عن الإكراه والاستعباد ، فلا معنى لحياة إنسان مقيد في تصرفاته أو أسير رغبات سيده.

وحفظ العقل لا يتحقق إلا بحرية الاختيار فهو مناط التكليف وشرط صحة لجميع التصرفات ولا خلاف بين الفقهاء أن التكليف يسقط عن المكره وفاقد العقل.

وحفظ المال لا يتحقق إلا بحق الإنسان في التملك وحرية التصرف في أمواله وأملاكه بما يراه الشرع والقانون.

---

[1] **الحرية أو الطوفان - د. حاكم المطيري - ص 67 - 93 .**

[2] **في حدود علمي إن أول من جعل الحرية مقصداً شرعياً هو العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه " مقاصد الشريعة " .. حيث أثبت باستقراء الشريعة أن من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية .**

وحفظ النسل لا يتحقق إلا بحرية الإنسان في اختيار الشريك الذي يحقق النسب الشريف . " [1]

ولذلك عدّ بعض الأصوليين ضرورات الدين ستًا : الدين والنفس والعقل والنسل والمال والحرية[2]، فجعلوا " الحرية " من الضروريات ، وعرفوها بأنها : "انسجام فطري بين سلوكيات الإنسان والتكاليف الشرعية بذات حرة وإرادة مستقلة غايتها تحقيق الصالح العام في الدنيا والآخرة " [3] ولذلك فهي " أم العقائد الإسلامية وأساس المجتمع والدولة والحضارة. فقبل أن يؤكد المؤمن إقراره بوجود الله وصدق رسالة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ، فإنه يؤكد ذاته ككائن عاقل حر موجود. إن " الأنا " في لحظة وعي وحرية تقرر " أشهد " أنا " أن لا إله إلا الله ، وأشهد " أنا " أن محمد رسول الله " [4]

إننا قد لا نكون مجاوزين للحقيقة إن قلنا أن غياب الحرية هو غياب لتوحيد الله سبحانه وتعالى ، ذلك أن حقيقة التوحيد أن لا يخشى الإنسان الموحّد إلا الله ، ولذلك فسّر الطبري رحمه الله تعالى قول الله سبحانه : { لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً }النور55 بأن معنى لا يشركون بى شيئًا : أنهم لا يخافون غيري من جبابرة السلاطين والأشخاص " [5]

لقد " جاءت التعاليم الإسلامية تشرع لحريّة الرأي لا على أساس أنها حق مباح من حقوق المسلم فحسب ، ولكن على أساس أنها واجبة عليه أيضاً " [6]، لأن " التعبير عن الرأي مرتبط تمام الارتباط بحرية الإنسان في تفكيره ، والتفكير في طبيعته نشاط عقلي ، والقرآن الكريم يعظم من شأن العقل الذي هو وسيلة التفكير ، ويكرر ذكره عن قصد لإثارة الانتباه إليه والاهتمام به ... والحث علي التفكير الذي هو بداية الطريق للدعوة إلى التعبير عنه ، وهو كذلك دعوة إلى إبداء الرأي بهدف تحقيق الخير والرشاد ضمن الوجهة السديدة .... وفى ذلك دليل واضح على أن التعبير عن الرأي ، ليس حقاً من حقوق الإنسان في الإسلام فحسب ، بل هو فريضة افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده . " [7]

إن الحرية " ليست ترفاً في حياة الإنسان وليست من كماليات حياته وإنما هي من أساسيات وجوده ، ولا تتحقق رسالته التي أرادها له الله إلا إذا تحققت حريته ، فالمجبر غير مكلف وغير مسئول بالمعني

---

(1) راجع إن شئت " الحرية في الإسلام أصالتها وأصولها " للدكتور أحمد الريسوني

(2) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية – بن زغيبة عز الدين ص 204 .

(3) المصدر السابق - ص 204 .

(4) الحريات العامة في الدولة الإسلامية - راشد الغنوش - ص 10 - 16 .

(5) راجع إن شئت تفسير الطبري ج 18 ، ص 158 ، 159 .

(6) حرية الرأي من منظور إسلامي – د. عبد المجيد النجار - ص 116 .

(7) التعبير عن الرأي ، ضوابطه ومجالاته فى الشريعة الإسلامية - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه فى الفقه - خالد بن عبد الله بن دايل الشمراني - ص 37 ، 38 بتصرف يسير .

الكامل . " [1] بل إننا " لا نغالي إذا قلنا أن الإسلام يرى في الحرية الشيء الذي يحقق معنى الحياة للإنسان.. وبفقدها يموت الإنسان حتى ولو عاش يأكل ويسعى في الأرض كما هو حال الدواب والأنعام. " [2]

لقد " كانت صيحة الحرية في الإسلام قوية وشديدة ، أقضت مضاجع المشركين الذين يعكفون على ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم ، ودفعتهم إلى التخلص من رواسب التقليد الأعمى ، وقد تحمّل المسلمون في سبيل ذلك ألوان التنكيل والعذاب ، وصبروا على ما أوذوا ، وضحّوا بأغلى الأشياء لديهم لنشر دعوة الحق والتوحيد والحرية "[3].. ولن " يصيبنا الكلل ، ولن يعترينا الوهن ، مهما كررنا ورددنا هذه الصرخة ، لأنها موسيقي تصدح في آذاننا ، حتى ولو كانت آذان الآخرين لا تسمعها ، أو أنها تسمعها ولا تقدر علي فهم معناها الحقيقي !! [4]

إن رسالة الإسلام هي وحدها التي أعلنت إنسانية الإنسان ، ووضعت الحجر الأول في بناء حريته ، وقطع دابر الاستبداد من خلال المشاركة في الرأي ضمن قاعدة الشورى .. تلك القاعدة التي تعد بحق من أهم نواصر الحرية وأعوانها لأنه ..

• لا حرية إلا بشورى

يقوم النظام الإسلامي علي مشاركة الأمة في الحكم من خلال مبدأ الشورى الذي يُعد أصلاً من أصول ذلك النظام ، ولذلك يختلف هذا النظام اختلافاً كلياً وجذرياً مع كل النظم الاستبدادية التي يكون الحكم فيها فردياً تستقر فيه سلطة الأمر والنهي بين يديّ حاكم فرد ، ويغيب فيه دور الأمة .. فالأمة في الإسلام هي التي تختار الإمام وهي التي تشاركه الرأي فلا يقطع أمراً دونها ، كما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يفعل ، فكان لا يقطع أمراً دون شورى الأمة فيما كان أمراً عاماً ، وكان يشاور أصحابه في جميع شئونهم ما لم ينزل عليه الوحي ، كما فعل ذلك في غزوة أحد ، فقد كان رأيه أن يبقى في المدينة ، وكان رأي الأغلبية أن يخرجوا إلى القتال ، فنزل على رأيهم . قال ابن كثير : " أبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ورأيه ... وقال أيضاً : " فلم يزل الناس برسول الله

[1] علم النفس السياسي ـ رؤية مصرية عربية ـ د . محمد المهدي ـ ص 39 ، 40 .
[2] الإسلام وحقوق الإنسان ـ د. محمد عمارة ـ ص 18 .
[3] حق الحرية في العالم – د . وهبة الزحيلي ـ ص 126 .
[4] دور المفكر السياسي ومسئوليته المجتمعية ـ د : حامد عبد الله ربيع ـ ص 109 .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حتى دخل ولبس لامته ... ثم خرج عليهم وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولم يكن لنا ذلك " [1]

" فمع كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كارهاً للخروج ، إلا أنه خرج نزولاً على رأي أكثر الناس الذين أصروا على موقفهم ، وقد نزلت آية { وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ } [آل عمران159]، في هذه المعركة ؛ لتؤكد ضرورة مبدأ الشورى وإن كانت النتائج على النحو الذي أسفرت عنه المعركة .. وأن الواجب علي المسلمين أن " يتشاوروا بينهم ثم يصدروا عما اجتمع عليه ملؤهم " [2]

لقد " كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من أكثر الناس مشاورة ، وكان لا يستثني أحداً من الشورى في الأمور العامة ، بل كان يستشير كل من كان حاضراً من المسلمين في السلم أو الحرب ، وقد استمع لرأي عبد الله بن أبي بن سلول فى غزوة أحد [3] ومال إلى رأيه مع ما كان يعلم من نفاقه وعداوته ، وقد وصف القرآن ذلك كما في قوله تعالى : { وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ } [المنافقون4]

وما ذاك إلا لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يخص أحداً بالشورى فيما كان من الأمور العامة ، وقد استشار الناس في رد أموال هوازن عليهم ، وقام فيهم خطيباً فقال : " أما بعد ، فإن إخوانكم قد جاؤنا تائبين ، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطلب منكم أن يطيّب بذلك فليفعل . ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل " فقال الناس : قد طيّبنا ذلك يا رسول الله . فقال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم " . فرجع الناس ، فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فأخبروه أنهم قد طيبوا " [4]

فقد شاور الناس كلهم ، وكان فيهم المؤلفة قلوبهم الذين لم يسلموا إلا بعد فتح مكة وقبل هذه الحادثة بأيام ، ومنهم من ارتد بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وقد اعترضوا على أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رد السبي إلى هوازن ، ومع ذلك لم يكن منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلا أن قال : " إنا لا ندري من رضي ممن لم يرض ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم " .. فاشترط رضاهم . " [5]

---

[1] البداية والنهاية - ابن كثير - ج 4 ص 14 .
[2] تفسير الطبري - ج 3 ص 496 .
[3] البداية والنهاية - ابن كثير - ج 4 ص 14 .
[4] فتح الباري - ج 8 ص 33 .
[5] الحرية أو الطوفان - د. حاكم المطيري - ص 31 - 34 بتصرف يسير .

وقد أدرك الصحابة أهمية الشورى في سياسة شئون الأمة ؛ " فكان الخلفاء الأربعة لا يقطعون أمراً – مما لا نص فيه – دون شورى المسلمين ؛ اقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فقد كان أبو بكر إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم ، وإن علمه من سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قضى به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة ، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، فإذا اجتمعوا على أمر أخذوا به .

وكان عمر يستشير في الأمر حتى النساء ، وربما أخذ برأيهن .. وكان له مجلس شورى يحضره الكبار والصغار من أهل العلم . قال الزهري : " كان مجلس عمر مغصاً من القراء شباباً أو كهولاً ، فربما استشارهم .

وقد كان عامة ما اتخذ الخلفاء الراشدون من أحكام . فيما لا نص فيه . بعد تشاور وأخذ برأي الملأ ؛ كما قال علي رضي الله عنه : " ما فعل عثمان ؟ ما فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا " . والملأ هنا جماعة الناس و أكثرهم .. وقد استشار عمر رضي لله عنه الناس في وقف الأرض المفتوحة ، وما زال يجادلهم ثلاثة أيام في المسجد ، يحاورهم ويحاورونه حتى أقنعهم برأيه وتابعوه عليه .

وقد كان مما قاله عمر بعد أن استشار المهاجرين فاختلفوا ، فدعا خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم : " إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم ، فإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، وافقني من وافقني ، وخالفني من خالفني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق .. فقالوا جميعاً : " الرأي رأيك ، فنعم ما قلت ونعم ما رأيت "

وكذا استشارهم في تدوين الدواوين .

وقد استشار عثمان الناس في قتل عبيد الله بن عمر . بعد أن قتل أبا لؤلوة المجوسي والهرمزان ثأراً لمقتل أبيه . فأجمع المهاجرون على وجوب قتله ، وخالفهم أكثر الناس ورأوا عدم قتله ، فأخذ عثمان برأي أكثر الناس و دفع الدية من ماله .. وقد كتب عثمان إلى أمرائه : " وقد وضع عمر لكم ما لم يغب عنا ، بل كان من ملأ منا "

ولم تكن الشورى محصورة في قوم دون قوم ، بل كان كل مسلم يحضر المسجد يشارك في الإدلاء برأيه ، رجلاً كان أو امرأة ، كبيراً كان أو صغيراً ، ولم يكن اشتراط الشورى والرضا قاصراً على المسلمين ، بل أيضاً يشترط رضا عامة غير المسلمين عند عقد العقود بينهم وبين المسلمين ، قال أبو عبيد : " وكذلك لو أن أهل مدينة من المشركين عاقد رؤساؤهم المسلمين عقداً ، وصالحوهم على صلح ، فإن الأخذ بالأحوط وبالثقة ألا يكون ذلك ماضياً على العوام إلا أن يكونوا راضين به " .

وقد قال علي رضي الله عنه بعد أن جاءه المهاجرون والأنصار يريدون بيعته : " لا أفعل إلا عن ملأ وشورى " . وقال بعد أن بايعه الناس : " هذه بيعة عامة ، فمن ردها رغب عن دين المسلمين واتبع غير سبيلهم "

مما يؤكد أن هذا الأمر هو من الدين ومن سبيل المؤمنين الذي يجب الاقتداء بهم فيه ؛ كما قال تعالى : {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً } [النساء115]. وأن الأخذ برأي عامة الناس والالتزام به . مما لا نص فيه . من سنن الخلفاء الراشدين التي أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ باتباعها وترك ما خالفها ، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة " . "[1]

لقد " عهد أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأمر الخلافة إلى عمر بن الخطاب بعد استشارة جماعة من المهاجرين والأنصار مثل : عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وأسيد بن حضير ، وسعيد بن زيد وغيرهم ..

وأخذ عمر بقاعدة الشورى فى أمر الخلافة من بعده ، ففوض أمرها إلى ستة من كبراء الصحابة ليختاروا رجلاً منهم ، وقال لهم : ويحضركم عبد الله بن عمر ، مشيراً وليس له من الأمر شيء . "[2]

ثم إن " عبد الرحمن بن عوف لما انحصر. الترشيح بين عثمان وعلي رضي الله عنهما ؛ نهض رضي الله عنه يستشير الناس فيهما ، ويجمع رأي المسلمين برأي رءوس الناس جميعاً وأشتاتاً ، مثنى وفرادى ، سراً وجهراً ، حتى خلص إلي النساء في خدورهن ، وحتى سأل الولدان في المكاتب ، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة ، وفى مدة ثلاثة أيام بلياليهن " ؛ فجعل عبد الرحمن اختيار الناس حجة في

---

(1) المصدر السابق - ص 36 - 39 .
(2) الحرية في الإسلام – محمد الخضر حسين - ص 24 - 27 بتصرف يسير .

الترجيح بين المرشحين للخلافة ، وهما عثمان وعلي .. وما كان عبد الرحمن ليجتهد في سؤال الناس كل هذا الجهد لولا أنه حق من حقوقهم يحرم الافتئات عليهم فيه ، أو مصادرته عليهم ، أو اغتصابهم إياه."[1]

إن كل ذلك يؤكد رسوخ مبدأ الشورى في الخطاب السياسي الإسلامي .. وكما أن للأمة الحق في اختيار ذوي السلطة الذين يسوسون أمرها على أنهم وكلاء عنها ، وفق نظرية عقد البيعة ، ولها الحق في مشاركتهم في الرأي والاجتهاد ، فلا يقطعون أمراً دون شورى الأمة ورضاها ، ولا يستبدون بالأمور من دونها .فكذلك للأمة الحق في خلع الإمام وتجريده من السلطة ، لأنها أمّة ترفض الظلم ، وتتناصر لمقاومته، وتستنهض الهمم لمنازلته ، وتؤمن إيماناً جازماً بأن ..

• العدل فريضة شرعية

لا شك أن " نظاماً سياسياً يقوم علي مبدأ الحرية ، وينسي معني العدالة أو يجعل مرتبتها تأتي عقب مبدأ الحرية هو نظام مصيره الفشل ؛ ولذلك فإن الإسلام يجعل من العدالة المحور الأول والأساسي لنظام القيم السياسية . وهو لا يقتصر علي أن يجعل العدالة مرادفاً لنظام قضائي يعطي كل ذي حق حقه ، بل يجعل العدل هو جوهر التعامل . فكل صاحب سلطة يجب أن يكون عادلاً .." [2]

وقد تولى عمر القضاء في بعض الأقضية ، خاصة في المظالم التي كانت ترفع إليه من الأمصار " ولعل من أشهرها المظلمة التي رفعها القبطي إليه ، إذ ضربه محمد بن عمرو بن العاص (ابن والي مصر) بالسوط قائلاً له " خذها وأنا ابن الأكرمين " . فأرسل عمر إلى عمرو وابنه ، ومثُل الثلاثة أمامه ، ثم أعطى الدرة للقبطي قائلاً له : اضرب ابن الأكرمين ... فلما فرغ من ضربه ، قال له عمر : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه "

قال عمرو : " يا أمير المؤمنين قد استوفيت واستشفيت " ، وقال القبطي : يا أمير المؤمنين : " قد ضربت من ضربني " ، فقال عمر : إنك والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه . ثم التفت إلى عمرو بن العاص قائلاً : أيا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!"[3]

---

[1] **الحرية أو الطوفان - د. حاكم المطيري - ص 34،35 .**
[2] **مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي - د. حامد ربيع - ج 1 ص 373 - 378 .**
[3] **كيف نفكّر إستراتيجياً – د. فوزى محمد طايل - ص 154 بتصرف يسير .**

لقد اعتاد الكتاب أن يقفوا في هذه الحادثة عند عدل عمر .. ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحرري الذي أطلقه الإسلام في ضمائر الناس وفي حياتهم ؛ فمصر.إذا ذاك بلد مفتوح ، حديث عهد بالفتح وبالإسلام .. وهذا القبطي لم يزل على دينه ، فرداً من جماهير البلد المفتوح .. وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم ، وأول أمير من قِبل الإسلام... وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامي هم الرومان أصحاب السياط التي تجلد ظهور شعوب المستعمرات! ولعل ذلك القبطي كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان!.

ولكن المد التحرري الذي أطلقه الإسلام في أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطي سياط الرومان وذلها، وأطلقه إنساناً حراً كريماً ، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه ، بعد اشتراكهما في سباق .. ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر إلي المدينة ، لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطاراً ، ولكن جملاً ، يخب به ويضع الأشهر الطوال ، كل ذلك ليشكو إلى الخليفة... الخليفة الذي حرره يوم فتح بلده تحت راية الإسلام ! والذي علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان!.

وهكذا ينبغي أن نفهم ، وأن ندرك عمق المد الإسلامي التحرري فليست المسألة فقط أن عمر عادل ؛ وأن عدله لا تتطاول إليه الأعناق في جميع الأزمان ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر .المستمد من الإسلام ومنهجه ونظامه .قد انطلق في الأرض تياراً جارفاً محرراً مكرماً للإنسان... بصفته " الإنسان"... "[1]

إن عمر رضي الله عنه يسمي الظلم استعباداً فيقول " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ، مع أن القبطي لم يكن عبداً ولا رقيقاً بل كان حراً ، إلا أنه رضي الله عنه يري أن استذلاله وظلمه استعباد معنوي له ، فالعرب تسمي كل تذلل وخضوع للغير عبودية وإن كان الخاضع لغيره حراً في نفسه ، إذ هي حرية صورية شكلية ..

ولهذا قال ربعي بن عامر لرستم " إن الله بعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد " ، ومعنى عبادة العباد .. أي الخضوع والطاعة للملوك والرؤساء والأحبار والرهبان .. ومنه قول موسى لفرعون {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء22]، ولم يكن بنو إسرائيل رقيقاً لفرعون ، غير أنهم لما كانوا خاضعين لحكمه مستسلمين لظلمه .. " [2]

---

[1] مستفاد من كتاب " هذا الدين " لسيد قطب .

[2] مستفاد من موقع د. حاكم المطيري **www.dr-hakem.org**

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول : إني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم ولا ليشتموا أعراضكم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له عليّ ، ليرفعها إليّ حتى أقصّه منه . فقال عمرو بن العاص : أرأيت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أتقصه منه ؟! فقال عمر : ومالي لا أقصّه منه ، وقد رأيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقص من نفسه ؟ " [1]

إن العدل هو المقدمة البديهية إلي الحرية المعنوية ، ولذلك فقد حافظ الخطاب الإسلامي على ضمانات العدل وحماية حقوق الأفراد وحرياتهم ، كما فصلت ذلك كتب الفقه في جميع أبواب المعاملات والدعاوى والقضاء ، فقررت حظر حبس أو تعذيب المتهم مادياً أو معنوياً ؛ إذ الأصل براءته حتى تثبت إدانته ، ولا يؤخذ بإقراره أو اعترافه تحت الإكراه ولا يحبس .. كما أكدت علي اعتبار رجوع المقر شبهة تدرأ عنه الحد .. بل طالبت بالإنفاق على السجناء وتوفير حاجياتهم الضرورية وعدم إهانتهم .!! . " [2]

لقد أراد زياد بن حدير – وكان جابياً على نهر الفرات – أن يأخذ من تاجر نصراني ذميّ نصف العشر مرتين في دخوله وخروجه ، فذهب التاجر راحلاً إلى عمر ابن الخطاب ، فاشتكى إليه من زياد ، فكتب عمر إلى زياد : ألا يأخذ منهم نصف العشر إلا مرة واحدة ، فجاء النصراني إلى عمر فقال : أنا الشيخ النصراني الذي كلمتك في زياد ، فرد عليه عمر : وأنا الشيخ الحنيفي قد قضيت حاجتك [3] "

وحين " وطئ عبدٌ عَلَى رداء جبلة ابن الأيهم في أثناء الطواف فيلطم العبدَ على وجهه فيشتكي إلى عمر؛ نجد أن عمر يأمر بالقصاص من جبلة بن الأيهم ، فيفر ويرتد ولا يتزحزح عمر عن إقامة العدل .. وتضيع درع من أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه فيجدها عند يهودي فيشكوه إلى قاضيه ، فيطلب القاضي البيّنة من عليّ فلا يملك عليّ البيّنة فيقضي بالدرع لليهودي .

وهكذا يقرر الإسلام العدل في الواقع لا شعارات ترفع في الهواء . فأين رأى الناس في التاريخ كله مثل هذا العدل يطبق في واقع الأرض ، على كثرة ما كتب وما قيل عن العدل في التاريخ ؟! " [4]

لقد كان " العدل في القضاء ، والمساواة في العطاء ، من أهم المبادئ التي قام عليها الخطاب السياسي في الإسلام ، وقد أكد هذين المبدأين القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى : { وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ

---

[1] **الحرية أو الطوفان - د . حاكم المطيري - ص 74 - 79 بتصرف يسير .**
[2] **المصدر السابق - ص 233 - 237 بتصرف .**
[3] **المصدر السابق - ص 97 ، 98 .**
[4] **ركائز الإيمان – محمد قطب - ص 358 ، 359 .**

أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ } [النساء58]. { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة8]... بل جعل الله الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب تحقيق هذا الهدف ، كما قال تعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد25].

وقد جاء القرآن بتوزيع الثروة ليمنع من سيطرة الطبقة الرأسمالية على الثروات ، كما قال تعالى : { كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ } [الحشر7] .

فكما جاء ليمنع من أن تكون السلطة ، التي هي أشد خطراً من المال ، دولة بين طبقة أو أسرة أو حزب معين ، ولهذا قرر مبدأ الشورى : " وأمرهم شورى بينهم " في السلطة – ليتم تداولها بين الأمة وفق رضاها واختيارها ، دون سيطرة من أحد أو اغتصاب لحق الأمة ؛ وليمنع من قيام سلطة استبدادية تسيطر على الأمة سياسياً – قرر كذلك مبدأ : " كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم " في الأموال ليتم تداولها بين جميع أفراد المجتمع ، ويمنع من سيطرة رجال المال على مقدرات الأمة الاقتصادية .

وقد أكد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ هذا المبدأ فقال : " ما أعطيكم ولا أمنعكم ، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت " ، وقال لهم : " أيها الناس ، إنه ليس لي من هذا المال إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم"، وقال : " من ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك ديناً وعيالاً فإلي وعلي " .. وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ يعطي العزب حظاً واحداً ، ويعطي الآهل المتزوج حظين .. وقد أمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ لمن عمل عملاً في مصالح المسلمين أن يتخذ دابة وظهراً إن لم يكن له مركب . وجعل ذلك من حقوقهم من بيت المال لقيامهم بمصالح الأمة. "[1]

وحين يكثر المال في عهد عمر رضي الله عنه فيقال له " إن المال كثر بأيدي الناس حتى أنفقوه فيما ينبغي وما لا ينبغي ، فقال : " إنما هو حقهم أُعطوه ، وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه ، فلا تحمدني عليه ، ولكني قد علمت فيه فضلاً ولا ينبغي أن أحبسه عنهم "

وكان يقول : والذي لا إله إلا هو ، ما من أحد من الناس إلا له في هذا المال حق أعطيه أو أمنعه ، وما أحد أحق به من أحد ، وما أنا فيه إلا كأحدهم ، والله لئن بقيت لأتيت الراعي بحبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه "

---

[1] الحرية أو الطوفان - د . حاكم المطيري - ص 74 - 78 .

وقد سمع بكاء الأطفال فسأل عن ذلك فقالوا : يفطمون ؛ ليفرض لهم من بيت المال . فأقام في الناس منادياً : " إنا نفرض لكل مولود في الإسلام " وكتب إلى الأمصار بذلك . "[1]

وكذلك كتب عثمان رضي الله عنه لمـّا ولي بعده إلى أمرائه كتاباً فيه : " إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء "

وكتب إلى عمال الخراج : " إن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق به، والوفاء ! الوفاء ! لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم "[2]

و قال عليّ رضي الله عنه " ألا وإنه ليس لي أمر دونكم ، إلا أن مفاتيح مالكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم ، أرضيتم ؟ قالوا : نعم . قال : اللّهم فاشهد . فبايعهم على ذلك .

وقال عليّ رضي الله عنه أيضاً وهو خليفة : " سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول : " لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان ، قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يضعها بين أيدي الناس "

وخطب معاوية في الناس فقال : " إن في بيت المال فضلاً عن أعطياتكم ، وأنا قاسم بينكم ذلك ، فإنه ليس بمالنا ، إنما هو فيء الله الذي أفاء عليكم "

و كل ما سبق يؤكد مبدأ العدل في القضية والقسم بالسوية ، وأن لبيت المال حرمة ، وأن للأمة حق محاسبة الإمام على ما صرفه من بيت المال ، كما أنها هي التي تفرض له ما يحتاجه وتقدره له . وأن لها حق الاعتراض على سياسته المالية ومحاسبته عند انحرافه "[3]

إن " العدل بين الناس هو الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين أو الأقربين ، وأمر بالعدل ولو مع العدو ، وجعل العدل في الحكم وفى القول "[4] فريضة شرعية .. وأثبت من خلال ذلك أن هذا الدين وكل مناهج الأرض ..

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 79 .**
[2] **المصدر السابق ـ ص 81 .**
[3] **المصدر السابق ـ ص 82 ، 83 .**
[4] **دولة الفكرة ـ محمد فتحي عثمان ـ ص 76 ، 78 .**

• في مفرق الطريق

" بالرغم من أن غاية الاسلام الاولى هي خلق حياة انسانية تتفق مع مفاهيمه ، وترجمة هذه المفاهيم فى صورة واقعية وبناء المجتمع الاسلامي ، فإن الاسلام يدين كل محاولة ترمي إلى إكراه الناس على اعتناق عقيدة معينة ، " لا اكراه فى الدين " ويوصي على العكس ، باحترام ارادة ومشاعر كل فرد بالامتناع عن ممارسة أى ضغط معنوي أو مادي عليه " [1] ، وهذا من أوضح مظاهر تكريم الإنسان وأبلغها ، وأبرزها لإنسانيته ، وأظهرها دلالة على حقوقه وحريته ، لأن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان ، التى يثبت له بها وصف " إنسان " والذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد ، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء ..!!

ولذلك ، " لا يحق لأي سلطة أن تخضع الأفراد لطاعتها بالقوة والإكراه ، ولا أن تلزمهم برأي أو وجهة نظر ، بل للإنسان الحرية في أن يؤمن أو لا يؤمن :{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ } [الكهف29].. { أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [يونس99] .. وله الحرية في اتباع دينه الذي يدين به : {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون6]" [2] ، ولذلك فقد عامل الإسلام أهل الكتاب بهذا المبدأ ؛ " فترك لهم حرية اختيار الدخول فيه أو البقاء على دينهم بعدما بيّن لهم ما فى عقيدتهم من انحراف يخرجها عن التوحيد إلى الشرك .. " [3]

" فالحرية أصل الإعتقاد إذ " لا إكراه فى الدين " ، والتحكم منتف ومحرم فى الشرع عقيدة ومعاملة"[4]، بل حتي في علاقة الزواج التي لا تتجاوزها في الخصوصية و الحرمة علاقة أخري من العلاقات الاجتماعية التي تعرفها الخبرة الإنسانية " يبيح الإسلام الارتباط بأهل الكتاب ، أي بزوجة ذات معتقد مختلف عن اعتقاد الزوج ، و يبيح الإسلام لهذه الزوجة " الحق الكامل ، و الحرية التامة في البقاء علي عقيدتها ، و القيام بفروض عبادتها ، و الذهاب إلي كنيستها لأداء طقوسها ، ما دامت مقتنعة من تلقاء نفسها " [5]

.. بل ذهب الإمام الشافعي إلى أنه إذا أسلم أحد الزوجين لا يجوز عرض الإسلام على الآخر ، وعلل الشافعي ذلك بقوله : " إن فى هذا العرض تعرضًا لهم ، وقد ضمن بعقد الذمة أن لا نتعرض لهم " [6]

---

[1] مع سيد قطب فى فكره السياسي والديني – د . مهدي فضل الله – ص 136 .
[2] الحرية أو الطوفان - د . حاكم المطيري - ص 67 - 93 بتصرف يسير .
[3] مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص 112 ، 113 .
[4] المقاصد العامة للشريعة الإسلامية - بن زغيبة عز الدين - ص 209
[5] الإسلام عقيدة وشريعة - محمود شلتوت - ص 46 .
[6] المقاصد العامة للشريعة الإسلامية - بن زغيبة عز الدين - ص 309 .

إن حرية الإختيار فى أن يفعل الإنسان أو لا يفعل هي شرط الشروط فى الإسلام .. لأن هذا الدين يريد أن يفعل البشر الخير لأنهم " يريدون " .. وليس لأنهم " مرغمون " ، ويعتبر " أن قضية التدين هي أعلى درجات الحرية وأرقى مجالات الاختيار ، يقول تعالى{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } [البقرة256]، {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ } [الغاشية22]،{ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [يونس99].. ذلك أن محل العقيدة القلب ، ولا سلطان الدليل والبرهان الذى يقود إلى الاختيار – والاختيار هنا الالتزام عن قناعة وطواعية ، والإسلام لغة : انقياد " اختيار " وإذعان – فلن ينفع معه الإكراه ، لأن الإكراه قد يصنع قناعاً مزيفاً ولكنه لا يحقق قناعة ."[1]

ولذلك ، فإن " الإسلام لا يعرف التعصب الذميم ، و لا يعرف إكراه أصحاب المعتقدات الأخرى علي اعتناق عقيدته .. ولا يعرف المذابح الوحشية التي قامت بها محاكم التفتيش في الأندلس والصليبيون في بيت المقدس ، والأحباش في الحبشة وارترية والصومال ، وفرنسا في الجزائر ، وروسيا والصين في التركستان والقرم وخوزستان وأزبكستان ، ويوغسلافيا في أقاليمها المسلمة ، والهند في أرضها ضد المسلمين ، حيث ذبحوهم بعشرات الملايين. بل إن الإسلام هو الذي حمي أهل مصر والشام المسيحيين من مذابح إخوانهم المسيحين الرومانيين " [2]

لقد علّمت الرسالة الإسلامية جمهور الناس... ذلك الغثاء... أنه كريم ، وأن له حقوقاً ، هي حقوق الانسان ، وأن له أن يحاسب حكامه وأمرائه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة .. وعلّمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس ، وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد ممن ليس بحاكم ولا أمير ..

وكان هذا ميلاداً جديداً " للإنسان "... ميلاداً أعظم من الميلاد الحسي ، لأن المسافة جد هائلة فى " أوضاع الحياة الإنسانية " بين تصور ، الألوهية فيه لله وحده .. و تصورات ، تقيم آلهة تمشي على الأرض.. زعماء وكبراء وقادة.. يزعمون لأنفسهم حق التشريع المطلق للشعوب.. يحلّون ما يشاؤون ، ويحرّمون ما يشاؤون ؛ فيخضع لهم العبيد .. في أحط صورة يمكن أن يرتكس إليها العقل ، وأسفل درك يمكن أن ينحط إليه " الإنسان " ..

وهذا هو مفرق الطريق بين المنهج الإسلامي حيث الحرية الحقيقية .. وبين المناهج الأخرى حيث يتأرجح الإنسان بين لذة الفهم لحقيقة الحرية ، ولوعة العيش بدونها.. بين المقاومة للحصول عليها ،

---

[1] **الظاهرة الغربية فى الوعي الحضاري ، أنموذج مالك بن نبي - بدران بن مسعود بن الحسن - ص 25 .**
[2] **مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص 115 ، 116 .**

وبين الاستسلام لواقع العبودية.. بين الأمل في الوصول إليها ، وبين اليأس من مجرد التفكير فيها..بين الوحدة القاتلة حين يحلم بها، وبين الغربة الشديدة بين قطعان البشر.التائهة ..وغيرها صور كثيرة ، تُعبر عن معاناة ذلك الإنسان الذي لم يصل إلى سماء الحرية ، ولم يطق العيش في أرض الاستعباد ..

ومن هنا الإسلام يعلن الإسلام النضال لحماية حق الإنسان فى الاختيار الحر .. ليكون الفيصل هو اقتناع " العقل " لا " رهبة السلطة " .. وما الحروب في الإسلام إلا لحماية الحدود من الاعتداء ، وإزاحة الطغاة من طريق عملية البلاغ المبين .. فهي تدفع القوة بالقوة ليكون الدين " لله " ، لا تحت سلطان أحد من " الناس " ، فتحقق للبشر درعاً يقاوم الاستبداد ، وفكرة تقف في وجه الطغاة ، يحملها رجال ابتعثهم الله ليكونوا هم ..

• الروّاد يحررون العالم

لا شك أن التسلط والقهر ، والأغلال والقيود ، والحواجز والحدود ، هي أضداد الحرية ونواقضها .. وهذه النواقض وتلك الأضداد قد تصيب الإنسان في جسمه ، فيسجن أو يعذب .. أو في حياته ، فيقتل ويعدم .. أو في سيادته ، فيسترق ويستعبد .. أو في عزته وكرامته ، فيذل ويهان .. أو في حرية القول والتعبير ، فيمنع من الكلام ، أو يعاقب إذا تكلم ..!!

ولأن هذه أحوال مقيتة بغيضة لا يرضاها حر لنفسه ولا لغيره ، فقد كانت كلمة الإسلام المدوية : إن كرامة الانسان مستمدة من "إنسانيته" ذاتها لا من أي عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، او الطبقة ، أو الثروة ، أو المنصب ... إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة ..!!

و " حين انطلق الإسلام ليقوم بواجبه في التحرير لم ينسَ أن مصلحة البشرية العليا هي هدفه الأول ، لا مصلحة الفاتحين الشخصية ، ولا مصلحة المسلمين الخاصة ، فلا مجال إذن لفكرة قداسة الدولة أو الجنس التي تبيح المحظور ، وتبرر المنكر ، وتصف الغدر والنفاق والكذب بالبراعة السياسية ، أو تصف القسوة والجريمة والوحشية بالبطولة الحربية ؛ فالعهد مقدس ، مهما يفوّت علي المسلمين من مصالح قريبة ، ومطامح مرغوبة ؛ وإن الشرف مرعي مهما يسبب للمسلمين من خسائر ومتاعب ، وإن الشعور الإنساني ملحوظ ، مهما تكن قسوة المعركة ، وحرارة الضرب والحرب .. " [1]

---

[1] السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - ص 169 .

ولذلك " لم تكن شهوة التوسع ، ولا شهوة امتلاك الأرض ، ولا شهوة القهر والإذلال للآخرين هي التي حركت الجيوش الإسلامية للفتح ، إنما كان الهدف .بأمر من الله .هو نشر.التوحيد في الأرض ، وإزالة الجاهلية وطغيانها ، لتكون كلمة الله العليا ، ويكون الدين كله لله : {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه } [الأنفال39] .. وهو ما عبّر عنه ربعي بن عامر رضي الله عنه بقوله : إخراج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله ، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلي سعة الدنيا والآخرة ..

وإذن ، فهي حركة حضارية عليا لتحرير الإنسان من عبادة الطاغوت إلي عبادة الله ، ومن اعتناق الوهم إلي اعتناق الحقيقة ، ومن الجور والظلم إلي العدل والقسط ، ومن الجهل إلي العلم ، ومن الظلمات إلي النور. " [1]

ولذلك ، فإن أرض هذه الدعوة التحريرية هي الكرة الأرضية كلها ، فالأرض أرض الله ، والخلق عباد الله ، " فلا بد أن يعلوهم شرعه ودينه ، فمن شاء بعد ذلك أن يكفر ، فلا يحق له أن يفرض كفره على غيره ، وعلى أجيال من البشر قادمة ، يُعمي عليها الحق ، ويُلَبّس بالباطل والخداع الذي يسمى إعلام ، وما هو إلا تجهيل وتزوير ، حتى يرى الناس الحق باطلاً ، والنور ظلاماً ، وأشقى طرق الحياة بلون الطريقة المثلى كما قالها آل فرعون : " إن هذان ...... " طه 63 .، ولكي يحجب عن الخلق نور الهدى الذي جاء به محمد (ص) ، وليعيش البشر أسوأ والله من حياة البهائم ، بل يعيشون حياة الشياطين ، فهل من ظلم للبشرية أشد من أن تُتْرَك هكذا محرومة من هذا الدين .

إن عالمية دعوة الإسلام نابعة من حقيقة الغاية التي خُلق من أجلها البشر ، وهي عبادة الله عز وجل ، كما قال تعالى : " وما خلقت الجن والإنس ..... الذاريات 56 " فلا يجوز أن يُحرم الإنسان من هذا الذكر، الذي يتذكر به العالم حقيقة الحياة والوجود والبداية والنهاية ، وكيف يعيش الحياة التي أرادها خالقها ومبدعها سبحانه وتعالى ..

إن عالمية دعوة الإسلام نابعة من حقيقة القرآن ، وأنه الكتاب الذي أنزله الله ليحكم بين الناس .كل الناس. فيما اختلفوا فيه ، وأنه النور المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ..

---

[1] كيف ندعو الناس ـ محمد قطب ـ ص 125 ، 126 .

إن حق البشرية في الرحمة المهداة حق متساو لكل إنسان ، مكفول لكل من طلبه ، مثل الهواء والماء وضوء الشمس ، لأنهم لو حُرموا هذه الأشياء لضاعت عليهم حياة أبدانهم ، وهي حياة يسبقها الفناء ، وأما إذا حرموا من الوحي الذي جاء به محمد (ص) خاتم الأنبياء ، ضاعت عليهم حياتهم الأبدية التي هي حقيقة الحياة . " [1]

لقد " كانت الفتوحات الإسلامية نقطة انطلاق لتحرير الإنسان من عبودية القوي الطاغية التي كانت تستغله ، وضغط الأوضاع الشاذة التي كانت تحيط به ، والأجواء المظلمة التي كانت تخيم عليه ، ليعيش مع مفاهيم الإسلام وتشريعاته الأصيلة التي لا يشعر فيها المحكوم أمام الحاكم إلا كما يشعر الإنسان أمام إنسان مثله ، في حدود مواجهة المسؤولية التي يشترك فيها الحاكم و المحكوم من أجل تحقيق العدالة في الأرض... كل في موقعه ومجاله ، دون أن يكون هناك أي شعور آخر بالقوة الطاغية التي تستعبد وتتحكم. " [2]

لقد " أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم . فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير . وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة العظيمة . وعليه تاجه . وغير ذلك من الأمتعة الثمينة . وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم . وإنما جئتكم حين دعوتموني . فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . " [3]

إن الشعور بالأناقة الحضارية " في صورة القيام بدور حمل رسالة إنقاذ للبشر، وإخراجهم من عبودية بعضهم لبعض ، والمتمثلة في قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلّا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ..} [آل عمران – 64]. قد تجلىَّ بوضوح في موقف ربعي بن عامر رضي الله عنه " ، فرأي إمبراطورية فارس " ضيق الدنيا " .. بل رآها "

---

[1] تأملات إيمانية في سورة يوسف ـ ياسر برهامي ـ ص 269 - 271 .
[2] الإسلام ومنطق القوة ـ محمد حسين فضل الله ـ ص 187 .
[3] اللمسة الإنسانية ـ للمؤلف ـ ص 679 - 682 .

قفصاً ، والقفص قفص ، ولو كان من ذهب ، وأسلاكه كلها من ذهب .. ورأي أنه أتي يرثي لحال الفرس، تدفعه عاطفة الحدب والعطف من صحراء الرب إلي هذه البلاد .. وكأن صوته ينادي : أيها الفرس الأشقياء المنكوبون .. أتينا لنخلصكم من هذا القفص الذهبي الذي تشدون فيه وتتغردون ، وتبتسمون كعندليب إلي أرض الله الواسعة ، وإلي أجواء الحرية المترامية اللامتناهية ، فقد استعبدتكم العادات والالتزامات ، واستعبدتكم الأسباب والتسهيلات ، واستعبدكم موفرو الترفية والتسلية ،واستعبدكم المغنون ، واستعبدكم عبيدكم ، واستعبدكم طهاتكم وطباخوكم ، واستعبدكم سقاتكم ، واستعبدتكم جدرانكم وحيطانكم ..

أمّا نحن فلسنا إلا عبيد الله ، فأتينا لنخرجكم من هذه العبوديات التي لا يحصيها إلا الله " [1]

" إن المقياس الذي لا يخطئ في قياس مدي " إنسانية الإنسان " . ومدي رقيه وتقدمه . ومدي حضارته وتمدنه .. هو أن يخرج من عبادة العباد . في كل صورها وأشكالها . ومن بينها عبادة هواه .. ولن يخرج الإنسان من عبادة العباد جملة إلا بعبادته لله وحده .. فالفطرة البشرية مجبولة علي أن تعبد إلها .. ولابد لها من عبادة إله .. والعبودية لله تلبي هذه الحاجة الفطرية ، وتعصم من العبودية لغير الله. وإلاّ تكن العبودية لله كانت لغير الله. كما نري من تاريخ البشرية كله. فإنها لم تخل يوماً من عبادة إله . إمّا أن يكون هو " الله الحق " وإما أن يكون واحداً من العباد علي إختلاف العباد . وحتى الذين يلحدون الآن في الله فإنما يؤلهون " الطبيعة " . أو " الإنسانية " أو " الحياة " أو " الاقتصاد " أو " الجنس " . أو " الشهوة " . أو " ماركس " أو " لينين " . أو فلاناً من الناس !!! ويتوجهون إلي هذا المعبود الزائف بكل ما في فطرتهم ، من حرارة التوجه ، ومن انفعال العبادة ، ومن الإذعان والطاعة والخضوع والإتباع !!! " [2]

" إن الإسلام ليس عدواً للغرب ، وليس عدواً للبشرية . بل إنه فى الحقيقة هو " المخلّص " الذى جاء ليطهّر البشرية من أدرانها ، ويرفعها إلى المكانة اللائقة بـ " الإنسان " الذى كرمه خالقه ، وفضله على كثير ممن خلق : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً }الإسراء70 .. وحين يعود الإسلام إلى التمكين اليوم أو غداً فلن يكون على حساب " المصالح المشروعة " لأحد من البشر الأسوياء على وجه الأرض ، ولكنه دون شك لن يقبل الطغيان."[3]

---

[1] أحاديث صريحة في أمريكا ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ ص 54 ، 55 .
[2] مقومات التصور الإسلامي ـ سيد قطب ـ 179 ـ 182 .
[3] دروس من محنة البوسنة والهرسك ـ محمد قطب ـ ص 54 ، 55 .

إن هـذا الـدين موضـوعه هـو " الإنسـان " .. وهدفـه هـو " تحريـر " الإنسـان مـن الأغـلال السياسـية والآصار الاجتماعية ؛ لتحقيق العدالة الاجتماعية الربانية .. ولكي يحقق هذا الهدف لا بد له من " رواد " يمتلكون القدرة والطاقة ، ، والاستعلاء والإصرار والصلابة ، والثقة بهذا الدين ؛ فيقوموا بتصحيح قيم الإنسـان وموازينـه ، ومشـاعره وسـلوكه ، ثـم يجتمـع هـؤلاء " المسـلمون الأحـرار " برابطـة الإسـلام الاجتماعيـة التـي تحمـل " الأصـالة والتميز " ، و " الانفتاح والاتساع " فيتكون " مجتمع الحرية " الـذي يحمل الصبغة الربانية في كل شيئ ، ويحتضن في أكنافه كل إنسان ، ويحوّل أهداف الرسالة الإسلامية إلى واقع حيّ متحرك ، تراه العيون ، وتلمسه الأيدي ، وتلحظ آثاره العقول ..

ولن يرهقنا . بإذن الله . أن نردد هذه الكلمات في نهارنا وليلنا ، ولن يوهن من عزمنا . بتوفيقه سبحانه . كل ما نراه من حولنا من واقع أضحت رائحته تزكم الأنوف ، ومن أفكار ميتة لا يدرك أصحابها ما تمثله من عفونة .. لأننا على يقين أن كل ما حولنا قشور سوف ينفضها جسد الرسالة الإسلامية عن نفسه ، وسـوف تسـقط وتتهـاوي أمـام حركـة مجتمـع الحريـة .. ذلـك المجتمـع الـذي يحمـل رايـة الحريـة في وجـه الاستعباد ، ليبدأ جولة جديدة لهذا الدين كما بدأ أصحاب رسول الله الجولة الأولى.. وليُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد .

***

الباب الخامس : **سبيل الرشاد**

ويشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : حتى تغيّروا ما بأنفسهم

الفصل الثاني : ثقافة النقد والحوار

الفصل الثالث : إطار عمل لا إطار انتماء

الفصل الرابع : إقناع لا إخضاع

الفصل الخامس : ميلاد مجتمع الحرية

حين يتعثر المجتمع في سيره الحضاري ، ويصيبه " الوهن " الذي يُعجزه عن المسير ؛ يأتي دور المفكّر ليعالجه بالجراحة الفكرية التي تستأصل أورام " التيه والخوف " من خلال عمليات قد تكلف الطبيب الكثير ، ولكنها هي الطريق إلي " مجتمع الحرية " ، لأن الطريق إلي أي هدف إنما يصنعه السير .

فإذا تساءل الكثيرون : من أين البداية ؟ .. أجبناه " من هنا نبدأ " ، من مشروع يرسم خطوط عمل تتدخل لكشف مسار واقعنا ، ثم تحويل هذا المسار إلي الأفضل ، من خلال ما يمكن أن نطلق عليه " الأفكار المحورية " التي تنتظم مجموعة كبيرة من الأفكار الجزئية التي تغطي كافة مراحل الخروج من التيه إلي الرشاد ..

فإن أحسّ البعض عبثية المحاولة ، ورأي أننا وصلنا إلى نهاية النفق المظلم .. فإننا نؤكد أن طوفان التغيير قادم تحطم موجاته القوية صخور النفق ، وتجرف سدوده ، من أعلى ومن أسفل ، من أمام ومن خلف.. فما زال هناك أولو بقية تنبض بالحرية ، وترفض الاستعباد ، وتسعي " نحو مجتمع الحرية " .

الفصل الأول

حتى يغيّروا ما بأنفسهم

حين يعاني المجتمع العبودية المختارة ، تضطرب مفاهيمه ؛ فتفقد قياداته السياسية الوعي ، وتعاني قياداته العسكرية الوهن ، وتتحول قياداته الثقافية إلي أبواق تهلل وترقص وتطبل ؛ فيتحصن أصحاب الأفكار بأفكارهم المجردة حتي لا يصيبهم رذاذ مواجهة الواقع ، والذي قد يصل إلي حد الشهادة .. ومن ثم يدور الفكر حول نفسه ، ولا يخرج عن دوامة الدوران ؛ ويترك بلا استعمال أو استفادة ، فيتحول إلي حبات رمل متراكمة سرعان ما تذروها رياح الاستبداد القاسية ، وعواصف العبودية المؤلمة .. ويزيد واقع الاستبداد ظلاماً ، وتأخذ شمس الحرية في المغيب ؛ فيتواري أمل المقهورين ، ويسود واقع التيه والخوف .. ذلك الواقع الذي يخيّل للإنسان فيه أنه مقتنع بفكرة الحرية تمام الاقتناع ، وأنه ممتلئ بها إلى حد التشبع ، وأنه ليس في حاجة إلى أن يحدث نفسه فيها أو يحدثه أحد غيره ، فهي مقررة في أعماق نفسه ، مستقرة فيها ، لا شك في أمرها ولا جدال .. ثم يكون هذا كله خداعاً لا رصيد له من الواقع ، أو هو رصيد ضئيل لا يكفي لتحريك عجلة الحياة ..!!

ولذلك فإن الخطوة الأولي في طريق الحرية هي إنتاج العقل الذى لا يخاف ؛ فيكسر المسلمات عبر التساؤل ، ويحرر ذاته من القهر إلى الإرادة ، ويدرك قيمة العمل والجهد ، ويتعلم أسلوب التخطيط وتحريك ملكات الابتكار ، واستخدام العلم في حل الألغام الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تملأ المجتمع بـ " نزع فتيلها ، وليس " الارتماء عليها " .. فيدرك أنه فى كل عملية انتقال من مرحلة إلى مرحلة ، لا بد من التخفف من المتاع غير الضروري وغير المفيد ، لأنه بقدر ما يكون الحمل أصغر بقدر ما يكون الانتقال أفضل ؛ ولذلك فهو يودع مقابره الفكرية الكثير من أفكارنا الميتة التي لا تؤدي دورها في تغيير المجتمع من العبودية إلي الحرية ، ليأتي بدلاً عنها بأفكار هي سبيكة معرفية نفيسة ، تتشابك وتتوافق في العقول ، وتترسخ وتتعمق في النفوس ، فتدفع المجتمع إلي العمل الصامت بعيداً عن الصياح الذي هو دليل الضعف ، والصراخ الذي يكشف عن العجز .!

فإن أتم المجتمع عمله الصامت ، حمل كل فرد فيه رسالته إلي الإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض منادياً : أيها الإنسان القلِق في كل مكان ، يا من يقلب وجهه في الكون، باحثاً عن الحرية. إني

أشاركك في قلقك وتطلعاتك . لقد عانيت ما تعاني . فتعالي نبحث ، دون أن أتضايق منك أو تتضايق مني .. إني لا أتضايق منك ، بل أستبشر بهذه الأشواق التي تحملها إلى الحرية ، وإني أرى نفسي فيك ، فلقد مشيت هذا الدرب ، ومررت على ثغراته ، ومَنَّ الله علي بمعرفة كثير من مسالكه ومنعطفاته .. لن أطلب منك أن تكون أسير فهمي أو فهم غيري، لن أزعم لك أني أحتكر الفهم الصحيح وحدي .. ولكني أدعوك دعوة هادئة إلي التفكّر في سبيل الخروج من القهر والعبودية إلي العز والحرية ، وأؤكد لك أنه كما أن الإمساك بذيل الفيل لا يمنعه من التحرك ، وجذب ذيل الحصان بشدة يدفعه للتمرد ؛ فإن علاج المشكلات الإجتماعية الكبرى لا يبدأ من ذيلها .. كما أن التعامل مع المشكلات النشطة لا يبدأ بجذبها للوراء .. والخروج من دائرة الاستبداد يسبقه الخروج من نطاق الشعارات ، والتخلص من الأسباب التي هيأت المجتمع للاستعباد ، والوقوف علي أرض الواقع التي تسمح برؤية الأشياء علي حقيقتها ، ومواجهة مشاكل الواقع من خلال ..

● فقه السنن الربانية

لقد شاءت إرادة الله أن تحكم الكون سنن في غاية الدقة والعدل والثبات ، لا يجدي معها " تعجل " الأذكياء ولا " أوهام " الأصفياء ، فهي لا تحابي أحداً من الخلق مهما زعم لنفسه من مسوغات المحاباة {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } [فاطر 43.]

ومن سنن الله الثابتة ، أن لكل حادث سبباً ، ومن وراء الأسباب تدبير اللطيف الخبير.. فالنجاح في الوصول إلى الأهداف يرتبط بالوسائل الموصلة إليها ، وليس بأمور سحرية غامضة الأسباب ، والمنتصر في أمور الدنيا هو من يأخذ بأسباب النجاح سواء أكانت أهدافه سليمه أم لا {كُلاً نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً} [الإسراء: 20].

ولذلك ، فإن " الاستفادة من السنن وملاحظة الأمثلة والأحداث ، تقدم للناس بصراً ومعرفة عملية ، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم ، أو تنقذهم إذا وقعوا فيها ، أو على أقل تقدير ، تكسبهم صلابة موقف من يدرك السُنّة ، لأن موقف من يرى السنن يختلف عن نظر وموقف من يجهل مصدر الأحداث . فإن حيرة وخوف من يجهل ، غير بصيرة من يعلم ، وغير طمأنينته . فإن من يجهل يطمئن حيث لا طمأنينة ، ويقلق حيث لا قلق ، ويعيش في حيرة من جراء المصائب التي تنزل به ولا يعرف مأتاها إلا ظناً وتخرصاً .. أما من يفقه السنن فإنه يعرف أين يضع القلق ، وأين يضع الطمأنينة ، ولا يصاب بالحيرة ، وإنما يقوم بما يقوم به من عمل فيما يُجدي دون أن يَحْقِرَ ما يقوم به من عمل ، ولا يطمع في إزالة الجبال في

ساعة ، ولا يحقر من جهده القليل الذي يبذله مما يقرب إلى الهدف ، كمن يمشي على الخريطة والبوصلة ، لا كمن يضرب في تيه الأرض دون معرفة . " [1]

ولا شك أن من أهم شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية في الأفراد والمجتمعات ، أن نفهم فهماً شاملاً رشيدًا هذه السنن ، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي أو ما نعبر عنه بـ " فقه السنن "[2].. ذلك الفقه الذي يحيلنا القرآن إليه في مواضع كثيرة ، ويأمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائه ومعرفة حقيقته [3] ، واليقين بأن الحياة لم تخلق عبثاً ، إنما خضعت لسنن وقوانين ، وأمر البشر في اجتماعهم وما يحدث بينهم من الصراع والتدافع الحضاري وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة والتداول الحضاري يجري علي طريقة قويمة ، وقواعد ثابتة ، ومن سار علي سنن الله ظفر بالفوز وإن كان ملحداً أو وثنياً ، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً أو نبياً. وعلي هذا يخرج انهزام المسلمين في أحد ، وفي بداية معركة حنين ، ويتخرج انهزامهم علي الأصعدة المتعددة . " [4]

" لقد تحدثنا كثيراً عن الخسائر والهزائم التى ألحقها بنا الآخرون ، وحان الوقت الآن لكي نبدأ الحديث عن الهزائم والخسائر التى ألحقناها بأنفسنا وبهذا ستكون بداية نضجنا .. " [5] .. ومن ثم سيرنا الخطوة الأولي في سبيل الخروج من نفق العبودية الذليلة بتغيير لما بأنفسنا ، غايته هجر الأفكار والثقافات والقيم الخاطئة بكل موروثاتها الصنمية ، إلي الإسلام بقيمه التوحيدية لتبدأ رحلة الخروج بإشراقة التوحيد المشبعة بفكرة الاستخلاف ، فيحملها مصلح يستجيب إليه طليعة ، وتعيش هذه الطليعة فى مناخ مناهض لفكرتها ، فيولّد ذلك شعوراً عميقاً بالتحدي لدى تلك الطليعة .. فتحدث هذه الفكرة مع التحدي تغييراً داخلياً فى نفوسهم ، ويفي هذا التغيير بشرط " إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم " ..

إن لكل جهد عملي علاقة مباشرة لما بالنفس من أفكار ، فمتى انعدمت هذه العلاقة عميّ الجهد واضطرب السلوك ؛ لأن تقدير الإنسان للأشياء في هذه الحالة يكون غلواً في تقويمها أو حطاً من قيمتها.. فإذا تغيُر ما بالنفس من أفكار ؛ تغيّر السلوك تغييراً قد يصل إلي النقيض ؟!

وتأمل معي هذه القصة ، ففيها الفكرة ..

---

[1] **حتى يغيروا ما بأنفسهم – جودت سعيد ـ ص 166 ـ 186 بتصرف يسير .**

[2] **عرّف شيخ الإسلام ابن تيمية السنة بقوله : " السنة : أن يُفْعل في الثاني ما فُعل في الأول "**

[3] **راجع إن شئت " تفسير المنار " للشيخ رشيد رضا ـ المجلد الأول .. تفسير قول الله تعالي: (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) سورة النحل : 36**

[4] **فلسفة التاريخ ـ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ ـ د . جاسم محمد سلطان ـ ص 14 .**

[5] **هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش ـ ص 169 بتصرف .**

يحكى أن عملاقاً بلغ من القوة ما يدهش ويحير ، وطبقت شهرته الآفاق ، وترامت أنباؤه حتى وصلت إلى عملاق آخر في بلد قريب ، فأحب أن يتعرف على ذلك الذي يتحدث عنه الناس ، فأرسل إليه رسالة لطيفة يطلب وده ويعرض صداقته ، ولكن خاب ظنه حين جاءه الجواب القاسي ينهاه عن التطاول فوق مرتبته .....

فصمم على الانتقام لشرفه من هذا المغرور الذي أساء الأدب في رده . فخرج يسعى إليه حتى وصل إلى مشارف أرضه . ولما سمع المغرور وقع أقدام خصمه تهز الأرض خارت قواه وتغير لونه ، وأدركت امرأته حاله ، فأشارت عليه أن يندس في الفراش ، وألقت عليه دثاراً ... ولما وصل الخصم الهائج سألها عن الوقح المغرور الذي لا يعرف قدر الناس ، حتى يعرفه نفسه ، ويعلمه كيف يكون جواب الناس .. فطلبت منه ألا يرفع صوته حتى لا يوقظ الطفل النائم ، وأشارت إلى قدميه وقد برزتا من تحت الدثار . فلما رآهما ، هذا الذي ما عرف قلبه الخوف ، صمت قليلاً كأنما ألقي عليه دلو من الماء البارد ، ثم قال في نفسه :

طفل ... ؟ ! فكيف يكون الأب إذاً ... ؟ ! ثم أطلق ساقيه للريح عائداً من حيث أتى .

إن الشجاعة والجبن ، والإقدام والهزيمة ، كل هذا يتعلق بها بالنفس ، فإذا تغير ما بالنفس ؛ خضع الإنسان مطلقاً لسلطان ما حل بنفسه ، فتغير سلوكه تغييراً قد يصل إلي النقيض ..

وهذا ما فعلته المرأة في قصتنا ، فهي بذكائها غيّرت ما بنفس العملاق ؛ فتغير وضعه حالاً ، كأنما حدث كبس على زر ، فإذا المروحة دائرة ..!!

وهكذا هم الذين يحملون أوهاماً عن أي أمر من الأمور ، تأتي نتيجة أعمالهم وفقاً لهذا الوهم ، ويتصرفون طبقاً للوهم الذي انطبع في نفوسهم ، كما تصرف العملاق حين شاهد القدمين ، وتوهم أن والد الطفل الذي هذا شأنه سيكون ضخماً جداً ؛ فانسحب بسرعة من الورطة التي وقع فيها .. ؟!!

إن " حرية النفس و الفكر والضمير ، هي التي تصنع باقي الحريات ، و هي التي تغذيها و تحميها. فإزاحة الغبار و الصدأ عن مبدأ أصالة الحرية و فطريتها هي بمثابة تجديد لإيمان الإنسان بنفسه و بحقيقته و بما وهبه خالقه. وإزالة التشكيك والتأرجح في الإباحة الأصلية و البراءة الأصلية ، هي إنهاء لحالة التكبيل و الاعتقال و رفع للآصار والأغلال ، عن فكرنا و فقهنا و إبداعنا.. "[1] ، فلكي لا نكون

---

[1] راجع إن شئت " الحرية في الإسلام ، أصالتها وأصولها ـ للدكتور أحمد الريسوني " .

مستعبَدين ، ، يجب أن نتخلص من القابلية للاستعباد .. وهذا هو المعنى الذي أضاءته بنورها الآية الكريمة " إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ..

إن ما بأنفسنا من القبول بأن نصبح عبيداً هو الذي يعطي حق البقاء للطغاة ، ويجعل المجرمين " أكابر المجتمع " .. فالطغاة كلما موّناهم وخدمناهم إزدادوا جرأة واستقووا ، وزادوا إقبالاً على الفناء والتدمير.. والمجرمين تكبروا بسبب من غفلتنا وضعفنا وتفرقنا وجهلنا ، مما سهّل عليهم أن يسيطروا علينا وينصبوا أنفسهم قادة ورؤساء وعظماء وكبراء . وقد مضت سنة الله أن المجتمع الذي يتفرق فيه أهل الحق ويجبنون عن مواجهة المجرمين ، ويجتمع فيه المجرمون ويتحدون ويتقوون ويتقدمون لتنفيذ إرادتهم ، أن هؤلاء المجرمين هم الذين يسيطرون على المجتمع ويؤثرون فيه ويصيرون حكامه وقادته ، يجعلون أهل الحق المتفرقين الجبناء معزولين عن المجتمع وعن التأثير فيه .

إن التغيير ليس هديه تُعطي ، ولا غنيمة تُغْتصب ، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بتغيير ما بالأنفس .. ولن يتغيّر واقع الاستعباد إلا بتغير ما بأنفس الأفراد " تغييراً يمتد إلي كافه المساحات وسائر المكونات النفسية الأساسية : العقلية والروحية والجسدية ، وكل العلاقات والبني الداخلية مع الذات ومع الآخرين .. ورفض كل محاولة تسعي إلي اتخاذ ممارسات الآخرين مشجباً لتعليق هذه العبودية المختارة {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران165]، أو زحزحة مسؤوليتنا عن عاتقنا ووضعها علي كاهل الغير، لأن تلك المحاولة تؤخر خروجنا من نفق العبودية المظلم ..

إن سنه الله وشرعة السماء " غيّر نفسك تُغَيّر واقعك " .. ولكنها ليست سنة " فرد " وإنما سنة " مجتمع " ، بمعني أنه وإن كان التغيير ينصب علي الذات في إطارها الفردي بالدرجة الأولي ، لكنه لا يؤتي ثماره المرجوة إلا إذا انسحب علي القوم ، فالله عز وجل يقول : { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ ما بِأَنْفُسِهِمْ } الرعد11 فالآية تربط التغيير بتغيير ما "بقوم " ، وليس ما " بفرد " .. ، فلابد " من تشكُّل نسبة اجتماعية معينة تصل إلي الدرجة الحرجة . أي تحول نوعي وكمي كافٍ لإحداث التغيير في المجتمعات . " (1)

ولكي نصل إلي هذا التحول النوعي والكمي في المجتمع ، لا بد من القيام بعمليه تغيير لما بأنفس الأفراد وفق منهج واضح يحيط بما ينبغي تغييره ، والزمن الذي يحتاج إليه التغيير إذا استخدمت الإمكانيات بكفاءة .. ذلك أن تغيير العادات ليس بالأمر السهل ، فإذا حاول الواحد منا أن يقلع عن كل

(1) إستراتيجية الإدراك للحراك - د. جاسم محمد سلطان - ص 56 .

عاداته السلبية دفعة واحدة ، فقد يشعر أنه حقق قفزة نوعية كبيرة ، لكن الانتكاس يكون آنذاك أمراً وارداً . " [1] .. لأن الاندفاع إلي اختصار الطريق على نحو مبتسر يؤدي إلي تضييع المقاصد ، كما أن حرق مراحله إلى درجة الرماد ، يؤدي إلى اضطراب الأحوال وضياع الأهداف .. !!

إن تغيير ما بأنفس الأفراد هو الشرط الجوهري لدخول المجتمع المستعبَد إلي فضاء الحرية ، فلن يكون هناك سحر يمحو العبودية والقهر في لحظات ويبدلهما حرية و كرامة .. إنما هي سنن ربانيه ثابتة يخرج الله بها من غيّروا ما بأنفسهم من القابلية للعبودية والقهر ، ويمنحهم سبحانه الحرية والكرامة ، لأنهم أزالوا جهلهم بالسنن عبر مجاهدة حقيقية ليعرفوا ما يعرفونه الآن علي نحو أفضل ، ومحاولة جادة لتعلم ما لم يتعلموه بعد ، وأمل دائم في معرفة أشكال من المعرفة لم توجد بعد .. كل ذلك من خلال ..

• قراءة الكلمة و العالم

ربط القرآن بين القراءة والكرامة : " إقرأ وربك الأكرم " ؛ فأكثر المجتمعات قراءة هي أكثرها كرامة .. و الفرق بين الإنسان الحر ، والإنسان المستعبَد ، هو أن الأول هو الذى يتعلم مما يمر به أو بغيره من خبرات فيثبت ما يساعده على النجاح ويعززه ويؤيده ، ويحذف ما كان خطأ .. أما الثاني ، فيكرر ما أخطأ فيه " [2].. لأنه يفتقد الوعي الذاتي الذي هو " بداية كل وعي ومبدأ كل ممارسة ، إذ ليس للإنسان الفرد أو المجتمع أن يحدد أهدافه و يبادر إلى العمل وبذل الجهد ما لم يفهم نفسه ويدرك المشكلات التي تواجهه، ويتعرف علي ذاته و يحل أولا تناقضات وعيه و تمزقاته الذاتية . ومن ثم يمكنه الخروج من شقاق الواقع و فوضاه ، أو علي الأقل من التخبط الأعمى في هذا الواقع . " [3]

ولا يمكن للإنسان أن يصل إلي كل ذلك إلا عبر القراءة ، ذلك أن قراءة الكلمة هي قراءة للعالم..!![4]، فنحن نقرأ ؛ فنعرف .. فإذا عرفنا ؛ نضج تفكيرنا .. وحين ينضج التفكير ؛ نصبح أكثر وعياً.. فالقراءة تنقل إلينا ثمرات العقل البشري ، التى عرفها عالم الصفحة المطبوعة ، و كل كتاب يفتح لنا نافذة جديدة للنظر للحياة ، و يضيف فكرة إلي مخزون أفكارنا الحيّة [5] .. ومن ثم فهو يمثل لبنة في بناء الحرية التي نتوق إليها جميعاً لتتحقق بها إنسانيتنا ، ونجنب أبناءنا ما عاناه جيلنا من ويلات الاستبداد ..

---

[1] مفاهيم قرآنية فى البناء والتنمية – د. عبد الكريم بكّار - ص 29 – 36 بتصرف يسير .

[2] راجع إن شئت " اللمسة الإنسانية " للمؤلف - فصل " صناعة الإنسان الصالح " .

[3] اغتيال العقل بين السلفية والتبعية – برهان غليون - ص 36 .

[4] كان والدي رحمه الله يشجعني على القراءة ، فبدأت مذ كان عمري 9 سنوات ونصف ، وكان أستاذي ينصحني أن أقرأ لمدة ساعة كل يوم على الأقل .. ويقول لي : إن من يقرأ الكلمة ، يقرأ العالم ..

[5] الأفكار الحية تخاطب العقل و الوجدان ، وهي قابلة للتحقيق ، و تساهم في مواجهة تحديات الواقع و حل مشاكله.

و ليس العبرة أن نقرأ مائة كتاب أو ألف كتاب ؛ بل العبرة .. ماذا نقرأ ؟ .. وكيف نقرأ ؟ .. فنوعية الغذاء الفكري هامة جدا في إنتاج نموذج الإنسان .. وإذا اعتاد الجسم على جرعات كبيرة من مادة النحاس يتعرض لتشمع الكبد ، كما أن نقص الحديد ، ولو كان بكميات زهيدة ، تعرض صاحبها لفقر الدم ؛ لذا كان مهماً أن يكون الغذاء الفكري منوعاً وبكميات كافية .. كما أن طريقة القراءة مهمة أيضاً..لأن بعض أنواع القراءة تجعل العقول لا تتقبل الصالح من الأفكار ، كما لا تُنبت الأرض غير المستصلحة الجيدَ من البذور، ولا تخرج الطيبَ من الثمار .. ولذلك فإن " من يقودون العالم هم الذين يعرفون كيف يقرأون " . [1]

وتأمل معي هذه القصة الرمزية ، وفتش معي عن العبرة ..

" طرَق "ساعي البريد" الباب ، خرج الأبُ ، فسلَّمهُ الساعي رسالةً ، وقال : إنَّها لابنتك!

لم يكن الأب يعرفُ القراءة ، وبدأ القلق يملأه ، من أين أتت الرسالة ؟ وهل تكون البنت ...؟! وما مضمونها ؟ خرج مسرعاً إلى الطريق لعلَّه يجد مَن يقرأ له الرسالة لتطمئنَّ نفسُه ؛ فوجد مُعلمةَ المدرسة في الطريق ، فقال هذا هو المطلوب ..

الأب : أتقرئين لي هذه الرسالة التي وصلت لابنتي؟

المعلمةُ : نعم .. و فضَّت الرسالةَ وبدأت في القراءة ... قرأت له رسالةَ غزلٍ موجهةً لابنته من أحدهم!!

حَمل الأبُ الرسالةَ ومضى غاضباً .. وبينما هو في الطريق لقي ابنَ صاحبِ البيت الذي يسكن فيه ، فطلب منه أن يقرأ له الرسالة ، يريد أن يتأكد!

فقرأ الشاب ، فإذا هي رجاءٌ من صاحب البيت للبنت أن تُذكِّر أباها بضرورة دفعِ أُجرة البيت المُتراكمة عليه ، عارضاً لها سوءَ الأحوال ، وضيقَ ذات اليد ..!!

صاحَ الأبُ : فما هي حقيقة الرسالة ؟! لا بدَّ من ثالث ليُبيِّنَ لي ما في الرسالة .. فإذا بأحد الشباب الذي ينتظرُ فرصتَه للعمل أو السفر ، أعطاهُ الرسالة بعد أن شرحَ له الحال ، قرأ الشاب ، فتحدَّث عن صعوبة العيش في القرية ، وقِلِّة فُرص العمل ، وأنَّ من يُهاجر يجد فرصته في بلاد الخواجات !

---

[1] **الكلمات لفولتير .**

شدَّ الرجلُ شعرَ رأسه ، وصرخ : أين هي الحقيقة ؟! فلم يسمع إلاَّ صدى صوته ، مع ضحكات من حوله من قُرَّاء الرسالة !! لقد رأى كلٌّ منهم في الرسالة ما يُحبُّ أن يرى.. ما في نفسه ، لا ما هو موجود فيها فعلاً ! لقد انعكست آمالُ كلٍّ منهم ، ورغباته ، وطبائعه على الرسالة فلم يعُد يرى غيرها ! وهكذا ضاعت الحقيقة بين هذه الآمال والرغبات والطبائع .

هذه هي القصة .. أو هكذا أردنا حكايتها ، وما يعنينا هو الفكرة العميقة والخطيرة التي أرادت القصة توصيلها ، فهي تتحدث عن الحقيقة الضائعة عندما تتحول القراءة إلى حوار مع النفس ، يقرأ من خلالها القارئ ما في نفسه لا ما هو مكتوب ؛ فتفقد القراءة قيمتَها وغايتها ..

وتوضيحاً لما نقصد نقول أننا حين نقرأ بطرق خاطئة تضيع من عقولنا الحقيقة ، ونجهل طريق الوصول إليها .. فيقوم الطغاة عبر الكلمة المقروءة بحقن عقولنا بـ " فضائل " الطاعة والخضوع ، ومن ثم يمكنهم الاستغناء عن السلاسل الحديدية لإخضاعنا ، لأن القراءة بتلك الطرق الخاطئة تقوم بمهمة تغييب العقول ، وإصابة الإرادات بالشلل ، بدلاً من أن تكون مصدراً للتمرد والمقاومة " [1]

والطرق الخاطئة للقراءة كثيرة ، ونذكر منها :

.القراءة الذرية :

" وهذه القراءة تُفكِّكُ النص، بل وتُفكِّكُ الجملة ، وأكاد أقول: بل وتُفككُ الكلمة! إنَّها تغوص في الكلمة وتعزلها عما حولها ، ثم تخرج منها لتدخل فيما بعدها دون أيِّ رابطٍ بينهما .. إنها قراءة "تُقصقِصُ" النَّصَّ وتفهم. هذا إنْ فهمت. كلَّ جملة، أو كلَّ كلمة بعيداً عن سياقها ، ولذلك فإنها تبني على كلِّ كلمة قراراً وقضية جديدة لا علاقة لها بقضية النص الواحدة ، بمعنى أنها تمتصُّ. ولا أقول تفهم أو تستنتج ! لأنَّ صاحب هذه القراءة يتفاعل مع النص تفاعلاً غريزياً فلا يستطيع أن يفهم ! . من كلِّ كلمة ، أو جملة قضية منفصلة!

و يقابل هذه القراءة ، القراءة الإحاطية الشمولية ، التي تستعرض النصَّ كلَّه، لتفهم ما يريد. وصاحبُ هذه القراءة يُدرك أنَّ أيَّ استبعاد لأيةِ كلمة. قصداً أو سهواً . سينتهي إلى نتائج لم يُردها النصُّ، وأنَّ الفرق بين وجود حرف وعدم وجوده تترتب عليه قضية هائلة رهيبة ، قد تكون كالفرق بين الكفر والإيمان .!

---

[1] مستفاد من كتاب الإسلام بين الشرق والغرب – على عزت بيجوفيتش .

. القراءة العصافيرية :

وهي القراءة التي لا تَراكُم فيها ؛ فصاحبُ هذه القراءة لا يبني شيئاً ، يعيش مع النصِّ في لحظة زمنية مُجمَّدة ، وقد يستمتع بقراءته، وقد يبكي ويضحك ، ثم بعد ذلك كأنَّه لم يقرأ شيئاً ! فذاكرته مخرومة ، مُستباحة ، لا تُمسك ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً ..!! .. قُدرته على الاستحضار معدومة ، والأمر عنده أُنُف ، دائماً يبدأ من جديد ، فهو بالضبط كالعصفور الذي لا تاريخ له ، يقع في نفس الفخِّ الذي وقع فيه قبل قليل!

و يقابل هذه القراءة ، القراءة التراكُميَّة ، وهي قراءة تبني على ما سبق ، وتربط اللاحق بالسابق ، لِتكوِّنَ من بعدُ مجموعةً من الأفكار والفوائد المتراكمة ..

. إشكالية التَّحيز:

وهي من أخطر ما يُعطِّل قيمة القراءة ، ويُفقدها غايتها ، حيث يدخل القارئ على النص وهو متحيز إلى عاطفة، أو فكرة مسبقة ! .. ومن ثم يشوش معيار التقويم ، ويضيع مقياس الموضوعية !

ولا يخفى علينا جميعاً أن قراءتنا . على الأغلب . متحيزة عاطفياً ، وفكرياً ؛ فنحن نحب أن نقرأ ما يدغدغ عواطفنا وإن خالف الحقيقة ، ونأخذ موقفاً مسبقاً ممن نعرف أنه يخالفنا ، أو يطرح ما يزعجنا !

والقراءة المقابلة لهذه الآفة هي القراءة المحايدة ، التي تحب الحقيقة ولو أزعجتها ، وتقبل الحق ولو كان من أبغض الناس ؛ فهي تحتكم إلى المعلومة التي تنقل الواقع كما هو ، وليس كما نحب أن يكون !! .

. القراءة المتسرعة :

وهي القراءة التي تأخذ موقفاً ببادي الرأي ، تخطف الكلمة أو الجملة خطفاً ، ثم تبني عليه قصراً من وجهات النظر المتعجلة . ومن قرأ هذه القراءة فحتماً سينقطع التواصل والتفاهم بينه وبين الكاتب ، وسيحمل كلَّ ما يقرأ حملاً لا إنصاف فيه ، وسيُوظِّف كلَّ ما يعرفه من آليات التعامل مع النصوص ليدعم وجهة نظره المتسرعة ، فيشرع في اصطياد الثغرات . أو ما يظن أنها ثغرات!! . ليُرديَ الكاتب أرضاً، ويحمل المحتمل على الصريح ، وينادي على رؤوس الأشهاد ملوِّحاً بالمحتمل ، أنْ هذا هو كاتبكم العظيم فاحذروه!

ويقابل هذه القراءة ، القراءة المتأنية المُنصفة ، التي لا تستعجل النتائج ، وتعطي الكاتب الفرصة التي يستحقها للفهم عنه ، وتحمل محتمله على صريحة ، وتستخدم آليات فهم النص لخدمة الوصول إلى الحقيقة ..

لقد وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عجزنا عن القراءة المنتجة ، وكيف أن القراءة المطلوبة ليست هي مجرد قراءة الأحرف ، فيما رواه زياد بن لبيد ، فقال : " ذكرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شيئاً، فقال: "وذاك عند ذهابِ العلم، قُلنا يا رسولَ الله : وكيف يذهبُ العلمُ؟ ونحنُ قرأنا القرآنَ ونُقرئه أبناءَنا، وأبناؤنا يُقرؤون أبناءهم، فقال: "ثَكِلتْكَ أمُّكَ يا ابنَ لبيد ، إنْ كنتُ لأراكَ من أفقهِ رجلٍ بالمدينة ، أوَ ليس هذه اليهودُ والنصارى يقرءونَ التوراةَ والإنجيل، ولا ينتفعونَ ممَّا فيهما بشيءٍ؟!" !! [1]

وهكذا .. هي المجتمعات التي تتمسك بالنصوص وكلماتها ودلالاتها من غير التفات إلى موضوعاتها ، فتحمل الكلمات ما لا تحتمل ، وتتلاعب بالنصوص ، بل وتقوم بحذف بعض النصوص من التداول ، وتخلق نصوصاً جديدة أو تعيد المعنى القديم أو تُحدثُ معنّى جديداً للنصوص القديمة ، لأن المشكلة ليست مشكلة نصوص ، وإنما مشكلة فهم وتفسير ..

فقد يقرأ الناس في موضوعات مختلفة حتي نعتقد أن ما قرأوه قد أوضح لهم كل الإيضاح ، وأبان كل الإبانة ، وأن الكاتب لم يدع سبيلاً إلى الكشف عما في نفسه إلا سلكها ، حتى تركهم على المحجة البيضاء وجعل لهم ما يريد بيانه من حقائق كفلق الصبح أو كالشمس في رابعة النهار كما يقولون .. ثم ما أشد دهشتنا حين نكتشف أن القوم لم يفهموا ما قرأوه ، ولم يدركوا ماذا يعني ..!!

وما ذلك إلا لأن طريقة القراءة هي أشبه بالنظارة التى نضعها على عيوننا ، وكما أن الأشياء تتلون بلون تلك النظارة ، فإن الأفكار تتلون بلون الطريقة التي نقرأ بها تلك الأفكار .. ثم يحتجزها كل منا داخل صندوق العقل " فإذا به لا يقدر علي الخروج من الأطر الموضوعة له ، ويظل طوال حياته يعمل داخل حدود الصندوق ولا يعرف كيف يمكن التحرر من أسره وتخطي أسواره ، لأن تخطي هذه الأسوار العالية يتطلب أن يتسلح المرء بأدوات تمكنه من القفز خارج هذه الأسوار العالية ، وليست هذه الأدوات للقفز خارجها فقط ، بل لتمكنه من الحياة والاستمرار خارج نطاق السجن العقلي الكبير الذي نسجن أنفسنا فيه دائماً لأسباب نابعة من داخلنا "[2]

إنَّ القراءة المطلوبة هي القراءة المبنية على الإخلاص والإنصاف والفهم والوعي والتدبر .. القراءة التي تربط وتستنتج .. القراءة التي كانت الدعوة إليها هي " إقرأ " تلك الكلمة التي أدهشت رسول الله

---

[1] **مستفاد من موقع التغيير - إبراهيم العسعس .. *www:altaghyeer.com***

[2] **أعراض مصرية دراسة في أحوال المصريين المعاصرة - د . حسين الشرقاوي - ص 27 .**

صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓءَالِهِۦوَسَلَّمَ، وأثارت معه وعليه العالم .. القراءة التي تبحث عما تحمله الكلمات من جنين الأفعال ، وليس القراءة التي تنظر إلي الكلمات علي أنها مجرد صورة بيانية خلابة ترف في الهواء ، أو مجرد كمية من المداد علي صفحة من الورق ؛ فيغيب عنها أن قراءة الكلمة لا تكون قراءة للعالم إلا حين تكون الكلمة مقدمة لتغيير الإنسان من خلال ..

• الأفكار المحورية المحفّزة

ينطلق أي مجتمع في طريقه إلي الحرية من أفكار يدور صائبة الأفراد في فلكها ، فيتفوق مجتمعهم علي كل المجتمعات التي تدور في فلك الأفكار الخاطئة .. وما ذلك إلا لأن التصرف السليم فرع عن التصور السليم ، فسلوك الإنسان وتصرفاته هو نتيحه لأفكاره ، فإذا تغيرت هذه الأفكار سواء بجهده أو بجهد غيره ، فإن سلوكه يتغير لا محاله ، وهذا التغيير يمكن أن يصل إلي درجه النقيض كأن يتحول الإقدام إلي إحجام ، أو أن يتحول الإقدام إلي نوع من الفتور ..

ومن هنا ، فإن أي مجتمع يسعي إلي الحرية ، لا بد له من " مجافاة الخطابة الإنشائية الفارغة ، ليصل إلى ما يمكن أن نطلق عليه " الأفكار المحورية " [1] " التى تنتظم مجموعة كبيرة من الأفكار الجزئية ، ليصبح الإيمان بالفكرة المحورية سبيلاً إلى الإيمان بتلك المجموعة .

ولا شك أن هذه الأفكار المحورية يجب أن تتصف بالشمول والتكامل ، و أن تبدأ من التغير فى نفوس المصلحين " الرواد " .. لتصبح واقعاً فى حركاتهم وسكناتهم ، فى رخائهم وشدتهم ، وأن تترجم فى أهدافهم وبرامجهم ، بيوتهم وأعمالهم ، وفى أفعالهم قبل أقوالهم .. حتي تتحول هذه الأفكار إلى عطر للحرية فوّاح فى فضاء التغيير يتنفسه الرائح والغادي ، والقريب والبعيد .

ولا شك أن الأفكار المحورية بهذه الخصائص ، تمثل في حياة الجماهير أفكاراً محفزة ، لأنها تمس حياتهم مباشرة ، ومن ثم يجب أن تكون " هي المحور الذي يتم التركيز عليه لاستقطاب الناس من خلال مخاطبة المعاني الدفينة ، و طرح القضية المحسوسة الملموسة التي تقع في المجال الذي يري فيه الفرد العادي دوره واضحاً و حاجته إليه ماسة. فيلتف الناس حول هذه الفكرة و ينصرونها و يبذلون في سبيلها الغالي و النفيس.

---

[1] مقدمات فى البعث الحضاري – د. سيد دسوقي حسن ـ ص 18 .

إن الفكرة المركزية وحدها ليست كافية لتحريك الشرائح العظمي من الجماهير؛ بل لابد أن يصحبها فكرة محفزة من صلب الفكرة المركزية و تبني علي تراثها .. فموسي .مثلاً .حرك قومه للخلاص من الاضطهاد بحلم الوصول إلي رض العسل و اللبن ، أرض فلسطين .. و الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ يحرك المؤمنين للخروج من جور الأديان إلي عدل الإسلام في واقع كان الظلم فيه سائداً .. و المصلحون حركوا شعوبهم من خلال تبني قضايا مستقرة في احتياجات المجتمع و صاغوا منها خطاباً حاشداً للطاقات واضحاً غير معقد .

فهذا مارتن لوثر كينج يقود حركة السود في أمريكا بطرح مطالب يستشعرها السود و تتفق مع قيم المجتمع الأساسية ، و هي قضية المساواة .. و قل مثل ذلك علي نيلسون مانديلا و عن حركات التحرير و حركات التنمية المركزة في الصين ، حيث الشعور القومي يطالب بصين موحدة مكتفية حرة ، لها مكانتها بين الدول ..

ولكي تنجح الفكرة المحفزة في استقطاب الناس علي محورها ، لا بد لها أن تكون " مستقاة من الفكرة المركزية و منطلقاتها." .. وأن تكون " بسيطة جداً تستوعبها عموم الجماهير " .. مثل الفكرة المحفزة للخطاب الإسلامي ، والذي عبر عنه ربعي بن عامر " جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلي عبادة رب العباد و من جور الأديان إلي عدل الإسلام و من ضيق الدنيا إلي سعة الدنيا و الآخرة " ..

كما أنه من الصفات الهامة للفكرة المحفّزة أن " تتعلق بصورة مباشرة بقضايا الناس و همومهم " [1].

" إن درجة استجابة الجماهير لما نبثه ونرسله إليها من خطاب تكون موازية لدرجة استجابة الحركة لما تبثه وترسله الجماهير إليها من خطاب , ونستطيع أن نجزم أن العلاقة التفاعلية بين الحركة والجمهور لن تأخذ مسارها الإيجابي إلا إذا أدركت الحركة هذا البعد السيكولوجي للإشكالية المطروحة . نقصد بذلك أن " التأثير والتأثر " يجب أن يشمل طرفي العلاقة " الحركة والجماهير " . فإن كانت الحركة تطمح للتأثير في الجماهير فعليها أن تدرك أنها لا تستطيع ذلك إلا إذا تأثرت بها كما تتأثر هي بها . " [2] ، فالأفكار سواء منها البارز على السطح في عالم " الوعي " ، أو الآخر الغاطس في " اللاوعي " ، إنما تصبح أفكاراً محفّزة بقدر ما تصنعه بالإنسان ، وإلي أي مدي تحرره من عبودية العباد ؟! ..

---

(1) في الصراع و التدافع الحضاري – د. جاسم محمد سلطان - ص 26 بتصرف يسير .
(2) الحركة الإسلامية - ثغرات في الطريق - د. عبد الله النفيسي - ص 41 - www.alnefisi.com

وأمّا الأفكار الخاطئة ، فإنها تمثل قيوداً وأغلالاً تمنع المجتمع من التحرك للتغيير .. مثل فكرة الجبر ، التي تسلب الإنسان إرادته ، وتجعله غير مسئول عن رأيه أو ما يصدر منه .. و فكرة الخضوع لأي سلطه مهما كان طريقها في الحكم علي اعتبار أنها أولي الأمر!!

إن من الضروري جداً تصحيح كل فكرة من الأفكار الخاطئة بالفكرة الصحيحة فى هدوء وروية [1].. حتي إذا استقرت الأفكار الصحيحة في قلوب أفراد المجتمع ، فعرفوا أن : " الحرية أفضل من الحياة ، وأدركوا النفس وعِزَّها ، والشرفَ وعظمته ، والحقوق وكيف تُحفَظ ، والظلم وكيف يُرفع ، والإنسانية وما هي وظائفها ، والرحمة وما هي لذَّتُها " [2] .. سعوا إلي تحريرَ أنفسهم عبر التسلح بالمعرفة النقدية ، ونبذ التربية التي تُعمِّق الرُّضوخَ للاستعباد ، وتحطيم الأغلال الفكرية والآصار العملية ، فأصبحوا دائمي الحركة للخروج من العبودية إلى الحرية ، من خلال الأفكار المحورية المحفّزة التي هي المقدمة الصحيحة ﻟ ..

• بناء الإنسان الرسالي

الإنسان الرسالي هو الشرط الأساسي للتحرر ، و أي سير نحو الحرية قبل بناء هذا النوع من الإنسان هو نوع من التقهقر ، وهو في حقيقته خطوة نحو العبودية والقهر .. وبناء هذا الإنسان ليس مهمة سهلة ولا غاية تدرك ما بين يوم وليلة ، ولكنها مهمة دقيقة وصعبة تحتاج إلي جهد كبير وصبر طويل لتفريغ الإنسان من كل إحساس بالقوة الساحقة التي يملكها المستبدون ، وكل شعور بالخوف والرعب من كل قوة غير قوة الله ، وذلك بإرجاع أمور الحياة كلها إلي الله ، باعتباره خالق الحياة .. وتصوير قوي الاستبداد بصورتها الواقعية التي تتكشف فيه عن كائنات لا تملك لنفسها ، ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ..

وفي هذه الرحلة لتغيير الإنسان ، يبدأ الإنسان من مرحلة " العصا " حيث يتنازل عن إنسانيته لمن يعطيه قوت يومه ، فهو كالعصا يُضرب بها الصالح والطالح .. لينتقل بالفكرة الصائبة إلي مرحلة " إنسان الفكرة " الذي تحررت إرادته فيطيع في الطاعة ويعصي في المعصية ولاينفذ الا مايقتنع به ويناقش الأوامر وصلاحيتها .. .. ثم ينتقل من خلال التربية ليصل إلي مرحلة " إنسان المبادرة " والذي إذا أتاه الأمر الذي يرفضه لم يقف مكتوف الأيدي ، بل يكون رده للآمر " لن تفعله وأنا علي قيد الحياة " .. " لن

---

[1] الأفكار التي تنبع من رغباتنا نقولها بصوت عال .. وأمّا تلك التي تنبع من معرفتنا وإيماننا ، فإننا نقولها بهدوء .
[2] طبائع الاستبداد - الكوكبي - ص 55 - بتصرف يسير .

أسمح لك بممارسة الظلم حتي أموت " .. وهذه هي المرحلة الحاسمة في مواجهة الطغاة لأن الإنسان في هذه المرحلة يتغلب علي خوف الموت .. وهذه هي المقدمة الصحيحة للانتصار علي القهر والاستعباد ..

وتأمل معي هذا الحوار .. ثم فتش فيه عن الفكرة ؟!

سأل التلميذ معلمه : يا أستاذي .. متي أكون حراً ؟

أجاب المعلم سائلاً : هل يستطيع أحد أن يجعلك أن تصدق ما ليس يصدق ؟

قال التلميذ : لا !!

سأل المعلم التلميذ سؤالاً آخر : هل يستطيع أحد أن يكرهك على فعل ما لا تعتقده ؟

فأجاب التلميذ : نعم ..!

المعلم سائلاً : وكيف ذلك ؟

التلميذ : ، يجيب: إذا هددني بالقتل أو الحبس ؟!

المعلم : فإذا لم تخش من الموت أو الحبس ؟

التلميذ: لا يستطيع !!

المعلم : أنت عندها حر ..

هذا الحوار يقوم بتفكيك نفسي لعلاقات القوة والفكر ، ويقرر أنه " منذ اللحظة التى يبدأ فيها الإنسان المقهور في تحدي الموت والظفر عليه يكون قد قلب معادلة التسلط أو الرضوخ ، وانتصر على ذاته ، مما يتيح له الانتصار على قوى القهر فيما بعد ..

إن الانتصار على الموت هو قضاء على الذل والمهانة ... ولذلك فإن الحاجة إلى قهر الموت هي المدخل إلى عملية تحرير الإنسان لأن فيها انتصار على الخوف والاستكانة ، وانتصار على اليأس ، وانتصار على قلق الحاضر والمستقبل .. "[1] برفض الانسحاب في صمت ، ورفض الاختزال إلى مسخ ، أو التحول إلى صدى متردد ، وخاضع للخطاب السائد والمسيطر ..!!

إن القرآن يبرز هذا الإنسان الرسالي .. " إنسان المبادرة " المثابر صاحب اليد العليا ، وصاحب الشعور بالمسؤولية ، ويبين سماته ، فمنها :

---

[1] **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي - ص 55 بتصرف يسير .**

.وضوح الهدف الأسمى فى هذه الحياة ..

ومن فضل الله – تعالى – على هذه الأمة أن غايتها فى الحياة واضحة جداً ، الا وهي الفوز برضوان الله – تعالى – ونيل الخلود الأبدي فى جنات النعيم . يقول – سبحانه – موضحاً ملخص ذلك الفوز:،{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}" [آل عمران 185] ، فأمنية كل راشد فى أن يحظى بعفو الله ورضوانه..

.الثبات على المبدأ ..

من الصعب أن يكون المرء سباقاً فى الخير عدلاً قوياً إذا لم يمتلك قوة الاعتقاد بأنه على الحق الصريح .. فمن كان قوي الإيمان بمبادئه فإنه يجد لديه درجة عالية من الالتزام فى سلوكه ، وذلك الالتزام يتجلى فى مقاومة المساومة ومقاومة الضغوط ، كما يتجلى فى التنازل عن شيء من المصلحة فى سبيل البقاء على الطريق الصحيح . لأن الناس حريصون – فى العادة – على تحقيق مصالحهم فى إطار مبادئهم ، لكن المرء يجد نفسه فى كثير من المواقف مضطراً إمّا أن يتخلى عن مبدئه وإمّا يتخلى عن مصلحته . وهنا تكمن نقطة الاختبار للإيمان بالمبدأ .

. توفر الإرادة الصلبة ..

والإرادة ليست هي الرغبة المجردة ، وإنما هي الرغبة القوية العازمة والتى غالباً يتبعها فعل وعمل وحركة ..

إن من المهم والحيوي أن نعتقد أن هناك دائماً إمكانات لعمل شيء ما والاستفادة من شيء ما .. وأن نعلم أن مجاهدة النفس وحملها على الاستمرار فى العمل ، هو الطريق الصحيح لتربية الإرادة الصلبة ؛ وقد قال تعالى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة24]

. المبادرة والإمساك بزمام الأمور ..

الإنسان المبادر يحاول دائماً أن يفعل ما يمكن فعله ، فهو يبصر دائرة الممكن ، ويعرف دائرة السيطرة ، والدائرة التى يمكن أن يؤثر فيها ، فينطلق نحو الأمام دون انتظار أحد .

الإنسان المبادر لا ينتظر معونة الآخرين ، ولا يصبح فى حالة من العطالة والبطالة لأنه لم يجد من المؤازرة التى كان يتوقعها من الأصدقاء والزملاء ؛ لأنه يعرف أنه مكلف ، وأن تكاليف الله – تعالى –

هى دائماً ضمن الطاقة ، ولذلك فإنه يحاول أن يحقق لنفسه وللمسلمين من الخير ، ويدفع عن نفسه وعن المسلمين من الشر على مقدار ما تسمح به الظروف والإمكانات المتاحة .

إنه طبعاً يفرح بالمساعدة ، لكنه إذا لم يحصل عليها لا ييئس ولا يتوقف ، وهذا ما نجده جلياً فى قوله تعالى : {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً } [النساء84]".

وهذا ما فعله ابو بكر .رضى الله عنه .حين وقعت الرده بعد وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حيث وجد بعض التردد من بعض الصحابه فى قتال المرتدين لأسباب كانوا يرونها ؛ فقال لهم ابو بكر : " والله لاقاتلنهم ولو كنت وحدى " .

.الأمل والاستبشار و الروح الإيجابية ..

إن المسلم وهو فى حالة رخاء ويسر.لينتظر من معونة الله – عز وجل – وتوفيقه ما يتجاوز معرفته بالفرص المتاحة .. والمسلم فى حال العسر.و الشدة ينتظر من الله – تعالى – من تفريج الكروب ما يتجاوز الخيال .

المسلم يأخذ بالأسباب ما وسعه الأخذ حتى إذا استنفد كل الأسباب، و شعر بانسداد الآفاق تعلق قلبه بمسبب الأسباب – سبحانه – المتصف بالقدرة المطلقة و الرحمة المطلقة و اللطف المطلق .وهذا يفتح للمؤمن باباً من الأمل و الرجاء هو أوسع من كل الأبواب . يقول الله – سبحانه - : {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{5} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{6} " [الشرح 5- 6]" [1]

وإذا كانت هذه هي سمات الإنسان الرسالي ؛ فإن " الحكمة " من أهم مكوناته الأساسية " لأن الإنسان حين يفتقد الحكمة يظن أن العيش بين قطعان البشر. يوفر له الأمان ، ويري أن الخروج عن القطيع البشري مَهلكة ، فيبقي متردداً بين مشاعر متلونة من الخوف والجهل والشك والتيه .. ولا يدرك أنه ببقائه ضمن القطيع يخسر.كيانه .شخصيته ..تفرده ..إبداعه ..فكره .. بل يخسر.نفسه .. وماذا يمكن للإنسان أن يكسب شيئًا، إذا خسر ذاته ؟!!

نعم ..إن في محاولة الخروج عن القطيع خطورة ..وربما خطورة بالغة ، لكنها لا تساوي لحظة واحدة يبقاها الإنسان بلا قيمة بين قطيع البشر. .. ومن ثم لا بد للإنسان أن يحاول الخروج من قطيع القهر

---

[1] مفاهيم قرآنية فى البناء والتنمية – د. عبد الكريم بكّار - ص 116 - 128 بتصرف يسير .

والعبودية ، والسعي إلي مجتمع الحق والحرية من خلال خطوات عملية لا تختلط فيها الأمنيات بالإمكانات ، ويسعي الإنسان فيها إلي أهدافه عبر ..

• ممارسة فن الممكن

توحي ضخامة واقع الاستعباد بأن محاولة تغييره عبثاً ضائعاً ، فيشعر المستعبَدون أن التضحيات التي تبذل في سبيل تغييره لا مبرر لها .. وهذا . بلا شك . وهم تنشئه العجلة ، لأن هذا الوضع هو أنسب وضع للمحاولة ، لأن النفس الصادقة في الهروب من العبودية إلي الحرية لا تستجيب إلى الترميم بقدر ما تكون استجابتها لمن يدعوها إلي إعادة البناء ..!!

ولكي يتم هذا البناء لا بد أن يعرف الإنسان : ماذا يريد ؟ .. وكيف يصل إلي ما يريد ؟ فأمام الحركة الواعية للإنسان هناك هدف الحركة ، وكيفية تحقيق هذا الهدف .. فإذا أراد الحرية ، فلا بد له من مواجهة كل قوى الاستعباد .. واليقين بأن النجاح في هذه المواجهة إنما يكون في حدود طاقاته البشرية ، وفي حدود واقعه المادي ، وليس بطريقة سحرية غامضة الأسباب .. ؟!

ولذلك ، فإنه من الأهمية بمكان أن " يتعرف الإنسان على مجالات حركته وعطاءاته ، والتي يمكن تمثيلها بثلاث دوائر هي ، " دائرة السيطرة " .. و " دائرة التأثير " .. و " دائرة الاهتمام " .

فأمّا دائرة السيطرة :

فتشمل الشؤون والأوضاع والعلاقات الشخصية التى يشعر المرء بالقدرة على التحكم بها .. فالواحد منا يستطيع توزيع وقته وإدارته على حسب ما يرى من واجباته ومسؤولياته ، كما أنه يستطيع إقامة علاقات جديدة مع بعض الناس وقطع علاقات قائمة .. كما أنه يستطيع أيضاً التحكم بأمواله والأشياء التى يملكها .

وإذا عدنا إلى تكاليف الشريعة الغراء وجدنا أنها تتعلق فى معظمها بدائرة السيطرة ، فالمرء مسؤول عن حواسه واستخدامها ، والعبادات المالية والبدنية مشروط وجوبها بالاستطاعة الشخصية ، كما هو واضح فى الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ..

يقول الله تعالى . مخاطباً نبيه . صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ : {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً } [النساء 84].

إن الله – تعالى – يطلب من نبيه أن يجاهد أعداء الله ويقاتلهم بنفسه ، ويخبره أنه لا يكلفه إلا بما فرضه عليه .

وطلب منه إلى جانب ذلك أن يحض المؤمنين على قتال المشركين .

ومن الواضح أن الإنجازات التاريخية العظيمة لكل الأمم مدينة إلى حد كبير باشتغال الناس بدوائر سيطرتهم ، حيث يجلب كل نجاح يتم تحقيقه الأمل والإغراء بإعداد العدة لتحقيق نجاح جديد .

و أمّا دائرة التأثير:

فهي المجال الذى يمكن للواحد منا أن يمارس نفوذه الأدبي والمادي فيه ..

أسرة المرء وطلابه وموظفوه وأرحامه وجيرانه وقراؤه ومستمعوه ومن على شاكلتهم يشكلون دوائر تأثيره . ولا شك أن قدرة تأثير المرء فى أسرته أعلى من قدرته على التأثير فى جيرانه أو أرحامه ، وتأثيره فيمن يستمع إلى حديثه فى الإذاعة أقل من تأثيره فى طلابه الذين يجلس معهم كل يوم ساعة أو ساعتين ..

و أمّا دائرة الاهتمام :

فإنها أضعف الدوائر الثلا ث ، وهي الدائرة التى نتصل بها من خلال معتقداتنا وطموحاتنا وأحلامنا واهتماماتنا وهمومنا وعواطفنا .. فكلنا يحب أن يعرف أحوال إخوانه المسلمين فى أصقاع الأرض .. وكثيرون منا يتفاعلون مع مآسيهم ، ويفرحون لتقدمهم وازدهارهم ، لكن قلة قليلة من أولئك المهتمين والمتفاعلين تستطيع تقديم خدمات أو مساعدات ملموسة لمسلمين يعيشون فى قارة أو بلد غير بلدهم..!! " [1]

ولذلك فإنه من الضروري في دائرة اهتمامنا أن نتعلم " كيف نضبط أنفسنا من الاندفاع نحو تضييع الوقت وبذل الجهد والمال فى دوائر ومجالات عقيمة ، أى تتصل بدائرة اهتمامنا ، وتنعزل عن دائرة تأثيرنا..

ولا يعني ذلك أن ننصرف عن كل ما لا نستطيع التأثير فيه ، ولكن يعني الوعي بالفوائد التى سنحصل عليها والوعي بأهمية الاقتصاد فى هذا الشأن .. والبحث الجاد فى كيفية تحويل دائرة الاهتمام إلى دائرة تأثير .. " [2].. تلك الدائرة التي نحاول أن نمارس فيها " فن الممكن"، والتحرك في " الهامش

---

[1] المصدر السابق - ص 153 - 163 - بتصرف يسير .
[2] المصدر السابق - ص 162 ، 163

المتاح" ، فنتوسع في التأثير في المحيط المجاور بقدر ما يسمح جسم ذلك المحيط بالحركة دون ضجيج ؛ حتي لا تتحول حركتنا إلي عجلةً تدور مكانها ، تطحن أبناءها ، وتدل الأعداء على موضعها ..

لقد عانينا من كثرة الأحلام والتمني، بدون القدرة علي تحويل الحلم أو الأمنية إلي واقع، وبدون أن نضع خطوطاً فاصلة بين ما نتمناه وبين ما نستطيع أن نحققه .. بين ما نرغبه وبين ما نستطيع أن نملكه..!!

و لسنا بالطبع " ضد الطموحات الكبيرة والآمال العريضة ، ولكننا ضدها – فقط – حين تزهّدنا فى الممكن الصغير ، وتدفع بنا إلى التعلق بالمستحيل الكبير ، ذلك أن النتيجة ستكون فوات الصغير والكبير معاً . لكن الشىء المؤكد الذى لن يفوتنا هو المزيد من الشعور بالإحباط والانحسار !! "[1]

إن من أكبر ما يمكن أن يكسبنا مناعة ضد الإحباط ، مباشرة الممكن وعدم تضييعه فى طلب العسير والمستحيل وهذا ما أوصانا به ربنا حين أمرنا بقوله : {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [التغابن16].

إننا " كثيراً ما تختلط علينا القدرة بالإرادة ، حيث نظن ، أو نعتقد أننا لا نستطيع فعل كذا وكذا ، وتكون الحقيقة أننا نستطيع فعلاً القيام بذلك لكن لا نريد أن نفعله ..!!

.. نعم .. إننا فى أحيان كثيرة لا نحاول ، ولا نهتم ، ولا نتهيأ .. ومع ذلك نقول إننا لا نستطيع !!

بل ربما تحوّل ذلك لدينا إلى لون من ألوان الكذب " {وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } [التوبة46].

ونحن إذا تأملنا أحوال المسلمين اليوم وجدنا أن ضعفهم وانحطاط مكانتهم .. كل ذلك لا يعود إلى ضآلة الإمكانات على نحو أساسي .. وإنما هو فى الأغلب يعود إلى أنهم لا يديرون الإمكانات التى فى حوزتهم على نحو جيد ، كما أنهم لا يملكون من صلابة الإرادة وقوة العزيمة ما يكفي لتحرير الطاقات وتوظيفها على النحو الأمثل ..

إن اليأس يسيطر علي كثير من الناس ، حتى أن الواحد منهم ليعتقد أنه أصبح أشبه بالسجين ، وإن الخيارات أمامه شبه معدومة .. وهذا غير صحيح ؛ لأن هناك دائماً ما يمكن أن يفعله الإنسان ..

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 165 ، 166 بتصرف يسير .**

ومن هنا نقول : إن مشكلة المسلم الحقيقية ليست مع المستحيل ، وإنما مع الممكن ، وليست مع الصعب ، وإنما مع السهل ، وليست مع البعيد وإنما مع القريب ..

إنه لا ينبغي لأحد أن يتكلم فى الأمور المستحيلة التى لا يستطيع إنجازها وتحقيقها قبل أن يبذل وسعه، ويستنفذ طاقته فى الممكن والمتاح ..

إن مما هو جدير بالملاحظة أن يغلب على أحاديثنا وعلى مجالسنا التعرض لذكر ما لا نحسن ، وما لا نستطيع ، وما لا ينبغي ، وما لا يجوز ؛ على حين أنه قلما نتحدث عما نريد ، وعما نطلب ، وقلما نتحدث فى كيفيات تحقيق ما نريد ، وقلما نتحدث عن الشروط التى يجب توفرها حتى يصبح ما نحلم به ، ونرجوه شيئاً واقعاً وملموساً ... فمتى نحاول التحدث فى الممكنات والخيارات المتاحة والبدائل ؟!!

إننا يجب أن نباشر ما هو ممكن ومتيسر لنا . ونحن على يقين أن عمل ما هو ممكن اليوم ، يجعل ما ليس ممكناً اليوم ممكناً غداً ..

إن الكثيرين منا أصبحوا مأسورين فى معادلة سيئة مفادها أن : ما هو ممكن لا نريده ، وما نريده ليس ممكناً ، وبالتالي فنحن فى إجازة مفتوحة ، نمارس العطالة والبطالة .. " [1]

وهكذا .. نقع في متاهة لا نبصر.فيها تعلق الموجود بالمقصود ، فلا نري أن الموجود هو الذي يوصل إلى المقصود ، فنحقّر الوسيلة الموجودة ونضع من قيمتها ، وأما الوسيلة التي نتوق إليها ، ونري لها الفائدة والجدوى فإننا نرى أننا لا نمتلكها ، فالموجود غير مفيد في نظرنا ، والمفيد غير متوفر لدينا .. و لا فائدة من العمل فيما لا يفيد أو فيما هو غير متيسر. . ولذا فنحن في انتظار تدخل القوى الخارقة الغامضة الأسباب ..!!

إن حجم خطواتنا في الطريق لأهدافنا إنما يكون بقدر نجاحنا في استخدام ما نملك ، والاستفادة من المتاح ، و " عمل ما هو ممكن. مهما يكن ضئيلاً. وعدم الانتظار حتي تتحسن الظروف والإمكانات ؛ لأن مباشرة الممكن توسع دائرة العمل ، وتذلل عقباته .. " [2]، فإذا كنا لا نملك الآن ما يمكننا من الوصول إلى هدفنا ، فإن هذا لا يدفعنا أن نتوقف العمل حتى تتدخل القوة الخارقة الغامضة الأسباب لتوصلنا إلى هدفنا ؟!.. بل المطلوب منا هو العمل قدر الوسع والطاقة واستخدام الوسائل التي نملكها .. ومحاولة

---

[1] المصدر السابق ـ ص 38 ـ 46 ـ بتصرف يسير .
[2] عصرنا والعيش في زماننا الصعب ـ د. عبد الكريم بكار ـ ص 111 .

الوصول إلي أهدافنا من خلال التدرج خطوة خطوة.. والتخلص من أوهام الطفرة وضربة الحظ وتوقع التحسن المفاجىء ..

إن المجتمع لا يتحرر بقرار أو بمرسوم ، أو لأن طبقة معينة رأت أن تمنح العبيد ، كبادرة عطف أو منة منها ، طريقة جديدة للحياة .. بل قهر هذه المآسي يحتاج إلى تغيير ما بالأنفس ، والتمسك بالأمل في هذا التغيير..

فإذا شرعنا في بناء صرح حريتنا ، فلنجعل هذه اللحظة هي نهاية العبودية في ضمائرنا ، ودبيب الحرية في تلك الضمائر ، فنقوم بـ " تصفية عاداتنا و تقاليدنا ، و إطارنا الخلقي و الاجتماعي ، مما فيه من عوامل قتّالة ، و رُمَمٍ لا فائدة منها ، حتى يصفو الجو للعوامل الحية ، والداعية إلي الحياة . " [2] .. ونبدأ بما أمرنا الله أن نبدأ به عندما نريد أن نغير شيئاً ما ، ألا وهو ما بالأنفس ، فأكد في قرآنه { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } .

***

[2] مشكلة الثقافة ـ مالك بن نبي ـ ص 68 ـ بتصرف يسير .

الفصل الثاني

ثقافة النقد والحوار

في غياب النقد تضيع الفرص التي تدفع العقول أن تفكّر بحرية ، وتتيح للنفوس أن تشرق وتزدهر ، ومن ثم تترك لنا فراغاً في عقولنا ، وفراغاً في نفوسنا .. ومجموع هذه الفراغات يكون هاوية نقف علي حافتها .. ذلك أن الفراغ العقلي والفراغ الزمني هما شفرات حادة تحلق الأخلاق ؛ فتتحول الأرواح المشرقة إلي خرائب تعوي في خوائها نزوات الفجور .. وتقطع أوصال المجتمع ؛ فتترنح علي أرضه دعوات التواكل والعجز ..

ومن هنا ، فإن القيادات الحكيمة تتيح الفرصة لأفرادها أن ينطلقوا ويتحرروا ، لأنها تدرك أن من الرعاية ما قتل ، وأن من الظلال ما يمنع وصول الضوء للنبات فيموت .. وأنه لا يحق لنا أن نطلب من الطائر أن يحلق بحرية بعد أن وضعناه داخل قفص بدعوى حمايته من الطيور الجارحة التى قد يواجهها أثناء التحليق عالياً وبعيداً

إن الواقع يكشف لنا السراب ، ويبدد الضباب ، ويجلي الحقيقة المرة ساطعة ، وهي أن المناهج التربوية في مجتمع العبيد تضيق مساحة حرية النقد حتي أصبحت تساوي صفراً ؛ فتخرج للواقع عقولاً مستعبدة تتعلق بالأشخاص وليس بالأفكار ؛ فأصبح الحاكم ، وزعيم الحزب ، وشيخ الجماعة أو التنظيم ، مداراً يختنق فيه العقل الحر ، وتموت فيه المبادرة النافعة ، وتغيب عنه النصيحة الخالصة المجردة .. فيظن الأفراد أن العقل الحر الناقد المبادر ، هو أول ما يجب التنازل عنه قبل بدء مسيرة الطاعة تحت شعار " سلّم نفسك أولاً ، واهمس برأيك ثانياً " فيتعود أكثر الناس أن يسمعوا كثيراً ، ويحاكموا قليلاً .. ومن ثم تصبح قناعة الجاهلين منبعاً للعرفان ، وادعاء المتعالين رؤية وفهماً ، وتهور المتهورين إقداماً وقوة !!

إننا نقوم بتربية أبنائنا على بعض الشعارات والآداب .. لينقادوا لنا فيما سوى ذلك من شؤون الحياة انقياد الجاهلِ الذي لا يعلم ، والأعمى الذي لا يُبْصر .. ولا نُنشِئُ هذه الأجيال على فهم يجعلها قادرة على نقدنا إن أخطأنا ، ومعارضتنا إن أصررنا ، وإقصائنا إن انحرفنا ، وتجاوزنا إن عجزنا أو قصرنا ..

وهذا من نحتاج إليه في الحاضر والمستقبل .. ولا سبيل لنا إليه إلا أن نعالج هذا الواقع ، ليس بالحديث عنه أو الشعور به ، كما يتحدث المريض عن مرضه أو يظن أن الشعور به هو الدواء ، فالدواء الناجح ليس ذاك الذي يعالج أعراض المرض ، بل الدواء حقاً هو الذي يعالج السبب .. فالطبيب الذي يداوي مريضاً بالتيفود عبر تخفيض حرارته فقط دون إعطائه الدواء الذي يقتل ميكروبه لا يزيده إلا مرضاً .. وواقعنا يشبه ذلك الى حد كبير ، ولا يفيد معه أن نأخذ " حبة " ضد الاستبداد ، أو أخري ضد التعصب والجهل ..، بل لا بد من مواجهة جبال المشكلات ، ومحاولة إزالة بعض الأحجار من ركامها ، لنري مشاكلنا فى أشعة الشمس الواضحة ، والتى قد تكون محرقة بدلاً من أن تبقى تحت الأشعة فوق البنفسجية ، التى لا تُرى ، ولكنها قاتلة ..

إن الاستبداد لا ينتج إلا أفكاراً مستعبَدة .. والاستخفاف لا يقوم إلا علي نصوص الطاعة والخنوع " {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [الزخرف : 54] .. النصوص الخائفة المذعورة ،التي تري الاستبداد أمراً واقعاً ، فتصنع القابلية للاستعباد وتهيئ المجتمع للعبودية من خلال ..

• تعليم المقهورين

تتأثر الشخصية الإنسانية بدوائر كثيرة ، منها دائرة التربية فى المنزل ، ودائرة التعلّم فى المدرسة والجامعة ، ثم دائرة المجتمع .. وتتدرج هذه الدوائر فى حجمها وتأثيرها ، وغالباً ما تكون كل دائرة من هذه الدوائر مشروطة بفطام خاص له نتائجه وتأثيراته الخاصة .. فإذا ساد تلك الدوائر الجشع للتسلط ، والشهوة المتفلتة لإصدار الأوامر ؛ كانت الثقافة الغالبة هي ثقافة القطيع التي تضع مقاليد الأمور في يد شخص يسوق بقية الأفراد إلي حيث يري أو يريد ، وهذا امتهان للإنسان ، وقتل لطاقاته الإبداعية ..

وهذا ما يحدث من خلال التعليم في مختلف مراحله " فطرق التعليم ما زالت تلقينية إجمالاً ، تذهب في اتجاه واحد ، من المعلم الذي يعرف كل شيء ويقوم بالدور النشط ، إلى الطالب الذي يجهل كل شيء ، ويفرض عليه دور المتلقي الفاتر دون أن يشارك أو يناقش أو يمارس ، و دون أن يعمل فكره فيما يلقن ، وبالطبع فإن هذه الطرق لا تساعد على اكتساب التفكير النقدي الجدلي ، وبالتالي لا تكسبه الصيغ العلمية في النظر إلى الأمور ، لأنه في أحسن الأحوال يحفظ العلم دون أن يستوعبه .. كما أن عملية التلقين تمارس من خلال علاقة تسلطية : سلطة المعلم لا تناقش . حتى أخطاؤه لا يسمح بإثارتها ، وليس من الوارد

الاعتراف بها. بينما على الطالب أن يطيع ويمتثل .. بما يمثل حلقة من حلقات القهر الذي يمارس على مختلف المستويات في حياة الإنسان المقهور " [1]

وهكذا .. يسير التعليم في اتجاه واحد ، من المعلم الذي يقوم بالدور الحيوي الفاعل والنشط، إلى الطالب المراقَب والمحاصَر في جميع حركاته , والذي لا يعدو عقله إلا مركزاً للودائع الجاهزة سلفاً , و بالتالي يفرض عليه دور المستهلك السلبي لتلك الودائع ؛ بمعنى أن الطالب لا يهتم بالمعلومة ، بقدر ما يهتم باستنساخها وحفظها وتذكرها كما هي ، لحين موعد اختبار التذكر.. في صورة من صور التعليم يمكن أن نطلق عليها " التعليم البنكي " ، والذي يمثل المعلم مصدر المعرفة الوحيد ؛ فيكون هو الذي يتكلم ويشرح ، والطلاب يستمعون وينصتون ، وهو الذي يودع المعرفة في عقولهم ، وعليهم أن يخزونها ، وهو الذي يسأل ، وعليهم أن يجيبوا من مخزون ما أودعهم من رصيد المعرفة ، وإلا ألهبت سياط درجات الامتحان ظهورهم .. ومن يصبح هم المتربين هو مجرد أن يصبحوا قادرين على النجاح وتحصيل الدرجات ..!!

لقد أصبح التعليم قائماً علي " الخوف من الحصول علي درجات منخفضة .. الخوف من عدم الحصول علي مجموع الدرجات العالي .. مما أنتج طلاباً خائفين وجلين طول الوقت ، يجلسون في المحاضرة الدرس – إن هم ذهبوا للمحاضرة أساساً – غير منصتين أو مهتمين بما يمكن أن يقال ، لأن الهدف في النهاية هو الشهادة بأي ثمن وبأية طريقة ، لا يهم كيف حصل الطالب عليها ، أو مدي استفادته بما تعلمه في حياته فيما بعد ، وكنتيجة طبيعية لذلك يقذف لنا نظامنا التعليمي كل سنة بمئات الآلف من أشباه المتعلمين ، الذين نقلوا معهم خوفهم الذي تعلموه في المدرسة والجامعة ، خوف من الرؤساء والمديرين وأرباب العمل ، وتتكرر نفس الدائرة الخبيثة من تعليم فاسد إلي طلاب فاسدين إلي مجتمع فاسد " [2]

وتبقي العملية التعليمية قائمة علي " الشحن من الكتب والتفريغ على رؤوس الطلبة ، في صورة تقترب من الشروح والمختصرات التى حفل بها عصر الانحطاط الثقافي ، ويصبح الأكثر حفظا هو الأعلى علامة .. وحتي الرسائل العلمية العليا التى من المفترض لها أن تشكل طلائع ثقافية متقدمة لا تخرج بعمومها فى موضوعاتها عن هذه العقلية : الشحن والتفريغ .. [3] ؛ فتتحول العملية التعليمية إلي آلة اختبارات تقيس " تقدّم " الطالب من حيث استيعابه لأكبر كمية من المقررات المفروضة عليه ، والتي

---

[1] **التخلف الاجتماعي ـ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ـ د . مصطفى حجازي ـ ص 79 بتصرف يسير .**

[2] **أعراض مصرية ـ دراسة في أحوال المصريين المعاصرة ـ د . حسين الشرقاوي ـ ص 242 ، 243 .**

[3] **الظاهرة الغربية فى الوعي الحضاري ، أنموذج مالك بن نبي ـ كتاب الأمة ـ العدد 73 ـ ص 31 .**

تقدم له في صورة كبسولات معرفية جاهزة لا تعالج مشكلات التخلف المعرفي بقدر ما تقتل إمكانيات الإبداع ..!!

لقد " فطن المستبدون إلي أن هذا النمط من التعليم هو أحسن وسيلة للسيطرة علي هؤلاء الشباب .. فحينما تكون دوافع الشاب تافهة ومعرفته ضحلة ومعتقداته واهنة ومجالات اهتماماته محدودة ، حينئذ فقط تسهل قيادته وتوجيهه ، ويصبح معرضاً لتصديق وتمرير ما يملي عليه ، ويصبح مكرساً لخدمة المستبد والدفاع عنه ..!! ، بل إن مناهج التعليم تقوم بإعادة إنتاج النظام القائم وتثبيته وتكريسه ، فالتعليم الديني لإعداد المشايخ والوعاظ ، والتعليم العسكري لتزويد الجيش بما يحتاجه ، والتعليم العام لتخريج موظفين ومهنيين في الدولة." [1].. ويقبل الجميع أن يصبحوا تروساً في آلة النظام الجبارة ، بل ويلهثون أن يكونوا جزءاً منها ..!!

وهكذا .. يقوم التعليم في مجتمع العبيد بإجهاض أية فرصة " يؤكد الفرد فيها ذاته ، ويعلمه أن يكون صامتاً ، ليس فحسب عندما يوجه إليه اللوم ، بل عليه أن يتعلم أيضا إذا دعت الضرورة أن يتحمل الظلم في صمت " [2] ويقبل العبودية دون احتجاج .. يشكر الجميع دائماً ويكثر من الاعتذار للآخرين .. يسكت إذا غشّه الآخرون في البيع ، ولا يردّ على أحد إذا ضربه في الشارع .. وباختصار لا يدافع عن نفسه ضد أي مخلوق مهما بالغ فى إيذائه ..!! [3]

ولا شك أن بداية الخروج من هذه الدائرة التربوية النكدة لن يكون إلا من خلال " تحويل التربية إلى مشهد نقدي يقظ دوماً .. مشهد يراجع بروح الشك كل اليقينيات ، ويكتب بلغة التساؤل كل الإجابات، لتعود الأشياء إلى وضعية البحث ، ما يجعل التربية شهقة اندهاش وصرخة رفض ، وممارسة للتساؤل حول كل شيء .. ذلك أن أكثر ما يزعج المستبد هو إنسان يسأل .. وأكثر إزعاجاً منه إنسان يسأل ويفكر.. ويصل لحدود اللعنة، من يحلم ويتخيل ، فلا شيء أكثر إزعاجاً للمستبد من الخيال " [4]

إن بعض سبل ومسارات حب استطلاع المتعلم غالباً ما تكون بكراً ، ولكنها حُبلى بالأفكار والتساؤلات التي لم تخطر على بال المربي من قبل .. ولذلك فإن من الخطأ أن يقوم تعليمنا على تقديم الإجابات بشكل منفصل عن السؤال الذي يثيرها ، بل الواجب أن تقوم عملية التعليم على المنهج الحواري الذي يشجع فضول المتعلم ورغبته في المعرفة ، والتساؤل الرحب والتفاعل لحقيقي – لا

---

[1] **أعراض مصرية ـ دراسة في أحوال المصريين المعاصرة ـ د. حسين الشرقاوي ـ ص 221**
[2] **الطاغية ـ د . إمام عبد الفتاح إمام ـ ص 288 .**
[3] **مثله الأعلى فى السلوك : تبيت مظلوما ولا تبيت ظالما .. وتمشى دائما جنب الحائط ..!!**
[4] **الرحلة إلي الذات ـ عصرنا والعيش في زماننا الصعب ـ د . عبد الكريم بكار ـ ص 317 .**

الصوري – بين المعلم والمتعلم [1].. ذلك التفاعل الذي يرتكز على حق الحوار والحديث " مع " المتعلم ، لا الحديث " إلى " االمتعلم .. " وعرض الأفكار المتناقضة أمام المتعلم ، وتدريب عقله علي استيعاب مسافات الفروق ..!! " [2]، والتخلي عن الأساليب العقيمة في التعليم ، والتي تقوم على التلقين والاستظهار والاجترار ..

إن علي المربين أن يتفهموا " معنى لحظة الصمت أو الابتسامة ، بل حتى تلك الحالة التي يريد فيها المتربي ما أن يترك مجلسهم ، أو حين يُلقي سؤالاً بطريقة مستفزة بعض الشيء ، فحوار التربية هو نصٌ يجب قراءته باستمرار ، وتفسيره ، وكتابته ، وإعادة كتابته " [3] حتي يمكن دفع المتربي من خلال قناعاته الحرة إلي ممارسة التعلم القائم علي الفضول المعرفي الذي يدفعه للتساؤل ، و يحمله علي تأمل الأفكار ، ومحاولة التدخل لترشيدها ؛ فيعرف ما لم يكن يعرفه ، ويقوم بتعليم غيره من خلال الأسئلة التي هي التعبير عن الألم في لحظة تحوله إلي أمل ، و عن الصرخة في لحظة تحولها إلى إرادة حرة .. ومن ثم يتحول التعليم إلي قوة محررة ، تُخرج جيل الحرية من خلال ..

- ## تربية الأحرار

ليست التربية " بناء يتطلب بضعة أشهر أو بضع سنين ثم يعقبه استجمام واسترخاء ، وليست وضع البذور في أرض على رجاء مطر يجيء أو لا يجيء . ولا جهد وراء ذلك .. كلا ، إنها بذر وسقي وتعهد ، ومطاردة للحشرات والأوبئة ، ومتابعة صاحية حتى أوان النضج ..!! " [4].. إنها هي عمل يستغرق العمر كله منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل ..!!

وليست " التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع .. وليست هي نتاج المتعالمين الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم ، دون أن يلموا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع.. أو أولئك الذين يعرفون جميع المبادئ والتعاليم التي جاءت في الإسلام ، دون أن يستطيعوا تطبيق مبدأ أو تعليم واحد لتغيير أنفسهم أو تغيير واقعهم .. فكل حقيقة لا تؤثر في حياة الإنسان ، هي

---

[1] لم أجد وصفاً لفضيلة التساؤل أدق من مقولة " السؤال نصف العلم " حيث العلاقة بين السؤال والجواب ، والمشكلة والحل ، والفراغ والامتلاء .

[2] الكلمة لـ " برتراند راسل " .

[3] تربية الحرية – الأخلاق ، الديمقراطية ، الشجاعة المدنية - باولو فريري - ص 147 بتصرف يسير .

[4] الحق المر– محمد الغزالي – ج 2 - ص 284 ، 285 بتصرف .

حقيقة ميتة .. وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين ، هي كلمة فارغة ، كلمة ميتة مدفونة في نوع من المقابر ، نسميه الكتب ..!! " [1]

ولا يمكن أن تكون تربية صحيحة ، تلك التي تنظر إلي المعلم علي أنه خبير ، بينما تري المتعلم قوقعة نفسية فارغة ، بل تكون " التربية عندما يكون متعلمان اثنان ، يشغلان مكانين مختلفين إلى حد ما في حوار مستمر ، غير أن كلاً من هذين المشاركَين يضفيان المعرفة على هذه العلاقة . ومن أهداف العملية التعليمية استكشاف ما يعرفه كل واحد منهما ، وما يمكن أن يُعَلِمه الواحد منهما للآخر . أمّا الهدف الثاني لتلك العملية فهو تعزيز التأمل في الذات باعتباره فاعلاً في العالم نتيجة للمعرفة التي تم التوصل إليها."[2] ، فالتربية عملية تفاعلية " و الآباء والأساتذة لا يشكلون الطرف الذي يربي فقط ، كما أن الأبناء لا يشكلون الطرف الذي يتربي فقط كما يظهر للوهلة الأولي ، فكل واحد منهما يربي ويتربي في آن واحد "[3].

و لا بد أن يشعر المربي أنه بينما يقوم بتربية الآخر ، فإنه يتربي هو أيضاً ، فالمتربي يقوم بتربية المربي ، فهي عملية متبادلة بين المربي والمتربي .. ولا بد فيها من أن ينتبه المربي أن ما يقوم به يساعد من يربيهم ولا يعترض سبيلهم في البحث عن المعرفة .. ومن ثم يدفع المتربي إلي إشهار رأيه والاعتزاز به ، لأن المتربي حين يجد أن هناك من يطلب رأيه ، أو على الأقل يقبل سماعه ومحاورته ؛ فإنه يتحمل عناء البحث والتفكير في المسألة التي يريد الآخر رأيه فيها .. وبذلك تتحول التربية إلي قوة محررة ، تخلق المعرفة النقدية ، والقدرة على حل المشكلات من خلال الثقة بالنفس ، ومشاركة الآخرين في ذات الوقت ..

إن الاعتراف الحقيقي بالإنسان . أي إنسان . يبدأ من الاعتراف بكلامه ؛ ولذلك فإن من أوجب واجبات المربين أن ينتبهوا قبل كل شيء ألا يحطموا إرادة من يربونهم ، أو يئدوا طاقة الحرية عندهم ، بل عليهم رعايتها وصياغتها والقيام بتوجيه تلك الإرادة لا كسرها ، من خلال حديثهم عن العزة أكثر من حديثهم عن الطاعة .. عن الشجاعة أكثر من التواضع .. عن العدل أكثر من الشفقة .. لأن هذه الأجيال التي تتربى على العزة والكرامة هي وحدها التي تستطيع أن تقف على قدميها بثبات .. وتمضي في طريقها دون تردد ودون أن تلتمس الإذن من أحد ، فنهضة الإسلام لن تكون إلا على أيدي الشجعان الثائرين لا العبيد المطيعين !!

---

[1] **ميلاد مجتمع – مالك بن نبي - ص 99 ، 100 بتصرف .**
[2] **تربية الحرية – الأخلاق ، الديمقراطية ، الشجاعة المدنية – باولو فريري - ص 50 .**
[3] **خطوة نحو التفكير القويم - ثلاثون ملمحاً في أخطاء التفكير وعيوبه - د . عبد الكريم بكار - ص 85 ، 86 .**

إن التربية تعني أن نُشكّل من أمامنا ، ولكن هذا لا يعني أن نتصرف كما لو كانت الحقيقة ملكاً لنا وحدنا ، فهذا أمر لا ينافي العقل فحسب ، بل هو أمر زائف أيضاً .. والمربي الصادق يؤكد لمن يربيهم أن هناك بعض الأشياء التي يعرفها ، وبعض الأشياء التي لا يعرفها ، فهو علي قناعة تامة أنه كائن ناقص ، وأنه يجهل الكثير الذي عليه أن يحاول معرفته من خلال الانفتاح على الآخر .. وأنه ليس هناك " سبب يجعله يخجل من وجود شيء لا يعرفه ، لأن الانفتاح على الآخرين ، وامتلاك فضول لا نهاية له نحو الحياة وتحدياتها ، هو أمر ضروري للممارسة التربوية ، كما أن من واجب الإنسان أن يعيش هذا الانفتاح نحو الآخرين باحترام ، ويتأمل هذا الانفتاح من حين إلى آخر " [1]

إن المربي يجب أن يفتح نفسه على عالم المتربين الذين يشاركهم الممارسة التربوية ، بل يجب أن يكون مُلِماً بطريقتهم في الحياة ، ومحاولة التعايش معها . وإن خالفته . وتنمية الحب لهم ، وتوفير الرعاية بتوازن يحترم فضولهم دون بتره من خلال تلميحات أو توجيهات غير ملائمة .. ومحاولة سد الفجوة بينه وبينهما ، ليس بالهذيان ، أو بالنقد الساخر المتعصب ، لأنهما عديمي التأثير .. وإنما من خلال التأكيد علي أن الحرية حُلم يستحق التضحية من أجله ..

إن أخطر ما يواجهنا مع الشباب عند إطلاق طاقاتهم هو شعورهم بالتعالي ورغبتهم فى قطع علاقاتهم بمن علموهم بدعوى أن هؤلاء ليس عندهم جديد ..!!وهم فى ذلك يشبهون إلى حد كبير من تعلّم قيادة الطائرة ، فقرر التخلص من معلمه بعد أن حلّق بالطائرة منفرداً ، بينما هو على الحقيقة لم يتعلّم بعد ، كيف يهبط بها ؟

إننا إن أردنا لأبنائنا تربية صحيحة ، فلا بد أن نربيهم على تذوّق طعم الحريّة فى تعاملاتنا معهم ، وفى تعاملاتهم مع الغير ، فإذا دعاهم داعي الاستعباد والذل أن يتخذوا من المستعبدين قدوة لكي يحصلوا على المال والسلطة ، قال قائلهم : هذا أمر لا تقدر أن تنصحنا فيه ، فأنت جربت نعمة الاستعباد " مالاً وسلطاناً " .. ولكنك لا تعلم شيئاً عن نعمتنا التى نحن فيها .. لقد ذقت حظوة الملك .. وأمّا الحرية فلست تعرف ما مذاقها ولا مدى عذوبتها .. ولو عرفت مذاقها لكانت نصيحتك لنا : دافعوا عن حريتكم ليس بالرمح أو الدرع ، بل بالأسنان والأظافر ..

إن التربية الحقيقية لا تُقلّص أبداً من الحرية ، بل تكرّس نفسها للانضباط الذي تمثّل الحرية فيه ضرورة وتحدّ في ذات الوقت .. فالحرية الأصيلة في هذا السياق – بما فيها حتى حرية التمرد – لا يمكن النظر

[1] **تربية الحرية ـ الأخلاق ، الديمقراطية ، الشجاعة المدنية – باولو فريري ـ ص 177 بتصرف .**

إليها على أنها إخلال بالانضباط ؛ لأن الانضباط الحقيقي لا يتمثل في صمت مَنْ فُرِضَ عليهم الصمت ، بل هو يتمثل في أنشطة مَنْ يواجهون التحدي ، وفي شك من جرى تعليمهم ، وفي آمال من تم بالتربية إيقاظهم !!

ولكي نصل إلي هذا الهدف ، لا بد من رؤية نقدية للمجتمع الذي ننتمي إليه ، فلا ننغلق علي ذواتنا ، ولا نندمج في السائد والرائج ، وإنما نأخذ من التجارب المتنوعة بلا عقد ولا حساسيات ، لنناقشها ونسائلها من منطلق الفهم والتفهم والثقة بالذات والقدرة على الفعل ، لأننا لن نمارس دورنا السياسي الاجتماعي ، ما لم ندرك أن هذا الدور لا بد أن يكون ضد المستبدين ..

" إن التربية الإسلامية الصحيحة هي التى أنجبت فى عصور التطبيق الإسلامي أفراداً تثور ثائرتهم على الولاة المقربين ، إذا هتكوا حرية أحد الرعية الذميين ، وتنفجر قداسة الحرية على ألسنتهم : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. فى الوقت الذي تعمل سياطهم تأديباً لمن اغتصبوا هذه الحريات ... وحين هجرت التربية الإسلامية رعاية " قيمة " الحرية ، مرّت على الأمة قرون كاملة من اغتصاب الحريات دون حس أو شعور " [1]

إننا حين نمارس تربية الحرية على مدى عدة أجيال ننزع جذور التسلط ، فتتداعي شجرة الاستعباد كما تتساقط أوراق الخريف ، فتعود شجرة الحرية من جديد ، وتورق خضراء طيبة في ربيع الحياة وتكون حركتنا علي أساس الحرية ضمن النظام ، والمبادرة مع الانضباط ، والتنفيذ وليس الجدل ، وتفجير الطاقات ، وليس التبرير .. وهي أهداف لا يمكن الوصول إليها إلا في ..

● أجواء الحوار

لكي يأتي الأطفال إلي هذه الدنيا " لا بد من زواج بين رجل وامرأة ، وحتى يرى الحيوان ذريته من أي نوع ، لا بد من زواج ذكره بأنثاه ، وحتى يتم إثمار النبات ، لا بد من اللقاح والزوجية ، فـ " ولادة " البشر ، و " تكاثر " الحيوان ، و " إثمار " النبات ، يتوقف كله على التلاقح والزوجية .

وهذا القانون ينطبق أيضاً على الأفكار ، فكما أن كل إنسان له أب وأم ، كذلك كل فكرة ، لها آباؤها وأمهاتها .. وكما أن شروط الزوجية هي أساس الخصب ، كذلك تبادل الأفكار واللقاء "[2] .. والحوار هو أساس التواصل ؛ فليس هناك تواصل دون حوار .. والحوار ظاهرة إنسانية ، تشمل جميع الناس ،

---

[1] مقومات الشخصية المسلمة – د. ماجد عرسان الكيلاني – ص 74 .
[2] في النقد الذاتي – خالص جلبي - ص 96 ، 97 .

تجمع بين الفكر والعمل .. ومن ثم فهي شرط أساس لانسانية الإنسان ، ووسيلة تبادل التعليم بين اثنين، و ليس وسيلة تكتيكية غايتها ترويض الآخر .. ذلك أن خبرة الانفتاح على الحوار مع الآخر تؤدي بنا إلى معرفة نقصنا ، والوعي بهذا النقص هو في ذاته قوة دافعة للحياة ، بل الحوار هو الحياة ..!![1]

إن الحوار المبدع و المثري يقبل الحرية و يرفض التضحية بها ، بل هو الذي يعمقها و يؤدي إلي تدعيمها و توسيع آفاقها و طبيعتها حتى تصبح قاعدة الوعي و غاية له في الوقت نفسه . و هذا يتنافي مع منطق الحرب الكلامية ، و منطق التصفية المتبادلة و الاتهام المغرض و الدسيسة التي تغذيها الصراعات الإيديولوجية والسياسية. و هو يفترض الإجماع علي فتح " مناطق حرة " للثقافة ، يخضع فيها الجدال للعقل ولـ" قوانين" النقاش الموضوعي ، و يرفض توظيف كل حوار ، بل كل كلام ، لمصالح سياسية أو سلطوية .

و من هنا نحن نقول إن غاية التغيير لا بد أن تكون تحرير العقل ، و توسيع دائرة النقاش و الحوار العقلي . و أي سياسة ثقافية تقوم علي قتل الحوار ، فإنها تفضي بالضرورة إلى إلغاء الوعي ، و إلغاء الثقافة كنبع للإبداعات و التجديدات الذاتية ، و تغلق بالتالي أفق أي تغيير فعلي . " [2]

ومن هنا ، فإن التربية الصحيحة تضع المتربي في أجواء حوارية توفر له كل شروط الاستقلال والتحرر, وتستفز عقله، وتحدث فيه نوعاً من الحراك الذهني, وتدفعه إلي الابتكار والإبداع ، " ففي الجدل الحر وحده ، وفي النقاش ، يتبين الصحيح من الآراء والمعتل . والجدل في الطعام الفكري مضغ له، وأنت لا تبلع الخبز أو اللحم قبل أن تمضغه وأن تستمرئه ، وكذا لابد من مضغ الرأي واستمرائه ، بالجدل الحر قبل بلعه ." [3] حتي يمكن غربلة الحقيقة ، وتخصيب العقل ، حتى لا يصح فى النهاية إلا الصحيح ، ولا يثبت إلا الصواب .

إن " بعض الناس عندما يسمع أي فكرة أو تصور لا يرهق عقله في التعرف علي دقائقها وعلي جوانب الفائدة فيها أو إمكانية تطويرها والبناء عليها ، وإنما يصبح همه وشغله الشاغل أن ينقد هذه الفكرة بفكرة أخري مضادة ، فيبدأ في البحث عن العيوب في الفكرة التي أمامه دون أن ينتبه للجانب الإيجابي فيها ..

---

[1] لمزيد من دراسة ضوابط الحوار وأساليبه ومعوقاته ، راجع إن شئت " سلسلة مقالات للمؤلف ، بعنوان " لمحات في فن الحوار " منشورة بالأعداد 87 ، 88 ، 89 من مجلة البيان .

[2] اغتيال العقل بين السلفية والتبعية – برهان غليون - ص 305 .

[3] الحرية - د . أحمد زكي - ص 38 .

ويتعجب المرء ما الذي يضيرهم لو قلبوا الأفكار المعروضة عليهم ذات اليمين وذات الشمال ؟ فما كان فيها من خير يتم التركيز عليه وتنميته ، وما كان فيها من خطأ تتم مراجعته وتصويبه ؟! " [1]

إننا قد نري " ابناً يختصم مع أبيه، أو أخاً يختصم مع أخيه ، أو صديقاَ مع صديق.. وتحتد الخصومة بينهما علي أمر ، لا يزيدهما النقاش فيه إلا بعداً ، وينتهي الأمر بافتراق أو ما يشبه الافتراق، فإذا أحدهما. ويغلب أن يكون الأصغر سناً. يحسم النزاع فيصرخ قائلاً : أنا حُر أفعل ما أشاء ...

والحق أن الالتجاء إلي الحرية في آخر أي نزاع يعطي صاحب الخصومة مظهراً من مظاهر النصر يسمعها السامع فيميل بطبعه إلي مناصرة من يصرخ بها ، لا سيما إذا هو لم يكن قد تابع مجري النقاش من أوله إلي آخره !! " [2] ولكن الصواب أن نرفض مناهج الحوار التي تهدف إلى إسكات الحرية من خلال التحدث " إلي " الآخر وليس " معه " ..

ولكي نصل إلي هذا الهدف ، لا بد من تنمية " الصمت " من طرفي الحوار . المتحدث والسامع . وذلك من خلال محاولة الطرفين " التحكم في المطالبة بالتحدث " .. فأياً من كان لديه شيء يستحق القول ، فمن واجبه أن يقوله . ولكن عليه أن يعلم أنه ليس الوحيد الذي لديه أفكار وآراء يريد التعبير عنها ، بل أكثر من ذلك ، عليه أن يعي أنه من المحتمل أن رأيه لن يكون هو الحقيقة الوحيدة التي يشتاق إلى معرفتها عامة الناس . وبالإضافة إلى ذلك ، عليه أن يعي أن لدى المستمع أيضاً ما يقوله ، وإذا لم يضع هذا في حسبانه ، فإن حديثه – بغض النظر عن مدى صحته وإقناعه – لن يقع على آذان مصغية " [3].

إن فن الحوار هو الإصغاء أكثر من الحديث ، في محاولة لاكتشاف المتكلم ، ذلك أن اكتشافه هو المرحلة الأولي التمهيدية لمخاطبته ، لأن السماع الكامل للآخر ، وإعطاءه الفرصة حتى يُتم كلامه ، مع استوضاح أي غموض فيما يعرضه من أفكار.. هو السمة المميزة لكل حوار حضاري .. فإذا تبين لنا خطأ الآخر ، فإن السماع الكامل له وعدم مقاطعته هو المقدمة الصحيحة لرجوعه عن الخطأ مهما كان عناده وغلظته ؛ فإن أشد الناس جفافاً في الطبع ، وغلظة في القول لا يملك إلا أن يلين وأن يتأثر إزاء مستمع صبور عطوف يلوذ بالصمت إذا أخذ محدثه الغضب .

" إن أهمية الصمت في سياق عملية التواصل ، هي أهمية قصوى ؛ فهو يتيح للمتحدث – من جهة – مكاناً أثناء الإصغاء للتواصل اللفظي مع شخص آخر ، ويسمح له أن يدخل في الإيقاع الداخلي لفكر

---

[1] إستراتيجية الإدراك للحراك ـ د. جاسم محمد سلطان ـ ص 149 ، 150 ـ بتصرف يسير .

[2] الحرية ـ د. أحمد زكي ـ ص 43 ، 44 .

[3] تربية الحرية – الأخلاق ، الديمقراطية ، الشجاعة المدنية – باولو فريري ـ ص 163 بتصرف يسير .

المتحدث وخبرته ، تلك النغمة التي هي بمثابة لغة . ويمكن الصمت المتحدث . من جهة أخرى . أن يسمع السؤال ، والشكوك .. " [1] في جو حواري مفعم بالرغبة في المعرفة وبالقلق ، و مفعم بالاحترام المتبادل بين أطراف الحوار الفاعلة التي يعرف كل طرف فيه أنه لا يطرح التساؤلات لمجرد أن يبدو " حياً " أمام الآخرين ..!!

إننا لا نتعلم عندما نتكلم ، بل نتعلم فقط عندما ننصت ونرى ونمارس .. ومن هنا فإنه من الواجب أن نتدرب . ليس علي كيفية التحدث . بل علي كيفية التوقف عن الحديث " إذ ليس المهم رمي رسالة ما ، لكن المهم هو تلقي جمهور المستمعين لها . فإذا كان لدينا طرد يتعين علينا تسليمه ، ولم نجد العنوان الصحيح للشخص المرسل إليه هذا الطرد ، فإننا لا نقوم بالتخلص منه وتسليمه لأي شخص ، بل نحتفظ به ونسلمه في وقت آخر مناسب إلى العنوان الصحيح كي نضمن وصوله إلى صاحبه " [2]

" إن العلاقة الحوارية هي دليل على عملية معرفية ، إنها ليست معروفاً أو تفضلاً ، ولا يجب أن نخلط بين الجدية الحوارية والاستسلام للبحث النقدي المنهجي ، الذي يقدمه أستاذ ما والطلاب منصتون إليه وكأنهم " يلتهمون " ما يقول ، بل يفهمون ما يفكر فيه .

وعلى الرغم من أن الأشياء لا يمكن أن تكون مطلقاً على شاكلة البيئة نفسها ، التي توجد فيها ، وإنما هي أشياء في حد ذاتها ، فإننا نستطيع أن نتحدث عن " الجو الحواري " .. هناك حوار خفي ومسبق ، لا يحتاج فيه المرء أن " يصطنع " الأسئلة . والمربون بحق " ليسوا " حواريين من وحي اللحظة ، ولكنهم حواريون بحكم طبيعتهم ، وإحدى مهامهم الأساسية في مجتمعنا إشاعة هذا الجو الحواري .

والتجربة الحوارية هي أساس بناء الشغف المعرفي ، ويتضمن الحوار أيضاً موقفاً نقدياً ، إنه يتضمن الانشغال بعلل وجود الأشياء ، التي تعكس موضوعات الحوار . " [3]

لقد أَلِف الكثيرون من أفراد مجتمع العبيد أجواء غير طبيعية من القولبة المصطنعة ، والعسكرة الغالبة في صورة من الشكلية والمظهرية الشرعية ؛ فأصبحت المناقشة الوحيدة الممكنة في مجتمع الاستبداد " هي تلك القائمة علي خوض حرب إيديولوجية بكل ما تعنيه كلمة حرب من معني. فالحرب تقضي باستعمال جميع الوسائل الممكنة لإخراس صوت الخصم ودحره والقضاء عليه ، سواء جاء ذلك بالحجة العقلية أم بالدسيسة أم بالخديعة السياسية أو بالآلة العسكرية. فليس من منطلق الحرب الوصول إلي تفاهم من

---

[1] المصدر السابق ـ ص 162 بتصرف يسير .

[2] دليل التدريب القيادي ـ هشام الطالب ـ ص 165 بتصرف يسير .

[3] تربية القلب في مواجهة الليبرالية الجديدة ـ باولو فريري ـ ص 162 ، 163 .

خلال تبادل الآراء و موازنة الحجج و الوقائع، بل هو يفترض انهيار هذا التفاهم و اللجوء إلي كل ما من شأنه تحقيق التفوق علي الخصم و إثبات القوة و حماية النفس. فالحجج الوحيدة المقبولة في الحرب هي الطعنات الموجهة للآخر.

و من مستلزمات هذه الحرب رفض كل مناقشة داخلية أو مراجعة ذاتية لأن ذلك يهدد بإضعاف معسكر الصديق وإضفاء شرعية ما علي قضية الطرف الآخر. إن استمرار المعركة يفترض بالعكس وأد النقاش الداخلي و تسعير العداء للخصم و تغذيته علي الدوام بإبراز صورة هذا الأخير الشيطانية و التركيز علي عناصر التمايز و التباين و الخلاف . و قد يصل ذلك إلي درجة من التمييز شبه العنصري الذي يجعل كل طرف غير قادر علي تصور الطرف الآخر أو الإنصات إليه, كما يجعله قانعاً بأن لا حياة له إلا بتصفية خصمه أو إخراجه تماماً من المعركة. و من الواضح أنه كلما تعمّق الخلاف ، زاد منطق الحرب رسوخاً ، وأصبحت المعركة هي مصدر شرعية القضية و قاعدة إثبات وجودها و صلاحيتها .. !! " [1]

ولا شك أن هذه " الروح الزاجرة للحوار والمتحاورين والمثبطة للنقاش والمتناقشين والداعية لـ "الطاعة المطلقة " للقيادة ليست من الإسلام في شيء ، فالذي يتأمل القرآن يجد دروباً من " الحوار " : حوار بين الله والإنسان ، وحوار بين الإنسان والأكوان ، وحوار بين الإنسان والإنسان ... { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً } [الكهف37] .. {فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً } [الكهف34].. أمّا الروعة فكانت الحوار الذي دار بين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وربه : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة260].. وكذلك حوار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وربه ، قال :{ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ } [الأعراف143 143 .] " [2]

إن البعض لا يتصور الخلاف في الرأي إلا في صورة " النزاع " ، فيتبادل فيه الجهل مع من يحاوره .. ومن ثم ترتفع الأصوات ، و يعمّ الصخب ، وتتفشي المهاترة ؛ فيتوقف العقل عن المتابعة ، لتتحول الحنجرة والحبال الصوتية إلي حجة ، وتصبح تخانة الصوت تعويضاً عن عمق الحجة وقوة البرهان ..!!

ولا سبيل إلي الخروج من هذه السلسلة من الأخطاء إلا أن نؤمن أن من حق كل إنسان أن يكون له صوت مسموع ، وأن يعبّر عن خطابه النقدي بطريقة أو بأخرى ، وأن نتحرر من ثقافة القهر ، لنصل إلي مرحلة أن نقول لمخالفنا " أنا لا أوافقك علي أفكارك ، ولكني سأدافع عن حقك في عرض هذه الأفكار "

---

[1] اغتيال العقل بين السلفية والتبعية – برهان غليون – ص 41 .
[2] الحركة الإسلامية ـ ثغرات في الطريق ـ د. عبد الله النفيسي ـ ص 20 .. موقع د. النفيسي *www.alnefisi.com*

.. فإن فعلنا ذلك فإنا قادرون . بإذن الله . أن نتجاوز ثقافة القهر و الصمت ، لنمارس الحوار الذي يقوم علي النقد الذاتي في صورة ..

• مراجعة لا رجوع

في تربيتنا الأسرية وفي مناهجنا الدراسية وفي طرق التعليم والتربية ، وفي إدارة مؤسساتنا من أدناها إلي أعلاها نبعد كثيراً عن ثقافة النقد [1] ، بل نعتبرها خروجاً عن الطاعة وخروجاً علي الإجماع وربما سوء أدب أو سوء أخلاق أو خيانة أو تمرد ..!! "[2]

وإذا ذكرت كلمة " نقد " غلب على أفهام الكثيرين أنها ترادف كلمة " تشهير " أو " تجريح " ، ولذلك نجد أن عملية " النقد " في مجتمع العبيد هي عملية غير رائجة ، بل تُوَاجَه في كثير من الأحيان بلون من " التشنج " الفكري الذي يتهم من يقوم بالنقد بأنه خائن أو مرتد ..!! وهذا في حقيقته كارثة كبرى ؛ فكلنا نعلم أن قائد السفينة لا يكفيه أن يقلع في اتجاه هدفه ، بل يجب عليه " مراجعة " مساره على طول الطريق، فإذا عدّل مساره لتفادي الهلكة لم يشعر أبداً أن ما يقوم به هو " رجوع " عن هدفه .. فالفارق بين الاثنين كبير ، بل العلاقة بينهما علاقة تضاد .. فالـ " مراجعة " عقلانية ناقدة ؛ العقل يراجع حصاده ناقداً ذاته. . وأما " الرجوع " فهو وجدان وحنين إلي رحم الأم أو حضنها .. والمراجعة توتر وتوثب يقظ ، وتأهب لحركة وعزم معقود. . والرجوع حلم وطمأنينة وسكون وتسليم . . المراجعة النقدية إعمال للعقل في سبيل بناء الحاضر والمستقبل بناء إبداعياً . . والرجوع استسلام للماضي ، وأسي علي مفارقته . . المراجعة نقد للحاضر والماضي تأسيساً علي إنجازات وفعالية الذات الجمعية ، مع تطلع إلي المستقبل في ضوء فكر جديد ، ومسئولية إزاء الفعل والفكر الجديدين .. والرجوع خصومة مع الحاضر ، واغتراب أبدي في الزمان وانفصام بين فعل مهيض ، وفكر محلق في فراغ الأمنيات !! " [3]

إن " المراجعات تعني . عند البعض . المشاحنات حول من المخطئ و من المصيب ، و لا تعني عملية التطوير، و عملاً جاداً لمعرفة مدي التقدم أو التراجع .. ربما لأن هذه المراجعات و الأرقام مؤلمة للنفس البشرية التي ترفض إلا الاعتراف بالإنجازات و الحسنات ، ولذلك يفضل البعض . في مجتمعات العبيد . السير من غير علامات ، أو يقوم بتقييم الأمور انطباعياً ..!!

---

[1] لو كان الأمر بيدي لجعلت " الفكر النقدي " وكيف يمارسه الإنسان ، مادة فى كل مدارسنا ، لأن من لا يتقنون ممارسة الفكر النقدي لا يكونون إلا عبيداً ، أو في أحسن أحوالهم قاصرين عن ممارسة حقوقهم السياسية ..!!

[2] علم النفس السياسي ـ رؤية مصرية عربية ـ د . محمد المهدي ـ ص 147 ، 148 بتصرف يسير .

[3] الفكر العربي وسسيولوجيا الفشل ـ شوقي جلال ـ ص 31 بتصرف يسير .

ولا شك أن هذه الانطباعية تؤثر كثيراً علي الأداء العام للعمل ، بل هي محبطةٌ في أحيانٍ كثيرة ، و في أحيان أخري يكتشف الناس بعد عشرات السنين من الانهماك في العمل أنهم لم يغادروا أماكنهم ، و لم يحققوا أهدافهم التي أرادوها . " [1]

إننا ـ بكل أسف ـ نمدح أنفسنا إلي حد السفه ، ونكذب حتى نصدق أنفسنا ؛ فذاتنا مبرأة من العيوب فوق الخطأ ودون النقد .. ومن ثم فإن من أشد ما تعاني منه عقولنا عدم الاستعداد لنقد الذات ومراجعة المسار وتدارك الأخطاء ، وذلك استناداً إلي أن الإنسان عليه بذل الجهد وليس عليه إدراك النتائج ..

ولا شك أن هذا الخلط بين قدرية النتائج وحدوثها بقدر الله ومشيئته وقتما يشاء ، وبين المراجعة والنظر في الخطة والتصور ومجال الأخطاء ، هو خطأ فادح لا يغتفر ، فالله تبارك وتعالي أجاب المسلمين لما تعجبوا من هزيمتهم في غزوة أحد بقوله :{ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ } [سورة آل عمران : 165]، أي راجعوا سلسلة القرارات والأعمال التي قمتم بها وستدركون مواضع الخلل والقصور . " [2] .. فالمراجعة أداة نفض للوعي كي يبقى نشيطاً حياً .. وأداة يقظة للإرادة لتصر علي التغيير للأفضل ..

إننا كبشر نؤدي أعمالنا بدون ملاحظة أنفسنا أثناء ذلك ، وهذا يمثل من دون شك تحديداً لقدراتنا ، لكن الله سبحانه وتعالى عوّضنا عن هذا التحديد بأن جعل المؤمنين مرآة بعضهم لبعض . ومن خلال إخواننا يمكننا أن نراقب أعمالنا عندما نؤديها .

إن الإنسان الحكيم يستفيد من النقد الموجّه إليه وذلك بتصحيح الأخطاء التي يراها الآخرون فيه ولا يلحظها هو . وفي الحقيقة ، فإن الصديق المخلص الذي ينقل النصيحة يعدّ صديقاً لا يمكن الاستغناء عنه في هذه الحياة . وقد دعا عمر رضي الله عنه ربه مرة فقال : " رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي " .. " [3]

إننا أحياناً نملك تميزاً عن مجتمعاتنا المتخلفة بفكرنا وعقيدتنا ، ولكننا ـ بكل أسف ـ نشارك تلك المجتمعات بممارساتنا وأعمالنا ، فترانا نغلق أبواب النقد والمراجعة ، ونوقف عمليات المناصحة والتقويم ، لتسود حياتنا عمليات التبرير والإطراء والمديح ، ومن ثم تتكرر الأخطاء ، دون أن نمتلك قوة المراجعة التي تدفعنا للتصويب والصواب .. فيصبح حالنا كحال تلك الأم " التي تصل غيرتها ومحبتها لوليدها الوحيد إلى عدم تقويم سلوكه وتربيته على تحمل المسؤولية ، حفاظاً على شعوره فتصنع

---

[1] **في الصراع و التدافع الحضاري – د . جاسم محمد سلطان ـ ص 167 بتصرف يسير .**
[2] **إستراتيجية الإدراك للحراك ـ د . جاسم محمد سلطان ـ ص 152 ، 153 بتصرف يسير .**
[3] **دليل التدريب القيادي ـ هشام الطالب ـ ص 176 بتصرف يسير .**

منه إنساناً هشاً عاجزاً عن مواجهة مشكلاته ، وقد تؤدي محبتها له وحرصها عليه إلى موته ، لأنها تحول دون تسليمه للطبيب خشية أن يخاف من مقابلته أو يتألم من بعض علاجه دون أن تدري أنها آلام موقوتة تضمن له الصحة والعافية والحصانة ضد الأمراض .. " [1]

لقد بالغنا كثيراً في ترويض أفراد فصائلنا الإسلامية على طاعة القيادات أكثر مما دربناهم على محاسبة ونقد وتقويم هذه القيادات .. وهذا الخلل في علاقة " الطاعة " بـ " الحرية " على النحو الذي لا ينمي في الأعضاء ملكات النقد والنصح وشجاعة الاعتراض ؛ جعل من " الشجعان " الذين يمارسون الشجاعة الأدبية هدفاً لشتي الاتهامات من الخروج عن الطاعة إلى السعي في تفريق الصف ، كل ذلك لمجرد أنهم يطالبون بـ " الحوار " ، ويحاولون أن يفهموا كما يقبلون أن يطيعوا !! [2]

لقد أصبح المعيار السائد . بكل أسف . هو أن " القيادة بإمكانها محاسبة الأعضاء وإلزامهم بالطاعة المطلقة في السراء والضراء . إلا أن الحاجة إلى محاسبة القادة ظلت أمراً بعيداً عن النقاش والبحث ، رغم أنها أكثر أهمية .. فعندما يعرض مسئول تقريراً للأعضاء ، فإنه غالباً ما يكون في شكل عموميات ، كقولهم : " كل شيء على ما يرام " .. و " الدعوة في تقدم " .. و " إن مستقبل الإسلام مشرق " .. و النصر قريب " .. و " يرونه بعيداً ونراه قريباً " .. و " عليك أن تقوي إيمانك وأن تقدم تضحيات أكثر " .. و " عليكم بالصبر " .. وهكذا ..!! " [3]

إن من أخطر ما يحدق بالعمل الإسلامي الاعتقاد بأن " القيادات والمفكرين يعرفون كل شيء، وما علي الأفراد إلا الأتباع . هذا التواكل الذي يتربي عليه الأفراد يجفف منابع الأفكار، ليكتشف المرء بعد مرور السنين أن اعتقاده بمعرفة القادة وقدراتهم ليس في محله، فيكون قد عطل عقله وضيع أوقاته ولم يُفد الإسلام من قدراته وملكاته . " [4]

إن الشباب يعتقد أنه بانتمائه للحركة الإسلامية قد وصل إلى جزيرة الخلاص ، وأنه انتقل من الخارج المدنس إلى الداخل المقدس .. " ثم يكتشف – بعد نضوب العاطفة والحماس – ظواهر ويحتك بشخوص ويمر بتجارب تجبره على إعادة النظر في مجمل وضعه الإنتمائي وليس الالتزامي ..؟!

---

[1] نظرات في مسيرة العمل الإسلامي – عمر عبيد حسنة ـ ص 42 ـ 51 بتصرف يسير .

[2] نحن هنا نمارس نقداً ذاتياً ، أي نقداً لأنفسنا ، وليس نقداً لطرف آخر .. راجع إن شئت مقال للمؤلف بعنوان " مراجعة لا رجوع " منشور بالعدد 85 من مجلة البيان .

[3] دليل التدريب القيادي ـ هشام الطالب ـ ص 33 .

[4] إستراتيجية الإدراك للحراك ـ د. جاسم محمد سلطان ـ ص 150 .

و هنا تبرز الفروق الفردية ، فإن كان الشاب قليل الحساسية والكلام ومنخرطاً في ظروف خاصة تستفرغ لديه كل طاقات التساؤل والقلق ويجد في الجماعة إشباعاً عاطفياً أو أمناً اجتماعياً أو ظهراً معيشياً أو غير ذلك ، فلديه إذن أكثر من مبرر للمكث مع الجماعة . هذا النوع من المنتمين.إذا كثر.يصبح بمرور الوقت عبئاً على الجماعة لا عوناً لها ، ورقماً سالباً في آليتها وديناميتها وثقلاً على الجماعة أن تحمله في درب طويل طويل ..!!

وأمّا إن كان الشاب من الشخصيات القلقة ؛ فسوف تثيره كثيراً الأوضاع السلبية في الجماعة ويبدأ يتذمر ولا مجيب ، وينقد ولا مستوعب ، وبعد أن يضيع الآذان في مالطا يصيبه نوع من " التنافر الوجداني الإدراكي " كما يسميه علماء النفس ، فهو يحب ويميل للحركة الإسلامية ، ولكنه غير مقتنع بها ، فيضطر مع ذلك لمسايرتها دون اقتناع بها .. وهذا التنافر الوجداني يدفع هذا الصنف من الشباب إلى البحث عن رفقائهم الذين يعانون من المشكلة نفسها ، فتتشكل بذلك " الجيوب الحركية " أي الشِلل المتبرمة التي تجتمع عادة في مجالس خاصة بها لكي يستفيد الفرد بالتعبئة المعنوية والأدبية المطلوبة .. مع مرور الوقت تتضخم " الكتلة الحرجة " في بطن الجماعة وتكثر الضوضاء في الداخل .. ومن ثم تحدث الانشقاقات والانقسامات ..!! " [1]

إن الوعي النقدي هو مستوى من الوعي يتميز بالعمق في تفسير المشكلات التي يعيشها الفرد المقهور، والتي ربما يكون الفرد ذاته جزءًا متآلفًا ومتعايشًا معها ، بل ومبررًا لها. وهو وعي ينبني من خلال كفاح مجموع المقهورين ومراجعاتهم الدائمة لأعمالهم وأفكارهم من خلال خلق حالة حوارية دائمة ومتصلة. وهذا الوعي يجعل المقهورين ينتفضون على واقع " ثقافة الصمت " التي يفرضها عليهم القاهرون بتحكمهم في المؤسسات التي تسهم في تشكيل وعي المجتمع ، والتي تخلق وعيًا سلبيًّا لديهم يجعلهم يستبطنون صورًا سلبية عن ذواتهم ، وتجعلهم يشعرون بعدم قدرتهم على إدارة شئونهم بأنفسهم ، وبأنهم دائما في حاجة إلى قاهريهم ..

وليس لنا من سبيل إلي ذلك " الوعي النقدي " إلا من خلال التحرر من " العقل النقلي " والانتقال لبناء " العقل النقدي " .. فإذا كان العقل " النقلي " يمرر الأفكار بدون تصفية ، وينشرها بحماس دون وعي ، ويدافع عنها بضراوة دون علم .. فإن العقل " النقدي " يراقب الأفكار ؛ فيدخل التصحيح علي الخطأ .. ويتحرر من معصوميتها ؛ فيخضعها للنقد .. بل يخضع عملية النقد ذاتها للنقد مرات عديدة ، في

[1] الحركة الإسلامية ـ ثغرات في الطريق ـ د. عبد الله النفيسي - ص 25 ، 26 - موقع **www.alnefisi.com**

صورة تقترب من صناعة الماس ، حيث يتم صقله بدون ملل ليصل إلي درجة اللمعان التي تكاد أن تذهب بالأبصار ..!!

إن التربية النقدية هي شكل من أشكال الترابط المجتمعي .. بل إنها " مجتمع " المعرفة الحرة وبنيتها .. ولئن كانت أفكارنا لا تأتي بمحض الرغبة والمشيئة ، ولا تستدعى حسب الطلب ، بل تتداعى وتهجم علينا و تتولد داخلنا بما يشبه الضرورة ..ولكننا نملك الحرية فى نقد هذه الأفكار حتى لا تستعبدنا فكرة ، ولا يستبد بنا تصور ، ولا تستعمرنا مقولة .. وعندها تستبين لنا السبيل ، ويظهر لنا ما تنطوي عليه الأفكار من وجوه الجهل أو الاستبداد ، وتبدأ حركتنا الراشدة في إطار من ..

● النصوص الحرة

تثير الكلمة الفعالة عواصف التغيير لما بالأنفس ؛ فتغير المجتمع .. وتشق طريقها في الجموع النائمة ، فتحيّ مواتها ، وتبعث فيها الأمل في أسلوب حياة جديد من خلال حركة تغييرية ينسج خيوطها الصدع بالحق .. فتلتقط ما يهمس به الهامس بشكل مشوش لتعيد صياغته في كلمات حرة تصوغ النص الحر في مواجهة النصوص الذليلة والنصوص التابعة الخانعة باسم الرشاد والحكمة ..!!

إن علاقة الطغاة بالنصوص كانت وما زالت " دموية " إذ يهدف الطغاة إلي جعلها قطعة منهم ، بينما تدعو النصوص إلي التعبير بصدق وأمانة عن إرادة الأفراد وآمال المجتمع في حياة حرة كريمة .. ولأن الطغاة يملكون أدوات كثيرة " الشرطة ، المال ، السلاح ، الإعلام ، المنع ، المصادرة " ؛ فإنها تكتب ما تشاء من النصوص من خلال ما تملكه من أدوات تجعلها مالكة لترسانة الكلام التي تتحرك وفقاً لما ترغب من إعادة انتاج الاستبداد ..!!

ولذلك ، فإن التفكير المنتج ليس مجرد كلمات تتكلم بها الألسنة ، وتؤلف بها الكتب ، وتنمق بها الدراسات .. وإنما التفكير المنتج هو ما يسترشد به القلب ، ويضيء به العقل ، و تنجذب إليه النفس .. فتتعلم تعلم الفطن ، وتتحرك تحرك الواعي الحاذق من خلال نصوص تستنفر الهوية و الوعي الجماعي بمفرداتها التي تنادي في كل مسكوت عنه " ألا سحقاً لنصوص الاستبداد " !!

ولا شك أن قراءة تلك النصوص " ليست رياضية ذهنية أو فكرية ، أو أنها قراءة الرفاهة البحثية . بل هي أبعد من ذلك بكثير .. هي قراءة هادفة إلي الاعتبار والاستثمار .. اعتبار في قراءة نماذج مضت ،

والاستثمار ضمن قراءات جدت واستحدثت ، تري الواقع من خلال نصوص سبقت لا تزال تعطي وتفيض " [1] .. فهاهو ذا

" الإمام مالك في محنته يطلق نصاً حراً ، أو فتوي لا تتعدي كلماتها الثلاث ، وهي أشبه بالشعار الذي يحمل نداء حركياً " ليس لمستكره يمين " ، نداء ضرب السلطة والسلطان في مقتل ، ضرب عسفها واستبدادها، التي حاولت أن تجعل استبدادها عقداً وعقدة إلا أن هذا النداء حينما وصل إلي مسامع السلطة أدركت مراميه ووصلت رسالة الإمام إلي الجميع (رعية . علماء . حكام) من أقرب طريق ، وبكلمة جرت مجري الأمثال " ليس لمستكره يمين " نصاً حراً أنتج فعلاً حراً وسلوكاً حراً ..

وها هو الإمام أحمد بن حنبل يسير مسيرة من سبقوه من علماء يتعرفون علي أصول وظيفتهم في إنتاج النصوص الحرة ، فحينما رغبت السلطة في سابقة لم يسبق لها نظير أن تمارس " امتحاناً لعقائد الناس " شرعت فيه بادئة بقادة الرأي (العلماء . الفقهاء) ثم القضاة ، ثم عامة الناس .. وبدأت بالإمام في امتحانها الظالم الذي ساندته سلطة فكريه وأخري سياسية (أحمد بن أبي دوؤاد . المأمون / المعتصم / الواثق) فيسأل عن القرآن . . . أهو قديم أم مخلوق ؟! فلا يجيب الإمام أحمد بأكثر من أربع كلمات " أقول كلام الله ولا أزيد " .. و هذا الرد كان يشكل نصاً حراً ، ينتقد عسف السلطة الفكري والعقدي بلا مسوغ أو مبرر ، وينتقد الوقائع والإجراءات الامتحانية الباطلة مهما كانت نبل غاياتها أو حسن مقصدها ..

وهكذا .. أنتج الإمام أحمد نصاً حراً ظل فاعلاً طيلة فترة زمنية طويلة . . بل ظل فاعلاً حتي اليوم ، حينما يشعر العالم بوظيفته . . ويغريه تلامذته وربما أشفقوا عليه " إن لك في القول لرخصة !!" أي أن يجاري المعتزلة في قولهم ، شفقة عليه من عذاب السلطان !! . . لكنه كان يعلم أمر الملوك أو السلاطين : إن كانوا يقضون علي الرعية، فإن العلماء يقضون علي الملوك .. ؛ فأنتج نصاً حراً يقتدي في إنتاجه وقدَّم نداءً حركياً مهماً " إن قلت . . قالوا " ..!! " [2] ، فتامل عشق الحرية كم ساق قلوباً إلي البذل ، وأنطق أفواهاً بالحكمة ، ونقل عقولاً من حفظ النص إلى ممارسته اليومية الوظيفية ..!!

إن " النص الحر صياغة وبناء ونسج ، صياغة من كلمات حرة ومفاهيم حرة ومفردات حرة . . وبناء لصرح يتأسس علي قواعد من الحرية والاختيار والإرادة .. ونسج لنص عادل لأن العدل هو قمة الحرية وميزانها.. ولذلك فإن النص الحر تخلص من عبودية ، وتبعية ، ودونية ، أي من كل متعلقات النص

---

(1) مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي - د . حامد عبد الله ربيع - ج 1 ص 25 .
(2) المصدر السابق - ص 63 ، 64 .

العبد، أو النص المستبد .. ومن ثم فالنص الحر دافع ورافع . . دافع للفعل ورافع للفاعلية . . والفاعلية مقاومة كفاحية وعزة . . تجديد وإحياء . " [1]

إن الذي يجعل الناس لا يتعشقون الحرية ، ولا يتجرؤون على المطالبة بها هي الطريقة التي يتعلمون من خلالها ، والطريقة التي يفهمون بها دينهم ، ويمارسون بها شعائره .. فالفهم للدين على أنه لا يأبه بالتكريم الدنيوي ، ولا يهتم إلا بما هو أخروي .. وممارسة شعائره على أنها طقوس تؤدي دون أن يكون لها أدنى أثر في الحياة .. كل ذلك لا يؤدي إلا لمزيد من العبودية !!

إن الكثيرين منا قد ولدوا خرساً ، وتعلموا كيف يتقنون فن الصمت وتلقي الأوامر ؛ فماتت بداخل كل منهم روح المبادرة ، وفقد روح الجماعة ؛ فأصبحت حياته كلها ترديداً لمقولة " عاش سعيداً من بقي في الظل " [2] في مجتمع لا يسمح بالحوار الحر ، أو النقاش الآمن ، تُكبت فيه الأفكار كبتاً حتي تنتابها البرودة فتصاب بالقشعريرية القاتلة .. وينتج من ذلك أنه يربي الناس على الكذب والنفاق والتذلل ، فيصيروا عبيداً للمستبدين غير مالكين أنفسهم ، ولا آمنين علي تربية أبنائهم لتحرير أوطانهم من أولئك المستبدين ..!!

إن الاستبداد يحاول من خلال القهر وتربية المقهورين أن يحولنا إلى حيوانات تتكيف مع الواقع الذي تعيشه ، ولا تحلم أن تُغيره في غد .. ولا بد لنا أن نمتلك القدرة علي تغيير واقعنا ، و اختراع مستقبلنا الجميل اختراعاً من خلال الوعي بالحدود التي يمكن أن تتكامل أخلاقياً مع الحرية ذاتها ، ويقدر الإنسان معها أن يصنع . بإذن الله . من سم العبودية ترياق الحرية ، من خلال نصوص حرة تؤكد أن " الحرية ليست في أن نعمل ما نريد ، وإنما في أن نريد ما نعمل " [3] ؛ فتردد كل حركة لنا في الحياة : من علمني حرفاً ، صرت به حراً ، وصرت معه حراً .

***

---

[1] المصدر السابق ـ ص 99 ، 100 . بتصرف يسير .

[2] هذه مقولة لـ " ديكارت "

[3] المقولة لـ " تولستوي " ـ راجع إن شئت " هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش " ص 212 .

الفصل الثالث

إطار عمل لا إطار انتماء

حين يغيب الوعي ؛ تتراجع المبادىء ليتقدم الأشخاص ، ويتفرق المجتمع إلى أكوام من الإقطاعات البشرية الحزبية ، التي تعمل كإسفنجة تمتص كل الطاقات وتجمدها ، فتقوم دون وعي بدور وظيفي لصالح المستبدين ، وذلك من خلال خنق الحرية ، و حرمان الأفراد من تذوّق حلاوة الإبداع ، والإبعاد المهذب للمبدعين ، والجمود أمام مواقف الحياة وكأنها غير قابلة للتغيير ..!!

ومن هنا ، فإن من أهم مهامنا في الطريق إلي مجتمع الحرية ، أن نحذر في سيرنا إليه من الإنزلاق إلى مهاوي التعصب ، التي تدفعنا إلي تقديس مفتاح للتغيير ، واعتقاد أنه صالح لكل زمان ومكان ولكل باب .. بينما الحقيقة أنه يمكن إبداع ما لا حصر له من المفاتيح لمواجهة الظروف المختلفة من خلال التغيير في شكل المفتاح وحجمه وعدد أسنانه ..!!

ولا شك أن مما يعيننا علي تحقيق هذا الهدف ألا ننطلق في علاقاتنا بمن يخالفوننا في اختياراتنا الفكرية ، من خلال أن علينا نغزوهم بأي ثمن ، أو من خلال خوفنا من أنهم قد يقومون بغزونا .. وإنما من خلال احترام الاختلاف ، وامتلاك روح المراجعة التي تقبض على جذور أفكارنا فتهزها من غفوة ، وتنشطها من إعاقة ، وتنفض عنها ما علق بجسمها من تراب الحزبية ، وركام الكسل والترهل .. ومن ثم لا تتحول أية طريقة عمل نختارها إلي منديل على أعيننا ، يمنعنا من النظر ، بل نمتلك القدرة الدائمة على إعادة النظر في أي لحظة ؛ والانفتاح علي الآخر ، والتعاون معه من خلال الوحدة في إطار التنوع ..

وفكرة الوحدة في إطار التنوع . كأي فكرة تحمل جنين العمل . قد تتعرض للأمراض في مرحلة طفولتها، لكن السنين تكسبها المناعة التي يدفع الله بها تدبير أعدائها لاستئصالها من خلال أكاذيبهم التي يدعون فيها لفتح باب الإبداع ولكن على أن تبقى مفاتحه عندهم ، وينهون عن التعصب إذا مسهم هم ، فإذا مس غيرهم .. فلا بأس !! ، ويكثر كلامهم ، وتنتفخ أوداجهم ، وتحمر أنوفهم دعوة للوحدة والائتلاف ؛ فإذا حاولت أن تمسك فعلاً واحداً ، فكأنما تقبض على الريح ، أو تحاول الإمساك بالماء ..

ذلك أن كلماتهم لا تزيد عن أن تكون توابيت جوفاء تشحن أو تفرغ بالمعنى بحسب الأهواء .. كما أن شعاراتهم تغتال الحقائق ؛ فتكسب القواميس كلمات ، ليخسر الواقع الحقائق والأفعال .. !!

إن العمل وحده هو الذي يخط مصير الإنسان في إطار المجتمع ، وليس للإنسان أن يقدم نفسه للمجتمع في صورة الوصيّ عليه ، وإنما في صورة تيار فكري يستمد مشروعيته من قوة الحجة وإقناع الآخر ببرامجه ، فيدخل إلى المجتمع من أبوابه ، وليس من نوافذه أو شقوقه .. يدخل إليه من خلال يقظة عامة هي أكبر من تنظيم أو جماعة .. يقظة عامة تضم كل الذين ربطوا أنفسهم مصيرياً بالإسلام ، ولو لم يحملوا بطاقات حزبية .. يقظة عامة ترفض كل العناصر اللافعالة ولو حملت بطاقات حزبية ..!!

يقظة عامة وضعت لنفسها هدفاً واضحاً هو إعادة مجتمع الحرية من جديد ؛ فكان من أولي خطواتها إلي هذا الهدف دراسات موضوعية حازمة وصارمة تحاول الإجابة عن تساؤلات غاية في الأهمية .. من نحن؟ وإلى أين نسير ؟ وهل هناك مشروع نحمله ؟ وهل نحن نتحمل هذا المشروع ؟ .. هل هناك خطة فعلية نسترشد بها للوصول إلي أهدافنا ؟ وإذا كانت الخطة موجودة فعلاً ؛ فكم تحقق منها ، وكم بقي على تحقيق الهدف النهائي ؟ .. إلى آخر هذه الأسئلة الكبيرة والمهمة ، والجديرة بالتأمل ، والتي تقود هذه اليقظة . بإذن الله . إلي حكم رشيد يدفع إلي تعميق الإيجابيات والتخلص من السلبيات .. تلك السلبيات التي من أخطرها ..

• التعصب والحزبية

يعتقد الإنسان المقهور أن الجماعة الحزبية من المقدسات التي لا يجوز أن تُمس ، ولذلك فهو يحيطها بمجموعة من القيم والامتيازات التي تُحصنها وتكبرها .. وكلما كبرت الجماعة ؛ ازداد نفوذها السلطوي ، وحفظ لها امتيازاتها ؛ ولذلك يحرص القائمون على أمر الجماعة ، الممسكون بزمام السلطة فيها ، على عدم إفلات أي فرد منها .. لأنهم يرون أنه كلما زاد العدد انتشرت السطوة .. فهؤلاء الأفراد لا ينشأون لأنفسهم ، بل لجماعاتهم ، وكل إنجاز يحققه أحدهم ، كل تقدم مهني أو علمي أو مالي لا يعود أثره عليه فقط ، بل هو في المقام الأول وسيلة لزيادة جاه الجماعة وبسط نفوذها ..

ولا شك أن الانتماء إلى الجماعة بهذا الشكل الذوباني يمنع الانتماء إلى عموم الأمة ، ويمنع بروز مصلحة الأمة وتغليبها لصالح سيادة مصلحة الجماعة .. ولذلك نرى الكثير من هذه الجماعات تسير مع المصلحة العامة طالما خدمت نفوذها وقوتها ، وتقوم ضدها عندما تهدد مصلحتها الخاصة وامتيازاتها ..

إن الجماعة الحزبية لا تعترف بقيم المساواة والعدالة والتحرير ، الذي لا بد له أن يكون شاملاً لكل أفراد الأمة على اختلاف فئاتهم وانتماءاتهم ، ولذلك فهي عقبة فعلية أمام التحرر ؛ لأنها تقاوم الميول الاستقلالية ، فكل جهد يبذل من أي فرد فى طريق الاستقلالية يُفسّر كتهديد لتماسك الجماعة ، بل يُفسّر على أنه خروج عن سطوتها .. فهي تريد أن تبسط نفوذها على الأجساد والعقول والعواطف ، و تحاول التحكم في العلاقات ، وفي كل ذلك استلاب للشخصية ..

إن العالم ينقسم في ذهن أفراد الجماعة إلى عالمين متناقضين تماماً : الخارج والداخل .. " أمّا الخارج فهو العدو ومصدر الخطر والشر ، العلاقة معه عدائية اضطهادية ، والموقف منه إما انسحابي تجنبي أو تهجمي تدميري ..

أمّا الداخل فهو الخير كله ، وهو مصدر الأمن والشعور بالانتماء ، مصدر الهوية الذاتية ، وهو بالتالي المرجع والملاذ ..

وهكذا يتحول الخارج إلى مجرد أسطورة مخيفة يجب الحذر منها . وليس من موقف تجاهها إلا العنف والتدمير ..وأما العواطف الايجابية فتتوجه إلى الداخل ، إلى النموذج الذي يجب أن يحتذى . كل واحد من أفراد الجماعة يتحول إلى مرآة تعكس للآخرين ذواتهم الإيجابية . ويحدث هنا إفراط في إعطاء القيمة للجماعة الداخلية على حساب الإفراط في تبخيس الجماعات الخارجية ..

ويدافع كل فرد في الجماعة عن أية خلافات أو تناقضات أو صراعات داخل الجماعة ..ويذهب في دفاعه حد الذوبان الكلي في الجماعة ، وفقدان الفرد استقلاليته وهويته الذاتية ، فلا يصبح له هوية سوى هوية الجماعة .. وتتضخم قيمة الجماعة حتى تُصبح هي القيمة المطلقة أو الوحيدة ، وتتضخم معها وبالدرجة نفسها قيمة الفرد ، ويأخذ الأمر على هذا المستوى نوعاً من الشعور بالامتلاء والاعتزاز بالانتماء ، وحالة من الإحساس بالمتعة .

وترتفع درجة الذوبان فى الجماعة عادة على المستوى الفردي ، بما يتناسب مع مستوى الإحساس بالضعف والعجز وانعدام القيمة .؛ فأكثر الأفراد ذوباناً في الجماعة وتعصباً لها ، هم فى معظم الأحوال ، أشدهم عجزاً عن الاستقلال .. " [1] .. وهؤلاء يرى الواحد منهم نفسه " لا يساوي شيئاً أمام " الشيخ "، وهذا التواضع أو الخضوع شرط من شروط تكوينه .. فهو لم يترب على حرية الرأي ، ولم يتدرب على فنون القيادة من خلال ممارسته للشورى الجماعية .. كما أن " احترامه " لقائده يمنعه من مخالفته أو

---

[1] **التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د/ مصطفى حجازي – ص 112 بتصرف يسير .**

مساءلته ، .. وكأن قانون العلاقة هو " المريد أمام شيخه كالميت بين يدي مغسّله !! " ، وصورة العمل هي " وافق أو نافق أو فارق " !! "[1] ومن ثم تكون صورة الجماعات هي أفراد يصفقون لقادتهم ويقفون منهم موقف الثناء والتبجيل .. وقادة يمارسون الوصاية الفكرية ، والاستبداد التنظيمي علي تلك القطعان البشرية ..!!

وتشيع هذه الظواهر بشكل أوضح في المجتمعات االمستعبَدة ، فنجد جماعات متفاوتة في كبرها مغلقة على ذاتها ، تشد أفرادها إليها بقوة لا تقاوم ، وتقوم بينها وبين الجماعات المجاورة علاقات صراع وعداء وحذر واضطهاد ، كل التناقضات الداخلية توجه إلى الجماعات الأخرى التى تُستباح عادة إذا سنحت الفرصة ، وهذه العلاقات العدائية الاضطهادية بين الجماعات تشتد وتقوى بقدر تعرضها جميعاً لقوى متسلطة تبسط سلطانها على الجميع ، ولا قِبل لأي منها بمقاومتها .. فيدفعها ذلك " إلي الهرب بشكل أو بآخر من المواجهة ، وهكذا .. جعبة من التحيز تقابلها جعبة من العاطفة ، تؤدي إلي خلق حالة من التمزق . "[2] ؛ فتكون النتيجة هي افتراس القوي المتسلطة للجميع .. !!

وهذا الواقع يشابه إلي حد كبير ما يحدث حين " يهاجم فريق من الذئاب قطيعا مكوناً من عشرات الأبقار الوحشية ، التي يبلغ حجم الواحد منها حجم أربعة ذئاب ، و تتمتع بقوة تفوق قوة أي ذئب علي حدة ، ثم تكون النتيجة وصول الذئاب لأهدافها باصطياد إحدي هذه الأبقار في أغلب الأحيان ، برغم استخدامها لنفس الإستراتيجية التي تقوم علي الاقتراب الحذر من الأبقار ، ثم إثارة الذعر فيها لتقوم بالفرار ، ثم تقوم بفصل إحداها عن القطيع ، و من ثم التعاون علي اصطيادها !! .. فالذئاب تعمل يوحدها هدف تتواصل فيما بينها و تنسق جهودها من أجل تحقيقه ، بينما تفتقد الأبقار الوحشية هذه الخصائص و تمارس رد الفعل الغريزي بالهرب دون استخدام قوتها البدنية و لا الاستفادة من كثرتها العددية أو خبرتها التاريخية مع الذئاب .. !! "[3]

إن " مناهج التكوين الأيديولوجي والتربوي في معظم الجماعات لا تُعنى بالتربية الاجتماعية قدر عنايتها بالتربية الحزبية .. بمعنى أنها تركز على تربية وتنشئة " العنصر الحزبي " المنتمي والمطيع والمنفذ والموالي ولاء مطلقاً لقيادته الحزبية ، ولا تهتم في مقابل ذلك بتنشئة ذات " العنصر " على التواصل الاجتماعي والفكري والنفسي والثقافي مع المجتمع الأوسع .. فتكون النتيجة أن " المنتمي " للجماعة أو

---

[1] **دليل التدريب القيادي ـ هشام الطالب ـ ص 29 بتصرف يسير .**

[2] **مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي ـ د / حامد عبد الله ـ ج 1 ـ ص 381 بتصرف يسير .**

[3] **الفكر الاستراتيجي ـ و الخروج من المأزق الراهن ـ د / جاسم محمد سلطان ـ 13 بتصرف يسير .**

الحزب يبقي في حالة من " الانتظار الدائم " للأوامر والتعليمات ، ويفقد كل قدرة على المبادأة أو المبادرة على أي مستوى من المستويات ، ولو حتى على مستوى تكوين رأيه في القضايا التي يشاهد ظواهرها يومياً ....!! " [1]

و لقد كان من نتائج هذه الطريقة في التربية ، أن خرج جيل من الشباب ينتظر الأوامر فقط ؛ فخسرت الحركة الإسلامية أهم عناصرها وأنشطها وأكثرها إبداعاً ، بل والأدهى إنها عندما لم تستطع تسخير هذه الطاقات في مساراتها الصحيحة ، فتراكمت كما يتراكم الحديد دون استعمال فيتحول إلي الصدأ الذي يعني الهشاشة والضعف .. فالحديد الذي كان فيه بأس شديد ، بارتباطه بذرة حديد أخري ، تحول إلي تراب حين استبدل ترابطه وتماسكه مع أخيه " ذرات الحديد بعضها مع بعض " ، ليبدأ تماسكاً من نوع جديد ، مع عنصر خفيف هو الأكسجين ..!! .. وهذه الحقيقة تنطبق على أفراد الجماعة حين تتحول اهتماماتهم لتصبح أشياء مستخفة ، فتفترسهم يوميات الحياة التافهة ، ومن ثم يتحولون إلي أفراد يقودهم تيار " القطيع العام " الذي يعيش " مشاكله الشخصية " !!

إننا حين نرفع أستار العاطفة الآن لنري تلك الجماعات الحزبية علي الحقيقة ، فسنجد أمامنا جموعاً .في غالبها .قد أجدبت أفكارها وأقفرت .. وسنجد في وسط هذا المشهد " جموعاً تدور حول نفسها .. اجتمعت علي اجترار إنتاج الماضي بدلاً من فرزه .. والوقوف عنده ، بدلاً من فتح آفاق للمستقبل.. والاكتفاء بإتباع الوسائل بدلاً من ابتداعها.. والاهتمام بالأشكال بدلاً من الاهتمام بالجوهر .

وبجوار هذه الجموع الدائرة سنجد أناساً قد وقفوا لا يريدون أن يبرحوا أماكنهم ، يحملون شعارات ويرفعون رايات كُتب عليها : " نحن أعداء ما نجهل " ويصيحون قائلين : هذا طريق أو محاولة جديدة لا نعرفها ، فلماذا نسلكها ونجربها أو حتى نستمع إليها؟ !! فبدلاً من أن يقول قائلهم : لم لا نحاول ؟ نجده يصرخ ويقول : لم نحاول ؟!!

وفي أطراف المشهد سنجد مجموعة من المقلدين ، لا يتساءلون وإنما يقلدون فِعل الأقدمين وأعمالهم دون تفكير في جدواها في لحظتها الراهنة .

وخلفهم سنجد آخرين يعتمدون الظنون والأوهام دون مطالبة قادتهم بالتدليل والبرهان علي صحة ما ذهبوا إليه من أفكار وتصورات ؛ بل ويفترضون أن الخطأ غير وارد ويكفيهم قول قادتهم دليلاً

---

[1] **الحركة الإسلامية ، ثغرات في الطريق - د/ عبد الله النفيسي - ص 81 - راجع إن شئت موقع** ***www.alnefisi.com***

وبرهاناً، كما أنهم يعتقدون أن قياداتهم ومفكريهم يعرفون كل شيء ، وما عليهم سوي إتباعهم والسير علي مناهجهم .!!

وسنجد آخرين يعانون من الأسر والسجن بين قضبان إنجازات الماضي ؛ فلا يشيرون إلي إنجازات الحاضر ؛ ناهيك عن الإنجازات المستقبلية المرتقبة ، مع عدم استعدادهم لنقد الذات ومراجعة المسار وتدارك أخطاء ذلك الماضي ، وذلك استناداً إلي أن مراجعة الماضي هو فتح لأبواب الفتنة والخلاف والنزاع والشقاق ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ..!!." [1]

وهكذا .. يبقي الحزبي متسلحاً بآراء محددة و يقاوم للتمسك بها كل رغبة في المراجعة " ونظراً لأن حلقات التدريس الداخلية في الجماعات الحزبية تعمد إلي تأكيد و تعميق هذه الآراء من وجهة نظر واحدة ، ومحاولة إضعاف ما يخالفها ، فإن عقلية الحزبي تتشكل ذات اتجاه واحد ؛ فيميل إلي الاجتماع برفقاء حزبه وأرائه ، وإذا حصل أن اجتمع بأناس يخالفونه الرأي فهو معزول عنهم بحاجز نفسي. " [2] يجعله لا يرى إلا ما تنتجه عقليته ، و لا يتخيل أن الله قد خلق عقولا لباقي الناس ، بل يعتقد أنه الأصل وباقي البشر صورة ، وأنه المركز وباقي الناس حواشٍ وحواف ؟!

ومن هنا .. يحاول الحزبي صب الناس جميعاً في قالب واحد .. فإذا التقي غيره ؛ كان حواره معه سِباقاً في الحديث ، وكأنه يقوم بتوزيع الآراء فقط ، ذلك أنه " يحمل على عينيه نظارات من نوع خاص بلون معين ، فلا يرى الوجود حوله إلا بهذا اللون .. و يتعامل مع الأشياء على أساس إمّا " طاهر مقدس " أو " دنس حقير " ، ولا شيء بينهما ، فإذا حدث خلاف مع الآخرين ، ولو كانوا من جماعته – فلا يرى أن فيهم جوانب وجوانب ، بل إمّا في السماء ، أو أنهم سقطوا في الهاوية .. فهو يسبح دوماً في المثالية ، ولا يدركها .. و يرى في كل الأحوال أن الحوار مع الآخر غير مجدِ ..!! " [3]

إن الحزبي يعاني من التركيز علي من يقول ، وليس ما يقول .. فالقائل عنده أهم من القول .. ولذلك نري ظاهرتين في تعاملاته .. فهو أولاً : لا يقبل الكلام " إلا من شخصية تنتمي إلي حزبه أو تنظيمه وجماعته ، فكل فكرة أو قول يصدر عنها فهو مقبول .. بينما لو طرح أي قائل أو عالم أو عامل لا ينتمي إلي حزبه أو تنظيمه وجماعته فكرة أو رأياً ؛ رفضه دون بحث أو نظر .. فهو لا يحلل ولا يدرس ما يقال وما يطرح عليه من أفكار ، بل هو أسير لشخصيات بعينها. إذا قالت فقولها صواب ، ومن خالفها فهو

---

[1] من الصحوة إلي اليقظة " إستراتيجية الإدراك للحراك الدكتور/ جاسم محمد سلطان - ص 111 - 113 بتصرف يسير .
[2] في النقد الذاتي - خالص جلبي - ص 248 بتصرف يسير .
[3] المصدر السابق - ص 35 بتصرف يسير .

جاهل لا علم له ولا وعي .. ومن ثم ، فالكاتب الذي أخذ تزكية الجماعة يُسمع لأفكاره ، ويتلقاها القلب دون أدني معارضة أو تمحيص ، وحتي إن كانت الفكرة مضطربة أو غير مهضومة تماماً ، فإن الوعي يمر عليها بشيء من عدم الاهتمام ، ثم قفز من فوقها .. " [1] وهكذا .. تضيق مساحة الفكرة حتي تساوي الصفر ، فيصير الرجل مكان الحق ، ويصبح الإنسان بديلاً للبرهان !!

نعم .. ربما ردد الجميع أن الحق معصوم وثابت ، وأمّا الرجال فأعراض زائلون ، يقاسون بالحق ولا يقاس الحق بهم .. ولكن هذا ليس الواقع ، فحين تُقدم لهؤلاء فكرة " الرجل " الذي يحبونه تحت إسم " الرجل " الذي يكرهونه ، فإنهم يرفضونها ، ربما دون النظر فيها .. وهم في ذات الوقت لا يرون أن " الرجل " الذي يحبونه يمكن أن يخطيء أو يقدم الأفكار الخاطئة ..!!

ولا شك أنه لا سبيل للخروج من نفق التعصب المظلم هذا ، إلا بالخروج من " دائرة الطواف حول الذات ، والافتتان بالنفس ، والعُجب بالرأي ، إلي الاطلاع علي وجهات النظر الأخرى ، خاصة آراء أولئك الذين يقفون معنا علي الأرض الواحدة ، ويواجهون مكراً وكيداً مشتركاً ، وإن تنوعت مدارسهم وتعددت مواقعهم ، وإدراك أبعاد الخطاب الإسلامي ، الموجه للناس كافة ، واستشعار المسؤوليته أمام الله في الالتزام بحقوق الأخوة الشاملة ، وعدم التسوية بين الذين يتنكبون طريق الإسلام وينحرفون عنه، وبين الذين قد يخطئون علي طريق الإسلام .. " [2]

فإن فعلنا ذلك .. فلن تكون " ذواتنا محور اهتمامنا ولا محور تحركنا ، ولن نحس بالغيرة من بروز غيرنا ـ حين يبرز عن جدارة ـ ولا بالتفاف الناس حوله وإعجابهم به أو إطرائهم له ، ولن نعتبر ذلك انتقاصاً لمكانتنا أو عملاً عدائياً موجهاً ضدنا ، ولن يدفعنا ذلك إلي محاولة الانتقاص منه أمام أتباعنا ، لكي لا يتحول " ولاؤهم " عنا إلي ذلك " المنافس " الذي التف حوله الناس ! .. ولن يكون " الولاء " لأشخاصنا أو لجماعتنا هو محك الحكم علي صلاحية الآخرين وجدارتهم ..! ! " [3] ، بل سيكون الولاء لأمتنا هو محك الحكم ، وسيكون سبيلنا لتحقيق مجتمع الحرية هو ..

---

[1] " من الصحوة إلي اليقظة " إستراتيجية الإدراك للحراك ـ د/ جاسم محمد سلطان ـ ص 148 ، 149 .
[2] فقه الدعوة ملامح وآفاق ـ عمر عبيد حسنة ـ ج 1 ـ ص 18 بتصرف يسير .
[3] كيف ندعو الناس ـ محمد قطب ـ ص 136 ، 137 بتصرف يسير .

• الوحدة في التنوع

لا يستطيع مجتمع أن يحقق أقصي فعالية حتي يكون النظام الجماعي هو الذي يُسَيّر خطوات أفراده ، ذلك أن العمل الجماعي هو الذي يجعل كل فرد في الأمة يضاف إلي الآخر إضافة " كيفية " وليس إضافة " كمية " وبالتالي فهو الطريق إلي القوة الاجتماعية التي يتحول فيها الأفراد إلي كيان تتوحد فيه الأفكار والمشاعر والممارسات العملية من أجل تحقيق رسالة المجتمع ..

ولا شك أن جماعية العمل ووحدته تحتاج إلى تنظيم الطاقات في إطار مؤسسات تمثل الأطر الحركية التي تحشد من خلالها الطاقات وتنظم وتستثمر خير استثمار لتحقيق الأهداف المرجوة ، وفق خطط مدروسة ، وعلي أساس من " فكر أصيل ، وإيمان لا يتزعزع بالله تعالى وبالأهداف ، وعلم ملتزم بأهداف المجتمع وقضاياه ، ووحدة الأمة المبنية على جماعة متماسكة كالبنيان المرصوص ، ومهر يدفعه أفراد المجتمع هو التضحية بكل الإمكانات . "[1] التي تشكل شلالاً متدرجاً من النشاطات والاهتمامات تشارك جميعها في تغيير صبغة مجتمع العبودية الحالي إلي مجتمع الحرية الذي نطمح إليه ..

و لا يساورنى أي شك في أن قبول الآخر و التوفيق بين صور الفهم المتعارضة ظاهراً المتفقة حقيقة .. كل ذلك هو جزء من عملية التغيير التي نتطلع إليها .. وأنه لكي يحدث ذلك ؛ لا بد من إعادة قراءة الآخر ، وإعادة قراءة الواقع ، من خلال لغة جديدة هي " لغة الممكن المفتوح على الأمل " ..!!

و أنا أدرك أنه من الصعب أن نحتفظ بالأمل في ظل هذا الواقع ، كما أنه من العسير تقويته ، ولكن من المستحيل أيضاً أن نعيش بدونه .!!

ولكي نصل إلي هذا الأمل ، فإن سبيلنا إليه هو " الوحدة في التنوع " .. وعندما أقول بالوحدة في التنوع ، فذلك لأنني عندما أعترف بأن الاختلافات بين الجماعات قد تجعل العمل في إطار الوحدة أمراً أكثر صعوبة ، فإنني أقر أيضاً بأن الوحدة لا تزال ممكنة ، وعلاوة على ذلك .. فإن الأمر يحتاج إلى النظر في الأهداف المشتركة التي تعمل الجماعات المختلفة من أجل تحقيقها ، فالمساواة يمكن أن تتحقق بين الأهداف وفي داخلها . الأمر الذي يجعل الوحدة أمراً ممكناً في إطار الاختلاف ..

إن افتقاد الوحدة بين الأطراف " المختلفة " ، التي يمكنها أن توصل إلى اتفاق حول قضاياها الخلافية، من شأنه أن يدعم سيطرة الطرف المعادي " المختلف " وانتصاره .. ومن هنا فإن المعركة المهمة

---

[1] **العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د/ أسعد السِحمراني - ص 110 - بتصرف .**

والحاسمة ، ينبغي أن تكون ضد العدو الرئيس .. ولهذا ، فإن " الأطراف المختلفة " التي تقبل الوحدة لا تستطيع أن تنسلخ عنها أثناء المعركة ؛ ذلك أن لديهم أهدافاً تتجاوز الأهداف الخاصة بكل جماعة لتحقيق الحلم الكبير الذي تتوق

الأطراف المختلفة إليه ، ومن أجله يقبلون تقديم التنازلات لبعضهم . "[1]

إن من المعوقات في عملنا الجماعي ، ذلك الشعور بأنه لا يمكن العمل مع إنسان لا نتفق معه اتفاقاً كاملاً .. ولا شك أن هذا النوع من الاتفاق لا يتحقق في الواقع العملي ، بل الواجب أن نعي اختلاف البشر ، وأن نستغل نسبة الاتفاق بيننا ، والتي قد تصل إلى 90٪ ، وهو . بلا شك . قدر كاف للتعاون والمشاركة ..

ومن هنا ، فإن علينا أن نغيّر التوجه في أنفسنا فنركز على نقاط القوة لدى إخواننا ، ونستفيد من مجالات الاتفاق الكثيرة ، ونعمل معهم جنباً إلى جنب من أجل التكامل معهم والتقليل من جوانب الضعف فيهم ؛ فتصبح شعاراتنا " دعه يعمل " .. " افتح الحوار معه " .. " وفي كل خير " .. " نقطف من كل بستان زهرة " .. " نأخذ من كل فيلسوف فكرة " .. " نستفيد من كل مبدع لمعة ، ومن كل عالم جملة ".. " نطلب الحقيقة دائماً " ..!!

وتكون حركتنا من خلال التكامل فنرحب بمتابعة " صاحب النشاط السياسي نشاطه إذا رأي أنه لب العمل ، ونساعد ذلك الذي يريد إصدار مجلة بسيطة لأبناء المسلمين ، وذلك الذي يريد أن يقوم بالنشاط الإجتماعي في الحي من خلال النظافة والإنارة ، ونفرح بتعاون أهل البناية الواحدة ، ونترك المؤلف يسبح مع أفكاره وتأملاته والعالِم الغارق في معادلات العلم ، وذلك الجراح الذي يريد إنشاء مشفي إسلامي ، المهم إيجاد قنوات الاتصال والتعاون ، وفتح باب الحوار وإحياء الجدل.. "[2]

إن " الحركة الإسلامية اليوم ، بعد هذه الإحباطات الكثيرة، بحاجة . فيما نحسب . إلي العديد من الاجتهادات ، والتعدد في وجهات النظر ، لإغناء الرؤية ، فلعل جيلاً طليعياً ينبثق من خلال هذه الاجتهادات الكثيرة، يهتدي إلي سبيل الخروج من الأزمة ، والخلاص من صور الإحباط المتعددة ، ويحدد موطن الخلل ، ويصلح الأمور ، ويكتشف طريق الصواب المفقود في معادلة المسلم المعاصر ، حيث لابد

---

[1] **تربية القلب في مواجهة الليبرالية الجديدة – باولو فريري ـ ص 138 ، 139 بتصرف .**

[2] **في النقد الذاتي ـ د / خالص جلبي ـ ص 235 - 237 بتصرف .**

إلي جانب الإخلاص لله في العمل ، من الصواب في الخطو ، والبصيرة إلي جانب البصر ، والعقل إلي جانب القلب . " [1]

إن المشكلة ليست " في تشكيل أكثر من اتجاه وتجمع ومدرسة .. ولكن المشكلة هي في علاقة هذه الأوساط بعضها ببعض ، هل تلجأ إلى أسلوب الحوار ، وفن الإصغاء إلى بعضها بعضاً ، أم أنها في صورة متحاربة ضمن إطار قانون "كل شيء أو لا شيء " أي " إمّا خصومة العلاقات ، أو الشعور بأنها هي الجماعة وعلى الآخرين الانضمام إليها . " [2]

إن الوحدة التي نريدها هي وحدة الطاقات ؛ فالبعض يملك القوة العددية والبعض يملك الكوادر والطرف الثالث يملك المال وآخر يملك طاقة أخرى وهكذا يمكن أن تتكامل هذه الطاقات وتتعاون في سبيل هدفنا الواحد.

إن الكثيرين ممن ينادون بأفكار التحرر لا يدركون الأهمية القصوى لمسألة التخطيط قبل البدء في العمل ، ومن ثم فهم يسعون إلى هدفهم دون وعيّ بالذات ، أو دراسة للآخر ، أو إدراك للظروف المحيطة بالصراع ..أو دراسة البدائل بين وسائل الوصول إلى الهدف .. أو المفاضلة بين هذه البدائل .. وبالتالي فإن النتيجة تكون الفشل في التوصل إلى الهدف الذي يسعون لتحقيقه ، وهو نشأة مجتمع الحرية.!!

إن جهودنا من أجل مجتمع الحرية لا ينبغي أن تبقي مشتتة متعارضة متباعدة ، فيكون مجموع الأعمال صفراً أو قيمة سالبة .. بل الواجب أن يكون مساوياً لمجموعها ، أو يزيد أضعافاً مضاعفة وكأنه حاصل ضرب ؛ لأن الأعمال والمشروعات يمكن أن تتفاعل وتحقق متوالية كبيرة من الإنتاج، وقد تؤدي . وهذا هو الجانب المخيف. إلى متوالية عكسية سالبة من التناقض والتدمير .. !!

ولذلك فلا بد من القيام بدراسات جادة وعميقة في هذا المجال لتوضيح أمرين أساسيين :ما الحالة التي نسعى إليها ونريدها؟ وكيف نصنع من أعمالنا وأدوارنا " شبكة " تجعلها أكثر فاعلية واقتداراً وتضاعف آثارها الإيجابية ونتائجها الطيبة ؟ .. ولا سبيل لنا إلي ذلك إلا من خلال ..

---

[1] فقه الدعوة ملامح وآفاق – عمر عبيد حسنة - ج 1 - ص 10 .
[2] في النقد الذاتي – خالص جلبي – ص 304 .

• الصحوة واليقظة

" الناظر للسماء يجد فيها نجوماً، و لكن أن ينظر إنسان لهذه النجوم و يرسم بينها خطوطاً متصلة فيري فيها ما يطلق عليه "الدب الكبير" مثلاً ، ثم يتبعه الناس في هذا التصور هو ما يقوم به الاستراتيجي ، فهو يري ما يراه الناس من أحداث ، و ما هو موجود في المحيط ، لكن البراعة في رسم الصلات و إعطاء التفسيرات و رسم الاحتمالات و تقديم البدائل و إقناع الآخرين بها . " (1)

هذه مقدمة ضرورية .. ننتقل منها إلي نظرة لواقع الحركة الإسلامية ، فماذا نري ؟

إن الحركة الإسلامية هي في جوهرها تيار عاطفي ضخم يؤمن بالإسلام ومبادئه ، " ولكنه قليل الخبرة، ضحل المعرفة بتفصيلات واقعة .. تيار يفتقد الخبرة والصبر ليكتشف مناهج التغيير وطرائقه .. تيار يتعجل قطف الثمار ولا يحسن فن ترقب الفرص .. وفي خضم هذه العجلة دفعت الأمة وطلائعها الشابة الدم والدمع والعرض في مقابل القليل من النتائج .. تضحيات كبيرة وثمرات قليلة .. إنها مرحلة تعلمت الأمة فيها عقم واقعها وعظمة فكرتها ، ولكنها لا تمتلك المناهج وخطط التعامل مع مشكلة الزمان والمكان ولا تمتلك ما تحتاجه من تعدد الوسائل وطرق العمل وما يلزم لذلك من سعة الفكر والقدرة علي الابتكار . " (2)

إن الكثيرين ممن ينادون بأفكار التحرر لا يدركون الأهمية القصوى لمسألة التخطيط قبل البدء في العمل ، أو ربما لا يكونون معتادين على ذلك أو مدربين على التفكير بطريقة استرتيجية .. ذلك أن التفكير الاستراتيجي عمل شاق ، كما أن من يحاولون التحرر يتعرضون دائماً لمضايقات من قِبل المستبدين ، وغالباً ما يفتقدون الأمن والوقت لتطوير مهارات التفكير الاستراتيجي ..ومن ثم تكون حركتهم في صورة قفزات وارتجالات عفوية تشكل ردة فعل على ما تبادر إليه المستبدون .. !!

ولا شك أن الطريق إلي العمل الصائب هو أن يمتلك الذين يسعون من أجل الحرية خطة عمل تزيد من فرص نجاحهم ، وتُضعف من قدرة المستبدين .. وهذه الخطة تحتاج إلى القيام بتقييم جيد للوضع ولخيارات العمل المؤثرة المتاحة ، و فهم عميق لجميع نواحي الصراع ، والتي تشمل العوامل المادية والتاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية والنفسية والاقتصادية والدولية .. وهذا يتطلب أن نمتلك الإجابة على العديد من الأسئلة الأساسية مثل .. ما هي العوائق الرئيسية لتحقيق الحرية ؟ .. ما هي

---

(1) الفكر الاستراتيجي ، و الخروج من المأزق الراهن - د / جاسم محمد سلطان - ص 302 .
(2) " الذاكرة التاريخية " - نحو وعي استرتيجي للتاريخ - د/ جاسم محمد سلطان - ص 28 ، 29 .

العوامل التي تسهّل تحقيق الحرية ؟ .. ما هي نقاط القوة الرئيسية للنظام الاستبدادي ؟ .. ما هي نقاط الضعف المختلفة لهذا لنظام ؟ .. إلى أي درجة يمكن التأثير في نقاط القوة ؟ .. ما هي نقاط قوة المجتمع الساعي للحرية ؟ .. ما هي نقاط ضعف هذا المجتمع ، وكيف نستطيع معالجتها ؟ .. ما هو موقف الأطراف الأخرى التي لها دور غير مباشر في الصراع ولكنها ساعدت أو قد تقدم العون للمستبدين ، أو للمجتمع الساعي للحرية ، وكيف ؟

فإذا امتلكنا الإجابات لهذه التساؤلات ؛ فقد خطونا الخطوة الأولي في طريق امتلاكنا الخطة الاستراتيجية للتحرر ، " .. " فالخطة الإستراتيجية إذا أردنا التدقيق والتحقيق والتعرف علي معناها دون اللجوء إلي المصطلحات المعقدة ؛ فهي عبارة عن دراسة لعدد من الأشياء في واقع معين في مكان معين .. دراسة الذات .. دراسة الطرف الآخر المواجه .. دراسة الأرض أو المجال الذي يتم الصراع فيه .. دراسة الظروف المحيطة بالصراع .. تحديد البدائل والوسائل التي يمكن بها تحقيق النصر.. المفاضلة بين هذه البدائل .. ثم اختيار البديل الأمثل للوصول إلي الأهداف في ظل المعرفة الشاملة بالذات وبالآخر وبالأرض التي يتم عليها الصراع وبالمجال والظرف المحيطة بالصراع . " [1]

إن الإنسان إذا ما أراد السفر من مكان معين إلى آخر ، فإنه يحتاج إلى التخطيط مسبقاً لهذا السفر ، واختيار وسيلة السفر ، ثم يحتاج إلى التأكد من توفر المال اللازم لتحمل تكاليف السفر ، والتكاليف الأخرى مثل الإقامة .. والتأكد من وجود جواز سفر ، والبحث إذا ما كان هناك حاجة للحصول على تأشيرات دخول وكيفية الحصول عليها ، ومن سيقوم بالعمل مكان الشخص أثناء غيابه ؟!

و " هذا النوع من التفكير والتخطيط الذي تمر به حياتنا اليومية للوصول إلى غايات معينة هو ما يحتاجه قادة الحركات الاجتماعية والسياسية الذين .للأسف .قليلاً ما يأخذون بعين الاعتبار أهمية التخطيط .. ويظنون أن التشديد على الأهداف لفترة طويلة يعني تحقيق هذه الأهداف .. أو أن الإخلاص للمبادئ والقيم والتمسك بها في وجه التقلبات والأزمات هو أقصى ما يمكن بذله لتحقيقها!! " [2] .. ولا يدركون أن التغيير يخضع لعلاقة بين الهدف والوسيلة .. وإنه من الخطأ كل الخطأ أن نتصور أن نجاحنا في تحقيق هدفنا يمكن أن يحدث بطريقة سحرية غامضة الأسباب ؟! .. بل المطلوب منا هو العمل قدر الوسع والطاقة واستخدام الوسائل التي نملكها .. وما وراء ذلك من أمور أرادها الله بمشيئته المطلقة وحكمته البالغة فالله أعلم حيث يجعل نجاحه وتوفيقه ..

---

[1] **إستراتيجية الإدراك للحراك ـ د/ جاسم محمد سلطان ـ ص 31 ، 32 .**
[2] **البدائل الحقيقية ـ جين شارب ـ** ص 9 .

فإذا " كانت كل الطرق تؤدي إلي هدف واحد ولكن بتوقيت مختلف ، فالواجب أن نتجنب الطرق الطويلة ، طرق الاعتباط و الاستهواء ، الطرق التي سلكتها الحضارات التي كان أمامها ما يكفيها من القرون و من آلاف السنين .. وبلغة التربية : يجب أن نطبق الطرق التي توجه الذكاء في اتجاه الحضارة و التي تجعل تكوينها طبقاً للتطورات اللازمة في نطاق هذه الحضارة " [1] .. ولذلك فإن من " أوجب واجبات الوقت الآن عكوف قادة النهضة وطلابها علي تمحيص السبل والوسائل للانتقال بالأمة من مرحلة الصحوة . التي طال أمدها واستطابت ثمارها . إلي مرحلة اليقظة والرشد والوعي ، ثم الانتقال بالأمة من مرحلة الخطط التشغيلية والتنفيذية إلي مرحلة الخطط الإستراتيجية ، فهذا هو الكفيل . بعد استمداد العون من الله تبارك وتعالي . بالقضاء علي الأمواج وتقليل قوة تيار المخاطر " [2] ، والتعامل مع المشاكل بجدية وصلابة ، والتوفيق بين كل القوي في إطار من الحزم والثبات ، والكر والفر ، والتقدم والتراجع ..

وهكذا .. يصبح عملنا في إطار من خطة شاملة ومستوعِبة لكافة المراحل دون أن نعاني فجوة بين العمل وبين الهدف ، أو ضبابية في المراحل أو تداخلاً بينها يعجزنا عن تحديد بداياتها ونهاياتها ، بل نمتلك رؤية تجمع الجهود العملية النى كانت تبدو متباينة أو متضاربة في مرحلة الصحوة ، ليكون " ميلاد مرحلة اليقظة من مرحلة الصحوة أمراً طبيعياً ، فتمثل مرحلة الصحوة طور " أولي الأيدي " أو التنفيذيين ، وتضيف مرحلة اليقظة دور " ذوي الأبصار " ، لتتكامل معادلة " أولي الأيدي والأبصار " التي أشار إليها القرآن في قوله تعالي : {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } [ص:45].. وعندها ، ينتقل العمل من طور المبادئ والعواطف والشعارات إلي إعمال العقل وإطلاق طاقاته الخلاقة التي تكثّف الجهود لفك الأغلال عن العقل ليبدع أساليب جديدة ، لنقل الأمة من مرحلة الانتظار إلي مرحلة المشاركة الفعلية " [3] في ..

• المشروع الحضاري

كثيراً ما نرى فيمن يقومون بالأعمال من يتجنبون القيام بالواجبات الحقيقية عن طريق القيام بواجبات كثيرة مراوغة .. فبينما يتأسس مشروع النهضة الإسلامية علي أمرين : إصلاح النفس ، والعمل علي تغيير الواقع ، والقيام بعظائم الأمور التي تدور حول هذا الهدف ، فإننا نري من " يهربون من الأمر الثاني لما له

---

[1] مشكلة الثقافة ـ مالك بن نبي ـ ص 109 ، 110 .
[2] "الذاكرة التاريخية " ـ نحو وعي إستراتيجي بالتاريخ ـ د/ جاسم محمد سلطان ـ 168 .
[3] المصدر السابق ـ ص 29 - 31 .

من تبعات و مسئوليات وكفاح وبذل ، ليقوموا بالأمر الأول فيرضون ضمائرهم ، و يقضون حياتهم بين الحرمين ، ويشيدون المساجد ، ويطعمون الطعام ، وينحرون تقرباً وزلفي إلي الله .. !! " [1]

.. وهذه الأعمال علي ما فيها من الخير ، إلا أنها لا تعدو أن تكون شكلاً جديداً من التصوف " سنيّ في مظهره ولا يتحرك خارج الإطار المشروع ، ولكنه عندما يكتفي بهذه المساحة الضئيلة من الفعل فإنه بذلك يخرج ؛ بل ويهرب من المعركة الحقيقية . معركة أن يحمل جزءاً من الهم الإسلامي صغر أو كبر ، إما ليقوم به مباشرة أو ليعين غيره علي القيام به " [2] .. ومن ثم يكون الأفراد متدينين ، وجيدين ، يصلون ويصومون ويحجون .. لكنهم كمجموع قطيع من العاجزين ، الذين لا وعي لهم .. لأن تدينهم فردي لا يتدبر قول الله عز وجل : " أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ؟!! لا يستوون !! "

هذه هي حالنا.. وهذا هو واقعنا في كلمات.. ليست كلمات ناظر يهوى الحديث عما يراه ، أو يحب النظر إلى الحركة الإسلامية من علٍ ويملي عليها الدروس ، ولكنها معاناة فرد من أفراد مجتمع يتطلع إلي الحرية ، يريد النصح لمجتمعه ، ويحاول مع الآخرين رتق خرق العبودية المختارة قبل أن يتسع على الراقع ، وتنبيه إخوانه إلى خطر تلك العبودية ليحاولوا تغيير واقعها الأليم من خلال مشروع حضاري متكامل يتعامل مع الدين كوحدة واحدة ترسم طريق الحياة كما تهذب الأفراد ، وكنظام متكامل يهدف إلى تغيير الإنسان والانتقال به من العزلة إلى الحضور الآني في كل مفاصل الحياة .. لتقديم النموذج القابل للحياة إلى العالم أجمع ، والمساهمة بفاعلية في مشروع حضاري هو الماء والسماد والهواء لمجتمع حر وحياة حضارية ..

إن الإشكال الأساسي عند الكثيرين منا أننا مشغولون بالفعل اليومي الذي ينسينا . في كثير من الأوقات . التوجه الاستراتيجي والفكر المنهجي بعيد المدى .. فهناك فرق كبير بين تنفيذ العمل بطريقة أفضل ، و اختيار العمل الأكثر أهمية .. فالأول هو الكفاءة في العمل ، والثاني هو " اختيار الأولويات الصحيحة منذ البدء ، وهناك قدر كبير من الاختلاف بين الأمرين ، وكلاهما ضروري . فقد يكون عمل المرء فعالاً وهو يؤدي مهمة ثانوية .؟! .. ولذلك فإن لترتيب الأولويات أسبقية لأن المهام أكثر بكثير من الموارد المتوافرة للقيام بها ، وعليه يصبح تحديد الأولويات أمراً ضرورياً ، وهذا ما يحقق توجيه الموارد القيمة المحدودة. البشرية والمادية . لما يناسبها من القضايا .

---

[1] إستراتيجية الإدراك للحراك ـ د/ جاسم محمد سلطان ـ ص 144 ، 145 بتصرف يسير .
[2] المصدر السابق ـ ص 235 .

إن الحاجة لتحديد الأولويات تزداد إلحاحاً وأهمية مع مرور الزمن السريع وتلاحق الأحداث . فلا يكفي أن يؤدي المرء الواجبات المهمة ، ولكن عليه أن يؤدي الواجبات الأهم منها أولاً . " [1]

ولكي يصل المرء إلي هذا الهدف لا بد له من الوقوف علي أهم الأفكار " المحورية التى تسهم فى بلورة المشروع [2] الحضاري .. مثل " التوحيد الخالص العملي : أساس الحضارة " .. " الإسلام : دين وتشريع وحياة " .. " مرجعية الكتاب والسنة : توحد في المنطلقات " .. و " فعاليتنا الروحية : وقودنا للتغيير " .. " تحسين طرائق التفكير : مفتاح التغيير الحضاري الفكري " .. " حتى يغيّروا ما بأنفسهم .. مفتاح التغيير الحضاري العملي " .. " تكريم الإنسان : معيار تفوق الحضارة " .. " تنمية الإنسان أولاً : مؤشر لفقه الأولويات الحضارية " .. " العدالة : ركيزة البناء الحضاري " .. " الموضوعية : البحث عن الحقيقة " .. " الحريّة : فى إطار منضبط " .. " النقد : عملية بنائية " .. " الإبداع : مقومات وبيئة " .. " نهج إداري فاعل: إنجاز التميز وتميز الإنجاز " .. " الوقت : فضاء الإنجاز والعطاء " .. " الفاعلية والاتقان : قيم العمل المنتج " .. " الأخلاق والذوق الجمالي : الأناقة الحضارية " .. " الانفتاح والاستيعاب والإفادة من الآخر: فى دائرة الخصوصية " .. " الرجل والمرأة ك حلقتان متكاملتان وعاملان منتجان " .. " الجماعة قبل الفرد : نحن أولاً " [3]

ولا شك أن هذا المشروع يبقي جسداً بلا روح ، حتي تدب فيه الحياة حين يتولي تنفيذ أفكاره عناصر جادة متحرقة " متشوقة للغلبة والنصر وتحقيق الإنجاز في أرض الواقع ، علي اختلاف أنواع الخلفية التي تحركهم وتدفعهم ، تربوية أو فكرية أو جهادية قتالية أو سياسية ، فصلاح الدين إنما انتصر بمروءته وسيماء العدل والإخلاص قبل أن ينتصر بسيفه .. والخطط مهما كانت مُحكمة مُتقنة لن تكون سبباً في النصر إلا أن نتقدم لتنفيذها بنفس منفتحة ، وروح طموحه ، وقلبٍ ثابتٍ نقيٍ ، وعلمٍ بالواقع يظاهر علم الأحكام .. " [4] لنصوغ " المشروع الحضاري " الذي يطرح الإسلام كمعادلة فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، في مواجهة المعادلة العلمانية التي تدعو أفراد المجتمع للخنوع والاستسلام .. فإذا قمنا بصياغة ذلك المشروع الحضاري ؛ بدأنا تحركنا نحو مجتمع الحرية في صورة ..

---

[1] دليل التدريب القيادي ـ هشام الطالب ـ ص 33 .

[2] كلمة مشروع تعني أنشطة متتابعة ، للوصول إلي مخرجات محددة ، من خلال ميزانية محددة ، ومدي زمني محدد ـ راجع إن شئت " كتاب Project Management لـ " أندي بروس " .

[3] المسألة الحضارية : المسار والمشروع – د/ عبدالله البريدي ـ راجع إن شئت قضايا فى المسألة الحضارية – المنتدى الحضاري – موقع muntadana .com

[4] إحياء فقه الدعوة ـ رؤي تخطيطية ـ محمد أحمد الراشد ـ ص 4 بتصرف يسير .

• التيار لا التنظيم

" مثل " الجنين " في رحم الأم ، تحتاج كل " فكرة " و " تجمع " و " طليعة " لفترة " حضانة " وحماية ورعاية خاصة وجناح دافئ يغطيها من وهج الحر وزمهرير البرد وظروف " الخارج " المتقلب .. هذا كله في فترة " الحضانة " مقبول ومعقول ومنطقي ، لكن هل من الممكن أن يتحقق ويتكامل ويكتمل " النمو الطبيعي " للجنين داخل الرحم ؟! .. هل من الممكن أن يصبح الجنين طفلاً وصبياً وشاباً ورجلاً ذا شارب وهو داخل الرحم ؟! .. بالطبع لا ..

لقد شاءت إرادة الخالق أن تكون فترة " الحمل " و " الحضانة " و " الرضاعة " فترة محددة ، ثم تظهر " الأسنان " وينمو " الشعر " و " الأظافر " وتقوى " العظام " وتتسع " المدارك " و " الحواس " ويبدأ قانون { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ } [الانشقاق6] ، ويبدأ الإنسان في التواصل مع المجتمع بالقول والحُلم والفرح والحزن والاستحياء والاحتشام والإقدام والإحجام .. " [1]

نعم .. قد نتفهّم رغبة الحركة الإسلامية في " العزلة " وهي في فترة " الحضانة " ، أمّا " عدم تواصلها " مع القوى الاجتماعية المتفاعلة في المجتمع السياسي بعد أن تجاوزت مرحلة " الحضانة " وظهرت أسنانها، ونما شعرها ، وقويت عظامها ، واتسعت مداركها وحواسها وبدأت في مزاولة " الضرب في الأرض " و " الكدح " ، فهو الأمر الذي لا يمكن تبريره .. بل هو الأمر الأخطر الذي يمكن أن تتعرض له الحركة لأنه يحولها إلي " فرقة " أو " طائفة دينية " ، ويفصلها عن الجماهير التي هي الرفد والمواد الخام لها في عملية التحرر ..!!

ولذلك ، فإن " صيغة " التنظيم " أصبحت تتآكل في أكثر المجتمعات ، ليحل محلها فكرة " التيار " ، والفرق بينهما أن التنظيم مجموعة من الأفراد تتفق على منظومة من الأفكار تعتبرها صالحة كبرنامج للحكم الذي يسعى إليه الحزب .. بينما " التيار " هو مجموعة من الأفراد ومن ذوى مشارب مختلفة يتفقون في الرأي حول قضية معينة في مرحلة معينة .. ومن ثم تقوم فكرة " التنظيم " على عامل أساسي ، وهو عامل " السيطرة " على العضو ، بينما لا يشكل ذلك عاملاً أساسياً في " التيار " ، بل إن فكرة " التيار " ترفض عامل السيطرة . " [2]

---

(1) الحركة الإسلامية ـ ثغرات في الطريق ـ د/ عبد الله النفيسي ـ ص 84 بتصرف يسير ـ راجع موقع *www.alnefisi.com*

(2) المصدر السابق ـ وراجع إن شئت " مقال للدكتور عبد الله بن فهد النفيسي ـ مجلة المنار الجديد ـ العدد 37 " .

إن ما نحتاجه في سعينا إلي الحرية هو " المرجعية " وليس " التنظيم " .. نحتاج إلي " القلب المرجعي " المُشبّع بالعلم الشرعي ، وبالفكر الاستراتيجي ، وبفهم الواقع المحلّي والإقليمي والعالمي .. فهذا ما قام به " أئمة الفقه الكبار مثل : أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل . رحمهم الله جميعا . فهم لم يؤسسوا تنظيما سياسيا ، بل " مرجعيات " فقهية ترتكز على " المصداقية " في التأثير واستقطاب واصطفاف الرأي العام ، وتحولوا جميعا بمضي الوقت إلى " تيارات " في الأمة ، ولا يزال حضورهم " الفقهي " يؤثر في الجميع حتى الآن ..!! "[1]

إن الدراسات المتخصصة في علم الاجتماع السياسي تؤكد أن الجماهير تتحمس لمساندة التيار الذي يتحقق فيه شرطان : " أن يفهم الجمهور مقاصد التيار وأهدافه " و " أن يجد الجمهور لدى التيار حلاً لمشاكله الحقيقية التي يعاني منها " .. لذا ينبغي أن نعرض فكرتنا للجماهير في صورة واضحة ومفهومة وميسرة .. هذا من جانب

ومن جانب آخر أن نحدد بعملية موضوعية مشاكل الجمهور ، وفق معطي الواقع لا خيالاتنا نحن .. و هذه هي الحكمة التى يخرج بها المرء من تكرار تجارب الفشل فى استنهاض القوم من أجل حريتهم .. أنه لكي تتمكن من تحريريهم لا بد أن بد أن تكون واحداً منهم .. !!

ومن هنا ، فإن علي المفكر " أن يخاطب رجل الشارع ، يثير فيه عناصره النفسية الدفينة ، ويدفع . من خلال قرع الضمير الجماعي . ذلك الرجل العادي ليحيله إلي قوة خلاقة ، تنطلق في عملية إيمان بالذات لتثير فيضاناً يتحكم في مصائر الحركة " . "[2] .. وهذا يتطلب أن تغادر الفكرة رفوف النخب إلي الإنسان المتوسط والبسيط ، وأن يتم تقديم أفكار الحركة في شكل يقاوم حالة الإحباط المنتشرة بين صفوف أفراد المجتمع المستعبَد .. ثم يكون أسلوب التحرك " قائم على قاعدة أن نغشى الناس ، كما قال الصحابي للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ عند قدومه إلى المدينة " اغشنا في مجالسنا " رداً على طلب عبد الله بن أبي ابن سلول بألا يتحرك الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ من المدينة ..

نعم .. يجب أن نغشى الناس ؛ فنذهب إليهم نحن ولا ننتظر أن يأتوا هم إلينا ، ونذهب إليهم بكثرة .. وليس مجرد التسلل إليهم ، ونغشاهم .. وليس مجرد لقاءات عابرة .. حتي تعيش الجماهير واقع الفكرة الذي يستردهم من أسر إعلام المستكبرين . "[3]

---

[1] المصدر السابق ـ راجع إن شئت موقع *www.alnefisi.com* .
[2] دور المفكر السياسي ومسئوليته المجتمعية ـ د / حامد عبد الله ربيع ـ ص 9 .
[3] التصور السياسي للحركة الإسلامية – رفاعي سرور ـ ص 67 بتصرف يسير .

إن الحركة الإسلامية مدعوة لمبادرة ذاتية تقوم بها بنفسها قائمة على " شبكية " العمل وليس "هرميته"، و " مجتمعيّته " وليس " تنظيميّته " ، حتي تتحول إلى مؤسسات تربوية حقيقية ، قادرة على فتح قنوات اتصال مع المستعبدين ، بنفس قدرتها على تربية أفرادها .. وهو أمر يتطلب وجود مذاق ملموس للحرية ، والالتزام بحقوق الآخرين ، والتسامح كقاعدة أساسية للحياة ، و ترك التحرك بفكرة امتلاك الحقيقة المطلقة ، والأسلوب السلطوي في التعامل مع الآخر .. " ثم تكتمل هذه الطريقة بالاقتراب من العامة ، فنجمع جزئيات الخير الصغيرة المتوزعة فيهم علي طريقة تركيب الشظايا ، ثم نطلب ولاءهم وفق نظرية صناعة الحياة ، ونقطف منهم ثمرات ليست هي من الصنف الأول المخصص للتصدير ، وإنما من الصنف الثاني والثالث المخصص للاستهلاك المحلي فقط ، ولكنها ثمرات يانعة أيضاً بإذن الله ، وفيها لذة ورواء وطب وشفاء .. في إطار حكمة علي بن أبي طالب " الغوغاء إذا اجتمعوا : ضروا ، وإذا افترقوا نفعوا " .. فهم إذا افترقوا ؛ رجع أهل المهن إلي مهنهم فينتفع الناس بهم ، كرجوع البنّاء إلي بنائه ، والنساج إلي منسجه ، والخباز إلي مخبزه .. وكما قال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويخرجون الغريق " [1]

وهكذا .. " فمن استطاع أن يمشي معنا إلي آخر الشوط كان ما نريد وفرحنا به ، ومن استطاع السير قدراً يسيراً قبلنا منه ، ومن أعطانا نصرته فقط ما استغنينا عنه ، ومن استطعنا تغيير خطئه ما زهدنا فيه ، وأقدار الناس تتفاوت ، والحياة شلال متدرج من الطاقات. " [2] يدفع الله به خطواتنا نحو مجتمع الحرية من خلال أفراد يؤمنون بفكرة التحرر من الاستبداد ، بينهم شبكة قوية من العلاقات الاجتماعية التي تجعل ذراع المستبد مهما ضرب لا تصيب إلا الفراغ .. !!

ولا شك أنه للوصول إلي هذا الهدف ، فإننا في أمس الحاجة إلي الموازنة في تربيتنا بين الكيف والكم ، والسير وفق قاعدة الطعام وهضمه ، فلا لقمة جديدة حتي ينتهي الفم من اللقمة الأولي مضغاً وطحناً وبلعاً .. حتي إذا استوعب اللقمة الأولي بدأ اللقمة الجديدة ، حتي لا يصاب بالتخمة ، وسوء الهضم والإسهالات ..!! ..

كما أننا طريقتنا في صناعة الأفراد لا بد أن تكون من خلال الموازنة بين آلات المصنع " وهي تعمل ، والمواد الخام وهي تقبل ، ومواد التصنيع وهي تستهلك ، حتي لا يصاب المصنع بالنكسة سواء بآلاته

---

[1] **منهجية التربية الدعوية ـ محمد أحمد الراشد ـ ص 376 بتصرف يسير .**
[2] **في النقد الذاتي ـ خالص جلبي ـ ص 36 .**

التي تصنع ، أو بزيادة الاستهلاك عن كمية التصنيع ، أو بعدم التصنيع أو ضعفه ، أو تكدس المواد الخام القادمة عن طاقة التصنيع ..!! " [1]

ولكي يتحقق هذا الهدف لا بد من توفير المناخ التربوي الذي يفسح المجال لنمو شخصية أفراد العمل الإسلامي، ويتحول بهم من روح " القطيع " والعمل عبر " التقليد الأعمى " .. إلى روح " الفريق " والعمل على " بصيرة " {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [يوسف:108].. مع الأخذ بأكبر قدر من المبادرات الفردية ، فيصبح العمل في إطار وصف النبي (ص) للمسلمين " يسعى بذمتهم أدناهم " .. وقبوله مبادرة امرأة من المسلمين " قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ " .

إن الحركة الإسلامية ليست بطاقات حزبية توزع ، وإنما يعتبر كل من يمارس النشاط الإسلامي ، ويعتبره مكان اهتمامه ، ومحور حياته ، ويبذل لذلك طاقاته ، فهو منتمي إلي الحركة الإسلامية سواء كان داخل أي تنظيم أو خارجه .. والعكس بالعكس ولو حمل بطاقة حزبية .. فالانتماء الحقيقي " وسيلة " إرضاء الرب وإنقاذ الذات.. فهو " بداية " السير، وليس " دليل " اجتياز المراحل.. وهو ارتباط مصيري يغيرّ منهاج حياة الفرد، بل وآماله وأحلامه { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } [الأحزاب: 23]، هذا هو المفهوم الحقيقي للانتماء..

إن الجماهير الآن معزولة عن قضية الحرية ، ولا بد من محاولة إشعارها أن قضية الحرية هي قضيتها المصيرية وأنه لا بد لها من الالتحام بـ " فقهاء " مجتمع الحرية ، والتعاطف معهم ، والاحساس بالارتباط بهم ، والولاء لهم ، وسحب الولاء من خصومهم ، والشعور بعمق الكراهية العقائدية لأولئك الخصوم ، واليقين بأن التنظيمات الإسلامية [2] ليست بديلة عن الجماهير ، ولا بد لها أن تتفاعل مع الجماهير تفاعلاً حياً ، ليعمل الجميع للإسلام وسط كل الظروف ، ضمن إطار " عمل " وليس إطار " انتماء " .. إطار عمل محمود شرعاً " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ " [آل عمران: 104] .. و منصور قَدَراً " لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله " [رواه مسلم] .. إطار عمل يجعل كل فرد في العمل الإسلامي " رِفداً " للعمل ، وليس " عبئاً " عليه..

---

[1] المصدر السابق - ص 229 ، 230 . بتصرف يسير .

[2] رحم الله أبي ، فقد كان عليه رحمة الله يعلمني ألا أدخل تنظيماً أو تجمعاً يغلق على أتباعه بقفل لا يسمح لهم بالخروج أو حتى مطالعة ما يحدث فى الخارج .. هكذا ، وكأنه مخزن ، وكأن من فيه بضائع مكدسة ..!!

إن الجماعات التي تدعو للإسلام لا يجب أن تبقي مراكز احتكارات له بعيدة عن جماهير الأمة ومنفصلة عن جسمها وهدفها ، بل هي مجموعات ترجو أن تكون أكثر كسباً للقضية الإسلامية وأشد اهتماماً بها ، فهي في مراكز متقدمة تتمثل الإسلام وتعطي أنموذجاً عملياً للحياة الإسلامية ، وتدرب على المعاني الإسلامية ، وتمثل الإسلام بصورة عملية لتغري بسلوكها الجاهلين بحقيقة هذا الدين وتكون لهم دليلاً ومرشداً ولا تحتكر الخير وتنتهي إلى تشكل غريب في جسم الأمة بعيد عن حمل أهداف الجماهير المسلمة والدفاع عنها، والتحمل في سبيلها متمثلة قوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }آل عمران104 " [1]

إن العمل الإسلامي ليس حكراً علي الحركات الإسلامية ، فالمسؤولية عن الإسلام والمسلمين هي مسؤولية كل من شهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله علي تفاوت في الدرجات بتفاوت الاستعدادات والقدرات ، والمواقع والظروف .. ولا يجوز لمسلم أن يُقَصّر في النهوض بمسؤولية علي أفضل ما يستطيع ، بل الواجب علي كل فرد أن يبذل وسعه في سبيل الخروج بالأمة الإسلامية من أزماتها، وحمل رسالتها ، ودور الطليعة المؤمنة في ذلك هو تنظيم " وسع " الأمة . أي طاقاتها وقدراتها المعنوية والمادية والبشرية، والتنسيق بينهما بما يكفل حشدها وتكاملها . دون هدر أو نقص . لتحقيق أهداف الرسالة "عبر إنشاء المجتمع الحي الذي يدفع بالأمة الإسلامية إلي التقدم والقوة والريادة البشرية.

لقد مسّت الحاجة إلي أن نتجاوز " العتبة الحزبية " إلى فضاء " التيار " ، لنبدأ حركة فطرية مبرأة من العقد ، لا تشارك في انزلاق المجتمع عن قضاياه المصيرية ، ولو بمجرد تشحيم المنزلق .. تبدأ بـ " نواة " الفقهاء التي تتسم بالفاعلية والحيوية ، تجذب إليها " صفوة " الفكر والتجارب و" خبرة " القدرات والإمكانات ليتكون من هؤلاء جميعاً " طليعة " قوية قادرة علي تحدي كل أعداء الحرية ، والسير في طريق الإحياء الحضاري بصبر ودأب ، حتي يأذن الله بميلاد مجتمع الحرية .

***

---

[1] **نظرات في مسيرة العمل الإسلامي - عمر عبيد حسنة - ص 32 - 41 .**

الفصل الرابع

اقناع لا اخضاع

إذا كان القهر والقمع هو الحقيقة التي تعشش في بنية مجتمع العبيد ، فإن العنف على مختلف صوره هو السلوك الأكثر شيوعاً حين تسنح الفرصة .. وتلك هي كارثة الرباط الإنساني حين تتراجع المعارضة إلي الحد الأدني ، وتبعد المسافة بين الحاكم والمحكوم ، وتصبح الشعوب محاصرة في سجن الاستبداد ، فتحاول الهروب منه إلي ممارسة العنف الذي يتخذ طابع التشفي الذي لا يعرف الارتواء ، لأن الجرح النابع من القهر غير قابل للاندمال .. ومن ثم فهو يولد إفراطاً في جبروت القوة والسطوة تجاه الأضعف، أو تجاه من يسمح بتوجيه العدوانية نحوه ..!!

إن العبيد يرون بسذاجتهم أن الطاغية نبت في وسط الصالحين ، وأن قتل الطاغية سيقيم الحكومة الراشدة ، ولا يدركون أن الشعوب هي التي تصنع طغاتها كما تصنع العاملات الملكة في خلية النحل ؛ ولذلك فهم يفاجأون حين يرون أنه مع سقوط تفاحة السلطة الشهية فى يد فرد منهم ، واجتماع كل السلطات في يده فإنه لا يترك السلطة أبداً ، بل يقبض علي المجتمع بيد الطغيان ، ويترك المنتفعين يسبحون في عسل السلطة بالعشي والإبكار ؛ لأن الطاغية هو إفراز مجتمع تسود فيه القيم النفعية ، ويحلم بالقوة والسيطرة ، فيري أن " الإكراه " و " القوة " هي الوسيلة الوحيدة لمسك رقاب الناس ؛ فتبقي حياته دائرة في دوامات الاستبداد دون أن تختار حتي المكان الذي تدور فيه ..!!

ومن هنا ، فإن الحديث عن القوة ، هو حديث حياة المستعبَدين في صراعهم مع المستبِدين ، لأن مفردات الضعف والقوة ، هي مفردات الحياة اليومية لأولئك المستعبَدين في خط صراعهم المرير من أجل الحرية ، ولا بد لهم إن أرادوا أن يكون هذا الصراع فعالاً أن يحولوه إلي حركة تربوية شاملة تخطط لها المناهج ، وتوضع لها البرامج ، وتتحرك فيها الممارسة علي أكثر من صعيد ، من خلال سلسلة من آليات التغيير ، تدرك أن وراء كل طاغية مستبد مجتمع من الطغاة الصغار ، الذين لو قُدر لأحدهم أن يصير حاكماً لأحرق شعبه بأكمله .!

إن الفرق جِد كبير بين التغيير الاجتماعي ، والتغيير بالقوة .. ففي التغيير بالقوة يتبدل المستبد بمستبِدٍ قد يكون أسوأ منه يأتي جائعاً خائفاً ، فيملأ جيوبه وسجونه من جديد .. وأمّا في التغيير الاجتماعي ، فإن العقلية هي التي تتغير ليحل محلها عقلية جديدة .. وشتان بين قطعة سلاح ، وعقل متألق .. شتان بين الشيء والفكرة .. بين الجماد والروح .. بين الموت والحياة ..

إن فكرة الإسلام ، تدفع العدوان لتصون كرامة الإنسان ، وليس لتستعبده .. تحارب الطغيان لتقلم أظفار الظلم ، وليس لتحل محل الظالم ، فهي أغني بـ " الفكر " عن الحقد ، وبـ " الحق " عن الهوي [1].. وهي حريصة على أن ينتصب ميزان العدل شامخاً لا يهتز أدني اهتزاز ، مهما زمجرت العواطف واشتعلت الانفعالات ، وهي تقيم المجتمع علي " الاختيار " الحرّ ، فى إعتناق " الفكرة " من جانب الأفراد ، وفى الاجتماع لإقامة " الدولة " من جانب المجموع .. فـ " الحرية " هى الأساس الذى ينشأ عليه المجتمع ، وتُبنى عليه الدولة ..

وهذه " الحرية " هي ثمرة النضج البطئ الذي نحرزه علي صعيد تقويتنا لإرادتنا ، وفهمنا لواجباتنا ومسؤولياتنا ، والصياغة الجديدة لعلاقاتنا بما حولنا ، والرؤية الواضحة للحاضر والمستقبل .. تلك الرؤية التي تقوم علي تحرير الإنسان ، و تجعل المساواة والحرية هما روح المجتمع ، وتؤمن أن الدفاع عنهما جهاداً ، وحراستهما مسؤولية ، وتؤكد أن الاعتداء عليهما خرقاً لحدود الله ، وجريمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام ..

إن ثقافة الاستعباد تمجّد كل ما هو نقيض للإنسان وحريته .. تمجّد ذلك بآليات تكبّل العقل وتعيق دورته ، وتغرس فيه قيم النكوص والارتداد ، عبر إشاعة العدوانية ، وغرس الكراهية ، وتمجيد القوة .. ومن ثم وجب علي كل الذين يسعون إلي مجتمع الحرية من خلال الصراع الاجتماعي أن يدركوا أن المستبدين يعتمدون في قوتهم على تعاون المستعبَدين ، وأنه من الضروري جداً في التخطيط والتحضير لممارسة الصراع الاجتماعي أن نكون علي حذر من ..

• العبيد و العنف

كما أن الحب قد يكون بلا حدود من خلال تدفق العواطف ، فإن العدوانية قد تكون متفجرة من خلال العنف في مجتمع العبيد ، بل إنها تنخر بمظاهرها المختلفة بنية ذلك المجتمع ، رغم كل مظاهر

---

[1] **تراءت أمام عيني وأنا أكتب هذه الكلمات ، صورتي طفلاً في المنزل برفقة أبي يعلمني آيات من القرآن ويذكرني الرسالة التي يعيش المسلم من أجلها ، والحب الذي يحمله للإنسان كل الإنسان.**

السكون والدعة والمسالمة الظاهرية ... فالعنف هو الوجه الآخر للقهر ، ولا يوازي شدة العنف ولا يفوقه إلا شدة القهر والإرهاب ، ولذلك نجد أنه عند أول بوادر زوال الخوف من السلطة ؛ يتفجر العدوان في شكل عنف مباشر مدمر ..!!

وتزداد حدة العدوانية مع ازدياد حدة القمع المفروض من الخارج من ناحية ، وازدياد إحساس الإنسان المقهور بالعجز عن التصدي له من ناحية ثانية .. فليس هناك علاقة تكافؤ ، أو حوار ، بين السلطة والجماهير ، وليس هناك اعتراف متبادل ، فالسلطة من ناحيتها لا تريد مواطنين ، بل أتباعاً ..!!

والجماهير " المقهورة متعطشة بشكل مزمن للقوة في مختلف رموزها وعبر شكليها الأساسيين : البطش والغلبة من ناحية ، والعظمة والتعالي من ناحية ثانية ، وهي مستعدة للانقياد وراء زعيم مغرور يقودها في هذا الاتجاه ، يفجر ميولها للتشفي والعظمة ، ويعبّر عنها ؛ فتنساق وراءه وتستسلم له بشكل رضوخي طفلي ، تتعطل فيه إرادتها وقدرتها على الاختيار والنقد ، ولا يبقى سوى طاقة انفعالية متفجرة تفيض على كل شيء ، وتكتسح أي صوت للعقل ..!!

إن الجماعة المقهورة عاطفية انفعالية تعشق العنف والسطوة ، وتعشق الرضوخ لرموزها وأبطالها ، وتتحرق عطشاً للإثارة الانفعالية والتهييج الذي يلهب حماسها . ويوهمها أنه يملك التغيير السحري لمصيرها من بؤس وركود وموات ومهانة ، إلى نشوة وامتلاء وتضخم ذاتي .. فتتشبس بقيادته التي تشعرها بالحياة ، وتعوض لها نقصها ، وتستبدل مشاعر العجز ، بأحاسيس الجبروت والسيادة . وتتضخم أهمية هذه الجماعة على حساب الخارج تضخماً مفرطاً يجعلها تنغلق على ذاتها ، فهي لا ترى إلا نفسها ، ولا تحس بقيمة خارج قيمتها ، ولا تعترف بوجود غير وجودها ..!! " [(1)]

لقد احتضن لا وعي المقهورين والمستعبَدين جرثومة ثقافية عجيبة ، وهي : أن البطل من يأخذ حقه بيده ، ولذلك نجد أن العدوانية تنخر وجود الإنسان المستعبَد ، وهي في ذات الوقت عبء وتهديد للتوازن النفسي ، ودافع للإقدام على العديد من تصرفات تدمير الذات ، كما أنها في الوقت نفسه دفاع ضد التهديديات التى تأتيه من الخارج ؛ فهو في حالة تعبئة نفسية دائمة استعداداً للصراع .. نلاحظ ذلك في كل حركات حياته ، فهو لأقل الأسباب ينفجر في سيل من الشتائم والسباب ، كما أن هذا السباب سرعان ما يتدهور إلى المهاترة والتحدي والوعيد ، فتطغى الإنفعالية على العقلانية .. ومن ثم لا يقدر الإنسان المقهور على الاستمرار في الجدل الهاديء ..!!

[(1)] التخلف الاجتماعي ـ مدخل إلي سيكلوجية الإنسان المقهور ـ د. مصطفي حجازي ـ ص 179 ، 180 . بتصرف

إن زمن المنطق والعقلانية في تفاعل الإنسان المستعبَد مع الآخرين قصير جداً ، وهو سرعان ما يشعر بانعدام إمكانية التفاهم ، فتغشى بصيرته موجة من الإنفعال .. فيتدهور الحوار إلى السباب ، ثم إلى التهديد ، ليمر بسرعة إلى الاشتباك ، وذلك باستخدام العضلات أو ربما السلاح ، هكذا في سهولة مذهلة " في فورة الغضب " ، ذلك أن هناك إحساساً دفيناً بانعدام فعالية الإقناع ، ولذلك يتحول الأمر بسرعة إلى الحسم السحري " العضلي أو الناري " من خلال الإخضاع .

والواضح أن هذه العدوانية " تتلمس الفرص كي تطغى على كل علاقة ، فهي فى معظم الأحيان غير متناسبة مع حجم وأبعاد المشكلة التى أثارتها . وكأن هذه ليست سوى الفتيل الذي أشعل برميل البارود، ويبدو الأمر بوضوح في أصغر الصراعات " الخناقات " .. بل حتي كلمة خناقة مثيرة في دلالتها الرمزية ، فكأن الصراع لا يمكن أن يكون أقل من عملية خنق متبادل . والواقع أن العدوانية تتفجر لدرجة تبلغ حد الرغبة في إبادة الخصم ..!! بل يبدو أن هذه الإبادة وحدها تطفيء جذوة العدوان ؛ ولذلك فإن جنايات القتل الفجائي إثر خصام آني ليست نادرة في المجتمع المتخلف ، بل ولأتفه الأسباب " أفضلية مرور ، نزاع على الدور فى انتظار الحصول على خدمة ما ، حوادث اصطدام السيارات!! " [1]

إن الإنسان المستعبَد يفتقر إلى المرونة ، وإلى القدرة على بحث الأمور من جوانب متعددة ومنظورات ومستويات شمولية .. ومن ثم فهو يعيش حالة من التصلب الذهني الذي يحجب رؤية النسبية في الأشياء والظواهر ، و هذا التصلب الذهني هو نتيجة حتمية من نتائج القهر الذي يخضع له الإنسان المستعبد ، ذلك أن قصور التفكير يتناسب بشدة مع درجة القهر المفروض ، فالإنسان عندما يعجز الإنسان عن حل مشاكله باستخدام مداركه العقلية ، فإنه يلجأ للعنف .. فمثلاً : حين نريد حل عقدة خيط فإننا نحتاج إلي الصبر واستخدام العقل ، أمّا عندما ينفد صبرنا بقلة استخدام العقل ؛ فإننا نلجأ إلي العنف فنقطع العقدة والخيط ..!!

وأيضاً : في فتح الباب ، بقدر استخدامنا العقل والصبر ، يكون الفتح فنياً .. أمّا حين نفشل في ذلك ، فإننا نلجأ إلي العنف " كسر الباب " !!

---

[1] المصدر السابق ـ ص 177 بتصرف .

وإذن ، فهناك دائماً علاقة عكسية بين الفهم ، وبين العنف .. فكلما زاد الفهم قل العنف .. وإذا حصل لك يوماً شعور بالانفعال جعلك تضرب شيئاً أمامك لعجزك عن حله بسبله الصحيحة ، أو رأيت من يفعل ذلك ثم أتبع عمله بقوله : هذا أمر غير قابل للحل ، فاعلم أن هذا الموقف غير علمي ، لأن العلم رحمة ، وعفو ، وصفح ، وتسامح ، وهداية ، وأمل مشرق ، وليس يأساً مطبقاً ..

وإذا رأيت الناس يائسين من تغيير أوضاعهم وحل مشكلاتهم ، وإذا رأيت الناس غير مبالين للاستماع إلى شيء ؛ فاعلم أن سبب ذلك هو اليأس المبين ، والعجز والكسل والجبن والبخل الذين هم من ذراري الجهل ..!!

إن الإنسان المستعبَد يرزح تحت عبء انفعالاته التي تفيض على العالم وقضاياه ، حيث تنحسر درجة الموضوعية ، بل وتتلاشي في بعض الأحيان ، وبخاصة في لحظات الشدة حيث يغرق الإنسان المقهور في تيار جارف من الانفعالات ، مما يفقده السيطرة على واقعه فضلاً عن مجابهته ؛ فتصبح ظاهرة طغيان الانفعالات من الظواهر المألوفة عند الإنسان المقهور ؛ وينتج عنها عدة ظواهر ، أبرزها سرعة تدهور الحوار مع الآخر ، فالنقاش يبدأ موضوعياً واقعياً ، ثم لا يلبث أن يفجر انفعالات شديدة ، فيتحول من حوار هاديء يجابه الحجة بالحجة إلى صراخ ومهاترات ، ثم ينزلق بسرعة إلى حوار طرشان يتحول معه الآخر إلى مجرد عقبة تعوق الوصول إلى الهدف .. ومن ثم ، يتحول النقاش إلى صراخ وخصام يسير صعداً نحو مزيد من تدهور العلاقة وانهيار المنطق ، ليتدهور نحو اللغة الحركية ، لغة القوة والإخضاع بعد أن فشل الإقناع ..

إن العنف شجرة خبيثة جذورها الكراهية وأغصانها الخوف وثمرتها الجريمة. والتعصب أوله إغلاق لمنافذ الفهم وآخره حرب وقتال ، وإذا جاء بعض الخبثاء فاستخدموا بعض المتحمسين المغفلين فهي لعبة مثيرة ، ولكن من يؤديها وينفذها هم المتحمسون المغفلون .. وليس هناك أكثر اندفاعاً من الثور ، ولكن المصارع يلعب به بخرقة .. وهذا ما يحدث للعبيد من خلال خدعة ..

• الصدام المُتعجِّل

" قد نرى في الطرقات أشخاصاً يطاردون الأطفال ، لأن الأطفال كشفوا فيهم بعض نواحي الضعف، كأن ينادونهم بألقاب معينة تثيرهم . إن الأطفال هنا كشفوا ضعفاً في إرادة هذا الإنسان ، فيخرجونه من طوره الواعي بسهولة ، إذا اهتدوا إلى النقطة التي تثيره ، أو إلى الزر الذي إن ضغط عليه حدث لدى

هؤلاء استجابات معينة .. وهذه الأزرار موجودة عند كل الناس .. فقد يذهب بعضُ الناس إلى إنسانٍ يريدون إثارتهُ فيذمُونَ له رأيا ، أو يستخفون من شيء يقدسه حتى تغلي مراجل قلبه ، فيخرجون من التباحث إلى التَّهاتُر والتشاتم ، وقد ينتقلون من استخدام اللسان إلى استخدام الأيدي .!!

وكما تنطبق هذه الفكرة علي الأفراد ، فإنها تنطبق علي المجتمعات من حيث إمكانية الإثارة ؛ فنري زمرة من الناس دربهم الكبار على التلاعب بالمجتمعات وإثارتها ، ليؤدوا دورهم ، في الوقت المحدد ، في مجتمعات لم تبلغ مرحلة النُضجِ والرُشد .. فيخرجونها أمام العالم في صورة وحش ، ينبغي أن تُقيد حدودُ إمكانياته ؛ ليكون هذا سبباً في تبرير ما يقومون به من إجراءات للحد من حرية حركته أو الحجز عليه كالسفهاء !! " [1]

وهذا ما يحدث حين يتعرض العمل من أجل الحرية .في بعض الأوقات .إلى نوع من الانتفاضة السحرية ، فيتصور المستعبدون أن التحرر كله إنما هو في حمل السلاح ، فتنحسر.قيمة العمل الصامت طويل النَفَس لحساب القتال !! ذلك أن الشعب المستعبَد يريد نتائج عاجلة وعملاً ملموساً و حلاً سحرياً ، ويريد استخدام السلاح كعصا سحرية تقضي.على الماضي الأسود إلى غير رجعة .. ومن ثم ، فهو يحاول الوصول إلي خلاص سريع من خلال القتال ، الذي هو في حقيقته عقبة فعلية في وجه حركة التحرر ..!!

وتأمل معي هذه القصة الرمزية ففيها العبرة ..

قتل والد شاب ، فذهب إلى مدرّب لفنون القتال حتى يتعلم على يديه لكي يقتص من قاتل أبيه ، فقال له المدرّب : إن تعليمه يستغرق عاماً على الأقل .. إلا أن الإبن المكلوم توسّل إليه ليقلل فترة التدريب ووعده أن يتفرّغ تماماً لتعلم فنون القتال ، ويترك ما دون ذلك من مشاغل الدنيا.. فأخبره المدرّب أن الأمر فى هذه الحالة يحتاج إلى عامين !!

تعجّب الإبن ، وطلب من المدرّب أن يفسّر له : كيف تزداد فترة التعلّم كلما زادت لهفتى على القصاص ؟

قال المعلّم : لأن تسرعك فى الإنتقام يجعلك تتعلم ببطء .. !!

---

[1] مستفاد من كتاب " حتي يغيروا ما بأنفسهم " لـ " جودت سعيد " .

وهذه هي العبرة .. إن التسرع فى مواجهة موقف ما ينتهي بحل طارىء وسريع .. وهذا الحل فى الغالب يمثل جزءاً كبيراً من مشكلة جديدة قد تكون أكبر من الأولى .. تماماً كمن يلجأ إلى تغطية جدران منزله المتهالكة بورق الحائط الذى سرعان ما يتساقط لعدم إعداد الحائط إعداداً جيداً فيخسر بذلك قيمة الورق ، ويشوّه الحائط ، ويزيد من حجم المشكلة ..!!

إن المستبِد لا يري في جماهير المستعبَدين أكثر من أناس بسطاء يمكن توريطهم في أفخاخ السياسة ، فيتجاهل رأيهم ويصادر حرياتهم ، حتي يبدو الأمر للجميع وكأن كل الأساليب عديمة الفائدة ، ويكون رد فعل الأكثرية أن العنف وحده هو السبيل للقضاء على الأنظمة الاستبدادية ، فنجد الضحايا الغاضبين ينظمون صفوفهم لمحاربة الممارسات الوحشية للمستبِد ، مستخدمين العنف .. وهو الأسلوب الذي يتفوق فيه الطغاة ، ويتميزون باستعدادهم لاستخدامه في سحق حركات التحرر ، مواجهتها بوحشية تقتل ما تبقي لدي الجماهير من أمل !!

إن محاولة قتل الباطل ، قبل إظهار الحق بوضوح يمد في حياة الباطل ويعطيه حقاً في البقاء، بل ويظهر الباطل كأنه مظلوم ومعتدى عليه ، وله حق الدفاع عن النفس ، بل وربما أظهره بمظهر الشهيد ؛ فيخسر الحق مضاءة ويظهر بمظهر المعتدِي والظالم .. ولذلك فإنه من الضروري أن " يتعلم الناس كيف يحصلون على الحرية بأنفسهم ، وأن يتأكد لديهم أن هذا الأمر ليس سهلاً ، وأنه لنيل الحرية لا بد من وضع خطط عمل تقود إليها " [1] ، فليست القوة بالحماس والانفعال بل بالسعي الدائب ، والتخطيط وضبط النفس أمام التحديات الخارجية ، ومحاولة الاستمرار حتي الوصول إلي الحرية بتوازن يحكم الإحجام كما يحكم الإقدام ، دون الاستسلام لزهو البطولة الانفعالي ، أو الوقوع ضحية عقلية الفروسية الفردية .

إن العمل المكيث هو العمل القادر – بإذن الله – على تحقيق الحرية ، وبقائها ، والحفاظ عليها ، وتدعيمها .. ولذلك فإن من أوجب واجبات المجتمع الساعي إلي الحرية ألا ينشغل بالتحركات الصغيرة التي يقوم بها المستبدون ، والتي تقوده إلى الابتعاد عن الإستراتيجية الرئيسة .. وإنما يقوم هذا المجتمع بالتركيز على النشاطات الهامة ، وعدم السماح للعواطف اللحظية أن تشكّل ردة فعله على ممارسات المستبِدين الوحشية فتغيّر مجرى حركته ، أو تحوّل أفراده إلي مجرد أحجار على رقعة الشطرنج يُحركها المستبِدون ؟!!

---

[1] **من الدكتاتورية إلى الديمقراطية – إطار تصوري للتحرر – جين شارب ـ ص 60 بتصرف يسير .**

إن البعض يخيّل إليه أن " القوة تتمثل في مواقف الفروسية الانفعالية التي تنطلق من خلال مشاعر الزهو الذاتي الذي يفجر في أعماق الإنسان الإحساس بالبطولة التي توحي له بالمغامرة والتضحية بنفسه ، ولو علي حساب موقفه وقضيته ؛ لأنه لم يستطع الصمود أمام التحديات العاطفية التي أريد لها أن تهزم موقفه، فانهارت بذلك مقاومته وسقط صريع عقلية الفروسية الفردية ، التي تخضع للحمية العاطفية بدلاً من أن يصمد إزاء طبيعة الفروسية الجماعية التي تنطلق من الخطة المدروسة " [1]

إن الصبر يصبح من مظاهر القوة " في الحالات التي تفرض علي الإنسان مواجهة الموقف ، من غير الجانب الذي يملك العدو فيه قوة الحركة ، لأنه يعطي الإنسان قوة التحمل للآلام التي تفرضها المعركة، من مشاعر عنيفة تتحدي الكرامة ، وإعداد طويل للمستقبل ، واستسلام للجوع والحرمان ، والخسائر المتلاحقة التي يحاول العدو من خلالها زحزحة الإنسان عن موقفه ، و من خلال ملاحقة واعية لمراحل تنفيذ الخطة دون الوقوع في هاوية السرعة والارتجال " [2] أو افتقاد الانضباط بين بطء الخائف ، وتهور المتحمس ..!!

إن من الأهمية بمكان أن ندرك أن " لكل عمل أسلوبه الفني الخاص به ، ومن غير اتباع ذلك الأسلوب فلن نحصل على النجاح الذى نتطلع إليه .. ويذكرون فى هذا السياق أن أعرابياً نزل من البادية إلى الحاضرة ، وصار يمارس التجارة ، وبعد مدة وجد نفسه وقد خسر ما لديه من مال ، فلم يعرف سبب خسارته ، وقال عن أهل السوق من سكان المدينة : " سبحان الله يَلْحَنون ويربحون ، ونحن لا نَلْحَن ونخسر " ! .. فقد ظن الأعرابي أن التكلم بالفصحى يجعل المرء يربح فى تجارته ، وأن من يلحن فهو خليق بأن لا يربح . وما درى أنه لا علاقة سببية بين هذا وذاك ..!! " [3]

إننا جميعاً نمتلك أحلاماً ، وقد تكون هذه الأحلام . في أحيان كثيرة . أحلاماً مقدسة ، " ولكن الحكيم يحلق في سماء الطموح ، وينظر إلي أقصي ما يود تحقيقه ، ثم يعود إلي أرض الواقع ليحدد الخطوة الممكنة في اتجاه الحلم ، و الطريق الممكن باعتبار الزمان والمكان والقدرات وليس باعتبار ما ينبغي أن يكون .. وهو يعلم أن الحلم لا يمكن تحقيقه إلا إذا وضع في شكل أهداف قابلة للتحقق ، فالهدف الذي لا يقبل التحقق هو نوع من الأماني .. ولذلك فهو يسعي لمعرفة الممكن من الأهداف في اتجاه الحلم وليس الحلم

---

[1] **الإسلام ومنطق القوة – محمد حسين فضل الله - ص 275 ، 276 بتصرف .**
[2] **المصدر السابق - ص 276 ، 277 - بتصرف .**
[3] **مفاهيم قرآنية فى البناء والتنمية – د. عبد الكريم بكّار - ص 104**

في حد ذاته " [1] ، فهو مثل قانص يرقب قرون المها تلمع خلف التلال ، فيتناول قوسه وسهاماً ، فيشبع وعياله لحماً لذيذاً .

وهكذا هو .. في ترقب دائم ، وسعي دؤوب من خلال الممكن لتحقيق حلم الحرية ، والتخلص من ..

• الاستبداد و المستبد

يظن البعض أن آلية تغيير الاستبداد هي تغيير المستبِد ، لأن هذه الطريقة – في رأيهم – أسرع وأنجع وأبقى من التغيير الاجتماعي ، ويفوتهم أن الوسط عندما يمرض لا يرفعه صلاح صالح أو استقامة عادل ، وأن الجراثيم عندما تضرب لا تقتل بقوتها ، بقدر انهيار الجهاز المناعي .، و أن من يظن أن العبد عندما يحرر يتحول إلى سيد بكل وظائفه النفسية يثبت جهلاً مريعاً في قوانين النفس الإنسانية ..!!

إن البعض يحاول إسقاط النظام الاستبدادي ليصبح هو السيد الجديد ، وهؤلاء . إن نجحوا . يكون نظام حكمهم أشد بطشاً واستبداداً من نظام الحكم القديم !! .. وقد نبه القرآن إلي هذا المرض الخطير في حوار موسي مع قومه حين قالوا له : {أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا } [الأعراف129]، فكأنهم يقولون لم نستفد شيئاً من دعوتك .. وكان جواب موسى لهم : { عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف129]

إنه ينبههم إلى المرض الخطير الذى يقطع الظهور ، ويلوى الأعناق ويوقظ جينات ثقافة الطغيان التى لم تُستأصل من النفوس .. تلك الثقافة التي تجعل الكثيرين من المستضعفين يتلمظون أن يحلوا محل المستكبرين .. وعندها ربما فاقوه ظلماً واستبداداً .. فالمشكلة ليست في أن نتبوأ مكان الخليفة أو الفرعون، ولكن المشكلة كيف سنعمل بعد ذلك وما المؤهلات التي عندنا لنساهم في بناء مجتمع الحرية الذي نتطلع إليه ؟!

إن الخطوة الأولى فى الطريق إلى الحريّة هى : الوعي بـ " كيف " يعمل الإستبداد ؟ ... ذلك أن المستبد لا يعمل منفردا بل تتعاون معه عصابة قليلة العدد تتقاسم معه الأرباح والجريمة .. و الخروج من استبداده فى جملتين اثنتين : الشعور بالحاجة إلى التحرر ، وتصور البديل لحياة الاستعباد .. " وإلا كان " استبدال الصداع بالمغص والسل بالشلل !![2] .. ذلك أن فرعون بفرعون لا يحل المشكلة ، وإزالة الظلم هي أقل من نصف الحل ، وإنما الحل في إقامة العدل .. والمهندس الحكيم لا يهدم البيوت القديمة مهما

---

[1] قواعد في الممارسة السياسية ـ د . جاسم محمد سلطان ـ ص 116 ، 117- بتصرف .

[2] على حد تعبير الكواكبي ـ راجع إن شئت " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد " .

كانت سيئة ، ليترك أصحابها تحت المطر والريح ، بل يقوم بتهيئة البيت الجديد ، فإذا نتقل إليه صاحب البيت القديم ، لم يرجع إلى القديم قط ..!!

إن إرادة تغيير واقع معين لا تكفي وحدها للتغيير ، فقد يحاول أحدهم تغيير واقع ما ، وينجح في تغييره ، ولكن إلى واقع أسوأ من الذي قبله ، فيكون هذا الذي قام بالتغيير قد أساء ، بالرغم من كل الجهود التي بذلها في هذا السبيل ..!! ، ولذلك ، فإن على الإنسان أن يفكّر ملياً في صحة وصدق ما يحمل، كما يجب عليه أن يعلم إن كان ما يحمله من ضروب الخيال والوهم .. ، وأن يفقه الكيفية التي يريد أن يغير بها واقع مجتمع العبيد .

إن الناس " بطبيعتهم يخشون التغيير خاصة إذا كان نحو مجهول ، وهم علي استعداد لتحمل وقبول السلطة القائمة بأخطائها ومظالمها وحتي فسادها إذا كان البديل هو الفوضى أو المجهول .. ومن هنا لا تنجح المعارضة بمجرد انتقادها للأحوال القائمة وفقط ، ولكنها تنجح إذا فعلت ذلك إضافة إلي تكوين تصور واضح لبديل يحمي من الفوضى ومن المجهول " [1] ، لأن سقوط نظام معين لا يخلق المجتمع المثالي ، بل إنه يفتح المجال أمام جهود طويلة لبناء علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية عادلة ، والقضاء على كل أشكال اللاعدالة والاضطهاد والاستعباد ...

نعم قد يزول النظام المستبِد ، لكن الواقع لا يتغيّر كثيراً ؛ لأن داء الاستبداد قد تمكن أفراد المجتمع .. وما أن يأتي حاكم جديد للنظام حتي تلتف حوله حاشية من الانتهازيين كأعشاب العليق يضعون بينه وبين الحق والعدل الحواجز بعد الحواجز ، ويملأونه غروراً حتى يصدّق ما تقوله ألسنتهم الكذب . ومهما أوتي من صلابة الخلق ، فإنه بعد قليل يجرفه تيار الكذب بحيث يكون هو نفسه أول المصدقين . وتبقى الصحافة ووسائل الإعلام كفيلة بإفساد ما تبقى ، وقلب المعاني رأساً على عقب ، فإذا خطب خطبة تافهة قالوا : " خطاب تاريخي " .. وإذا هدر بأوامر لا معنى لها ، صاحوا بصوت كهزيم الرعد " توجهات سامية " .. وكأن كل كلمة يقولها هي " كن " فلا بد للشيء أن يكون .. وكأن الحاكم بمثابة الإله ؟!!!

ومن هنا ، فإنه من الأهمية بمكان أن يكون هناك خطط واضحة للتحول من الاستبداد إلى الحرية ، بحيث تكون هذه الخطط جاهزة للتطبيق عندما ينشأ مجتمع الحرية ، لأن التغيير حين يقع في المؤسسة المستبِدة دون أن يوازيه تغييراً في بنية المجتمع الذهنية ، ولا في طبيعة النظام الاجتماعي ، ولا في القيم

---

[1] علم النفس السياسي - رؤية مصرية عربية - د. محمد المهدي - ص 141 ، 142 .

والتصورات وطريقة التفكير ، ينتج مجتمعاً من المستبِدين الصغار الذين يُمارسون الاستبداد كلٌ على قياسه ، ويقومون بمصادرة الحرية ، ليعودوا بالمجتمع إلى مستنقع الاستبداد !!

إن من يتابع واقع أكثر الذين ينادون بمجتمع الحرية ، ويتفحّص موقع " الحرية " في تعاملاتهم الداخلية اليومية سيلاحظ موقعاً لا يصب في النهاية لصالح " الحرية " ولا لمن يمارسها .. فالفرد من هؤلاء " يعايش في سنواته الأولى دفعة معنوية عظيمة على طريق " تحريره " من النظام الاجتماعي والسياسي السائد في المجتمع الأوسع بما يمثله من تفرقة اجتماعية وسياسية .. ولكنه بعد فترة من معايشته وتماسه المباشر مع غيره ممن يحملون نفس الهدف ، يبدأ في سماع نغمة جديدة يصر. القائمين على حركة التحرر إسماعه إياها ليل نهار .. وهذه النغمة تؤكد على وجوب السمع والطاعة ، والانصياع لأولى الأمر مهما كلف الأمر . وأن يكون الفرد طينة طيّعة في يد " التنظيم " وآلة لا عقل لها ولا إرادة ولا تمييز.. ومن ثم يفقد الفرد كثيراً من مواهبه الفردية ، بل ومن فروسيته ..!! ذلك أن ضغط التنظيم على الفرد يطمس مواهبه وإبداعه ويلجم فروسيته ..

إن الفرد يدرك. إذا كان من أهل الفطنة. أنه تحرر من النظام الاجتماعي والسياسي للمجتمع الأوسع ، ليصبح في طوق جديد لنظام آخر يمليه التنظيم حيث الضغط أشد وأوقع وأكثر إيلاماً .. وكأنه خرج من إسار ودخل في آخر ، وتخلّص معنوياً من سلطة ، ليسلم رقبته لسلطة أخرى ..!! " [1]

لقد أصبحت فكرة الالتزام بمبادئ وقيم الحرية .بكل أسف. غريبة عن الوعي ، " بل أصبحت تعني سذاجة الشخص و بساطته ، و تصدر عن هذا التصور ، أنماط غريبة من السلوك الفردي و الجمعي قائمة علي إباحة الفرد لنفسه أو لجماعته انتهاك حقوق الآخرين ، و إنكاره عليهم كل ما يبيحه لنفسه و أترابه..!!

و ما ينطبق علي الفرد في علاقته مع الأفراد الآخرين ، ينطبق بصورة أخري علي الدولة في معاملتها للمجتمع. فهي تبيح لنفسها كل ما تنكره علي غيرها ، تحكم بالقوة و تعتبر استخدام القوة جريمة ، تخرق القانون و تطالب الآخرين باحترامه . و بينما تتحول حرية التحرر من كل رادع إلي مصدر للأنانية و الوصولية لدي الفرد، تصبح بالضرورة أساساً للعسف ومصدراً للحق المطلق و للسلطة المطلقة لدي

---

[1] **الحركة الإسلامية ـ ثغرات في الطريق ـ د. عبد الله النفيسي ـ ص 101-103 ـ راجع إن شئت *www.alnefisi.com***

الدولة . و تجد هذه العدمية الأخلاقية تعبيرها علي الصعيد السياسي في إرجاع كل علاقة سياسية في المجتمع إلي علاقة قوة ، و جعلها رديفا للعنف والضغط و الإكراه ؟!! " [1]

إن قضية الحرية لا تُحل إلا بنزع جذور التسلط والقهر من وجدان الإنسان الذي ترسبت فيه ثقافة التيه والخوف .. فليس المهم من يحكم في القصر ، بل الأهم ما الذي يتحكم في العقل ، وأي بنية ثقافية تسيطر عليه

ولذلك .. فإن التغيير يجب أن يكون عبر الإقناع ، وليس بالقوة ، لأن التغيير معناه تبديل القناعات والتخلص من ثقافة الطغيان والاستبداد .. وحين يكون ذلك ؛ سيخرج جيل التحرر من القهر الداخلي، والاستبداد الخارجي .. جيل الحرية الذي يحاول بناء مجتمعها من خلال ..

• القوة الناعمة [2]

تحاول الأنظمة الاستبدادية الظهور بمظهر القوة التي لا يمكن المساس بها ، كما تحاول في ذات الوقت أن تُظهر الساعين للتحرر من سلطانهم في مظهر الواهن عديم التأثير الذي لا حول له ولا قوة ..!!

فهل هذه هي الحقيقة ؟ أم أن السبب هو عدم تحديد النقطة الفاعلة في الصراع مع تلك الأنظمة ؟

تأمل هذه الأسطورة ..

تحكي الأسطورة أن طفلاً يدعي " أخيل " قامت أمه بوضعه في ماء نهر القوة عندما كان طفلاً ، فأكسبه ذلك مناعة ضد أية أخطار ، ولكن الأم كانت تمسكه من كعبه حتى لا يجرفه التيار ، وبالتالي لم يغطِ الماء ذلك الجزء الصغير من جسده . وعندما كبُر " أخيل " ظهر أمام الجميع بمناعته لأسلحة الأعداء ، ولكن في حرب طروادة ، قام أحد الجنود الأعداء الذي عمل بناء على تعليمات من شخص عرف نقطة ضعف " أخيل " ، بتوجيه سهمه على كعب " أخيل " ، وهو المكان الوحيد الذي يمكن إصابته فيه ، فكانت الضربة القاتلة " ..!! " [3] ! وهذا المبدأ ينطبق على النظم الاستبدادية ، والتي هي أيضاً عُرضة للهزيمة بأقل التكاليف ، إذا حددنا نقاط ضعفها ، وركزنا الهجوم عليها ..

---

[1] اغتيال العقل بين السلفية والتبعية ـ برهان غليون ـ ص 227ـ بتصرف يسير .

[2] القوة الناعمة او اللينة هو اصطلاح جديد طرحه " جوزيف ناي " عميد جامعة هارفرد ، ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني الاميركي ، ويعني به قوة الثقافة من عقائد وتصورات وعادات وتقاليد ينشرها الإعلام عبر الحروب الإعلامية التي تكون – فى كثير من الأحيان – أخطر من الحروب بالأسلحة التقليدية !!

[3] من الدكتاتورية إلى الديمقراطية ـ إطار تصوري للتحرر ـ جين شارب ـ ص 26 بتصرف .

إن هذه الأنظمة " بالرغم من مظهرها القوي ، إلا أن لديها نقاط ضعف ، وتعاني من عدم الكفاءة .. كما أن هناك منافسات شخصية بين أفرادها ، وتعاني مؤسساتها من عدم الفعالية ، وهناك نزاعات بين دوائرها .. وكل نقاط الضعف هذه تُحوّل تلك الأنظمة مع مرور الوقت إلى أنظمة أقل فعالية ، وأكثر عرضة لرياح التغيير " [1] و لا يعني هذا أن إضعاف وتدمير الأنظمة الاستبدادية هو أمر سهل ، ولا يعني أن كل محاولة في ذلك تنجح ؛ وإنما المقصود أنه عندما " يفكر الطرف الأضعف في المواجهة عليه أن يكون ذكياً ، لأن الذي سيهزم به خصمه ليس قوته المباشرة ، وإنما سيهزم بالحيلة ، عبر قدرته علي استخدام عناصر غير متوفرة عند الطرف الآخر أو مفاجئة للطرف الآخر " [2] في صورة تشبه " الجودو " أو المصارعة اليابانية حيث يُصبح ثِقل جسم الخصم عبئاً عليه ، وقيداً لحركته ..!!

إن القوة في مجال الصراع السياسي والاجتماعي " لا تتمثل في استعمال العنف دائماً. بل قد يكون أسلوب اللاعنف هو المظهر الطبيعي للقوة ، و هو القدرة علي مواجهة العدو في نقطة ضعفه ، من أجل تحطيم قوته في الجانب الآخر ، الأمر الذي يُدمر قوته بأقل قدر ممكن من الخسائر .. مع الثبات علي الموقف وتفويت الفرصة علي العدو من أن يحطمنا في نقطة ضعفنا . مما يتطلب أن نمارس أكبر قدر من السيطرة علي أعصابنا ومشاعرنا وانفعالاتنا ، لنضغط عليها في عملية تفكير وتركيز، لتبدأ الحملة التي تُعبيء فيها الأمة ضده ، بالأسلوب الذي يواجه نقطة ضعفه . " [3]

ولا شك أن هذا يتطلب الكثير من البحث والتحليل والدراسات لنقاط الضعف لدي الخصم دون " أن نتهم هذا الخصم بالغباء في حين أنه هو المسيطر، أو نتحدث عن أن فكرته إلي زوال ، رغم أننا لا نملك أسباب إزالتها ، أو نري أن كل من يخالفنا علي خطأ ، أو أن خصومنا كتلة واحدة لا يجب الحديث مع أي منها. " [4]

وإنما نحاول العمل علي هزيمة خصومنا من خلال " حشد القوي في مواجهة الخصم الذي عادة ما يكون لديه قدرات إدارية واقتصادية وسياسية وبوليسية و عسكرية ، واستخدم كل مظاهر النفوذ ووسائل الضغط ضد الخصم لإقناعه بالتصرف علي النحو الذي يريده قادة حركة اللاعنف ، والتي هي

---

[1] **المصدر السابق ـ ص 27 بتصرف .**
[2] **قواعد في الممارسة السياسية ـ د . جاسم محمد سلطان ـ ص 125.**
[3] **الإسلام ومنطق القوة ـ محمد حسين فضل الله ـ ص 274 ، 275 .**
[4] **قواعد في الممارسة السياسية ـ د . جاسم محمد سلطان ـ ص 93 بتصرف .**

أسلوب يستخدم أدوات اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية لممارسة الضغوط ، ويتضمن أكثر من مائتي طريقة مثل المقاطعات الاقتصادية و الإضرابات العمالية وحتي إقامة حكومة الظل . " [1]

إننا لا ننكر أن جرأة الإنسان علي مقابلة العدوان بمثله هو أحد مظاهر القوة " ولكنه ليس القوة كلها ، أو بالأحرى ليس هو المظهر العملي للقوة دائماً ، فقد نلتقي ببعض الحالات التي تجعل منه مظهر ضعف ، إذا نظرنا إلي القضية من جانب آخر يتجاوز الصورة الظاهرية للأشياء .. " [2]

واقرأ معي قصة " سيد القرود " .. وتأمل " الفكرة " فيها ؟!

تقول القصة أن " رجلاً كان يحتفظ بقرود لخدمته ، وكان أهل القرية التي يعيش فيها يسمونه " سيد القرود "

وكان هذا الرجل العجوز يجمع القردة كل صباح في ساحته ويأمر أكبرها أن يقودها إلى الجبال لجمع الفاكهة من الأشجار .. وكان سيد القرود يفرض على قردته قاعدة وهي أن يقدم كل قرد منهم عشر.ما جمع إليه ، وكان يعاقب كل قرد يتخلف عن ذلك بجلده دون رحمة .. و كانت معاناة القرود عظيمة ولكنها لم تجرؤ على الشكوى ..

وفي يوم من الأيام سأل قرد صغير القرود الآخرين قائلاً : هل زرع الرجل الهرم جميع أشجار الفاكهة؟ فأجابوه : لا ، إنها تنمو وحدها .. ثم تساءل القرد الصغير فقال : ألا نستطيع أن نأخذ الفاكهة دون إذن من الرجل العجوز ؟ فأجابوه : نعم نستطيع ، فقال القرد الصغير : لماذا نعتمد على الرجل العجوز ، لماذا علينا أن نخدمه ؟

فهمت القردة جميعها ما كان يرنو إليه القرد الصغير حتى قبل أن ينهي جملته . وفي نفس الليلة وعند ذهاب الرجل الهرم إلى فراش النوم حيث ذهب في سبات عميق ، قامت القردة بتمزيق قضبان أقفاصها جميعها ، كما أنها استولت على الفاكهة التي كان العجوز قد خزنها وأخذتها إلى الغابة ، ولم تعد القردة إلى العجوز بعد ذلك أبداً ، وفي النهاية مات العجوز جوعاً . " [3]

---

[1] في الصراع و التدافع الحضاري - د . جاسم محمد سلطان - ص 193 بتصرف .
[2] الإسلام ومنطق القوة – محمد حسين فضل الله - ص 272 ، 273 .
[3] من الدكتاتورية إلى الديمقراطية - إطار تصوري للتحرر - جين شارب - ص 22 .

هذه هي القصة .. والفكرة هي أنه إذا كان بعض الطغاة يستعبِدون شعوبهم مثل " سيد القرود " ، فإن هذه الشعوب تستطيع أن تنهي استبدادهم ، وتخرج من عبوديتهم إذا منعت عنهم الشرعية والتعاون ، لأنهم في هذه الحالة يموتون من " الجوع السياسي "!!

إن قوة المستبِدين لا تساوي شيئاً ، فهم مثل سحرة فرعون يسترهبون الناس ويخيلون للناس أن هذه القوى يمكن أن تفعل شيئاً وهي لا تساوي شيئاً .. إنهم يأمروننا فننفذ أمرهم فإذا قلنا لا نقبل هذا ، فلن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ، وسنقدر علي مقاومتهم وإسقاطهم ، وسنبطل سحرهم الذي استولي علينا..!!

من خلال " التخطيط السليم والإيمان العميق بالقضية ، و الإصرار على مواصلة الكفاح اللاعنيف ، والمحافظة في ذات الوقت على أقصى درجات الترابط بين أفراد مجتمعنا " [1] واليقين بأن الطريق الطويل في سبيل الحرية وعودة الأمن والكرامة يبدأ بخطوة : المقاومة ، وللمقاومة أصولها وفروعها، وشبكاتها السببية المعقدة ، ولن يضل طريقة كل ميمّم شطر المقاومة ، من أية زاوية وأي موقع كان منطلقه . " [2]

إن المستبدين يجورون علي حقوق المستعبَدين ويعملون فيهم البغي والعدوان . و هنا يجب استخدام القوة ، ولكن في أي وجه تُستخدم ؟ .. هل تستخدم القوة للقضاء على الروح الفعالة ، وقمع الأبرياء ، وتدمير كل نشاط نافع سليم ؟ كلا .. هل تستخدم القوة للحصول على الامتيازات الشخصية ، والتحكم المطلق في رقاب الآخرين ومقدراتهم ؟ كلا .. إذن في أي وجه تستخدام القوة ؟

" تُستخدم القوة لإقرار العدالة الاجتماعية بكل ما للكلمة من معني ، عدالة اجتماعية عملية فعلية وليست شعارات دعائية .. فقد جاء الإسلام لكي يحمل الناس على أن تقوم العدالة الشاملة بينهم بحيث تستوعب كل طبقات الناس ، وليعاقب المعتدين على حقوق الأفراد والمجتمعات حتى لا يتجرأ أحد على أحد بالبغي والعدوان . " [3]

إن من يحملون رسالة التحرير لا بد لهم من امتلاك " الرادع " للعقل الاستبدادي الذي لا يتخلي عن حب العدوان والسيطرة لاستعباد الآخرين ونهب مقدراتهم وإشاعة التخلف في حياتهم .. ومن هنا يبرز " الجهاد " رادعاً لكل المستبِدين الذين يحاولون الانفراد بمصادر العيش وقتل أيتام المستضعفين بسلاح " الجوع " و " الفقر " !! .. يبرز الجهاد ليقول لهؤلاء " لن نسمح لكم بأن تديروا المعركة على أشلائنا

---

[1] **كفاح اللاعنف ، وسيلة فعالة للعمل السياسي – مقابلة مع جين شارب – أجراها عفيف صافية ، الباحث لدى مركز جامعة هارفارد للشئون الدولية - ص 18 بتصرف يسير .**

[2] **أتمني أن تتحول مقاومة الاستبداد إلي خبز يومي ؛ فأري في يوم من الأيام كتيّبات بعناوين " مائة طريقة وطريقة لدحر المستبدين " .. " تعلّم المقاومة في خمسة أيام " وذلك على شاكلة " مائة طريقة لتغيير ديكور بيتك " .. أو " تعلم الإنجليزية في خمسة أيام " !!**

[3] **نحو كوكب الحرية - محمود حكيمي - ص 15 .**

وحطامنا ، و لن ندع مواردنا تخدم مطامعكم ، ولن ندع أجسادنا تطهر حقول ألغامكم ، ولن نسلمكم رقابنا كالخراف والجِداء ! .. إن في هذه الرقعة الفسيحة الضخمة الهائمة ناساً ، يحسب لهم حساب ، لا كميات هائلة ، ولا ماشية وأذناب! " [1]

سنجاهدكم بهدف إيصال رسالة الحرية للآخرين في جو من الأمن الفكري والمادي والنفسي-والشعوري ، وإزالة العوائق التي تحول بين الناس ورؤية الحق علي حقيقته .. حتى يدرك الناس ما هم فيه من أغلال العبودية ، وعندها يكون لهم الاختيار الكامل ، فغاية الإسلام الكبرى هي تأمين الحرية .. ثم ليعتنق الناس بعد ذلك ما يشاؤون ، إذ لا إكراه فى الدين ، ولا يُجبر الناس حتى يكونوا مؤمنين !! .. وهذا المعني هو ما صاغه ربعي بن عامر رضي الله عنه في كلمات يشع منها النور ، حين سأله رستم قائد الفرس : ما الذي جاء بكم ؟ فأجابه للتو واللحظة : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلي عدل السماء ، ومن ضيق الدنيا إلي سعة الدنيا والآخرة ..

نعم .. " حين تتحقق الحرية المنيعة ، فلا يصد الناس بالقوة عن كلمة الله ، ولا يفتنون عن دينهم الذي ارتضاه لهم الله نظاماً شاملاً للحياة ، وحين لا تقوم في الأرض سلطة تعبّد الناس في الأرض لأرباب من دون الله . وحين تتحقق العدالة الخيرة ، فلا يبغي بعض الناس على بعض ، ولا يستذل بعضهم رقاب بعض . وحين يتحقق الأمن للضعفاء الذين لا يملكون عن أنفسهم دفاعاً ، ويكف الباغي عن بغيه ويجنح إلى السلم والمهادنة .. حين يتم هذا فالإسلام المالك للقوة المستعد للطوارئ يضع السيف جانباً ويدعو إلى السلم فوراً : { وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله } [الأنفال 61] .. فالسلم قاعدة والحروب ضرورة ، ضرورة لتقرير سلطان الله في الأرض ليتحرر الناس من العبودية لغير الله . وضرورة لدفع البغي من البغاة وتحقيق كلمة الله وعدل الله .. ضرورة لتحقيق خير البشرية ، لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد . ضرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التي جعلها الله غاية للحياة الدنيا .. ضرورة لتأمين الناس من الضغط ، وتأمينهم من الخوف ، وتأمينهم من الظلم ، وتأمينهم من الضر .."[2]

إن المحور الذي تدور حوله حركة الجهاد في الإسلام هو الارتفاع بالإنسان إلي المستوي الإنساني الكريم بتحريره من كل سلطان غير سلطان الله ، ومن ثم ترقية البشرية كلها في كل الميادين المتاحة .. ولذلك يؤكد الإسلام على الالتزام الشرعي البحت والمطلق في مواجهة المستكبرين .. فلا غدر ، ولا

---

[1] السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - فصل " والآن " .. وهو الفصل المحذوف من الكتاب بعد صدور الطبعة الأولي منه عام 1951 م .
[2] السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - ص 30 .

خيانة ؛ لأن الله لا يحب الخائنين .. ولا قهر ولا ظلم ؛ لأن الله لا يحب الظالمين .. وهذا أمر يعرفه كل من يتأمل أخلاقيات القتال في الإسلام ، و النصوص العامرة بها " ولنستمع إلي حديث أبي بكر إلي يزيد بن أبي سفيان أحد أمراء جيوش الشام: " إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما زعموا . . وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً ولا هرماً ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا نخلاً ولا تحرقنها ، ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شاه ولا بقرة إلا لمأكله " .. بل إن هذه الأخلاقيات تظل سائدة وملزمة للمسلم حتي ولو تجاوزها وخرج عليها الطرف الآخر المقاتل ، أو بعبارة أخري لا موضع للتفكير فيما يسمي بالمعاملة بالمثل ، بل هناك قواعد وأخلاقيات تقيد المسلم أياً كان موقف الطرف الآخر ، ولنتذكر بهذا الخصوص موقف صلاح الدين الأيوبي عندما وقع في يده عدد ضخم من الأسري ولم يملك إطعامهم فلم يتردد في إخلاء سبيلهم ، وبرغم أنه كان يعلم احتمال أن ينقلبوا عليه عقب ذلك ويقاتلوه وهو ما حدث فعلاً . " [1]

إن " الحركة القتالية في الإسلام ترتبط بهدف هداية الآخرين وليس قتلهم ؛ لأن الهداية هي الهدم الحقيقي الكامل لهدف الشيطان .. أمّا قتل الكافر ، فيعني أن الشيطان قد حقق نتيجة موته على الكفر "[2]، ولذلك كان القتال في الإسلام " لإزالة العقبات التي تقف في طريق القلب البشري وتمنعه من الاستماع إلي كلمة الحق ، فإذا أزيلت فالناس أحرار بعد ذلك يختارون لأنفسهم ما شاءوا ، يدخلون في الإسلام إن أحبوا، أو يبقون علي دينهم " [3]

فهل نحن قادرون على ممارسة قدر من الحكمة يتيح لنا إقامة التوازن بين الجهاد لإزالة العقبات من طريق الحرية ، والتمسك في ذات الوقت بفقه الرشد الذي يحاول الوصول إلي الحرية من خلال ..

• التغيير الإجتماعي

في ظل الظلم والقهر والاضطهاد والقمع ومنع أية مشاركة للجماهير في التخطيط واتخاذ القرار ، يتحول أفراد المجتمع إلي اللامبالاة ، ويستسلم ضعاف النفوس فيمارسون التزلف وإشعال البخور للمستبدين ، فتتبعثر الطاقات ويسود التنازع والفشل ، ويدخل المجتمع حالة الاستعصاء التاريخي ، ويتكسّر إلي شرائح دونية وفوقية من مستضعفين ومستكبرين ، ويتحول أفراده إلي أدوات عبودية في آلة النظام الاستبدادي ..!!

---

(1) مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي ـ د . حامد عبد الله ربيع ـ ج 1 ، ص 278 .
(2) عندما ترعى الذئاب الغنم ـ رفاعي سرور ـ ص 176 - 178 .
(3) دروس تربوية من القرآن الكريم ـ محمد قطب ـ ص 33 ، 34 .

ولكي يخرج هذا المجتمع من هذا النفق المظلم ، لا بد من رسالة تحرير يحملها رواد يشعرون وطأة االقيود فيهزونها هزاً ، ولا يكتفون بما يكتفي به العامة من النظر إلى مواقع الأقدام .. رواد استقامت طريقتهم بالدراسة والتربية .. رواد يعشقون الحرية حتي أنها لو انمحت من وجه الأرض تخيلوها وتذوقوها ، ولم يجدوا طعماً للعبودية مهما تزيت بأزياء ، وتبرقعت ببراقع .. " رواد ، فيهم من القدرة والطاقة ، والإدراك والكفاية ، والاستعلاء والحماسة ، والإصرار والصلابة ، بقدر ما فيهم من الإيمان ، والثقة بهذا الإيمان ، لكي يخلصوا أنفسهم من ضغط هذا الواقع .. ولكي يملكوا – على الرغم من الواقع المضلل والتوجيه المضلل – أن يروا تصوراً آخر أرفع وأكمل ، وأعمق حيوية ، وأكثر طموحاً ، من كل التصورات التى تعبّد الإنسان للإنسان .. ثم هم بعد أن يروا هذا التصور ، يتحركون فى وجه ذلك الواقع، وتلك التصورات في محاولة مرهقة وشاقة ، وهائلة التضحيات .. ليكون الميلاد الجديد للإنسان الحر " [1]

ولا شك أن مثل هذه المحاولة لاستنقاذ الإنسان من نار الاستعباد إلي جنة الحرية تحتاج إلي التغلغل فى أزمات الإنسان وآلامه ، وفى أحشاء واقعه الذي يغص بالأحزان والآمال الفردية المحبطة ، وتحليل كل ذلك ورده إلى عناصره وثوابته الكامنة وراءه .. حتي لا نغيب عن الحقيقة أو تغيب الحقيقة عنا .. سواء تمثّل هذا الغياب فى صورة أن ننظر إلى واقعنا من برج عالي ومن خلال المنطق المتفلسف .. أو تمثّل أيضاً في صورة السقوط فى حمأة التشويش الغوغائي لبعض تجار الفكر !!

إن الفرد العادي من المجتمع لا يلتفت إلي من يكتفي بمحاورته وتجريب ذكائه عليه ، وإنما يلتفت إلى عذابه ومعاناته المأساوية ، ومن ثم فقد مست الحاجة إلي مشاركة الناس حياتهم ، وتبصيرهم بحقيقتهم وحقائق واقعهم ، وتقديم دليل عقلي وعملي يوجه تفكيرهم واعتقادهم وسلوكهم ، ويساعدهم على صنع حاضرهم وتشكيل مستقبلهم من خلال تغيير يضرب بتأثيره في كافة حقول المجتمع ، حتي يصل هذا التأثير إلي ما يمكن أن نطلق عليه " الكتلة الحرجة " التي تشكل نسبة اجتماعية معينة ، تشبه وصول الماء إلي حالة التشبع بإضافة الملح إليه ، مع التقليب حتى يذوب الملح في الماء تماماً ، و يختلط بدرجة التجانس ..؟!

إن فكرة " تمليح المجتمع " بعناصر الخير ، لا تعني أن يتغير الجميع ليصبحوا مناضلين من أجل الحرية ، وإنما " هناك مقدار يملح به المجتمع بحيث يغير مزاجه العام ، ويحفظ توازنه الإجتماعي ، فإنه للبناء لا

[1] مقومات التصور الإسلامي ـ سيد قطب ـ ص 27 ـ بتصرف يسير .

يشترط أن يتحول الجميع إلي مهندسين أو بنائين ، بل يحتاج المجتمع إلي نسبة معينة " حرِجة " تسد حاجته ، وكذلك لحفظ الصحة العامة نحتاج إلي عدد معين من الأطباء والمؤسسات الصحية .. ولكيّ نحافظ علي الصحة الاجتماعية ؛ نحتاج أيضاً إلي عدد ليس بالكثير ، وبواسطة هذا الملح يمكن نمو مجتمع الحرية الذي يكسر طوق العبودية .!! " [1]

ولأن الفكر هو الذي يصنع هذا الملح ؛ فإننا نؤكد أن الفكر بدون الناس لا يعدو أن يكون أصداء لذهنيات في محيط مغلق ، ما يلبث مع طول الوقت أن تأسن أفكاره لأن المفكر لا يستطيع تصحيح أفكاره ، وممارسة قدرته علي العمل إلا من خلال الناس ،كما أن العمل مع الناس يضعه في مواجهة مشكلات " و في تعامل مع واقعيات لم توجد قط في المحيط الآمن المطمئن ، الذي تتعامل معه الألفاظ و المصطلحات الفكرية ، ثم إن التعامل مع الناس هو الذي يجعل المفكر عارفاً برغبات الناس واحتياجاتهم ومثلهم وجوانب القوة ، وجوانب الضعف فيهم ، وفي نفس الوقت يبين أمامه إمكانات العمل ، ويخلصه من مرض الجنوح عن الناس أو التعالي عليهم" [2] ، فلا يقتصر علي إيضاح الحجة وبلاغة البيان ، وإنما يحاول أن يجعل له رصيداً من الثقة والطمأنينة لدي الآخرين ، لييسر هذا الرصيد قبولهم لما يقدمه لهم من أفكار وتصورات ..؟!

وتأمل معي ذلك في قصة نبي الله يوسف: { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{36} قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{37} [يوسف 36 ، 37] .. " فالملاحظ في الآية الأولى : أن الفتيين أقبلا على يوسف (عليه السلام) وهما في حالة تسليم بأمانته وإذعان لعلمه ، ولكن هذا التسليم وذلك الإذعان لم ينشأ من العدم ، بل كانا نتيجة ما رأوه من إحسان يوسف عليهم ؛ { إنا نراك من المحسنين } ، وإذا تنبهنا إلى أن هذين الفتيين كانا على ملة الكفر لأدركنا أن الإحسان المقصود عندهم ليس هو الإحسان بالمصطلح الشرعي ، ولكنه إحسان بالمعنى الذي تعارف عليه جميع الناس .وهو فعل ما اتفقت العقول السديدة والفطر السليمة أنه حسن ، ويلزم لنا أن نتخيل ما هي حياة السجون حتى نعرف قيمة الإحسان إلى الآخرين فيها ، سواءً أكان إسداء جميل ، أو بذل نصيحة ، أو اهتمام عام بأمر الآخرين في مثل هذه المحنة !

---

[1] في النقد الذاتي ـ د. خالص جلبي ـ ص 277 ، 278 بتصرف .
[2] الثورة الإيرانية ، الجذور الأيديولوجية ـ د . إبراهيم الدسوقي شتا ـ ص 177 بتصرف يسير .

وبعبارة أخرى نستطيع القول: إنه للوصول إلى هذه الثقة وهذا التسليم والإذعان ، فقد حدثت عملية " تفاعل اجتماعي " بين يوسف (عليه السلام) والمسجونين الآخرين ، وذلك من خلال شبكة اجتماعية مصغرة كونها يوسف (عليه السلام) مستغلاً قنوات الاتصال المتاحة والرابطة الاجتماعية الواقعية رابطة إحساس السجين بالقهر ..

وتأمل ما جاء في قصة موسى (عليه السلام) مع القبطي والإسرائيلي:

حيث يقول الله عز وجل : { فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ }[القصص 19] ، فاحتجاج القبطي بعدم ملاءمة هذا السلوك. من موسى (عليه السلام). مع دعوى الإصلاح يدل على أن موسى (عليه السلام) كان معروفاً عنه أنه صاحب دعوة إصلاحية قبل نبوته ..

وتأمل قصة نبي الله صالح (عليه السلام):

يقول الله سبحانه حاكياً عن قوم صالح : { قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [هود62] جاء في محاسن التأويل : ... أي ،كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننتفع بك وتكون مشاوَراً في الأمور ، ومسترشداً في التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك .

وتأمل معي كذلك ، كيف استعمل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ رصيده لدي من يدعوهم ، بل استنطقهم به ، وذلك عندما جهر بالدعوة إليهم كافة، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بعد أن اجتمعت بطون قريش على جبل الصفا إثر دعوته لهم بالحضور .: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد .. فقد أبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعوهم إلى الدعوة الجديدة عليهم قبل أن يستخرج منهم رصيد الثقة فيه.

وتأمل معي أيضاً .. قصة الصحابي نعيم ابن النحام ، حيث رُوي أنه حين أراد أن يهاجر جاءه قومه بنو عدي ، فقالوا له : أقم عندنا وأنت على دينك ، ونحن نمنعك ممن يريد أذاك ، واكفنا ما كنت تكفينا. وكان يقوم بأيتام بني عدي وأراملهم. فتخلف عن الهجرة مدة ثم هاجر بعد ذلك ، فنعيم (رضي الله عنه) كان له من أعمال الخير لدى قومه ما جعله أحد المكونات الرئيسة لنسيج مجتمعه ، بحيث يتهتك هذا النسيج إذا

تخلى عن أفراد مجتمعه ، فلا يستطيع هؤلاء الاستغناء عنه ، مع استطاعته هو تركهم والهجرة عنهم ، أو استغلال هذه المكانة وهذا الرصيد في الدعوة لما يؤمن به دون أن يكون عنصراً بنّاءً لدعوى الجاهلية في المجتمع الذي يعيش فيه. " [1]

" إن العلاقات الإنسانية تحتاج إلى تقنية عالية من العدالة ، والصدق الداخلي ، و القلب السليم الصافي، الخالي من الغش والخداع ، والضمير الذى يصرخ عن بخس الناس حقوقهم المعنوية ، عن حق العدل معهم ، عن حق الابتسامة الصافية ، عن إشعارهم بقيمتهم فى الحياة " [2] .. وكما " يختص كل أستاذ بمادة يحسنها ولا يضيره إلا أن يحسن سواها ، فكذلك الداعي إلي الله يختص بمادة الحب : حب الله وتوثيق عري المحبة بين القلوب ، ليرسي الأساس الراسخ في أعماق النفوس ، ويهيئ المنبت الصالح لكل الفضائل ، ويقيم الحصن المنيع دون أكثر الفتن . " [3] .. ومن ثم يبدأ المجتمع في ممارسة لون من ألوان الجهاد يمكن أن نطلق عليه " جهاد الظواهر الإجتماعية "، حيث تثبِّت الظاهرة الإجتماعية لمجتمع الحرية فى قلب الظاهرة الإجتماعية لمجتمع العبيد الذي يحمل " جراثيم فنائه في كيانه ، ولكن إعلان وفاته لا يتم إلا عندما يستطيع مجتمع الحرية أن يحتل مكانه ويسد فراغه " [4]

لقد آن لنا أن نكف عن " الركض السريع الذي حاولنا به أن نطوي عشرات الأجيال في جيل واحد ، لنقف لحظة ونري آثار العثرات التي أعثرنا إياها القفز والوثب علي غير هدي ، فنضع لأنفسنا برنامجاً اجتماعياً للتطور ، وغرضاً مقصوداً للتقدم ، وننسق خطواتنا في كل اتجاه ، فلا نكون كالجهاز المختل يتحرك كل جزء فيه علي هواه " [5]، وإنما نمارس جميعاً العمل الهادىء المنتج ، بسنة التدرج التي يخطو التحرر فيها بحذر ، ويتدفق برفق من خلال التغيير الاجتماعي .

***

---

[1] راجع إن شئت مقال " رصيد الداعية " لـ " خالد أبو الفتوح " ـ مجلة البيان ـ العدد 87 .

[2] صناعة النجاح ـ فيصل عمر باشراحيل ـ ص 122 بتصرف يسير .

[3] منهجية التربية الدعوية ـ محمد أحمد الراشد ـ ص 107 .

[4] الحق المر ـ محمد الغزالي ـ ج 6 ـ ص 114 بتصرف .

[5] المجتمع المصري جذوره وآفاقه ـ سيد قطب ـ إعداد وتقديم : ألان روسيون ـ ص 50 ، 51 .

الفصل الخامس

ميلاد مجتمع الحرية

منذ سنوات قابلت شاباً ، وتشعب الحديث بيننا ، ولفّه اليأس ؛ فنظر إليّ شاكياً كيف تمر به الأيام وتستنزفه الليالي دون أي بصيص من أمل يخترق أيامه الموحشة ولياليه المظلمة .. ثم سألني عن مدي تفاؤلي أمام كل ما يحدث في الواقع من أمور تدفع بأكثر الناس أملاً إلى يأس محقق ؟! .. هكذا ، وكأنه يريد أن يعرف ما إذا كان أملي لا يزال على قيد الحياة .. أو ربما أراد أن يؤكد لي أن " هذا قدر ومكتوب ، ولا سبيل إلى تغييره " !!

لم أقابل هذا الشاب منذ ذلك الحين ، ولو كان حياً إلى الآن ، فمن المحتمل ألا يقرأ هذا الكتاب ، ولكنه لا يدري أنه ساعدني بحديثه هذا كثيراً ، فبينما كان هو يبحث عمن يقوي لديه الشعور بالأمل ، كانت حاجتي لذلك الأمل أكثر من حاجته ؛ لأن الأمل يزداد قوة عندما يدرك المرء أنه ليس وحيداً ..!!

قال لي ذلك الشاب : لقد تحول المجتمع إلي " كومة " من الأفراد تتحرك تحت سلطان الغرائز المتحررة من وصايا " الروح " و " العقل " .. و سكن العناية المركزة تحت إشراف أسوأ الأطباء وأقلهم خبرة وأضعفهم اختصاصاً ، فتركوه ينزف اجتماعياً حتي وصل إلى قصور إجتماعي شديد ، فأصبح أفراده يعيشون كسالي ، راضين بواقعهم السيئ ، تبتلعهم مشاغلهم اليومية ، ويغرقون في مستنقعاتها الآسنة ، فلا يشعرون بأدنى حاجة للحريّة ، فضلاً عن أن يبدوا أدنى رغبة فى التضحيّة لأجلها .. نفوسهم خانعة ذليلة ، تدور مع المنفعة حيث دارت كثور الساقية ، الشح شعارهم ، وتبرير كل فعل خسيس ديدنهم ، والصراخ تمجيداً للمستبِد أنشودتهم الخالدة ..!! ؟!!

قلت : نعم .. أحسنت ، إن المجتمع يعاني إنفصامات بين أفراده ، وهذه الانفصامات تُحدث صدعاً عميقاً في المجتمع ، وتهدّ فاعليته وتذهب قوته ، لأن أية قوة يتحول حسابها إلي صفر، إذا شقت نصفين ووضع بين مقداريها علامة الطرح لا علامة الجمع ، وبمعني آخر تنمحي أية قوة إذا جُزئت وأثير الصراع بين بعضها البعض ، فينطرح بعضها من بعض بقدر ما تكون القوتان متصارعتان ..فإذا تفككت الشبكة الاجتماعية نهائياً ، فذلك إيذان بهلاك المجتمع ، وحينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب

التاريخ .. تماماً كما يموت الفرد فيتوقف نبضه ، ويغيب نفَسُه ، ولا يتدفق الدم بجرح جلده ، ويتحول إلي جثة هامدة ، تبدأ في التعفن والتحلل ، ويصبح القبر هو خير ستر لها ..!!

هذا هو الواقع ، ونحن بلا شك نرفضه ، ولكن رفضنا الفكري لمجتمع لا يغيّره ، وإنما حياتنا بفكرتنا فى " مجتمع " حيّ متحرك هى الطريق إلى تغيير المجتمع الآخر ، فليس هناك فكرة أعظم من هذا الدين ، ومع ذلك فالكثير من أتباعها مستعبَدون ؟! لأن قوة الإسلام لم تتحول إلي طاقة حيوية متحركة قادرة علي تغيير الإنسان والمجتمع .. ذلك أن خمس ملاعق سكر في كوب من الشاي لن تجعله حلواً ما لم تحرك السكر .!

إن من الخطر أيضاً أن تترك فكرتك تعيش وحدها ، دون أن تقوم بحمايتها من خلال مجتمع يقوم عليها.. لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش طويلاً بفكرة وتصور وقيم تخالف واقعه ، وهو لا بد أن يسعى لتغيير الواقع المخالف لفكرته وتصوره وقيمه ، وإلا فإن استقرار الواقع المخالف لتصوراته وقيمه ، يهدد هذه القيم وتلك التصورات بالتغيير ..ذلك أن الإنسان مدني بالطبع يحب أن يعيش مع الناس .. ومن ثم فهو يبحث دائماً عن سند اجتماعي لمبادئه ، وحين لا يجده يبدأ محاولة تقليل ضغط الواقع عليه من خلال " التلفيق الفكري " إن صح التعبير ، وتكون هذه هي بداية الذوبان .. ذوبان فكرة الحرية ، في مجتمع العبودية ..!!

إن في جسد الإنسان مضغة إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله .. و في جسد المجتمع مضغة إذا صلحت ، صلح المجتمع ، وإذا فسدت فسد المجتمع .. وتلك هي " المضغة الاجتماعية " التي يكون منها " ميلاد مجتمع الحرية " الذي يعلن موت " مجتمع العبيد " !!

تعجب صاحبي الشاب قائلاً : " ميلاد مجتمع الحرية " .. و " موت مجتمع العبيد " ..!! .. أمّا موت الأفراد فليس من إنسان إلا وقد رآه واقعاً ، بل إن حقيقة الموت لنا كأفراد لا تفارقنا يوماً واحداً ، فكلنا يعي أنه سيودع هذه الحياة يوماً .. وأمّا موت المجتمع ، فهذه لا أستطيع أن أهضمها أو أستوعبها ، فأخبرني ..

• كيف يموت المجتمع ؟!

قلت لصاحبي : إن المجتمع يهرم ويموت كما يهرم الإنسان الفرد ويموت .. ويبدأ مرض المجتمع حين تتورم ذوات أفراده ؛ فيتحولوا إلى " قوارض اجتماعية " تلتهم العلاقات الاجتماعية ، ليتحول

المجتمع إلى " كومة " من الأناسي و " خردة "من البشر لا يجمعها رابط أو يضمها مثل أعلى أو يحدوها قيم عليا أو ينظمها تنسيق مشترك ..!!

قال صاحبي : وهذا ما نراه اليوم في مجتمعنا من تدابر ، وعجز عن التعاون في أصعب الظروف ، واتهام الأفراد بعضهم بعضاً بأنواع التهم ، وبحث الكبار في المجتمع عمن يحمل عنهم وزر فشلهم ، وعدم شعور الأفراد بوخز الضمير حين يتخلفون عن أداء الواجب ؛ كل هذه أمراض اجتماعية ، لا تقل خطورة عن الأمراض العضوية ، التي تصيب أجسام البشر .. لقد تفشت بيننا إباحية مريضة وأثرة بغيضة ، وفردية مقيتة ، لا يحن الأخ لأخيه ، ولا يهتم الجار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا فى الآخر إلاً ولا ذمة !!

قلت لصاحبي : نعم .. ولكن شكوانا من انحلال المجتمع ليست كافية لعلاج أمراضه .. بل لا بد أن نطلب لعلاجه أطباء الأمراض الاجتماعية الذين يعلمون قوانين سلامة المجتمع ، ويمتلكون وسائل قياس صلابته ، وسلامة شبكة علاقاته ، ويتقنون القيام بمختلف التحاليل التي يمكن من خلالها تحديد نوع الخلل الذي يعانيه المجتمع ..ومن ثم يتخذون الإجراءات لحمايته من الأغذية الفكرية التي تحمل جراثيم فكرية تعطل قوى المجتمع وتماسكه . بل ويستخدمون الحجر الصحي لإيقاف الأوبئة الاجتماعية. كما يمكنهم إعطاء اللقاحات والمناعات الفكرية ضد الأفكار المرضية .

خذ مثالاً : هذه الصورة التي يعرضها القرآن لمجتمع التمزق والتضعضع والتخاذل ، وهو المجتمع اليهودي ، لتكون النقيض للمجتمع الإسلامي آنذاك ؛ " لندخل في عملية مقارنة واعية بين هزيمة ذلك المجتمع ، وبين انتصار هذا المجتمع ، عندما وقفا وجهاً لوجه في معركة العقيدة والحياة ، وانطلق كل منهما يستخدم سلاحه الداخلي الذي يحرك يده ، ويدفع خطواته إلي الأمام ، فإذا بالسلاح يتحطم فتصاب الساحة بالشلل هناك ، بينما يتحرك السلاح هنا فيبعث الحيوية في قلب المعركة .. لتتحول المقارنة.. إلي مقارنة جديدة في المعركة المعاصرة بين مجتمعنا وبين المجتمعات الأخرى التي نخوض معها معركة الحاضر ومعركة المستقبل في صراع القوة والضعف ، فكيف كانت صورة المجتمع اليهودي في المدينة ، عندما خاض المعركة مع المجتمع المسلم ؟!

{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ } [الحشر 14].. { بأسهم بينهم شديد } ..!!

إن الشدة . هنا . توجه ضد العناصر التي تهدد الوجود الواحد ، لانعدام الشعور بوحدة المجتمع ، لتحوله إلي وحدات ذاتية متناثرة . لا ارتباط بينهما ولا اتصال إلا في الصورة التي تختبئ خلفها التناقضات الفردية بين المصالح الشخصية ، التي تجعل من كل فريق ، أو من كل فرد ، كائناً مستقلاً ، بمصالحه ووسائله وغاياته المتعارضة مع مصالح الفريق أو الفرد الآخر ووسائله وغاياته ، مما يفسح المجال للصراع والخصام والتصادم ، كما هو الحال بين أفراد مجتمع ومجتمع آخر ، عندما يعيشون واقع الحرب والقتال ، فتكون النتيجة اشتداداً في البأس ضد بعضهم البعض ، وبالتالي ، انهيار في الموقف وهزيمة في المعركة .

وإذا كانت الصورة الظاهرة تمثل الوحدة التي تجمع الأفراد في صف واحد ، فهي صورة خادعة ، لا تخدع إلا البسطاء الغافلين عن الأجواء الحقيقة . فلا ينظرون إلي واقع الأمور ، بل يكتفون بالتطلع إلي ظواهرها ، فتبهرهم وتخدعهم وتبعدهم عن الصورة الحقيقة .. فإذا اقتربت منهم ، وعشت معهم ، وخبرت أوضاعهم ، فستجد نفسك أمام صورة أخري بعيدة كل البعد عن الصورة الظاهرة حيث يطالعك الاختلاف في الانتماءات والاتجاهات والمشاعر ، الذي يتفرغ عنه الاختلاف في الخطوات والحركات والمواقف فلا فكر يوحدهم ، ولا مصالح تجمعهم ، بل هو التمزق في الداخل ، يتحول إلي تمزق في الخارج وذلك هو ما نلتقيه في قوله تعالي:{ وقلوبهم شتي }..

ثم تختم الآية الصورة بالإعلان عن الأساس في ذلك كله.. وهو أنهم لا يعقلون.. لأنهم لو عقلوا الحق، ونظروا إلي الواقع بعين الحق ، لانفتحوا علي الحياة من باب واسع ، لا يضيق بالجوانب العامة التي توحدّ ، بل يتسع لها وللحاجات الفردية التي لا تتناقض مع الحاجات الاجتماعية. " [1]

إن الفكرة الصحيحة هي القاعدة التي يقوم عليها " المجتمع الحيّ "، والولاء الشامل لهذه الفكرة هو الأساس الذي تقوم عليه شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد ذلك المجتمع ، فإذا انهارت الفكرة الصحيحة ، وقامت شبكة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد طبقاً لمحاور الولاء الفردي والعشائري والإقليمي ، دار الصراع في داخل المجتمع نفسه ومزّقه إلي شيع يذيق بعضها بأس بعض ؛ ومن ثم ضعف المجتمع في الداخل ، وفقد المناعة في الخارج ، بل وتحول إلي " مجتمع ميّت " يطمع فيه الآخرون وتتداعي عليه الأمم .

---

[1] الإسلام ومنطق القوة ـ محمد حسين فضل الله ـ ص 107 ، 109 . بتصرف يسير

ولقد شهد تاريخ الأمة الإسلامية هذين النوعين من المجتمعات :

فأمّا المجتمع " الحيّ " فقد رباه رسول الله (ص) في مكة ، واستطاع بحيويته وفاعليته أن يطرق أبواب أوروبا غرباً ، ويقتحم الشرق حتي أقصاه !! وفي كل هذه البلاد استطاع الإسلام بمجتمعه " الحيّ " أن يُذِيب الحضارات الأخرى ويصبغها بالصبغة الإسلامية ، لينشئ من مجتمعاتها " أمة " قوية تقوم علي تحقيق العدل الرباني في واقع الأرض .

وحين قصّر المسلمون عن تنفيذ أمر ربهم ، وانهارت وحدة العقيدة في الحياة الفكرية الإسلامية ، انهار مفهوم الأمة الإسلامية وحلّت محله مفاهيم العصبية والإقليمية والعشائرية والمذهبية ، حتي أن العصبية أصبحت تفرّق بين أحياء المدينة الواحدة !! واختفت الموازين الإسلامية وسيطرت الأهواء والشهوات . ولقد أثّر ذلك كله في ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية فأفسدها وأضعف مقوّمات المجتمع ؛ فتحول إلي مجتمع " ميّت " تتداعي عليه المجتمعات من كل مكان لتعلن نبأ موته وتقوم بمهمة الدفن !!

وهكذا هو كل مجتمع لا يملك ما يعطيه ، فإنه يشيخ ويموت ، وتكون النتيجة البدهية أن يفسح الطريق لمجتمع آخر أكثر قوة وشبابية ، يبني علي الموجود ، ويزيد في البناء ، ويجدد في نظم الحياة ، ويأخذ بيد أفراده من ذيل القافلة إلي قيادتها ..

ولنضرب مثالاً لتوضيح ما نقصد :

لقد دخل الصحابي الجليل ربعي بن عامر بلاد الفرس ورأى ما بيدهم من حكم الدنيا .. ولكن شعوره بما يحمله من رسالة جعله لا يراهم إلا أقواماً مكبلين بغرائزهم ، قد ضاعت إنسانيتهم باستعباد بعضهم لبعض ... لقد دخل عليهم ربعي وهو يحمل رسالة فى قلبه يمكن أن نسميها " رسالة إنقاذ الآخرين " .. فهو يشعر أن من واجبه أن يصعد بالآخرين إلى مستوى الإنسان المكرّم ..

إنه رضي الله عنه كان يشعر أن الله ابتعثه ليقدّم حقيقة هذا الدين الذى يكرّم الإنسان ، ويخرجه من ذل العبودية لغير الله ، إلى عبودية الله وحده ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ..

وهكذا هو كل إنسان يدرك أنه يعمل عملاً يؤثر فى المجتمع ، فلاعب الكرة ينشط حين يدرك أنه يقوم بعمل يسهم فى نجاح فريقه ، وأنه ليس " عالة " عليهم ..

قال صاحبي : إننا كلنا أو أكثرنا ، لم نعد نشعر أننا نمتلك ما يمكن أن نقدمه لمجتمعنا ، فقدنا مسوّغ اتصالنا بهذا المجتمع فبدأنا الإنسحاب بـ " صور " مختلفة .. ففي بعض الأحيان يأخذ الانسحاب صورة الانتحار : كأن يلقي الإنسان بنفسه من جبلٍ أو يقطع شرايينه بسكين ، وهذا يذهب إلى قبره ، أو ربما لا ينهي حياته الاجتماعية انتحاراً بالسكّين ، ولكن يعتزل المجتمع ، فهذا يذهب إلى صومعته أو كهفه .. كما أن هناك انتحاراً آخر يحصل عند البعض ، حيث يتركون دينهم ، ويتبعون الأهواء والشهوات ، وهؤلاء يذهبون إلى مكان يليق بهم أيضاً ... ولكن النتيجة " الاجتماعية " واحدة ، فالكل ماتوا اجتماعياً بالنسبة لمجتمع معين .

قلت لصاحبي : نعم .. صدقت .. وما ذلك إلا لسيادة مجتمع العبيد في كل الأرض ، وغياب مجتمع الحرية عن الوجود إلا في بطون الكتب ؟

قال صاحبي : وأنت تدعوني إلي مجتمع موجود في بطون الكتب فقط ؟ .. إنك يا صاح تضيّع وقتي ووقتك في أفكار لا وجود لها إلا في الكتب ..!! " هل تظن أني إذا ما أردت سقفاً يؤويني وأبنائي ، أو إذا ما أردت مالاً يسترني وأبنائي ، أو إذا ما أردت حامياً يحميني ، أو أمناً يؤمّني ، أو إذا ما أردت المطالبة بحق من حقوقي ، أو أردت عِزة تعزني ، أو كرامة تكرمني وأهلي ، أو غير ذلك من الحقوق ، هل تظن أني سأميل إلى الكتب أستجديها عزة وكرامة وأمناً ؟ أو أستغيثها مالاً ؟ !! " [1]

قلت لصاحبي : أنا أعذرك في هجومك هذا ، فالحياة الراقية التي أدعوك إليها وأحدثك عنها غير موجودة اليوم على أرض الواقع ، وقد تحول أكثر المجتمعات إلي مجتمعات ميتة ، ذلك أن أول صفات المجتمعات الميتة " هي تعطل روح الجماعة، والعمل الجماعي، وتوقف تبادل الخبرات والمشورة . والذي ينتج في واقع الأمة ظواهر التعصب للرأي، والعجب والكبر والتعالم، وإملاء الرأي وفرضه علي الآخرين في جميع دوائر الحياة الاجتماعية ابتداء من القواعد الدنيا في الأسرة والمصنع والمتجر ودوائر الوظيفة، حتي أعلي دوائر المجتمع في رئاسة الحكومة، وقيادة الدولة، حيث زعامات الحكم المطلق، والقيادات الدكتاتورية المتنافرة المتناحرة. " [2]

---

[1] **قلت لحماري - د. محمد سعيد التركي - ص 132 . بتصرف يسير .**

[2] **لمحات في فن القيادة - ج . كورتوا - تعريب المقدم الهيثم الأيوبي - ص 34.**

قال صاحبي : إني أفهم من كلماتك وحوارك أن المرض يحتل الجسد الاجتماعي في صورة انفصالات في شبكته الاجتماعية ، وتستمر هذه الحالة المرضية قليلاً أو كثيراً قبل أن تبلغ نهايتها ، في صورة انحلال تام .. فهل يمكن إحياء هذا المجتمع من موات ؟!

قلت لصاحبي : نعم .. هذا ممكن من خلال إصلاح ..

• شبكة العلاقات الاجتماعية

قال صاحبي متعجباً : شبكة العلاقات الاجتماعية ؟!

قلت لصاحبي : نعم .. " فالمجتمع ليس مجموعة أفراد، بل هو " شبكة علاقات " ، تنظم نشاط الأفراد ، فإذا أردنا تصور " الشبكة الاجتماعية " أو " النسيج الاجتماعي " أمكن تشبيهه بالخيوط والعقد ، العقدة الواحدة متصلة بالعقدة الثانية من خلال خيوط الشبكة ، وبذلك فإن كل عقدة متأثرة سلباً أو إيجاباً بوضع الخيوط التي تصل ما بين هذه العقد ، في صورة تشبه إلي حد كبير الطريقة التي يترابط بها ما يزيد عن مائة مليار خلية عصبية في الدماغ من خلال نسيج عصبي كثيف ، كل خلية مزودة بحوالي ألف ارتباط ، بحيث يشكل الدماغ الذي يحمله كل فرد منا في رأسه ؛ شبكة أكبر وأعقد من كل الكون المحيط بنا، وتتعاون هذه الخلايا العصبية من خلال " نظام التحام " بين كل خلية وأخرى ، تسري فيها سيالة عصبية ، تعبر هذا النسيج من أقصاه إلى أقصاه، بحيث تحيل الدماغ في النهاية إلى وحدة عمل مركزية واحدة منسقة مبدعة .

وهكذا هي شبكة العلاقات والخيوط التي تربط بين الأفراد ، تتعلق أيضاً بالأفراد الذين يفرزونها، ولذا فإن وضع الشبكة المرتخي أو المشدود ، النشيط أو الخامل ، يتعلق بالأفراد الذين يحفظون هذه العلاقات أو يدمرونها ، فقوة الشبكة من قوة الأفراد لأنها من صناعتهم .. وقد يمزّق الأفراد هذه الشبكة ، فيما لو شُد الخيط أو توتر بشكل زائد لمصلحة إحدى العُقَد ، وهو ما يحدث حين " تتورم " ذوات الأفراد " الأنا " فيؤدي ذلك إلي قطع الأوتار الاجتماعية ، فيتحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية ، ويصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً !! " [1]

إن الذي يعطي المجتمع القوة أو الضعف ..التميز أو السطحية ..التفوق أو الانحطاط ، هو نوعية علاقة أفراده ، ونحن نعلم من الكيمياء العضوية أن تغيير فاعلية مركب من وضع إلى وضع ، يتم من

---

[1] ميلاد مجتمع - مالك بن نبي - ص 43 .

خلال تغيير نوعية العلاقات الكيمياوية الداخلية ، فالماس " اللامع الرائع الصلد ، مكون من ذرات من " الكربون الأسود " المضغوط بشكل جبار ، والذي منح اللمعان للذرات السوداء القبيحة ، هو طبيعة " التركيب الداخلي " لذرات الكربون ، فأصبحت شديدة اللمعان .. والمجتمع بدوره هو " طبيعة تراص " خاصة بين أفراده ، فإذا بقي ذرات كان سخاماً أسوداً قاتماً ، فإذا تراصت ذراته تحول إلى إعصار طاقة ، و لمعان تفوق عبر التاريخ ..!!

قال صاحبي : إننا بكل أسف لا نفخر إلا بكثرة عددنا ، ولا نباهي إلا بنمو هذا العدد بشكل هائل.. دون أن يكون لنا قوة اجتماعية في صورة إبداعات ومساهمات من أجل المجتمع !!

قلت لصاحبي : هذا هو واقع المجتمع حين " يشعر الفرد بالاغتراب ، ويشعر أنه يُعامل من قبل الآخرين علي أساس أنه موضوع أو شيء ؛ فلا يستشعر قيمته الحقيقية ، بل يفقد وعيه بالآخرين ويستشعر الوحدة والعزلة ، فينسي تماماً شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربطه بالآخرين اعتماداً علي ذلك الشعور بالتشيؤ . " [1]

قال صاحبي : نعم .. إني أتلفت حولي علّني أجد دليلاً يأخذ بيدي في طريق الخروج من هذه المتاهة.. ولكني – للأسف – أجد من حولي في حالة من " الهروب والاغتراب " ، فمنهم من يكتفي بالجهل ، ولا يسعى للمعرفة ، ومنهم من يهرب من خلال منهج حياة يجعل اللذة هي الهدف ..!!

هكذا .. وكأنهم قطيع من آلاف الأغنام يسير في اتجاه قد هيأه له قواده ، ولكن كل فرد في القطيع لا يعني إلا بنفسه ، فيزاحم الآخرين حتى لا يتخلف في الطريق ، فإذا أصاب أحدها مكروهاً فرقدت ، أو أصيبت فعجزت ، لم يلتفت إليها الآخرون ، بل مضي كل إلي سبيله ، وخلف المسكينة لقدرها ..!!

قلت لصاحبي : نعم .. وكذلك " تعيش الذئاب فى قطعان ، ولذلك تبدو قوية . ولكن إذا جرح أحد الذئاب أو بدأ فى العرج ، فإن البقية ستأكله بدون تردد .. وهذا برهان واضح على أن المصلحة أساس القطيع الذى تقوده الغريزة .. فليس بين القطيع علاقة تضامن وصداقة ومساعدة متبادلة " [2] ..!!

نعم .. أنا أوافقك أنه واقع يدعو للسخط ، ولكن أسأل الله أن يكون سخطنا عليه هو سخط تبعثه الغيرة القلبية والتطلع إلي ما هو خير ، و الرغبة في الإصلاح ، والألم مما هو كائن .. سخط الوالد علي ابنه المفسود يريد إصلاحه ويأبي أن ييأس منه وينفض يديه ..

---

[1] **الشخصية المصرية " تحديات الحاضر والمستقبل المنظور " ـ د. سامية خضر صالح ـ ص 55 ، 56 بتصرف يسير .**
[2] **هروبي إلى الحرية – على عزت بيجوفيتش ـ ص 330 بتصرف يسير .**

قال صاحبي : أنت تعلم أنني عيش هذا اللون من السخط ، " وهو سخط أبعد ما يكون عن روح التشاؤم واليأس ، فالمتشائم اليائس يصمد وتهون لديه السيئات لأنها منتظرة مرقوبة ، وليس فيها ما يثير سخطه ، وليس له من الرجاء ما يحفزه لمحاولة الإصلاح .. ونحن.فيما أحسب.أحوج في طور التغيير إلي الساخطين المتبرمين بالواقع السيئ ، منا إلي الراضين القانعين الذين لا أمل لهم في المستقبل ولا رغبة لهم في الكمال ." [1]

قلت لصاحبي : نعم .. ولذلك فإنني أعتقد أن علينا للخلاص من الأفكار السيئة والمشاعر المحبطة أن نتبع طريقة " إغلاق الملفات " حيث يمكن أن نستخلص العبر والدروس الممكنة من إخفاقات الماضي ثم نحذفها نهائياً من اهتماماتنا ، فذلك هو الطريق الأفضل للتخلص من أسر الماضي وأوهامه ، لنبدأ محاولة استكمال شبكة العلاقات الاجتماعية القادرة على توحيد طاقات أفراد المجتمع في صورة نشاط مشترك .

قال صاحبي : هذا هو المجتمع الحق .. مجموعة من الأفراد تغيّر دائماً خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير ، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير .. ولكن ، هل لديك تصوراً لهذا المجتمع ؟

قلت لصاحبي : إن الصورة التي أقترحها هي مجتمع من أفراد يؤمنون بالفكرة ، فكرة التحرر من المستبدين ، وتكون بينهم شبكة من العلاقات الاجتماعية ، تقوم علي مبدأ " المؤاخاة " الذي يربط بين أفراد يعملون في خدمة هدف واحد يشعرون نحوه برغبة في التضحية ، ، ويعدّل الزمن من علاقاتهم الداخلية ، ابتداء من نقطة يمكن أن نطلق عليها مصطلح " نواة مجتمع " يعيش أفراده ..

●حياة الفائض الاجتماعي

إن " لكل فرد داخل المجتمع شخصيته وطموحاته ونشاطاته التى تميزه وتحدد كيانه . ونظراً لتباين شخصيات الأفراد وطموحاتهم ونشاطاتهم ، وحتى لا يؤدي هذا التباين إلى تشتيت الجهود وتعارضها ، فقد تبنت المجتمعات منذ بداياتها الأولى نظاماً يحفظها من التفتت ، ويضمن تنمية مواهب أفرادها وامكاناتهم الذاتية ، وتوجيه جهودهم الفردية داخل تيار جماعي يخدم الصالح العام للمجتمع كله " [2]

---

[1] المجتمع المصري جذوره وآفاقه ـ سيد قطب ـ إعداد وتقديم : ألان روسيون ـ ص 143 . بتصرف يسير

[2] لمحات فى فن القيادة ـ ج . كورتوا – تعريب المقدم : الهيثم الأيوبي ـ ص 5 .

قال صاحبي : نعم .. لأنه ما لم " يقف حاجز أمام الصراع علي المكاسب فمن الطبيعي أن تسود في المجتمع شريعة الغاب ، و أن يقتل فيه القوي الضعيف و الغني الفقير ، وأن لا يشعر المنتصر بأي حرج في السيطرة علي كل الثروات و حرمان الآخرين منها ، بل ليس من المستغرب عندئذٍ أن تصبح الشكوى من غياب الأخلاق و انعدام الشعور بالمسؤولية لازمة يومية !! " [1]

قلت لصاحبي : عندما يغدو لكل شيء ثمن يقاس بالجنيهات او الدولارات .. وعندما يغدو القيام بالواجب يحتاج ثمناً ، وتصريف عمل يحتاج الثمن ، وللنفوس فى الانتخابات ثمن ، وللكلمة فى وسائل الإعلام ثمن ، ولحكم القضاء فى أكثر الحالات ثمن .. عندها تصبح حياتنا هي حياة العبيد ، وتحكمنا ثقافة العبيد ؛ فيصبح المال معياراً للنجاح ، ومعياراً للإنجاز ، ومعياراً للوجاهة والسطوة . بل يصبح المال وسيلة لإحقاق الحق أو بلوغ المقصد .. ويختفي الشعور بالواجب ، أو الإحساس بالمسؤولية ..!!

سأحكي لك قصة رمزية تبين ما أقصده ..

تحكي القصة أنه كان هناك أربعة أشخاص ، الأول يسمي " كل واحد " والثاني يُدعي " أي واحد " والثالث يسمي " لا أحد " والرابع إسمه " بعض الناس " .. وكان هناك أمر مهم يجب أن ينجز ، فطُلب من " كل واحد " أن ينجزه ، إلا أن " كل واحد " كان يتوقع من زميله " بعض الناس " أن يقوم به ، إلا أن " بعض الناس " غضب لأن المهمة كانت مهمة الزميل " كل واحد " ، إلا أن " كل واحد " فكر أن " أي واحد " يمكن أن يؤديها ، ولكن الزميل " لا أحد " تحقق أن " أي واحد " يمكن أن يفعلها ، وبذلك كانت المحصلة أن " كل واحد " لام " بعض الناس " لأن " لا أحد " فعل ما كان يجب أن يفعله " أي واحد " !!

وهكذا .. في مجتمعات التخلف ؛ يصبح التهرب من المسؤولية ديدن الناس ، ويندفعون إليه بالغريزة دون تفكير ، وينتظر كل واحد من الآخرين أن يفعلوا شيئاً ؛ ويكون السواد الأعظم من الناس في مقاعد النظارة !.

ولذلك ترى الأكثرية تتكلم عن حقوقها المهضومة ، وتنسي الواجبات ، وتغفل عن أن المشكلة ليست فيما تستحق من رغائب ، بل فيما يسودها من عادات ، وما يراودها من أفكار ، وما يعتري تصوراتها الاجتماعية من نقائص الشعوب النائمة .. تلك الشعوب التي تردد " إننا نطالب بحقوقنا "

[1] **اغتيال العقل بين السلفية والتبعية - برهان غليون - ص 228 .**

دون أن نفكر في الوصول إليها عبر الطريق الأصوب " طريق الواجبات " ، فتتحول إلي مجموعات من المستمعين ، الذين يصفقون لكل خطيب ، أو تتحول إلي قطيع انتخابي ، يقاد إلى صناديق الاقتراع ، أو إلي قافلة عمياء لا تعرف لها هدفاً !!

قال صاحبي : نعم .. يجب في المجتمع الحر أن " تتشابك المصالح ، وتتزاحم الدوافع ، ويتكرر الأخذ والعطاء ، وتتفاعل القوي ، وتتنافس المقدرات ، ويحف بها جميعاً ذلك السياج الضخم الذي يشمل نشاطها جميعاً ، ويمثل اتجاهاتها جميعاً ، ويؤثر فيها ويتأثر بها في كل اتجاه ، والقاعدة التي تقوم عليها حياة الأفراد في المجتمع هي قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات ، والتعادل بين المغانم والمغارم، والتوازن بين الجهد والجزاء "[1]

قلت لصاحبي : نعم .. ولكن ينبغي " ألا يغيب عن نظرنا أن " الواجب " يجب أن يتفوق علي " الحق " في كل مجتمع ناشيء ، إذ يتحتم أن يكون لدينا دائماً محصول وافر ، أو بلغة الاقتصاد السياسي " فائض قيمة " . هذا " الواجب الفائض " هو أمارة التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه إلي المجد .. ولذلك ، فإن كل سياسة لا تحدث الشعب عن واجباته ، وتكتفي أن تضرب له علي نغمة حقوقه، إنما هي " خرافة "، أو هي تلصص في الظلام ..!!

إنه ليس من مهمتنا أن نغنى للشعب نشيد " الحرية " ، فهو يعرفه ، أو أن نقول له ونكرر القول في الحقوق ، فهو يعرفها ، وليس من شأننا أن نكشف له عما ألم بمعرفته من قبل ، بل أن نمنحه من المناهج الفعالة ما يستطيع به أن يصوغ مواهبه ومعارفه في قالب اجتماعي محس . وبعبارة أدق : ليس الشعب بحاجة إلي نتكلم له عن حقوقه وحريته ، بل أن نحدد له الوسائل التي يحصل بها عليها ، وهذه الوسائل لا يمكن إلا أن تكون تعبيراً عن واجباته "[2]

إن ذلك المهاجر الذي كان يترك أهله ، ويفارق أرضه في مكة ويفر بدينه ، كان يجد أمامه أبناء الإسلام من فتيان يثرب ينتظرون وكلهم شوق إليه وحب له وسرور بمقدمه ، وما كان لهم به سابق معرفة ولا قديم صلة ، وما ربطهم به وشيجة من صهر أو عمومة ، وما دفعتهم إليه غاية أو منفعة . وإنما هي عقيدة الإسلام جعلتهم يحنون إليه ويتصلون به ، ويعدونه جزءاً من أنفسهم ، وشقيقاً لأرواحهم ، وما هو إلا

---

[1] السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - 94 . بتصرف يسير .
[2] وجهة العالم الإسلامي - مالك بن نبي - ص 131 - 134 بتصرف .

أن يصل المسجد حتى يلتف حوله إخوانه من الأنصار ، كلهم يدعوه إلى بيته ويؤثره على نفسه ويفديه بروحه وعياله ، ويتشبث بمطلبه هذا حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع !!!

قال صاحبي : لا شك أن " الشعور بالواجب شكل من أشكال الالتزام ، تشعر به ذات حرة ، تلزم نفسها بنفسها ، فأكثر الناس شعوراً بالحرية ، أكثرهم شعوراً بالواجبات والفرائض الحضارية ، والإحساس بالواجب هو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية ، ليعكس تسامي الإنسان ، أو قدرته علي الالتزام تجاه غيره ، والتضحية في سبيله. "[1] ، ولينشيء مجتمع العطاء وليس مجتمع الأخذ .. مجتمع الواجبات لا مجتمع الحقوق .. مجتمع الهداية وليس مجتمع الجباية .. مجتمع الإيثار وليس مجتمع الأثرة .. مجتمع تسهر عيون الفرد فيه والناس نيام ، وتجده مكباً على مكتبه عاملاً مجتهداً ومفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طوال شهره ، حتى إذا ما انتهى الشهر ، جعل مورده مورداً لمجتمعه ، ونفقته نفقة لفكرة هذا المجتمع ، وماله خادماً لغايته .. لا يمر يوم دون أن يبذل جهداً في سبيل الحفاظ عليها وتطويرها .. يعمل ولا يتكلم .. وتتصل خطوته اللاحقة بخطوته السابقة في صورة من " الأناقة الحضارية " التي توفر للمجتمع نوعاً من " الفائض الاجتماعي " ..!!

قال صاحبي : " الأناقة الحضارية " .. " الفائض الاجتماعي " مصطلحات جميلة ، ولكن ، ماذا تعني بها ؟

قلت لصاحبي : " حين يؤدي الإنسان واجبه ، يشعر بنوع من الرضا والإنجاز ، وحين يقوم بعمل زائد عن الحاجة أو عن الواجب ، فإنه يشعر بـ " التأنق " ، وكذلك المجتمعات التي تُنتج أكثر مما تَستهلِك، تشعر بالتأنق ، لأن " الفائض الاجتماعي مظهر من مظاهر الأناقة الحضارية ، وهو في الوقت نفسه حاصل الأعمال التطوعية الخيرة التي يقوم بها أبناء المجتمع ؛ وعلي مقدار ذلك الفائض تكون خيريّة ذلك المجتمع . في الظروف الصعبة تصبح الحاجة ماسَّة إلي وجود أعداد كبيرة من الرجال الأخيار الذين يتجاوزون مرحلة التفكير في " الحقوق " و " والواجبات " ، وينغمسون في أعمال الإحسان والإتقان ، حيث تغمرهم روح المجانية والعطاء غير المشروط . "[2]

إن المجتمع الذي يرغب في الارتفاع والتقدم لابد أن يكون لديه " فائض جهد" ، ولا يمكن تحصيل ذلك " الفائض " إلا أن يكون " الواجب " الذي يقوم به، أكثر من الحق الذي يطالب به ، وهذا يعني أن

---

[1] عصرنا والعيش في زمانه الصعب - د.عبد الكريم بكار - ص 224 ، 225 بتصرف .
[2] المصدر السابق - ص 89 بتصرف يسير .

نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي علي القيام بالواجب أكثر من تركيزنا علي الرغبة في نيل الحقوق .. فإن فعلنا ، فقد شرعنا في ..

● بناء المجتمع الحيّ

ربما يعيش البشر واقع التيه والخوف ، أو يعانون المادية القاسية المدمرة لكل خصائص الإنسان ؛ ولكنهم لا يستجيبون .غالباً. لأي منهاج للحياة مقروء أو مسموع ، ما لم يتمثل ذلك المنهاج في واقع تراه العيون وتلمسه الأيدي ، وتلاحظ آثاره العقول ، أي في صورة " مجتمع حيّ " !!

وحين يبتديء بناء هذا المجتمع ، فإن الأمر يشبه كثيراً بناء منزل جديد ، ففي البداية الأولي ، ليس لديك سوي مجموعة من الخطوط ، التي هي عبارة عن علامات صغيرة علي الورق تصيبك بالحيرة ولا يبدو عليها أنها تعني أي شيء ، وبعدها بقليل ربما تجد حفرة في الأرض ، وبعضاً من الخرسانة ، وبعض الأكوام من الألواح والمسامير ، وغيرها من المواد .. فإذا أردت أن تعلم شخصاً ما كيف يبني منزلاً، فمن المنطقي أن تزوده أولاً بصورة لشكل البيت عند الانتهاء من تشطيبه ، وبعدها تعلمه كل الأجزاء الصغيرة والتفاصيل الدقيقة لعملية بناء منزل : كيف يجري القياسات ، وكيف يقطع الألواح ، وكيف يثبت المسامير ، وكيف يترك فتحات للنوافذ والأبواب ، وكل المهارات الأخرى التي يحتاجها حتى يستطيع تدريجياً أن يوظف كل تلك المواد معاً في شيء ما ليجعل منه مكاناً مريحاً يعيش فيه ..!!

قال صاحبي الشاب : نعم .. أفهم أنه من الضروري لبناء المجتمع تحديد ماهية هذا المجتمع ، ومعالم العقيدة التي يقوم عليها ، والهدف الذي يقوم من أجله .. ولا بد أيضاً من دراسة سنن الاجتماع البشري ، والتحليل المحايد لقوانين قيام المجتمعات ..

قلت لصاحبي : ما شاء الله .. فهم جميل يوفر عليّ الكثير من التفاصيل فيما نتحدث عنه .. فنحن قبل البناء لا بد أن نتخلص تماماً من " الأنقاض الفكرية " ، و" الرواسب الاجتماعية " التي عشناها العديد من السنين ؛ لنصوغ وحدة فكرية بين أفراد المجتمع تكون هي سلاح المجتمع الذي لا يُهزم " وهي القوة المكينة ، والطاقة الكامنة ، والعضلات المحركة ، وهي الدم في الجسم ، والأفكار في العقل ، والماء في الجسد ، وهي الحصن الحصين الذي لا تنفذ من خلاله الريح ولا العواصف ..

وهي سكن الناس وأمنهم ، وراحة بالهم وطمأنينتهم ، وسلامة أنفسهم وعافيتهم ، وهي الشمس الدافئة والغيث المغيث ..!! " [1] .. ثم يبدأ بناء المجتمع ، بأن يعيش أناس من الناس هذه الأفكار في واقع حياتهم ، لأنه في غياب هذه الخطوة يبقي أولئك الأفراد جزءاً من المجتمع الذى يرفضونه " نظرياً " .. يخضعون لقيوده، ويعملون بأوامره ، ويتحركون شاؤوا أم أبوا ، بمحض إرادتهم الواعية أو اللاواعية للعمل على تلبية إحتياجاته الأساسية التى تكفل له وجوده ونموه ؛ وبالتالي فإنهم يبقون خلايا حية تساعد على بقائه أو على اطالة عمره على الأقل ..!!

قال صاحبي : نعم .. نعم .. إن الكثيرين يريدون أن يكونوا جزءاً من مجتمع جديد حر ، ولكنهم يتحفظون بقوة حول حقهم في البقاء أفراداً في مجتمعهم الأول !! ، ويتلهفون لنهاية مجتمع الاستعباد والقهر ، ولكنهم يرفضون أن يتصوروا أن نشأة مجتمع الحرية ستؤدي إلى الإطاحة بمكانتهم في مجتمعهم القديم .. !!

قلت لصاحبي : ولذلك لن تستطيع طليعة المجتمع الحيّ القيام بدورها في الخروج بأفراد المجتمع من نفق العبودية إلي فضاء الحرية " إلا إذا شكّلت في نفسها وواقعها " نواة " هذا المجتمع في صورة أفراد خاضعين لتصورات وقيم ومفاهيم ومشاعر وتقاليد وعادات المجتمع الحي ، يكون بينهم في ذات الوقت تفاعل وتكامل وتناسق وولاء وتعاون عضوي ، يجعل كل فرد يتحرك للمحافظة علي وجود مجتمعه ، والدفاع عن كيانه والقضاء علي عناصر الخطر التي تهدد وجوده ..

وهكذا هي نشأة المجتمع الحيّ ، تبدأ من نواة اجتماعية صغيرة تتسم بالحيوية والفاعلية والقدرة علي الجذب والاستقطاب ، وتتحرك هذه النواة في صورة نبتة اجتماعية متماسكة ، فتجذب الأفراد الأكثر نشاطاً وتقوي وفداء بين أفراد المجتمع الكبير " الميت " الذي يحمل بين طياته عوامل فنائه من العفن الخلقي والشقاء المعيشي ، ولا يملك القدرة علي التحدي والمواجهة .. " [2] .. ومن هنا .. يبدأ " المجتمع الحيّ " مواجهة " مجتمع الاستعباد " ، ويكيف نفسه وأوضاعه وحاجاته الحقيقية ، ووسائل إشباع هذه الحاجات ، متأثراً بعقيدته ، وما تنشئه من تصورات خاصة ، ومتأثراً بطريقته المنهجية الخاصة فى مواجهة الواقع ، والاعتراف بما هو فطرى من هذا الواقع ، وما هو ضرورى لنمو الحياة السليمة ، مع رفض ما ليس فطرياً ولا ضرورياً للنمو ، وما هو ضار ومعطل وساحق لهذا النمو ، من ذلك الواقع ."[3]

---

[1] قلت لحماري – د.محمد سعيد التركي ـ ص 179 ، 180 بتصرف .
[2] راجع إن شئت كتاب " الأمة الإسلامية من التبعية إلي الريادة " ـ للمؤلف .
[3] راجع إن شئت كتاب " الإسلام ومشكلات الحضارة " ـ سيد قطب .

و من خلال الممارسة للفكرة يحصل إنضاجها وتعديلها ، ودفعها إلى الأمام .. كما أن الممارسة تشكل القالب للحديد المصهور حتى يأخذ شكله الواقعي ؛ " ففي البدء تكون الفكرة ، ثم تكون بها الحركة ، فتضيف الحركة خبرة جديدة تضاف إلى الفكرة الأصلية ، فيتسع نطاق الفكرة فنتحرك به حركة أوسع ؛ فتضيف إلينا الحركة الأوسع خبرة أكبر تضاف إلى نطاق الفكر ليتسع فنمارس به حركة أوسع . " [1]

وهكذا .. يتحرك المجتمع ، فينكشف له الطريق ، فيتحرك أسرع .. ويصل إلى الهدف .. كما هو الحال في الدراجة العادية ، فالراكب عندما يتحرك ينقدح الضوء فيرى ، فإذا رأى أمامه أكثر تحرك ، وإذا تحرّك أكثر ازداد تألق الضوء أكثر فأبصر أكثر ، فإذا اتضحت الرؤيا أمامه أكثر تحرّك أكثر وهكذا ..

قال صاحبي : نعم .. يسير العلم والعمل " متوازيين مع بعضهم البعض ، فالعمل يطرح أسئلة علي العقل ، تلجئ الإنسان لمزيد من البحث والنظر والعلم ، والعلم يولد أفكاراً ومبادرات ، والمبادرات حين تتنزل علي الواقع تشذب وتطرح أسئلة جديدة ، وهكذا تتولد الحياة في الأفكار ويزداد الإنسان علماً ويرتقي . " [2] ..

إنني كثيراً ما أتساءل عما كان يمكن ان يحدث إذا اكتفى المسلمون الأوائل بصلاة داخل مسجد .. ولم يحاولوا تحقيق ما تعلموه في واقعهم ..؟ هل كان يمكنهم أن يذيبوا المجتمع من حولهم ؟ ، و هل كان يمكنهم الاحتفاظ باستقلالهم الأخلاقي في جميع الظروف ؟!

قلت لصاحبي : لا .. ما كان لهم أن يذيبوا ذلك المجتمع يومها ؛ ويقيموا مجتمعهم ، إلا أن يمشوا خطوات على جسر من معاناة الواقع ، ومواجهته من خلال عقيدتهم .. وهذا هو دور الرواد اليوم ، دورهم أن يكون واقعهم " مجتمعاً " حياً متحركاً تراه العيون ، وتلمسه الأيدي ، ويمثل بواقعه قوة جذب ، وسبيل رشد ، وحبل تماسك ، وراية جهاد لإزالة العوائق من طريق الإنسان واختياره الحر ، حتي لا يقع أسير محيطه الاجتماعي ، أو يتخذ من ضلال من حوله ذريعة للضلال ، بل يسير بخطي ثابتة..

• نحو مجتمع الحرية

---

[1] التصور السياسي للحركة الإسلامية ـ رفاعي سرور ـ ص 29 بتصرف .
[2] " من الصحوة إلي اليقظة " إستراتيجية الإدراك للحراك الدكتور/ جاسم محمد سلطان ـ ص 7 .

قال صاحبي : ولكن هذه خطوة تبدو لي أمراً صعباً ، وفوق الطاقة ، بل أراه أمراً مستحيلاً .. هل يمكن فعلاً أن يولد مجتمع الحرية من مجتمع غارق في العبودية ؟

قلت لصاحبي : أمر صعب .. فوق الطاقة .. مستحيل .. " إن هذه العبارات وأشباهها توحي بالعجز وانقطاع الحيلة إلى جانب الضعف وتدني سوية الإرادة والثقة بالنفس ، كما أنها تنم عن عدم رؤية الإمكانات المتاحة .. فبدلاً من أن تقول : إن هذا الأمر صعب أو غير ممكن قل : هذا يشكل تحدياً ، و أنا مستعد لقبول هذا التحدي .. لن أقبل الهزيمة ، فهذه فرصة لاختبار قدراتي " [1]

" لقد أكدت الفكرة الإسلامية فيما مضى صلاحيتها في بناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه المشترك بطريقة بالغة التوفيق . لقد أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق ، فجعلت منه إنساناً متحضراً ومحضِراً والأمثلة كثيرة على أن هذه الفكرة أظهرت فعاليتها الكاملة في إعادة تنظيم وتوجيه المجتمع " [2] ، ونفخت فيه الروح ، فإذا به ينطلق مكتسحاً العالم بحضارته وتقدمه !

قال صاحبي : نعم .. هذه حقيقة ، وليس " بإمكان أفضل النظم الاجتماعية ، ولا في إمكان أقسى العقوبات الصارمة أن تقوِّم الاعوجاج ، ولا أن تملأ الفراغ الناشئ من ذبول الروح وانحطاط القيم ، فالعقوبات لا تنشئ مجتمعاً ، لكنها تحميه . والنظم مهما كانت محكَمة ومتقَنة لن تحول دون تجاوز الإنسان لها ، وتأويلها علي نحوٍ يفرغها من جلِّ مضامينها ؛ وكل الحضارات المندثرة ، تركت تنظيماتها وأدوات ضبطها خلفها شاهدةً علي نفسها بالعجز والعقم " [3]

قلت لصاحبي : نعم .. إن روح الإسلام هي التي صنعت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي ، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن ينكحه من يختار من أزواجه ، بعد ن يطلقها له ، لكي يبني بذلك أسرة .. فقوة التماسك الضرورية للمجتمع موجودة بكل وضوح في الإسلام ، ولكن أي إسلام ؟ .. الإسلام المتحرك في عقولنا ، وسلوكنا ، والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي يتربي الأفراد في ظلاله عبر مدخلين : مدخل عقائدى ، ويتمثل فى تشكيل وعيهم بمفهوم العقيدة ، لا على المستوى النظري ، بل بمعنى التلقي للتنفيذ والعمل .. وأما المدخل الثاني : تنظيمي ، وتمثله مرحلة المواجهة والجهاد ضد المستكبرين فى كل الأرض ، لتحرير الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد ..

---

[1] مفاهيم قرآنية فى البناء والتنمية – د.عبد الكريم بكّار - ص 131 - 141 بتصرف .
[2] ميلاد مجتمع - مالك بن نبي - ص 107 ، 108 .
[3] عصرنا والعيش في زمانه الصعب - د.عبد الكريم بكار - ص 206 ، 207 .

ولا شك أن مما يساعد علي التكوين التربوي لأفراد مجتمع الحرية " إثارة العواطف والأشواق نحو طلب الحرية ، والتضحية في سبيل نيلها ، وبيان سير الأحرار وعلو هممهم وتجردهم ، فإننا إذا كسبنا معركة الحرية تربوياً وشعورياً ، نكون قد قطعنا نصف الطريق نحو مجتمع الحرية . " [1] ، ذلك أن تعزيز ثقافة الحرية [2] ، و إيجاد حرية الرأي ، وحرية التعبير ، وتحمّل وجهات نظر الآخرين ، كل ذلك هو الضمان لانحسار مظاهر السلوك غير المنضبط ، و تطوير قيم المتربين ومهاراتهم وقدراتهم في اكتساب أنماط سلوكية تمكنهم من التكيف مع متطلبات المجتمع الحر، الذي نطمح إلى الوصول إليه .

قال صاحبي : هل لديك أمل في أن نصل إلي المجتمع الذي نرجوه في ظل واقع يُمَكِّن فيه المستبِد أعوانه من إرهاب الناس وتخويفهم ، ويشغلهم بشظف العيش ، ويقمع فيهم الكلمة الناقدة ، ويقطع اللسان الصادق ، " ويأخذ بكل أسباب الاضطراب وفقدان الأمن بين الناس ، بل خلق الأزمات في المأكل والمشرب والصحة والخدمات ، والعمل علي إيجاد أزمات تتلو أزمات وتتبعها ، ليروض الناس للخضوع لسلطانه ، والسير وفق أهوائه ورغباته ؟! " [3]

قلت لصاحبي : نعم .. صدقت في وصفك للواقع ، ولكن لا شيء يولد مكتملاً ، " وإنما يولد عبر زمان حمل ومخاض ولادة ومعاناة رعاية ، وصراع وتطور مطرد ، وأن يأتي هذا كله ثمرة اختيار حر ، واستجابة لفعل اجتماعي حضاري نشط يولد حاجة طبيعية داخلية إلي المشاركة في السياق الحضاري. وهكذا ينمو الجنين ويشب الوليد " [4] في محضن تربوي هو مجموعة تربوية " متجانسة ذات إطار مرجعي واضح وأهداف واضحة ، تعمل تحت توجيه وإرشاد مربي متمرس ذي خبرة تربوية وذي مؤهلات قيادية عالية ، وتكون هذه المجموعة التربوية علي اتصال وثيق بمشكلات المجتمع ؛ فتسعي لحل هذه المشكلات بشكل موضوعي من خلال العمل الإيجابي المخلص والمحب . " [5] ، لتجعل من ..

• آلام الحاضر .. آمال المستقبل

قال صاحبي الشاب : ليس لي أمل في هذه الحياة .. لا يختلف يومي عن أمسي عن غدي !!

---

[1] منهجية الدعوة التربوية ـ محمد أحمد الراشد ـ ص 128 بتصرف يسير .
[2] الثقافة لا تعني الأفكار فحسب ، وإنما تعني أسلوب الحياة في مجتمع معين ، والسلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الأفراد في ذلك المجتمع ، والتدريب العملي اليومي على ذلك .
[3] مسائل فكرية وفقهية – هشام البدراني ـ ص 110 ، 119 .
[4] الفكر العربي وسسيولوجيا الفشل ـ شوقي جلال ـ ص 100 .
[5] الصحوة الإسلامية الدوافع والعوائق ـ د.محمد المهدي ـ ص 27 ـ 29 بتصرف .

قلت لصاحبي : لو حملت رسالة الحرية للإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض ؛ فإن هذا – بلا شك – سيعينك على تغيير فهمك للحياة ، فيتحول شعورك باليأس إلى حلم قريب المنال .. ربما تشعر أن هناك قوي تسعي لتحطيمك ، ولكنك ستقاومها ، وتسعي لتغيير واقعك المر ..!!

إن هذه الكلمات التي تفوّهت بها لا تعبر عن موقف مجرد ، بل هي توجه أفعالك في الواقع .. لأنك عندما تقول " ليس لي غد " فإن هذا يعني الموت ..!!

قال صاحبي الشاب : أي أحلام تتحدث عنها .. أنا " ليس لدي أحلام ، كل ما لدي كوابيس " ، إن شعوري بمرارة واقع هذا المجتمع يجعل " الحلم مستحيلاً " .. إني لا أري لنفسي مستقبلاً ..!!

قلت لصاحبي : نعم .. إن جميع المتغيرات والشواهد التي تحيط بنا تجعل أكثر الناس تفاؤلاً يشعر باليأس إزاء تعاسة التطور الذي نعيشه .. " ولكن الحقيقة أن كل مظاهر العفن في هذا الواقع هي مؤقتة تخفي جواهر لم يكتمل نضجها بعد ، وسوف تختفي إن آجلاً أو عاجلاً. ووظيفة المفكر الثائر أن يساعد علي دفع عجلة التطور في بعدين: أن يبرز هذه العناصر الضالة ويفضحها ويقدمها عارية ، وأن يعيد الثقة إلي أفراد المجتمع ، فلا تتهاوي الإرادة ولكنها تندفع في انطلاقتها أكثر قدرة ، وأكثر فاعلية " [1] .

إن المجتمعات ليست شيئاً تكون وانتهى ، ولكنها في عملية تغيّر دائمة .. وحين نعتقد أن واقعنا هو حتم لا يمكن تغييره ، فإننا بذلك نحكم على حاضرنا أن يبقى هو المستقبل بلا تغيير ..

إن إحدى طرق تأجيل المستقبل المظلم ، هي إعادة إنتاج الحاضر مع إضافة بعض التحسينات عليه ، والتأكيد على زيادة الطموح في بناء واقع جديد ..

إن الأفكار المنتصرة اليوم ليست مستقبلاً أبدياً ، وإنما الحقيقة هي أننا نحن الذين نصنع المستقبل من خلال تغيير الحاضر .. فحاضرنا الذي نحياه يمكن أن يصبح جيداً ، ومجتمعنا الذي نعيشه يمكن أن يصبح مقبولاً . ولو بالحد الأدنى . ولكن هذا الهدف لا يمكن الوصول إليه من خلال فرد ، أو حزب مهما كانت قدرته وكفاءته ، وإنما يمكن أن يقوم بذلك مجتمع يشعر بالمساواة ، ويمارس العدل و المؤاخاة ، ويتمسك بهما حتى مع وجود خلافات سطحية بين أفراده ، فمن الطبيعي جداً أن يواجه " مجتمع الحرية " مخاضاً عسيراً نتيجة غياب التجربة وفقرها ، ولكن هذه التجربة ستصحح نفسها من خلال حركة المجتمع في فضاء الحرية ..

---

[1] خطابات إلي الأمة والقيادة - د. حامد ربيع - ص 43 .

قال صاحبي الشاب : صحيح نحن تواقون لرؤية مجتمع الحرية ، وللعيش بكرامة ، لكننا في حاجة أيضا وقبل كل شيء لأن نحس بالأرض التي نعيش عليها ، ونعي ما يحيط بنا من صعوبات ، كما علينا أن ندرك العقبات في طريق ميلاد مجتمع الحرية ؟!

قلت لصاحبي : أوافقك تماماً .. وأنا لا أغفل مدى الصعوبة للقيام بذلك ، ومدى الجهد الذي نحتاجه في تلبية حاجات المستعبَدين ، أولئك الذين حيل بينهم وبين الحرية .. ولكن هذه الصعوبات والمحددات والعقبات ليست أبدية ، وليس من المحتوم الاستسلام والإذعان لها في قَدَرّية واطمئنان ، وإنما الإنسان منغمس في تجاويف الواقع ، وهو ذات فاعلة تستطيع السعي لصنع حياة أفضل .. ولا يستطيع ذلك إلا أن يكون أمامه حلم يستحق السعي للوصول إليه ، وأمل يجب أن يناضل من أجله .. وهذا النضال لا يكتفي بالسخرية من الوقع ، وإنما يتجاوز السخرية والتمرد الأجوف إلى موقف نقدي لا يقتصر على مجرد شجب الظلم ، بل يرسم معالم المجتمع الأفضل .. " ومهما اشتد سخطنا علي الحاضر وما فيه من نقص ومشاكل ورثناها من الماضي البعيد والقريب ، فيجب ألا يدفعنا السخط علي الحال إلي اليأس من المآل ، فلن ينفعنا هذا اليأس في حاضر ولا مستقبل ، بل علي العكس يحرمنا ثمرات الأمل الواسع العريض "[1] والتأمل الجديد في سبيل الرشاد والخروج إلي مجتمع الحرية ..

قال صاحبي : إن انتقالنا إلي حالة اجتماعية أخري وإلي مفاهيم فكرية أخري أمر محال .. إنني أشعر باليأس سجناً معنوياً يحيط بعقلي وقلبي ، ولا أظن أنني قادر علي هدم جدران هذا السجن الكبير ؟!!

قلت لصاحبي : بل يؤكد علم الاجتماع قضية هامة ، مفادها أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد .. وإنما تحدث ظواهر اليأس لأنه من خلال وجود " الإنسان داخل هذا الإطار الاجتماعي يتقولب ذهنه وتتشكل مقولاته. فهو لا يفكر مسبقاً في أن يتصرف بشكل اجتماعي ، إنما يتم ذلك تلقائياً. فهو يردد ما يقال ، ويشترك فيما يحدث ، ويتفاعل بما يدور حوله. فعندما ينشأ القالب الفكري اليائس بتأثير هذا الضغط الاجتماعي وتكرار المقولات والسلوكيات اليائسة ، ينشأ عندنا نوع جديد من التفكير الجمعي اليائس. وهنا دور قادة النهضة ، ألا وهو كسر هذا القالب الفكري اليائس."[2] والحفاظ علي الأمل حتى عندما تفرض علينا قسوة الواقع نوعاً من اليأس ؟!

---

[1] المجتمع المصري جذوره وآفاقه - سيد قطب - إعداد وتقديم : ألان روسيون - ص 233 .
[2] من الصحوة إلي اليقظة " إستراتيجية الإدراك للحراك - د . جاسم محمد سلطان - ص 236 - 238 .

وهكذا .. مع " ضياع أي فرصة فلا زالت هناك فرص أخري قادمة ، و من فاته قطار اليوم سيلحق بالقطار التالي، لذا يجب أن يكون جاهزاً لركوبه و إلا فاته و اضطر لانتظار القطار الذي يليه ، و هكذا.. يبقي الأمل مستمراً سواء كان الوضع يبدو يائساً أم لا .. وعلي قادة و طلاب النهضة الأخذ بقانون التداول القائل بأن ذلك الوضع لن يدوم ، و أن علينا واجب الاستعداد و التحرك المستمر ، بحيث لو أتي القطار في اللحظة التي يقدرها رب العالمين ، نكون قادرين علي اقتناص الفرصة و الصعود و تحقيق المغانم و النصر.[1] ..

إن هذا القانون يعلمنا أن كل وضع يبدوا صعباً في لحظة ما ؛ فإنه سيصبح هشاً في لحظة أخري لاحقة " { و تلك الأيام نداولها بين الناس } [آل عمران: 140] " [2] .. ولا يعني هذا أن أن الطريق إلي مجتمع الحرية " نزهة مريحة ، ولا أنه هناك على قيد خطوات ، بل هو طريق طويل وشاق ، وملئ بالأشواك .. ذلك أن حتمية الميلاد لا تغنى من آلام المخاض!!

قال صاحبي : لا أريد أن أعيش الحلم ، ثم يفاجئني الواقع الأليم ؟!!

قلت لصاحبي : نسأل الله العافية من حلم التغيير ، دون أن نتغير .. إن الحلم لا بد أن يكون دافعاً للعمل علي التغيير ، ليصبح الوسيلة الأسرع للاتجاه إلي الأمام ، وبخاصة في مجتمع خامل اعتاد علي السكون وعلي أن يقبع هادئاً في قعر الصندوق ..

قال صاحبي : هل تريد أن تقنعني أن هناك نقطة ضوء أمام كل هذا الإحباط والانهزامية الذى نعانيه؟

قلت : نعم .. هناك نقاط ضوء .. وليس نقطة واحدة .. فنحن اليوم نعرف من الكذّاب ؟ ومن الذى يتلاعب بعقولنا ؟ .. ولدينا اليوم كل عناصر التحليل والفهم ..

ربما يكون للمستكبر سلطاناً يهدم به مجتمع الفرد ، ويزيف قيمته الاجتماعية ، لكن قيمته الجوهرية ، والتي تشتمل على شروط بسيطة لازمة لاجتياز مرحلة العسرة من حياته ، تقصر عنها يد المستبد ...

إن المستبد قد يخدع المستضعفين ، ويخلق في نفوسهم رهبة ووهماً ، ويشلهم عبر هذا الوهم عن مواجهته بكل قوة ، فيتوهم أنه من خلال استضعاف الآخرين قادر على إطفاء نور النهار على المجتمع

---

[1] هذا ما يسميه د.عماد الدين خليل " الاستماع للحظة التاريخية " .
[2] في الصراع و التدافع الحضاري – د. جاسم محمد سلطان - ص 223 .

الذي بدأ يستيقظ ، بل ربما رأي أنه قادر على دق ساعات الليل عند غرة الفجر ، وفي منتصف النهار ، ليرجع ذاك المجتمع إلى العبودية والنوم .. ولكن هيهات أن نُخدع أو نتوهم أنه الليل ، فنعود للنوم .!!

إنه النهار .. نهار الحرية .. ولا رجعة إلى الظلام ، مهما حاول المستبِدون ..

إنه الميلاد الجديد .. ميلاد مجتمع الأحرار الذين لم يألوا جهداً لإنقاذ البشرية من براثن العبودية للأصنام الباطلة على مدى التاريخ .. الذين نادوا في ظلمات العبودية إلى تحرير الإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض .. فكان نداؤهم هو البشري بـ " ميلاد مجتمع الحرية " .

***

الخاتمة

قد يتجنب الجراح الحاذق إجراء عملية نسبة نجاحها ضئيلة خوفاً علي سمعته المهنية ، ولكنه حين يعود إلى الوراء يوم كان شاباً فى بداية حياته لم تشوهه المادة بعد ، فإنه يتمسك بتلك النسبة الضئيلة من النجاح، على الرغم من النسبة العالية للفشل .. ومن ثم ، فإنه يغرس مشرطه فى جسد المريض ، كما لو كان يغرسه في جسده هو ..!!

وهذا ما حدث لي حين حاولت الاقتراب من موضوع " مجتمع الحرية " فقد كنت أعتبره موضوعاً لا يجوز الاقتراب منه ، وأن محاولة لمسه وتقليبه هي محاولة مكتوب عليها الفشل سلفاً .. !! ، ولكني قابلت شباباً أحسست فيهم صدقاً نادراً ينعكس على سلوكهم وعلاقاتهم وحركة حياتهم ؛ ورأيت من خلال جهودهم أن ما يكتبه المفكر يؤثر في حركة المجتمع ، وتيقنت أن مسؤولية االمفكّر إطلاق صيحة النذير ، لأن من يشم رائحة الدخان ثم لا يُنذر من حوله ، فهو مشارك بشكل ما في إشعال الحريق .. !!

لقد أحسست تقصيري في أن أبقي أنظر إلى جهود أولئك الشباب وهي تذبل أمامي ؛ فتركت أنانيتي ، وأقبلت أسير وولجت باب هذا الموضوع .. " مجتمع الحرية " ، ودعوت الله أن يمنحني الشجاعة كي أقول ما يجب أن يقال ، وأن ينعم عليّ بنعمة الصمت عندما يجب أن أصمت ، وأن يؤتيني الحكمة كي أميّز بينهما .. ثم بدأت في محاولة إعمال الفكر حوله ، وتدوين النتائج الأولية " والتي هي دائماً أولية " لخواطري وتأملاتي ، ثم القيام بمزيد من التحليل والشرح لهذه النتائج ، وطرق دروب أخري من البحث لتكون الفكرة أكثر وضوحاً .. ليكون كل ذلك مقدمة إلي تدوين الفكرة ، وإخراجها من دائرتي الفردية إلي أن يشارك فيها الجميع من خلال نقدها ، أو الإضافة إليها ، وكانت النتيجة هي هذا الكتاب الذي أتمني أن أكون قد استطعت من خلاله توصيل رسالة هامة ، وهي أن التغيير قادم ويحيط بنا ، وأن هذا التغيير يسبقه تغيير لما بأنفسنا ، بنبذ التربية التي تُعَمِّق الاستعباد ، لتقوم تربيتنا علي مبدأ أن الحرية أغلي من الحياة ..

ولست في حاجة هنا إلي التأكيد علي أني لا أدعي أنني توصلت إلى الحقيقة الكاملة فيما طرحته[1] .. فإنني بذلك أكون قد أخطأت فهم طبيعة عملية إنتاج المعرفة وخصائصها باعتبارها عملية اجتماعية لها

---

(1) آمل أن أجد في وعي القراء ما يساعد علي نقد البحث وترشيده، وتهذيبه والإضافة إليه بما يثري إيجابياته، ويلفظ سلبياته، ويقرّب من جدوي ثماره عبر مراسلتي علي: ommat_alhorreah@hotmail.co & m ommat_alhorreah@yahoo.com

قابلية دائمة للتجديد والتطور .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإنني إذا لم أستشعر القدرة على إضاءة بعض المناطق المظلمة في طريق الخروج من نفق العبودية المظلم ، فإنه يصبح لزاماً عليّ ألا أحرر هذا الكتاب ، لأنه في هذه الحالة يصبح بلا فائدة ..!!

إن بعض الناس يريد من المفكر أن يتأمل في صمت في موضوع بحثه حتي إذا ما تكامل بين يديه ووصل إلي نسخته الجاهزة المنقحة خرج به عليهم ، ليقدم لهم نظرية متكاملة تحل لهم جميع المشكلات ، وتجيب علي جميع التساؤلات ، ولذلك فإن هذا البعض لا يتفاعل مع شيء غير تام وغير متكامل ، لأنه واقع تحت تأثير فكرة انتظار المشروع المتكامل المتقن ، الذي يملأ العقل ويثلج الصدر ويريح النفس ويقطع الشك .. ولا يدرك أولئك أنه قد تلتقي كلمة القاريء كلمة الكاتب ، كما تلتقى في الأفق سحابة سحابة ، فينشأ من تلاقيها مطر ينهمر وبرق يضيء ..

إن المفكّر قد يري أحياناً أن محاولة الحياة وفق أفكاره هي محاولة في الفراغ ؛ ويشعر بالحيرة بين لذة اعتناق تلك الأفكار ، وبين تكاليف الحياة بها ، فيبدأ رحلة السير لقطع المسافة بين الفكرة والواقع .. وفي خلال هذه الرحلة يتقلب بين أحوال شتي حسب ما يقطعه من أجل الوصول إلى الحكمة .. وبينما هو في سيره تتكشف له معالم الحكمة شيئاً فشيئاً ، كمن يرى السماء بعد تبدد السحاب الكثيف والرعد الرعيب والبرق الواهج ..!!

ولذلك فإنك .أخي القاريء .ربما وجدت خلال قراءتك للكتاب تنوعاً في أفكاره ، وتبايناً في أساليبها.. ذلك أنها انعكاس لحالات ذهنية وجدت فى العقل ، وانفعالات عاطفية وقرت فى القلب ، وصوراً واقعية انطبعت فى النفس .. فجاء هذا المزيج من الأفكار التى ترسم صورةً من الزمن الذي نعيش ، وتحاول أن يكون لها دور.ولو صغير.في اكتشاف ما نحن قادرون علي تحقيقه ..

إننا حين ننتهي من قراءة أي كتاب جديد ؛ يثور بداخلنا التساؤل حول ما حصلنا عليه من ثمرة قراءته، وإنني فى نهاية هذا الكتاب آمل أن تكون أفكاره قد اكتملت بداخل أنفسنا ، فغسل الله بها عبوديتنا ، وأضاء الله بها ركناً مظلماً فى طريقنا إلى مجتمع الحرية ..

فأدركنا من خلال الباب الأول " قافلة الرقيق " أن الاستعباد ظاهرة لا تكاد تخلو منها بقعة على وجه الأرض ، وإن اختلف حجم الاستعباد باختلاف طبيعة البيئة التى ينتشر فيها هذا الاستعباد .. وأن " العالم الحر " لا يملك إلا حرية وحوش الغابة في أن تصنع ما يؤهلها له الظُفر والناب .. !!

ورأينا في طيات هذا الاستعباد الذي يملأ الأرض ، بذرة الحرّية التي تتحدي أعاصير الطغيان ، ولا تسمح له أن يبتلع البشرية " في دنيا العبيد " ، لتعيش في إطار من حضارة زائفة لا تنشيء إلا " مجتمع الحضارة الأسيرة " ..!!

وتأملنا في الباب الثاني " ثقافة التيه " كيف تكرس هذه الثقافة مفهوم راعي الغنم ، وتنظر إلي الشعوب علي أنها مجرد قطيع لا يملك من أمره شيئاً ، يسير نحو الاتجاه الذي يحدده الراعي ، الذي بعصاه يروَض القطيع ، ويؤدب من يحاول التمرد ..!!

وفهمنا أن تسلط الراعي علي هذا القطيع ، إنما هو بسبب من " العبودية المختارة " التي تنشيء في الأنفس أخلاقيات الضعف والخوف ، فتجعل الخضوع للأوامر آلياً ، كما يدق الجرس فور ضغط الزر واتصال التيار .. ذلك أن " النفس المستعبَدة " التي طال عيشها في الظلام ، يؤذيها النور ويجرح بصرها ، ولذلك فإنه المحال أن يتحرّر بَدَنٌ يحمل عقلاً عبداً .

ثم زادت رؤيتنا وضوحاً من خلال الباب الثالث " المتلاعبون بالعقول " حيث رسم لنا " فقه الواقع " صورة أعداء الحرية وهم يهيئون كل ما يقلب الحياة رأساً على عقب ، ثم ينسحبون بكل تواضع ، تاركين مَن يضع توقيعه على أعمالهم في عملية " اغتيال العقول " التي تدور في هدوء دون أن يتنبه لها العبيد ، والتي يتحالف فيها الجميع لطمس بصيص الضوء كلما لاح ، و أسر المستعبَدين في " بيت العنكبوت " الذي لا يُمَيِّزون بداخله مكانهم من القاع الذي هم فيه ، ولا يعرفون المسؤول عن وجودهم في ذلك القاع ، فينتقلون من أزمة إلي أزمة ، ومن حيرة إلي حيرة .. !!

وحين شعرنا أن وصفنا الموجع للواقع في الأبواب السابقة لم يتقدم بعد في اتجاه الحل ، بدأنا في الباب الرابع " الحرية والحضارة " محاولة إعادة ترتيب ملامح أفكارنا وعقولنا ، فاتضح لنا أن " الحرية شرط الحضارة " وأننا نحمل " الإسلام رسالة الحرية " التي يُخرج الله بها من نشاء من عبادة العباد إلي عبادته سبحانه ، ويرفع الله بها عن الإنسان الأغلال والآصار التي صارت عليه ، ليعيش في ظلال كلمة الحرية.. " لا إله إلا الله " .

وعند هذه النقطة تساءل الكثيرون : من أين نبدأ ؟ فكانت الإجابة في الباب الخامس " سبيل الرشاد " الذي حاول كشف مسار الواقع ، ثم تحويل هذا المسار إلي الأفضل ، من خلال ما يمكن أن نطلق عليه " الأفكار المحورية " التي تنتظم مجموعة كبيرة من الأفكار الجزئية التي تغطي كافة مراحل الخروج من التيه إلي الرشاد ، فتأكد لنا في البداية أنه لا تغيير لما بالقوم " حتي يغيّروا ما بأنفسهم " لأن الأفكار التى لم

تقطف إلا شوك العبودية ، لا ينتظر منها أن تعطينا رحيق التحرر ، وإنما لا بد من أفكار تبث قيم العدل والحرية من خلال " ثقافة النقد والحوار " وتسعي لتطبيق تلك القيم من خلال "إطار عمل لا إطار انتماء "، ليكون قبول الآخرين لها عبر " إقناع لا إخضاع " فيتكون من هؤلاء " نواة " تتسم بالفاعلية والحيوية، تجذب إليها " صفوة " الفكر والتجارب و" خبرة " القدرات والإمكانات ليتكون من هؤلاء جميعاً " طليعة " قوية قادرة علي تحدي كل أعداء الحرية ، حتي يأذن الله بـ " ميلاد مجتمع الحرية " ..

فإذا أردنا أن نجمل كل تلك الأفكار قلنا أن " تغيير التصور طريق التحرر " ، لأن أي تغير يحدث في هذه الأرض ، يبدأ أولاً في " النفس " ، ليعدها لتغيير الواقع من خلال " مجتمع " يترجم الفكرة بحركاته وسكناته ، وبرخائه وشدته ، وبأهدافه وبرامجه ؛ حتي تتحول تلك الفكرة إلي عطر فوّاح يتنفسه الرائح والغادي .. القريب والبعيد .. الصديق والمعادي .. وإلي نور دائم الحركة في الصراع للخروج من العبودية إلي الحرية .

بُنيّ الحبيب ..

ربما تنظر إلي واقع الحياة وتسأل نفسك : أين أنا ؟ .. هل أعيش وسط غابة قد امتلأت بالوحوش المفترسة ؟ .. أم أنني أشاهد مسرحية تتذبذب فصولها ، بين الهزل المضحك والجد المبكي ؟!!

الحقيقة . يا بُنيّ . أنك تعيش كل ذلك في آن واحد من خلال طغاة استطاعوا أن يتسلقوا ليصلوا إلي قمة السلطة ، وذوي قدرات فكرية قد انقلبوا إلي مجموعة من الصفاقة ، يمارسون الكذب بلا حياء!!..

ولكن . يا بُنيّ . دعني أهمس في أذنك أن تسلق الطغاة إلي السلطة ليس إلا تعبيراً عن فساد إرادة المحكومين وتعفن ضمائرهم ، وإذا كان الصفاقة يتقنون فن الكذب ، فليس ذلك إلا نتيجة عدم قدرة المجتمع علي أن يواجه ذاته بصدق وصراحة!!..

نحن . يا بُنيّ . الذين نترك القيود تكبلنا ، بل إننا أحيانا نكبّل أنفسنا بأنفسنا ؛ فالشرارة تستفحل نارها وتعظم كلما وجدت حطباً .. ثم تخبو وحدها دون أن نصب عليها الماء إذا لم نلق إليها بالحطب ، وكذلك الطغاة كلما نهبوا طمعوا ، وكلما موّناهم استقووا ، فإذا أمسكنا عن مساندتهم ، فسنراهم مكسورين مهزومين ، لا شبيه لهم إلا فرع من شجرة عدمت جذوره الماء والغذاء فجف وذبل..

إن الطاغية لا يملك من السلطان إلا ما أعطيناه نحن ؟!! .. ليس له عيون يراقبنا بها إن لم نُقْرضه نحن هذه العيون ؟! .. ولا يملك الأكف التى يصفعنا بها إن لم يستمدها منا ؟ .. ولا يجد أقداماً يدوسنا

بها إن لم تكن من أقدامنا ؟ .. إنه لا يقوى علينا إن لم يقو بنا .. وهكذا هو كل مجتمع يستسلم للاستعباد ، فإن الله يبعث عليه سوط الاستبداد يسومه سوء العذاب ، من غير ضمير يردع ، ولا قانون يمنع .. فإذا لم يستيقظ كان مستقبله نوماً يغط فيه إلى الأبد ، لا يستطيع النهوض منه إلى فجر جديد ..

بُنيّ .. إن التحرر ، أو علي الأقل محاولة التحرر ، ميزة من ميزات الشباب ، وهي ميزة يرافقها الشعور بالاستغناء عن الآخرين والرغبة في التحرر من سلطتهم والثورة أحياناً علي أفكارهم . والاستقلال بالرأي عن آرائهم .. ولذلك فإنني أشعر أنك تنظر بشيء من الازدراء والاحتقار لهذا الجيل الذي يحيط بك ، ويقودك ويوجهك ويفرض عليك الطاعة والاحترام ، بل أري في كثير من الأحيان لمحات السخرية الصامتة تبدو في ملامحك ، وأنت تعلق علي سلوك أساتذتك .. وأنا أعلم أن صراع الأجيال حقيقة ، ولكن ذلك الصراع لا يمنع الاحترام والتقدير ، فعليك وأنت تنظر إلي هذا الجيل مستنكراً أن تذكر ما لاقاه وما عاناه ، وكيف خرج من المحنة التي عايشها ، وحمل وحده آثارها .. فلا تحلم بالمثاليات في رأسك ، بل انظر كيف يتحرك الواقع ، وما القوانين التي تحكمه .؟!

لست أدافع . يا بُنيّ . عن هذا الجيل الذي أنتمي إليه ، بل إنني أعاني ما تعاني إذ أنظر إلي أولئك الذين من حولي فتجمع نظرتي بين الحب والإشفاق من جانب ، والاحتقار والازدراء من جانب آخر ، فتتضافر بداخلي عوامل التمزق ، فليس أشد علي النفس من أن تحتقر شخصاً وتحبه في آن واحد ؟ من أن تزدري إنساناً وتعطف عليه ؟ تسعي إليه بدافع من العاطفة ، ولا تستطيع إلا أن تشعر بالنفور منه والابتعاد عنه!!..

إنها مأساة جيل كامل هو حلقة في سلسلة طويلة من الأجيال التي خانت الوظيفة الحضارية لهذا الدين، وهي إخراج العباد من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده .. هذه هي الحقيقة ، موجعة ، نعم .. ولكن ليس من كاشف للنفس أفضل من المعاناة ، ولا دافع إلي التغيير مثل الألم ، فالألم يصنع الحكمة..

فلتكن أنت . يا بُنيّ . الحر الناشئ بين مستعبَدين ، واللابث مع الفطرة بين منحرفين ، و الأحقُ بأن تستمتع بمنظر شروق الحرية ، وتسير في ضوئها لتصحيح مسار المجتمع والتخلص من المستبدين ، ولو علي حساب حياتك ..

بُنيّ .. لا تهاب الموت ، فليس ينجي من الموت مثل حب الموت ، وأنت إمّا أن تطلب الموت ؛ فتدركه وأنت تريد ، وإمّا أن تغفل عنه ؛ فيدركك وأنت حينها لا تريد..

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجـــوم

فطعم الموت فى أمر صغير كطعم الموت فى أمر عظيم

ولكن اعلم . يا بني . أن الموت ليس غايتك ، فإن جاءتك فرصة الحياة في سبيل الله فتشبث بها ، وإلا فامض إلي ربك الذي تجد شوق لقائه في قلبك واعلم أن دماءك قد توقظ العبيد كما لا توقظهم ألف كلمة من كلماتك الكثيرة ..

رفيق الدرب ..

فى مجتمع يعاني من التسلط والقهر ، ويتلقى تزوير الهوية ، ودك قواعد الكرامة .. فى واقع مرير كهذا ، لا يسع أى حر إلا أن يحاول وسعه وجهده عاملاً على تحرير الإنسان .. ولكي يمكنه ذلك فهو في أشد الحاجة إلي قطع المسافة بين الوهم والواقع ؛ ليدرك واقعه بلا أوهام ، ويعرف في أي طريق يسير ، ويتسلح بما يحتاجه من قوة .. فأشجعُ الشجاعةِ مواجهةُ النفس ، وأوّلُ النصر أن تحمل نفسك على الحقّ..

فكيف تري . يا رفيق الدرب . واقعنا ؟

ألا تري أن أفضل من فينا محض ساكت عن الحق .. محض شيطان أخرس ؟! .. فبماذا نجيب أبناءنا إذا سألونا بعتاب وغضب وتأنيب : ماذا فعلتم حفاظاً على حريتنا ؟ .. هل نقول لهم أننا فرطنا فى حريتنا لأجلهم هم ؟!

لا شك أنهم سيؤكدون لنا عندها أننا أمضينا حياتنا فى الطريق الخطأ .. وأننا قد ربيناهم علي الرزيلة التعيسة .. رزيلة " العبودية " لبشر من البشر .. بل ربيناهم علي مسخ لا يستحق حتى اسم الجبن ، ولا يوجد فى اللغة كلمة تعبّر عن قبحه تعبيراً كاملاً .. بل إن اللغة ربما تأبى تسميته !!!

هذه هي الحقيقة .. ولكن نفوسنا القاحلة من الصدق تعجز عن إضاءة أسباب مشكلاتنا التي أزمنت وتعفنت ، وكلماتنا التي تشكو قلة رصيدها من العمل ترتكب جريمة الخيانة لما نقدمه لأبنائنا من خطاب، فيتوهمون أن التحرر عملية مستحيلة ؟!

نعم إن التحرر عملية صعبة ، ولكنها ممكنة حين لا نركن إلي طلب السلامة التي هي الموت ، ولا نبادر إلي العجلة التي هي التهور والمغامرة غير المحسوبة .. وإنما نسلك بين ذلك قواماً ، فنكون تواقين إلي التحرر برويّة ، ونكتسب القدرة على رؤية المستحيل ممكناً مهما عشنا وسط موانع الأمل والعمل ،

وكواتم التنفس والهمس ، ومصدّات رياح الحرية ؛ فلا نترك الاستبداد يفترس آمالنا وأحلامنا ، وهممنا وعزائمنا ، وقدرتنا علي العمل، فنتحول إلي مجرد أموات ، أو حشرات تدبُّ أو تزحف على الأرض ..!!

أنا أعلم . يا رفيق الدرب . أن الوصول إلي مجتمع الحرية ليس رحلة قصيرة قريبة المنال ، ما نفتأ نتمناه أو نتحدث عنه حتى تنجلي لنا الأمور وتستقيم لنا الطريقة ، وإنما هي رحلة طويلة وشاقة ، تبدأ بخطوة وتستمر خطواتها التالية مدي الحياة ، لا تنتهي ولا تتوقف .. ولذلك فإن وصيتي لك هي " التمام .. التمام" ، وصية أرسلها أبو بكر رضي الله عنه من وراء الصحراء إلى خالد بعد انتصاراته في العراق ، فقال: " ليهنك أبا سليمان النية والحُظوة ، فأتمم ، يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر. وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل ، فإن الله له المنّ ، وهو ولي الجزاء .. " .. هكذا .. يطلب منه الإتمام الصامت في غير وقوف عن السير.

وأريدك أن تعلم . يا رفيق الدرب . أن الذين يسقطون أمام الاستعباد ، هم الذين لا يصبرون على الحرمان الذي يفرضه المستبِدون عليهم ، ولا يصبرون على الآلام التي يسلطها المستكبرون عليهم ، وهم الذين لا يصبرون على مواقف التحدي التي تفرضها الحرية عليهم ، ولذلك فإن نقطة البداية ليست خارجنا ، وإنما الفرصة توجد داخلنا .. فإذا حررنا أنفسنا من القيود التى فرضت علينا ، أمكننا مواجهة كل العالم لأننا عندها نمتلك القدرة علي النظر في عيون الحقيقة بلا خوف ، واحتمال كل شيء حتي الموت، بعد أن تحملنا حياة هي أصعب وأخطر من الموت ..!!

فإذا عايشت . رفيق الدرب . كل شيء وتحملته ، ونهضت ثانية بعد مئات الكبوات ، ورفضت الآمال الكاذبة ، ورأيت الحقيقة بشكلها الواضح ؛ فاعلم أن حياة الحر ، رحلة يواجه فيها شواهق الجبال ، ويقتات خلالها المصاعب والآلام ، يدوس فيها على الأشواك ، ويجتاز أرضاً ملؤها الحرائق والألغام ، في دنيا الغيلان والقردة التي تتربص به ، وتحاول سحقه بآلات جهنمية ، دونها ألف مرة أنياب الوحوش ، وأظافر الوحوش ، وهمجية الوحوش ..!!

وإذا وجدت . يا رفيق الدرب . نفسك بلا صاحب ؛ فاجعل من شعورك بالوحدة تطلعاً إلي التواصل مع الآخرين ، ودافعاً إلي معرفة ذاتك ، وإدراكاً لحاجتك إلي العالم ، وحاجة العالم إليك ، ويقيناً بأن المسكين من لم يرتشف يوماً نشوة التحليق فى أجواء الحريّة .. وأن من حقك أن تتيه فخراً أن طريقها يزداد بك فرداً .. فإذا تذوقت حلاوتها ، وأشرق نورها فى قلبك ؛ فاسق من راحتيك كل عطشان لها ، واجعل من هؤلاء العطشى إخوان صدق ، واجتمع أنت وهم لتتفكروا في مجتمع الحرية ، واجعلوه

مشروعكم الذي تعيشونه نهاراً وتحلمون به ليلاً ، وتكملوه مع الأيام خطاً هنا وخطوة هناك ، واجعلوا الحكمة ضالتكم ؛ فاقطفوا من كل بستان زهرة ، ومن كل فيلسوف فكرة ، ومن كل مبدع لمعة ، ومن كل عالم جملة ، ثم ابتكروا ما تجود به قرائحكم المتيقظة حتي يصبح لكم مع الأيام بنياناً متميزاً يشار إليه بالبنان ..

واعلموا . رفاق الدرب . أن الذين يرتزقون من دماء المستضعفين لن يلتزموا الصمت أمامكم ، بل سيوجهون لكم التهم .. فلا تيأسوا ، بل استخدموا قدراتكم وثرواتكم في تحدي عوامل الاستعباد ، والتشبث بالأمل فى بعث قيمة الحريّة التي لا يستحقها إلا من " يغزوها " ويقتحمها ويضحي في سبيلها.. فمن قطف وردة جميلة توقع أن يجرح شوكها بعض أصابعه ، والنازل إلي السوق لن يشتري مجاناً..!!

فإذا علمت . رفيق الدرب . بمن قضي نحبه في هذا الطريق ، فاعلم أنه لم يمت ، ولم يغب مذهبه الوثيق وحسه الرقيق ، وإنما ختم حياته واستراح كما يستريح المتعَب الذى ظل يحمل هم مجتمعه ويحاول إخراجه من التيه إلي الرشاد ، وبقيّ أميناً على الحقيقة لا يسأم من أدائها شهادة ، ولا يهتم إذ يقبض عليها أن يقبض على نار تحرق أصابعه ، ما دامت هي النور يكشف ظلمة الاستبداد ..

وبادر . يا رفيق الدرب . لتعويض ما صار شاغراً برحيل من رحلوا ، وحاول الحفاظ علي وتيرة الأداء العالي ، ولسان حالك يقول للشهيد : أيها القائد ، لقد حركتنا بسكونك .. ويقول لأعداء الحرية : كفّاي بلا قيد ولساني لم يسكت بعد ..!!

فإن حاول الطغاة أن يشعروك أنك بلا وطن .. فاهتف بقوة : إن موطني ليس قطعة من الأرض .. بل هو يمتد في الزمان والمكان والمشاعر والآمال .. موطني هو الألم والمعاناة والصبر والتحمل .. موطني هو أمل الملايين ممن يتطلعون إلى الحرية .. هناك حيث أحتضن حلم الحرية ، و أسعى من أجل تحقيقه ، وأواجه كل القوى التي تتحالف على طمس بصيص ضوئه ، وتجتمع من كل حدب ، ومن كل مارق ، وكل مريب ، وتبذل من أعمارها السنوات من الدجل لتفرض ثقافة الاستعباد ..!!

فما أعظم البطولة حين يكون الخصم عنيداً وباطشاً ولا يحتكم إلى أي شكل من أشكال التفاهم أو الرحمة ، فكلما علا في داخلنا الشعور بجدارة المواجهة ، كلما أحسسنا نبل الهدف والقيمة التي نعمل من أجلها ، واندفعنا فى الطريق إلى حياة الحرية ..

يا من يقلب وجهه في السماء ، ويُعمل فكره في الكون باحثاً عن مجتمع الحرية .. إني أشاركك تطلعاتك، وأستبشر خيراً بهذه الأشواق التي تحملها .. لقد عانيت ما تعاني ، ولقد كان هذا الكتاب دعوة لنتحاور في هدوء ون أن أضيق بك أو تضيق بي.. نعم لن أضيق بك. أيها الإنسان. لأني أرى نفسي فيك ، فقد مشيت في هذا الطريق ، ومررت على ثغراته ، ومَنَّ الله علي بمعرفة كثير من مسالكه ومنعطفاته .. لن أطلب منك أن تكون أسير فهمي أو فهم غيري.. لن أزعم لك أمتلك الحقيقة المطلقة ، أو التحليل الفصل .. وإنما هي رؤية أدعوك لتأملها ..

وأبدأ هذه الرؤية بحقيقة أولية بسيطه .. تلك الحقيقة الأولية البسيطة هي أن الوثن ليس ما نحت من الحجر وفقط ، فهذه صورة ساذجة للوثن .. أمّا الوثن الأبشع فهو وثن اللحم والدم الذي يظهر في صورة طاغية يطل علي المستعبَدين من علٍ بوجه مكفهر ، يحيط به سدنة يوحون إلي المستعبَدين زخرف القول غروراً ، ويوهمونهم أنه يضر وينفع ، ويضع ويرفع ، ويعتقل ويطلق ، ويمنح ويمنع ، ويغدق المال ويقتر في الرزق .. ومن ثم فهو مستحق للرهبة ، ويجب علي الجميع أن يقدموا له مراسيم الزلفي ، وخطابات التبجيل ، وأشعار المدح لأوصافه البهية ؛ فيسبح المستعبَدون بحمد الطاغية ..!!

وهكذا. أيها الإنسان. يبذل المستبِدون كل طاقتهم لتبقي في إطار نظرتهم للحياة ، ولا يتركون لك أدني فرصة للبحث عن طريق ينقلك من حضيض الاستعباد إلى قمة الحرية السامقة ؛ تحت عنوان أن هذا الحضيض هو " قدر مكتوب ، ولا سبيل إلى تغييره " ؛ فتستسلم لواقع القهر ، وكأنه يستحيل عليك تغييره أو حتي التأثير فيه .. ومن ثم يصبح مستقبلك أقل إشراقاً ، وينسحق أملك تحت وطأة حاضرك التعيس .. هكذا ، وكأن حاضرك هو محطة وصول نهائية كل من يتجاوزها ، لا يجد أمامه سوى المستحيل..!!

فإن فشل المستبِدون في ذلك ، فإنهم يحولونك. أيها الإنسان. إلي لاهث وراء لقمة عيشك الصعب ، حتي يبقي سؤالك المتردد بداخلك : أي معني لبحثي عن الحرية وأنا فقير ليس لدي قوت يومي ؟ .. إنني في حاجة إلي أن أحصّل متطلبات الحياة الأساسية من مأكل ومسكن ومركب بشكل يحفظ عليّ آدميتي وكرامتي ، وعندها يمكنني إدراج الحرية ضمن أهدافي ..!!

هكذا . أيها الإنسان . تحاول إيهام نفسك أنك مستعبَد لأنك فقير ، بينما الحقيقة الموجعة أنك فقير لأنك مستعبَد ..

ربما قلت : ماذا أستطيع أن أفعل ؟ .. دع الأمور تجري فهذا هو جواز المرور لسكة السلامة !!

ولا شك أن هذا هو طريق السلامة ، ولكنها سلامة من أراد أن يعتزل الحياة ، ففقد كرامته في هذه الحياة ..!!

ولئن خُيّل إليك أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فاخترت الذل والمهانة ، هرباً من هذه التكاليف الثقال ، فاعلم أنه ليس لك إلا حياة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف فيها من ظلك ، وتحسب أن كل صيحة عليك ؛ فتؤدي ضريبة الذل كاملة .. تؤديها من نفسك ، بل من دمك ومالك وأنت لا تشعر .. فكلما خفت أن تجوع ، استعبدك رئيسك ، فأكل إنسانيتك ودمر نفسيتك .. وكلما خفت المستقبل ؛ خضعت لمن يحكمك .. وكلما خفت الموت ، ضاعت حياتك ..!!

إنك . أيها الإنسان . تتنازل عن حريتك باختيارك وإرادتك ، حين تستحب الحياة ، وإن كان غذاؤك الذلة ، وكساؤك المسكنة ، ومسكنك الهوان .. ولو أردت الحرية ورغبت فيها ، لحصلت عليها ؛ فلا تلعن الظلام ، ولا تشعل شمعة .. ولكن دع نور الحرية الذي نبت في قلبك ، وبزغ في صدرك ، ينير طريقك نحو مجتمع الحرية .. واعلم أنه إذا كان الواقع الراهن ظُلْماً ، فالتمرّدُ على هذا الواقع قد يكون خطوةً في طريق العدل .. وإذا كان هذا الواقع ظلاماً ، فالتمرّدُ على هذا الواقع قد يكون خطوة إلى النور..!!

واعلم . أيها الإنسان . أن القوة المادية لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية , فقصارى ما تستطيعه تلك القوة أن تملك الجسد , تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه .. أما الضمير والروح والعقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها , إلا أن يسلمها صاحبها وينزوي في أصدف الطاعة النتنة ، حرصاً على أكل العيش، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان !

أيها الإنسان ..

إن الحياة ليست خياراً واحداً نؤديه ونستسلم بعدها لكل ما يحدث لك .. وليست مفترق طريق منفرد ووحيد نختار فيه أي جهة سنسلك وينتهي الأمر بعدها .. بل كل خيار يفتح سلسلة من الخيارات ، وكل

مفترق طريق يحوي خلفه سلسلة من مفترقات الطرق .. وفى كل خطوة من خطوات حياتنا يوجد خياران نختار واحداً منهما بملء إرادتنا ..

فإذا كان من يصل بفضل الله إلي ساحل الحرية واحد ، ليسقط ألف في مستنقع العبودية الذليلة ، فكن أنت هذا الواحد الذي يقفز من سفينة الاستعباد الغارقة ، واعلم أن نجاتك لا تأتي مصادفة أبداً ، بل لا بد في لحظة حسم وحزم .. في مفترق طرق ، وفي منعطف حاد .. لا بد من قرار بمواجهة سلطان الخوف، والامساك بجمرة الحرية الملتهبة ، والقبض عليه بشدة ، والعض عليها بالأسنان .. واليقين بأن هذه الجمرة التي قد تحرق كف يدك ولسانك ، هي بذرة الحرية التي ستكون ثمارها مراكب نجاة من طوفان الاستعباد في كل الأرض .. ذلك أنه من أقاصي اليأس .. يولد دوماً منتهى الأمل .. ومقابل مجتمع العبيد، هناك مجتمع الحرية.

***



المراجع والمصادر

- القرآن الكريم .
- السنة المطهرة .

(أ)

1- أحاديث صريحة في أمريكا- أبو الحسن علي الحسني الندوي. مؤسسة الرسالة.

2- أحمد بن حنبل. عبد الحليم الجندي. دار المعارف.

3- إحياء فقه الدعوة – رؤي تخطيطية – محمد أحمد الراشد. دار الأمة للنشر والتوزيع.

4- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها- د. ماجد عرسان الكيلاني. سلسلة كتاب الأمة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

5- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق – د. أحمد محمد كنعان. سلسلة كتاب الأمة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

6- أصحاب الأخدود – رفاعي سرور – دار هادف.

7- أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية – محمد أحمد الراشد – دار المحراب

8- أعراض مصرية دراسة في أحوال المصريين المعاصرة. د حسين الشرقاوي. مكتبة مدبولي.

9- إغتيال العقل بين السلفية والتبعية – برهان غليون – المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء – المغرب.

10- آفاق جزائرية. مالك بن نبي. دار الفكر .

11- أفكار لكسر الإطار - حتى لا يبقى الحال على ما هو عليه – د. عبد الرحمن توفيق. مركز الخبرات المهنية للإدارة .

12- الإجتهاد. النص ، الواقع ، المصلحة – د. أحمد الريسوني ، أ. محمد جمال الباروت – دار الفكر . سورية .

13- الأحاديث الصحيحة. الشيخ الألباني. المكتب الإسلامي .

14- الأخوان وعبد الناصر . القصة الكاملة لتنظيم 1965 . أحمد عبد المجيد. الزهراء للإعلام العربي – القاهرة

15- الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتها عند الكوكبي والإبراهيمي . د. أسعد السحمراني . دار النفائس
16- الإسلام الديمقراطي المدني ، الشركاء والمصادر والاستراتيجيات – شاريل بينارد – تقرير صادر عن مؤسسة راند .
17- الإسلام بين الشرق والغرب – على عزت بيجوفيتش – مؤسسة بافاريا للنشر .
18- الاسلام عقيدة وشريعة. محمود شلتوت. دار الشروق.
19- الإسلام في معركة الحضارة. منير شفيق. دار القلم.
20- الإسلام وحقوق الإنسان . د. محمد عمارة . سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت .
21- الإسلاميون وسراب الديمقراطية – عبد الغني بن محمد بن إبراهيم بن عبد الكريم الرحال – مؤسسة المؤتمن للنشر والتوزيع – الرياض – السعودية.
22- الإسلام وصراع الحضارات – د. أحمد القديدي . سلسلة كتاب الأمة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .
23- الإسلام ومشكلات الحضارة – سيد قطب – دار الشروق .
24- الإسلام ومنطق القوة – محمد حسين فضل الله – دار التعارف للمطبوعات.
25- الأمة الإسلامية من التبعية إلي الريادة. د. محمد محمد بدري. دار الرسالة. مكة المكرمة .
26- الأمة والسلطة باتجاه الوعي والتغيير – إبراهيم العسعس – دار البيارق .
27- الأميركيون – ميشال جوبير – منشورات عويدات – بيروت.
28- الإهانة فى عهد الميجا إمبريالية – المهدي المنجرة – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – المغرب
29- البدائل الحقيقية – جين شارب – مؤسسة ألبرت أينشتاين .
30- البداية والنهاية – إبن كثير – دار الفكر
31- البيان – مجلة شهرية تصدر عن المنتدى الإسلامي بلندن
32- التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور – د . مصطفى حجازي – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – المغرب .
33- التصور السياسي للحركة الإسلامية – رفاعي سرور – دار الفرقان – مصر .

34- التعبير عن الرأي ، ضوابطه ومجالاته فى الشريعة الإسلامية – رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه فى الفقه – خالد بن عبد الله بن دايل الشمراني – جامعة أم القرى .

35- التنمية حرية – أمارتيا صن – ترجمة : شوقي جلال – سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت .

36- الثورة الإيرانية ، الجذور الأيديولوجية .د. إبراهيم الدسوقي شتا .دار الوطن العربي .بيروت.

37- الجهاد الأفغاني ودلالاته – محمد قطب – مؤسسة المدينة – جدة.

38- الجهاد في سبيل الله .أبو الأعلي المودودي .مؤسسة الرسالة .

39- الحريات العامة في الدولة الإسلامية .راشد الغنوش . مركز دراسات الوحدة العربية.

40- الحرية – د.أحمد زكي .كتاب العربي .

41- الحرية أو الطوفان – د. حاكم المطيري – المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

42- الحرية في الإسلام .الضرورة المحظورة .نشأت جعفر .بدون

43- الحرية فى الإسلام – محمد الخضر حسين – الدار الحسينية للكتاب ..

44- الحرية في الإسلام أصالتها وأصولها - د. أحمد الريسوني .المعهد العالي للفكر الإسلامي

45- الحرية والثقافة – جون ديوي – ترجمة . أمين مرسي قنديل – مطبعة التحرير – القاهرة .

46- الحسبة .ابن تيمية .دار ابن حزم .

47- الحق المر – محمد الغزالي – دار نهضة مصر – القاهرة .

48- الحكمة .د.ناصر بن سليمان العمر .دار الوطن .

49- الحكمة – الأمثال – الأغاني .القراءات .الأفلام .المسلسلات .الخصائص" (دراسة نفسية ميدانية) د. محمد حسن غانم المكتبة المصرية .

50- الذاكرة التاريخية .نحو وعي إستراتيجي بالتاريخ .د.جاسم محمد سلطان، سلسلة أدوات القادة –مؤسسة أم القري .

51- الرائد .مجلة تصدر عن الدار الإسلامية للإعلام .

52- السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – دار الشروق

53- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية .د. عبد الكريم زيدان .مؤسسة الرسالة .

54- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك – د. شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع .
55- السيرة النبوية. أبو الحسن الندوي. الدار الشامية .
56- الشخصية الإسرائيلية – د. حسن ظاظا – دار القلم – دمشق
57- الشخصية الأمريكية – د . باسم خفاجي – المركز العربي للدراسات الإنسانية .
58- الشخصية المصرية. د. محمد عبد الفتاح المهدي. البيطاش سنتر للنشر والتوزيع ..
59- الشخصية المصرية " التطور النفسي في خمسين قرناً " . د. رفيق حبيب. مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر .
60- الشخصية المصرية (تحديات الحاضر والمستقبل المنظور) . د. سامية خضر صالح. الهيئة المصرية العامة للكتاب. .
61- الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية .د. عزة علي عزت. كتاب الهلال .
62- الصحوة. النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية – ديفيد ديوك – دار الفكر – دمشق .
63- الصحوة الإسلامية الدوافع والعوائق. د.محمد المهدي. دار الوفاء. مصر .
64- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. مالك بن نبي. دار الفكر سورية .
65- الصراع بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي. محمد قطب. مكتبة السنة بالقاهرة.
66- الطاغية. د . إمام عبد الفتاح إمام. سلسلة عالم المعرفة. يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .
67- الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري. أنموذج مالك بن نبي. بدران بن مسعود بن الحسن – سلسلة كتاب الأمة – وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر .
68- العبودية المختارة .. هل عبوديتنا كانت باختيارنا ؟ . أتين دى لابوسيه .مركز العلم والسلام .
69- العدل فريضة إسلامية ، والحرية ضرورة إنسانية – د. أسعد السِحمراني – دار النفائس بيروت.
70- العربي – مجلة تصدر عن وزارة الإعلام في دولة الكويت .
71- العقل الأمريكي يفكر : من الحرية الفردية إلي مسخ الكائنات . شوقي جلال . مشروع الكتاب الإلكتروني .
72- العقيدة وأثرها فى بناء الجيل – عبد الله عزام.

73- العلمانية نشأتها وتطورها وأثرها فى الحياة الإسلامية المعاصرة – سفر بن عبد الرحمن الحوالي – مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي – جامعة الملك عبد العزيز
74- الغزو الفكري – محمد جلال كشك – المختار الإسلامي .
75- ألف باء الإسلام – أبو الأعلى المودودي – مكتبة التراث الإسلامي .
76- الفساد – بير لاكوم – ترجمة . سوزان خليل – عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية .
77- الفساد والحكم الصالح فى البلاد العربية – مركز دراسات الوحدة العربية .
78- الفكر الاستراتيجي - و الخروج من المأزق الراهن – د. جاسم محمد سلطان - سلسلة أدوات القادة. مؤسسة أم القري .
79- الفكر العربي وسسيولوجيا الفشل .شوقي جلال. مكتبة مدبولي .
80- الفوائد – إبن القيم – مكتبة الصفا .
81- القضايا الكبرى. مالك بن نبي. دار الفكر.
82- اللمسة الإنسانية " لمحات في فن التعامل مع الأبناء " _ د. محمد محمد بدري _ دار الصفوة .
83- المجتمع المصري جذوره وآفاقه. سيد قطب. إعداد وتقديم : ألان روسيون. سينا للنشر.
84- المجهول – الكسيل كاريل – مكتبة المعارف – بيروت.
85- المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة – د . عبد الكريم زيدان – مؤسسة الرسالة – بيروت.
86- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – دار المعرفة.
87- المعلمون بناة ثقافة – رسائل إلى الذين يتجاسرون على اتخاذ التدريس مهنة – باولو فريري – ترجمة د. حامد عمار – مكتبة الأسرة .
88- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية – بن زغيبة عز الدين – دار الصفوة – الغردقة .
89- النبي والفرعون – تأليف : جيلز كيبل – ترجمة : أحمد خضر – مكتبة مدبولي .
90- النظم السياسية والقانون الدستوري. د. سليمان الطماوي. دار الفكر العربي – مصر .
91- النفس المفككة ، سيكلوجية السياسة الأمريكية. د. محمد أحمد النابلسي. مركز الدراسات النفسية. لبنان .
92- النفس المغلولة. سيكولوجية السياسة الاسرائيلية. د. محمد أحمد النابلسي. مركز الدراسات النفسية. لبنان .

93- الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية . دراسة منهجية في النظرية السياسية الإسلامية . حامد عبد الماجد قويسى . دار الطباعة والنشر الإسلامية ..

94- اليهودي العالمي. الملياردير الأمريكي : هنري فورد . أعد الطبعة الإنجليزية : جيرالد 0 ل 0 ك 0 سميث. ترجمة :علي الجوهري. تعليق : هشام عواض. دار الفضيلة .

95- أم القري . الكواكبي . دار الرائد العربي .

(ب)

96- بحوث في التربية الإسلامية . د.محمود السيد سلطان. مؤسسة علي جراح الصباح . الكويت.

97- بنو إسرائيل فى القرآن الكريم – د . محمد عبد السلام أبو النيل – دار الفكر الإسلامي – مدينة نصر .

98- بيت الدعوة – رفاعي سرور – دار هادف.

99- بين الرشاد والتيه – مالك بن نبي – دار الفكر – دمشق.

(ت)

100- تأصيل فقه الأولويات . دراسة مقاصدية تحليلية – د.محمد همّام عبد الرحيم ملحم – دار العلوم الأردن.

101- تأملات . مالك بن نبي . دار الفكر . دمشق.

102- تأملات إيمانية في سورة يوسف . ياسر برهامي . دار الخلفاء الراشدين . الإسكندرية.

103- تربية الحرية – الأخلاق ، الديمقراطية ، الشجاعة المدنية – باولو فريري – ترجمة : د . أحمد عطية أحمد – الدار المصرية اللبنانية .

104- تربية القلب في مواجهة الليبرالية الجديدة – تأليف : باولو فريري – ترجمة : سامي محمد نصار – الدار المصرية اللبنانية ..

105- تسعة من عشرة . د. أحمد خيري العمري . دار الفكر. دمشق .

106- تفسير المنار . محمد رشيد رضا . دار إحياء التراث العربي.

(ث)

107- ثغرة في الطريق المسدود . دراسة في البعث الحضاري . د. سيد دسوقي حسن ، د. محمود محمد سفر . دار آفاق الغد.

108- ثقافة التحايل – دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى – هناء الجوهري – مركز البحوث والدراسات الاجتماعية – كلية الآداب – جامعة القاهرة

(ج)

109- جامع البيان في تفسير القرآن. محمد بن جرير الطبري. مؤسسة الرسالة.

110- جاهلية القرن العشرين – محمد قطب – دار الشروق.

111- جذور الاستبداد – قراءة فى أدب قديم – د. عبد الغفار مكاوي. سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت .

112- جذور التسلط وآفاق الحرية – د .حسن حنفي – مكتبة الشروق الدولية – القاهرة.

(ح)

113- حتى يغيّروا ما بأنفسهم – جودت سعيد – دار الفكر. دمشق .

114- حراس السلطة . أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية عدسات الميديا - دافيد إدواردز ، دافيد كروميل ترجمة : آمال كيلاني - مكتبة الشروق الدولية .

115- حركة النفس الزكية – محمد العبدة – دار الأرقم – الكويت ..

116- حرية الرأي من منظور إسلامي. عبد المجيد النجار. المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

117- حفارو القبور – نداء جديد إلى الأحياء – غارودي – منشورات عويدات – بيروت.

118- حق الحرية في العالم – د .وهبة الزحيلي – دار الفكر – دمشق – دار الفكر المعاصر – لبنان .

119- حكم النبي محمد – تولستوي – دراسة وتقديم وتعليق : د. محمود النجيري – مكتبة النافذة – القاهرة ..

120- حول فكر مالك بن نبي. عمر كامل مسقاوي. دار الفكر. دمشق .

(خ)

121- خصيصاً للحمير. عزيز نيسين. دار علاء الدين. سورية .

122- خطابات إلي الأمة والقيادة .دور المفكر السياسي ومسئوليته المجتمعية . د. حامد عبد الله ربيع مكتبة الشروق الدولية .

123- خطوة نحو التفكير القويم. ثلاثون ملمحاً في أخطاء التفكير وعيوبه . د. عبد الكريم بكار . دار الأعلام .

(د)

124- دراسة فى البناء الحضاري. د. محمود سفر. سلسلة كتاب الأمة. يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

125- دراسات إسلامية. سيد قطب. دار الشروق .

126- دروس تربوية من القرآن الكريم. محمد قطب .دار الشروق.

127- دروس من محنة البوسنة والهرسك – محمد قطب – دار الشروق.

128- دليل التدريب القيادي – هشام الطالب - المعهد العالمي للفكر الإسلامي – هيرندن / فيرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية.

129- دور القوة في الكفاح اللا عنيف. د . جين شارب. مؤسسة ألبرت اينشتاين. بوسطن .

130- دور المفكر السياسي ومسئوليته المجتمعية. د. حامد عبد الله ربيع. مكتبة الشروق الدولية .

131- دولة الفكرة – محمد فتحي عثمان – دار القلم.

132- ديوان محمد إقبال . الأعمال الكاملة . إعداد سيد عبد الماجد الغوري . دار ابن كثير . دمشق ، بيروت.

133- ديوان هاشم الرفاعي. تحقيق عبد الرحيم الرفاعي. مكتبة الإيمان .

(ر)

134- ركائز الإيمان – محمد قطب – دار الشروق.

(س)

135- سنن أبى داود. سليمان بن داود الأشعث. دار إحياء التراث .

136- سنن الترمذي. تحقيق أحمد شاكر وآخرين – دار إحياء التراث .

137- سنن النسائي – ترقيم أبى غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية .

138- سيكولوجية الدين والتدين. د. محمد بد الفتاح المهدي. البيطاش سنتر للنشر والتوزيع .

(ش)

139- شخصيات إسلامية معاصرة. إبراهيم البعثي. دار الشعب. القاهرة .

140- شخصية مصر – د. جمال حمدان – مكتبة الأسرة .

141- شروط النهضة – مالك بن نبي – دار الفكر. دمشق .

(ص)

142- صحيح البخاري. للإمام . محمد بن إسماعيل البخاري – دار ابن كثير.

143- صحيح الجامع الصغير. السيوطي. تحقيق الألباني. المكتب الإسلامي .

144- صحيح مسلم. للإمام . مسلم بن الحجاج. دار إحياء التراث . مصر.

145- صناعة النجاح. فيصل عمر باشراحيل. دار الأندلس الخضراء .

(ط)

146- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . الكواكبي. دار النفائس .

147- طبيعة الحرية. د. عزت قرني. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

148- طريق الدعوة فى ظلال القرآن . أحمد فائز . دار الشروق .

(ظ)

149- ظاهرة المحنة. محاولة لدراسة سننيَّة. د. خالص جلبي. دار القلم – الكويت .

(ع)

150- عش هانئاً – د. عبد الكريم بكّار – مكتبة تهامة .

151- عصرنا والعيش في زماننا الصعب. د. عبد الكريم بكار. دار القلم. دمشق.

152- علم النفس السياسي. رؤية مصرية عربية – د. محمد المهدي - مكتبة الأنجلو المصرية .

153- عندما ترعى الذئاب الغنم – رفاعي سرور – دار هادف.

154- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي. شوقي أبو خليل. دار الفكر .سورية.

(ف)

155- فتح الباري شرح صحيح البخاري. الحافظ بن حجر العسقلاني. دار الفكر

156- فقدان التوازن الاجتماعي – ليلي سعيد – دار الفكر – دمشق.

157- فقه الدعوة ملامح وآفاق– عمر عبيد حسنة . سلسلة كتاب الأمة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

158- فقه السيرة – محمد الغزالي – دار الكتب الحديثة – مصر .

159- فكرة الأفروأسيوية. مالك بن نبي. دار الفكر .

160- فلسفة التاريخ . الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ . د. جاسم محمد سلطان . سلسلة أدوات القادة .مؤسسة أم القرى .

161- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر. د. سليمان الخطيب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

162- في الصراع والتدافع الحضاري. د. جاسم محمد سلطان. سلسلة أدوات القادة. مؤسسة أم القري.

163- فى التاريخ فكرة ومنهاج. سيد قطب – دار الشروق.

164- في النقد الذاتي. خالص جلبي. مؤسسة الرسالة. بيروت.

165- في سبيل شباب مسلم متحرر – أحمد راتب عرموش – دار النفائس.

166- فى ظلال القرآن – دراسة وتقويم – د. صلاح عبد الفتاح الخالدي – دار المنارة – جدة – السعودية.

167- فى فقه التدين. د . عبدالمجيد النجار. مركز البحوث والمعلومات – قطر .

(ق)

168- قلت لحماري – د. محمد سعيد التركي – الناشر : محمد التركي – السعودية .

169- قواعد في الممارسة السياسية. د. جاسم محمد سلطان. سلسلة أدوات القادة. مؤسسة أم القري.

170- قوانين النهضة. القواعد الإستراتيجية. في الصراع و التدافع الحضاري – د. جاسم محمد سلطان. سلسلة أدوات القادة .مؤسسة أم القرى .

(ك)

171- كفاح اللاعنف. وسيلة فعالة للعمل السياسي – مقابلة مع جين شارب – أجراها عفيف صافية. الباحث لدى مركز جامعة هارفارد للشئون الدولية .

172- كيف تغير ذاتك وتصبح الإنسان الذي تتمني. ستيف أندرياس . مكتبة جرير .

173- كيف ندعو الناس. محمد قطب . دار الشروق .

174- كيف نفكّر إستراتيجياً – د. فوزى محمد طايل – مركز الإعلام العربي .

175- كيف نفهم الإسلام – فريتجوف شيون – ترجمة د. عفيف دمشقية – دار الآداب – بيروت .

(ل)

176- لا تتسرع بالحلول. ويليام ب. روس. مكتبة العبيكان.

177- لا سكوت بعد اليوم. بول فندلي. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت ..

178- لماذا أعدموني. سيد قطب. الدار السعودية للنشر .

179- لمحات فى فن القيادة. ج . كورتوا – تعريب المقدم. الهيثم الأيوبي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.

(م)

180- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. أبو الحسن الندوي. دار القلم. الكويت.

181- مجموعة رسائل حسن البنا. حسن البنا. المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر. بيروت

182- مدارج السالكين. ابن القيم. دار التراث العربي .

183- مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي . د. حامد عبد الله ربيع . مكتبة الشروق الدولية.

184- مراجعات فى الفكر والدعوة والحركة. عمر عبيد حسنة. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

185- مسائل فكرية وفقهية. هشام البدرانى. دار البيارق.

186- مسند الإمام أحمد. أحمد بن حنبل. دار إحياء التراث. مصر.

187- مشكلة الأفكار – مالك بن نبي – دار الفكر – دمشق .

188- مشكلة الثقافة. مالك بن نبي. دار الفكر. دمشق .

189- مطارحات مكيافيللي – نيقولو مكيافيللي – تعريب خيري حماد – دار الآفاق الحديثة – بيروت .

190- مع سيد قطب فى فكره السياسي والديني – د .مهدي فضل الله – مؤسسة الرسالة .

191- معركة التقاليد – محمد قطب – دار الشروق.

192- مفاهيم قرآنية فى البناء والتنمية – د. عبد الكريم بكّار – الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن بجده .

193- مفاهيم ينبغي أن تصحح . محمد قطب . دار الشروق .

194- مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي . د. عبد الله الغذّامي . مركز الإنماء الحضاري . سوريا .

195- مقدمات في البعث الحضاري. د. سيد دسوقي حسن . دار القلم .

196- مقدمة ابن خلدون . عبد الرحمن ابن خلدون . مكتبة لبنان .

197- مقدمة فى أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم – محمد العبدة – دار الأرقم – الكويت .

198- مقدمة في نظرية الرأي العام. د. حامد عبد الله ربيع . مكتبة الشروق الدولية .

199- مقومات التصور الإسلامي .سيد قطب . دار الشروق .

200- مقومات الشخصية المسلمة . د. ماجد عرسان الكيلاني . سلسلة كتاب الأمة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

201- مكانة التربية . محمد قطب . دار الشروق.

202- من أجل التغيير – مالك بن نبي – دار الفكر – دمشق .

203- من الدكتاتورية إلى الديمقراطية – إطار تصوري للتحرر – جين شارب – مؤسسة ألبرت أينشتين ..

204- من الصحوة إلي اليقظة . استراتيجية الإدراك للحراك . د.جاسم محمد سلطان سلسلة أدوات القادة . مؤسسة أم القري.

205- من نيويورك إلي كابول . كلام في السياسة . محمد حسنين هيكل .دار الشروق .

206- منهج الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية – علي بن جابر الحربي – الزهراء للإعلام العربي – القاهرة.

207- منهجية الدعوة التربوية . محمد أحمد الراشد . دار المحراب .

208- ميلاد مجتمع – مالك بن نبي – دار الفكر – دمشق.

مواقع الشبكة العنكبوتية "الإنترنت" :

209- المنتدي الحضاري *www.muntadana.com* .

210- موقع االإسلام اليوم *www.islamtoday. net* .

211- موقع البينة *www.albainah.net* .

212- موقع التغيير *www.altaghyeer.com* .

213- موقع الشيخ محمد الغزالي *www.alghazaly.org* .

214- موقع الكتاب العربي الإلكتروني *www.arabicebook.com* .

215- موقع المختصر *www.almokhtsar.com*

216- موقع أنا المسلم *www.muslm.net/* .

217- موقع جريدة الأهرام *www.ahram.org.eg* .

218- موقع جريدة الصباح *www.alsabaah.com* .

219- موقع جودت سعيد *www. jawdatsaid.net* .

220- موقع د. حاكم المطيري *www.dr-hakem.org*

221- موقع د. عبد الله النفيسي *www.alnefisi.com*

222- موقع شبكة المشكاة الإسلامية *meshkat.net*

223- موقع مجلة الرائد *www.alraid.net*

224- موقع مفكرة الإسلام *www.islammemo.cc*

225- موقع مجلة العصر *www.alasr.ws*

226- موقع يا له من دين *www.denana.com*

(ن)

227- نحن والحضارة والشهود– د. نعمان عبد الرزاق السامرائي – سلسلة كتاب الأمة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

228- نحو كوكب الحرية – محمود حكيمي – نقلها للعربية : عثمان أيزديناه – مكتبة العبيكان .

229- نظام الشورى فى الإسلام ونظم الديمقراطية المعاصرة . د. زكريا عبد المنعم الخطيب .

230- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي – عمر عبيد حسنة – سلسلة كتاب الأمة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت .

(هـ)

231- هذا الدين – سيد قطب – دار الشروق .

232- هروبي إلى الحرية – علي عزت بيجوفيتش . دار الفكر المعاصر – بيروت . دار الفكر – دمشق .

233- هلم نخرج من ظلمات التيه . محمد قطب . دار الشروق.

234- هيمنة الإعلام – الإنجازات المذهلة للدعاية – نعوم تشومسكي – ترجمة : إبراهيم يحيى الشهابي – دار الفكر . دمشق .

(و)

235- واقعنا المعاصر – محمد قطب – مؤسسة المدينة – جدة .

236- وجهة العالم الإسلامي . مالك بن نبي . ترجمة عبد الصبور شاهين . دار الفكر .

***